ما هو الماذا

رواية

دايف إيغرز

ترجمة: خالد الجبيلي

ما هو الـ «ماذا»

الكتاب: ما هو الـ «ماذا»

المؤلف: دايف إيقرز

ترجمة: خالد الجبيلي

التصنيف: رواية

الناشر: دار مدارك للنشر

الطبعة الأولى: سبتمبر ٢٠١٩

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: ٩ - ٨٢٩ - ٤٢٩ - ٦١٤ - ٩٧٨

WHAT IS THE WHAT

Copyright © 2006, Dave Eggers

All rights reserved

الرياض:

7917 شارع التخصصي ، حي النخيل، الرياض، المملكة العربية السعودية

7917 Takhassusi St, Al-Nakheel District , Riyadh, Saudi Arabia

Zip Coed: 12383-4284, Riyadh, Saudi Arabia. Tel: +966 114541148

بيروت:

فرن الشباك، الطريق العام، سنتر غاريوس، بيروت-لبنان
P.O.Box: 50074, Forn Elchebbak, Lebanon.

دبي:

مجمع إعمار للأعمال، شارع الشيخ زايد، دبي- الإمارات العربية المتحدة
P.O.Box: 333577, Dubai, UAE. Tel: +971 4 380 4774, Fax: +971 4 380 5977

جميع حقوق الطبع وإعادة الطبع والنشر والتوزيع محفوظة لـ **مدارك**. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من **مدارك**.

mdrek.com read@mdrek.com DarMadarek

"مزون" ... خطوة إنتاج مواد مترجمة تقدمها مدارك
بجهود الزملاء، سد خلال الناشر، الذي اختار أن يكون
الدعم والجهد، هدية لأمه؛ مزنة رحمها الله، حيث كانت تتأمل
كالسحابة، وتغيث كالمطر، وتحب العلم بشغف.

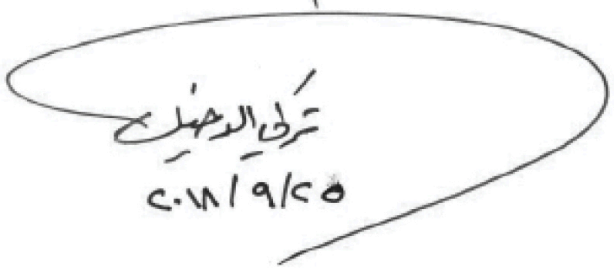

الفهرس

في مديح رواية دايف إيقرز ما هو الـ «ماذا» ٧

مقدمة ١٣

الكتاب الأول ١٧

الكتاب الثاني ٢٩٨

الكتاب الثالث ٤٦٢

passion ٥١٤

كلمة ختامية بقلم نيكولاس د. كريستوف ٦٧١

الشكر ٦٧٧

عن فالانتينو أتشاك دنغ ٦٨٠

عن دايف إيقرز ٦٨١

أعمال دايف إيقرز ٦٨٢

في مديح رواية دايف إيقرز ما هو الـ «ماذا»

« بلا أدنى شك، فإن رواية ما هو الـ «ماذا» للروائي دايف إيقرز، هو الكتاب الوحيد، غير العادي، والمحفّز على التفكير، الذي قرأته منذ سنوات... وهو مكتوب بأسلوب جميل يستكشف أعمق جوانب الحياة الإنسانية برمتها: الحزن، وجود اللّه، الغربة، الخير والشر، الحبّ، الصداقة».

USA Today-

«كتاب بكلّ هذه المخيّلة الجامحة، وهذه الشمولية، والأهم من كلّ ذلك، كلّ هذه القوّة العاطفية التي تجعل منها ملحمة... تتخلله ومضات من الدعابة والحكمة والسحر... ولم يحدد إيقرز معالم المأساة في شرق أفريقيا - التي لا يعرفها الكثير من الأمريكيين - بحدّة ووضوح فحسب، وإنما حدد معالم لا يمكن نسيانها بسهولة. شهادة بليغة تؤكد على قوّة الفن الروائي... إنه عمل استثنائي للشاهد وللفنّ».

- فرانسين بروز، The New York Times Book Review

«رواية ترد فيها كلّ عبارة بدقّة مدهشة وكاشفة، وتسرد مواضيع القصّة على نحو مرض مثل سمفونية هائلة... عمل رائع يجمع بين العاطفة والمخيّلة الشاعرية... بمزيجها الفذّ بين الملحمة الرائعة واللحظات الحميمة الصغيرة، وتأتي في مصاف أفضل أعمال تشينوا أتشيب، وعاموس توتوولا وبن أوكري».

Seattle Times -

«ملحمة عميقة تصف بالتفصيل وبشكل رائع رحلة شاملة -تجربة عظيمة في القراءة تجعل القارئ يشعر بأنه أصبح شخص آخر بعد قراءتها ... وبأسلوبه الأدبي الفذّ الذي يتكلّم بصوت دنغ، صوّر لنا إيقرز ودنغ ذلك العالم المرعب الذي شهدته الحرب الأهلية السودانية التي عانى منها الكثيرون ولم ينج منها

إلاّ عدد قليل من البشر. وفي النهاية، إنه عمل يصوّر صدمة نفسية عميقة، وانتصاراً رائعاً مستحيلاً».

Scotland Sunday -

«تمكّن إيقرز من نقل صوت دنغ، وإبراز نقاط حياته المثيرة والمتناقضة أحياناً... لقد كتب إيقرز رواية مليئة بالأشياء المرعبة والجميلة التي يمكن أن تغّير مسار حياة المرء. اقرؤوا هذا الكتاب».

The Portland -

«مؤلمة ورائعة... ومذهلة. ما هو الـ «ماذا» تصوير فذّ لشخصية ترغمنا على أن نتفحص عالمنا وأنفسنا».

New York magazine -

«في بعض الأحيان يكون صوت دنغ شاعرياً جميلاً، وفي أحيان أخرى يكون مضحكاً وملاحظاً دقيقاً لنقاط الضعف والإخفاقات في الحياة الأمريكية - إنه صوت جاء ليبقى... في هذه الرواية الرائعة، التي تبرز أحاسيس مرهفة، وحكم كثيرة، أبرز لنا دايف إيقرز ألم ومعناة الصبي، وهو ألم قديم بقدم العالم وبارز كالصباح».

(Times-Picayune) New Orleans -

«قدّم لنا دايف إيقرز هجيناً نادراً: رواية سياسية إلى حدّ كبير تعقّد رؤيتها الأخلاقيّة لكن بدون استسلام... وجرأة الأمل... إنها قصّة مؤثرة، بسيطة، عن لاجئ سوداني حقيقي في صراع مع عالم لا يرحم».

(The News & Observer) Raleigh -

«مليئة بالتفاصيل اليومية، يركّز الكتاب على التصميم القوي من أجل التشبث بالحياة حتى تنتصر في أفظع الظروف. وفي خضم المعاناة والحرمان في المخيّمات، يوجد أيضاً لعب وصداقات، بل وحتى رومانسية شديدة. إن قدرة دنغ الواقعية على التكيّف يزيل الإحساس بالكآبة. فالأمل قوي دائماً. إن ما هو الـ «ماذا» تزيل الغشاء الذي يفصل بين العالم الأول والعالم الثالث. فلا توجد هنا مسافة مريحة، آمنة، ولا الشعور بـ نحن و هم. أما في هذه الصفحات فلا يوجد إلاّ نحن. نحن المأساوية، المتوحشة، الجاهلة، المتواطئة، الجميلة».

Sydney Morning Herald -

«لا يمكن إنكار قوّة هذا الكتاب الجديد. متخذاً صوت دنغ، بنى إيقرز تاريخاً إنسانياً قوياً للمأساة السودانية، تاريخاً لا يخجل من ذكر الوحشية ولا يستغلّها... ويبدو إيقرز متعاطفاً وحساساً كما يمكن للمؤلفين أن يكونوا، وله أسلوب مميز في كتابة كلّ جملة على حدة تبدو كأنها كتاب كامل.

Time Out Chicago -

«أنجز ديف إيقرز عملاً عظيماً في هذا الكتاب. فقد تمكّن من اجتياز الكثير من الحواجز، الحقيقية منها والاصطناعية، لرواية قصّة مأساة شاب وانتصاره بطريقة تؤكّد إنسانيته البسيطة على مأساة حالته الفظيعة. إنه كتاب يؤكد على أنه لا يوجد ثمة سبب يدعو إلى كلّ هذه الانقسامات الجغرافية والثقافية التي تمنعنا من محاولة أن يفهم أحدنا الآخر كمواطنين في هذا العالم.

- أوزودينما إويلا، مؤلف كتاب «وحوش لا أمّة».

«مع أنها مليئة بصور البؤس، فإنها غزيرة أيضاً بتفاصيل حادّة وشخصيات مرسومة بشكل رائع... فهناك قصّة حبّ، وجرعة منشطة من خفة الظل

والمرح، والكثير من الصور المؤلمة لما تسببه الحرب للروح الإنسانية.

Salon -

«كمقدّمة عاطفية حول تاريخ السودان الحديث، والقتال بين الشمال والجنوب، والحكومة والمتمردين، والعرب والدينكا، والمرحلّين، وجيش التحرير الشعبي السوداني، لا يمكن أن يكون التكلّم باسم شخص آخر أفضل من هذا. فهو يجعل أتشاك صوتاً حقيقياً ومؤثّراً في أكثر القصص حزناً وكآبة في عصرنا».

- الأوبزيرفر (لندن)

«ما هو الـ «ماذا» رواية تمتلك أفضل خصائص فيلم وثائقي: الإيمان الراسخ بالصدق، والتذكير المستمر بتعسّف القدر، بغض النظر عن نتيجة ذلك. إن جعل قصّته تدور حول الإبادة والبقاء في أفريقيا هي أيضاً قصّة حول الهجرة إلى أمريكا، ويكفل إيقرز بأنها تخصنا جميعاً، كما يجب أن تكون».

- فيليب غووريفيتش، مؤلف كتاب «نريد أن نعلمكم بأننا سنُقتل غداً على أيدي عائلاتنا: قصص من راوندا».

«مع أنّ موضوع الهجرة قد يكون قديماً بقدم الأدب العالمي نفسه، فإن ذلك لا يجعل من ما هو الـ «ماذا» ملحمة كتبت بالأسلوب القديم. بل على العكس: فهي ملحمة معاصرة جداً، مزيج من القصة الخيالية والقصة الواقعية التي تُحدّثنا عن الحقيقة العاطفية التي تكمن وراء قصّة. إنها في الوقت نفسه قصة محليّة وعالمية، أدبية وإنسانية، إنها المثالية العملية في شكل خمسمائة صفحة مليئة بالرعاية الحقيقية لمصير الآخر. شخص يحكي قصّته كما لو أنّ حياته تتوقف عليها، وهي كذلك. والنتيجة هي رواية بصوت لا يمكنك أن تتجاهله».

NRC Handelsblad (Holland) -

«مدهشة وأصلية... إن العمل الذي قام به إيقرز ودنغ عمل في غاية الأهمية من الناحية التاريخية، وهو ساخر أحياناً، لكنه في معظم الأحيان نظرة حزينة إلى حياة لا يتمناها معظمنا لأسوأ أعدائهم».

The Wichita Eagle -

«إني على تواصل مع «أطفال السودان الضائعين» منذ أواخر ثمانينات القرن العشرين، منذ وصول أولى دفعات المشردين السودانيين إلى الولايات المتّحدة. وكنت أظن أنّني سمعت ورأيت كلّ شيء. لكن قراءة قصّة فالانتينو لامست العواطف الكامنة في نفسي التي لم أكن أعرف أنها موجودة لديّ. إن دايف إيقرز يحكي قصّة سودان من خلال عيني فالانتينو، لكنّه يُظهر أيضاً أفضل وأسوأ جوانب إنسانيتنا المشتركة».

- جون بريندرجاست، مجموعة الأزمات الدولية

مقدمة

إن رواية «ما هو الـ «ماذا» هي قصّة حياتي المليئة بالأحداث والأشجان: تبدأ منذ لحظة انفصالي عن عائلتي في بلدة مايال باي حتى الثلاث عشرة سنة التي أمضيتها في مخيّمات اللاجئين في إثيوبيا وكينيا، حتى أصبحت وجهاً لوجه أمام الثقافات الغربية التي تنبض بالحياة، بدأً من أتلانتا، وحتى الاستقبال الكريم والتحديات التي واجهتها في أماكن أخرى.

عندما تقرأ هذا الكتاب، ستتعرف عليّ وعلى شعبي المحبوب في السودان. كنت فتى صغيراً عندما اندلعت الحرب الأهلية التي استمرت اثنتين وعشرين سنة بين حكومة السودان والحركة الشعبية/الجيش الشعبي لتحرير السودان. وبما أنني شخص لا حول لي ولا قوة، نجوت من الموت خلال مسيرتي الطويلة والشاقة في مناطق شديدة القسوة تعرضت فيها إلى قصف الطائرات التابعة للقوى الجوية السودانية، والألغام الأرضية، وكدت أكون فريسة للوحوش البرّية المفترسة والقتلة من البشر. وخلال تلك الرحلة القاسية، كنت أقتات على ثمار وأوراق أشجار لا أعرف ما هي، وفي أحيان كثيرة أمضيت أياماً من دون أن آكل شيئاً. وفي معظم الأحيان، كان الوضع لا يُطاق، وخيّل إليّ أنّ العالم بأجمعه قد أغمض عينيه عن المصير الذي حلّ بي وبسكان جنوب السودان. ولم ينج عدد كبير من أصدقائي، وآلاف من أبناء جلدتي. تغمدهم الله برحمته.

بدأ هذا الكتاب كجزء من محاولاتي الحثيثة لأروي قصتي للآخرين في مناسبات عامة. فقد حكيتُ قصّتي للكثير من الأشخاص، لكنّي أردت أن يعرف العالم حقيقة وجودي كلّها. وفي خريف عام ٢٠٠٣، حكيت قصتي لماري وليامز، المرأة التي أسست «مؤسسة أطفال السودان الضائعين» في أتلانتا، لكن بالرغم من الفرص التي أتيحت لي للتحدّث عنها أمام الجمهور، فقد أردت أن تصل إلى أكبر شريحة من القراء من خلال روايتها في كتاب. وبما أنني لست كاتباً، فقد طلبتُ من السيدة ماري أن تعرّفني على كاتب يمكنه أن يكتب سيرتي الذاتية، فاتّصلت ماري بدايف إيقرز، وأحمد الله لأنني تمكّنت من لقاء دايف وتوطدت أواصر الصداقة بيننا، واتفقنا على أن تذهب إيرادات المؤلف من الكتاب إليّ للمساهمة في تحسين حياة السودانيين سواء أكانوا في السودان أم في أماكن أخرى.

وهكذا تعاونت مع دايف لسنوات عديدة، في رواية قصّتي بالتسجيل على شريط، وبالرسائل الإلكترونية، والمكالمات الهاتفية، ومن خلال اللقاءات

والزيارات الشخصية العديدة، حتى آننا سافرنا معاً إلى السودان في كانون الأول (ديسمبر) ٢٠٠٣، وتمكّنتُ من زيارة البلدة التي كنت قد غادرتها وأنا لم أتجاوز السابعة من عمري للمرة الثانية. وحكيتُ لدايف كلّ ما أعرفه وما استطعت أن أتذكّره، وقام بكتابة هذا العمل الفني مما رويته له.

ويجدر التنويه إلى أنّني كنت صغيراً عندما وقعت بعض الأحداث الواردة في هذا الكتاب، ولهذا السبب فقد اعتبرنا «ما هو الـ «ماذ» رواية. فلم أستطع مثلاً أن أروي بعض الأحاديث والمناقشات التي دارت قبل سبع عشرة سنة، لكن ينبغي التنويه إلى أن جميع الأحداث الرئيسية المذكورة في هذا الكتاب هي أحداث حقيقية وقعت بالفعل، وأن المعلومات الواردة فيه دقيقة من الناحية التاريخية، وأن العالم الذي عرفته آنذاك لا يختلف عن العالم الذي يظهر على صفحات هذا الكتاب. فنحن نعيش في زمن يمكن أن تحدث فيه الأحداث المروعة المذكورة هنا، وقد حدثت بالفعل في معظم الحالات. فعلى سبيل المثال لقي أكثر من مليونيْ ونصف مليون شخص حتفهم في الفترة بين ١٦ أيار (مايو) ١٩٨٣ و ٩ كانون الثاني (يناير) ٢٠٠٥ نتيجة الحرب الطاحنة أو لأسباب ترتبط بالحرب في السودان، وشُرِّد داخلياً في جنوب السودان أكثر من أربعة ملايين شخص ولجأ حوالي مليونيْ شخص من جنوب السودان إلى بلدان أجنبيّة.

نشأت رغبتي في كتابة هذا الكتاب من إيماني وثقتي العميقين بالإنسانية؛ فقد أردت أن أساعد الآخرين في فهم موقع السودان في مجتمعنا العالمي. وأشعر بارتياح كبير لأننا تمكنّا أنا ودايف من إنجاز هذا العمل من خلال إبراز حياتي كمثال على الأعمال الوحشية التي ارتكبتها الحكومات السودانية المتعاقبة بحق شعبها. ومع أنّ اتفاقية السلام الشاملة لعام ٢٠٠٥ أتاحت لجنوب السودان الفرصة لكي يعيد بناء نفسه - والفرصة للانفصال في عام ٢٠١١ من خلال استفتاء شعبي - فلا تزال انتهاكات جسيمة لحقوق الإنسان تُرتكب في منطقة دارفور.

تغمرني السعادة لأنني عشت لكي أقول لكم إنه حتى في أحلك ساعات حياتي، كنت أعتقد بأنني سأستطيع ذات يوم أن أشاطر الآخرين تجربتي. وهذا الكتاب شكل من أشكال الكفاح، ويجعل روحي حيّة لمواصلة النضال الذي يقوّي إيماني وأملي وثقتي بالإنسانية. وبما أننا، أنا وأنتم، موجودون، فإننا نستطيع معاً أن نحقق تأثيراً! شكراً لكم على قراءة ما هو الـ «ماذ» وأتمنى لكم يوماً مباركاً.

- فالانتينو آتشاك دنغ،

كلية أليغيني، بينسلفانيا، ٢٠٠٧

الكتاب الأول

(١)

لا يوجد لديّ سبب يجعلني لا أفتح الباب، ففتحه. لا يوجد في الباب ثقب مستدير صغير يمكنني أن أرى من خلاله الزائر، ففتحتُ الباب وظهرت أمامي امرأة أمريكية سوداء، قوية البنية، تكبرني ببضع سنوات، ترتدي بدلة رياضة حمراء من النايلون. قالت لي بصوت مرتفع: «هل عندك هاتف يا سيدي؟»

تبدو هذه المرأة مألوفة لي. أكاد أكون متأكداً من أنّني رأيتها عند موقف السيارات منذ ساعة، عندما عدت من محل البقالة. رأيتها تقف بجانب الدرج، وابتسمت لها. قلت لها نعم، عندي هاتف.

قالت: «تعطلّت سيارتي في الشارع». كان ظلام الليل خلفها يكاد أن يهبط. أمضيت معظم فترة بعد الظهر في الدراسة. سألتني،»هل تسمح لي بأن أستخدم هاتفك لأتصل بالشرطة؟»

لم أعرف لماذا تريد أن تتصل بالشرطة من أجل سيارة يجب إصلاحها، لكنّي وافقت. دخلت إلى البيت. عندما هممت بإغلاق الباب، أمسَكَته حتى يبقى مفتوحاً، وقالت: «لن أتأخر أكثر من ثانية». لا يوجد سبب معقول يجعلني أترك الباب مفتوحاً لكنّي تركته مفتوحاً لأنها أرادت ذلك. فهذا هو بلدها، ولم يصبح بلدي بعد.

«أين الهاتف؟» سألتني.

قلت لها إن هاتفي الخلوي في غرفة نومي. وقبل أن أنهي جملتي، اندفعت من أمامي نحو الصالة. انطلق حفيف ضخم ثقيل من النايلون. أغلقت باب غرفتي، ثمّ سمعت صوت نقرات. دخلت إلى غرفة نومي وأغلقت على نفسها الباب. ما إن هممتُ بأن أتبعها حتى سمعتُ صوتاً ورائي.

«ابق هنا، أيها الأفريقي».

التفتُّ فرأيت رجلاً، أمريكياً أسود، يرتدي سترة بيسبول وبنطال جينز أزرق فاتحاً. لم أتبيّن وجهه جيداً من قبعة البيسبول التي يغطي بها رأسه، لكنه كان يسند يده على شيء في خصره، كما لو أنه كان يحاول أن يرفع بنطاله.

«هل أنتَ مع هذه المرأة؟» سألته. لم أفهم ما الذي يحدث بعد، وكنت غاضباً.

فقال: «اجلس فقط أيها الأفريقي»، وأومأ إلى أريكتي. وقفت وسألته، «ماذا تفعل في غرفة نومي؟»

«ضع مؤخرتك على الأريكة فقط»، قال بحقد الآن.

جلست وأراني الآن مقبض مسدسه. كان يضع يده عليه طوال الوقت. كان عليّ أن أعرف. لكنّي لم أعرف شيئاً؛ فلم أعرف قط الأشياء التي يفترض أن أعرفها. وكلّ ما عرفته الآن هو أنني سُرقت، وأنّني أريد أن أكون في مكان آخر.

أدركت أن ما يحدث ليس أمراً طبيعياً، لكن كلّ ما رحت أفكّر به في تلك اللحظة هو أنني كنت أريد أن أعود إلى كاكوما. فلا توجد في كاكوما أمطار، وتهبّ الرياح طوال تسعة أشهر في السنة، يعيش فيها ثمانون ألف لاجئ هربوا من الحرب في السودان ومن أماكن أخرى، يقتاتون على وجبة طعام واحدة في اليوم. أما الآن، في هذه اللحظة، والمرأة في غرفة نومي، والرجل يقف أمامي بمسدسه، فقد أردت أن أكون في كاكوما حيث كنت أعيش في كوخ من البلاستيك فيه أكياس رمل ولا يوجد عندي سوى بنطلون واحد. أنا متأكّد من أنه لا يوجد هذا النوع من الشرّ في مخيّم اللاجئين في كاكوما، لذلك أردت أن أعود إليه، أو حتى إلى بينيدو، مخيّم اللاجئين في إثيوبيا الذي أقمت فيه قبل كاكوما، والذي لم يكن يوجد فيه شيء، وكانوا يقدّمون لنا وجبة طعام واحدة أو وجبتين في اليوم فقط، لكن كانت فيه متعه الصغيرة. كنت صبياً صغيراً آنذاك، وكان بإمكاني أن أنسى أنّني كنت لاجئاً مصاباً بسوء التغذية، بعيداً عن بيتي حوالي ألف ميل. وإذا كان ما يحدث الآن هو عقوبة لأنني أردت أن أغادر أفريقيا، وأحلم بالدراسة في الجامعة، وأعيش في بحبوحة في أمريكا، فقد نلت عقابي وأنا أعتذر الآن. سأعود مطأطأ الرأس. لماذا ابتسمتُ لهذه المرأة؟ فأنا أبتسم للجميع بشكل عفوي، وهي عادة يجب أن أتوقف عن ممارستها. فهي تجلب لي العقاب. لقد أُهنتُ مرات عديدة منذ أن وطأت قدماي هذا البلد، فبدأت أعتقد بأنّ أحداً يريد أن يرسل لي رسالة مفادها: «اترك هذا المكان».

ما إن ينتابني هذا الشعور بالأسف والانكفاء، حتى يحلّ محله شعور بالاحتجاج. هذا الموقف الجديد هو الذي جعلني أنهض وأقول للرجل الذي يرتدي معطفاً أزرق موشى ببقع كأنها مسحوق بودرة، وقلت: «أريدكما أن تغادرا هذا المكان».

استشاط الرجل غضباً في الحال. لقد أحدثت خللاً في التوازن هنا، وضعت عقبة، صوتي، في طريق عملهما.

«هل تعلّمني ما الذي عليّ أن أفعله يا ابن الحرام؟»

حدّقتُ في عينيه الصغيرتين.

«قل لي أيها الأفريقي، هل تعلّمني ما الذي يجب أن أفعله يا ابن الحرام؟».

سمعت المرأة صوتنا فنادت من غرفة النوم: «ألن تسكته؟» كانت غاضبة من شريكها، وهو غاضب مني. أمال الرجل الذي سأطلق عليه اسم باودر رأسه نحوي ورفع حاجبيه. خطا خطوة نحوي وأشار مرة أخرى إلى المسدس في حزامه. بدا لي أنه يهم باستخدامه، لكنه أرخى كتفيه فجأة، وأحنى رأسه. راح يحدّق في حذائه ويتنفس ببطء. كان يستجمع نفسه.

عندما رفع عينيه ثانية، كان قد تمالك نفسه.

«أنت من أفريقيا، صحيح؟»

هززت رأسي.

«حسناً إذن. هذا يعني أننا إخوة».

لم أشأ أن أوافقه على رأيه.

«وبما أننا إخوة وكلّ ما هنالك، فإني سألقّنك درساً. ألا تعرف أنك يجب ألاّ تفتح باب بيتك للغرباء؟»

هذا السؤال أجفلني. فالسرقة البسيطة، على نحو ما، مقبولة. لقد رأيت سرقات، وقد سُرقت أنا نفسي، لكن بدرجات أقل من هذه بكثير. حتى وصولي إلى الولايات المتحدة، كان أثمن شيء أملكه هو المرتبة التي أنام عليها، لذلك كانت السرقات أصغر بكثير: آلة تصوير تستعمل لمرة واحدة، زوج صنادل، رزمة من ورق أبيض للطباعة على الآلة الكاتبة. كلّ هذه الأشياء كانت ثمينة، نعم، لكن لديّ حالياً جهاز تلفزيون، وجهاز فيديو، وفرن مايكرويف، وساعة منبّهة، ووسائل راحة أخرى، قدّمتها لي كنيسة بيتشتري الميثودية المتحدة هنا في أتلانتا. كان بعض تلك الأشياء مستعملاً، لكن معظمها جديدة، وقُدِّمت لي كلّها من دون ذكر أسماء من تبرعوا بها. عندما

أنظر إليها، وأستعملها في كلّ يوم، كان ذلك يبعث في جسدي قشعريرة - تعبير جسدي غريب بالامتنان، لكنه حقيقي. وأظن الآن أنّ كلّ هذه الهدايا ستُسلب مني في الدقائق القليلة القادمة. وقفت أمام باودر وبدأت ذاكرتي تبحث عن آخر مرّة شعرت فيها بأنني خُدعت، آخر مرّة أحسست فيها بأنني وقفت أمام شرّ بهذه الدرجة من اللامبالاة.

لا تزال إحدى يديه قابضة على مقبض المسدس، وضع يده الأخرى على صدري، وقال: «لماذا لا تضع مؤخرتك على الأريكة وترى كيف يجري كلّ ذلك؟»

رجعت خطوتين إلى الوراء، وجلست على الأريكة التي هي أيضاً هدية من الكنيسة. كانت قد جلبتها امرأة بيضاء، وجهها يشبه شكل تفاحة، ترتدي قميصاً موشى برسوم قبل يوم واحد من انتقالي أنا وأتشور أتشور إلى هذا البيت. واعتذرت لأنها لم تجلبها قبل وصولنا. الأشخاص الذين يأتون من الكنيسة يعتذرون كثيراً. حدّقت في باودر وعرفت بمن يذكّرني. بالجندية الإثيوبية التي أطلقت النار على صبيين كانا يرافقانني وقتلتهما، وكادت أن تقتلني أنا أيضاً. كان يشعّ من عينيها نفس البريق الوحشي، وادّعت في البداية بأنها ستنقذنا. فقد كنّا هاربين من إثيوبيا، وكان يطاردنا مئات الجنود الأثيوبيين الذين أخذوا يطلقون النار علينا، وامتلأ نهر جيلو بدمائنا، وظهرت من بين الأعشاب الطويلة. تعالوا إليّ يا أطفال! أنا أمّكم! تعالوا إليّ! لم تكن سوى وجه في العشب الرمادي، يداها ممدودتان نحونا. تردّدتُ. لكن الصبيّين اللذين كنت أجري معهما واللذين كنت قد التقيت بهما على ضفّة ذلك النهر الدامي، ذهبا إليها. وما إن اقتربا منها قليلاً، حتى رفعت بندقيّة آليّة وأطلقت النار على صدريْ الصبيين وبطنهما. سقطا أمامي، فاستدرتُ ورحتُ أجري. عد! ظلت تقول. تعال إلى أمّك!

ركضت في ذلك اليوم عبر الأعشاب حتى وجدت أتشور أتشور. ووجدت مع أتشور أتشور الطفل الهادئ فأنقذناه، ولفترة من الزمن، اعتبرنا أنفسنا شخصين طبيبين. لقد مضى على ذلك سنوات كثيرة. كنت في العاشرة، لا بل ربّما في الحادية عشرة. لا يمكنني أن أعرف بالتحديد. لكن الرجل الذي يقف أمامي، باودر، لن يعرف شيئاً من كلّ هذا. فهو لا يهتم بكل ذلك. لا أزال أتذكّر ذلك اليوم، اليوم الذي طردنا فيه من إثيوبيا إلى السودان، آلاف القتلى في النهر، اليوم الذي يمدّني بالقوّة ضدّ هذا الشخص الذي دخل شقّتي، فنهضت واقفاً مرة أخرى.

نظر إليّ الرجل، كما ينظر أب يهمّ بأن يفعل شيئاً ندم على أنّ طفله أرغمه على أن يفعله. اقترب مني كثيراً فشممت رائحة شيء كيمياوي، رائحة مادة تبييض تنبعث منه.

«هل أنت - هل أنت -؟» زمّ شفتيه وسكت. استلّ المسدس من خصره، ورفعه بحركة خلفية إلى الأعلى. برزت أمام عينيّ غشاوة سوداء، واصطكت أسناني، ورأيت السقف يهبط فوقي.

خلال حياتي، كنت قد ضُربت بوسائل عديدة مختلفة، لكنني لم أُضرب قط بفوهة مسدس. ومن حسن حظي أنني شاهدت معاناة أشدّ مما عانيت أنا بنفسي، مع أنني تضوّرت جوعاً، وضُربت بالعصي، والقضبان، والمكانس، والأحجار والرماح. وقطعت خمسة أميال على ظهر عربة محمّلة بالجثث. شاهدت الكثير من الصبية الصغار يموتون في الصحراء، بعضهم كما لو أنهم جلسوا لينام، ومات بعضهم بعد أن فقدوا صوابهم. وشاهدت ثلاثة صبية وقد التهمتهم الأسود، اختارتهم عشوائياً. رأيتهم وهم يُرفعون من أقدامهم، ويوضعون بين فكيّ الحيوان الذي التهمهم بين الأعشاب المرتفعة. كنت قريباً جداً منهم إلى درجة أنّني كنت أسمع أصوات القضم الرطبة وهي تمزّق لحمهم. لقد رأيت صديقاً عزيزاً يموت بجانبي في شاحنة مقلوبة، عيناه مفتوحتان نحوي، حياته تتسرّب من فتحة لم أتمكن من رؤيتها. وعلى الرغم من ذلك، وفي هذه اللحظة بالذات، وأنا ممدد على الأريكة ويدي مبللة بالدم، وجدت نفسي أتوق إلى أفريقيا كلّها. أتوق إلى السودان، أتوق إلى صحراء شمال غرب كينيا الرمادية التي يملؤها العواء. أتوق إلى اللا شيء الأصفر في إثيوبيا.

انحصرت رؤيتي لمهاجمي الآن في خصره ويديه. وضع المسدس في مكان ما، وأمسك بكلتا يديه بقميصي ورقبتي وألقى بي من فوق الأريكة إلى السجادة. ارتطمت مؤخرة رأسي بطرف الطاولة وأنا أهوي إلى الأرض وسقط معي كأسان وساعة منبه. عندما استلقيت على السجادة، أصبح خدي يعوم فوق بحيرة الدم الذي سال منه. شعرت براحة للحظة لأنه خيّل إليّ أنه ربما انتهى. كنت منهكاً. أحسست بأنني أستطيع أن أغمض عيني وأن كلّ شيء قد انتهى.

قال: «اخرس الآن».

لم تبدِ هذه الكلمات مقنعة، ومنحني هذا شيئاً من العزاء. أدركت أنه لم يكن غاضباً. لم يكن ينوي أن يقتلني. لعلّ هذه المرأة تتلاعب به، تلك المرأة التي لا

تزال تفتح الدروج الآن في غرفة نومي. يبدو أنها هي التي تتحكم في الأمور. إنها تركّز الآن على كلّ شيء موجود في غرفتي، وتتركز مهمة رفيقها على أن يشلّ قدرتي وحركتي. كان الأمر يبدو بسيطاً وأنه لم يكن يريد أن يؤذيني أكثر، فشعرت بالارتياح. أغمضت عينيّ واسترحت.

سئمت الحياة في هذا البلد. صحيح أنني أشعر بالامتنان له، وأنني أحببت جوانب عديدة فيه خلال السنوات الثلاث التي أمضيتها هنا، لكنني سئمت من الوعود. فقد جئت إلى هنا، وجاء أربعة آلاف منّا إلى هنا، نحلم بالهدوء المتوقّع، بالسلام والأمان والدراسة في الجامعة. كنّا نتوقّع أرضاً لا توجد فيها حرب، وكما خيّل إليّ، أرضاً لا يوجد فيها بؤس. كنّا نعيش في متاهة وقد نفد صبرنا. كنّا نريد كلّ شيء على الفور - بيت، أسرة، جامعة، إمكانية إرسال نقود إلى البلد، الحصول على شهادات عالية، وأخيراً شيء من التأثير. لكن بطء انتقالنا - فبعد خمس سنوات لا توجد لديّ الدرجات اللازمة كي أتقدّم بطلب إلى جامعة للدراسة أربع سنوات - أحدث اضطراباً بالنسبة لمعظمنا. انتظرنا عشر سنوات في كاكوما ولا أظن أننا نريد أن نبدأ من الصفر هنا. كنّا نتطّلع إلى الخطوة التالية، وبسرعة. لكن ذلك لم يحدث، ليس في معظم الأحيان، وفي غضون ذلك، وجدنا سبلاً نزجي فيها الوقت. فاشتغلت في أعمال غير هامة كثيرة، وأعمل الآن مساعداً في مكتب الاستقبال في نادٍ صحي، في أول وردية ممكنة، أستقبل أعضاء النادي وأشرح للأعضاء الذين يرغبون في الانتساب إليه المزايا والفوائد التي يمكن أن يحصلوا عليها. لم يكن عملاً عظيماً، لكنّه يمثّل مستوى من الاستقرار لا يعرفه البعض. لقد سقط كثيرون، وينتاب كثيرون آخرون الشعور بأنهم فشلوا. كانت الضغوط تجثم فوقنا، الوعود التي لا يمكن تنفيذها - هذه الأشياء حوّلت الكثير منّا إلى وحوش. وكان الشخص الوحيد الذي أحسست بأنه قادر على مساعدتي في تجاوز هذا الإحباط والرتابة، امرأة سودانية رائعة اسمها تابيثا دواني أكير.

الآن هما في المطبخ. هما الآن في غرفة أتشور أتشور. بدأت وأنا مستلق هنا بحساب ما يمكن أن يسرقاه. أدركت بشيء من الرضا بأنّ جهاز كمبيوتري موجود في سيارتي، فلن يسرقاه. لكنهما سيسرقان جهاز كمبيوتر أتشور أتشور المحمول الجديد. سيكون ذلك بسببي. فقد كان أتشور أتشور واحداً من المسؤولين عن اللاجئين الشباب هنا في أتلانتا وأخشى أن يذهب كلّ ما هو بحاجة إليه عندما يُسرق كمبيوتره. محاضر الاجتماعات والتقارير المالية وآلاف الرسائل الإلكترونية. لا يمكنني أن أدعهما يسرقان كلّ هذه الأشياء. فأنا أعيش مع أتشور أتشور منذ أن كنّا في إثيوبيا، ولا أجلب له إلاّ النحس.

في إثيوبيا حدّقت في عيني أسد. ربّما لم أكن قد تجاوزت العاشرة من عمري. فقد أُرسلت إلى الغابة لأجمع بعض الأغصان والحطب. اقترب الحيوان ببطء شديد من وراء شجرة. تسمّرت في مكاني للحظة. كانت لحظة طويلة تكفي لأن أحفظ وجهه بعينيه الكامدتين، ثم أطلقت ساقيّ للريح. أخذ يزأر خلفي، لكنه لم يجر ورائي. أحبّ أن أفكّر بأنّه وجدني خصماً منيعاً. إذاً فقد واجهت هذا الأسد، وواجهت أسلحة، مرات كثيرة، وواجهت أفراد ميليشيا عرب مسلّحين على ظهور الخيل، بأثوابهم البيضاء اللامعة تحت الشمس. لذلك بإمكاني أن أفعل ذلك، يمكنني أن أمنع حدوث هذه السرقة الصغيرة. رفعت نفسي مرة أخرى وجثوت على ركبتي.

«انزل يا ابن الحرام!»

لامس وجهي الأرضيّة مرة أخرى. بدأت الآن الركلات. فراح يركلني في بطني وعلى كتفي. كان يؤلمني أكثر من شعوري بالألم عندما تحتك عظامي بعظامي.

«ابن العاهرة النيجيري».

يبدو الآن أنه يستمتع بذلك، وهذا ما يجعلني أشعر بالقلق. فعندما يجد المرء متعة في شيء، فإنه يتمادى فيه في معظم الأحيان، وعندها تحدث أخطاء. سبع ركلات على أضلاعي، وركلة على وركي، ثم توقف ليرتاح. أخذت نفساً لأقيّم ما أصابني من أذى. لا أظن أنها كثيرة. فتكوّرت حول زاوية الأريكة، وصمّمت الآن على أن لا آتي بأي حركة. لم أكن مقاتلاً في حياتي، اعترفت لنفسي. لقد شهدت حالات ظلم كثيرة، لكني لم أقاتل رجلاً يقف أمامي قط.

«نيجيري حقير! أحمق».

كان صدره يعلو ويهبط، وقد وضع يديه على ركبتيه المثنيتين.

«لا عجب أنكم، يا أولاد الحرام، لا تزالون تعيشون في العصر الحجري».

ركلني ركلة أخرى، أخفّ من الركلات السابقة، لكن هذه الركلة أصابتني في صدغي مباشرة، فملأت كتلة من الضوء الأبيض عيني اليسرى.

في أمريكا، كانوا ينادونني بالنيجيري - لا بدّ أن نيجيريا هي أكثر بلد معروف من بين جميع البلدان الأفريقية - لكن لم يركلني أحد من قبل. لكني رأيت ذلك يحدث مرة أخرى. أظن أن هناك أساليب عنف أخرى لم أرها في السودان

وفي كينيا. فقد أمضيت عدة سنوات في مخيّم للاجئين في إثيوبيا، حيث رأيت صبيين صغيرين، ربما كانا في الثانية عشرة من عمرهما، يتعاركان بعنف شديد من أجل مخصصات الطعام، فركل أحدهما الآخر فقتله. بالطبع لم يكن الصبي ينوي أن يقتل خصمه، لكنّنا كنّا أطفالاً وضعفاء جداً. لا يمكنك أن تقاتل أحداً عندما لم تتناول قدراً كافياً من الطعام منذ أسابيع. فلم يكن جسد الفتى الذي مات مهيئاً لأن يتلقى أيّ ضربة، فقد كان جلده مشدوداً فوق أضلاعه الهشّة التي لم تعد تستطيع أن تحمي قلبه. مات حتى قبل أن يلامس الأرض. حدث ذلك قبل الغداء مباشرة، وبعد أن حُمل الصبي ليُدفن في التربة الخشنة، قُدِمت لنا فاصولياء وذرة مطبوخة.

قررت الآن ألاّ أقول شيئاً، وأن أنتظر حتى يغادر باودر وصديقته. فلا يمكنهما البقاء فترة طويلة. لا بد أنهما سيأخذان، بعد قليل، كلّ ما يريدانه. يمكنني أن أرى الكومة التي أخذا يكدسانها فوق طاولة مطبخنا، الأشياء التي سيأخذانها، حيث يوجد جهاز التلفزيون وكومبيوتر أتشور أتشور المحمول، وجهاز الفيديو، والهاتف اللا سلكي، وهاتفي الخلوي، وفرن المايكرويف.

بدأ الظلام يغطي السماء، وكان قد مضى على وجود ضيفيَ في شقّتنا حوالي عشرين دقيقة، ولن يعود أتشور أتشور إلاّ بعد عدة ساعات، هذا إذا عاد. فهو يعمل في العمل الذي كنت أشتغل فيه - في الغرفة الخلفية في صالة عرض مفروشات، يجهّز العينات لإرسالها إلى مصممي الديكور الداخلي. وحتّى عندما لا يكون موجوداً في العمل، لم يكن يأتي إلى البيت إلاّ نادراً. وبعد سنوات من صحبته لأنثى، وجد أتشور أتشور صديقة، امرأة أمريكية سوداء اسمها ميشيل. امرأة جميلة. التقيا في المعهد المحلي، في صفّ خياطة اللحف الذي تسجّل فيه أتشور أتشور بالصدفة. فقد دخل إلى الصفّ، وجلس إلى جانب ميشيل، ولم يغادره بعد ذلك. كانت تفوح منها رائحة عطر الحمضيات، أزهار حمضيات، ومنذ ذلك الحين بدأت رؤيتي لأتشور أتشور تقل كثيراً. مرّ وقت بدأت أفكّر بتابيثا بهذه الطريقة. تخيّلت أننا نخطّط لإقامة حفل زفاف وإنجاب أطفال يتكلّمون اللغة الإنكليزية بطلاقة كما يتكلّمها الأطفال الأمريكيون. لكن تابيثا كانت تعيش في سياتل، ولا تزال هذه المخططات بعيدة المنال. ربما تراودني أحلام رومانسية الآن. كان قد جرى ذلك في كاكوما أيضاً، حيث فقدت شخصاً مقرباً جداً لي، ثم خيّل إليّ أنه كان باستطاعتي أن أنقذه لو كنت صديقاً أفضل. لكن الكلّ يختفون، مهما كان الشخص الذي يحبّهم.

الآن بدأت عملية نقل أغراضنا. شبك باودر ذراعيه فوق صدره وبدأت شريكته تكدّس أغراضنا فوقهما - أولاً فرن المايكرويف، ثم الكومبيوتر

المحمول، والآن المسجلة، وعندما وصلت الكومة إلى ذقنه، سارت المرأة إلى الباب وفتحته.

«اللعنة»، قالت وأغلقت الباب بسرعة.

قالت لباودر إنه توجد سيارة شرطة في الخارج، تقف أمام شقتنا، وأنها تسدّ الطريق أمام سيارتهما.

«اللعنة، اللعنة، اللعنة» وبصقت.

استمرّ هذا الرعب لفترة من الوقت، ثم وقفا على جانبيْ النافذة ذات الستارة التي تطلّ على الفناء. فهمت من حديثهما أنّ الشرطي يتحدّث مع رجل من أمريكا اللاتينية، لكن كان يبدو أن لغة حركات جسد الشرطي لم تكن تشير إلى أن الأمر عاجل. ثم عبّرت المرأة وباودر عن ثقتهما وارتياحهما المتزايد بأنّ الشرطي لم يكن هناك من أجلهما. لكن لماذا لم يغادر المكان إذاً؟ كانا يريدان أن يعرفا. «لماذا لا يذهب ابن الحرام لأداء عمله؟» سألت.

انتظرا. يبدو أن الدم الذي يسيل من جبهتي قد خفّ. وبلساني رحت أستكشف الضرر الذي أصاب فمي. لقد تُلم أحد أسناني الأمامية السفلى، وتهشم ضرس. يبدو أنه يترجرج في مكانه، سلسلة جبلية مسنّنة كالمنشار. لكن لم أستطع أن أفكّر بأسناني الآن. فنحن السودانيين لسنا معروفين بكمال أسناننا. رفعت بصري ورأيت أن المرأة وباودر يحملان حقيبة ظهري التي لا يوجد فيها شيء سوى الوظيفة التي عليّ أداؤها لمعهد جورجيا بيريميتر كولدج. تخيّلت الوقت الذي سأمضيه في نسخ دفاتر الملاحظات تلك مرة أخرى، بعد أن أصبحنا الآن على أبواب الامتحانات النصف سنوية، وكاد ذلك يجعلني أنهض على قدميّ مرة أخرى. رحت أحدّق بضيفيّ بأكبر قدر من الكراهية التي تمكنت من جمعها، بالقدر الذي أتاحها لي إلهي.

يا لي من غبي. لماذا فتحت ذلك الباب؟ لديّ صديقة أمريكية سوداء هنا في أتلانتا، اسمها ماري، مجرد صديقة، ستضحك عليّ لأنني فتحت الباب. فمنذ أسبوع، كانت في هذه الغرفة، تجلس على هذه الأريكة، وكنا نشاهد فيلم «طارد الأرواح الشريرة» مع أتشور أتشور. كنت أنا وأتشور أتشور متشوقين لمشاهدة هذا الفيلم منذ زمن. أعترف بأنه كان لدينا اهتمام بفكرة الشرّ، وكانت فكرة طرد الأرواح الشريرة تفتننا. ومع أننا كنا نرى أنّ إيماننا قوي، وأننا تلقينا تعليماً كاثوليكياً كاملاً، فإننا لم نسمع قط بأن قسّاً كاثوليكياً يمارس طرد الأرواح الشريرة. فشاهدنا الفيلم وتملكنا الرعب. لكن أتشور أتشور ولم يحتمل مشاهدة أكثر من الدقائق العشرين الأولى، فانسحب إلى

غرفته، وأغلق الباب على نفسه، وفتح المسجل الستريو، وبدأ يحلّ وظيفة الجبر. وفي أثناء أحد مشاهد الفيلم، سمعتُ صوت نقرات على الباب، نذير شؤم، وخطر ببالي سؤال. أوقفت الفيلم فأطلقت ماري زفرة استياء. فقد اعتادت على أن أوقف الفيلم وأنا أمشي أو وأنا أقود السيارة لأسألها سؤالاً - لماذا يطلب الناس نقوداً عند التقاطع في وسط الطريق السريع؟ هل جميع المكاتب في هذه المباني مشغولة؟ - في تلك اللحظة، سألت ماري، في أمريكا من الذي يجب أن يفتح الباب عندما يُقرع.

سألتني، «ماذا تقصد؟»

سألتها، «الرجل أم المرأة؟»

ضحكت ساخرة، وقالت: «الرجل. الرجل. أليس الرجل هو الذي يوفر الحماية للمرأة؟» وأردفت، «طبعاً الرجل هو من يفتح الباب. لماذا؟»

فقلت: «في السودان، ليس الرجل هو الذي يفتح الباب. بل المرأة دائماً هي التي تفتحه، مع أنه عندما يُقرع الباب، يريد القادم عادة أن يرى الرجل».

آه، وجدتُ سنّاً مثلوماً آخر. كان صديقاي لا يزالان واقفين بجانب النافذة، يفتحان الستارة من حين لآخر، وعندما يريان الشرطي واقفاً هناك، كانا يطلقان اللعنات ثم يلوذان بالصمت.

مضت ساعة ودفعني الفضول الآن لمعرفة ماذا يفعل الشرطي في باحة موقف السيارات. بدأ الأمل يراودني بأنّ الشرطي يعرف بحدوث السرقة، ولتفادي أي مواجهة معهما، فهو ينتظرهما حتى يخرجا. لكن لماذا يعلن عن وجوده هكذا؟ ربما كان الشرطي يقف هناك للتحقيق في قضية تجّار المخدّرات الذين يقيمون في الشقة ج - ٤؟ والرجال الذين يسكنون في تلك الشقة هم بيض، ويخيّل إليّ أن الرجل الذي يكلّمه الشرطي هو أدغاردو الذي يقيم في الشقة ج - ١٣ التي تبعد ثمانية أبواب من شقتي. وأدغاردو، ميكانيكي وصديقي، وفّر عليّ، بحسب تقديره ٢٢٠٠ دولار من تصليح السيارة خلال السنتين منذ أن أصبحنا جارين. ولقاء ذلك، كنت أوصله بسيارتي إلى الكنيسة وإلى مكان عمله، وإلى مركز تسوّق نورث ديكالب. وعلى الرغم من أن يملك سيارة، فإنه يفضّل ألاّ يقودها. فلم أر دواليب سيارته في مكانها منذ حوالي ستة أشهر. كان يحبّ أن يعمل على سيارته، وكان يحلو له أن يصلح سيارتي الكورولا- ٢٠٠١ أيضاً. وكان أدغاردو، وهو يصلح سيارتي، يلّح على أن أسلّيه، فكان يقول لي: «احكِ لي قصة»، لأنه لم يكن يحبّ الموسيقى التي يبثونها في الراديو. «إنهم يبثون موسيقى مكسيكية في كل مكان في هذا

البلد إلاّ في آتلانتا. ماذا أفعل هنا؟ فهذه المدينة لا تناسب شخصاً يحبّ الموسيقى. احكِ لي قصّة يا فالانتينو. كلّمني، حدّثني. احكِ لي قصصاً».

عندما طلب مني ذلك أول مرة، رحت أحكي له قصّتي عندما داهم المتمردون الذين سيلتحقون بعد ذلك في صفوف جيش التحرير الشعبي السوداني، محل أبي في قرية مايال باي. كنت في السادسة من عمري، وكان وجود المتمرّدين قد بدأ يتزايد في قريتنا شهراً بعد شهر. كان معظم سكان القرية يحتملونهم، لكن البعض الآخر لم يحتملونهم. وكان أبي رجلاً غنياً وفق المعايير الإقليمية، يمتلك محلاً في بلدتنا ومحلاً آخر يبعد مسافة بضعة أيام سيراً على الأقدام. وكان من المتمردين قبل سنوات، لكنه بعد أن أصبح تاجراً لم يعد يريد أن تحدث مشاكل. فلم يكن يريد أن تقوم ثورة، ولم يكن على خلاف مع الإسلاميين في الخرطوم. فهم لا يزعجونه، كان يقول، وهم بعيدون عنّا مسافة نصف العالم. لم يكن يريد شيئاً سوى أن يبيع الحبوب، والذرة، والسكر، والآنية، والأقمشة، والحلوى.

في أحد الأيام، كنتُ في دكانه، ألعب على الأرض. ثم سمعت صوت جلبة واضطراب فوق رأسي. كانوا ثلاثة رجال، يحمل اثنان منهم بنادق، وقالوا له إنهم يريدون أن يأخذوا ما يشاؤون، وقالوا إنّ الثورة ستجلب سوداناً جديداً.

«لا، لا»، قال أدغاردو، «لا أريد أن أسمع شيئاً عن القتال والحروب. لا أريد أن أسمع شيئاً عن القتال. فأنا أقرأ كلّ يوم ثلاث صحف»، وأشار إلى الصحف المفروشة تحت سيارته التي أصبحت بنيّة اللون من بقع الشحم، «لقد سئمت سماع ذلك. أنا أعرف عن حربكم. احكِ لي قصّة أخرى. قل لي كيف أطلقوا عليك هذا الاسم، فالانتينو. فهو اسم غريب لشخص من أفريقيا، ألا ترى ذلك؟»

وهكذا حكيت له قصّة معموديتي. فقد جرى ذلك في بلدتي التي ولدت فيها. كنت في حوالي السادسة من عمري. كانت المعمودية فكرة عمّي جوك، ولم يحضرها أبي وأمي اللذان كانا يعارضان الأفكار المسيحية. فقد كانا يؤمنان بالمعتقدات الدينية التقليدية التي تؤمن بها قبيلتي، وكانت تجربة القرية بالديانة المسيحية تقتصر على شبان مثلي ومثل جوك، الذين كان بالإمكان استمالتهم وإغواؤهم. فقد كان اعتناق المسيحية تضحية كبيرة بالنسبة للرجال، لأن الأب دومينيك ماتونغ، وهو رجل سوداني وسمه مبشّرون إيطاليون كاهناً، حرّم تعدد الزوجات، لذلك رفض أبي الذي كان متزوجاً عدة زوجات الدين الجديد، ولأن المسيحيين مشغولون باللغة المكتوبة كثيراً،

بينما كان أبي وأمّي أميين، بالإضافة إلى الكثيرين في أعمارهما. فقال أبي - اذهب إلى كنيسة كتبك، وسترجع عندما تثوب إلى رشدك.

عندما بدأ الأب ماتونغ يطرح أسئلته عليّ كنت أرتدي ثوباً أبيض، يحيط بي جوك وزوجته أدنغ. كان الأب ماتونغ قد جاء من أويل سيراً على الأقدام كي يعمدّني مع ثلاثة فتيان آخرين. كان ذلك من أكثر المواقف توتراً في حياتي. وقال الصبية الآخرون إنه لا يمكن مقارنة هذا الموقف بعقوبة الضرب من آبائهم، لكني لم أعرف قط شيئاً كهذا، لأن أبي لم يرفع يده عليّ في حياته. وقفت أمام جوك وأدنغ، وقد أمسك الأب ماتونغ الإنجيل بيد، ورفع راحة يده الأخرى إلى الأعلى، وسألهما - هل تقدّمان طفلكما من كلّ قلبكما وإيمانكما ليُعمّد ويصبح فرداً مخلصاً في أسرة الله؟

- نعم! قالا.

قفزت عندما قالا ذلك. كان ذلك أكثر بكثير مما كنت أتوقّع.

- هل قمت بعملك هذا بطرد الشيطان بكلّ جبروته وخداعه وغدره؟

- نعم!

- هل تؤمن بيسوع، ابن الرب، الذي حملته مريم العذراء، والذي عانى وصُلب، وقام في اليوم الثالث من بين الأموات لينقذنا من خطايانا؟

- نعم!

ثمّ صُبّ ماء بارد ونظيف فوق رأسي. كان الأب ماتونغ قد أحضره معه في رحلته التي استمرت يومين سيراً على الأقدام من أويل.

ومع عمادي جاء اسمي المسيحي فالانتينو الذي اختاره الأب ماتونغ. وسارت الأسماء المسيحية مع الصبية الآخرين، أما أنا، فلم يُستخدم هذا الاسم إلاّ نادراً، لأن أحداً، بمن فيهم أنا، لم يستطع أن يلفظه. فكنّا نقول فالدينو، بالديرو، بنيدينو. ولم يستخدم أحد اسمي هذا إلاّ بعد أن وجدت نفسي في مخيّم اللاجئين في إثيوبيا. وبالمصادفة المحضة، بعد سنوات من الحرب، رأيت الأب ماتونغ، فذكّرني باسمي المسيحي، وحكي لي عن أصله، وعلّمني كيف ألفظه بصوت مسموع.

أعجبت أدغاردو هذه القصة كثيراً. وحتى تلك اللحظة لم يكن يعرف بأنّني كاثوليكي مثله. عندها قررنا أن نحضر صلاة القدّاس معاً ذات يوم، لكننا لم نفعل ذلك حتى الآن.

(٢)

«انظري إلى هذا الشاب. الدم يسيل من رأسه ويبدو كالمجنون». كان باودر يوجّه كلامه إليّ. كان لا يزال واقفاً عند النافذة، أما شريكته فكانت لا تزال في الحمّام. بعد هذا، بعد أن استخدمت حمّامي، اعتراني شعور بأنني يجب أن أترك هذه الشقة، فقد اكتمل انتهاكهما لها الآن. أريد أن أحرق هذا البيت عندما يغادرانه.

«هيه، تونيا، تعالي وانظري إلى هذا الأمير النيجيري».

«ما مشكلتك يا رجل؟ ألم تتعرض للسرقة قبل الآن؟»

كانت تحدّق فيّ أيضاً. إذن اسمها تونيا.

قالت: «تعوّد على ذلك، أيها الأفريقي».

خطر لي أنه كلما أمضى الشرطي وقتاً أطول في موقف السيارات، أصبحت إمكانية اكتشاف حالتي أفضل. فما دام الشرطي هناك، فإن فرصة عودة أتشور أتشور لا تزال قائمة، أو أن يقرع أدغاردو باب شقتي. لكنه لم يقرع باب شقتي إلاّ مرّات قليلة من قبل - إنه يفضّل الاتصال بالهاتف - لكنّ هذا ليس أمراً مستحيلاً. فإذا قرع الباب، لا يمكن إخفاء ما يجري هنا.

رنّ هاتفي الخلوي. تركته تونيا وباودر يرنّ. بعد دقائق، رنّ مرة أخرى. لا بدّ أنّها الساعة الخامسة.

«انظري إلى هذا القوّاد»، قال باودر، «هاتفه يرنّ كلّ دقيقة. لا بدّ أنك نوع من قوّاد، يا أمير؟»

لو لم أضع قواعد، لما توقف الهاتف عن الرنين. فهناك مجموعة قد يصل عددها إلى ثلاثمائة سوداني في أمريكا لا يتوقفون عن الاتصال بي، وأنا أتصل بهم، لكن هم الذين يتصلون بي غالباً، ولعلنا نفعل ذلك بإفراط. ويعتقدون كلّهم بأنني على اتصال مباشر مع المتمردين الذين يمثلّهم جيش التحرير الشعبي السوداني. ويتصلون بي لأؤكد لهم أيّ إشاعة قد تظهر، وليعرفوا ما هو رأيي حول أيّ تطوّر قد يحدث. ومع أنني كنت أصرّ على أن يتصلوا بي بين الساعة الخامسة والتاسعة مساء، فقد كنت أتلقى ما معدله

سبعين اتصالاً في اليوم. فأنا لا أميل إلى المبالغة في الأمور. لذلك لم تكن الاتصالات الهاتفية تتوقّف. فأيّ حديث على الهاتف خلال خمس دقائق يُتوقّع أن تقاطعه ثمانية أو تسعة اتصالات أخرى. فبينما كان بول من فينكس يحدّثني عن وسيلة للحصول على تأشيرة لأخيه الذي وصل إلى القاهرة، اتصل بي جيمس من سان خوزيه وقال إنه بحاجة إلى نقود. وكنّا نتبادل على الهاتف معلومات عن الوظائف، وقروض السيارات، والتأمين، والأعراس، والمناسبات التي تقام في جنوب السودان. لكن عندما مات جون غارانغ، قائد جيش التحرير الشعبي السوداني، الرجل الذي تسبب في إشعال الحرب الأهلية، في حادث تحطم طائرة مروحية في تموز (يوليه) الماضي، لم تعد تلك الاتصالات تتقيد بأيّ حدّ أو ساعة. فقد أصبحت أتحدّث على الهاتف طوال أربعة أيام متواصلة. مع أنني لم أكن أعرف أكثر مما يعرفه أي شخص آخر.

وفي أحيان كثيرة، لا يوجد أحد يمكن أن يرجع إليه الأطفال السودانيون الضائعون غيري. والأطفال السودانيون الضائعون ليس لقباً يحبّذه الكثيرون بيننا، لكنّه تعبير يفي بالغرض. فقد هربنا من بيوتنا أو طُردنا منها، والكثير منّا أضحوا أيتاماً، وهام الآلاف منّا في الصحاري وفي الغابات، وبدت لنا كأنها سنوات. وفي أحيان كثيرة كنّا وحدنا، وفي معظم الأحيان لم نكن نعرف المكان الذي سنذهب إليه. وعندما وصلنا إلى كاكوما، أحد أكبر مخيّمات اللاجئين، وأكثره بعداً في العالم، وجدنا عائلات جديدة، أو وجد عدد منّا عائلات جديدة. أما أنا فقد عشت مع معلّم من البلدة التي ولدتُ فيها، وعندما جلب أسرته إلى المخيّم بعد سنتين، فأصبح لدينا شيء يشبه الأسرة، تضم خمسة فتيان وثلاث فتيات، كنت أدعوهن أخواتي. وكنا نذهب إلى المدرسة معاً سيراً على الأقدام، ونجلب الماء معاً. وعندما انتقلنا إلى الولايات المتحدة، لم يبق منّا إلاّ الصبية. وتوجد في أمريكا أيضاً قلة قليلة من النساء السودانيات وعدد أقلّ من الرجال المسنين، لذلك أصبح أحدنا يعتمد على الآخر في كلّ شيء. ولم يكن ذلك أمراً جيداً، لأننا كثيراً ما كنّا نتبادل نفس الإشاعات، والشكوك التي لا أساس لها من الصحة التي كانت تساورنا حول أحدنا الآخر.

عندما وصلنا إلى أمريكا، لم نغادر شققنا لأسابيع عديدة. فلم نجرؤ على مغادرتها إلاّ في الأحوال الضرورية جداً. فقد تعرّض صديق لنا وصل قبلنا إلى الولايات المتحدة لهجوم عندما كان عائداً إلى البيت. ويحزنني أن أقول إن شباناً أمريكيين سود هاجموه مرة ثانية، فبدأنا نتساءل كيف يستطيعون تمييزنا. وأصبحنا نعتقد بأننا مراقبون، ملاحقون. إذ يمكن تمييزنا نحن السودانيين بسهولة لأننا لا نشبه أحداً آخر على وجه الأرض، بل حتى لا نشبه

أحداً من شرق أفريقيا. فالعزلة التي عاشتها مناطق واسعة من جنوب السودان أبقت سلالتنا نقية ولم تختلط بها أقوام أخرى. فلم نغادر بيوتنا في تلك الأسابيع، لا لأننا كنا نخشى اللصوص فقط، وإنما لإننا كنّا نخشى أيضاً أن يغيّر المسؤولون في دائرة الهجرة في أمريكا رأيهم فينا. وأجد الآن كم كان هذا التفكير مضحكاً، كم كنّا ساذجين، كم كانت نظرتنا إلى الأمور منحرفة ومشوهة، فقد كان يبدو لنا أن كل شيء ممكن. وكنا نخشى أنه إذا تعرّض عدد منّا لأي مشكلة، فقد يطردوننا ويعيدوننا كلنا إلى أفريقيا فوراً، أو ربّما يسجنوننا فقط. وكان أتشور أتشور يرى إنهم قد يحكمون علينا بالإعدام إذا اكتشفوا بأن أحدنا منّا كان عضواً في جيش التحرير الشعبي السوداني.
فعندما كنّا في كاكوما، كذب الكثيرون منّا في الاستمارات التي طُلب منّا أن نملأها وفي المقابلات التي أجراها لنا المسؤولون الأمريكيون، لأنه قيل لنا أنه إذا اعترفنا بأننا كنّا أعضاء في ذلك الجيش، فإنهم سيرفضون طلبنا ولن يرسلونا إلى أتلانتا ونورث داكوتا وديترويت، وسنبقى في كاكوما. لذلك كذب من كان بحاجة إلى أن يكذب. فقد أصبح جيش التحرير الشعبي السوداني جزءاً من حياتنا منذ فترة مبكّرة، وكان أكثر من نصف الشبان الذين يطلقون على أنفسهم اسم «أطفال السودان الضائعين» من الجنود الأطفال بشكل ما. لكن طُلب منّا ألاّ نتحدّث عن هذا الجزء من تاريخنا.

وهكذا مكثنا في بيوتنا، نشاهد التلفزيون معظم النهار والليل، كان يتخلل ذلك أحياناً أن نأخذ قيلولة ونلعب الشطرنج. ولم ير عدد منّا التلفزيون في حياتهم، إلاّ قلة قليلة عندما كنّا في كاكوما. أما أنا فقد رأيت التلفزيون في كاكوما وفي نيروبي، لكنّي لم أر قط تلفزيوناً يعرض ١٢٠ قناة مثل التلفزيون الذي أعطونا إياه في أول شقّة أقمنا فيها. كان ذلك أكثر من قدرتنا على مشاهدتها في يوم واحد، أو يومين أو ثلاثة أيام. فلم نتوقف عن مشاهدة التلفزيون طوال أسبوع، لكن انتابنا في النهاية شعور بالبهجة والإحباط في آن معاً. وكان أحدنا يجازف ويخرج عند الفجر ليحضر الطعام أو أيّ شيء نحتاج إليه، وكنّا نخشى دائماً أن نصبح نحن أيضا، ضحايا اعتداء من الشبان الأمريكيين السود.

ومع أن المسؤولين السودانيين في المخيّم كانوا قد حذّرونا من الجريمة في أمريكا، لم يكن ذلك جزءاً من التوجّيهات التي قُدّمت لنا. فبعد عشر سنوات، عندما قالوا لنا أخيراً إننا سنغادر المخيّم، شرحوا لنا في دورة تدريبية مكثفة خلال يومين ما سنراه ونسمعه في أمريكا. فقد تحدّثت لنا امرأة أمريكية تدعى ساشا عن العملة الأمريكية، وعن التدريب للحصول على عمل والسيارات ودفع الإيجار، وعن أجهزة تكييف الهواء والمواصلات والنقل العام، وحكت لنا عن الثلج. فأرسل بعضنا إلى مناطق باردة مثل فارغو

وسياتل، ولكي توضح لنا ذلك، مرّرت ساشا قطعة ثلج بيننا. فلم يسبق للكثيرين في الصّف أن رأوا قطعة ثلج وأمسكوا بها في يدهم. أما أنا فكنت قد رأيته لأنني كنت مسؤولاً في المخيّم. وكنت قد رأيت أشياء كثيرة في مجمّع الأمم المتّحدة، بما في ذلك مستودعات الطعام، ومعدّات رياضية تبرّعت بها اليابان والسويد، وشاهدت أفلام بروس ويليس. وقالت لنا ساشا أيضاً إنّ الرجال في أمريكا، حتى الأغنياء منهم، لا يمكنهم الزواج من أكثر من زوجة واحدة في وقت واحد - كان أبي متزوجاً من ستّ نساء - وحدّثتنا عن السلالم المتحركة، وعن السباكة داخل المنازل، وقوانين البلد المختلفة، لكنها لم تحذّرنا من أن بعض المراهقين الأمريكيين سيقولون لي إنني يجب أن أعود إلى أفريقيا. وقد حدث لي ذلك عندما كنت أستقلّ الحافلة.

فبعد أشهر من وصولنا إلى أمريكا، بدأنا نغادر الشقّة، قدّموا لنا مبلغاً يكفينا للعيش لمدّة ثلاثة أشهر، ثم أصبح علينا أن نبحث عن عمل. كان ذلك في كانون الثاني (يناير) ٢٠٠٢، عندما بدأت أعمل في غرفة المخزن في المخزن الخلفي في سلسلة محلات Best Buy. كنت في الحافلة في طريق عودتي إلى البيت في الساعة الثامنة مساء، بعد أن كنت قد غيّرت ثلاث حافلات (كان البيت يبعد ثمانية عشر ميلاً وتستغرق الرحلة تسعين دقيقة). لكني كنت سعيداً في ذلك اليوم. فقد كنت أكسب ٨,٥ دولارات بالساعة، وكان يعمل معي شاب سوداني آخر، نقوم بتعبئة أجهزة التلفزيون البلازما وآلات غسل الصحون. كنت آنذاك مرهقاً متلهفاً للوصول إلى البيت لأشاهد شريط فيديو يتناقله «أطفال السودان الضائعون» في أتلانتا. فقد صوّر أحدهم حفل زفاف أقيم مؤخراً في كنساس سيتي، لرجل سوداني معروف وامرأة سودانية كنت قد التقيت بها في كاكوما. كنت أهمّ بالنزول في محطتي عندما كلّمني مراهقان أسودان.

«يو»، صاح بي أحدهما، «يو، أيها المسخ، من أين أنت؟» فالتفتُ وقلت له إنني من السودان. صمت برهة. فلم يكن السودان بلداً معروفاً، أو أنه لم يكن معروفاً إلى أن جلب لنا الإسلاميون الحرب منذ عشرين سنة، مع جيوشهم بالوكالة، وميليشياتهم المنفلتة إلى دارفور عام ٢٠٠٣.

«أتعرف»، قال المراهق وهو يميل رأسه ويتفحصّني من الأعلى إلى الأسفل، «أنت واحد من أولئك الأفارقة الذين باعونا». وظل يتكلّم بهذه الطريقة لفترة من الوقت حتى ظننت أنّه يعتبرني المسؤول عن استعباد أسلافه. وسار ورائي مع صديقه طوال الشارع، يتكلّم من وراء ظهري، ثم كرر أنني يجب أعود إلى أفريقيا. وقالوا ذلك لأتشور أتشور أيضاً، وها هما الشابان اللذان يسيران ورائي يقولان لي ذلك أيضاً. فمنذ دقيقة واحدة فقط، نظر باودر إليّ

بشيء من الشفقة، وسألني، «يا رجل، لماذا أنت هنا؟ هل جئت إلى هذا البلد لترتدي بدلة وتتصرّف كرجل مثقف؟ ألا تعرف بأنهم سيهاجمونك؟»

مع أنني شعرت بالاحتقار للمراهقين اللذين كانا يسيران ورائي، فقد كنت متسامحاً أكثر من بعض زملائي السودانيين. فمن المؤسف أن يشكّل الأفارقة آراء مسبقة عن الأميركيين السود. فقد شاهدنا أفلاماً أمريكية عديدة، وجئنا إلى هذا البلد نحمل آراء بأنّ الأمريكيين السود هم تجّار مخدّرات ولصوص يسطون على المصارف. وطلب منا المسؤولون السودانيون في المخيّم في كاكوما بعبارات لا لبس فيها بأننا يجب أن نتحاشى الأمريكيين السود، خاصة النساء. لكنهم سيفاجأون عندما يعرفون أن امرأة أمريكية سوداء هي أول من هبّت لمساعدتنا في أتلانتا وأرادت أن تعرفنّا على أشخاص آخرين يستطيعون مساعدتنا، وكانت سعادتنا كبيرة لهذه المساعدة. وبشكل ما، كنّا نعتبر أن من حقنا أن نحصل على المساعدة، إلى حدّ أننا كنّا نشكك بآخرين ممن يحتاجون إلى مساعدة. وعندما كنّا نرى في أتلانتا شباناً لا يعملون، أو مشرّدين، أو يشربون الخمر عند ناصية الشارع أو في السيارات، كنّا نقول: «هيا اذهبوا واعملوا! فلديكم أياد، هيا اذهبوا واعملوا!» لكننا كنّا نقول ذلك قبل أن نبدأ بالبحث عن عمل بأنفسنا، وقبل أن ندرك أن العمل في محلات Best Buy لن يمكّننا بأي شكل من تحقيق أهدافنا الرامية إلى الدراسة في الجامعة أو بعد أن نتخرج منها.

عندما هبطنا في مطار جون ف. كيندي الدولي، قالوا إنهم سيقدّمون لنا مبلغاً من المال يكفي لتسديد الإيجار وشراء المواد الغذائية لمدة ثلاثة أشهر. ثم سافرت بالطائرة إلى أتلانتا، وأعطوني بطاقة خضراء مؤقتة (غرين كارد) وبطاقة مساعدة طبية، وقدمت لي لجنة الإنقاذ الدولية مبلغاً يكفي لتسديد الإيجار لمدة ثلاثة أشهر فقط. ولم يكن الأجر الذي أتقضاه من عملي في محلات Best Buy البالغ ٨,٥ دولارات في الساعة يكفي، فاشتغلت في عمل آخر في أول خريف أمضيته هناك، فعملت في محل لبيع الهدايا الموسمية فُتح في تشرين الثاني (نوفمبر) وأُغلق في مطلع كانون الثاني (يناير)، حيث كنت أرتّب تماثيل بابا نويل الخزفية على الرفوف، وأرشّ مادة الفروست الاصطناعية على باقات الزهور الصغيرة، وأكنس أرضيّة المحل سبع مرات في اليوم. وعلى الرغم من هذين العملين اللذين لم يكونا دائمين، لم يكن ما أحصل عليه يزيد على ٢٠٠ دولار في الأسبوع بعد حسم الضريبة. كنت أعرف أشخاصاً في كاكوما يكسبون أكثر من ذلك، نسبياً، من بيع أحذية رياضية مصنوعة من الحبال وإطار عجلات مطاطيّة.

وبعد أن صدرت مقالة صحيفة عن السودانيين في آتلانتا، عرض علينا بعض المواطنين الطيبين عدة أعمال جديدة، فعملتُ في صالة لعرض المفروشات في مجمّع يضم عدة صالات مشابهة أخرى في إحدى ضواحي المدينة. وكنت أعمل في غرفة المخزن الخلفية، بين أكداس عينات الأقمشة. ومع أنه يجب ألاّ أخجل من هذا العمل، فإنني خجلت منه بشكل ما: فقد كان عملي ينحصر في استلام عينات القماش التي يعيدها المصمّمون، وتصنيفها ثانية. وبقيت في هذا العمل لمدة سنتين تقريباً. وكثيراً ما كنت أفكّر بأنني أضيع وقتي سدى في الجلوس لمدة طويلة على ذلك المقعد الخشبي، أرتبّ الكتالوغات، وأبتسم، وأشكر، وأصنّف - في الوقت الذي كان عليّ أن أمضيه في الدراسة. وكانت الساعات الطويلة التي كنت أمضيها في «نادي القرن الصحي للياقة البدنية» جميلة سطحياً، لأن أعضاء النادي كانوا يبتسمون لي وكنت أبادلهم الابتسامة، لكن صبري بدأ ينفد.

دار جدال بين باودر وتونيا. فقد بدأ قلقهما من وجود الشرطي في باحة موقف السيارات يزداد. ولامت تونيا باودر لأنه ركن السيارة في الباحة، وأنه كان يجب أن يركنها في الشارع لكي تسهل عملية هروبهما، فقال باودر إن تونيا هي التي طلبت منه ذلك ليتمكّنا من الخروج بأسرع ما بوسعهما. استمرّ هذا الجدال قرابة عشرين دقيقة، تبادلا خلالها اتهامات شنيعة سريعة، ثم أعقبت ذلك فترة صمت طويلة. كانا يتصرّفان مثل أخ وأخت، وبدأت أفكّر بأن صلة قرابة تربطهما. كان يكلّم أحدهما الآخر بطريقة تخلو من أي احترام أو حدود. هكذا يتصرّف الأشقّاء في أمريكا.

من المفترض أن أكون الآن مع فيل مايس وأسرته في بونتي فيدرا بيتش، بفلوريدا. وفيل هو الشخص الأمريكي الذي كفلني ووافق على مساعدتي للانتقال لأعيش هنا. وهو محام يعمل في العقارات، اشترى لي ثياباً، واستأجر لي الشقّة التي أسكنها، وساعدني في شراء سيارتي التويوتا كورولا، واشترى لي عامود مصباح طويل، وبعض أدوات المطبخ، بالإضافة إلى هاتف خلوي، ورافقني إلى الطبيب عندما ألمّ بي صداع شديد. ويعيش فيل حالياً في بونتي فيدرا بيتش، وكان قد دعاني منذ أسبوعين لأن أمضي عطلة نهاية الأسبوع مع أسرته والقيام بجولة في جامعة فلوريدا، لكني اعتذرت لأن امتحاناتي نصف السنوية في معهد جورجيا بريميتر كولدج اقتربت كثيراً، وعندي اختباران غداً.

لكن فكرة مغادرة أتلانتا بدأت تراودني منذ فترة.

ليس من الضروري أن أذهب إلى فلوريدا، لكنّي لم أعد أحتمل البقاء هنا. فعلى الرغم من أنّه يوجد لديّ أصدقاء آخرون هنا، حلفاء آخرون - ماري وليامز، وعائلة نيوتن - فإني لم أعد أحتمل أن أبقى في جورجيا، لأن أوضاع الجالية السودانية هنا معقّدة جداً، يسودها الشكّ والريبة. فكلّما حاول أحد مساعدة أحد منّا، يقول السودانيون الآخرون إن هذا ليس عدلاً، ويطالبون بحصّتهم من تلك المساعدة. ويتساءلون، ألم نعبر الصحراء معاً؟ ألم نأكل كلّنا جلود الضباع والماعز كي تظل بطوننا ممتلئة؟ ألم نشرب كلنّا بولنا؟ بالطبع فإن هذا الجزء الأخير مُلَفّق، غير صحيح البتة بالنسبة لمعظمنا، لكنّه يثير اهتمام الناس وتعاطفهم. ففي أثناء مسيرنا من جنوب السودان إلى إثيوبيا، شرب بعض الصبية بولهم، وأكل عدد أكبر طيناً كي تظل حناجرهم ندية، لكن تجاربنا مختلفة وشديدة التباين، وذلك بحسب الفترة التي عبرنا فيها السودان. فالمجموعات التي وصلت بعدنا نعمت بفوائد أكثر وحصلت على مساعدة من جيش التحرير. وثمة مجموعة عبرت الصحراء بعد مجموعتنا مباشرة على شاحنة صهريج، وكانت ترافقهم شاحنات أخرى مليئة بالجنود المسلحين. وكان الصهريج يمثّل لنا كلّ ما نحلم به. وفي الواقع، كانت توجد دائماً طبقات داخل الطبقات، وحتى داخل مجموعات الصبية السائرين، كانت توجد أفضلية. ومع ذلك، فقد أصبحت قصص الأطفال السودانيين الضائعين متشابهة إلى حد كبير مع مرور السنين. فقد كانت رواية كلّ واحد منهم تتضمن تعرضهم لهجوم أسود وضباع وتماسيح. ورأى الجميع هجمات المرحلّين - الميليشيا الخيّالة التي تدعمها الحكومة - وقصف طائرات الأنتونوف، والهجمات لأخذ العبيد. لكننا في الحقيقة، لم نشهد كلنا تلك الأشياء نفسها. ففي ذروة رحلتنا من جنوب السودان إلى إثيوبيا، ربّما كان هناك عشرون ألف صبي، لكن دروبنا كانت مختلفة تماماً، فقد وصل بعضهم مع آبائهم، ووصل آخرون برفقة جنود من المتمرّدين، وسافر بضعة آلاف وحدهم. أما الآن، فإن الذين يقدمون لنا المساعدة ومراسلو الصحف وآخرون يتوقّعون أنّ تتضمن قصصنا عناصر محددة، وقد لبّى هؤلاء الصبية جميعاً رغبتهم. فأخذوا يروون القصص التي يريد أن يسمعها المتعاطفون، وهذا يعني أن تكون صادمة وغريبة بأكبر قدر ممكن. وبما أن قصّتي تتضمن أحداثاً مريعة، فإني لا أستطيع أن أنتقد روايات الآخرين.

ترى هل سيبدي ضيفاي، تونيا وباودر، أي اهتمام لو أنهما عرفا قصتي. فهما لا يعرفان شيئاً عنيّ، وإذا عرفا عن الرحلة الشاقة التي قطعتها والتي عانيت فيها الأمرّين حتى وصلت إلى هنا، فهل سيغيران من سلوكهما معي. لا أتوقّع ذلك.

عادا ووقفا عند النافذة، وراحا يلعنان الشرطي الذي كان لا يزال واقفاً في الباحة. لا أظن أنه مرّت أكثر من تسعين دقيقة، لكن الأمر كان لا يزال محيراً. فلم أر شرطياً قط يمضي أكثر من بضع دقائق عند باحة السيارات في مجمّع الشقق هذا. فعلى الرغم من أنه كانت قد وقعت حادثة سرقة هنا، فقد طواها النسيان بعد بضعة أيام لأن أحداً لم يكن في البيت آنذاك. أما هذه السرقة فإنها تحدث الآن، وبقاء الشرطي كلّ هذه الفترة - أمر غير منطقي.

صرخت تونيا، «هيا اذهب، أيها الخنزير، هيا اذهب!»

كان باودر واقفاً فوق كرسي المطبخ، يبعد الستائر بأصابعه.

«نعم، ألا تزال واقفاً هنا! هيا اذهب، يا ابن الحرام!»

اعتراني شعور بالارتياح، لكن لو ذهب الشرطي، فهذا يعني أنهما سيخرجان بسرعة. أخذا يضحكان الآن.

«يا إلهي، ظننت أنه...»

«أعرف! كان...»

لم يكفّا عن الضحك. شهقت تونيا.

تحركا الآن بسرعة. عادت تونيا تكدّس جهاز التسجيل وجهاز الفيديو وفرن المايكرويف بين ذراعيْ باودر، ثم سار باتجاه الباب. فتَحَته له، ولوهلة تملكّني خوف بأن الشرطي قد يكون قد نصب لهما فخّاً، وتظاهر بأنه غادر المكان. ربما كان ينتظرهما عند ناصية الشارع؟ وقد يعني ذلك أنه سيلقي القبض عليهما، لكنّ قد يعني أيضاً حدوث مواجهة أطول، وأخذ رهينة، وتبادل إطلاق النار. لذلك وجدت نفسي، بشكل لا يصدّق، آمل بأنّ يكون الشرطي قد ذهب، حتى يختفي هذان الشخصان بسرعة أيضاً.

لمدة عشر دقائق تقريباً، خيّل إليّ أنهما سيغادران. وتحت ستار الليل، ذهبا وعادا مرتين لينقلا إلى السيارة كلّ ما في الشقّة من أشياء ثمينة. وها هما الآن يقفان فوقي.

«حسناً، أيها الأفريقي، نأمل أن تكون قد تعلمت درساً»، قالت تونيا.

«شكراً على استضافتك يا أخي»، أضاف باودر.

كانا يريدان أن يهربا بسرعة. جثا باودر على ركبتيه وراح يفصل شريط جهاز التلفزيون.

«هل يمكنك أن تصل إليه؟» سألته تونيا.

«نعم»، أجابها وبدأ يلهث عندما رفع الجهاز من فوق الرفّ. كان جهازاً ضخماً، من الطراز القديم، منتفخاً مثل سندان، يبلغ حجم شاشته تسع عشرة بوصة. فتحت له تونيا الباب وخرج باودر وهو يسير بخطوات بطيئة إلى الوراء. لم يقولا لي شيئاً. ذهبا وأغلق الباب.

انتظرت لحظة وأنا مستلق على الأرض، لا أصدّق ما جرى. أصبحت الشقّة تبدو غير طبيعية الآن. لوهلة، بدا الأمر، بعد أن ذهبا، أغرب مما كان عندما كانا هنا.

انتصبتُ جالساً. وقفت، ببطء، وكان الألم في رأسي لا يزال يرسل إشعاعات من الحرارة البيضاء إلى ظهري. سرت مترنحاً إلى غرفة نومي لأتبين الأضرار التي أحدثاها هناك. لم تعد تبدو كما تركتها، ماعدا كاميرتي، والهاتف، والساعة، والحذاء الرياضي، لكنهما كانا أقل رحمة في غرفة أتشور أتشور: فقد كانت جميع الدروج مفتوحة وفارغة، وقُلبت خزانة الملفات التي كان يحرص على تنظيمها بدقة كبيرة، وتناثرت محتوياتها - كانت جميع الأوراق التي وقّع عليها باسمه منذ أن كان في الحادية عشرة - تغطّي أرضيّة الغرفة الآن.

عدت إلى غرفة الجلوس ووقفت. ها هما. لقد عادت تونيا وباودر إلى شقّتي فتملكّني الخوف الآن. لا بد أنهما لا يريدان شاهداً على جريمتهما. لم يخطر ببالي ذلك من قبل، لكن الأمر بدا مفهوماً الآن. لكن كيف سيطلقان عليّ النار من دون أن يسمع سكّان البناية الأربع والخمسين الآخرين ذلك؟

قد تكون هناك وسيلة أخرى لقتلي.

وقفت عند المدخل ورحت أراقبهما. لم يبديا أي حركة باتجاهي. وإذا تحركا، فستكون لديّ لحظة أقفل فيها الباب على نفسي في غرفة نومي. قد يتيح لي ذلك وقتاً كافياً لأهرب من النافذة. خطوت ببطء إلى الوراء.

«ابق هناك، أيها الأفريقي. قف في مكانك يا ابن الحرام»

كان باودر يضع يده على مسدسه. وكان جهاز التلفزيون على الأرض بينهما.

«نستطيع أن نملأ صندوق السيارة مرة أخرى»، قالت له تونيا.

«لا لن نفعل ذلك. يجب أن نخرج من هنا».

«لا أظن أنك تقول لي إننا سنترك هذا هنا».

«ماذا تريدين أن تفعلي؟»

«دعني أفكّر».

يا لي من غبي، قلت لنفسي. بما أن رجالاً ونساء طيبين كانوا قد علّموني قواعد أخلاقيّة صارمة، فإني أجد قوّة في تأكيد ما هو صحيح. قلما أسعفني ذلك في مواقف كهذه. وبينما كنت أراقبهما يتجادلان، خطرت ببالي فكرة، فقلت.

«هيا، آن الأوان لتغادرا. لقد انتهينا. لقد اتّصلت بالشرطة وهم قادمون». قلت ذلك بنبرة واثقة، لكن ما إن نطقت الكلمتين الأخيرتين،حتى رأيت باودر يسير نحوي، وبتتابع سريع قال: «إنك لم تتصل بالشرطة أيها الغبي»، ومدّ ذراعه نحوي. ظننت أنه سيوجّه لكمة إلى وجهي، فغطّيت رأسي، وتركت صدري من دون حماية. ولأول مرة في حياتي، تلقيت ضربة خلت أنها ستقتلني. لا يستطيع أحد أن يحتمل لكمة على بطنه بقوة رجل مثل باودر - خاصة شخص مثلي، بنيته ضعيفة، لا يزيد طوله على ستّة أقدام وثلاث بوصات ولا يزيد وزنه على ١٤٥ باوناً. كان كما لو أنه أخرج رئتي من صدري. كدت أختنق. بصقتُ. وفي النهاية تهاويت، وبينما كنت أتهاوى على الأرض، ارتطم رأسي بشيء صلب، وكانت تلك النهاية الآن، يا فالانتينو أتشاك دنغ.

(٣)

فتحت عينيّ لأرى المشهد قد تغيّر. فقد اختفت معظم ممتلكاتي، نعم، لكن جهاز التلفزيون لا يزال هنا، ينتصب الآن فوق طاولة المطبخ. لا بد أن أحداً شغّله. ثمة أحد أوصله بقابس الكهرباء وهناك صبي يتفرج عليه. قد لا يتجاوز عمر الصبي عشر سنوات، وهو جالس على كرسي في المطبخ، قدماه تتدلّيان، يضع جهاز هاتف خلوي في حضنه، ولم يلاحظ وجودي.

لعلي أهلوس، أحلم بأيّ شيء. فمن غير الممكن أنّ يكون هناك صبي صغير يجلس إلى الطاولة في مطبخ شقتي ويشاهد التلفزيون تعلو وجهه علامات الرضى. لكنّي أُبقي عينيَّ عليه، أنتظر أن يتبخر. لكنه لم يتبخّر. نعم يوجد بالفعل صبي في العاشرة من العمر في مطبخي، يشاهد تلفزيوني الذي نُقل من مكانه الأصلي. لقد نقل أحدهم التلفزيون من غرفة الجلوس إلى المطبخ، وأخذ وقته في إعادة وصل الشريط. كان رأسي ينبض بألم تجاوز أي صداع ألمّ بي منذ أن حطّ بي الرحال في مطار نيويورك منذ خمس سنوات.

بدأت أتساءل وأنا مستلق على السجادة إن كان عليّ أن أبذل محاولة أخرى كي أتحرّك. حتى أنني لا أعرف من هو هذا الصبي. لعله متورط في نفس المشكلة مثلي. حاولت أن أجد ذراعيّ فأدركت أنّهما وراء ظهري، مقيدتان بشريط الهاتف، كما أظن.

هذا أيضاً يحدث لي لأول مرة. فلم يسبق أن قُيِّدت بهذا الشكل، مع أنّني رأيت رجالاً قُيِّدت أيديهم، ورأيتُ هؤلاء الرجال يُعدمون أمامي. كنت في الحادية عشرة من عمري عندما رأيت سبعة من هؤلاء الرجال يُقتلون أمامي، أمام عشرة آلاف صبي منّا في إثيوبيا. وكان الهدف أن يكون ذلك عبرة لنا جميعاً.

كان فمي مكمماً بشريط. إنه شريط تحزيم. عرفت ذلك لأنني، أنا وأتشور أتشور، نستخدمه في حزم الأطعمة التي نخزنها في المجمّدة. لا بد أن باودر وتونيا هما اللذان وضعاه فوق فمي، لأن بكرة اللاصق ملقاة بجانب كتفي. إن صوتي وحركاتي مقيّدة بالأشياء التي أمتلكها.

لا أعرف تماما ما سيحدث لي هنا. أعرف أنّ إطلاق النار يحدث بسبب وقوع عراك أكثر مما يُخطط له. وبما أنني استسلمت، وبما أن هناك صبياً في العاشرة من عمره يجلس إلى الطاولة في مطبخي، فإني لا أظن أنهما ينويان

أن يقتلاني. لكنني أعرف بأنني ضعتُ في سلسلة الأحداث هذه. لا أعرف إلى أين ذهب المعتديان، أو هل سيعودان. من أنت، أيها الصبي الذي يتفرج على التلفزيون؟ أظن أنهما تركاك لتحرسني أنا والتلفزيون، وأنهما سيعودان بعد قليل ليأخذا كليهما. عندما كنت صبيّاً في سنك طُلب مني أكثر من مرة أن أحرس بارودة كلاشينكوف لجندي من جيش التحرير. فخلال الحرب، كان يتردد أنه إذا فقد جندي من المتمرّدين بندقيته، فإنه يُعدم. لذلك، عندما كان جندي ينشغل بأي شيء، كان يطلب غالباً مساعدة أحد الصبية، وكنّا كلّنا مستعدين للقيام بذلك. وفي إحدى المرات، قمت بحراسة بندقيّة عندما كان الجندي يجد متعة مع امرأة من قبيلة أنيوك. كانت تلك المرة الثانية التي تلمس فيها يداي هذا النوع من السلاح، ولا أزال أتذكّر حرارته على يدي حتى الآن.

لكن مجرد التذكّر، استعادة ذاكرة مهما كانت، يسبّب لي ألماً فظيعاً وراء جمجمتي، فأغمضت عينيّ وسرعان ما غبت عن الوعي مرة أخرى. أفقتُ ثلاث أو أربع مرات ولم أكن أعرف كم هي الساعة الآن بالتحديد، وكم مضى عليّ وأنا مستلق مقيّداً على الأرض. فلم تعد هناك ساعات في الغرفة، وكان الليل حالك الظلمة كما كان عندما هويت على الأرض أول مرة. وكنت كلّما استيقظت، رأيت الصبي لا يزال جالساً إلى طاولة المطبخ، لا يكاد يتحرّك، ولم يكن وجهه يبعد عن الشاشة أكثر من ثمان بوصات، ولم تكن عيناه ترمشان.

بينما كنت مستلقياً هنا، ازداد عقلي صفاء، فرحت أتساءل عن هذا الصبي الذي لم يكلّف نفسه حتى الالتفات لينظر إليّ. لم يكن بوسعي أن أرى الشاشة، لكنّي كنت أسمع أصوات الضحكات المنبعثة منه، وكانت تلك أكثر الأصوات حزناً التي سمعتها منذ أن وطأت قدماي هذا البلد. إذا لم يخب ظني وكان هذا الصبي هنا لكي يحرسني، فعليّ أن أغادر أتلانتا، لا بل هذا البلد كله. لعلي يجب أن أذهب إلى كندا. فأنا أعرف عدداً كبيراً من السودانيين الذين استقرّ بهم المقام في تورنتو وفانكوفر ومونتريال، وهم يطلبون مني أن أذهب إلى هناك وأعيش معهم لأن معدل الجريمة فيها أقل، وخيارات العمل أكثر. والأهم من كلّ ذلك، فقد حصلوا على تأمين. وبينما أستلقي هنا، أتذكّر أنني لم أحصل على أي تأمين. كنت قد حصلت على تأمين لمدّة سنة، لكني لم أجدّده عندما انتهت صلاحيته. فعندما تركت عملي في استعادة عيّنات القماش منذ أربعة أشهر وأصبحت طالباً نظامياً، بدا لي أن مبلغ التأمين مصروف غير ضروري. أحاول أن أخمنّ الجروح التي أصابتني، لكني لم أستطع معرفة ذلك في تلك اللحظة. لكن قدرتي على التفكير جعلني أعرف بأنني لم أصب بجرح عميق في رأسي، وإلاّ لكنت في عداد الأموات الآن.

أما السودانيون الذين لم يذهبوا إلى كندا، فقد ذهبوا إلى منطقة السهول الكبرى ونبراسكا وكانساس - الولايات التي تتحوّل فيها الأبقار إلى لحم. قالوا لي إن عملية تجهيز اللحوم مجزية جداً، وأن العيش في هذه البقاع من البلد ليست مكلفة كثيراً. ففي أوماها يوجد حالياً آلاف السودانيين بالإضافة إلى «أطفال السودان الضائعين» وآخرين، ويكسب معظمهم رزقهم من ذبح الحيوانات، الأبقار، وسلخها. الأبقار التي تُذبح في بقاع كثيرة من بلدنا السودان كأضاحي في المناسبات: الأعياد والأعراس والجنازات والولادات. لقد أصبح السودانيون في أمريكا جزّارين. لقد أصبحت الجزارة من أكثر المهن شعبية التي يعمل بها الرجال الذين أعرفهم. لا أعرف إن كانت تلك تشكّل قفزة نوعية كبيرة مقارنة بالحياة التي كنّا نعيشها في كاكوما. أظن أنها كذلك، لأن الجزّارين يستطيعون توفير حياة أفضل لأطفالهم، هذا إذا كان لديهم أطفال. لقد أصبح الأطفال السودانيون الصغار الذين أنجبهم المهاجرون يرطنون اللغة الإنكليزية كالأمريكيين! هكذا هو الحال الآن، في سنة ٢٠٠٦. هناك بضعة أشياء أراها غريبة عليّ.

عندما رفعت عينيَ إلى الأعلى ونظرت باتجاه الأريكة تذكّرت تابيثا. فمنذ فترة ليست ببعيدة، كانت تجلس معي على هذه الأريكة، تضع ساقيها فوق ساقيَّ. كنا ملتحمين بقوة إلى حد أنني خشيت أنني لن أتنفّس إذا لم تتحرّك. يا صبي التلفزيون، كم أنا مشتاق إليها وإلى حرارتها التي تفاجئني وتغمرني. كانت برفقتي هنا منذ فترة قصيرة في عطلة نهاية الأسبوع ولم نكد نغادر الشقّة في ذلك الوقت. كان لقاء منحّلاً من الناحية الأخلاقية بخلاف كلّ ما رُبينا عليه. كانت قد جاءت إلى أمريكا، إلى سياتل، من مخيّم اللاجئين في كاكوما أيضاً، وها نحن هنا، طفلان نشأنا في ذلك المخيّم، نقيم بعد سنوات عديدة في أمريكا، ونجلس على هذه الأريكة في هذه الغرفة، نهزّ رؤوسنا مستغربين كيف قطعنا كلّ هذه المسافة البعيدة، ونتساءل ما الذي يقبع أمامنا. كانت تقهقه من بين ذراعيّ النحيفتين، وكانت تلفّ إبهامها وسبّابتها حول عضلة ذراعي وتضغط عليها. لكن لم يكن ثمة شيء كانت تفعله أو تقوله يجعلني أشعر بالإهانة أو يثنيني عن حبّها. لقد جاءت إلى أتلانتا لتزورني، وهذا أهم ما في الأمر. كانت تجلس على أريكتي، في شقتي، ترتدي قميصاً بأردان قصيرة، وردي اللون، ناعماً، فضفاضاً، كنت قد اشتريته لها في اليوم السابق من مركز ديكالب للتسوّق. التسوّق علاجي!، كُتب عليه بأحرف فضية براقة تتأرجح إلى الأعلى من اليسار إلى اليمين، ونجمة في أسفلها نقطة تشكل علامة تعجّب. كان الجلوس إلى جانبها وهي ترتدي هذا القميص لذيذاً. لقد أحببت تابيثا لأنها جعلتني أشعر بأنني أصبحت شخصاً بالغاً، كما لو أنني بلغت أخيراً مبلغ الرجال. معها كنت أشعر بأنّني أستطيع أن أهرب من طفولتي، ومن الحرمان والكوارث التي صادفتها.

بدأ الصبي الآن ينظر داخل الثلاجة. أعرف أنه لن يجد شيئاً يمكن أن يأكله. ربما لأننا، أنا وأتشور أتشور، نطبخ طعامنا على الطريقة السودانية، ولم أجد حتى الآن أيّ أمريكي أعجبه ما نطبخه. أعترف أننا لسنا طبّاخين ماهرين. وفي الأسابيع الأولى من مجيئنا، لم نكن نعرف ماهي الأطعمة التي يجب أن نضعها في المجمّدة، أو في الثلاجة، وما هي الأطعمة التي يجب أن نضعها في الخزانة والأدراج. ولكي نكون في مأمن، وضعنا معظم المواد، بما فيها الحليب وزبدة الفستق في المجمّدة، وهنا بدأت الصعوبة.

وجد الصبي شيئاً يحبّه ثم عاد إلى مقعده. إني واثق من أن هذا الصبي الذي عاد وجلس أمام التلفزيون والذي يحمل بيده علبة فانتا، لا يعرف شيئاً ممّا شهدته أنا في أفريقيا. لا أتوقّع أن يكون قد رأى شيئاً، ولا ألومه على ذلك. فقد كنت أكبر منه سناً عندما بدأت أدرك أن هناك عالماً يقبع وراء جنوب السودان، وأنه تقبع محيطات وراءه. لكنّي لم أكن أكبر منه كثيراً عندما بدأت أحكي قصّتي. إن ما رأيته في تلك السنوات منذ رحيلنا من قرانا إلى إثيوبيا، ثمّ اجتيازنا النهر الدامي إلى كينيا، هو الذي ساعدني وساعد آخرين في حكاية قصّتنا. فعندما كنّا نؤكد قضيتنا لموظفي الأمم المتحدة في كاكوما، أو عندما نحاول أن نحكي الآن عن الوضع الخطير في السودان، فإننا نروي أكثر القصص رعباً. ومنذ وصولي إلى أمريكا، حكيت روايات مختصرة من قصّتي لروّاد الكنيسة، ولطلاب المدارس الثانوية، وللمراسلين، وللشخص الذي تبنّاني، فيل مايرز الذي لعلي كررت له للمرة المئة موجزاً رئيسياً عن قصتي. لكن فيل كان يريد أن يسمع كلّ التفاصيل، فحكيت له القصة بأكملها تقريباً. وكانت زوجته تسمع صوت صرير لوح الأرضية الخشبي في الطابق الأرضي فوقها. ففي كلّ ليلة ثلاثاء، بعد أن نتناول العشاء مع زوجته وابنيه التوأم الصغيرين، كنّا، أنا وفيل، نصعد الدرج الحلزوني ونجتاز الممر ونتوجه إلى غرفة لعب الأطفال المطلية باللون الوردي، وأحكي له قصّتي طوال ساعتين. فعندما أعرف أنّ شخصاً يستمع إليّ باهتمام، ويريد سماع كلّ ما يمكنني أن أتذكّره، عندها أتمكّن من تذكر الأحداث. فلو دوّنت أحلامك في مذكرة، فإنك ستعرف كيف أن تدوينها في صباح كلّ يوم يمكن أن يعيدها إلى ذاكرتك. وبدءاً من الجزء الذي يمكنك أن تتذكّر فيه معظم الأشياء، يصبح بإمكانك أن تعيد خلق المغامرات والأمنيات والأحداث المرعبة في الليل، وتستحضر كلّ شيء منذ اللحظة التي تضع فيها رأسك على وسادتك.

عندما وصلت إلى هذا البلد، كنت أحكي في البداية قصصاً صامتة. كنت أحكيها لأشخاص أساؤوا إليّ. فإذا تجاوزني أحد في الطابور، أو تجاهلني، أو لكزني، أو دفعني، كنت أحملق، أحدّق فيه، أهسهس له قصّتي بصمت. كنت أقول له إنك لا تفهم، إنك لن تضيف شيئاً إلى ما عانيته، فقط لو كنت تعرف

ماذا رأيت. وحتى يغيب ذلك الشخص عن ناظري، كنت أحدّثه عن دنغ الذي مات بعد أن تناول لحم فيل نيئ تقريباً، أو عن أهوك وأواتش وأوغيث، الأختان التوأم اللتان اختطفهما عربيان على ظهر حصان، وإذا كانتا لا تزالان على قيد الحياة اليوم، فلا بد أنهما أنجبتا الآن أطفالاً من هذين الرجلين أو مِنْ مَنْ باعاهما إليه. هل تعرف؟ من المرجح أن هاتين الفتاتين البريئتين لا تتذكران شيئاً عني أو عن بلدتنا أو من أنجبهما. هل يمكنك أن تتخيّل ذلك؟ وعندما أنهي كلامي مع ذلك الشخص، أواصل سرد حكايتي، أكلّم الهواء، السماء، كلّ شعوب العالم وأكلّم من قد ينصت في السماء. ومن الخطأ القول إنّني كنت أحكي هذه القصص، فأنا لا أزال أفعل ذلك، لا للذين أشعر بأنهم أذوني فقط. فالقصص تخرج منّي طالما كنت مستيقظاً وأتنفّس، وأريد أن يسمعها الجميع. إن الكلمات المكتوبة نادرة في القرى الصغيرة مثل قريتي، ومن حقي، ولزاماً عليّ، أن أنقل قصصي إلى العالم، حتى لو بصمت، حتى لو لم أكن أمتلك القوّة اللازمة على ذلك.

لا أرى إلاّ جانب رأس الصبي، وهو لا يختلف عني عندما كنت في عمره. لا أريد أن أقلل من شأن ما يجري أو ما جرى له في حياته. من المؤكد أن سنوات حياته ليست شاعرية، فهو الآن متواطئ في عملية سطو مسلح ويسهر معظم الليل لحراسة ضحيّته. لن أطلق تكهّنات حول ما يتعلّمه أو ما تعلّمه في المدرسة وفي البيت. وبخلاف الكثيرين من زملائي الأفارقة، فإنه لا يسوؤني أنّ الكثيرين من الشبان هنا في أمريكا لا يعرفون كثيراً عن حياة الأفارقة المعاصرين. فمقابل كلّ شاب لا يعرف حقيقة ما يجري، يوجد كثيرون يعرفون ما نتعرّض له في تلك القارة ويقدّرونه. وبالطبع، ما الذي كنت أعرفه عن العالم قبل دراستي في المدرسة الثانوية في كاكوما؟ لم أكن أعرف شيئاً. حتى أنني لم أكن أعرف شيئاً عن وجود بلد اسمه كينيا إلا بعد أن وطأته قدماي.

انظر إليك، يا صبي التلفزيون، وأنت تجلس على كرسي المطبخ ذاك كأنه سرير.

إنه يستخدم ثلاث مناشف أخرجها من خزانة ملابسنا كبطانية، تاركاً أصابع قدميه الوردية الصغيرة مكشوفة. أحاول ألاّ أقارن حياته بحياتي، لكن وضعيته المحنية إلى الأسفل تذكّرني بالطريقة التي كنّا ننام فيها عندما كنا متجهين إلى إثيوبيا. وإذا كنت قد سمعت عن «أطفال السودان الضائعين»، فلا بد أنك سمعت عن الأسود. ولفترة طويلة، ساعدت قصصنا حول تعرضنا للأسود في كسب تعاطف الأشخاص الذين أحاطونا برعايتهم والبلد الذي لجأنا إليه. فقد عززت الأسود المقالات الصحفية التي كُتبت عنّا، ولا شكّ أنها

أدت دوراً كبيراً في جعل الولايات المتحدة تبدي بنا اهتماماً في المقام الأول. لكن على الرغم من الشكوك المتزايدة التي أعرب عنها الأشخاص الأكثر انتقاداً، فإن أغرب شيء في هذه القصص هو أن معظمها حقيقي. فعندما كان المئات من الصبية في مجموعتي يسيرون عبر السودان، التهمت الأسود خمسة صبية منّا.

وقعت الحادثة الأولى بعد مضي أسبوعين على مسيرنا. كانت أصوات الغابة في الليل قد بدأت تُفقدنا صوابنا. فلم يعد باستطاعة بعض الصبية السير في الليل. وكانت تنبعث أصوات جلبة صاخبة، يعني كلّ منها نهاية محتملة لحياتنا. كنّا نسير في دروب ومسالك ضيّقة في الغابة، وكنّا نشعر بأننا مطاردون. فعندما كنّا نعيش في بيوتنا وفي كنف عائلاتنا، لم نكن نلج الغابة في الليل لأن الحيوانات كانت تلتهم الصغار من دون أن تصدر أي صوت أو جعجعة. أما الآن فإننا نسير مبتعدين عن بيوتنا، عن عائلاتنا. كنا نسير في رتل من الصبية، مئات معاً، الكثير منّا عراة، وكلّنا عزّل. في الغابة، كنّا نحن الصبية، طعاماً. مشينا عبر غابات وسرنا في أراض تكسوها الأعشاب، وقطعنا الصحراء في البلد والأقاليم الأكثر خضرة في جنوب السودان حيث كانت الأرض ندية في معظم الأحيان تحت أقدامنا.

أتذكّر أول صبي التهمه أسد. كنّا نسير في رتل واحد، كما كنا نفعل دائماً، وكان دنغ يمسك بقميصي من الخلف كما كان يفعل دائماً. كنّا، أنا وهو، نسير في وسط الرتل، لأننا قرّرنا إنه المكان الأكثر أماناً. كان الليل مضيئاً، نصف بدر يتربع في السماء فوقنا. رأيناه أنا ودنغ وهو يبزغ، في البداية أحمر ثمّ برتقالي وأصفر، ثمّ أبيض، حتى استحال أخيراً إلى فضيّ عندما تربّع في أعلى نقطة في قبّة السماء. كانت الأعشاب عالية من كلا الجانبين ونحن نسير، وكانت الليلة هادئة أكثر من الليالي السابقة. في البداية، تناهى إلينا صوت خطوات تمشي بتثاقل. كان صوتاً عالياً. كان هناك حيوان أو شخص يتحرّك بين الأعشاب بجانب الرتل الذي نسير فيه. واصلنا سيرنا، لأننا لم نكن نتوقف عن السير. عندما كان الصبية يصرخون في الليل، كان أكبرنا سنّاً - دوت ماجوك، قائدنا، في السراء والضراء، لم يكن يزيد عمره على الثامنة عشرة أو العشرين - يوبّخهم بقوة وبسرعة. كان يمنع أن يصرخ أحد في الليل لأن ذلك يجلب إلينا انتباهاً غير مرغوب فيه. وفي بعض الأحيان، كان يمكن إرسال رسالة - هذا الصبي أصيب بجرح، هذا الصبي انهار - عبر الرتل، همساً من صبي إلى آخر، حتى تصل الرسالة إلى دوت. أما في هذه الليلة، فقد خيّل إلينا، أنا ودنغ، بأنّنا سمعنا صوت الحفيف القوي بين الأعشاب، لكننا قلنا إن هذا الصوت عادي ولا يشكل خطراً.

لكن سرعان ما بدأ الصوت يعلو بين العشب. فتكسّرت عيدان الأعشاب، وتهشمت، ثم عاد العشب إلى الصمت عندما أسرع المخلوق ثم تباطأ. جرى إلى الأمام ثم إلى الوراء على طول الرتل. سمعت المجموعة الأصوات لفترة من الوقت. كان القمر عالياً في السماء عندما بدأت الحركة بين الأعشاب، وبدأ القمر يسقط ويخفت نوره عندما توقّف صوت الحفيف أخيراً.

لم يكن الأسد سوى خيال أسود، كتفاه عريضتان، وسيقانه الغليظة ممتدّة، فمه فاغر. قفز من بين الأعشاب، وأصاب أحد الصبية في قدميه. لم أستطع رؤية هذا الجزء، لأن رؤيتي كان يحجبها رتل الصبية أمامي. سمعت صوت عويل لفترة وجيزة، ثمّ رأيت الأسد بوضوح مرة أخرى وهو يقفز إلى الجانب الآخر من الدرب، والصبي بين فكّيه. ثم اختفى الحيوان وفريسته بين الأعشاب العالية وبعد لحظات توقّف صوت العويل. كان اسم الصبي الأول آرياث.

- اجلسوا! صاح دوت.

جلسنا كما لو أن الريح قد ألقت بنا إلى الأسفل، واحداً تلو الآخر، من بداية الرتل حتى آخره. أحد الصبية، أتذكّر أن اسمه أنجيلو، ركض. خيّل إليه أن الجري والهرب من الأسد أفضل من أن يقعي فأخذ يجري بين الأعشاب العالية. هنا رأيت الأسد مرة أخرى. فقد جرى الحيوان عبر الدرب ثانية، قفز، وأمسك بأنجيلو بسرعة كبيرة. وبعد لحظات، حمل الأسد الصبي الثاني في فمه، وغرز أسنانه في رقبة أنجيلو وفي عظم الترقوة. وأخذ هذا الصبي إلى المكان الذي وضع فيه آرياث.

سمعنا صوت أنين لكن سرعان ما سكن العشب.

نهض دوت ماجوك واقفاً. لم يكن يعرف إن كان علينا أن نواصل سيرنا أم نظل جالسين. زحف فتى طويل القامة، يدعى كور غارانغ كور، الأكبر سنّاً بعد دوت، على طول الرتل حتى وصل إلى دوت، وهمس في أذنه. هزّ دوت رأسه. لقد تقرّر أنّ نواصل السير، وسرنا. ثم أصبح كور المستشار الرئيسي لدوت ماجوك، وقائد رتل الصبية عندما يغيب دوت لبضعة أيام. نشكر الله على وجود كور؛ لأننا كنّا، بدونه، سنفقد المزيد من الصبية، للأسود وللقنابل وللعطش.

بعد الأسود، لم نشأ أن نتوقّف في تلك الليلة. لم نتعب، وقلنا إننا نستطيع أن نمشي حتى الفجر. لكن دوت قال إن النوم ضروري. أحسّ أنه يوجد جنود من الجيش الحكومى فى المنطقة، وإننا يجب أن ننام وفى الصباح يمكننا أن

نعرف أين نحن. لم نعد نصدّق شيئاً يقوله لنا دوت لأنّ الكثيرين منّا لاموه على موت أنجيلو وآرياث. متجاهلاً تذمرنا، جمعنا في مكان خالٍ من الأعشاب وطلب منّا أن ننام. ومع أننا لم نتوقف عن السير منذ شروق الشمس، فلم تغمض عين أي صبي في المجموعة. انتصبت أنا ودنغ جالسين، ورحنا نحدّق في العشب، نراقب أي حركة، وننصت إلى صوت دفع أو كسر عيدان الأعشاب.

لم يولِ أي صبي ظهره للأعشاب الطويلة. جلسنا ظهراً لظهر، كلّ اثنين، كي يتمكّن أحدنا من تحذير الآخر من الحيوانات المفترسة. وسرعان ما أصبحنا نجلس في شكل دائرة، أما الذين ناموا، فقد ناموا وأجسامنا متجهة إلى المركز. وجدت مكاناً وسط الدائرة وارتحت بقدر ما أستطيع. وفي غضون ذلك، كان الصبية في خارج الدائرة يحاولون الانتقال إلى وسطها. فلم يشأ أحد أن يكون عند الأطراف. صحوت في الليل ووجدت أنّني لم أعد في المركز. شعرت بالبرد، لأنه لم يكن هناك أحد يلتصق بي. تطلّعت حولي، فوجدت أن الدائرة قد انزاحت. فعندما كنت نائماً، انتقل الصبية من خارج الدائرة إلى داخلها، فابتعدت الدائرة عشرين قدماً إلى يساري، وبقيت وحدي خارجها. فعدت إلى الوسط، ودست دون قصد على يد دنغ، فضربني على كاحلي، ونظر إليّ باستهجان، لكنه عاد ونام. استلقيت بين الصبية وأغمضتُ عيني، وصمّمت على ألاّ أترك خارج دائرة النوم ثانية.

في كلّ ليلة خلال مسيرنا، يا صبي التلفزيون، كان النوم يُعتبر مشكلة. فكلما فتحتُ عينيَ في الساعات المظلمة كنت أرى عيوناً أخرى مفتوحة، وأفواهاً تدمدم صلوات وأدعية. كنت أحاول أن أنسى هذه الأصوات والوجوه فأغمضت عينيّ وبدأت أفكّر بالبيت. كان عليّ أن أستحضر أجمل ذكرياتي وأستجمع أفضل أيامي. كان دوت قد علّمنا هذه الحيلة التي كان يعرف أنها ستجعلنا، نحن الصبية، نسير أسرع، ولن نتذمر كثيراً، وسنحتاج إلى رعاية أقل لو نمنا جيداً. تخيّلوا أفضل صباح لديكم! صاح بنا. كان دائماً يصرخ، يطفح دائماً بالطاقة. تذكروا طعام غدائكم المفضّل الآن! أفضل مساء أمضيتموه! لعبة كرة القدم المفضّلة لديكم، الأمسية المفضّلة لديكم، الفتاة التي تحبّونها أكثر! كان يقول ذلك وهو يسير على طول رتل الصبية الجالسين، يكلّم رؤوسنا. الآن أخلقوا في عقولكم أفضل الأيام، واحفظوا هذه التفاصيل عن ظهر قلب، ضعوا مركز يومكم هذا في مخيلتكم، وعندما يبلغ بكم الخوف مبلغه، استحضروا هذا اليوم وضعوا أنفسكم فيه. تذكّروا هذا اليوم وأؤكد لكم أنكم قبل أن تنتهوا من حلمكم بطعام الفطور، ستكونون قد غططتم في النوم. لم يكن ذلك يبدو مقنعاً، يا صبي التلفزيون، لكني أقول لك إن هذه الطريقة كانت ناجعة. فهي تجعلك تتنفّس ببطء، وتجعل عقلك أكثر

تركيزاً. لا أزال أتذكّر اليوم الذي صنعته، أفضل أيامي، جمعته معاً من أيام كثيرة. سأحكيه لك بأسلوب تفهمه. إنه يومي أنا، لا يومك أنت. إنه اليوم الذي حفظته عن ظهر قلب واليوم الذي لا أزال أشعر بأنه حيوي أكثر من أيّ يوم أمضيته هنا في أتلانتا.

(٤)

كنت في السادسة من عمري، وكان المطلوب أن أمضي بضع ساعات كلّ يوم في صفّ قبل المدرسة الابتدائية في مدرسة تتألف من غرفة واحدة في مايال باي. وأجد نفسي مع صبية آخرين من نفس فئتي العمرية، صبية يكبرونني أو يصغرونني بسنوات معدودة، نتعلّم حروف الأبجديّة بالإنكليزية والعربية. كانت المدرسة محتملة ولم تصبح مملة بعد، لكنني كنت أفضّل أن أكون خارجها. لذلك فإن يوم حلمي يبدأ عندما وصلت إلى المدرسة وقالوا لنا أنه أُغلقت. أنتم تلاميذ أذكياء جداً! قال لنا المعلّم، وطلب منّا أن نعود إلى البيت، لنلعب ونصنع ما نشاء في يومنا.

عدت إلى البيت لأرى أمّي التي كنت قد تركتها منذ عشرين دقيقة فقط. شعرت بأنّها اشتاقت إليّ. وأمّي هي زوجة أبي الأولى وتعيش في مجمّع الأسرة مع زوجاته الخمس الأخريات، اللاتي تودّهن كثيراً، بل حتى إنها تشعر بأنها إحدى أخواتهن. كلّهن كنّ أمهاتي، يا صبي التلفزيون، كما يبدو لك ذلك غريباً. ففي معظم الأحيان، لا يعرف الأطفال الصغار في جنوب السودان لا يعرفون من هي أمّهم التي ولدتهم، بسبب تلاحم الزوجات وأطفالهن معاً. ففي عائلتي، يلعب الأطفال الذين أنجبتهن النساء الستّ معاً ويعتبرون أنفسهم عائلة واحدة ولا توجد بينهم حواجز أو تحفظات. وكانت أمّي إحدى القابلات في القرية، وساعدت في توليد كلّ أشقّائي إلاّ واحداً. وأكبر إخوتي وأخواتي في السادسة عشر من العمر، وأصغرهم لا يتجاوز عمره عن ستّة أشهر. ويمتلئ بيتنا بأصوات الأطفال الصغار وصراخهم وضحكاتهم. وعندما كان يُطلب مني، فإني أساعد الأطفال، أحملهم عندما يبكون، وأجفّف ثيابهم المبللة بجانب النار.

عدت راكضاً من المدرسة. وجلست بجانب أمّي التي كانت تصلح سلة قضمت إحدى عنزاتنا جزءاً منها. أمضيت لحظة طويلة وأنا أتأمل جمالها. كانت أطول قامة من معظم النساء، لا يقل طولها عن ستّة أقدام، وعلى الرغم من أنها نحيفة مثل جميع النساء في القرية، فهي قوية مثل أيّ رجل. وكانت ترتدي ملابسها بجرأة، التي كانت دائماً باللون الأصفر والأحمر والأخضر الأكثر تألقاً، لكنّها كانت تفضّل اللون الأصفر على الألوان الأخرى، ثوباً أصفر بالتحديد، أصفر الحبالى مثل غروب الشمس. كان بإمكاني أن أراها من أي مكان، كنت أستطيع رؤيتها من أبعد نقطة يمكن أن تصلهما عيناي: فما كان عليّ إلاّ أن أبحث عن صوت حفيف فستان أصفر، يسير نحوي في الحقل،

حتى أعرف أنها أمّي. وفي كثير من الأحيان، كنت أقول لنفسي إنني لا أحبّ شيئاً في هذه الدنيا أكثر من أن أعيش تحت ثوبها دائماً، أتعلّق بساقيها الناعمتين، أتحسّس أصابعها الطويلة الناعمة خلف رقبتي.

- بمَ تحدّق يا أتشاك؟ تسألني، تضحك عليّ، تستخدم اسمي الأصلي، الاسم الذي طالما كنت استخدمه حتى استُبدل بألقاب أخرى في إثيوبيا وكاكوما، أسماء كثيرة جداً.

كثيراً ما كانت أمّي تلاحظ أنني أنظر إليها، وقد رأتني هذه المرة أيضا. حثتني لأن أذهب وألعب مع أصدقائي، فجريت نحو شجرة الأكاسيا العملاقة أبحث عن وليام كي وموسى. كانا تحت شجرة الأكاسيا المائلة بالقرب من مهبط الطائرات، حيث تصرخ النعامات وتطارد الكلاب. كان موسى قوي البنية، يا صبي التلفزيون، أضخم مني، وأضخم منك، له عضلات بارزة مثل عضلات رجل، وتوجد على خدّه ندبة في شكل نصف دائرة، لونها وردي قاتم، حيث جُرح عندما كان يجري عبر أجمة من الأشواك. أما وليام كي فكان أصغر حجماً، أنحف، له فم ضخم لا يتوقّف أبداً عن التحدث بأي شيء يمكن أن يخطر على باله. ففي كلّ يوم، منذ أن يستيقظ، كان يملأ السماء بأفكاره وآرائه، وأكثر من أي شيء آخر، بأكاذيبه، لأن وليام كي كان يحبّ أن يكذب. فقد كان يختلق قصصاً عديدة عن أناس وعن الأشياء التي كان يمتلكها أو يريد أن يمتلكها، وعن الأشياء التي رآها وسمعها وتلك التي سمعها عمّه، الذي كان عضواً في البرلمان، خلال رحلاته. فقد قال إن عمّه أناساً لهم سيقان تمساح، ونساء يستطعن القفز من فوق المباني. وكان الموضوع المفضّل لقصصه المختلقة وليام أ، وليام الآخر الذي في عمرنا تقريباً، والعدو اللدود الدائم لوليام كي. فلم يكن وليام كي يحبّ أن يحمل شخص آخر نفس اسمه، وكان يظن، كما يخيّل لي، إنه إذا استمر في مضايقة وليام الآخر، فإن هذا الأخير قد يتخلّى عن اسمه أو حتى يضطر إلى مغادرة البلدة.

اليوم، في اليوم الذي استحضره إلى ذاكرتي عندما أريد، كان وليام كي يحكي قصّة عندما وصلت إلى شجرة الأكاسيا.

- إنه يشرب حليبه من الضرع مباشرة. هل تعرفان ذلك؟ ستصيبكما أمراض إذا شربتما الحليب بهذه الطريقة. يمكن أن تصابا بداء السعفة. بمناسبة الحديث عن داء السعفة، فإن جزءاً من والد وليام ،كلب. هل تعرفان ذلك؟

لا نعير أنا وموسى اهتماماً كبيراً بما يقوله وليام كي، آملين أن يستنزف نفسه ويتوقف. لكن ذلك لم يحدث اليوم، ولم يحدث في أي يوم. كان الصمت

يحثّ وليام كي على أن يخرج من تجويف فمه المظلم اللا نهائي مزيداً من الكلمات والأصوات.

- أظن إنه يحمل نفس اسمي يضايقني كثيراً، لكن ذلك يجب ألاّ يقلقني لأنه لن يكون في صفّي السنة القادمة. هل سمعتما بأنّه متخلّف عقليا؟ إنه كذلك فعلاً. دماغه مثل دماغ قطّة. لن يكون في مدرستنا السنة القادمة. يجب أن يمكث في البيت مع أخواته. هذا ما يحدث عندما تشرب الحليب من الضرع مباشرة.

بعد بضع سنوات، عندما خُتنا وأصبحا جاهزين، أُرسل موسى ووليام كي إلى معسكر المواشي مع الصبية الآخرين، ليتعلّموا أساليب رعايتها، بدأً بالماعز وانتهاء بالأبقار. كان أشقائي الأكبر مني سنّاً، آرو وغارانغ، وأديم، في معسكر الماشية في يوم الحلم ذاك. والصبية يحبون ذلك المكان كثيراً: ففي معسكر الماشية، لا يخضع الصبية لنظام محدد، فطالما يرعون الماشية، فإنهم يستطيعون أن يناموا أينما أرادوا ويمكنهم أن يفعلوا ما يحلو لهم. أما أنا فقد بدا أبي يعلمني التجارة التي يزاولها لأدير في النهاية محلاته في مايال باي وأويل.

كان موسى يشكّل بقرة من الطين بينما كنت أنا ووليام كي ننظر إليه. كان عدد من الصبية وبعض الشباب قد اتخذوا من صنع أبقار من طين هواية لهم، لكن هذه الهواية لم تجذبني ولم تجذب وليام كي. فقد كان اهتمامي بذلك سلبياً، ولم يستطع وليام كي أن يرى جدوى من وراء هذه الفكرة. فلم يكن يرى في صنع تلك الأبقار أو حفظها في جوف شجرة صفصاف حيث يضع موسى عشرات منها منذ أن بدأ بتشكيلها منذ بضع سنوات، أي فائدة.

- لماذا تزعج نفسك؟ سأل وليام كي. - فهي تتهشم بسهولة.

- لا، إنها لا تتهشم. ليس دائماً، قال موسى بهدوء وهو لا يزال منهمكاً في تشكيل قرون بقرته، طويلة وملتفّة. - لقد صنعت هذه منذ عدة أشهر، وأما برأسه إلى مجموعة صغيرة من الأبقار الطينية على بعد بضعة أقدام.

- لكنّها قد تتهشم، قال وليام كي.

- ليس تماماً، قال موسى.

- أنا متأكد من أنها تنكسر. انظر.

قال وليام كي ذلك وداس فوق إحدى تلك الأبقار، وسحقها حتى استحالت تراباً.

- أرأيت؟

لم تكد هذه الكلمة تخرج من فمه حتى أصبح موسى فوقه، وراح يضرب رأس وليام كي بيديه الغليظتين. في البداية، بدأ وليام كي يقهقه، لكن مرحه سرعان ما تلاشى عندما وجّه موسى لكمة قوية إلى عين وليام كي، فراح وليام كي يصرخ بألم وإحباط، وعلى الفور تغيّر مسار عراكه. وبقفزة مفاجئة أصبح فوق موسى ووجّه ثلاث لكمات سريعة إلى ذراعيْ موسى - مرّت أمام وجهه - قبل أن أسحبه وأبعده عنه.

في يوم حلمي ذاك، قطعت شجارنا رؤية شيء يلمع فاضطررنا كلّنا إلى أن نغمض عيوننا نصف إغماضه. نهضنا ببطء من فوق التراب واتجهنا نحو السوق. كانت هناك أضواء تنبعث من جذع شجرة في السوق، بجانب مطعم بوك، وسرنا مسرنمين نحوها، فاغرين أفواهنا. وعندما اقتربنا من مصدر الضوء، أصبح بإمكاننا أن نرى أنها لم تكن شمساً ثانية، وإنما دراجة هوائية. من المؤكد أنها كانت دراجة جديدة، مصقولة، لامعة، رائعة.

من أين جاءت؟ من هو صاحبها؟ فقد كانت أعظم شيء شوهد في مايال باي كلّها. دواساتها فضة النجوم، ومقودها رائع، ويختلف لون إطارها عن أيّ لون كنت قد رأيته في البلدة: مزيج من الأزرق والأخضر والأبيض، تمتزج معاً كما في أعمق جزء من النهر.

لاحظ جوك أننا ننظر بإعجاب شديد إلى الدراجة وجاء ليستمتع بهذا الإعجاب.

- درّاجة جميلة، أليس كذلك؟ قال.

كان جوك نيبيك آرو، صاحب محل الخياطة في البلدة قد اشترى الدراجة مؤخراً من تاجر عربي من الجانب الآخر من النهر، في شاحنة مليئة بأشياء جديدة ورائعة، معظمهما معقّد ميكانيكياً - ساعات حائط، أطر أسرّة مصنوعة من فولاذ، إبريق شاي له غطاء يُفتح تلقائياً عندما يغلي الماء فيه.

- كلّفتني مبلغاً كبيراً، يا أولاد.

لم نشكّ في ذلك للحظة.

- هل تريدان أن تريا وأنا أركبها؟ سألنا.

هززنا رؤوسنا.

عندها ركب جوك الدرّاجة، ببطء وبحذر كما لو أنه كان يمتطي بغلاً مصنوعاً من زجاج، وبدأ يضغط على الدواسات ببطء لكنه لم يتمكن من الحفاظ على جسده منتصباً. وشعر الرجال الآخرون في السوق بالغيرة من جوك وأرادوا كذلك أن يسخروا منه، فراحوا يكيلون له الإهانات لأنه كان يقود الدراجة ببطء شديد جداً، ويسألونه أسئلو كان جوك يجيب عليها بهدوء شديد.

- هل هذه اكبر سرعة يمكنك أن تقودها يا جوك؟

- الدرّاجة جديدة يا جوزيف. وأنا حذر فقط.

- قد تكسرها يا جوك. إنها سريعة العطب!

- لقد تعودت عليها يا غوياال.

غوياال الذي لم يكن يعمل، ويحتسي الخمرة في معظم الأيام، ويستدين نقوداً لا يستطيع أن يسددها، والذي لم يكن يحبّه أحد كثيراً، أصبح اليوم حريصاً لأن يظهر لجوك بأنه بطيء جداً على هذه الدراجة المتعددة الألوان. وبينما كان جوك يقود دراجته، كان غوياال على الدرب بجانبه، مشيراً له بأنه يستطيع أن يمشي أسرع من جوك الراكب على الدرّاجة.

- ساقاي أسرع من كلّ هذه الدراجة الجميلة يا جوك.

- لا يهمّني. سأتمكن ذات يوم من قيادتها أسرع من ذلك. لكن ليس الآن.

- أظن أنّك توسّخ العجلات يا جوك. انتبه!

ابتسم جوك لغوياال، ثم ابتسم بهدوء لكلّ من كان يراه، لأنه يملك الآن أجمل شيء في مايال باي، أما هم فلا يملكونه.

عندما توقف جوك وأسند الدرّاجة إلى الشجرة، وبدأ يبدي أعجابه بها بالإضافة لي وموسى ووليام كي، أصبح الحديث جدّيا. فقد دار حديث عن البلاستيك. فقد استلم الدراجة يغلّفها بلاستيك، بلاستيك يشبه سلسلة من جوارب شفّافة تغطّي كلّ قضبان الدراجة المعدنية. تفحّص جوك الدراجة، شابكاً ذراعيه أمامه.

- من المؤسف أنّهم لم يقولوا لك إن كان هذا الغطاء البلاستيكي ضرورياً أم لا، قال.

خشينا أن نذكر شيئاً عن البلاستيك لكي لا يطردنا جوك.

اقترب جون شقيق جوك، أطول رجل في مايال باي، هزيلاً وله عيناه ضيقتان.
- طبعاً يجب أن تنزع البلاستيك عنها، يا جوك. فهم يضعونه من أجل الشحن فقط. دعني أساعدك...

- لا!

أوقف جوك شقيقه بقوة. - امهلني لحظة لأفكّر بذلك.

في هذه اللحظة، كان كينيانغ لوول، الأخ الأصغر لشيخ البلدة، واقفاً معنا. حكّ ذقنه وقدّم رأيه أخيراً.

- إذا نزعت عنها البلاستيك، فإنها ستصدأ ما إن تتبلّل، وسيتقشر الطلاء وستصبح باهتة اللون أخيراً بفعل الشمس. ساعد ذلك جوك على أن يحسم أمره ولا يفعل شيئاً. وقال إنه يريد سماع مزيد من الآراء قبل أن يفعل ذلك. وفي ذلك اليوم، ناقشنا، أنا ووليام وموسى، الأمر مع الرجال الآخرين في السوق، ووجدنا بعد عشرات المشاورات، أن الآراء كانت منقسمة بحدة: فقد أصرّ نصفهم على أنّ البلاستيك وضع من أجل الشحن فقط ويجب أن يُزال، في حين أكدّ نصفهم الآخر على أن يبقى البلاستيك على الدراجة، لحمايتها من أي ضرر محتمل.

أبلغنا جوك الذي لم يتوقف عن التحديق بالدرّاجة، نتائج ما سمعناه.

- إذن لماذا أزيله؟ فكّر جوك بصوت عال.

يبدو أنها الوسيلة الأكثر حذراً التي يجب أن يسلكها، ولا بد أن جوك كان رجلاً يتسم بالحذر والتفكير، وهذا ما جعله ميسوراً واستطاع أن يشتري الدراجة.

في بداية المساء، سألنا جوك أن يدعنا نحرس، أنا ووليام كي وموسى، الدراجة من جميع الذين تسوّل لهم أنفسهم سرقتها، أو إلحاق الضرر بها، أو لمسها، أو حتى النظر إليها لمدة طويلة. في الواقع لم يطلب منا جوك أن نحرسها، لكن عندما عرضنا عليه أن نجلس بجانبها ونحميها من أيّ ضرر قد يلحق بها أو إطالة نظر لا داعي لها، فوافق.

- لن أدفع لكم أجراً لقاء ذلك يا أولاد، قال. - يمكنني بكل سهولة أن أضعها داخل البيت حيث ستكون في مأمن.

لم نكترث بالنقود. كنا نريد فقط أن نجلس ونحدّق بها، خارج كوخ جوك، عندما تميل الشمس إلى الغروب. وهكذا جلسنا بجانب الدرّاجة، وعندما أصبحت الشمس خلف ظهورنا، أصبحنا نرى الدراجة بشكل أفضل وهي واقفة الآن على المسند بجانب بيت جوك. حرسنا الدراجة طوال فترة بعد الظهر تقريباً، ومع أنّ جوك وزوجته كانا داخل البيت، لم نتحرّك من مكاننا. في البداية، تناوبنا على حراستها، ورحنا نسير حول البيت، نضع عصا على كتفنا للدلالة على أننا نحمل سلاحاً، ثم قرّرنا أخيراً أن نجلس كلّنا تحت الدرّاجة ونحدّق فيها.

وهذا ما فعلنا، ورحنا نتفحص كلّ قطعة فيها. فقد كانت أكثر تعقيداً بكثير من الدراجات الأخرى في القرية؛ وبدا لنا أن فيها عدداً أكبر من التروس والأسلاك والبراغي. وتناقشنا إن كانت هذه الأشياء الزائدة ستمكّنها من زيادة سرعتها، أم أن ثقلها سيجعلها بطيئة.

يا صبي التلفزيون، لا شكّ إنك تقول إننا أناس بدائيون جداً، وأنّ قرية لا تعرف إذا كان يجب إزالة البلاستيك عن الدراجة أم لا - ستكون بالطبع عرضة للهجوم، والمجاعة، ولأيّ كارثة أخرى. وثمة حقيقة في ذلك. ففي بعض الحالات، كانت قدرتنا التكيّف بطيئة، فقد كنا نعيش في عالم منعزل تماماً. ويجب أن أقول لك إنه لم تكن عندنا أجهزة تلفزيون، ، وأتصوّر أنه ليس من الصعب أن تتخيّل ماذا يمكن أن يكون تأثير ذلك على عقلك الذي يحتاج إلى تحفيز متواصل.

عندما انتقلت يوم حلمي إلى بعد الظهر، رأيت نفسي أنحني فوق أختي أمل وهي تطحن الحبوب. كنت أفعل ذلك كثيراً، لأن ذلك يمنحني بهجة كبيرة. فبينما تكون جالسة القرفصاء، كنت أنحني نحوها، لاصقاً عمودي الفقري بعمودها الفقري. - لا أستطيع أن أشتغل هكذا أيها القرد الصغير، تقول.

- لا يمكنني أن أنهض، أقول لها. - فأنا نائم.

كانت تتضوع منها رائحة حلوة. ربما أنك لا تعرف ماذا يعني أن تكون لديك أخت تتضوع منها رائحة حلوة، لكنه شيء رائع. فأميل فوقها وأتظاهر بأنني نائم، حتى أنني أشخر، فتدفعني بقوة وتلقي بي بعيداً عنها.

- هيا اذهب لعند أماث، لماذا لا تذهب إليها؟ تقول متبرمة.

يا لها من فكرة جيّدة! فأنا أحبّ أماث التي هي في عمر أختي، كبيرة جداً بالنسبة لي، لكن يبدو لي أن زيارتها اقتراح رائع. وبعد بضع دقائق، وجدتها في بيت أسرتها. كانت تجلس وحدها، تغربل ذرة بيضاء. تبدو متعبة، لا من العمل الذي تقوم به فحسب، وإنما لأنها تقوم به وحدها.

عندما كنت أراها، لا أعود أتنفّس جيداً. فالفتيات الأخريات اللاتي هنّ في عمر أختي لا يكترثن بما أقوله أو أفعله. فأنا بالنسبة لهن صبي، طفل صغير، سنجاب. أما أماث فهي مختلفة عنهن. فقد كانت تنصت إلى ما أقوله كما لو كنت رجلاً مهماً، وكأنّ كلماتي تنطوي على أهمية. بالإضافة إلى ذلك، فهي فتاة بالغة الجمال، جبينها مرتفع وعيناها براقتان صغيرتان. وعندما تبتسم، لم تكن تظهر أسنانها. إنها الفتاة الوحيدة من بين الفتيات اللاتي أعرفهن تبتسم هكذا - وطريقة مشيتها! فهي تمشي كأنها تقفز، تستند على كعبيْ قدميها لمدة أطول من معظم الفتيات الأخريات، مما يجعل طريقة مشيها سعيداً، وقد جربت ذلك بنفسي ذات مرة. وعندما أقلّدها كنت أشعر بأنني أصبح أكثر مرحاً أيضاً، مع أن ربلة ساقي تؤلمني. وفي معظم الأيام، كانت أماث ترتدي ثوباً أحمر براقاً، عليه صورة طائر أبيض كالحليب، تناثرت حوله حروف باللغة الإنكليزية مثل أزهار ملقاة في نهر. أعرف أنّنا لا نستطيع أن نتزوّج، أنا وأماث، لأنها ستكون قد طُلبت للزواج قبل أن أكون مستعدّاً لذلك بسبب قسماتها الجميلة المرغوبة. وهي على وشك أن تبلغ سن الرشد، ومن المرجح أن تتزوّج هذه السنة. لكن حتى يحين ذلك الوقت، فقد تكون لي. ومع أنّني كنت أخجل أن أقول لها أشياء كثيرة، فقد ذهبت إليها ذات يوم، وقد تملكتني حالة عالية من الشجاعة أو عدم المبالاة، لذلك أصبح هذا اليوم أفضل أيامي.

- أتشاك! كيف حالك، أيها الشابّ؟ قالت، ببهجة.

كانت تدعوني غالباً بالشابّ، وعندما تقول لي ذلك، كنت أعرف على الفور ماذا يعني ذلك، وهو أنني أصبحت رجلاً. كنت متأكداً تماماً بأنني كنت أعرف.

- أنا على ما يرام، سيدة أماث، قلت لها، متحدثاً بأكبر قدر من الرسمية، وأعرف من التجربة بأن هذا سيثير إعجاب أماث. - هل يمكنني أن أساعدك؟ عندي وقت لمساعدتك إذا كنت بحاجة إلى مساعدة. إذا كنت بحاجة إلى مساعدة منّي في جميع الأحوال...

أعرف أنني أهزر، لكنني لا أستطيع أن أتمالك نفسي. أدوس بسرعة بقدم واحدة، أريد أن أقطع لساني من فمي. الآن عليّ أن أجد طريقة حتى أنهي

فكرتي.

- هل يمكنني أن أساعدك بطريقة ما؟ قلت.

- يا لك من رجل محترم، قالت، فهي تعاملني دائماً بأقصى جدية. - طبعاً يمكنك أن تساعدني. هل يمكنك أن تجلب لي بعض الماء؟ أريد أن أطبخ بعد قليل.

- سأجلب ماء من النهر! قلت لها، ولم تعد قدماي قادرتان على الوقوف بثبات، مستعدتان للانطلاق.

ضحكت أماث وهي لا تزال تخفي أسنانها. هل كنت أحبّها أكثر من أي شخص آخر؟ هل من الممكن أنّني كنت أحبّها أكثر مما أحبّ أي شخص في عائلتي؟ في معظم الأحيان، كنت أعرف أنني أفضّلها على أي شخص آخر، حتى على أمّي. لقد أربكتني، يا صبي التلفزيون.

- لا، لا، قالت. - هذا غير ضروري. فقط...

لكني كنت قد انطلقت للتو. كنت أحلّق. ابتسامتي العريضة تتسع وأنا أركض، متخيّلاً كم ستكون معجبة بسرعتي، السرعة المذهشة التي سألبي بها طلبها، لكن ابتسامتي بدأت تخفت ثم تلاشت عندما أدركت، عندما أصبحت في منتصف الطريق إلى النهر، بأنه لا يوجد معي وعاء أضع فيه الماء.

غيّرت طريقي، واتجّهت إلى السوق بسرعة حيث يقبع التجّار والمتسوقون، وشققت طريقي عبر مئة شخص بسرعة البرق فلم يشعروا إلاّ بالريح التي أحدثتها ورائي. كنت أطير إلى الدكاكين الأصغر، متجاوزاً الرجال الجالسين على المقاعد الخشبية يحتسون النبيذ، والمسنين الذين يلعبون الدومينو، وتجاوزت المطاعم والعرب الذين يبيعون الملابس والبسط والأحذية، ثم تجاوزت الشقيقتين التوأم القريبتين من عمري، أهوك وأواتش أوغيث، الفتاتان اللطيفتان اللتان كانتا تحملان على رأسيهما ربطات من الأعواد والأغصان، مرحباً، مرحباً، قالتا، ثم دخلت أخيراً إلى محل أبي المعتم، لاهثاً.

- ماذا في الأمر؟ سألني. كان يضع النظارات الشمسية التي يضعها كلّ يوم، في وضح النهار وفي معظم الليالي. كان قد قايض بجدي صغير لقاء هذه النظارات، لذلك تراه يعاملها بعناية ووقار شديدين كما يفعل مع أفضل بقراته.

- أنا بحاجة إلى وعاء، تمكّنت من القول أخيراً، بين لهاثي. - وعاء كبير. ومسحت عيناي الدكان بحثاً عن وعاء ملائم. كان المحل كبيراً بالنسبة للمنطقة، يتسع لستّة أو سبعة أشخاص، له جداران مبنيان من الآجر وسقف من المعدن المتموّج، وتتوفر فيه عشرات الأشياء التي يمكن الاختيار من بينها. وتسابقت عيناي فوق الرفوف مثل عصفور محبوس داخل بيت. أخيراً، حمل كوب قياس من وراء النضد.

- سرعتك هذه لن تساعدك، قال أبي، عيناه فرحتان. - ستدلق نصفه قبل أن تصل إليها.

كيف عرف؟

- أتظن أنني أعمى؟ قال أبي، وضحك. كان أبي معروفاً بخفة دمه، وكان دائماً يجد سبباً ليبتسم حتى عندما تحدث أيّ كارثة بسيطة. وضحكته! ضحك تجعل بطنه تقرقع ويهتزّ كتفاه وبطنه وتدمع عيناه. وكان الناس يقولون إن باستطاعة دنغ آرو أن يجد دعابة عند حدوث فيضان، وكانوا يقولون ذلك بمودّة كبيرة. وكانوا يقولون إن طبعه الهادئ والمتوازن هو أحد أسباب نجاحه. فليس من دون سبب أنه يمتلك خمسمائة رأس من الماشية وثلاثة دكاكين.

مدّ يده إلى أعلى رفّ وأعطاني صفيحة بلاستيكية صغيرة في أعلاها غطاء.
- يجب أن تتسع لكلّ ما تحتاج إليه، يا بني. ستكون أماث مسرورة جداً، أراهنك. تذكّر الآن...

لكني لم أسمع شيئاً آخر. فقد عدت أجري عبر السوق، متجاوزاً العنزات المجمّعة على جانب الطريق، والنساء العجائز ودجاجاتهم، حتى وصلت إلى النهر. رحت أجري بجانب الصبية الذين كانوا يلعبون كرة القدم، ومررت من أمام بيت عمّتي أكول - حتى أنني لم أنظر إليه لأرى إن كانت عمتي تقف خارجه - واتجّهت نحو الدرب المليء بالحفر العميقة، الدرب الذي يكسوه تراب صلب تحفّه أعشاب عالية من جانبيه.

وصلت إلى النهر أسرع من أي مرة وصلت فيها إليه من قبل، وعندما بلغت الجرف المنخفض، قفزت متجاوزاً الصبية الذين كانوا يصطادون السمك والنساء اللاتي يغسلن الثياب، وجريت إلى وسط الجدول العميق الضيّق.

راحت النساء والصبية ينظرون إليّ كما لو أنني فقدت صوابي. هل فقدت صوابي حقاً؟ مبللاً، بادلهتم الابتسامة وغمرت الصفيحة في مياه النهر البنية

الحليبية. ملأت الصفيحة، لكني وجدت كمّية من المواد المترسبة في داخلها. يجب أن أصفي الماء من تلك الرواسب، لكنّي أحتاج إلى صفيحتين لأفعل ذلك.

- هل يمكنني أن أستعير طاستك من فضلك؟ سألتُ إحدى النساء اللاتي كن يغسلن الثياب. دُهشت من الشجاعة التي تملكتني حينها. فلم أكلّم هذه المرأة قبل الآن، المرأة التي تبيّن لي بعد ذلك أنها زوجة المعلّم الرئيسي في المدرسة الثانوية، اسمه دوت ماجوك، لا أعرفه لكني سمعت به. وسمعت أيضاً أن زوجة دوت ماجوك، مثله، امرأة متعلّمة وحادّة اللسان. ربما كانت قاسية. ابتسمت لي وهي تفرغ الطاسة من القمصان التي غسلتها وقدمتها لي. كان بدا لي، أكثر من أي شيء آخر، أنها تريد أن ترى ماذا سأفعل - أنا هذا الصبي الضامر الجسم، الذي يصغرك بكثير، يا صبي التلفزيون بهذه الطاسة، مع أن صفيحتي مليئة بماء النهر البنّي.

كنت أعرف ماذا عليّ أن أفعله فواصلت عملي. ورحت أصبّ محتويات الصفيحة من خلال قميصي إلى الطاسة، ثمّ صببت الماء بعناية في الصفيحة. عندما فعلت ذلك بنجاح، لم أعرف كم عليّ أن أجعل الماء نقياً، وتساءلت: هل أعود إليها بهذه الماء بسرعة، أم يجب أعطيها لها صافية بأكبر قدر ممكن؟ في نهاية الأمر، صفيّت الماء ثلاث مرات، وأغلقت غطاء الصفيحة بإحكام، وأعدت الطاسة إلى المرأة شاكراً إياها بهمس عبر أنفاسي الثقيلة ورحت أتسلّق ضفة النهر.

فوق ضفّة النهر، بين الأعشاب القاسية، انطلقت ثانية. شعرت بالتعب فرحت أجري الآن حول الحفر الكثيرة في الدرب، بدلاً من أن أقفز فوقها. أصبحت ألهث بصوت عالٍ، فلعنت تنفّسي لأنني لم أشأ أن أجلب الماء إلى أماث وأنا أجري ببطء أو أمشي وأنا ألهث. يجب أن أركض بنفس السرعة التي بدأت بها. حبست أنفاسي ومنعته من الخروج من فمي، بل أخرجته من منخريّ، وبدأت أستعيد سرعتي عندما قتربت من مركز البلدة.

رأتني عمّتي هذه المرة وأنا أمرّ من أمام بيتها.

- هل هذا أتشاك؟ قلت بصوت أشبه بالغناء.

- نعم، نعم! قلت، لكني لم أجد نَفَساً كافياً لأوضح لها لماذا أجري هكذا، ولم أكن قادراً على أن أتوقّف. لعلها ستحزر كما فعل أبي. شعرت بالخجل للحظة عندما خمّن أبي أنّ ما أفعله له علاقة بأماث، لكني لم أعد أبالي بذلك، لأن أماث فتاة غير عادية والجميع يقدّرونها، لذلك كنت فخوراً بأن أقول إنني

صديقها وأن يراني الجميع أسدي لها خدمة. إن هذه السيدة الجميلة التي تناديني أيها الشابّ والرجل المحترم، بابتسامتها الجميلة بفمها المغلق وطريقة مشيتها السعيدة هي أفضل فتاة في مايال باي كلها.

مررت من أمام المدرسة، وعندما وصلت إلى الفناء رأيت أماث لا تزال جالسة في البقعة التي تركتها فيها. يا إلهي! إنها تنظر إليّ أيضاً! بدت لي ابتسامتها من تلك المسافة، ولم تتوقّف عن الابتسام عندما عدت أجري واقتربت منها أكثر فأكثر. لم تكن قدماي العاريتان تلمسان الأرض، وإنما أصابع قدميّ. كانت مبتهجة عندما رأتني أحمل الماء الذي ربّما تستطيع أن ترى أنه ماء نظيف جداً، مصفىّ جيّداً، ويصلح لأن تطبخ به أي شيء تحلم به. رحت أنظر إليها! عيناها الواسعتان ترمقانني وأنا أركض. إنها الشخص الذي يفهمني أكثر من أي شخص آخر. وقلت بحزم إنها لا تكبرني كثيراً، لا أبداً.

لكن فجأة تعفّر وجهي بالتراب. فقد ارتفعت الأرض لتشدّني إلى الأسفل. سال الدم من ذقني. فقد وقعت، تعثرت بجذر متشابك نابت من الأرض، فألقيت الصفيحة أمامي.

خشيت أن ارفع عيني وأنظر إلى الأعلى. لم أشأ أن أراها تضحك عليّ. يا لغبائي. أنا واثق من أنها لم تعد تحترمني ولم تعد تعجب بي. فلن تعود تراني ذلك الشاب القوي والسريع، القادر على رعايتها وتلبية احتياجاتها، وإنما ستنظر إليّ كصبي صغير سخيف لا يستطع أن يجري عبر حقل دون أن يتعثر ويسقط على وجهه التعس.

الماء! نظرت بسرعة ورأيت لأنه لم يندلق من الصفيحة.

عندما رفعت رأسي أكثر، رأيتها تسير نحوي. لم يكن وجهها ساخراً على الإطلاق - بل كان جدّياً، كما هو دائماً عندما تنظر إليّ. قفزت واقفاً بسرعة لأريها أنني لم أصب بأذى. عندما نهضت أحسست بألم في ذقني لكني تجاهلته. وكلما اقتربت مني أكثر، تحشرجت حنجرتي وفرغ الهواء من داخلي - يا لي من أحمق، قلت لنفسي. لم يكن العالم منصفاً لي حتى يذلني أمامها هكذا. لكنّي كبتُ كلّ مشاعري وانتصبت في وقفتي بقدر ما استطعت.

- كنت أركض بسرعة كبيرة، قلت.

- من المؤكد أنك كنت تركض بسرعة، قالت باستغراب.

ثمّ اقتربت منيّ، وبيدها راحت تنفض التراب عن قميصي وبنطالي. انبعث صوت تسك - تسك عندما كانت تفعل ذلك. كم كنت أحبّها. ها هي تلاحظ الآن بأنني أستطيع أن أركض بسرعة، يا صبي التلفزيون! كانت تلاحظ أفضل الأشياء فيّ التي لم يلحظها أحد غيرها. - يا لك من شاب محترم، قالت وأمسكت وجهي براحتي يديها، عندما تركض هكذا من أجلي.

ابتلعت ريقي وأخذت نفساً عميقاً وغمرني شعور بالراحة مرة أخرى لأعود وأتكلم بوضوح مثل رجل حقيقي - يسرني كثيراً أن أفعل ذلك، سيدة أماث.

- هل أنت متأكد من أنك على ما يرام يا أتشاك؟

- نعم.

نعم. واستدرتُ كي أعود إلى البيت - كنت قد عزمت على أن أنحني فوق أختي مرتين أخريين قبل العشاء - كان تفكيري مركزاً على الأعراس. فسيقام عرس بعد بضعة أيام، والعريس هو فرانسيس أكول الذي لا أعرفه جيداً، والعروس هي أبيتال تونغ دنغ التي أعرفها من الكنيسة. وسيُذبح في هذه المناسبة عجل آخر، لكني سأحاول هذه المرة أن أقترب أكثر لأرى هذا العجل، كما رأيت في المرة السابقة العجل وهو يفارقنا إلى العالم الأخر. فقد رأيت عين العجل، ورأيته يركل بقوائمه بلا هدف، وكانت عيناه جاحظتين إلى السماء البيضاء مباشرة، ولم يكن يبدو أنه ينظر إلى الأشخاص الذين يذبحونه. خيّل إليّ أن هذا يجعل الموت الأسهل. فلم يكن يبدو أن العجل يلوم الرجال لأنهم أنهوا حياته. لقد تحمّل موته المبكّر بشجاعة واستسلام. وعندما يحين موعد العرس التالي، فإني سأقترب كثيراً من رأس العجل المذبوح لأرى كيف يموت.

كنت أجد متعة كبيرة بالأعراس، لكن بدأت تقام أعراس كثيرة في الأشهر الأخيرة. ففيها تقدم كميات كبيرة من الشراب، وترى الكثير من الرقص والقفز. وغالباً ما كنت أخاف من بعض الرجال الذين يشربون كثيراً من النبيذ. أتساءل عمّا إذا كان سيكون باستطاعتي، في المرة القادمة تلك، في عرس فرانسيس وأبيتال، ألاّ أشارك في تلك الاحتفالات، بل كنت أتمنى أن أبقى في البيت، ولا أرتدي أفضل ثيابي، وألاّ أتكلّم مع الذين يكبرونني سناً، بل أختبئ تحت سريري.

لكن قد تكون أماث هناك، وقد تكون مرتدية ثوباً جديداً. كنت أعرف كلّ ملابسها، أعرف فساتينها الأربعة، وقد يتيح العرس لي فرصة أن أرى شيئاً جديداً. فقد كان والد أماث رجلاً مهماً، يمتلك ثلاثمائة رأس من الماشية،

ويحكم في العديد من النزاعات التي تنشأ في المنطقة، لذلك كانت أماث وأخواتها يرتدين في غالب الأحيان ثياباً جديدة، بل حتى أنه توجد عندهن مرآة يحتفظن بها في كوخهن، فيقفن أمامها لفترات طويلة ويضحكن وهن يصففن شعرهن. أعرف ذلك لأنني رأيت المرآة وسمعت ضحكاتهن عدة مرات من فوق الشجرة بجانب بيتهن، تلك الشجرة التي وجدت فيها مخبأً سرّياً مناسباً لأعرف ما الذي يجري في داخل كوخهن. لم يكن بوسعي رؤية أشياء غير متوقّع من فوق الغصن الذي أجثم فوقه، لكن كان بإمكاني أن أسمعهن وهن يتكلّمن، كان باستطاعتي أحياناً رؤية ومضات عندما تجد الشمس طريقها عبر شقوق سقف بيتهن، فأرى انعكاس أقراطهن أو أساورهن، فترسل ضوءاً إلى مرآتهن الذي يخرج ويعود إلى غبار القرية الذي لا يتوقف.

(٥)

يا صبي التلفزيون، كانت هناك حياة في تلك القرى! نعم كانت هناك حياة! فقد كان يقطنها حوالي خمسة عشر ألف روح، مع أن ذلك لا يبدو معقولاً بالنسبة لك. فلو رأيت صوراً عن هذه القرية، صوراً التقطت من طائرة تمرّ من فوقها، لفغرت فمك من قلة الحركة التي تظهر فيها بالمقارنة مع المستوطنات البشرية الأخرى. فقد حُرقت معظم الأراضي، لكن جنوب السودان ليس صحراء مترامية الأطراف. إنها أرض غابات وأحراش، أرض مليئة بالأنهار والمستنقعات، أرض تقطنها مئات القبائل وآلاف العشائر وملايين البشر.

أثناء استلقائي على الأرض، أدركت أنّ الشريط اللاصق فوق فمي مرخي. فقد أرخى اللعاب الذي سال من فمي والعرق في وجهي من شدة إحكام الشريط. بدأت أسرّع العملية، فرحت أحرّك شفتيَّ وأنشر مزيداً من اللعاب، فأخذ الشريط ينفصل أكثر عن جلدي. أنت، يا صبي التلفزيون، ألا ترى شيئاً. يبدو أنك لا تعرف أن هناك رجلاً مقيداً ومكمّماً على الأرض، وأنّك تشاهد التلفزيون في بيت هذا الرجل. لكنّنا جميعنا نتكيّف، حتى مع أسخف الحالات.

أعرف كلّ شيء يمكن أن يعرفه المرء عن هدر الشباب، والسبل التي يمكن أن يُستغل فيها الصبية. فمن بين الصبية الذين كنت أسير معهم، تحوّل نصفهم تقريباً إلى جنود في نهاية الأمر. هل كانوا كلّهم يريدون ذلك؟ لا، قلة قليلة منهم فقط. كانوا في الثانية عشرة، الثالثة عشرة من أعمارهم، أو أكثر أو أقل قليلاً عندما جُنِّدوا. لقد استغلّونا كلّنا، بشتى السبل والطرائق. فقد استخدمونا واستغلّونا في الحرب، من أجل جمع الطعام، ومن أجل كسب تعاطف منظمات الإغاثة الإنسانية. حتّى عندما كنّا نرتاد المدرسة، كنّ نُستغلّ. لقد حدث ذلك من قبل، وفي أوغندا، وفي سيراليون. كان المتمردون يستخدمون اللاجئين من أجل جذب المساعدات، وتصوير أن ما يجري هو أن عشرين ألف روح تائهة تبحث عن طعام وعن ملاذ بينما الحرب تدور رحاها في البلد. لكن على مسافة لا تبعد أكثر من بضعة أميال من مخيّمنا المدني، أقام جيش التحرير الشعبي السوداني قاعدة له، يتدرّبون ويخطّطون فيها، وكان هناك خط مستمر من الإمدادات والمجنّدين يتدفق بين المعسكرين. كنّا نُدعى أحياناً «طُعم لجذب المساعدات». عشرون ألف فتى غير مصحوبين في وسط الصحراء: لم يكن يصعب علينا رؤية النداء الموجّه إلى الأمم المتحدة، وإلى الاتّحاد العالمي اللوثري وإلى منظمة أنقذوا الأطفال. لكن بينما كان العالم الإنساني يوفر لنا الطعام، كان جيش التحرير الشعبي السوداني،

المتمردون الذين حاربوا من أجل الدينكا، يتعقّبون كلّ واحد منّا، ينتظروننا حتى نكبر وننضج. فيأخذون الصبية الذين كبروا بما يكفي، الصبية الأقوياء والأكفاء بدنياً، الصبية الغاضبون. وكان هؤلاء الصبية يعبرون التلّ إلى بونغا، معسكر التدريب، وتكون تلك آخر مرة نراهم فيها. أكاد لا أصدّق نفسي، لكني في هذه اللحظة، أفكّر بطريقة أستطيع فيها أن أنقذك، يا صبي التلفزيون. أتخيّل أن أحرّر نفسي، ثمّ أحرّرك. يمكنني أن أتلوّى وأفكّ قيودي، وأقنعك بأن وجودك معي سيكون أفضل مما لو بقيت مع تونيا وباودر. يمكننا أن نهرب معاً، وأن نغادر أتلانتا معاً، ونبحث عن مكان آخر. أظن أن الحياة ستكون أفضل في سولت لايك سيتي، أو سان خوزيه. أو ربما يتعين علينا أن نبتعد عن هذه المدن، أيّ مدينة. أظن أنني سئمت العيش في المدن، يا صبي التلفزيون، لكن إلى أي مكان يمكن أن نذهب إليه، أظن أنني أستطيع أن أعتني بك بشكل أفضل. فقد كنت مثلك منذ فترة قصيرة. لكن يجب علينا أولاً أن نغادر أتلانتا. عليك أن تبتعد عن هؤلاء الذين وضعوك في هذه الورطة، ويجب أن أغادر المكان الذي أصبح مناخاً لا يمكن الدفاع عنه.

فالأمور مشحونة هنا جداً، مسيّسة جداً. ففي أتلانتا ثمانمائة سوداني، لكن لا يوجد بينهم انسجام ووئام. وهناك سبع كنائس سودانية، تحرّض إحداها على الأخرى باستمرار وبحقد منقطع النظير. فقد عاد السودانيون هنا إلى عشائريتهم، وعادوا إلى الانقسامات العرقية ذاتها التي كنّا تخلّينا عنها منذ أمد بعيد. فعندما كنّا في إثيوبيا، لم نكن نقول إن هذا من النوير أو الدينكا أو الفور أو أنه نوبي. فقد كنّا صغاراً لا نعرف ماذا تعني هذه الفروق، لكن حتى لو كنّا نعرفها، فقد علّمونا أن نضع هذه الفروق والاختلافات المفترضة جانباً، ووافقنا على ذلك. كنّا كلّنا وحيدين في إثيوبيا، ورأينا المئات منّا يموتون ونحن متجهين إلى مكان أفضل بقليل من المكان الذي كنّا قد تركناه.

منذ لحظة وصولنا إلى هنا، أصبح من المستحيل أن نعود إلى حياتنا السابقة في السودان. وبما أنني لم أزر الخرطوم في حياتي فإني لا أستطيع أن أتحدّث عن طريقة الحياة فيها. لكني أسمع أن فيها بعض مظاهر الحداثة. أما في جنوب السودان، فقد كنّا نعيش، بحسب جميع التقديرات، وراء العالم الصناعي بما لا يقل عن بضع مئات من السنين. قد لا يوافق بعض علماء الاجتماع، لاسيما الليبراليون منهم، على فكرة أنه يوجد مجتمع وراء مجتمع آخر، وإنما هناك عالم أول، وعالم ثالث. أما جنوب السودان فهو لا ينتمي إلى أيّ من هذين العالمين. فالسودان عالم آخر، ولا أستطيع أن أجد أي وجه مقارنة ملائم. ففي جنوب السودان عدد قليل من السيارات، ويمكنك أن تقطع مئات الأميال دون أن ترى مركبة واحدة مهما كان نوعها. ولا يوجد فيها إلاّ حفنة من الطرق المعبّدة. لكني لم أر شيئاً من ذلك عندما كنت أعيش فيها. إذ

يستطيع المرء أن يسافر بالطائرة في خطّ مستقيم من الشرق إلى الغرب عبر البلد كلّه، ولا يمرّ فوق بيت مبني من أيّ شيء سوى من الأعشاب والطين. إنها أرض بدائية، وأقول ذلك بدون أيّ شعور بالخجل. وأشكّ في أن تعرف هذه المنطقة، خلال السنوات العشر القادمة، إذا استتب السلام، ذلك التقدّم الذي قد يوصلنا إلى مستويات بلدان شرق أفريقيا الأخرى. لا أعرف أحداً يريد أن يظل جنوب السودان كما هو الآن. فالجميع مستعد لما سيأتي. تُجري دبابات تابعة لجيش التحرير الشعبي السوداني عرضاً عسكرياً في جوبا، عاصمة الجنوب، وتسود الجميع هناك مشاعر بالفخر، وقد نسي الجميع كلّ الشكوك التي كانت تساورنا حول جيش التحرير، وكلّ المعاناة التي سببها، وغفروها. فإذا نال الجنوب الحرّية، فقد نالها من كدّه، على الرغم من أنها كانت مليئة بالفوضى.

أدركت الآن أنّ فمي مبلل وأن الشريط اللاصق لم يعد مربوطاً بإحكام. نفختُ، ولدهشتي، انفلت النصف الأيسر من الشريط. أصبح باستطاعتي أن أتكلّم لو أردت أن أقول شيئاً.

«المعذرة»، قلت. كان صوتي ناعماً، هادئاً إلى درجة كبيرة. لا توجد إشارة بأنه يسمعني. «أيها الشابّ»، قلت الآن بصوت طبيعي، فلم أكن أريد أن أرعبه.

لم يبد أيّ ردّة فعل.

«أيها الشابّ»، قلت، الآن بصوت أعلى.

لتفت إليّ قليلاً، غير مصدق، كما لو أنه لاحظ أن الأريكة هي التي تكلّمه. ثم عاد واستدار باتجاه التلفزيون.

«أيها الشابّ، هل يمكنني أن أكلّمك؟» قلت الآن بصوت أعلى، أكثر حزماً.

دمدم ونهض واقفاً مرعوباً. ظنّي الوحيد هو أنّهم قالوا له إنني أفريقي، وفي عقله أنني لا أستطيع أن أتكلم، وفي أقل تقدير أن أتكلّم باللغة الإنكليزية. خطا خطوتين نحوي، ووقف عند مدخل غرفة الجلوس. كان لا يزال غير متأكد من أنني سأتكلّم ثانية.

«أيها الشابّ، يجب أن أكلّمك. يمكنني أن أساعدك».

أعاده ذلك إلى المطبخ حيث تناول الهاتف الخلوي، وضغط زرّاً، وقرّب الهاتف من أذنه. وراح ينصت لكن الشخص المطلوب لم يجبه. أظن أنه طُلب منه أن

يتصل بالمتواطئين معه لو استيقظت أو إذا حدث شيء على غير ما يرام، أدركت الآن أنهم لم يردّوا على اتصاله. هذا المأزق الذي وجد نفسه فيه منحه فرصة للتفكير، ويبدو أنه توصل أخيراً إلى حلّ: فقد عاد وجلس ورفع صوت التلفزيون.

«أرجوك!» صرخت.

قفز في مقعده.

«أيها الصبي! يجب أن تستمع إليّ!»

راح يبحث الآن عن حلّ. بدأ يفتح الأدراج. عندما سمعت خشخشة ملاعق وسكاكين، اعتراني القلق بأنّه قد يقدم على تصرّف عنيف. فتح الآن خمسة، ستّة أدراج وخزانات، ثم خرج أخيراً من المطبخ وبيده دفتر أرقام الهواتف. أحضره لي ووضعه فوق رأسي.

«أيها الشابّ! ماذا تفعل؟»

ألقى الدفتر فوقي. كانت تلك المرّة الأولى في حياتي التي أرى فيها شيئاً يُلقى فوقي ولا أستطيع أن أردّه. حاولت أن أبعد رأسي لكن، مع ذلك، سقط الدفتر فوق وجهي مباشرة. وما زاد في حدّة الألم الصداع الذي أصابني والاحتكاك الذي تحدثه ذقني على الأرضيّة. انزلق دفتر الهاتف نحو جبيني واستقرّ على صدغي. ظن أنه حقق هدفه، عاد إلى المطبخ ورفع صوت التلفزيون مرة ثانية. هذا الصبي يعتقد بأنني لا أنتمي إلى نوعه، بأنّي نوع آخر من المخلوقات، مخلوق يمكن أن يُسحق تحت ثقل دفتر أرقام هواتف.

لم يكن الألم شديداً، لكن رمزيّة هذا التصرف ليست مقبولة.

(٦)

فتحتُ عينيَّ بعد أن غططت في النوم لدقائق أو لساعات. الصبي نائم على الأريكة فوقي. غطى نفسه بمناشفه، واستلقى عند طرف الأريكة، ودسّ قدميه بعناية داخل الوسائد. كان ينشج الآن. لا بد أنه يرى كابوساً. كان وجهه ملوياً مثل طفل يحبو، تجهّم وجهه المشاكس. لكنّي أصبحت أقل تعاطفاً معه الآن.

لا توجد ساعات مرئية، مع أن الوقت الآن يبدو في منتصف الليل. لا تُسمع أصوات سيارات في الخارج. قد نكون في منتصف الليل أو في وقت متأخر من الليل.

أتشور أتشور، لا أريد أن ألعنك، لكن الوضع كان سيختلف كثيراً لو أنك عدت إلى البيت. أنا أحبّ ميشيل ومعجب بها، وأنا فخور بك لأنك وجدت فتاة أمريكية تحبّك، لكن في هذه اللحظة بالذات، لا أظن أن سلوكك يتسم بالمسؤولية. وأتساءل في الوقت نفسه كيف عرف اللصان بأنّك لن تكون موجوداً، وأنّهما سيكونان في غاية الاطمئنان حتى يتركا ابنهما، ربما شقيقهما، هنا. يصعب عليّ أن أفهم ذلك، إلاّ إذا كانا شخصين ذكيين أو طائشين.

أتساءل ما هي الصور التي تزعجك، يا صبي التلفزيون. فأنا ممزّق - يمكنني أن أتكلّم معك مرة أخرى، أن أوقظك من الكوابيس التي تزعجك، أو يمكنني أن أتلذذ، قليلاً بذلك، لأن الصبي الذي يظن أنّه يستطيع أن يسحق رجلاً أفريقياً بدفتر هاتف، يعاني الآن من الرعشات الليلية. يبدو أنها قاسية جداً حتى تجعلك تهمهم وتنشج وأنت مستلق فوق الأريكة، يا صبي التلفزيون. على أي حال، لو كلّمتك مرة أخرى، فماذا ستلقي عليّ؟ يوجد في غرفتي قاموس كامل، وأشكّ أنك لن تستخدمه.

رنّ هاتف، ليس هاتفي. فقد ذهب هاتفي. نغمة رنين الهاتف لحن أغنية شعبية لا أعرفها. فمعرفتي بالموسيقى الشعبية الأمريكية ليست جيدة، كما أظن، حتى بعد مضي خمس سنوات عليّ في أمريكا، مع أن أصدقائي أحبّوها بقوة.

انهض، يا صبي التلفزيون، وردّ على هاتفك!

استمرّ الرنين. ربما كان المتّصل يريد أن يطلب منك أن تفكّ قيدي. قد يكون المتّصل هي الشرطة. هيا استيقظ، يا ولد!

ثلاث رنات ولم يبد أي إشارة بأنه سيصحو. عليّ أن أؤثّر في هذه الأحداث. مجازفاً بأن تُلقى عليّ أشياء أخرى على رأسي، أحدثت ضجيجاً بقدر ما استطعت. شعوري باليأس جعل صوتي ينبعث بأعلى ما يمكن. صرخت بصوت مرتفع إلى حد أنه جعل الصبي يقفز أخيراً من الأريكة. رنّ الهاتف ثانية فرفعه هذه المرة.

«ماذا؟»، «هذا مايكل».

كان الصوت في الجهة الأخرى من الهاتف صوت رجل، صوت ثاقب وبطيء.

«إنها ليست هنا».

سؤال.

«لا أعرف. قالت لي إنها ستكون هنا في هذا الوقت».

هزّ الصبي رأسه.

«حسناً».

«حسنا».

«باي».

إذاً هو مايكل. مايكل، أنا سعيد لأنني عرفت اسمك. إنه اسم أقل إزعاجاً من صبي التلفزيون، وزاد من قناعتي بأنّك ضحيّة أولئك المكلفين بحمايتك. مايكل اسم قدّيس. مايكل اسم صبي يريد أن يكون صبياً. مايكل هو اسم الرجل الذي جلب الحرب إلى مايال باي. من الطبيعي الافتراض بأنّ حرباً مثل حربنا قد جاءت ذات يوم، هدير رعد ثمّ حرب، هطلت بقوة كالمطر الغزير. لكن أولاً، يا مايكل، كانت هناك سماء مكفهرة بالغيوم.

ربّما تغيّر مزاجك نحو الأسوأ الآن. فأنت هنا منذ فترة طويلة، في هذه الشقّة، وما كان يبدو أشبه بمغامرة أصبح الآن شيئاً مملاً، بل حتى مخيفاً. أنا لست شخصاً غير مؤذ مثلك كما خيّل إليك في البداية، وأنا على يقين من أنك تخشى أن أقول شيئاً ثانية. الآن، لا يوجد لديّ شيء أقوله، بصوت غير

مرتفع، لكن ينبغي أن تعرف شيئاً عن مايكل الذي جلبَ نذر الحرب الأولى إلى قريتنا عام ١٩٨٣.

أيقظني وليام كي، وهمس من الجانب الآخر من جدار الكوخ.

- انهض، انهض، انهض! قال هامساً. - انهض وانظر.

لم تكن لديّ رغبة في أن ألحق بوليام كي، لأنه كان يطلب مني كثيراً أن أركض إلى هذا المكان أو ذاك، أو أن أتسلّق تلك الشجرة لأرى حفرة حفرها كلب، أو حبة فستق تشبه وجه والد وليام. كانت المشاهد في عقل وليام كي مضخمة كثيراً باستمرار، وقلما كان الجهد الذي أبذله جديراً برؤيته. لكن عندما كنت أسمع همس وليام كي عبر باب كوخنا، سمعت أصوات أشخاص يتحدثون بصوت عال.

- تعال! قال وليام كي يحثّني. - أقسم أن هذا شيئاً هاماً!

نهضت، ارتديت ملابسي، وركضت مع وليام كي إلى المسجد حيث احتشد عدد من الأشخاص الفضوليين. بعد أن زحفنا من تحت سيقان الرجال المتحلّقين حول باب المسجد، نهضنا على ركبنا ورأينا الرجل. كان يجلس في كرسي، أحد تلك الكراسي المتينة المصنوعة من الخشب والحبال التي كان يصنعها غوبال بول ويبيعها في السوق وعلى ضفة النهر. كان الرجل الجالس شابّاً، بعمر أخي غارانغ، في سنّ يجب أن يكون متزوّجاً ولديه بيت وماشية. وكانت ترتسم على جبهة هذا الرجل ندوب طقوسية تعني أنه ليس من بلدتنا. إذ يوسم الرجال في المناطق والقرى الأخرى، عندما يبلغون الثالثة عشرة من عمرهم أو قرابة ذلك، بندب على جباههم للدلالة على أنهم بلغوا مرحلة الرجولة.

أما هذا الرجل الذي عرفنا أن اسمه مايكل لوول، فكان مبتور اليد. أين ذهبت يده اليمنى. كان الأشخاص الذين يتحلّقون حول الشاب، ومعظمهم رجال، يحدّقون في الجزء الذي كانت فيه يد الشاب قبل بترها، وأبدى معظمهم آراء حول من يجب أن يلام في هذا. ظللنا أنا ووليام جاثيين على ركبنا لنكون قريبين من صاحب اليد المقطوعة، ننتظر أن نسمع كيف حدث ذلك.

- لكن لا يحقّ لهم أن يفعلوا ذلك! هدر أحد الرجال.

كان ثلاثة رجال يشاركون في الحوار بشكل رئيسي: زعيم مايال باي، وهو رجل كالثور له عينان واسعتان، ونائبه النحيف والقصير، ورجل ثالث مربوع

تكاد بطنه تنفجر من تحت قميصه، وكان يلكزني في ظهري كلما أعرب عن فكرة.

- قُبض عليه وهو يسرق. لقد نال جزاءه.

- هذا عار. هذه ليست عدالة سودانية.

كان الرجل ذو الذراع الواحدة جالساً لا ينبس بكلمة.

- ها هي. إنها الشريعة.

- لا يمكننا أن نعيش بموجب قوانين الشريعة!

- إننا لا نعيش بموجب قوانين الشريعة. لقد حدث ذلك في الخرطوم. إذا ذهبت إلى الخرطوم، فإنك ستعيش وفق قانونهم. ماذا كنت تفعل في الخرطوم يا مايكل؟

وسرعان ما ألقى الرجال كلّ اللوم على الرجل ذي اليد الواحدة، فلو أنه لم يغادر قريته ولم يسرق، لظل يحتفظ بيده اليمنى، وربما أصبحت له زوجة أيضاً - لأن الجميع أجمعوا على أنه لن يستطيع أن يتزوج الآن، مهما بلغ المهر الذي يقدّمه، وأنه لا ينبغي أن يُطلب من امرأة أن تتزوج رجلاً مبتور اليد. لم يحصل مايكل لوول في ذلك اليوم إلاّ على قدر قليل من التعاطف.

بعد أن غادرنا المسجد، سألت وليام كي ما الذي حدث للرجل. فقد سمعت كلمة شريعة، وبعض التعليقات المستهجنة حول العرب والإسلام، لكن أحداً لم يذكر بوضوح الأحداث التي أدّت إلى قطع يد مايكل لوول. وبينما كنا نسير إلى شجرة الأكاسيا الضخمة لنلتقي بموسى، حكى لنا وليام كي قصّة الرجل.

- كان قد ذهب إلى الخرطوم منذ سنتين. ذهب للدراسة، ثمّ لم يعد معه نقود، ثمّ اشتغل عامل بناء عند رجل عربي ثري. وكان يعيش مع أحد عشر رجلاً آخرين من الدينكا، يقيمون كلهم في شقّة في الحيّ الفقير من المدينة، حيث يعيش الدينكا، قال مايكل لوول.

بدا ذلك غريباً عليّ، أن يعيش الدينكا في أماكن تُعتبر فقيرة، بينما يعيش العرب في ظروف جيدة. أقول لك، يا مايكل التلفزيون، بأنّ كبرياء رجال قبائل الدينكا قوي جداً. لقد قرأت أن عدداً من الأنثروبولوجيين كانوا مندهشين من شدّة تقدير رجال الدينكا لذاتهم.

- خسر مايكل لوول وظيفته، واصل وليام كي كلامه. - أو ربما انتهى العمل، فلم يعد هناك عمل آخر. فقد قال إنه لم يعد عنده عمل، ولم يعد يستطيع أن يسدّد الإيجار، فطرده الآخرون الذين يشاركونه الشقّة، فاضطر لأن يعيش في خيمة خارج المدينة. قال إن آلافاً من الدينكا يعيشون هناك. أناس فقراء جداً، يعيشون في بيوت مصنوعة من البلاستيك وأعواد الخيزران، والطقس شديد الحرارة ولا يوجد عندهم ماء أو طعام.

في تلك اللحظة أذكر أنني لم أحبّ ذاك الرجل المقطوع اليد. شعرت بأن هذا الرجل يستحقّ أن تُقطع يده. وأن يكون معدماً، وأن يعيش في بيت بلاستيكي! أن يطلب الطعام! لا يوجد عنده ماء! أن يعيش فقيراً بجانب العرب الميسورين. اعتراني شعور بالخجل. كنت أحتقر الرجال الذين يشربون الخمر في السوق في مايال باي أثناء النهار، وشعرت بالاحتقار لهذا الرجل الذي يعيش في ذلك البيت المشيّد من صفائح بلاستيك. أعرف أن هذا الشعور لم يكن جيداً، وهو أن أحتقر الفقراء، الذين سقطوا، لكنّي كنت صغيراً جداً آنذاك حتى أشعر بالشفقة.

وواصل وليام كلامه. - كان مايكل لوول يخرج ليبحث عن طعام في حاويات القمامة. كان يرافق رجالاً آخرين، يذهب إلى مكبّ النفايات، يفتّش في قمامة المدينة كلها. كان يذهب في الصباح ويجد مئات الأشخاص الذين يبحثون فيها مثله. وبما أن مايكل لوول كان رجلاً قوياً، فقد كان يفعل ذلك بشكل جيّد. كان يعثر على أوعية وعلب وعظام دجاج، يأكل ما يمكن أن يأكله منها ويبيع ما يتبقى. وفي أحد الأيام عثر على جهاز راديو. كان مكسوراً فباعه إلى رجل أصلحه. وعندما أصبح معه نقود، اشترى مسكناً جديداً، لأنه كان بحاجة إلى مسكن أكبر يتسع له ولزوجته.

- هل أخذ زوجته إلى الخرطوم؟ سألته.

- لا، لقد تزوج هناك. تزوج بعد أن فقد وظيفته.

بدا وليام كي غير واثق من هذا الجزء من الحكاية. فلم يعد الأمر يبدو معقولاً بالنسبة لنا، وهو أن يتزوج بعد أن خسر عمله ولا يملك نقوداً أو مسكناً.

- عاشا في المسكن الجديد، شيء مصنوع من أعواد الخيزران وصفائح بلاستيك. هنا أصبح الرجل الذي حكى قصّته حزيناً جداً، فقد ماتت زوجته. أصيبت بالزحار لأن الماء الذي يشربانه كان ملوثاً يجلبانه من خندق قريب من المدينة. فأصيبت بالملاريا، ولم يتمكن من إدخالها إلى أيّ مشفى، فماتت. وعندما ماتت نبقت عيناها من رأسها.

كنت أعرف وليام كي جيداً حتى أعرف أن الجزء الأخير هذا لفقه من بنات أفكاره. فلا يمكن أن تنبق عيون أشخاص من رؤوسهم إلاّ في قصص وليام كي.

- وهكذا أصبح لديه هذا المكان الذي اشتراه ثم باعه لأنه لم يعد بحاجة إليه. فأخذ النقود واشترى بها مشروبات.

ثمّ ألقت الشرطة القبض عليه وجلبوه إلى أحد المستشفيات وقطعوا يده.

- انتظر. لماذا؟ سألته.

- أظن أنه أخذ شيئاً. سرق شيئاً من أحدهم. ربما من الرجل الذي كان يعمل عنده في البناء. عاد إلى موقع البناء وسرق شيئاً، أظن أنها قرميدة. انتظر. كانت قرميدة لكنّه سرقها من قبل. سرقها عندما كانت زوجته لا تزال على قيد الحياة، لأن الريح كانت تهبّ وتقتلع بيته البلاستيكي، فأخذ آجرة ليسند مسكنه بها، فقبضوا عليه ثمّ ماتت زوجته، بعدها عاد إلى هنا.

- إذن من قطع يده؟ سألته.

- الشرطة.

- في المستشفى؟

— قال إنه كان هناك شرطيان وممرضة وطبيب.

خلال الأسابيع التالية، أضاف الرجل ذو اليد المقطوعة وآخرون إلى القصّة، لكن الحقائق الأساسية ظلت كما حكاها وليام كي. فالقانون الإسلامي، الشريعة، يُطبّق في الخرطوم، ويعتبر القانون السائد في معظم أنحاء السودان فوق نهري لول وكير، وبدأ الخوف يتزايد من أن تُفرض علينا الشريعة بعد فترة قصيرة.

هنا ازداد الأمر تعقيداً، أو إلى حد ما، يا مايكل، يا صبي التلفزيون. الخطوط العريضة لقصّة الحرب الأهلية التي اندلعت في السودان، القصّة التي كرسناها نحن» أطفال السودان الضائعين « لمصلحة المأساة، والذريعة التي تقول إننا كنا جالسين ذات يوم في قرانا نستحمّ في النهر ونطحن الحبوب، وفي اليوم التالي هاجمنا العرب وأعملوا فينا قتلاً ونهباً واستعباداً. وعلى الرغم من أنّ كلّ هذه الجرائم حدثت فعلاً، فإن هناك جدلاً حول من أثار الاستفزازات. نعم،

فقد فُرضت الشريعة في إطار سلسلة شاملة من القوانين أطلق عليها «قوانين سبتمبر»، لكن النظام الجديد لم يصل إلى بلدتنا، وكانت هناك شكوك في أن تصل إليها. والأهم من كلّ ذلك، قيام الحكومة بتمزيق اتفاقية أديس أبابا المبرمة في عام ١٩٧٢ التي منحت الجنوب شيئاً من الحكم الذاتي، وقسّمت الجنوب بموجبها إلى ثلاث مناطق، وراحت تؤلب كلّ منطقة ضد المنطقة الأخرى، ولم تترك لأيّ منطقة منها أيّ سلطة حكومية هامة على الإطلاق.

مايكل، هل نمت مرة أخرى، وأنا سعيد بذلك، لكن بالرغم من ذلك، فإنك لا تزال تنشج وتركل وأنت نائم. لعلك أنت أيضاً أحد أطفال الحرب. بشكل ما أظن أنك كذلك. فقد يكونون في أشكال ومظاهر مختلفة، والحروب تزداد يوماً بعد يوم. إني على قناعة بأنه توجد خطوات، وما إن تبدأ هذه الأحداث، حتى يستحيل وقفها. كانت هناك خطوات أخرى تسببت في جرّ البلاد إلى الحرب، وإني أتذكّر تلك الأيام بوضوح الآن. لكن مرة أخرى، لم أكن أدرك آنذاك أن الأيام كانت هكذا، لا كخطوات، وإنما كأيام تشبه أي أيام أخرى.

كنت أركض إلى دكان أبي عبر الأشخاص المتجمهرين بكثافة في السوق في يوم السبت ذاك. فقد كانت الشاحنات تصل عبر النهر في أيام السبت، ويكتظ السوق بالتجّار ويعجّ بالحركة والنشاط. ويأتي المتسوقون من جميع أنحاء المنطقة. كان سوق مايال باي واحداً من أضخم الأسواق ضمن مسافة مئة ميل، لذلك كان يجتذب عدداً كبيراً من التجار. عندما وصلت إلى مخزن أبي، وأنا أجري كالعادة بأقصى سرعتي، كدت أرتطم بسترة صادق عزيز الناصعة البياض.

- أين كنت اليوم؟ سألني أبي. -سلّم على صادق. هبطت يد صادق فوق تاج رأسي، وأبقاها هناك. كان صادق ينتمي إلى قبيلة البَقَّارَة، وهي قبيلة عربية تعيش على الطرف الآخر من نهر الغزال. وكان العرب يظهرون في أيام انعقاد السوق وفي مواسم الجفاف عندما يأتون لرعي مواشيهم. ومنذ قرون يسود توتّر بين قبيلتي الدينكا والبَقَّارَة بسبب أراضي الرعي بشكل رئيسي. فقد كان البَقَّارَة يريدون التربة الأكثر خصوبة في الجنوب لرعي مواشيهم عندما تصبح الأراضي في الشمال متشققة من الجفاف. وكانت الترتيبات تتم عادة من خلال زعماء القبائل، وقد جرى هذا التعاون تاريخياً من خلال التحالفات، ودفع لقاء ذلك رؤوساً من الماشية وسلعاً أخرى. كان هناك توازن. فخلال موسم رعي الأبقار، وغالباً ما يكون ذلك خلال أيام السوق، كنت ترى رجالاً من البَقَّارَة وعرباً آخرين في كل مكان في مايال باي، يتنقلون بحرية بين أفراد قبيلة الدينكا، يتحدّثون مزيجاً من لغة الدينكا واللغة العربية، وغالباً ما

يمكثون في بيوت الدينكا. كانت هناك علاقات ممتازة بين معظمهم أهاليهم ومعظم أهالينا. وفي مناطق كثيرة، كان يتم زواج مختلط بينهم، وكان يسود تعاون واحترام متبادل بينهم.

كان أبي معروفاً بين أفراد قبيلة البَقَّارَة والتجار العرب الآخرين. وكان يُعرف بأنه يخرج عن المألوف، أحياناً بطريقة مضحكة، للتودد إلى التجار العرب، وإدخال السرور إلى أنفسهم. وكان يعرف أنّ نجاحه في معظمه يعزى إلى أنه يبيع السلع والبضائع التي يتخصّص بها أبناء الشمال، لذلك، كان يحرص على الترحيب بالعرب في محلاته وبيوته. وكان صادق عزيز، الرجل الطويل القامة، ذو العينين الكبيرتين، والذراعين القويتين، شريك أبي التجاري المفضّل. وكانت لدى صادق عين تلتقط الأشياء غير العادية التي يمكنها أن تلتقط السلع الاستثنائية: أدوات مزرعة آليّة، ماكينات خياطة، شباك صيد سمك، أحذية رياضية مصنوعة في الصين. والأهم من كلّ ذلك، فقد كان صادق يجلب لي شيئاً معه.

- مرحباً يا عمّ، قلت. في عاداتنا فإننا ننادي الرجل الأكبر سنّاً بعبارة «يا عمّ»، وهي عبارة تدّل على الألفة والاحترام. وإذا كان الرجل أكبر من أبيه في السنّ، فإننا ندعوه « يا أبي».

رفع صادق حاجبيه وأخرج شيئاً من حقيبته. وألقاه لي في الهواء فأمسكت به قبل أن أعرف ما هو. فتحت يدي على نوع من حجر كريم. كانت تبدو مثل زجاجة في داخلها خطوط نصف قطرية، صفراء وسوداء، مثل عين قطّة. كانت جميلة جداً. دمعت عيناي عندما وقفت، أحدّق فيها. كنت أخشى أن أغمض عيني.

- صُنعت لتشبه حجرة كريمة، قال صادق، لكنّها مصنوعة من الزجاج.

غمز أبي.

- إنها مثل نجمة! قلت.

- قلها بالعربي، قال صادق.

كان صادق يعرف أنني كنت أتعلّم أساسيات اللغة العربية في المدرسة، وكان غالباً ما يختبرني. حاولت أن أجيبه. - بيجا زي نجمة، قلت متلعثماً.

- جيّد جداً! قال صادق، مبتسماً. - أنت أذكى أبناء دنغ! أستطيع أن أقول ذلك لأنهم ليسوا هنا الآن. قل الآن اللّٰه أكبر.

ضحك أبي. - صادق. أرجوك.

- ألا تعتقد أن اللّٰه عظيم يا دنغ؟

- طبعاً أعتقد بأنه عظيم، قال أبي. - لكن أرجوك.

حدّق صادق بأبي للحظة طويلة ثمّ ابتسم.

- أنا آسف. كنت أمزح.

مدّ يده إلى يد أبي وأمسكها باسترخاء.

- إذاً، سأل. - هل يمكنني أن أضع أتشاك على ظهر الحصان الآن؟ نظر الرجلان إليّ.

- طبعاً، قال أبي. - أتشاك، هل تريد ذلك؟

كانت أمّي تقول إن صادق يعرف بحدسه ماذا يريد الصبي، لأنه في كلّ مرّة يزورنا، كان يحضر لي هدايا، وبما أن أمّي لم تكن قريبة مني لترفض، لأنها هي التي كانت ترفض، رفعني إلى سرج حصانه العالي المربوط خارج المحل.

- هكذا إذاً أيها الفارس الصغير. نظرت إلى الأسفل إلى الرجلين.

- يبدو طبيعياً جداً هنا يا دنغ.

- أظن أنه خائف جداً، يا صادق.

مع أن الرجلين ضحكا، لم أكد أسمعهما.

فوق السرج، كانت أول فكرة خطرت ببالي هي القوّة. فقد أصبحت الآن أطول قامة من أبي ومن صادق نفسه، وبالتأكيد أطول بكثير من أيّ صبي في عمري. وتملكني شعور وأنا أمتطي الحصان بأنني كبرت تماماً وأصبحت نظرتي تشي بالغطرسة. فقد أصبح بإمكاني رؤية أسيجة بيوت جيراننا وأصبح بوسعي أن أرى بعيداً حتى المدرسة، ورأيت سحلية تجري فوق سطح بيتنا. لقد أصبحت ضخماً، أنا والحيوان الذي أصبح باستطاعتي

السيطرة عليه. لكن أسنان الحصان التي وجدت ساقي قطعت أفكاري العظيمة تلك.

- صادق! صرخ أبي. اندفع، وأمسكني وأنزلني عن السرج. - ما خطب هذا الحيوان بحقّ الجحيم؟»

تلعثم صادق. - لم يفعل ذلك من قبل قط، قال، وبدا مرتبكاً. - أنا آسف جداً. هل أنت على ما يرام، أتشاك؟

رفعت عيني وهززت رأسي، مخفياً يدي المرتجفتين. تفحصني صادق.

- هذا ابني القوي! قال صادق، ووضع يده مرة أخرى على رأسي.

- كنت أعرف أنها فكرة سيّئة، قال أبي. - الدينكا ليسوا خيّالة.

حدّقت في عيني الحصان. كرهت ذلك الحيوان الملعون.

- لقد امتطى الكثير من الدينكا خيولاً يا دنغ. ألن يكون من الجيّد أن يتعلم أتشاك ذلك؟ فهذا سيجعله جذاباً أكثر في عيون الفتيات. أليس كذلك يا أتشاك؟

ضحك أبي ليكسر التوتّر الناجم عن ذلك. - لا أظن أنه بحاجة إلى مساعدة في هذا المجال، قال أبي.

قهقها كلاهما الآن، وهما ينظران إليّ، إلى الأسفل. واصلت التحديق في الحصان، ووجدت، لمفاجأتي، أن غضبي قد تلاشى.

شاركت الرجال في تناول الطعام في تلك الليلة، اثنا عشر تاجراً أو ما يقارب ذلك في بيت أبي، وقد تحلّقوا كلّهم حول النار. كنت أعرف عدداً قليلاً من الرجال من المحلات الأخرى، لكنني لم أكن أعرف معظمهم. كان بين الضيوف رجال من البَقَّارَة، لكنّي بقيت جالساً بالقرب من صادق، قدمي تلامس صندله الجلدي. وكان الحديث يدور حول أسعار الذرة الصفراء، والهجمات التي تشنها بعض مجموعات البَقَّارَة على المواشي شمال مايال باي. واتفقوا جميعاً على أنّ المحاكم الإقليمية التي يوجد فيها ممثلون من البَقَّارَة والدينكا والحكومة في الخرطوم، ستحسم الأمر. ولفترة من الوقت، أكل الرجال وشربوا، ثمّ تكلّم رجل من الدينكا كان يجلس قبالة أبي، رجل ضخم ترتسم على وجهه ابتسامة عريضة، أصغر سناً من الآخرين.

— دنغ، ألا تشعر بالقلق من التمرّد هذا؟

قال ذلك بابتسامة مشرقة على وجهه. يبدو أن هذه الابتسامة كانت جزءاً من قسماته الحقيقية.

- لا، لا، قال أبي. - ليس الآن. فقد شاركت في التمرّد الأخير، كما يعرف البعض منكم. أما هذا التمرّد الجديد، فلا أعرف.

سرت همهمات قبول من باقي الرجال الذين كان يبدو أنهم متشوقين لتسوية المسألة. لكن الرجل الباسم أصرّ.

- لكنّهم في إثيوبيا الآن، يا دنغ. يبدو أنّ ثمة شيئاً يُعدّ.

ابتسم مرة أخرى.

- لا، لا، قال أبي. ولوّح بقفا يده للشابّ، لكنها بدت حركة مسرحية أكثر من كونها حركة مقنعة.

- الأثيوبيون يدعمونهم. أضاف الرجل الباسم.

بدا ذلك مفاجئاً لأبي. فلم أر كثيراً أبي يبدي دهشته هكذا أمام عيني. رمى صادق قطعة من طعامه لعنزة في محيط المبنى، ثمّ قال مخاطباً الشابّ.

- تظن، ماذا، عشرون فاراً من الجيش السوداني سيعودون ويجعلون السودان دولة شيوعية؟ هذا جنون. حكومة السودان ستسحق إثيوبيا. وستقضي على أيّ تمرد صغير.

- أنا لا أجادل بأن الفارين من الجيش سيخسرون، قال الشابّ. - لكنّي لا أرى حبّاً عظيماً للخرطوم في مناطق الدينكا. فقد يحصلون على دعم ما.

- أبداً، قال صادق.

- ليس هذه المرة، أضاف أبي. - إننا نعرف تكلفة ذلك. الحرب الأهلية. إذا فعلنا ذلك مرة أخرى فلن نتعافى أبداً. ستكون تلك النهاية.

بدا أن الرجال قد وافقوا على هذا التقييم، وساد الهدوء ثانية، وعادت أصوات الأكل والشرب والحيوانات التي تعود لتستولي على الغابة عندما يحلّ الظلام.

- وماذا عن قصّة بعد ذلك، يا أبي آرو؟ قال صادق. احك لنا تلك القصّة عن بداية الزمن. إنها تسليني دائماً.

- فقط لأنك تعرف أنها حقيقية، يا صادق.

- نعم. تماماً. سأضع القرآن جانباً وأتبنّى قصّتك.

ضحك الرجال وحثّوه على أن يحكي لهم القصّة. فنهض أبي واقفاً وبدأ يحكي القصّة بالطريقة التي يرويها دائماً.

- عندما خلق الله الأرض، خلقنا أولاً نحن الطونق جانق. نعم، خلق الطونق جانق أولاً، الرجل الأول، وجعله أطول وأقوى جميع المخلوقات تحت السماء...

كنت أعرف القصّة جيداً، لكني لم أسمع أبي يحكيها بحضور رجال ليسوا من الدينكا. نظرت إلى وجوه العرب، آملاً ألاّ يؤدي ذلك إلى جرح مشاعرهم. كان الجميع يبتسمون، كأنّهم يسمعون قصة خرافية من نوع ما، لا قصّة الخلق الحقيقية.

- نعم، جعل الله الطونق جانق طوال القامة وأقوياء، وجعل نساءهم أجمل النساء، أجمل من جميع المخلوقات على وجه الأرض قاطبة. انطلقت همهمات سريعة بالموافقة، هذه المرة بأصوات حلقيّة أكثر، بمن فيهم الرجال العرب. وتبعت ذلك موجة من الضحك بصوت مرتفع من الجميع. لكزني صادق وابتسم لي ابتسامة عريضة، فضحكت أنا أيضاً، مع أنّني لم أكن متأكداً لماذا ضحكت.

- نعم، واصل أبي، - وعندما أنهى الله عمله، وقف الطونق جانق على الأرض ينتظر أوامره، ثم سأل الله الرجل، «الآن بعد أن أصبحتَ هنا، فوق أكثر أرض قداسة وخصوبة أملكها، يمكنني أن أمنحك شيئاً آخر. يمكنني أن أعطيك هذا المخلوق، الذي يدعى البقرة...

أدار أبي رأسه بسرعة، وصبّ بعض ما في كأسه في النار، فأصدرت هسيساً وأرسلت عموداً من الدخان إلى الأعلى، ثم التفت إلى الناحية الأخرى ووجد ما كان يبحث عنه أخيراً: أشار إلى بقرة تقف بعيداً، إحدى الأبقار التي تنتظر أن تُباع في السوق، غداً.

- نعم، واصل كلامه، أرى اللّه الرجل فكرة المواشي، وكانت المواشي رائعة. كانت من كلّ ناحية كما يريدها الطونق جانق تماماً. فشكر الرجل والمرأة اللّه على هذه الهدية، لأنهما عرفا أنّ المواشي ستدّر عليهما الحليب واللحم وستجلب لهما الازدهار من كلّ نوع. لكن اللّه لم ينته.

- لن ينتهي أبداً، قال صادق مخاطباً موجة من الضحك.

- قال اللّه، «يمكنكما أن تأخذا هذه الأبقار، هدية منّي لكما، أو يمكنكما أن تحصلا على الـ «ماذا»» انتظر أبي الرّد الضروري.

- لكن... قال صادق، يساعده، - ما هو الـ «ماذا»؟ قال، بطريقة استفسار مسرحية.

- نعم، نعم. كان ذلك هو السؤال. فرفع الرجل الأول رأسه إلى اللّه وسأله ما هو، ماذا هذا. ما هو الـ «ماذا؟» سأل الرجل الأول. فقال اللّه للرجل، «لا أستطيع أن أقول لك. ومع ذلك، يجب أن تختار. عليك أن تختار بين الأبقار وبين الـ ماذا». حسناً إذن. كان باستطاعة الرجل والمرأة رؤية الأبقار أمامهما، وكانا يعرفان أنهما بتلك الأبقار سيأكلان ويعيشان بسعادة وهناء. كان بإمكانهما أن يريا أن الأبقار هي أكثر مخلوقات اللّه كمالاً، وأنه يوجد في داخلها شيء إلهيّ. وعرفا أنّهما سيعيشان في سلام مع الأبقار، وأنهما إذا ساعدا تلك الأبقار في تزويدها بالمأكل والمشرب فإنها ستدّر عليهما الحليب، وستتضاعف أعدادها في كلّ سنة وستجعل الطونق جانق سعيداً ينعم بالصحة. لذلك عرف أول رجل وامرأة أنهما سيكونان غبيين إذا رفضا تلك المواشي مقابل الـ ماذا هذه. فاختار الرجل الأبقار، وأثبت له اللّه أنّ هذا هو القرار الصائب. فقد كان اللّه يختبر الرجل. كان يختبر الرجل ليعرف إن كان سيقدّر ما أُعطي له، إن كان سيستمتع بالوفرة المتاحة أمامه، بدلاً من أن يستبدلها بشيء مجهول. وبما أن الرجل الأول استطاع أن يرى ذلك، فقد جعلنا اللّه ننمو ونزدهر. فالدينكا يعيشون وينمون كما تعيش الأبقار وتنمو.

مال الرجل الباسم رأسه.

- نعم، لكن يا عمّ دنغ، هل يمكنني أن أسأل شيئاً؟

لاحظ أبي تأدب الرجل، فجلس وأومأ.

- لم تقل لنا الجواب: ما هو الـ «ماذا؟» فهز أبي كتفيه، وقال: - لا نعرف. لا أحد يعرف.

ثم انتهى العشاء وانتهى بعده الشراب، ونام الضيوف في الأكواخ العديدة الموجودة في مجمّع أبي، واضطجعت في الكوخ الذي نام فيه صادق، متظاهراً بأنني نائم، لكني كنت أراقب صادق وأنا أمسك الجوهرة الزجاجية التي كان قدمها لي في قبضتي بإحكام.

كنت قد سمعت قصّة الأبقار والـ ماذا هذه كثيراً، لكنها لم تكن تنته بهذه الطريقة. فعندما كان أبي يحكي لي القصة، كان يقول إن الله أعطى الـ «ماذا» إلى العرب، لذلك فهم أدنى مرتبة منا. فقد منح الدينكا الأبقار أولاً، ويحاول العرب أن يسرقوها منهم. ومنح الله الدينكا أفضل أرض، الأرض الخصبة الغنية، وأعطاهم الأبقار، ومع أنه لم يكن عادلاً في ذلك، فإن هذه هي مشيئة الله، ولا يمكن تغييرها. فعاش العرب في الصحراء، بدون ماء أو تربة صالحة للزراعة، فراحوا يبحثون عن بعض نِعَم الله، وبدأوا يسرقون أبقارهم مواشيهم ويرعونها في أرض الدينكا. لم يكن العرب رعاة مواش جيدين، وبما أنهم لم يفهموا قيمة الأبقار فلم يكونوا يفعلون شيئاً إلاّ أن يذبحوها. إنهم أناس مضطربون، كان أبي يقول لي في أحيان كثيرة، أناس ميؤوس منهم من نواحٍ كثيرة.

لكن أبي لم يحك هذه الليلة هذا الجزء من القصّة، وكنت سعيداً بذلك. كنت فخوراً بأبي، لأنه غيّر القصّة لكي لا يجرح مشاعر صادق والتجّار الآخرين. كان متيقناً من أن العرب يعرفون بأنّهم أدنى مرتبة من الدينكا، لكنّه كان يعرف أيضاً أن ليس من اللباقة أن يقول لهم ذلك على العشاء.

في صباح اليوم التالي، رأيت صادق عزيز لآخر مرّة. كان يوم ارتياد الكنيسة، وعندما استيقظت عائلتي، كان صادق خارج الكوخ، يهيئ حصانه. زحفت إلى خارج الكوخ لأراقبه وهو يمتطي الحصان، ووجدت أبي هناك أيضاً.

- أأنت متأكد من أنك لن تأتي معنا؟ قال أبي.

ابتسم صادق. - ربما في المرة القادمة، قال، مبتسماً ابتسامة عريضة. قفز فوق سرجه وانطلق باتّجاه النهر.

كان ذلك اليوم أيضاً هو آخر يوم أرى فيه الجنود الذين كانوا يتمركزون في القرية. فقد كان جنود الجيش الحكومي يتمركزون في مايال باي منذ سنوات، عشرة جنود أو ما يقارب ذلك، مكلفين بالحفاظ على السلام. وبعد انتهاء الصلاة في الكنيسة التي استمرت حتى فترة بعد الظهر، سرت إلى الكنيسة الأسقفية الصغيرة وانتظرت وليام كي وموسى في الخارج. وبقدر ما كنت أخشى من طول فترة صلاة القداس الكاثوليكية، كنت سعيداً لأنني لست من

رعايا القسّ بول آكوون الذي يُعرف بطول مواعظه التي تستمر حتّى حلول الليل. عندما أنهى وليام كي وموسى الصلاة، وبدّل موسى قميصه، ذهبنا إلى ملعب كرة القدم حيث كان الجنود ورجال القرية يجرون تمارين التحمية للعب بالكرتين التي كان الجنود يحتفظون بها في ثكنتهم. وكان الجنود يمضون جلّ وقتهم في لعب كرة القدم والكرة الطائرة، ويمضون ما تبقى من وقتهم في التدخين، وكانوا يشربون النبيذ وبعد الظهر. لم يقل لهم أحد شيئاً عن ذلك، فقد كانت القرية سعيدة بوجود الجنود فيها، لحماية السوق والمواشي التي ترعى في الحقول القريبة، من إغارات «المرحلّين» أو أي جماعة أخرى. وكان الجنود المتمركّزين في مايال باي ينتمون إلى ديانات وانتماءات عرقية متعددة: مسيحيون من الدينكا، ومسلمون من دارفور، ومسلمون عرب يمضون حياة سهلة نسبياً. وكانوا يمكثون في الثكنة معاً، ويقومون أحياناً بدوريات حول البلدة، أو يأتون إلى دكان أبي، ويجلسون تحت السقف المصنوع من سعف النخيل، يشربون العرقي، نوع الخمر الذي يُصنع محلياً، يتحدّثون عن الحياة التي ينوون بنائها بعد أن ينهوا خدمتهم العسكرية.

عندما بدأ اللعب، أخذ وليام كي وموسى وأنا أماكننا وراء أحد الأهداف، بأمل أن نعيد الكرات التي ترمى خارج المرمى. وفي الملعب كله، فوق كلّ خطّ جانبي وفي كلّ زاوية، كان يقف صبية لا يزالون صغاراً للعب مع الرجال، ينتظرون فرصة للجري وراء كرة تخرج من أرض اللعب فيرمونها أو يركلونها إلى أرض الملعب. عندما بدأت الشمس تميل إلى الغروب، وبدأت نار العشاء تُشعل في أنحاء القرية، تمكّنت من الإمساك بالكرتين، وركلت كلّ منهما إلى الحقل بدقّة. كان يوماً جيداً بالنسبة لي. وعندما انتهت اللعبة، صافح الرجال بعضهم ثم ذهب كلّ واحد منهم في طريقه.

- أيها الفتى الأحمر! صاح جندي.

التفتُّ. نظرت إلى قميصي. كنت أرتدي قميصاً أحمر.

- تعال إلى هنا إذا أردت شيئاً جيّداً.

جريت نحو الجندي، كان رجلاً قصيراً ذا وجه عريض وقد بدت على جبينه ندبات عميقة تشير إلى أنه من قبائل النوير. مدّ يده برزمة صغيرة من السكاكر الصفراء اللون. حدّقت فيه لكني لم أتحرّك.

- خذ قليلاً منها، يا ولد. إني أعطيها لك.

أخذت واحدة منها ووضعتها في فمي بسرعة. لكني ندمت على الفور على تهوري، فقد كان عليّ أن أضعها في جيبي، احتفظ بها لمناسبة خاصّة. لكن الأوان قد فات. فقد أصبحت في فمي وكانت لذيذة جداً- مثل ليمونة، لكنها لم تكن حامضة كالليمون. كانت أشبه بقطعة سكر في شكل ليمونة.

- شكراً يا عمّ، قلت.

- خذ واحدة أخرى يا ولد، قال الجندي. يجب أن تعرف متى تأخذ ما يُعطى لك. فالولد الغني فقط هو الذي يمكن أن يكون حذراً بهذا الشكل. صحيح يا ولد؟ هل أنت غني لا يمكن إرضاؤك بسهولة؟

لم أكن متأكّداً إن كان هذا حقيقياً. كنت أعرف أن أبي رجل ناجح، رجل مهمّ، لكنّي لست شخصاً يصعب إرضائي. كنت لا أزال أحاول أن أفكّر بردّ عندما استدار الجندي وسار مبتعداً.

بعد بضعة أسابيع، بدأت الحرب، بكلّ نواياها وأهدافها. في الواقع، كانت الحرب قد بدأت في أجزاء من البلد. وانتشرت شائعات بأن عدداً من العرب قد قُتلوا على يد المتمردين، وأن هناك بلدات قد أُجليت من العرب، وأن مذابح جماعية حدثت قُتل فيها بعض التجّار العرب، وأُحرقت محلاتهم. وأشيع عن تشكيل جماعات متمرّدة، معظم أفرادها من الدينكا، في أرجاء الجنوب، وأرسلوا رسالة واضحة إلى الخرطوم بأنّهم لا يرغبون في تطبيق قانون الشريعة الإسلامية في المناطق التي يعيش فيها الدينكا. لم يكن المتمردون قد انتظموا تحت راية جيش التحرير الشعبي السوداني بعد، وكان وجودهم مشتتاً في أنحاء الجنوب، ولم تكن الحرب قد بلغت مايال باي بعد، لكنّها ستبلغها قريباً. وكانت قريتنا واحدة من أكثر القرى التي لحقت بها أضرار، أولاً بسبب وجود المتمرّدين، ثم بسبب الميليشيات التي تدعمها الحكومة لمعاقبة المتمردين - والذين يدعمونهم.

جلستُ في دكان أبي، ألعب بمطرقة على الأرض، متظاهراً أنّها رأس ورقبة زرافة. كنت أحرّكها ببهاء زرافة بطيئة، أثني الرقبة لتشرب ماء، ثم ترفع رقبتها إلى الأعلى لتأكل من أغصان الشجرة العالية. كنت أمشّي المطرقة التي ألعب بها على أنها زرافة بصمت، ببطء فوق أرضيّة الدكان الترابية، ثم راحت الزرافة تتطلع حولها لأنها سمعت صوتاً. ما هو؟ لا شيء. عرفت أن الزرافة تحتاج إلى صديقة لها. فتناولت مطرقة أخرى من رفّ منخفض وألحقتها بالأولى. فانزلقت الزرافتان فوق السهل العشبي، تمدّان رقبتاهما إلى الأمام، أولاً الأولى، ثمّ الثانية، الواحدة تلو الأخرى.

تخيّلت نفسي بأنني تاجر، أدير أعمال أبي، أنظّم المخزن، أتفاوض مع الزبائن، أطلب سلعاً جديدة من الجانب الآخر من النهر، أعدّل الأسعار بحسب أسعار السوق، أزور الدكان في أويل، أعرف مئات التجّار بأسمائهم، أتحرك بسهولة في أيّ قرية، يعرفني ويحترمني الجميع. سأكون رجلاً مهماً، مثل أبي، وسيكون عندي عدة زوجات. سأعتمد على نجاح أبي، وسأفتح مخزناً آخر، مخازن أخرى، وربّما أمتلك قطيعاً أضخم من الأبقار- ستّمئة رأس، ألف رأس. وحالما يتاح لي ذلك، سأشتري دراجة، والبلاستيك يغلفها. من المؤكد أنني لن أزيل البلاستيك من مكانه.

غطى ظلّ فوق أرض زرافاتي.

- مرحباً! قال أبي في السماء فوقي.

لم تكن التحية حارة رداً على تحيته. نظرت إلى الأعلى لأرى ثلاثة رجال، يعلّق أحدهم بندقيّة على كتفه بخيط أبيض. عرفتُ الرجل. إنه الرجل الباسم في تلك الليلة. الشابّ الذي أثار سؤال الـ ماذا مع أبي.

- نحتاج إلى سكّر، قال أصغر الرجال قامة. لم يكن مسلحاً لكنّ كان من الواضح أنه قائد الثلاثة. كان الوحيد الذي تكلّم.

- طبعاً، قال أبي. - كم؟

- كلّه، يا عمّ. كلّ ما عندك.

- هذا سيكلّف مبلغاً كبيراً من المال، يا صديقي.

- هل هذا كلّ ما عندك؟

التقط الرجل الضئيل الكيس المصنوع من ألياف السيزال الذي يزن عشرين رطلاً في الزاوية.

- هذا كلّ ما عندي.

- جيّد، سنأخذه.

التقط الرجل الضئيل السكّر واستدار ليخرج. كان رفاقه قد أصبحوا خارج المحل.

- انتظر، سأل أبي. - هل يعني ذلك أنك لن تدفع ثمنه؟

أصبح الرجل الضئيل عند الباب، عيناه تحاولان التأقلم مع أشعة شمس منتصف النهار. - يجب أن نزوّد الحركة بالطعام. ينبغي أن تكون سعيداً بمساهمتك هذه.

- دنغ، لقد أخطأت، قال الرجل المبتسم.

خرج أبي من وراء النضد وقابل الرجل عند المدخل.

- يمكنني أن أعطيك بعض السكّر، طبعاً. بالطبع سأفعل ذلك. سأتذكر الصراع. أعرف أن الصراع يجب أن يزوّد بالطعام، نعم. لكنّي لا أستطيع أن أعطيك الكيس كله. هذا سيشلّ عملي - إنك تعرف ذلك تمام المعرفة. علينا جميعاً أن نؤدي ما علينا، نعم، لكن لنجعل ذلك منصفاً لكلينا. سأعطيك بقدر ما أستطيع.

تناول أبي كيساً أصغر.

- لا! لا، أيها الرجل الغبي! صاح الرجل الضئيل. نبرة صوته أجفلتني فنهضت على قدمي. - سنأخذ هذا الكيس وستكون ممتنّاً لأننا لن نأخذ أكثر.

عاد الآن الرجل الباسم ومرافقه، الرجل الذي يعلق بندقيّته بخيط، واقفاً وراء الرجل الضئيل. حملقت عيونهم في أبي. وحدّق في الرجال، الواحد تلو الآخر.

- أرجوك. كيف سنعيش إذا كنتم تسرقون منّا؟

تحرّك الرجل المبتسم، كاد يدوس فوقي.

- نسرق؟ هل تدعونا لصوصاً؟

- ماذا يمكنني أن أدعوكم؟ هكذا أنتم -

وجّه الرجل المبتسم لكمة قوية فتكوّم أبي على الأرض، وسقط بجانبي.

- أخرجه، قال الرجل. - أريد أن يرى الجميع هذا. وسحب الرجال أبي من داخل الدكان إلى السوق المضيء. وتحلّق حشد على الفور.

- ما الذي يجري؟ قال تونغ تونغ الذي كان دكانه بجانب دكان أبي.

- انظر وتعلّم من هذا، قال الرجل الباسم.

قلب الرجال الثلاثة أبي على بطنه، وبسرعة قيّدوا يديه وقدميه بحبل جلبوه من محله. ظهرت أمّي.

- توقّفوا عن هذا! صرخت. - أنتم مجانين!

وجّه الرجل الذي يحمل البندقيّة بندقيته إلى أمّي. التفت الرجل الضئيل إليها ورمقها بأعمق نظرة ازدراء.

- سيأتي دورك بعده يا امرأة.

استدرتُ وجريتُ إلى عتمة الدكان. كنت متأكداً من أنهم سيقتلون أبي، وربّما أمّي أيضاً. اختبأت تحت أكياس الحبوب في الزاوية وتخيّلت نفسي أعيش من دون أمّي. هل سأرسل لأعيش مع جدتي؟ قرّرت أن تكون أمّ أبي، ماديت، التي ستأخذني إليها. لكن ذلك يبعد مسيرة يومين، ولن أرى وليام كي وموسى مرة أخرى. نهضت فوق أكياس الحبوب ونظرت من الزاوية إلى السوق. كانت أمّي واقفة بين أبي والرجال الثلاثة.

- أرجوكم لا تقتلوه، ولولت أمّي. - قتله لن يساعدكم في شيء.

كانت أطول برأس من الرجل الضئيل أما الرجل الذي يحمل البندقيّة فقد صوّب بندقيته نحو أمّي، فلم أستطع أن أتنفّس. وراح رأسي يدقّ ويدقّ وبدأت أرمش كي أبقي عيني مفتوحتين.

- يجب أن تقتلوني أنا أيضاً، قالت.

أصبحت نبرة الرجل الضئيل أكثر ليناً فجأة. نظرت من خلال المدخل ورأيت أن الرجل قد خفّض بندقيّته. وبذلك، ومن دون أيّ رحمة، ركل أبي في وجهه. صدر صوت مكتوم، مثل يد تصفع جلد بقرة. ركلة مرة أخرى وكان الصوت مختلفاً هذا المرة. صوت تصدع، تماماً مثل كسر عصا تحت ركبة أحدهم.

في تلك اللحظة ثمة شيء فيّ انكسر. أحسست به، لا يمكن أن أكون مخطئاً في ذلك. كما لو كانت توجد حفنة من الخيوط المشدودة في داخلي، تمسكني باستقامة، تضم معاً دماغي وقلبي وساقي، وفي تلك اللحظة، انقطع أحد تلك الخيوط، الرفيع والواهي.

وفي ذلك اليوم، ترسخّ وجود المتمرّدين في مايال باي وأصبحت بلدة في حرب مع نفسها - يتنازع عليها المتمردون والحكومة. ونُسيت ألعاب كرة القدم. وأصبح المتمردون يأتون في الليل، يداهمون البيوت والمحلات كلما استطاعوا، وفي النهار، كان جنود الجيش الحكومي يقومون بأعمال الدورية في القرية، لاسيما في السوق، تفوح منهم رائحة الخطر، يلقّمون بنادقهم، ويرتابون من أي شخص غير مألوف، وكانوا يضايقون الشباب في كلّ فرصة. من هم؟ هل أنت مع المتمردين؟ فتبخّرت الثقة بالجيش. وتحيّز غير المشاركين إلى أحد الجانبين.

لم يعد يُسمح لي باللعب في السوق. وأُغلقت المدرسة إلى أجل غير مسمى. وغادر معلّمنا الذي قيل إنه كان يتدرّب مع المتمردين في مكان قريب من جوبا، في الزاوية الجنوبية الشرقية من البلد، وأضحت المناقشات بين الرجال في مايال باي متواصلة وحادة، بعد انتهاء الصلاة في الكنيسة، وعلى العشاء، وفي الدروب والممرات. وطلب مني أبي أن لا أغادر البيت، وحاولت أمّي أن تبقيني في البيت طوال الوقت، لكنّي ضعتُ، وكان موسى ووليام كي وأنا نرى بعض الأشياء أحياناً. نحن الذين رأينا كانوا كولونغ غار يجري هارباً.

كان قد حلّ الظلام، بعد العشاء. توجهنا إلى الشجرة التي كان باستطاعتنا أن نسمع من فوقها الأحاديث التي تدور بين أماث وأخواتها. فقد ظل ذلك المكان الذي أجثم فوقه على الشجرة سرّياً حتى رآني يوماً وليام كي وهدّدني بأنه سيكشف عن سرّ مكاني إذا لم أدعه ينضم إليّ. ومنذ ذلك الحين، أصبح تجسسنا الليلي أمراً معتاداً، حتى لو لم يكن مثمراً. وعندما كانت تهب رياح قوية، وتهتز أوراق شجرة الأكاسيا، لم نكن نسمع شيئاً ينبعث من الكوخ في الأسفل. كانت الليلة التي رأينا فيها كولونغ غار ليلة مثل تلك، ليلة لا تضيئها نجوم وتهب فيها ريح عاصفة. لم نعد نسمع شيئاً تقوله أماث وأخواتها، فمللنا من المحاولة. وما إن بدأنا نهبط من الشجرة، حتى رأى موسى الذي كان يجثم فوق أعلى غصن، شيئاً.

- انتظرا! همس.

انتظرت أنا ووليام. أشار موسى نحو الثكنة ورأينا ما رأيناه. أضواء، خمسة أضواء، تقفز فوق ساحة كرة القدم.

- جنود، قال موسى.

تحرّكت المصابيح الكاشفة فوق الحقل ببطء، ثمّ انتشرت أكثر. اختفى اثنان منها في المدرسة وألقيا بخيوط من الضوء حول الغرفة. ثمّ أظلمت المدرسة

مرة أخرى، وبدأت الأضواء تجري.

كان ذلك عندما ركض كولونغ غار تحت شجرتنا. وكان كولونغ غار جندياً في الجيش الحكومي، لكنّه كان أيضاً من الدينكا، من أويل، والآن ها هو يجري، لا يرتدي سوى بنطال قصير أبيض - من دون حذاء أو قميص. وبوميض عضلة ورجفة بياض عينيه، كان يسابق الريح تحت سيقاننا المدلاة. رأينا ظهره وهو يطلق ساقيه للريح أمام بيت أماث واتجه إلى الدرب الرئيسي المؤدي إلى خارج مايال باي، جنوباً.

بعد بضع دقائق، تبعه ضوءان. توقّفا عند الشجرة التي كنّا فوقها، وأخيراً استداراً وعادا إلى الثكنة. انتهت عملية البحث، على الأقل في تلك الليلة.

هكذا هرب كولونغ غار من الجيش. وظللنا لأسابيع نحكي القصّة التي وجد الجميع أنها قصة مثيرة ونادرة، حتى أصبحت القصص المشابهة أمراً شائعاً. ففي كلّ مكان يتواجد فيه جنود من الدينكا في الجيش الحكومي، كانوا يهربون وينضمون إلى صفوف المتمردين. كان عدد الجنود المتمركزين في مايال باي اثني عشر جندياً، لكنهم سرعان ما أصبحوا عشرة، ثمّ تسعة. أما الجنود الذين بقوا في الثكنة، فكانوا من عرب الشمال وجنديين من قبيلة الفور من دارفور، لكن مشاعر أهالي البلدة لم تشجّعهم على البقاء، لأن أهل مايال باي أصبحوا متعاطفين بقوة مع قضيّة المتمردين - الذين كانوا يريدون، بين أمور أخرى، تمثيلاً أفضل لجنوب السودان في الخرطوم - وكان الجنود يدركون ذلك.

وفي أحد الأيام، ذهبوا كلهم. فقد صحت مايال باي ذات صباح ولم يعد هناك وجود للجنود المكلفين بحماية القرية من الإغارات والحفاظ على السلام. واختفت ممتلكاتهم وأمتعتهم، وسياراتهم، واختفى أيّ أثر لهم. فغادروا جنوب السودان إلى شماله، وذهبت معهم الكثير من عائلات مايال باي الغنية. وأخذ الرجال الذين كانوا يعملون في الحكومة في مختلف الوظائف -قضاة، كتبة، جباة ضرائب - عائلاتهم وذهبوا إلى الخرطوم. وغادرت جميع العائلات المقتدرة وتوجّهت إلى أماكن اعتبرتها أكثر أماناً، في الشمال أو الشرق أو الجنوب. ولم تعد مايال باي، ومعظم منطقة بحر الغزال، آمنة.

في اليوم الذي اختفى فيه الجنود، ذهبت أنا وموسى إلى ثكنة الجنود، وزحفنا تحت أسرّتهم، بحثاً عن نقود أو أشياء تذكارية، أيّ شيء قد يكونون قد تركوه عندما غادروا بسرعة. ووجد موسى سكين جيب مكسورة فأخذها.

ووجدت حزاماً بدون إبزيم. كان المبنى لا يزال يعبق برائحة الرجال، رائحة التبغ والعرق.

وسرعان ما أغلق التجّار العرب القليلون الذين ظلوا في السوق محلاتهم وغادروا. وبعد أسبوع أُغلق المسجد، وبعد ثلاثة أيام، أُحرق كليّاً. لم تجر تحقيقات. ومع ذهاب الجنود، ازداد وجود المتمرّدين في مايوال باي لفترة من الوقت، وسرعان ما أصبح للمتمردين اسماً جديداً: جيش التحرير الشعبي السوداني.

لكن بعد بضعة أسابيع، ذهب المتمردون. ولم يأت أحد منهم إلى مايوال باي لحمايتها أو لتسيير دوريّات فيها. كانوا يعبرونها أو يأتون لتجنيد بعض الرجال، وأخذ ما يحتاجون إليه من دكان أبي. لم يكن المتمردون هناك عندما حصد سكان مايوال باي ما كانوا قد بذروه.

(٧)

رنّ هاتف مايكل مرة أخرى.

رفع الصبي نفسه ببطء ثم جرى إلى المطبخ ليردّ عليه. لم أستطع أن أسمع معظم الحديث، لكنّي سمعته يقول: «قلتِ العاشرة»، ثم أعقب ذلك سلسلة من الاعتراضات المشابهة.

انتهى الحديث بينهما في أقل من دقيقة، وأصبح عليّ الآن أن أحاول أن أتفاهم مع الصبي مرة أخرى. لعله أصبح يشعر بالارتياح معي الآن، بوجودي وأنا لا أتحرّك، وأظن أنه لن يخاف من صوتي. يبدو أنّه كان منزعجاً من المتواطئين معه. لعلي أستطيع أن أقيم تحالفاً معه، لأني لا أزال آمل بأنّه سيرى أنّنا، هو وأنا، نشبه بعضنا بعضاً أكثر مما يشبه الذين وضعوه هنا.

«أيها الفتى»، قلت له.

كان واقفاً بين المطبخ وغرفة الجلوس. كان يفكّر إن كان عليه أن يعود إلى الأريكة لينام، أم يشغّل التلفزيون مرة أخرى. حظيت بانتباهه للحظة. رمقني بنظرة سريعة، ثمّ أدار وجهه.

«لا أريد أن أخيفك. أعرف أن فكرة أن تكون معي هنا ليست فكرتك».

نظر إلى دفتر الهواتف، لكن يبدو أنه نظر إليه لأنه مرمي فوق صدغي، ولكي يستعيده يجب أن يقترب مني كثيراً. مرّ من أمامي واختفى في الصالة، ثم توجّه إلى غرف النوم. جفّ حلقي عندما خيّل إليّ بأنه قد يعود حاملاً معه القاموس الكبير.

«أيها الشابّ! قلت، ملقياً صوتي إلى أسفل الصالة، «أرجوك لا تلقي فوقي شيئاً! سأصمت إذا كان هذا ما تريده».

أصبح الآن فوقي، وللمرة الأولى، راح ينظر في عينيَ. كان يحمل كتاب الرياضيات الذي أدرسه بيد، ومنشفة باليد الأخرى. لم أعرف أيهما يشكّل تهديداً أكبر. المنشفة - هل سيخنقني بها؟

«هل تريدني أن أصمت؟ سأصمت إذا لم تلقي عليّ شيئاً».

هزّ رأسه نحوي، ثمّ رفع قدمه وداس فوق فمي برفق، وأعاد الشريط إلى مكانه. أن يغلق هذا الصبي فمي بقدمه - هذا أمر غير مقبول.

اختفى عن نظري، لكن الأمر لم ينته بعد. عندما عاد، بدأ مشروع بناء في غرفة الجلوس.

دفع أولاً المنضدة الصغيرة وقرّبها من طاولة اللعب، ليقرّب المسافة بين الأشياء الثلاثة: أنا والطاولة والرف. سحب الآن كرسياً من المطبخ. وضعه قريباً من رأسي. وجلب من الأريكة واحدة من الوسائد الثلاث الكبيرة. وضع الوسادة على مقعد الكرسي، ثم جلب كرسياً آخر من المطبخ، ووضعه عند قدميّ، ووضع فوقه وسادة أحضرها من الأريكة. بهذه الطريقة حجبني عن رؤيته. اقتصرت رؤيتي الآن على السقف فوقي، وعلى الحيّز القليل الذي يمكنني رؤيته بين نواقذ المنضدة الصغيرة. استلقيت، ووجدت نفسي أُعجب بمدى رؤيته المعمارية، حتى فاجئني بالبطانية. فمدّ غطاء السرير الذي جلبه من غرفتي بعناية فوق الأريكة حتى شكّل فوقي خيمة. هذا كثير جداً. مايكل، بدأ صبري ينفذ منك. لقد انتهيت منك الآن وآمل أن ترى ما رأيته. اعترف بالجميل، يا صبي التلفزيون. احترم. هل رأيت بداية اندلاع حرب؟ تصوّر الآن الحيّ الذي تقيم فيه، وأنت ترى النساء يصرخن، والأطفال يُرمون في الآبار، وترى إخوتك يتفجرون أمامك. أريد أن تكون معي هناك.

كنتُ جالساً مع أمّي، أساعدها في غلي الماء. كنت قد جمعت بعض الأغصان لإشعال النار. كنت ألقم النار، وكانت تريد أن تساعدني، فليس من المعتاد أن يقوم صبي في عمري أن يقدم مساعدة. كانت هناك مشاعر عميقة بالمحبة بين الأمّ وابنها الذي لم يكن يتجاوز السادسة أو السابعة من العمر. ففي ذلك العمر، يبقى الصبي صبياً، وقد يكون ضعيفاً يذوب بين ذراعيّ أمّه. بالنسبة لي، مع أنها كانت آخر مرّة، لأنني لن أكون غداً صبياً، وإنما سأكون شيئاً آخر - حيوان مستميت يريد أن يحافظ على حياته. أعرف أنّني لا أستطيع أن أعود إلى تلك الأيام التي لا أزال أراها وأتذوقها، تلك اللحظات التي أستطيع أن أكون فيها صغيراً، أستطيع أن أقوم بأفعال جيدة صغيرة، أستطيع أن أزحف تحت قدمي أمّي وأنفخ نار العشاء. أحبّ أن أفكّر بأنّني كنت أستمتع بلحظة الطفولة النهائية تلك عندما تناهى إلينا الصوت.

كان الصوت يشبه صوت الطائرات التي كانت تحلّق فوقنا بين الحين والآخر، لكن هذا الصوت كان أعلى، وأكثر صخباً. كان يبدو أنه يتشظى، مرات ومرات. تشاكا- تشاكا. تشاكا- تشاكا. توقّفت عن العمل الذي كنت أقوم به ورحت

أنصّت. ما هو هذا الصوت؟ تشاكا - تشاكا. كان مثل الضجيج الذي تصدره شاحنة قديمة، لكنّه كان آتياً من فوق، ينتشر عبر عرض السماء.

لبثت أمّي في مكانها لا تتحرك، تنصت. ذهبتُ إلى باب الكوخ.

- أتشاك، تعال واجلس هنا، قالت.

عبر مدخل الباب رأيت شيئاً يشبه الطائرة، ينخفض فوق القرية. كانت نوعاً فاتناً من الطائرات، كلّها سوداء وقاتمة، لا تعكس الضوء. أما الطائرات التي كنت قد رأيتها قبل الآن فكانت تشبه طيوراً بدائية، ذات أنوف وأجنحة وصدور، أما هذه الآلة فكانت تشبه صرصار الليل. رحت أراقبها وهي تحلّق فوق القرية. كانت تصدر صوتاً كثيفاً وهادراً، أعلى من أيّ صوت سمعته في حياتي. كانت الاهتزازات تهزّ أضلاعي، تمزّقني.

- أتشاك، تعال إلى هنا!

سمعت كلمات أمّي، مع أن صوتها كان أشبه بذاكرة. لم يكن الشيء الذي كان يجري مألوفاً، بل كان جديداً تماماً. ثم ظهرت خمس أو أكثر من تلك الآلات الجديدة، صراصير ليل سوداء ضخمة تطير في جميع الاتّجاهات. خرجتُ من الكوخ وجريت إلى وسط المجمّع، مذهولاً. رأيت صبية آخرين من القرية ينظرون إلى الأعلى مثلي. كان بعضهم يقفز ويضحك ويشير إلى صراصير الليل تلك التي تصدر صوتاً ثاقباً.

لكنّ ذلك الشيء كان غريباً. فقد أخذ الكبار يركضون مبتعدين عن هذه الآلات، يسقطون، يصرخون. رحت أنظر إلى الناس وهم يركضون. كنت مسمّراً في مكاني مذهولاً، لا أستطيع أن آتي بحركة. إن حجم تلك الآلات سمّرني في مكاني. اعتراني شعور بالتعب بطريقة لم أعهدها من قبل، بينما رأيت الأمهات وهن يحملن أبنائهن الصغار ويجرين لإعادتهم إلى أكواخهم. رأيت الرجال يجرون بين الأعشاب الطويلة ويلقون بأنفسهم على الأرض. رأيت أحد صراصير الليل تلك تطير فوق ملعب كرة القدم، تطير على ارتفاع منخفض أكثر من الآلات الأخرى. رأيت العشرين شاباً الذين كانوا يلعبون في الملعب يجرون نحو المدرسة، يصرخون، ثمّ علا صوت جديد في الهواء. كان أشبه بتقطع الآلة، لكنّه لم يكن كذلك.

بدأ الرجال الذين كانوا يركضون نحو المدرسة يتساقطون. كانوا يسقطون أمامي، كما لو كانوا يجرون باتجاه بيتي، نحوي. عشرة رجال في بضع ثوان، أذرعهم مرفوعة نحو السماء. بدأت الآلة التي أطلقت عليهم النار تتجه

نحوي. وقفت أراقب صرصار الليل الأسود وقد بدأ حجمه يزداد ضخامة وصوته يزداد علواً. استطعت أن أرى الأسلحة موجهة نحوي. رجلان جالسان في تلك الآلة، على رأسيهما خوذ ويضعان نظارات شمسية تشبه النظارات التي يضعها أبي. لم أقو على الحراك عندما كانت الآلة تقترب. بدأ الصوت يملأ رأسي.

- أتشاك!

كانت يدا أمّي حول خصري، وسحبتني بقوة إلى العتمة. وجدت نفسي داخل الكوخ معها. هدر الصوت فوقنا، يخبط، يقطع، يقسّم نفسه.

- أيها الغبي! سيقتلونك!

- من؟ من هم؟

- الجيش. طائرات الهليكوبتر. أتشاك، أنا خائفة. أرجوك صلّي من أجلنا.

صلّيت. تمددت تحت سريرها وصلّيت. انتصبت أمّي في جلستها، متصلّبة، ترتجف. طارت الآلات فوقنا ثمّ ابتعدت، ثم عادت. عاد الصوت يملأ رأسي مرة أخرى.

تمدّدت بجانب أمّي، ورحت أتساءل عن مصير إخوتي، وأختي وأخواتي من أبي، وأبي وأصدقائي. كنت أعرف أنه عندما تذهب طائرات الهليكوبتر تلك، فإن الحياة في قريتنا ستتغير إلى غير رجعة. لكن هل سينتهي الأمر؟ هل ستغادر صراصير الليل تلك؟ لم أكن أعرف. وأمّي لم تكن تعرف. كانت بداية نهاية معرفة أنّ الحياة ستستمرّ. هل ينتابك شعور يا مايكل بأنّك ستستيقظ غداً؟ بأنّك ستأكل غداً؟ بأن العالم لن ينتهي غداً؟

انتهى كلّ ذلك بعد ساعة. فقد ذهبت طائرات الهليكوبتر. وشيئاً فشيئاً غادر الرجال والنساء في مايال باي بيوتهم وأخذوا يسيرون مرة أخرى تحت شمس الظهيرة، وراحوا يعالجون الجرحى الذين أصيبوا ويحملون الموتى.

قُتل ثلاثون شخصاً. عشرون رجلاً. كان معظم القتلى من الذين كانوا يلعبون كرة القدم، وقُتلت ثماني نساء وطفلان، أصغر منيّ.

- ابق في الداخل، قالت أمّي. - ليس من الضروري أن ترى هذا.

في صباح اليوم التالي، عادت شاحنات الجيش. الشاحنات التي كانت قد غادرت منذ أسابيع مع جنود الجيش الحكومي، عادت محملة بالجنود، تصحبها ثلاث دبابات وعشر سيارات لاند روفر، حاصرت البلدة في وقت مبكّر من الصباح. وعندما بزغ ضوء النهار، قفز الجنود من شاحناتهم وأخذوا يشعلون النار في مايال باي. أضرموا ناراً هائلة وسط السوق، ومنها أخذوا الجذوع المشتعلة، وراحوا يلقون بها فوق سقوف معظم البيوت في دائرة قطرها ميل. وأطلقوا النار على الرجال القلائل الذين أبدوا مقاومة. كانت تلك نهاية أيّ شكل من أشكال الحياة في مايال باي لفترة من الزمن. ولم يظهر المتمردون الذين عوقبت البلدة من أجلهم مرة أخرى.

(٨)

غادرنا مايال باي بعد بضعة أيام، يا مايكل. فقد كان أبي ودكانه هدفاً لكلّ من الحكومة والمتمردين، فأغلق الدكان في مايال باي، وقسّم عائلته، واستعدّ لينقل عمله إلى أويل التي تبعد مائة ميل تقريباً جنوباً. وأخذ معه زوجتين وسبعة أطفال. واختارني للذهاب معه، لكنه لم يختر أمّي. فقد كان عليها هي والزوجات الأخريات وأولادهن البقاء في مايال باي، والعيش في بيتنا نصف المتهدم. سيكونون في مأمن في القرية الآن، أكدّ لنا. كان قد جمعنا كلنا في المجمّع يوم الأحد بعد الكنيسة وشرح لنا خطّته. قال لقد انتهى الأسوأ، فقد أوضحت الخرطوم ما تريده، وهو معاقبو المتعاونين مع المتمردين، والمهم الآن هو الوقوف على الحياد وتأكيد أنّ التعاون مع المتمردين لن يحدث، أو حتى ليس ممكناً. فلو لم يكن لأبي محل في مايال باي، لما كان باستطاعته مساعدة جيش المتمردين رغماً عنه، لذلك لن تنتقم منه أو منّا الحكومة أو المتمردين أو المرحلّين.

غضبت أمّي لأنها لن تذهب معنا، لكنّها لم تقل شيئاً.

- أريد أن تطيع زوجات أبيك، قالت. فقلت لها نعم سأفعل.

- وأن تسمع كلمتهما. كن لطيفاً ومساعداً. فقلت سأفعل.

كنت معتاداً على السفر مع أبي. في سفراته إلى أويل، وإلى وو. فقد كان يختارني أحياناً لمرافقته، لأنه كان يريد أن أتهيأ لاستلام محلاته عندما يكبر في السن ولا يعود قادراً على ذلك. وقد بدأ أبي ينقل أعماله إلى هذه البلدة الأكبر الواقعة على سكة الحديد التي تمرّ بين الشمال والجنوب. كانت أويل تقع في جنوب السودان ومعظم سكانها من الدينكا، لكن الحكومة تسيطر عليها، وكانت تشكل قاعدة لجيش الخرطوم. لذلك ظنّ أبي أنها مكان آمن لإدارة محله، ويبتعد عن النزاع الذي آخذ يتفاقم. وكان لا يزال يعتقد بقوة بأن التمرّد، أو مهما كان اسمه، سينذلع قريباً جداً.

وصلت الشاحنة التي تقلّنا عند المساء، وحُملت وأنا نصف نائم إلى سرير في البيت الذي أعدّه لنا أبي. صحوت في الليل على أصوات رجال يتجادلون، ويكسرون قناني. صيحة ثم صوت طلقة من بندقيّة فجّرت السماء. كان معظم ضجيج الغابة قد تلاشى وحلّ محله مرور مجموعة من الرجال والنساء يغنّون معاً في الليل، وعواء الضباع وصياح ألف ديك.

في الصباح استكشفت السوق عندما كان أبي يستضيف أصدقاء له من أويل. لأول مرة أصبحت من دون موسى ووليام، وكانت أويل مكتظة بالسكان وأوسع بكثير من مايال باي. فلم يكن في مايال باي سوى بضعة مبان مبنيّة من الطوب، أما هنا فتوجد عشرات الأبنية المشيّدة من الطوب، وذات الأسقف المتموّجة. وبدت لي أويل بلدة مزدهرة وحضرية أكثر من مايال باي بكثير، لكنها لم تعجبني كثيراً. فقد رأيت أشياء جديدة وغير سعيدة عديدة في أول يوم لي فيها، بما فيها رؤيتي مرة أخرى لشخص مقطوع اليد. تبعته، رجل مسنّ يرتدي داشيكي مهلهل لونه ذهبي وأزرق، عبر السوق، رحت أراقب ذراعه المبتورة تحت كميّه. لم أعرف لماذا قُطعت يده، وافترضت أنه يوجد هنا عدد آخر من الأشخاص الذين فقدوا أطرافهم. فقد كانت أويل تابعة للحكومة.

رأيت قرداً يمتطي ظهر رجل. قرد أسود صغير، ينتقل من كتف إلى كتف وهو يصيح ويمسك بكتفي صاحبه. ورأيت شاحنات صغيرة، وسيارات، وشاحنات كبيرة. رأيت سيارات أكثر مما كنت أعرف أن ذلك ممكناً. ففي مايال باي، ربما تجد شاحنتين صغيرتين، أو ربما ثلاث خلال أيام السوق. أما في أويل، فكانت السيارات والشاحنات تأتي وتذهب بسرعة، اثنتا عشرة منها في كلّ لحظة، تطلق الغبار من وراءها. وكان الجنود ينتشرون في كل مكان، وكانوا متوترين، يرتابون من أيّ قادم جديد إلى البلدة، لاسيما الشباب.

وكانت تحدث مداهمات يومياً، وتحقيقات. فقد كان الرجال يُقادون إلى الثكنة باستمرار وأصبح من المتوقّع أنّ يخضع أيّ شابّ من الدينكا في أويل للتحقيق إن آجلاً أم عاجلاً. فقد كانوا يُساقون إلى التحقيق، ويُضربون بدرجات متفاوتة من الشدّة، ويُرغمون على أن يُقسموا بأنهم يكرهون المتمردين وأن يذكروا أسماء الأشخاص الذين يعرفون أنهم متعاطفين مع أولئك المتمردين، ثم يُطلق سراحهم بعد الظهر، ثم يُستدعى جميع الذين ذُكرت أسماؤهم ويُستجوبون. وكان الابتعاد عن السوق يضمن ألا تتعرض للمضايقة، لكن بما أن المتمردين كانوا يعملون في الظل، فقد كان يُظن أن جميع الذين يعيشون خارج البلدة هم من المتمردين أو أنهم يساعدونهم ويتآمرون على أويل من المزارع والغابات المجاورة.

وعلى الرغم من حذره الشديد، ومع أنه كان يعامل الجنود بمودة كبيرة، سرعان ما بدأ الجنود يشكّون في أبي بأنه متواطئ مع المتمردين.

- دنغ آرو.

- نعم.

وقف جنديان عند باب دكان أبي.

- أأنت دنغ آرو من مايال باي؟

- أنا. تعرفان أنه أنا.

- يجب أن نأخذ هذا المخزن.

- لن تفعلوا شيئاً كهذا.

- أغلق مخزنك اليوم. يمكنك أن تفتحه بعد أن نتحدّث.

- نتحدّث عن ماذا؟

- ماذا تفعل هنا، يا دنغ آرو؟ لماذا غادرت مايال باي؟

- عندي مخزن هنا منذ عشر سنوات. عندي كلّ الحقّ...

- كنت تعطي المتمردين بضائع بدون مقابل.

- دعوني أكلّم بول دوت.

- بول دوت؟ هل تعرف بول دوت؟

لقد رجّح أبي كفّة الميزان، فقد كان بول دوت صديقه المقرّب. رجل ذو وجه طويل وسكسوكة رمادية، مرابٍ معروف، كان قد ساعد أبي في فتح مخزنه في أويل، وكان أيضاً عضواً في البرلمان الوطني. وكان واحداً من أشهر زعماء الدينكا المعروفين في منطقة بحر الغزال، وكان عضواً في البرلمان لمدة ثماني سنوات وعمل على دعم الدينكا في منطقته. ولم تكن تلك مهمة سهلة.

- بول دوت متمرّد، قال الجندي.

- بول دوت؟ انتبه إلى ما تقوله. إنك تتكلّم عن عضو في البرلمان.

- عضو في البرلمان سُمع يتكلّم في الإذاعة من إثيوبيا. إنه مع المتمردين، وإن كنت صديقه فأنت متمرّد أيضاً.

رأيت أبي عندما استُدعي للاستجواب. كان أطول قامة من الجنود الفتيان الذين جاؤوا ليقتادوه، لكنه كان لا يزال يبدو نحيفاً جداً ويمشي متمايلاً بجانبهم. كان يرتدي قميصاً طويلاً وردي اللون وينتعل صندله المهترئ، أما الجنديان فكانا يرتديان بدلات عسكرية سميكة من الخيش، وأحذية طويلة متينة ذات كعوب سوداء ثقيلة. في ذلك اليوم، شعرت بالخجل من أبي، وتملكني الغضب. لم يقل لي إلى أين سيذهب. لم يقل لي إن كان سيُسجن أم سيُقتل أم أنه سيعود بعد ساعة.

عاد في الصباح. رأيته يمشي في الطريق نحونا، يتمتم لنفسه. أختي غير الشقيقة، أكول، جرت إليه.

- أين كنت؟ سألته.

تجاوزها ودخل إلى الكوخ. ثم خرج بعد بضع دقائق.

- أتشاك، تعال!

جريت نحوه وعدنا إلى السوق. كان قد ترك دكانه من دون رعاية عندما أخذوه. بينما كنّا نمشي، دققت في وجهه ويديه لعلي أرى علامات تدّل على إصابته بجروح أو تعرضه لأي إساءة. وتفحصت كميّه لأرى إذا كانوا قد قطعوا إحدى يديه.

- إنه زمن سيء أن تكون رجلاً في هذا البلد، قال.

عندما وصلنا، وجدنا أن المحل سليم ولم يعبث به أحد. كان محاطاً بمحلات أصحابها عرب، لا بد أنهم حرسوه. لكن البقاء في أويل أصبح يبدو مستحيلاً الآن.

- هل سنغادر أويل؟ سألته.

استند أبي إلى الحائط الخلفي وأغمض عينيه.

- أظن أنّنا سنغادر أويل، نعم.

جاء بول دوت إلى بيتنا لتناول العشاء. رحت أراقبه وهو يسير أسفل الدرب. كانت طريقة مشيته معروفة، خطوات واسعة رزينة، يدفع إحدى قدميه إلى الأمام ثمّ يدفع الأخرى، كما لو كان يهزّ حذاءه ليخرج منه ماء. صدره عريض، ويوحي وجهه دائماً بأنه يبدي اهتماماً كبيراً بكلّ شيء أو أنه يتظاهر بذلك.

فتح باب المجمّع الذي نعيش فيه وأخذ يديْ أبي في يديه.

- أنا آسف للالتباس الذي حصل مع الجنود، قال لأبي

فلوّح له أبي بيده.

- عادة أفعل شيئاً.

ابتسم أبي وهزّ رأسه. - طبعاً.

- عادة أستطيع أن أفعل شيئاً، أضاف بول.

- أعرف، أعرف.

- أما الآن فأنا واقع في ورطة أكثر منك، يا دنغ آرو.

وقال لأبي إنه مُراقب، وقال إنه التقى بالأشخاص الخطأ. وأصبح يُنظر إلى سفراته المتكرّرة إلى داخل أويل وخارجها بقلق شديد. وقال إنه رفض دعوة وجهت إليه لمقابلة وزير الدفاع في الخرطوم. كانت كلماته تتلوى وهو ينظر إلى الوراء إلى السوق. كان يبدو شخصاً ضائعاً.

- ادخل يا بول، قال أبي، وأمسك بذراع بول.

دخل الرجلان إلى كوخ أبي. زحفتُ بسرعة إلى الكوخ واستلقيت، وتظاهرت بأنني نائم.

- أتشاك. أخرج.

لم أصدر صوتاً. تنهّد أبي. تركني وشأني.

- بول، قال أبي. - تعال معنا إلى مايال باي. لا يوجد جنود هناك. ستكون محميّاً. سيكون عندك أصدقاء. فهي بلدة لا تخضع لسلطة الحكومة.

- لا، لا. أظن أنني يجب أن أفعل شيئاً. لكن صوت بول دوت كان متهدجاً.

- بول. أرجوك.

أطرق بول رأسه. وضع أبي يديه على كتفي بول. كانت بادرة ودّ. أشحت بنظري عنهما.

- لا، قال بول، وقد بدا صوته أقوى الآن. رفع رأسه. - يجب أن أنتظر. سيزداد الأمر سوأً إذا غادرت. لأن مغادرتي ستثير شكوكاً كثيرة. يجب أن أبقى وإلاّ...

- إذن اذهب إلى أوغندا، قال أبي متوسلاً. - أو إلى كينيا. أرجوك.

جلس الرجلان لفترة من الزمن. أسند بول ظهره إلى الحائط وأشعل غليونه. ملأ الدخّان المرّ الكوخ. نظر بول إلى الحائط كما لو كانت فيه نافذة، وعبر تلك النافذة، يوجد مخرج من ذلك المأزق.

- حسناً، قال أخيراً. — سوف أفعل. سوف أفعل.

ابتسم أبي ابتسامة عريضة، ثمّ لمس بيده يد بول. - سوف تفعل ماذا؟

- مايامي باي. سنذهب. سأذهب معك.

بدا بول دوت متأكّداً. هزّ رأسه بحزم.

- جيد! قال أبي. — هذا يشعرني بسعادة كبيرة، يا بول. جيّد.

استمرّ بول دوت يهزّ رأسه، كما لو كان لا يزال يقنع نفسه. جلس أبّي بجانبه صامتاً، وابتسم ابتسامة تشي بأنه غير مقتنع. جلس الرجلان معاً بينما عادت الحيوانات لتستولي على الليل وألقت أضواء أويل بظلال متعرجة فوق البلدة.

في الصباح، لم يكن أحد يعرف ما الذي حدث لبول دوت ومن الذي فعل ذلك. فقد وجدته بعض النساء عندما كنّ يجمعن حطباً لإشعالها. غمر أبي شعور باليأس والقنوط، ثمّ بدأ يتخذ الترتيبات اللازمة للعودة إلى مايامي باي. وقرّر أن نغادر في اليوم التالي. كان علينا أن نحزم أمتعتنا على الفور وكانت شاحنة ستأتي لنقلّنا إلى هناك.

أردت أن أرى بول دوت وأقنعت فتاة من البلدة كنت قد صادقتها مؤخراً لمرافقتي.

- لنلق نظرة، قلت.

- لا أريد أن أراه، قالت.

- إنه ليس هناك، كذبتُ. - لقد دفنوه منذ فترة قصيرة. سنتبع أثر مسارات الدبابة.

تتبعنا آثار الخطوات في التراب والطين حتى الغابة. كانت المسارات قد حفرت في الأرض عميقاً، وكانت تختفي من حين لآخر عندما كانت الدبابة تصادف أجمة أو جذوراً.

- هل رأيت إحدى تلك الأشياء وهي تتحرّك؟ سألتني. فقلت نعم رأيتها.

- هل هي سريعة أم بطيئة؟

لم أستطع أن أتذكّر. عندما فكّرت بالدبابة، تصوّرت طائرة الهليكوبتر. - سريعة جداً، قلت لها.

- أريد أن أتوقّف، قالت.

رأت هي الرجل أولاً، جالساً، الساقان متصالبتان، على كرسي عندما اختفت آثار مسارات الدبابة. كان جالساً بلا حراك، وحيداً، يداه على ركبتيه، ظهره متصلباً، كما لو كان واقفاً باستعداد. وبجانب كرسيه، في الطين، كانت هناك بطانية، لعلها مصنوعة من الصوف، رمادية بلون النهر عند الفجر، وقد تلّبدت في الآثار التي تركتها الدبابة. قلت للفتاة إنها لا شيء، مع أنني كنت أعرف أنّها بول دوت.

استدارت وبدأت تسير باتجاه البيت. تبعتها.

في وقت مبكّر من صباح اليوم التالي، اليوم الذي غادرت فيه أسرتي، أُطلقت زخة من الرصاص على السياج الفولاذي المتموّج الذي يحيط بمجمعنا. كانت رسالة لأبي.

- الحكومة تريدنا أن نخرج، قال أبي. ألقى آخر حقيبة من حقائبنا في الشاحنة ثمّ صعد لينضم إلينا. - في هذا الأمر، فإني أتّفق مع الحكومة، قال،

وضحك لفترة من الوقت. لم تكن زوجتا أبي سعيدتين.

كنّا قد غبنا ثلاثة أشهر. عندما عدنا، وجدنا سلسلة من الدوائر من الأرض المتفحّمة. لم أعرف إن كانت هناك بيوت لا تزال قائمة. أظنّ أنه بقي عدد قليل منها، تجمعّت فيها الأسر التي بقيت في مايال باي. لم يعد هناك أي بيت من بيوت أبي. فعندما غادرنا، كان مجمعّنا، مع أن أضراراً قد لحقت به، لا يزال يضم ثلاثة أكواخ وبيت مشيّد من الطوب. أما الآن فلم يعد هناك شيء سوى أنقاض، رماد. قفزت من الشاحنة ووقفت داخل هيكل البيت المشيد من الطوب حيث كان أبي ينام. كان لا يزال هناك حائط قائم، وكانت المدخنة سليمة.

وجدت أختي أمل، عائدة من البئر.

- لقد جاء «المرحلّين»، قالت. - لماذا عدتم ؟

كان الدلو الذي تحمله فارغاً. كان البئر ملوّثاً. فقد أُلقيت فيه عنزات نافقة ونصف رجل متفحّم.

- لم يعد الوضع آمناً هنا، قالت. لماذا غادرتم أويل؟

- قال أبي إن الوضع سيصبح آمناً. أكثر أماناً من أويل.

- الوضع ليس آمناً هنا، يا أتشاك.

- لكن المتمردين هنا. لديهم أسلحة.

كنت قد سمعت أنّ ميليشيا مانيوك بول، وهي جماعة متمرّدة في منطقة بحر الغزال، تظهر أحياناً في مايال باي.

- هل ترى متمردين هنا؟ قالت، رافعة صوتها. - أرني متمردين يحملون أسلحة أيها القرد. ها قد جاءت أمّنا.

كان ثوبها الأصفر يحف بالأرض. أصبحت فوقي قبل أن أبدأ بالبكاء. أمسكتني وضمتني إليها وكادت تخنقني بينما رحت أشمّ بطنها، وتركتها تغسل وجهي بالماء بحاشية ثوبها. أصرّت أن نغادر مايال باي أنا وأبي، وقالت إن هذا المكان أصبح أقلّ الأماكن أماناً، وأن الجيش استهدف بلدتنا أكثر من معظم القرى الأخرى. كانت الرسالة من الخرطوم واضحة: فإذا اختار

المتمردون الاستمرار، ستُقتل عائلاتهم، وستُغتصب نساؤهم، وسيصبح أطفالهم عبيداً، وستُسرق مواشيهم وأبقارهم، وستُسمّم آبارهم، وستُسلب بيوتهم، وستُحرق أرضيهم.

ركضت إلى كوخ وليام كي. رأيته يلعب في ظلّ بيته الذي أُحرق والذي كان أفضل كوخ في القرية كلها.

- وليام!

رفع رأسه وحدّق فيّ.

- أتشاك! هل هذا أنت حقاً؟

- نعم. لقد عدت!

ركضت إليه وضربته على صدره.

- سمعت أنك ستعود. هل أصبحتَ ابن مدينة كبيرة الآن؟

- نعم، قلت، وحاولت أن أمشي مثل صبي من المدينة.

- أظن أنّك لا تزال غبياً. هل تستطيع أن تقرأ؟

لم أكن أعرف القراءة. وكذلك وليام كي، وقلت له ذلك.

- أستطيع أن اقرأ. أقرأ أيّ شيء أجده، قال.

أردت أن أمشي معه، لنستطلع أحوال القرية، ونبحث عن موسى.

- لا أستطيع، قال. - أمّي لم تعد تسمح لي بأن أخرج. انظر.

أراني وليام كي سلسلة من العواميد تحيط بمجمّع بيتهم. - لا يمكنني أن أتجاوزها. لقد قتلوا أخي جوزيف.

لم أكن أعرف ذلك. تذكّرت جوزيف الذي يكبرنا بكثير، والذي رقص في عرس عمّي. كان رجلاً نحيفاً جداً، ضامراً، هشّاً.

من قتله؟

- الخيّالة، المرحلّون. قتلوه هو وأربع رجال آخرين. والرجل العجوز، الرجل الأعور في السوق. قتلوه لأنه يتكلّم كثيراً. كان يتحدث بالعربية ويلعن المهاجمين. فقتلوه بالبندقيّة أولاً، ثمّ بسكاكينهم. بدت لي تلك طريقة موت غبية. محارب سيء يمكن أن يقتله المرحلّون، أو مهاجم من البَقَّارَة. كان أبي قد حكي لي قصصاً حول ذلك مرات عديدة. وكان يقول إن المرحلّين مقاتلون شديدو البأس.

- أنا حزين جداً على شقيقك الذي مات، قلت.

- ربما لم يمت. لا أعرف. سحبوه بعيداً. أطلقوا عليه النار ثمّ ربطوه بالحصان وسحلوه بعيداً. هنا.

أخذني وليام إلى شجرة صغيرة بجانب الدرب بجانب بيتهم.

- هنا أطلقوا عليه النار. كان هناك. وأشار إلى الشجرة.

- كان الرجل يمتطي حصانه، وصرخ في جوزيف، «قف، لا تركض! لا تركض وإلاّ أطلقت عليك النار!» فتوقّف جوزيف هناك والتفت إلى الرجل الذي على صهوة الحصان. في تلك اللحظة أطلق عليه النار. هنا تماماً.

قال ذلك ودفع إصبعه بقوة في جوف حنجرتي.

- سقط وربطوه بالحصان. هكذا.

استلقى وليام كي على الأرض. - إرفع قدميّ. رفعت ساقيه.

- حسناً، اسحبني الآن.

سحبت وليام كي أسفل الدرب حتى بدأ يركل بعنف.

- توقّف! هذا يؤلمني، اللعنة عليك.

تركت قدميه، وكنت أعرف أنني ما إن أتركه، سينهض وليام كي وسيلكمني على صدري، وهذا ما فعله فعلاً. تركته يفعل ذلك لأن شقيقه جوزيف مات ولم أعد أعرف ما الذي جرى.

رتّبت لي أمّي سريري ورحت أتقلّب يميناً ويساراً لأدفئ نفسي تحت البطانية المصنوعة من جلد العجل.

- لا تفكّر بجوزيف، قالت.

لم أعد أفكّر بجوزيف منذ العشاء، لكني بدأت أفكّرت به الآن ثانية. كانت حنجرتي تؤلمني في المكان الذي دفع فيه وليام إصبعه.

- ما الذي فعله لهم؟ لماذا قتلوه؟

- لم يفعل شيئاً، يا أتشاك.

- لا بدّ أنه فعل شيئاً.

- ركض.

- وليام كي قال إنه توقّف.

تنهّدت أمّي وجلست بجانبي.

- إذن لا أعرف، يا أتشاك.

- هل سيأتون مرة أخرى؟

- لا أظن ذلك.

- هل سيأتون إلى هنا؟ إلى هذا الشطر من البلدة؟

راودني بصيص أمل بأنّ البَقَّارَة لن يهاجموا إلاّ أطراف مايال باي، وأنّهم لن يهاجموا بيت رجل مهمّ مثل أبي. لكنّهم كانوا قد هاجموا بيت أبي للتو.

بدأت أمّي ترسم بأصابعها على ظهري، مثلثات داخل دوائر. كانت تفعل ذلك منذ أن تسعفني ذاكرتي، لتهدئ من روعي وأنا مستلق في سريري ولم يغمض لي جفن. كانت تدندن بصوت ناعم وهي تفرك ظهري في دوائر بطيئة. وكلّما رسمت دائرة، بسبّابتها، كانت ترسم مثلثاً بين خصري وكتفيّ.

- لا تقلق، قالت. - سيأتي المتمردون قريباً. دائرة، دائرة، داخلها مثلث.

- ومعهم أسلحة؟

- نعم. لديهم أسلحة كالأسلحة التي يمتلكها الخيّالة. دائرة، دائرة، داخلها مثلث.

- هل يوجد عدد كبير منّا كما يوجد عند البَقَّارَة ؟

- لدينا جنود كثيرون، أو حتى أكثر منهم. ضحكت وانتصبت في جلستي.

- سنقتلهم! سنقتلهم جميعاً! لو كان لدى الدينكا أسلحة لقتلنا البَقَّارَة كالحيوانات!

كنت أريد أن أرى ذلك يحدث. كنت أريد أن يحدث ذلك أكثر من أيّ شيء آخر.

- لن تكون هناك معركة! ضحكتُ. - سينتهي ذلك خلال ثوان.

- نعم، يا أتشاك. نم الآن. أغمض عينيك.

أردت أن أرى المتمردين وهم يقتلون الرجال الذين قتلوا جوزيف كول، شقيق وليام كي الذي لم يفعل شيئاً. أغمضت عينيَّ وتصوّرت العرب يتساقطون من فوق خيولهم والدماء تتفجر منهم. وإذا كنت قريباً منهم فإني سأقف فوقهم وأضربهم بالأحجار. في مخيلتي كان هناك الكثير منهم، ما لا يقل عن مئة من العرب على ظهور خيولهم، وجميعهم قتلى. لقد قتلهم المتمردون ببنادقهم وها نحن الآن، أنا ووليام نسحق وجوههم بأقدامنا. يا له من شيء رائع.

في الصباح، وجدت موسى. كان يعيش مع أمّه في كوخ عمّه نصف المحترق. لم يكن موسى يعرف إلى أين ذهب أبوه. كان يتوقّع أن يعود في أيّ لحظة، ولم يكن عمّه يعرف أين هو. كان موسى يظن إن والده أصبح جندياً الآن.

- مع أيّ جيش؟ مع جيش الحكومة أم مع المتمردين؟ سألته. لم يكن موسى متأكّداً من ذلك.

رحنا أنا وموسى نتجول في الظلام البارد في مبنى المدرسة. كان فارغاً، الحيطان مثقوبة من الطلقات. رحنا نُدخل أصابعنا في ثقب كلّ منها، ثقبان، ثلاثة - عندما أصبحت كثيرة توقفنا عن عدّها. أدخل موسى أصابعه التي كانت أكبر من أصابعي في خمس فتحات في وقت واحد. كان مبنى المدرسة مهجوراً. لم يبق مكان لم يلحق به ضرر في مايال باي. كان السوق الآن مجرد بضعة دكاكين، وبغية الحصول على المواد الضرورية، كان على المرء أن

يسافر إلى أويل. ولم يكن بوسع أحد أن يفعل ذلك إلاّ النساء المتقدمات في السنّ، لأن أيّ رجل يسافر شمالاً إلى أويل سيتعرض للاعتقال، وسيُسجن، ويُمحى عن الوجود.

لقد ذهب معظم رجال مايال باي. أما الرجال الذين بقوا فكانوا مسنين أو صغاراً جداً. لقد ذهب جميع الرجال الذين تتراوح أعمارهم بين الرابعة عشرة والأربعين.

كنا نراقب نعامتين تجري إحداهما وراء الأخرى، تنقران وتخمشان. رمى موسى حجرة باتجاههما فتوقّفتا، وحوّلتا انتباههما إلينا. كانت النعامات معروفة في القرية وكانت تعتبر حيوانات أليفة، لكن قيل لنا إنها قد تقتل أيّ صبي بسرعة، ويمكن أن تبقر بطن أي صبي في حجمنا في ثوان معدودات. فاختبئنا وراء شجرة نصف محروقة، جذعها متفحم.

- طيور بشعة، قال موسى، ثمّ تذكّر شيئاً.

- هل سمعت أن جوزيف قد قُتل؟ قلت له إنّني سمعت ذلك.

- اخترقته من هنا، قال موسى، وكما فعل وليام كي، دفع إصبعه بقوة في جوف حنجرتي.

(٩)

هل تريد أن تعرف متى غادرت ذلك المكان إلى غير رجعة، يا مايكل؟

كان يوماً مشرقاً. كان سقف السماء مرفوعاً عالياً، وكان أبي قد ذهب إلى ووو من أجل عمله التجاري. كان قد مضى أسبوع واحد على عودتنا إلى مايال باي. مرة أخرى كنت ألقم النار عندما نظرت أمّي إلى الأعلى. كانت تغلي ماء ومرة أخرى كنت قد أحضرت أغصانا لإشعالها. رأيت عينيها تنظران من فوق كتفي.

قل لي، أين هي أمّك، يا مايكل؟ هل رأيت الرعب في عينيها قط؟ ينبغي للطفل ألاّ يرى ذلك. عندما ترى وجه أمّك شاحباً، عيناها ميّتتان، فإن ذلك يعني نهاية الطفولة. عندما تهُزم عندما ترى الخطر بدأ يقترب. عندما ترى أنه لم يعد بإمكانها أن تنقذك.

- يا إلهي، قالت. وانهار كتفاها. طرطشت ماء حاراً على يدي. صرختُ للحظة ثمّ سمعتُ قرقرة.

- ما هذا؟ سألتها.

- تعال! همست. عيناها تمسحان المكان حول المجمّع.

- أين أخواتك؟

لم أر ماذا رأت أمّي. لكننا سمعنا الصوت. اهتزاز تحت أقدامنا. بحثت عن أخواتي، لكنّي كنت أعرف أنّهن عند النهر، وإخوتي يرعون المواشي. أينما كانوا، فهم في مأمن من هذه الهزة العظيمة، أو لعلّهم شعروا بها.

- تعال! كررت، وشدتني إليها ورحنا نركض. أمسكت بيدها، لكنّي كنت أتعثر خلفها. أبطأت من سرعة ركضها ورفعتني من ذراعي. وعادت تركض، تجرني وراءها، ثم وضعتني على كتفها. حبست أنفاسي وتمنيت أن تتوقّف عن الركض. عندئذ، من فوق كتفها، رأيت ما كانت قد رأته.

كان مثل ظلّ صنعته غيمة منخفضة. تحرّك الظلّ بسرعة فوق الأرض. كانت القرقرة صوت خيول. رأيتهم الآن، رجال على صهوات الخيول، يحوّلون الأرض إلى ظلام. بدأت أمّي تبطئ في جريها ثم قالت.

- أين تختبئون؟

- تعالي إلى الدغل، سمعنا صوت امرأة. أنزلتني أمّي ووضعتني على الأرض.

- اختبئا بين الأعشاب، قالت لنا المرأة. - من هناك يمكننا أن نجري إلى بالانغ.

جثمنا بين الأعشاب مع المرأة. عجوز تفوح منها رائحة لحم. أدركت بأنّنا على مقربة من بيت عمّتي، على الطريق المفضي إلى النهر. كنّا مختبئين جيداً، في الظلّ في وسط أجمة كثيفة. من مخبئنا، شاهدنا العاصفة التي اجتاحت بلدتنا. ملأ الغبار كلّ شيء. بعض الخيول كانت تحمل رجلين. كانوا يركبون جمالاً تجرّ وراءها عربات لها عجلات. سمعت رشقة من الرصاص وراءنا. اندفعت الخيول إلى داخل الأعشاب يميناً ويساراً. كانوا يأتون من كلّ حدب وصوب، ويلتقون في مركز البلدة. هكذا استولى المرحلّون على البلدة يا مايكل. طوّقوها ثمّ دفعوا الجميع إلى داخلها.

- كان هناك عشرون منهم في آخر مرّة، قالت المرأة.

بسهولة كان هناك مئتان، ثلاثمائة، أو أكثر الآن.

- هذا هي النهاية، قالت أمّي. - إنهم يريدون أن يقتلونا جميعاً.

أتشاك، أنا آسفة، لكنّنا لن نعيش بعد اليوم.

لا، لا، قالت لها المرأة موبخة. - إنهم يريدون الأبقار. الأبقار والطعام. ثمّ يذهبون. سنظلّ هنا.

في تلك اللحظة، بدأ إطلاق النار. كانت الأسلحة تشبه الأسلحة التي يملكها الجيش النظامي، ضخمة وسوداء. ثم تفجّرت السماء بالنيران. كانت أصوات البوب البوب البوب تأتي من كلّ ركن من القرية.

- يا إلهي. يا إلهي.

بدأت المرأة تبكي الآن.

- هس! قالت أمّي، وراحت تبحث عن يد المرأة فوجدتها أخيراً. هدئي من روعك الآن. - اسكتي.

مرّ من جانبنا حصان يمتطيه رجلان. كان الرجل الثاني يركب بالاتجاه المعاكس، يصوّب بندقيّته إلى اليسار وإلى اليمين. - الله أكبر! كان يهدر.

فردّت عليه عشرات الأصوات. - الله أكبر!

أشعل أحد الرجال مشعلاً وألقى به فوق سقف المستشفى. جهزّ رجل آخر على حصان أسود ضخم، سلاحاً مستديراً صغيراً ورماه على الكنيسة الأسقفية. انفجار كبير شقّ الجدران، وانهار السقف.

عندما خطر لي أن أبحث عنها، رأيت الخيّالة يدورون حول كوخ أماث. أربعة خيول عليها ستّة رجال. كانوا يحرسون الكوخ من جميع الجوانب ثمّ ألقوا مشعلاً. احترق السقف أولاً، ثمّ تفحّم، والتهمته النيران أخيراً. ارتفعت إلى الأعلى أولاً، ثمّ زحفت إلى الأسفل، ثم تصاعد دخّان بني. ظهر طيف شخص، شابّ، رافعاً يديه. انطلقت الأسلحة من حوله فتفجّر صدره وتضرّج باللون الأحمر. سقط. لم يغادر أحد آخر الكوخ. وبعد قليل بدأ الصراخ.

- أتشاك.

كانت أمّي ورائي. فمها قريب جداً من أذني.

- أتشاك. التفت إليّ.

نظرتُ في عينيها. كان الأمر شديد الصعوبة، يا مايكل. لم يكن لديها أمل.

كانت ترى بأننا سنموت في ذلك اليوم. لم يبق في عينيها أي بريق.

- لن أستطيع أن أحملك وأجري بسرعة كافية. أتفهم؟ فهززت رأسي.

- لذلك، عليك أن تركض. أليس كذلك؟ أعرف أنّك سريع.

أومأتُ. فكّرت بأنّنا يمكن أن ننجو. أستطيع ذلك، قلت لها.

- لكنك إذا ركضت مع أمّك فإنهم سيرونك. أليس كذلك؟ لأن أمّك طويلة جداً وسيراها الخيّالة بسهولة، صحيح؟

- صحيح.

- سنجري إلى منزل عمّتك، لكن قد أطلب منك أن تركض وحدك، اتفقنا؟ قد يكون من الأفضل أن تجري وحدك.

وافقتُ وركضنا من بين الأعشاب باتجاه النهر، نحو بيت عمّتي، بعيداً عن مركز البلدة، وبعيداً عن معسكر الماشية وعن أيّ شيء آخر قد يسعى الخيّالة إليه. رحت أجري وراء أمّي، أراقب قدميها الحافيتين وهما تضربان الأرض. لم أر أمّي من قبل وهي تركض هكذا، فشعرت بالقلق. كانت عدّاءة بطيئة، وكانت طويلة جداً عندما ركضت. سيرونها من فستانها الأصفر ومن ركضها البطيء الطويل، فأردت أن أخبئها بسرعة.

تناهى إلينا صوت حوافر قوي. وقف أمامنا خيّال واحد، رافعاً بندقيّته إلى الأعلى. راح يرمقنا وأوقف حصانه.

- قفا ولا تتحركا، يا دينكا! صاح بالعربية.

وقفت أمّي متشنجة. اختبأتُ وراء ساقيها. كانت بندقيّة الرجل لا تزال موجهة إلى الأعلى. قرّرت أن أركض إذا خفّض بندقيّته. صاح الخيّال في الاتجاه الذي جاء منه، وأشار إليّ وإلى أمّي. جرى خيّال آخر نحونا. أبطأ وبدأ يترجّل عن حصانه. لكن في تلك اللحظة، ثمة شيء أنقذنا. فقد تعثرت قدمه، وعندما حاول أن يخلّص بندقيّته، انطلقت وأصابت ساق حصانه الأمامية. أطلق الحصان صوت عويل وراح يدور ثم قفز إلى الأمام. أُلقي بالرجل من فوق الحصان كأنه دمية. كان لا يزال عالقاً بالرسن وبشريط بندقيّته. ترجّل الخيّال الأول من حصانه ليساعده، وما إن أدار ظهره، حتى كنا، أنا وأمّي، قد اختفينا.

بعد قليل وصلنا إلى بيت عمّتي ماراين. كان الصمت يخيّم على المكان. كانت أصوات الهجوم بعيدة، مكتومة. لم تكن ماراين في البيت.

صعدنا السلّم بسرعة إلى الكوخ الذي تخزّن فيه الحبوب وقبعنا بين الحبوب. دفن أحدنا الآخر، وغطينا نفسينا بالحبوب، وغصنا إلى الأسفل. كانت عينا أمّي تتلفتان ذات اليمين واليسار، إلى الأمام وإلى الوراء. - لا أعرف إن كان هذا أفضل لنا، يا أتشاك. صرخة اخترقت الصمت. كان ذلك صوت ماراين.

- يا إلهي. يا إلهي، همست أمّي.

دفنت رأسها بين يديها. وسرعان ما استجمعت نفسها.

- حسناً. ابقَ هنا. يجب أن أرى ما الذي يجري لها. لن أبتعد كثيراً. اتفقنا؟ إذا لم أرى شيئاً فإني سأعود مباشرة. ابقَ هنا. لا تتحرك، لا تصدر أي صوت، اتفقنا؟

هززت رأسي.

- هل تعدني بأن تحبس أنفاسك؟

هززتُ رأسي، وحبستُ أنفاسي.

- حسناً فعلت، قالت. أمسكت وجهي في يدها ثمّ سارت إلى الخلف عبر الباب. سمعت قدميها تهبطان السلّم وأحسّت بالكوخ يهتزّ وهي تهبط. ثمّ ساد صمت. انطلقت طلقة. كانت قريبة الآن. صيحة أخرى من ماراين. ثمّ صمت. بينما كنت أنتظر، دفنت نفسي في الحبوب حتى كتفيَّ. شنّفت أذنيَ وكنت متأهباً لأي شيء يمكن أن يحدث.

تناهى إليّ صوت خطوات عبر المجمّع. لا بد أن أحداً في مكان قريب جداً. لكنه كان هادئاً جداً، حذراً جداً. راودني أمل في داخلي: إنها أمّي. دفعت نفسي بهدوء من بين الحبوب وتحركّت باتجاه المدخل، كي أكون مستعداً عندما تصل إليّ. نظرت من المدخل واستطعت أن أرى على مسافة بضع بوصات في الخارج. لم أر أيّ حركة، لكني كنت لا أزال أسمع صوت الخطوات. ثمّ شممت رائحة تشبه رائحة الثكنة. معقّدة وحلوة. تسللتُ عائداً إلى مكاني بين الحبوب، ويا مايكل، لم أفهم لماذا كنت هادئاً جداً. لماذا لم أصدر أي صوت يمكن سماعه. لماذا لم يسمعني ذلك الرجل. اللّه هو الذي قرّر بألاّ ينبعث من حركات أتشاك دنغ صوت في تلك اللحظة.

عندما ذهب الرجل، يا مايكل، جريتُ إلى الكنيسة. كانوا قد علّموني بأن الكنيسة مكان آمن على الدوام. كانت جدران الكنيسة متينة فركضتُ نحوها. ما إن دخلت إليها، حتى وجدت أنها مكان آمن، على الأقل الآن. اختبأت تحت فتحة في الحائط المغطّى بالقش، في الظلال الباردة، وتحت طاولة مكسورة، وانتظرت لساعات. كان بإمكاني أن أرى القرية من خلال فتحة بحجم فأر ورحت أراقب عندما كان بوسعي أن أفعل ذلك.

في القرية، بدأ المحاصِرون يتعلّمون. فقد كانوا يطلقون النار على كلّ من يركض. وجمعوا النساء والأطفال في باحة ملعب كرة القدم. رجل بالغ انضم إلى هذا القطيع بالخطأ، فأطلقوا عليه النار وقتلوه. وتعلّم المحاصَرون أيضاً: إما أن يهرب الرجال، أو أن يقاتلوا ويُقتلوا. لم تكن لدى الخيّالة فائدة من

الرجال البالغين. كانوا يريدون النساء والفتية والفتيات، فجمعوا كلّ هؤلاء في ملعب كرة القدم. كان يحاصرهم أربعة وعشرون خيّالاً. وفي أماكن أخرى، كانت لدى الخيّالة مهام أخرى، فراح بعضهم يضرمون النار في المساكن كلها، وانطلق بعضهم الآخر على صهوات خيولهم وراحوا يطلقون النار ويصيحون بالعربية.

أصبح الرجل المسنّ الذي حاول الانضمام إلى مجموعة النساء والأطفال في ملعب كرة القدم في عداد الأموات الآن. قيدوه من قدميه ثمّ جرّوه خلف حصانين. كان بعض البَقَّارَة سعداء لرؤية ذلك، عندها تخيّلت الآن ما الذي جرى لجوزيف.

قفز رجل يحمل بندقية من نوع مختلف. بندقية رفيعة، ضيّقة، لها سبطانة أطول، من فوق حصانه، وجثا على إحدى ركبتيه، ثم صوّب بندقيّته نحو هدف بعيد وأطلق النار. كان راضياً عن النتيجة التي حققها، ثمّ عدّل من وضعيته وأطلق النار مرة أخرى. هذه المرة أطلق أربع طلقات قبل أن يبتسم.

خيّال، أطول من الآخرين يرتدي سترة بيضاء، كان يحمل سيفاً بطولي تقريباً. رأيته يجري فوق امرأة تركض نحو الغابة ورفع سيفه عالياً. أشحت بنظري. دفنت رأسي في الأرض ورحتُ أعدّ إلى العشرة، وعندما نظرت ثانية، لم أر إلاّ ثوبها، أزرق باهتاً، ملقى على التراب.

في ملعب كرة القدم، تجمع عدد من الخيّالة. ترجّل عشرة رجال وراحوا يقيّدون مجموعة من الفتيات. ما إن خطر لي أن أبحث عن أماث حتى رأيتها. كانت واقفة، وجهها هادئ، يداها مقيدتان وراء ظهرها، ساقاها مقيّدتان بحبل مرخي. وعلى مسافة عشرين قدماً منها، رأيت فتاة أعرفها تصرخ في وجوه الميليشيا، وشتمتهم باللغة العربية. كانت ترتدي ثوباً براقاً، موشّى بالأحمر والأبيض. لم أسمع قط امرأة تقول لرجل بأنه يمارس الجنس مع عنزة، لكن هذا ما قالته هذه الفتاة بأعلى صوتها للمهاجمين. فاستلّ أحد هؤلاء الرجال، بدون تردد، سيفه وطعنها. سقطت، وتضرجت القطع البيضاء من ثوبها باللون الأحمر.

بدأ رجلان يرفعان فتاة تلو الأخرى من الفتيات اللاتي بقين، ويربطانهن فوق خيولهم. كانوا يلقون بكلّ فتاة فوق سرج ثمّ يربطونها بحبل، كما لو كانوا يربطون بساطاً أو حزمة من العيدان. كنت لا أزال أراقب عندما أخذوا الفتاتين التوأم اللتين أعرفهما، أهوك وأواتش أوغيث، وربطوهما فوق حصانين مختلفين. كانت الأختان تصيحان وتولولان، وكان إحداهما تمدّ

يدها إلى الأخرى. وعندما تحرّك الحصانان، وجدت آهوك وأواتش للحظة نفسيهما قريبتين من بعضهما فأمسكت أحداهما بيد الأخرى.

انتهى كلّ شيء بعد ساعة تقريباً. فالدينكا الذين كانوا سيحاربون حاربوا وقُتلوا، وقُيِّد الباقون معاً لنقلهم إلى الشمال. انتهت الغارة وكانت نجاحاً للمرحلّين. فلم يصب أحد منهم بجروح. رحت أبحث عن موسى ووليام كي لكني لم أر أحداً منهما. كان بإمكاني أن أرى كوخ موسى، ورأيت شيئاً أشبه بشخص مستلق عند مدخل الكوخ.

ثمّ انطلقت طلقة من إحدى الأشجار وارتمى خيّال بشرته داكنة أكثر من معظم المرحلّين الآخرين، فوق حصانه، وابتعد ببطء. كان رأسه يتدلّى فوق التراب، وكانت قدمه لا تزال عالقة في الركاب. وعلى الفور طوّق عشرة خيّالة الشجرة. انبعث منهم سيل من الكلمات بالعربية. كانوا يبصقون بغضب. صوّبوا أسلحتهم وأطلقوا أربعاً وعشرين طلقة في ثوان معدودات وسقط شيء من الشجرة. سقط بقوة على كتفه، ميّتاً. كان يرتدي زيّ ميليشيا مانيوك بول البرتقالي اللون. أمعنت النظر. كان مانيوك بول، المتمرّد الوحيد في ذلك اليوم، يا مايكل. ثم عرفت أنّهم قطعوه إلى ستّة أجزاء، وألقوا به في بئر أبي.

- انهضي!

سمعت صوتاً أعرفه. التفتُّ فرأيت فتى واقفاً فوق جثة بالقرب من كوخ عمّه - امرأة مستلقية على الأرض، يداها مضمومتين على جانبيها.

- انهضي!

إنه موسى. كان يقف فوق المرأة التي هي أمّه. لقد أُحرقت أمّه في كوخها. كانت قد هربت لكنّها لم تتحرّك وكان موسى غاضباً جداً. راح يدفعها بقدمه. لم يكن في قواه العقلية. كان بإمكاني أن أرى من تلك المسافة أنّها ميّتة.

- انهضي! صاح.

أردت أن أركض إلى موسى، وأطلب منه أن يختبئ في الكنيسة معي، لكنّي خشيت أن أغادر البقعة التي أتوارى فيها. كان لا يزال هناك خيّالة كثيرون، وإذا غامرت وخرجت فلا بد أنهم سيقبضون علينا كلانا. لكنّه كان يقف هناك كأنه يطلب منهم أن يروه، وعرفت أنّه فقد أي أحساس بالخطر من حوله. كان عليّ أن أجري إليه، وقرّرت أن أفعل ذلك وأتحمّل العواقب. سنهرب معاً. لكن

في تلك اللحظة، رأيته يلتفت، ورأيتُ ما رأى: خيّال قادم نحوه. رجل على ظهر حيوان أسود جامح، يتجّه نحو موسى الذي لم يكن يبدو أكبر من طفل في ظلّ ذلك الحصان. ركض موسى، واستدار بسرعة حول رماد بيته، واستدار الخيّال الذي كان رافعاً سيفه فوق رأسه الآن. ركض موسى ووجد نفسه يجري على طول السياج الذي لم يكن له أي منفذ. هاجمه الخيّال وأشحتُ بوجهي بعيداً. جلستُ وحاولتُ أن أحفر في التراب وأدفن نفسي تحت الكنيسة. لقد ذهب موسى.

* * *

عندما اقترب حلول الظلام، بدأ عدد من المهاجمين يغادرون البلدة، بعضهم يحملون الذين اختطفوهم، وبعضهم الآخر يحملون كلّ ما استطاعوا نهبه من البيوت ومن السوق. لكن مئات منهم ظلوا في القرية، يأكلون ويستريحون بينما كانت آخر البيوت تحترق. لم أعد أرى أحداً من أهالي بلدتي، فإما أنهم هربوا أو قُتلوا.

عندما اقترب الليل، قررت أن أهرب. كان يجب أن أنتظر حتى يحلّ ظلام دامس شديد لأهرب تحت ستار الليل، عندما تعلو أصوات الحيوانات لتغطي أيّ صوت قد ينبعث مني. فقد كنت أعرف أنه عندما تعود الحيوانات لتحتلّ الغابة فلن يتمكن أحد من سماع صوتي. رأيت مركز مايال باي الاجتماعي على مسافة خمسين ياردة مني، وكان عليّ أن أقطع تلك المسافة. عندما فعلت ذلك، ألقيت بنفسي على الأرض، تحت ظلّ السقف المنهار الآن. انتظرت، حابساً أنفاسي، حتى شعرت بأن أحداً لن يراني أو يسمعني. ثمّ، غصت في جوف الغابة.

كانت تلك آخر مرّة أرى فيها تلك البلدة، يا مايكل. قفزت إلى داخل الغابة وركضت لمدة ساعة كاملة حتى وجدت أخيراً جذع شجرة مجوّف انسللت إلى داخله. أدخلت ساقيَّ أولاً، وتمدّدت في داخله بضع ساعات، أنصتُ، أسمعُ الليل الذي ملأته الحيوانات الآن. كانت تتناهى إليّ، بين الحين والآخر، أصوات إطلاق نار من البنادق الآليّة من بعيد. لم تكن لديّ خطّة محددة. كان بإمكاني أن أواصل الجري، لكني لم أكن أعرف أين أنا أو إلى أين يمكنني أن أذهب. فلم أبتعد قط مسافة تتجاوز النهر بدون مرافقة أبي، وها أنا الآن وحيد وبعيد عن أيّ درب أو مسلك. كان بإمكاني أن أواصل الجري لكنّي لم

أعرف في أيّ اتجاه سأذهب. فمن الممكن أن أختار دربا يقودني مباشرة إلى المرحلّين، لكنّي لم أعد أخشاهم الآن. لأن الغابة لم تعد للبشر الآن، وإنما للأسود، والضباع.

صوت خشخشة عالية في العشب أجفلني وجعلني أقفز من جوف جذع الشجرة ورحت أركض. لكن صوتاً عالياً جداً كان ينبعث مني. عندما كنت أجري بين الأعشاب، كان يبدو أنني أستجدي العالم كله حتى يرى أين أنا ليفترسني. حاولت أن أجعل قدميَّ أكثر خفّة، لكنّي لم أكن أستطيع رؤية أين أضعهما. كان السواد يغطي كل شيء، ولم يكن هناك قمر في السماء في تلك الليلة، فرحت أركض وأنا أمدّ يديَّ أمامي.

مايكل، أنت لم تر الظلام الحقيقي إذا لم تكن قد رأيت الظلام في جنوب السودان. فليست هناك مدن يمكنك أن تراها من بعيد، ولا توجد عواميد إنارة في الشوارع، ولا توجد طرق معبدة. وعندما لا يوجد قمر في السماء، فإنك تخدع نفسك، لأنك تبدأ ترى أشكالاً أمامك غير موجودة. تريد أن تصدّق نفسك بأنك تستطيع أن ترى، لكنّك في الحقيقة لا ترى شيئاً.

بعد ساعات من الدخول إلى أعماق الغابة، لمحت من بعيد لوناً برتقالياً، نار. زحفت وتسللت نحوها. كنت منهكاً الآن. كان الدم يسيل من كلّ جزء في جسمي. قرّرت أنه حتى لو كانت هذه النار للبَقَّارَة ، فإني سأتركهم يأسرونني. إذ سيقيّدونني وسيأخذونني إلى الشمال. لم أعد أبالي. وسرعان ما تبدّدت الأجمة من تحتي وأصبحت أسير فوق درب. نهضت ورحت أجري باتجاه النار البرتقالية. كنت ألهث وحنجرتي وأضلاعي تؤلمني، وكانت قدماي تصرخان من ألم الأشواك وعظامي تخبط فوق الدرب الصلب. بدأت أركض ببطء، شاكراً صمت الأرض الصلبة تحت قدميَّ، وبدأت النار تزداد قرباً. لم أكن قد شربت شيئاً منذ الصباح لكني كنت أعرف أنني أستطيع أن أطلب ماء عندما أصل إلى النار. بدأت خطواتي تتباطأ حتى رحت أمشي، لكن صوت تنفّسي كان لا يزال عالياً، فلم أسمع أصوات السياط والأشرطة الجلدية والرجال. اقتربت منهم كثيراً إلى درجة أنه أصبح بإمكاني أن أشمّ رائحة جمالهم العطنة. كان هؤلاء الرجال قريبين من النار لكنهم بعيدون عن الذين كانوا يشعلون النار.

جثمت وبدأت أسمع أصواتهم، الكلمات التي ينطقونها باللغة العربية. جثوت على ركبتيَّ واقتربت من الدرب، راجياً أن أجد النار قبل أن تجدني الأصوات، لكني سرعان ما عرفت أنّ الأصوات هي أصوات الذين يشعلون النار. كانت الأصوات قريبة جداً ولا بد أن النار هي للمرحلّين.

- من هناك؟ سأل صوت. كان قريباً جداً. قفزت.

أحسست بحركة كادت تصبح فوقي مباشرة، وأصبح بوسعي أن أراهما الآن، رجلان يمتطيان جملين. كان الجملان ضخمين، يحجبان النجوم. كان الرجلان يرتديان ثوباً أبيض ومن وراء أحد الرجلين استطعت أن أرى شكلاً متعرجاً لبندقيّة. حبست أنفاسي، وتراجعتُ إلى الخلف، وابتعدت عن الدرب.

- هل ذاك صبي من الدينكا؟ قال صوت. أنصّتُ وأنصت الرجلان.

- صبي من الدينكا، أم أرنب؟ سأل الصوت نفسه.

واصلت الانسلال بعيداً، بضع بوصات في كلّ مرة، قدماي تتحسسان طريقهما ورائي حتى لامستا كومة من العيدان فتحرّكت وأصدرت صوتاً مسموعاً.

- انتظر! هسهس أحدهما.

توقّفتُ وراح الرجلان ينصتان. ظللت منبطحاً على بطني، من دون أن آتي بحركة، أتنفّس في الأرض. صمت الرجلان أيضاً. وقفا وراحا ينصتان ووقف الجملان أيضاً وأخذا ينصتان. ساد الصمت لأيام وليال.

- صبي من الدينكا! هسهس.

قال الرجل ذلك بلغة الدينكا الآن.

- أيها الفتى الدينكا، اخرج واشرب قليلاً من الماء. حبست أنفاسي.

- أم أنها فتاة دينكا؟ قال الآخر.

- تعالي واشربي قليلاً من الماء، قال الأول.

لبثت هناك لأيام وليال أخرى، هكذا بدا لي، لا آتي بحركة. استلقيت ورحت أراقب خيال الرجلين وجمليهما. خرج أحد الجملين إلى الدرب وبدأ الرجلان يتكلّمان مرة أخرى، الآن باللغة العربية. بعد ذلك بقليل، بدأ الرجلان يتحرّكان. تحرّكا ببطء أسفل الدرب ومكثت مستلقياً في مكاني دون أي حركة. بعد بضع خطوات، توقف الرجلان. كانا يتوقّعان أن أتحرّك عندما يتحرّكان، لكنّي بقيت منبطحاً على بطني وحبست أنفاسي وأخفيت وجهي في التراب.

ذهب الرجلان أخيراً.

لكن الليل لم يكن لينتهي.

كنت أعرف أن عليّ أن أترك الدرب الذي أصبح درباً للبقارة الآن. جريت مبتعداً عن الدرب ثم أخذت ساعات الليل تسقط فوق بعضها بعضاً من دون شكل أو نظام، ورأت عيناي ما رأتاه، وسمعت أذناي صوت تنفّسي والأصوات الأعلى من صوت تنفّسي. وعندما رحت أركض بدأت الأفكار تتدفق إليّ بسرعة، وفي اللحظات التي كانت تتخللها، كنت أملأ عقلي بالصلاة. أحمني يا رب. احمني يا إله أسلافي. اصمت. ما ذلك الضوء؟ ضوء من بلدة؟ لا. توقّف الآن. لا يوجد ضوء على الإطلاق. اللعنة على هاتين العينين! اللعنة على هذا النفس! اصمت. اصمت. الرب الذي يحمي شعبي أدعوك أن تبعد عني المرحلّين. اصمت. اجلس الآن. تنفّس بهدوء. تنفّس بهدوء. احمني يا رب، احمِ أسرتي وهي تهرب. أريد ماء. انتظر الندى في الصباح. مصّ الماء من ورق الشجر. يجب أن أنام. يا إله السماء، احفظني الليلة. خبئني، اجعلني هادئاً. اركض مرة أخرى. لا. لا. نعم، اركض. يجب أن أركض حتى أجد أشخاصاً. يجب أن أركض، أجد أناساً، ثمّ أرتاح. اركض الآن. يا إله المطر، دعني أجد ماء. لا تدعني أموت من العطش. اصمت. اصمت. يا إله الروح، لماذا تفعل ذلك؟ فلم أفعل شيئاً يستحق أن أطلب منك هذا. فأنا لا أزال فتى. أنا فتى. هل سترسله إلى حمل؟ لا يحقّ لك ذلك. اقفز فوق جذوع الأشجار. آه! ألم. ما هذا؟ توقّف. لا، لا. لا تتوقف عن الركض. واصل الركض. هل هذا هو القمر؟ ما ذاك الضوء؟ أسلافي! نغويت، آرياث ماكوي، جوكلويل، اسمعوني. آرو أغويت، انصت إليّ. جوكماثيانغ، اسمعني. اسمعني وارحم هذا الفتى. اسمع أتشاك دنغ وخلّصه من كلّ هذا العذاب. هل هذا هو القمر؟ أين هو الضوء؟

كان صوت تنفّسي عالياً جداً، كلّ نَفَس مثل هبّة ريح قوية، شجرة ساقطة. كنت أعرف كم كان زفيري عالياً عندما أركض، وعندما أجلس بين الأعشاب، أنتظر وأراقب. حبست أنفاسي لأكتم الصوت، لكني عندما فتحت فمي ثانية أصبح تنفّسي أعلى، ملأ أذنيَّ والهواء من حولي، وتيقنت من دنو نهايتي. وعندما خفت تنفسي وتمكنت من سماع أصوات أخرى، سمعت صوتاً قريبا، صوتاً يتحدّث الدينكا، يغنّي أغنية من أغاني الدينكا.

ركضت نحو صوت الغناء.

كان رجلاً عجوزاً يغني، الصوت ضعيف وأجش. لم أبطئ عندما وصلت إليه وخرجت من الغابة مثل حيوان، أكاد أن أرتطم به وأوقعه.

صرخ. صرخت. رأى أنّني فتى ووضع يده على قلبه.

- لقد أخفتني!

بدأ الرجل يلهث الآن. اعتذرتُ منه.

- كان صوت تكسّر الأعشاب مثل ضبع. أوه يا طفلي!

أنا آسف جداً، يا أبي، قلت.

- أنا رجل عجوز. لا يمكنني أن أتحمّل أشياء كهذه.

- أنا آسف، كرّرت. - آسف جداً.

- لو جاء حيوان من ذلك الدغل فلن يحتاج إلاّ أن ينفخ عليّ فيرسلني إلى العالم الآخر على الفور. آه يا بني!

حكيت له أين كنت وماذا رأيت. قال لي الرجل إنه سيأخذني إلى بيته لأكون في مأمن حتى يبزغ ضوء النهار، عندها نقرّر أي درب معقول يمكن أن نسلكه.

مشينا وكلّما مشينا كنت أتوقّع أن يُقدّم لي طعاماً وماء. كنت بحاجة إلى كليهما، فلم أتناول أياً منهما منذ الصباح، لكني تعلّمت ألاّ أستجدي. انتظرت الآن، وتوقعت، لأننا في الليل، وبما أنني صبي وحيد، أن يقدّم لي الرجل العجوز وجبة طعام. لكن الرجل كان يدندن بصوت واطئ ويمشي ببطء على الدرب. ثم تكلّم أخيراً.

- لقد مرّ زمن منذ أن جاء شعب الأسد إلى هنا. كنت شاباً صغيراً عندما رأيت ذلك آخر مرّة. كانوا على ظهور الخيل؟

هززت رأسي.

- نعم. هؤلاء العرب انحدروا إلى مستوى الحيوانات. إنهم مثل الأسد، بشهيته للحم النيء. هؤلاء ليسوا بشراً. مخلوقات الأسد تلك تحبّ الحرب والدم. إنهم يستعبدون الناس، وهذا يخالف شريعة الله. لقد تحوّلوا إلى وحوش.

سار الرجل صامتاً لفترة من الوقت.

- أظن أن اللّه يبعث لنا رسالة من خلال رجال الأسد هؤلاء. هذا واضح. إن اللّه يعاقبنا. ما علينا الآن إلاّ أن نبحث عن الشيء الذي أغضب اللّه. هنا يكمن اللغز.

لم أعرف إلى أين يقودني الرجل العجوز، لكن بعد قليل رأيت ناراً صغيرة من بعيد. وصلنا إلى حيث توجد النار واستقبلنا أناس هناك بلطف. كانوا يعرفون الرجل العجوز، وسألوني من أين جئت وماذا رأيت. حكيت لهم، وقالوا لي إنّهم هربوا أيضاً. قدّموا لي ماء، ورحت أراقب وجوههم الدينكاوية التي احمرّت من وهج النار، وخيّل إليّ أن هذه الليلة ستكون نهاية العالم وأن الصباح لن يأتي مرة أخرى. وأن الوجوه الحمر التي تعكسها في النار ما هي إلاّ أرواح، وأنني ميّت، وأن الجميع أموات، وأن الليلة أبدية. كنت متعباً جداً لا أقوى على أن أعرف شيئاً أو أهتم بشيء. نمت بينهم، بين حرارتهم وهمهماتهم.

استيقظتُ عند ضوء الفجر الأرجواني بين أربعة رجال، ثلاثة منهم مسنون، وواحد شاب، وامرأتين، إحداهما تُرضع طفلاً. كانت النار باردة وأحسست بالوحدة.

- هل استيقظت، قال أحد الرجال المسنين. - جيّد. يجب أن نتحرّك بعد قليل. أنا جوك.

لم يكن جوك سوى عظام يكسوه ثوب أزرق رثّ. جلس وركبتاه تلتصقان بأذنيه، يداه مرخيتان فوق ركبتيه. سألتني إحدى المرأتين من أين أنا. كانت تتكلّم ووجهها مثبت على الطفل الذي ترضعه. قلت لها إنني من مايال باي.

- مايال باي! أنت بعيد عنها. من هو أبوك؟

قلت لها إن أبي هو دنغ نيبيك آرو. الآن بدا جوك مهتماً.

- هذا أبوك، التاجر؟ قال.

قلت له نعم.

- وأيّ واحد من أبنائه أنت؟ سأل.

قلت له اسمي الكامل، أتشاك نيبيك آرو دنغ. الابن الثالث من أول زوجة لأبي.

- أنا آسف، آتشاك دنغ، قال. - لقد مات واحد من عائلتك. رجل.

جوك والمرأتان قالوا إنهم سمعوا شيئاً عن عائلة تاجر يدعى دنغ نيبيك آرو.

- إمّا أبوك أو عمّك، رجل أصغر سناً يضع نظّارات قال. - أحدهما مات.

- أظن أنّه أبوك، قالت المرأة التي ترضع الطفل وهو لا تزال تنظر إلى طفلها. - إنه الرجل الغني.

- لا، قال الشابّ، - أكاد أجزم أنه أخوه.

- ستعرف قريباً، قالت الأمّ. - عندما تعود إلى البيت. أوه لا تبكي. أنا حزينة من أجلك.

مدّت يدها من فوق رماد نار ليلة البارحة لتلمسني، لكنّها كانت بعيدة جداً. قرّرت ألاّ أصدّقها، وأنها لا تعرف شيئاً عن أبي. مسحت أنفي بقفا يدي وسألتهم إن كانوا يعرفون طريق العودة إلى مايال باي.

- إنها تبعد مسيرة نصف يوم في ذلك الاتّجاه، قال جوك. - لكنّك لا تستطيع أن تعود إلى هناك. الخيالة لا يزالون فيها. إنهم في كل مكان. ابق معنا، أو يمكنك أن تذهب مع دوت ماجوك. سيذهب إلى مكان قريب منها ليرى ما الذي يجري.

عرفت أن الشابّ الذي يضع نظّارات يدعى دوت ماجوك. وعرفت أنه المعلّم من مايال باي، معلّم الصبية الأكبر مني سنّا، وزوج المرأة التي كلّمتها عند النهر. لم يكن أكثر من صبي هو نفسه.

عندما طلع النهار، اخترت أن أمشي مع دوت ماجوك. غادرنا المجموعة بعد أن تناولنا قليلاً من الفستق والبامية. لم يكن دوت يتجاوز العشرين من العمر، أقصر من المتوسط، بطنه مكورة قليلاً عند المعدة. كان وجهه صغيراً، ورأسه يكاد يلتصق بكتفيه. راح يلتقط أوراقاً من الأشجار أثناء سيرنا، يفتتها ويرميها على العشب. كان يوحي بأنه معلّم من نظّارته. كان يبدو أنه مهتم بكلّ شيء - بي، بعائلتي، آثار الأقدام التي كنا نجدها من حين لآخر على طول الطريق - أكثر من أي شخص يمكنني أن أتذكره.

- هل كنت في معسكر المواشي؟ سألني.

- لا.

- صغير جداً على ما أظن. أين كنت عندما جاؤوا؟

- في البيت. في بيتي.

- أبوك كان رجلاً ذكياً. كنت أحبّه. دمه خفيف، حاد الذكاء. أنا آسف جداً لخسارتك. هل سمعت عن أمّك؟

هززت رأسي.

- حسناً. لقد أُحرقت البلدة عن بكرة أبيها الآن. واحترقت نساء كثيرات داخل بيوتهن. المرحلّين يفعلون ذلك الآن. هذا شيء جديد. البيوت في منطقتكم التي يسكن فيها الأغنياء، البيوت الكبيرة - كان الخيّالة يحبّون إحراقها. أظن أنهم كانوا قد أحرقوها في آخر مرّة، صحيح؟ هل هربت؟

نعم، قلت.

- أرجو أن تكون بخير. أراهن أنّها بخير. هل هي سريعة؟ لم أقل شيئاً.

- حسناً. تعال معي، يا بني. سنرى ما الذي يمكننا أن نراه.

أشرقت الشمس ونحن نسير. تسلّق دوت شجرة ورفعني إليها. من هناك استطعنا أن نرى مايال باي وقد سُوِّيت بالأرض، يحيط بها التراب والغبار من كلّ جانب.

- حسناً. إنهم لا يزالون هناك، قال. - فتلك خيولهم، وبعض الأبقار التي سرقوها. حيثما ترى غباراً، يا أتشاك، فإنهم المرحلّون. لن نعود إلى البلدة لفترة من الزمن. سنعود لنرى غداً. تعال.

تبعت دوت إلى أسفل الشجرة وعدنا باتّجاه النار حيث نمنا. سرنا قرابة ساعة قبل أن يتوقف دوت، ويتطلّع حوله بتساؤل، ثمّ استدار تماماً. وطوال فترة بعد الظهر، كان يتوقّف كثيراً وبدا أنه يجري حسابات في رأسه وبيديه. وفي كلّ مرّة، بعد كلّ حساب يجريه، كان يبدو مصمماً ثم يعود وينطلق، واثقاً بخط سيره الجديد، وأنا أتبعه. وبعد فترة من السير في الضوء المتضائل، كان يفعل ذلك من جديد. يتوقّف، وينظر إلى الشمس، ويتطلّع حوله، ويجري حساباته اليدوية، ثم ينطلق في الدرب من جديد.

كانت الشمس قد مالت إلى الغروب عندما عدنا إلى المعسكر.

- أين كنتما؟ سألتنا أمّ الطفل الرضيع.

- خرجتما منذ الصباح! قال جوك ضاحكاً.

تجاهل دوت ذلك. - البَقَّارَة لا يزالون هناك، قال. - سنعود ثانية غداً.

- لقد تهت، قالت المرأة. - أنت رجل متعلّم، لكنك لا تملك إحساساً بالاتّجاهات!

تجاهل ذلك غاضباً. - أين الطعام يا ماريا؟ إلى متى يجب أن ننتظر؟ أعطنا طعاماً وماء. لقد مشينا طوال النهار.

في تلك الليلة نمت مع أولئك الرجال والنساء تحت ملجأ أقاموه. عند الفجر سمعت أصواتاً كتلك الأصوات التي سمعتها خارج بيت زوجة أبي عندما كان أبي يمضي لياليه هناك. أبقيت عينيَّ مغمضتين وجسمي قريباً من النار. وبعد بضع لحظات، بدا أنني استيقظت وكان هناك ضوء خفيف في السماء. فتحت عيني على وجه أحد الرجال المسنّين في المجموعة. لم يكن قد تكلّم من قبل.

- يجب أن ننهض الآن، يا ولد. ما اسمك مرة أخرى؟ أنت ابن المرحوم دنغ نيبيك آرو، تباركت روحه.

كان صوت الرجل خفيفاً ومرتعشاً.

- أتشاك، قلت.

- أنا آسف يا أتشاك. يجب أن أتذكّر. لدينا الآن خطّة. ستأتي معنا. سننضمّ إلى مجموعة أخرى نامت في مكان قريب ليلة البارحة. تعال وانظر.

- أين دوت؟

- إنه يتجوّل. إنه يفعل ذلك. تعال.

جلبني الرجل الذي يرتعش إلى بقعة خالية من الأشجار والأعشاب تجمعّ فيها حوالي مئة شخص آخر، نساء وأطفال ورجال مسنّون، يقفون بين خليط من المواشي - ماعز ودجاج وأكثر من أربعين بقرة.

- سنذهب إلى الخرطوم، قال.

مع أنني كنت صغيراً يا مايكل، فقد عرفت أنها فكرة مجنونة.

- هل سيأتي دوت؟ سألته.

- لقد ذهب دوت. دوت لا يحبّذ هذه الفكرة، لكن دوت لا يستطيع أن يجد طريقه خارج كوخه. ستكون أكثر أماناً معنا.

- في الخرطوم؟

فكّرت بالرجل ذي اليد المقطوعة.

- سنكون في مأمن هناك، قالت المرأة المرضعة. - تعال معنا. يمكنك أن تكون ابني.

لم أرغب في أن أكون ابنها.

- لكن لماذا الخرطوم؟ سألت. - مع العرب؟ كيف؟

- ذهب الناس للتو إلى الخرطوم، قال الرجل العجوز بصوت خافت. -إنه درب معروف. سنكون محميين هناك من المرحلّين. سيقدمون لنا طعاماً في المخيمات. لديهم ملاجئ آمنة هناك للأشخاص مثلنا، أناس لا علاقة لهم بالقتال. سنبقى هناك حتى ينتهي كلّ هذا.

لم يكن لديّ خيار سوى أن أسير معهم. ساورني القلق من خطّتهم، لكن ساقيّ كانتا تؤلمانني من الجري طوال الليلتين السابقتين، وكنت راضياً لأنني كنت موجوداً بين أناس كثيرين ولم أكن وحدي. وجعلتني الرائحة العطنة للأبقار أشعر بالدفء وأرخيت يدي على أكفالها ونحن نمشي. مشينا حتى منتصف النهار، نتهامس عندما نحتاج إلى ذلك، نحاول أن ننسلّ بهدوء من تلك المنطقة مع المواشي. وكان جوك، قائد المجموعة، يرى أنه ما إن نعبر النهر ونتجه شمالاً، حتى نصبح في مأمن. كانت خطته غريبة للغاية.

وبعد فترة صادفنا رجلاً يرتدي بدلة ميليشيا مانيوك بول البرتقالية. بدت عليه أمارات الريبة عندما رآنا.

- من أنتم؟ إلى أين أنتم ذاهبون؟

- إلى الخرطوم، قال الرجل العجوز.

تقدّم الرجل الذي يرتدي البدلة البرتقالية ووقف أمامنا وسدّ الطريق.

- هل أنتم مجانين؟ كيف ستصلون إلى الخرطوم مع أربعين رأساً من الماشية؟ من هو صاحب هذه الخطّة؟ ستُقتلون كلكم. المرحلّون ليسوا بعيدين من هنا. ستذهبون إليهم مباشرة.

هزّ الرجل العجوز رأسه ببطء.

- أنت الذي يجب أن تقلق، قال. - فلديك بندقيّة.

- نحن غير مسلّحين. لن يؤذوننا. لا يوجد لنا ولاء لكم.

- ساعدكم الله، قال الرجل الذي يرتدي بدلة برتقالية.

- إني واثق من أنه سيساعدنا، قال الرجل العجوز.

تمتم لنفسه، وابتعد الرجل الذي يرتدي بدلة برتقالية في الاتّجاه الذي جئنا منه. وواصلت مجموعتنا سيرها على الدرب قليلاً، حتى تناهى إلينا صوت الجندي من بعيد. - سترونهم بعد مئة ياردة. ستموتون بعد مئة ياردة من المكان الذي تقفون فيه الآن.

عند ذلك، وقفت المجموعة التي ترافقها المواشي في مكانها وأخذ الكبار يتجادلون في ما بينهم. فرأى البعض بأنّ أحداً لن يزعجنا إذا كنّا نمرّ بسلام، وأن السبب الوحيد الذي أثار المشكلة في مايال باي هو ارتباط البلدة بالمتمردين. وأنه إذا شجبت مجموعتنا المتمردين وأعربت عن نيتها بأنها ذاهبة إلى الخرطوم، فإنهم سيسمحون لنا بالمرور. ورأى فريق آخر أن هذا هراء، وأنه لا يوجد لدى المرحلّين ولاء للحكومة أو عداء للمتمردين - فهم لا يسعون إلاّ الحصول على المواشي والأطفال. وظلوا يتجادلون لفترة من الوقت، فوق الدرب. الكبار يتجادلون والأبقار ترعى، ثم حُسم الجدال أخيراً عندما سمعنا صوت قرقعة الحوافر وارتفع ستار من الغبار.

وما هي إلاّ ثوان، حتى كان المرحلّون فوقنا.

بدأت المجموعة تركض في جميع الاتّجاهات. لحقت بالرجل الذي بدا أنه أسرعهم وهو يغوص بين الأعشاب ويزحف تحت أجمة كثيفة واستقر وراء

كتلةٍ من القشّ والجذوع والأغصان. كان الرجل أكبر سنّاً من أبي. كان نحيفاً جداً، تمتد عروق ناتئة فوق ذراعيه. كان يعتمر قبعة طرية كبيرة تحجب عينيه.

- الجيش، قال الرجل الذي يعتمر القبعة، مومئاً إلى الرجال على ظهور الأحصنة. كان هناك سبعة خيّالة، أربعة في ثياب البَقَّارَة التقليدية، وثلاثة يرتدون بدلات الجيش السوداني الرسمية. - لا أفهم ذلك، قال.

وقفت معظم الأبقار في مكانها، ولم تجر من الدرب. أصبح يحرسها الآن جنديان. وقفت المجموعة، لا ينبس أحد بكلمة. مضت لحظة طويلة بدا أن شيئاً لن يحدث أبداً. أو ربّما كان الجميع ينتظرون أن يحدث شيء ما. وهذا ما حدث. إذ جرى فجأة أحد الرجال المسنين إلى الغابة، على نحو أخرق وببطء شديد. فقفز جنديان من فوق حصانيهما وجريا ورائه وهما يضحكان. وأعقب ذلك سماع طلقات ثم عاد الرجلان من دون الرجل العجوز.

التفت أحد الجنود الحكوميين وبدا أنه كان ينظر إليّ وإلى الرجل ذي القبعة. عاد تنفّسي عالياً، عيناي واسعتان. خفضنا كلانا رأسينا.

- إنهم يرونا. لنذهب، همست.

بدون سابق إنذار، وقف الرجل ذو القبعة، ورفع ذراعيه مستسلماً.

- تعال إلى هنا، يا عبد! قال الجندي، مستخدماً الكلمة العربية لعبد. سار الرجل ذو القبعة نحوهم. راقبت ظهر الرجل، ورأيت الأطفال والنساء والماشية محاصرين بين الخيول. تذكّرت أماث والطريقة التي كانت تقف فيها راضية بمصيرها، فاستشطت غضباً. لم يكن ينبغي لي أن أتحرّك في تلك اللحظة لكن غضبي سيطر عليّ. اللعنة عليكم، قلت في نفسي ورحت أجري. استدرت وركضت بينما راحوا يصرخون بأن أعود. - يا عبد! يا عبد! اللعنة عليكم، رحت أردد وأنا أجري. ألعنكم بقوّة الرب وبقوة عائلتي. كنت أتوقّع أن تطلق عليّ النار في أيّ لحظة لكنّي رحت أجري. اللعنة عليكم أيها الرجال. اللعنة عليكم جميعاً. سأموت وأنا ألعنهم وسيفهم الله ذلك، وسيسمع هؤلاء الرجال لعنتي في اليوم الآخر.

أطلقوا النار عليّ مرّتين لكنّي هربت وواصلت الجري عبر الغابة. لم يلحقوا بي. جريت عبر ضوء بعد الظهر الوردي المتضائل حتى المساء. جريت عبر الغابة، أبحث عن ناسي أو عن طريق مطروق، لكني لم أجد شيئاً، وعندما حلّ الظلام لم يعد لديّ أملٍ في رؤية طريق أو ممشى.

لكني وجدت أخيراً درباً. عندما وجدت الدرب جلست وراء شجرة قريبة، لارتاح، وأراقب الطريق، وأنصت إلى الأصوات، أنتظر حتى أتأكد بأنها واضحة. بعد فترة قصيرة، تناهى إليّ صوت تنفّس ثقيل لرجل. من نَفَسه عرفت أنه رجل ضخم، رجل يتألم. رأيته من شجرتي، رجل ضخم من الدينكا يبدو أنه يمشي بهدف. كان ظهره مستقيماً وبدا شابًّا. كان يرتدي سروالاً قصيراً أبيض ولا شيء آخر. ظننت أن هذا الرجل سينقذني.

- يا عمّ! قلت، وجريت إليه. - اعذرني!

التفت إليّ لكن وجهه كان قد سُلخ عن جمجمته، وقد تلاشى جلده. كان جلده رطباً ووردياً وكان بياض عينيه ناتئاً لا ترمشان. لقد فقد الغطاء الذي يغطيهما.

قرّب وجهه من وجهي، كانت العروق الحمر تغطي كل جلده.

- ماذا؟ ما هذا؟ لا تحدّق في وجهي. استدرت لأجري مبتعداً عنه لكن الرجل أمسك بذراعي.

- تعال معي، يا ولد. خذ هذا.

أعطاني كيسه. كان وزنه بوزني. حاولت أن أحمله، لكنّه سقط على الأرض. ضربني الرجل على أذني بقفا يده.

- احمله، يا ولد!

- لا أستطيع. لا أريد، قلت.

قلت له إني أريد أن أعود إلى مايال باي.

- لماذا؟ لكي تُقتل؟ من أين تظن أنني أصبت بهذا؟ أين تظن أنّني فقدتُ وجهي، أيها الولد الغبي؟

الآن عرفت من هو الرجل. إنه الجندي كولونغ غار الذي هرب من الجيش قبل أول هجوم. من شجرة أماث، كنا قد رأيناه يجري عندما كانت المصابيح الكاشفة تتبعه.

- لقد رأيتك، قلت.

- لم تر شيئاً.

- رأيتك عندما كنت تجري. كنّا على الشجرة. لم يهتمّ بذلك.

- أريد أن تحدّق في وجهي، يا ولد. يجب أن تفعل ذلك. أترى هذا الوجه؟ كان هذا وجه رجل كان يثق. هل ترى ما الذي يحدث لرجل يثق؟ قل لي ماذا يحدث!

- يُسلخ وجهه.

- جيّد! نعم! لقد سُلخ وجهي. هذه طريقة جيّدة لقول ذلك. هذا ما أستحقّه. قلت إنّني كنت صديقاً للعرب وذكّرني العرب بأنّنا لسنا أصدقاء ولن نكون أبداً. لقد خدمت في الجيش مع العرب لكن عندما ثار المتمردون لم يعد العرب يعرفونني. كانوا يخطّطون لإعادتي إلى الشمال ليقتلونني. هذا ما أعرفه. وعندما تركت الجيش تعقّبوني ووجدوني وألقوا بوجهي في النار. هذا الوجه هو درس لجميع الدينكا الذين يظنون أنّنا نستطيع أن نعيش مع هؤلاء الناس -

رميت الكيس ورحت أجري. كنت أعرف أنه ليس من التهذيب أن أهرب من الرجل الذي لا وجه له، لكني قلت في نفسي أخيراً اللعنة على كلّ شيء. لم ألعن من قبل قط سواء بصوت عال أو بصمت، أما الآن فقد فعلت ذلك، مرات ومرات. ورحت أجري وهو يصيح من ورائي ويلعنني، وبينما كنت أجري رحت ألعنه وألعن كلّ شيء يمكنني أن أسمّيه. اللعنة على الرجل الذي لا وجه له واللعنة على المرحلّين واللعنة على الحكومة واللعنة على الأرض وعلى الدينكا وعلى رماحهم التي لا فائدة ترجى منها. رحت أجري فوق العشب وفوق الأشجار ثمّ فوق قاع نهر جاف وعند مجموعة الأشجار التالية وجدت شجرة أكاسيا ضخمة، كتلك الشجرة التي كنا نجلس عليها أنا ووليام كي وموسي، وجدتُ حفرة في جذورها وزحفت إليها وقبعت فيها ورحت أنصت إلى تنفّسي. لقد أصبحت الآن خبيراً في اكتشاف الحفر لأنام فيها. اللعنة على التراب واللعنة على الديدان واللعنة على الخنافس واللعنة على البعوض. لم ألتفت إلى الوراء وأنا أجري ولم أتأكد من أن أحداً لا يتبعني إلاّ بعد أن أصبحت داخل الشجرة. نظرت من ظلام الحفرة ولم أر شيئاً ولم أسمع شيئاً وسرعان ما صفقت أجنحة الليل السوداء من الأعلى، وكنت في الظلام، في الشجرة، بعينيّ وأنفاسي. وفي الليل، ملأت أصوات الحيوانات الهواء وحشوت أذنيّ بأحجار صغيرة لأحجب الصوت من الخارج. اللعنة عليك أيتها الغابة، اللعنة عليك أيتها الحيوانات، اللعنة عليكم جميعاً.

استيقظت في الصباح وأبعدت الصخور من فوق رأسي ونهضت ومشيت وركضت وعندما كنت أسمع صوتاً أو أرى هيئة من بعيد، كنت أزحف. ولأسبوع آخر، رحت أجري وأزحف وأمشي. وجدت أناساً من قبيلتي وسألتهم عن الاتّجاه إلى مايال باي. كانوا يعرفون أحياناً وفي أحيان كثيرة لم يكونوا يعرفون شيئاً. اللعنة عليكم أيها الناس الذين لا تعرفون إلى أين تتجهون ولا حول لكم ولا قوة. كان بعض الناس الذين وجدتهم من المنطقة وآخرون جاؤوا من الشمال، وبعضهم من الجنوب. كان الجميع يتحرّكون. وعندما كنت أجد قرية أو مستوطنة، كنت أتوقّف فيها وأطلب قليلاً من الماء، وكانوا يقولون، «أنت في مأمن هنا، يا ولد، أنت في مأمن الآن»، وكنت أنام هناك وأعرف بأنّني لست في مأمن. فقد كانت الخيول والأسلحة وطائرات الهيلوكوبتر تأتي دائماً. لم أستطع أن أخرج من هذه الحلقة، هذه الدائرة التي كانت تدفعنا إلى داخلها، ولم يكن يعرف أحد متى ستأتي النهاية. زرت امرأة مسنّة، أكبر امرأة عرفتها في حياتي، وجلست تطبخ مع حفيدتها التي في عمري، وقالت المرأة العجوز إنّ هذه هي النهاية، وأن النهاية قادمة، وأنّني يجب أن أجلس معهما بهدوء وأنتظر. ستكون هذه نهاية الدينكا، قالت بصوت أجشّ ورفيع كقصبة، لكن إذا كانت هذه هي إرادة الآلهة والأرض، قالت، فليكن. هززت رأسي للجدة ونمت بين ذراعيها، لكني غادرت في الصباح وواصلت الجري. جريت مجتازاً قرى كانت قرى ولم تعد كذلك، وجريت بجانب حافلات أُحرقت بكاملها، أيد ووجوه تضغط على الزجاج. اللعنة عليكم جميعاً. اللعنة على الأحياء، اللعنة على الأموات. وعند بزوغ الفجر جريت بجانب مطار صغير، حيث رأيت طائرة صغيرة بيضاء وأسرة ومعها رجل. كان الرجل يرتدي ثياباً غريبة عرفت فيما بعد أنها بدلة، وكان يحمل حقيبة صغيرة سوداء. وعلى مسافة بضعة أقدام وراءه، كانت الأسرة - رجل وامرأة وفتاة في الخامسة من العمر، يرتدون جميعاً ملابس جميلة، وكانت المرأة والطفلة تجلسان فوق حقيبة أكبر. وكان الرجل الذي يرتدي البدلة، يكلّم قائد الطائرة بعصبية، الذي كنت أرى أنه رجل صغير جداً، وبشرته أكشف بكثير من بشرتنا.

- هؤلاء أناس مهمّون! كان الرجل يقول. لم يتأثر الطيار بكلامه.

- هذا الرجل عضو في البرلمان! قال الرجل. صعد الطيار إلى قمرة القيادة.

- يجب أن تأخذهم! صاح الممثل.

لكن الطيار لم يأخذهم معه. فقد حلّق بطائرته، بعيداً عن الشمس، وبقيت الأسرة والرجل على أرض المطار. لا يوجد أحد مهمّ حتى يطير بعيداً عن

الحرب، ليس في تلك الأيام.

واصلت الركض.

(١٠)

كان مايكل مستيقظاً ويتنقلّ في أرجاء البيت. كان يعتقد أنّه سلبني قوتي، ويستطيع الآن أن يفتش البيت دون أن يزعجه أحد. مرّ بجانبي وهو في طريقه إلى الحمّام. عندما وصل إلى الحمّام، سمعت صوت صرير باب غرفة نوم أتشور أتشور. لا أعرف عمَّ تبحث يا مايكل، فلن تجد أشياء كثيرة في غرفة نوم أتشور أتشور، التي زُيّنت جدرانها بصورتين: ملصق ليسوع قدّمته له مجموعة دراسة الإنجيل، وصورة كبيرة، غير واضحة لأخته التي تعيش في القاهرة وتعمل عاملة تنظيف في أحد المطاعم هناك.

كان مايكل يسير في الصالة متجهاً إلى غرفتي. باب غرفتي لا يصدر صريراً وإنما يصدر صوتاً خفيفاً عندما يحتك بالسجادة. سمعت صوت خزانتي تُفتح، ثمّ صوت فتح الستائر. أعرف أنّه رفع الكتابين المركونين بجانب سريري - الدافع إلى الحياة بقلم ريك وارن، والبحث عن قلب الله بقلم الأمّ تيريزا والأخ روجر - لأنني سمعت صوتهما يرتطمان بأرضية الغرفة، الواحد تلو الآخر. ثم سمعت صرير نابض السرير، ثمّ ساد صمت. فتح أدراج خزانتي، ثمّ أغلقها.

مايكل صبي فضولي وتفتيشه يجعله يبدو في نظري إنساناً أكثر. عاد له حبي، وعاد إلى قلبي الشعور برغبتي في مسامحته.

«مايكل!» قلت فجأة.

لم أتوقّع أن أذكر اسمه لكن فات الأوان. عليّ أن أردد اسمه مرة أخرى الآن، ويجب أن أقرّر لماذا أردده.

«مايكل، عندي لك اقتراح».

كان لا يزال في غرفتي. لم أسمع صوت أي حركة. «مايكل، هذا اقتراح جذّاب لك. أؤكد لك». لم يقل شيئاً. لم يخرج من غرفة نومي.

سمعت صوت درج الطاولة الصغيرة بجانب سريري يُفتح. أحسست بتقلص في معدتي عندما أدركت أنّه سيرى صور تابيثا. ليس من حقه أن ينظر إلى تلك الصور. كيف يمكنني أن أنسى أنّ هذا الصبي المحطّم قد عبث بتلك الصور؟ فهذه الصور شديدة الأهمية بالنسبة لي كي أشعر بالتوازن. أعرف

أنّني أجيل النظر فيها كثيراً. أعرف أنني أعتبر ذلك عقاباً ذاتياً، وقد وبّخني أتشور أتشور على ذلك. لكنّ النظر إليها يمنحني شعوراً بالراحة. لا تشعرني بالألم. توجد حوالي عشر صور، معظمها التُقطت بالكاميرا التي سرقها رفاق مايكل. في إحدى الصور، تابيثا مع إخوتها، وأربعتهم يحملون معاً سمكة عملاقة في سوق في سياتل، وهي تقف في وسطهم. من الجلي أنهم يحبونها كثيراً. وفي صورة أخرى، تقف مع أعزّ صديقاتها، لاجئة سودانية أخرى اسمها فيرونيكا، مع طفل فيرونيكا، ماثيو الذي توجد أمامه - وهو طفل ولد في الولايات المتحدة - قطعة كيك بالشوكولاتة مستديرة. إنها أول محاولة لتابيثا في صنع كيك عيد ميلاد بالطريقة الأمريكية. ووجه الطفل مغطّى بالشوكولاتة، وتابيثا وفيرونيكا تبتسمان ابتسامة عريضة، تمسك كلّ واحدة منهما بأحد خدّي ماثيو. لم تدركا آنذاك أنّ كمية السكّر التي تناولها ماثيو في تلك الليلة ستبقيه صاحياً طوال الاثنتي وعشرين ساعة القادمة. أما أفضل صورة، فهي الصورة التي ظنّت أنني مزّقتها بإلحاح منها. فقد كانت في غرفة نومي، وكانت تضع نظّارتها، مما يجعلها فرصة نادرة جداً، فريدة من نوعها. عندما التقطتها، قبل أن نأوي إلى الفراش في تلك الليلة، استشاطت غضباً، ولم تكلّمني حتى ظهر اليوم التالي. «ارمها!» صاحت، ثمّ صحّحت نفسها: «احرقها»، فأحرقتها في المغسلة، لكن بعد بضعة أيام، عندما عادت إلى سياتل، طبعتُ نسخة أخرى من كاميرتي الرقمية. وكان بضعة أشخاص فقط يعرفون أنّ تابيثا تضع عدسات لاصقة، ولم يكد أحد يراها وهي تضع نظّارتها الضخمة، البشعة، ذات العدسات السميكة التي تشبه زجاج السيارة الأمامي. وكانت تضعها بجانبها عندما تنام، لكي تستخدمها إذا استيقظت واحتاجت أن تذهب إلى الحمّام. لكنّي كنت أحبّها وهي تضع تلك النظارات، وكنت أريد أن تضعها غالباً. ففي تلك الإطارات الضخمة كانت تبدو أقل جاذبية، لكنها عندما كانت تضعها، كنت أشعر بأنّها لي حقاً.

كنّا قد التقينا في كاكوما، في دروس الاقتصاد المنزلي. كانت تصغرني بثلاث سنوات، وكانت فتاة ذكية، وهذا ما جعلنا، أنا وهي، نتفق كثيراً. كانت تلك الدروس مطلوبة في مدرسة المخيّم لكل من الفتيان والفتيات، مما أثار حفيظة السودانيين الأكبر سناً. فتيان يتلقون دروساً في فنّ الطبخ؟ كانوا يرون ذلك شيئاً غير معقول، لكن معظمنا لم نكن نأبه بذلك. كنت أجد متعة في هذه الدروس مع أنه لم تكن لديّ ميول للطهي أو لأيّ شيء يتعلق به. أما تابيثا، فلم تكن تبدي أي اهتمام في دروس الاقتصاد المنزلي، أو حتى بحضور هذه الدروس. فلم تكن تحضر تلك الدروس بانتظام، وعندما كانت تحضرها، كانت تبدي امتعاضاً بصوت مسموع كلّما حاولت المعلّمة، وهي امرأة سودانية نطلق عليها «مس سباتولا»، اقناعنا بأن دروس الاقتصاد المنزلي ستفيدنا كثيراً في حياتنا في المستقبل. ولم تكن مس سباتولا تلقي

بالاً لتعليقات تابيثا الساخرة، أو لتنهداتها المستخفة، أو حتى عندما كانت تابيثا تقرأ روايات ذات غلاف ورقي بينما كانت مس سباتولا تشرح طريقة قلي بيضة. لم تكن مس سباتولا تقدّر تابيثا دواني أكير على الإطلاق، في حين كان الفتيان يقدّرونها كثيراً، وكان من المستحيل ألاّ يفعلوا ذلك.

كان عدد الفتيات اللاتي يحضرن الدروس في كاكوما أكثر مما كان في بينيدو. وعلى الرغم من ذلك، فقد كنّ يشكّلن أقليّة: فتاة واحدة بين عشرة فتيان في أحسن الأحوال. ولم يكنّ يتابعن دراستهن. ففي كلّ سنة، كانت فتيات يتركن المدرسة ليعملن في البيت ويهيئن أنفسهن للزواج. ، فإذا كانت الفتاة خالية من أي عيب، فإنها سرعان ما تُطلب للزواج وهي في الرابعة عشرة من عمرها - يعيدونها إلى جنوب السودان لتتزوج ضابطاً من المتمردين الذي يكون قادراً على دفع المهر المطلوب. وفي معظم الأحيان، كنّ يذهبن وهن في غاية السعادة لأنّ الحياة في كاكوما لم حياة جيدة بالنسبة لأي فتاة. فقد كنّ يعملن كثيراً، ويُغتصبن إذا غادرن المخيّم لجلب حطب لإشعال النار. لم يكنّ يحظين بأي قوة في كاكوما، ولا يوجد لديهن أي مستقبل.

لكن أحداً لم يقل ذلك لتابيثا، أو ربما قالوا لها لكنها لم تعبأ بذلك. فقد كانت تعيش مع إخوتها الثلاثة وأمّها، وهي امرأة متعلّمة قررت أن توفر لتابيثا أفضل حياة ممكنة ضمن الظروف المتاحة، وكان والد تابيثا قد قُتل في بداية الحرب، ورفضت أمّها الانتقال لتعيش مع عائلة زوجها. ففي السودان، يجب على شقيق المتوفى، في أحيان كثيرة، أن يتحمل مسؤولية زوجة أخيه المتوفى وأسرته، لكن أمّ تابيثا لم تقبل أن تفعل ذلك. فغادرت قريتها، يرول، وذهبت إلى كاكوما لأنها تعرف أنّ الحياة في كينيا، حتى لو كانت في مخيّم للاجئين، قد تتيح لأطفالها عالماً أفضل.

طالما شكرت أمّ تابيثا على شجاعتها وعلى حكمتها، وطالما شكرت تابيثا عندما تقررت أن تحضر دروس الاقتصاد المنزلي، وعندما تزوغ عيناها، وتبتسم ابتسامها المتكلّفة تلك. كانت الفتاة الأكثر جاذبية في كاكوما.

وفي النهاية أصبحنا صديقين، أو أقرب حالة لأن نكون صديقين كمراهقين في كاكوما. وكنت أقول لها كثيراً إنني أحبّها، لكن تلك الكلمات التي كنت أقولها لها آنذاك، لم تكن تعني ما أصبحت تعنيه بعد أن جئنا إلى أمريكا، عندما أدركت أنّني أحبّها كما يحبّ الرجل المرأة. أما في كاكوما، فقد كنّا صغيرين، وكنّا حذرين وعفيفين. فلم يكن من اللائق، حتى في مخيّم للاجئين مثل ذاك، أن يُظهر الشبان عواطفهم على الملأ. فقد كنا نلتقي بعد الصلاة في

الكنيسة ونتمشّى معاً، وكنّا نتسلل إلى مكانٍ بعيد عندما نستطيع ذلك. وكنّا نحضر المناسبات التي تقام في المعسكر معاً، وكنّا نأكل مع الأصدقاء، ونتحدّث عندما ننتظر في الطابور لنحصل على مخصصاتنا من الطعام. وكنت أحدّق في وجهها الذي في هيئة قلب، وفي عينيها البراقتين وخديها المكورين. كان ذلك كلّ ما أفعله حينذاك. لكن ماذا كان ذلك؟ ربّما لم يكن شيئاً.

كانت تابيثا قد غادرت كاكوما قبلي. وكان ذلك شيئاً استثنائياً، لأن قلة قليلة من الفتيات السودانيات جئن إلى أمريكا، لا توجد بينهن فتيات كن يعش مع آبائهن في المخيّم. تقول تابيثا إن الحظّ جاء بها إلى هنا، لكنّي أظن أن ذكاء أمّها هو الذي أتى بها إلى هنا. فعندما تأكدت صحة الشائعات حول إعادة التوطين، كانت أمّها تعرف أن أمريكا تهتم بالقاصرات اللاتي لا يوجد لديهن آباء. وكانت احتمالية أن ينظر في قضية فتاة تعيش مع والديها في كاكوما ضعيفة جداً. لذلك جعلت أولادها يكذبون، واختفت، وذهبت وأقامت في قسم آخر من المخيّم. وتم تقديم طلب تابيثا وإخوتها الثلاثة باعتبارهم يتامى، وبما أنهم كانوا صغار السن، أصغر من معظمنا، فقد تم اختيارهم، وسافروا إلى أمريكا في وقت مبكر، وظلوا معاً عندما وصلوا إليها.

ولا تزال أمّهم تعيش في كاكوما، أما تابيثا وإخوتها فإنهم يعيشون في شقّة مؤلفة من غرفتيْ نوم في «بورين»، إحدى ضواحي سياتل، ودرسوا كلهم في المدرسة الثانوية. كانت تابيثا سعيدة في حياتها، وتأمركت بسرعة كبيرة، وأصبحت تتحدّث اللغة الإنكليزية بلكنة أمريكية خالصة، ولم تعد تتكلم الإنكليزية الكينية التي كانت قد تعلّمتها. وعندما تخرّجت، قدمت لها مؤسسة بيل وميلندا غيتس منحة دراسية في جامعة ويسترن واشنطن.

عندما وصلتُ إلى الولايات المتحدة، بعدها بسنتين تقريباً، كانت تابيثا قد نستني، وأنا نسيتها أيضاً. بالطبع، ليس نسياناً تاماً، لأننا كنّا نعرف كيف نحافظ على ارتباطاتنا. فقد أُرسل السودانيون من كاكوما إلى جميع أنحاء الكرة الأرضية، وأصبحنا نعرف بأننا لسنا نحن من نقرّر مصيرنا. وعندما استقرّ بي المقام في أتلانتا، لم أكن أعرف الكثير عن تابيثا.

في أحد الأيام كنت أتكلّم على الهاتف مع أحد الشبان السودانيين الذي كان يتصل بي باستمرار، ويقيم في سياتل. فقد كان قد أُعلن عن وقف إطلاق النار في جنوب السودان، وكان يريد أن يعرف ما هو رأيي في هذا الأمر، لأنه كان يعتقد بأنّني مقرب جداً من جيش التحرير الشعبي السوداني. كنت على وشك أن أصلح خطأه وأقول له إنّني لا أعرف أكثر مما يعرفه هو، بل ربما

أعرف أقل مما يعرفه، عندما قال فجأة: «أتعرف من يوجد هنا؟» فقلت لا. فقال: «شخص تعرفه منذ زمن»، وأعطى الهاتف إلى شخص آخر. توقّعت أن يكون صوت الشخص الآخر صوت رجل، لكنّه كان صوت امرأة. قالت: «ألو، من هذا؟ ألو؟ هل الذي يكلّمني على الجانب الآخر من الخطّ فأر؟» يا له من صوت! لقد أصبحت تابيثا امرأة! فقد ازداد صوتها عمقاً، وأصبح يبدو مفعماً بالخبرة، مرتاحاً كثيراً مع العالم. إن هذا النوع من الثقة السهلة في المرأة يثير إعجابي. لكنّي عرفت أنّها هي على الفور.

«تابيثا؟»

«طبعاً، يا عسلي»، قالتها بالإنكليزية. كانت تتكلم بلكنة أمريكية صافية. فقد تعلّمت أشياء كثيرة خلال السنتين اللتين أمضتهما في المدرسة الثانوية. تبادلنا أحاديث عامة متنوعة لبضع دقائق قبل أن أسألها السؤال الرئيسي الذي يخطر دائماً ببالي.

«هل لديكِ صديق؟» أردت أن أعرف.

«طبعاً، يا محبوبي»، قالت، «لم أرك منذ ثلاث سنوات».

أين تعلّمت هذه الكلمات «يا عسلي» و» يامحبوبي»؟ كلمات تبعث على الخدر. تحدّثنا حوالي ساعة في ذلك اليوم، وساعات أكثر في ذلك الأسبوع.

أصبت بخيبة أمل عندما قالت إنها ترى أحداً، لكنّي لم أفاجأ، لأن تابيثا امرأة سودانية جميلة، وهناك عدد قليل من السودانيات العازبات في أمريكا، قد لا يزيد عددهن على مئتين، وربّما أقل. ومن بين آلاف السودانيين الذين أُحضروا إلى أمريكا برعاية منظمة الأطفال السودانيين الضائعين، كانت هناك تسع وثمانون أنثى فقط، تزوج عدد منهن للتو، أما ما تبقى منهن فكن يجعلن الأمور شديدة الصعوبة للشباب مثلي. فماذا يمكننا أن نقدّم لهن؟ وبما أننا لا نملك مالاً، وتتبرّع الكنيسة بثيابنا، ونقيم في شقق صغيرة نتقاسمها مع لاجئين أو ثلاثة لاجئين آخرين، فإننا لسنا من ذلك النوع من الرجال المرغوبين بالنسبة لهن، حالياً على الأقل. وبطبيعة الحال، هناك أمثلة كثيرة عن قصص حبّ مع نساء أمريكيات من أصل أفريقي، أو أمريكيات بيض، أو أوروبيات. لكن بصورة عامة، لا يزال الرجال السودانيون في أمريكا يتطلعون للزواج من نساء سودانيات، وهذا يعني، بالنسبة للكثيرين، أن يعودوا إلى كاكوما أو حتى إلى جنوب السودان للبحث عن زوجة.

أما تابيثا التي يرغبها الكثيرون هنا في أمريكا، فقد اختارتني أنا في نهاية المطاف.

«مايكل، أرجوك»، قلت.

كنت أريد أن يخرج من غرفتي ويعود إلى المطبخ لكي أراه، وأعرف أنّه لا يعبث بصوري.

«يجب أن أكلّمك. أظن أنك ستكون مهتماً بما سأقوله لك».

كنت غبياً عندما ظننت أن هذا الصبي يمكن أن يفهمني. لكن الشباب الصغار هم من اختصاصي، إذا جاز التعبير. ففي كاكوما، كنت قائداً للشباب، أشرف على النشاطات اللا مدرسيّة لستة آلاف لاجئ شاب. وعملت لصالح مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين، أساعد في استنباط ألعاب، وتشكيل فرق رياضيّة، وإعداد أعمال مسرحيّة. ومنذ أن وصلت إلى أمريكا، أصبح عندي أصدقاء، لكن قد لا يكونون بأهمية أليسون، طفل آن وجيرالد نيوتن الوحيد.

كانت عائلة نيوتن هي العائلة الأمريكية الأولى التي أبدت اهتماماً بي، حتى قبل فيل مايس. فلم يكن قد مضى على قدومي إلى أمريكا سوى بضعة أسابيع، عندما طُلب منّي أن ألقي كلمة في إحدى الكنائس الأسقفية، وعندما فعلت ذلك، التقيت بآن، امرأة أمريكية سوداء ذات عينين دامعتين ويدين باردتين صغيرتين. سألتها إذا كان بإمكانها مساعدتي. لم أكن أعرف كيف يمكنها أن تساعدني، لكنّها قالت إنه يمكننا مناقشة الأمر على العشاء. وهكذا ذهبت إلى بيتها وتناولت طعام العشاء مع آن وجيرالد وأليسون. كانت أسرة ميسورة الحال تعيش في بيت كبير مريح، فتحا أبوابه لي. كانت أليسون في الثانية عشرة من عمرها، وأنا في الثالثة والعشرين، لكننا كنّا نبدو ندّين في نواح عديدة. وكنّا نلعب كرة السلة عند مدخل بيتهم، ونركب الدراجات كما يفعل الأطفال، وحكت لي كيف يسألونها في المدرسة عن صبي اسمه أليساندرو. كانت أليسون مغرمة بالصبية من ذوي الأصول الإيطالية.

«هل يجب أن أكتب له رسالة طويلة؟» سألتني ذات يوم، «هل يحبّ الصبية الرسائل، أم أنهم لا يحبون الكثير من المعلومات، الكثير من الحماسة؟»

فقلت لها إن رسالة صغيرة تبدو فكرة ممتازة، ويُفضّل ألاّ تكون طويلة جداً.

«لكن مع ذلك، تبقى الرسالة دائمة، ولن أتمكن من استعادتها. إنها مجازفة كبيرة، ألا تظن ذلك يا فالانتينو؟»

كانت أليسون ولا تزال أذكى شخص عرفته في حياتي. إنها في السابعة عشرة من عمرها الآن، لكن حتى عندما كانت في الثانية عشرة، كانت تتحدّث بفصاحة مرعبة أحياناً. إذ تنطلق الكلمات من فمها، آنذاك والآن، في جمل تامة، كما لو كانت قد كتبتها أولاً - وبصوت منخفض، لا تكاد شفتاها تتحرّكان. كنت أريد أن أرى كيف تتفاعل مع أقرانها في المدرسة، لأنها لا تشبه أيّ مراهق عرفته في حياتي. ويبدو لي أنها صممت، منذ أن كانت في الثالثة عشرة من عمرها، أنّ تكون امرأة بالغة، وكانت تريد أن تُعامل هكذا. وحتى عندما كانت في الثانية عشرة والثالثة عشرة من عمرها، كانت ترتدي ملابس محافظة وتضع نظّارات، وكانت تبدو بشعرها الذي تمشطه إلى خلف رأسها، في الثلاثين من عمرها. لكنها لم تكن تمانع من المشاركة في مرح المراهقة. كانت أليسون هي التي علّمتني كيف أدوّن تاريخ ميلاد أصدقائي في هاتفي الخلوي، لذلك كنت أسأل كلّ من أعرفهم عن تاريخ ميلادهم. وقد أثار ذلك دهشة الجميع، لكني أصبحت أجد متعة كبيرة في ذلك، متعة نشأت من الإحساس بالتنظيم. واقترحت عليّ آن أخيراً بأنّ أظل، بطريقة ما، أعتبر نفسي مراهقاً، لأنني حُرمت، بحسب قولها، من الطفولة. ولست متأكداً من أن هذا هو السبب الذي جعلني أشعر بأنني قريب جداً من أليسون، أو السبب الذي يجعلني أتعاطف مع مايكل هذا.

ينقسم البشر إلى فئتين: الذين يستطيعون أن ينظروا من خلال عيون الشباب، والذين لا يستطيعون ذلك. ومع أن ذلك كان يؤلمني في معظم الأحيان، فإني أجد سهولة كبيرة في أن أضع نفسي في مكان أيّ صبي تقريباً، وأستطيع أن أتذكر أيام صباي بسهولة مزعجة.

«مايكل»، قلت مرة أخرى، وفوجئت كيف بدا صوتي متعباً.

أُغلق باب غرفتي. أنا هنا وهو هناك.

في صباح ذلك اليوم، بعد أن مررت بجانب المطار الصغير، وبعد أن نمت بضع ساعات فوق أغصان شجرة، أفقت ورأيتهم. مجموعة كبيرة من الصبية، لا يبعدون عني أكثر من مائة ياردة. انتظرت حتى سوّيت عيني مع ضوء الشمس، ثمّ نظرت ثانية. كان هناك حوالي ثلاثين صبياً يجلسون في دائرة. وكان هناك رجل يشرف عليهم، يومئ بحركات عنيفة. عرفت أنّ الصبية من الدينكا، وأنهم لم يكونوا يركضون، فهبطت من الشجرة بسرعة وركضت نحو المجموعة. كان يصعب تصديق أنني أرى هذه المجموعة من الصبية. وعندما اقتربت منهم أكثر، رأيت أن المشرف عليهم دوت ماجوك، معلّم الصبية الأكبر سنّاً في مايال باي. بدا أنه لم يفاجئ عندما رآني.

- أتشاك! جيّد. أنا سعيد جداً لرؤيتك حيّاً. الآن أنت في مأمن. - يوجد صبية آخرون من قريتك هنا، أيضاً. انظر.

حدّقت في الرجل الذي نطق اسمي. هل يمكن أن يكون هو دوت ماجوك فعلاً؟ أخرج قصاصة ورق خضراء من جيبه، ودوّن عليها شيئاً بقلم برتقالي صغير، ثمّ طوى الورقة وأعادها إلى جيبه.

- كيف وصلتم إلى هنا؟ سألته.

- حسناً أنا لست مجنوناً يا أتشاك. كنت أعرف بأنني يجب ألاّ أحاول أن أذهب إلى الخرطوم.

كان دوت ماجوك حقاً، وكان يرتدي ثياباً جيدة ونظيفة. كان يبدو مثل طالب جامعي، أو كما لو كان يتهيأ للقيام برحلة عمل هامة. كان يرتدي بنطالاً قطنياً رمادي اللون نظيفاً وقميصاً أبيض له أزرار، وينتعل صندلاً جلدياً، ويعتمر قبعة فضية مرنة من الخيش.

مسحت بعينيَّ المجموعة. كانوا كلّهم صبية من عمري، بعضهم أكبر قليلاً وبعضهم أصغر قليلاً، لكنهم كانوا كلهم بنفس الحجم، وكان يبدو أنهم جائعون ومتعبون وغير مسرورين لرؤيتي. كان بعضهم يحملون أكياساً، لكن معظمهم كانوا مثلي، لا يحملون شيئاً، كأنّهم هربوا من قراهم في الليل. لم أكن أعرف أحداً منهم.

- إننا ذاهبون إلى بيلبام، قال دوت. - أتعرف هذا المكان؟ سنذهب شرقاً إلى بيلبام وستكون هناك آمناً من كلّ هذا. سنسير قليلاً ثمّ سيقدم لك الطعام. هؤلاء الصبية مثلك. لقد فقدوا عائلاتهم وبيوتهم. ويحتاجون إلى ملاذ. سنذهب إلى هناك يا بني. إلى بيلبام. صحيح، يا أولاد؟

نظر الصبية إلى دوت بوجوه متجهّمة.

- وعندما ينتهي كلّ ذلك، ستعودون إلى عائلاتكم، إلى قراكم، إذا تبقى شيء منها. هذا كلّ ما يمكننا أن نفعله الآن.

صمتت هذه الكتلة من الصبية.

- هل أنتم مستعدّون؟ اجمعوا ما لديكم ولنذهب. سنتجه شرقاً.

سرت معهم. لم يكن لديّ خيار. فلم أرغب أن أركض وحدي في الليل مرة أخرى، لذلك قرّرت أنّ أبقى معهم ليوم وليلة، عندها أقرّر ماذا سأفعل. فانطلقنا، ورحنا نسير باتجاه الشمس المشرقة. كنا نسير كل اثنين أو منفردين، أغلبنا يسير في رتل واحد. في صباح اليوم الأول ذلك - لن يتكرر ذلك - كنا مفعمين بالطاقة وكان أمامنا هدف. كنّا نظن أنّ مسيرنا سينتهي قريباً. لم نكن نعرف شيئاً عن بيلبام أو عن الحرب أو عن العالم. وفي أثناء سيرنا سمعت من الصبية بجانبي بأن دوت كان قد ذهب إلى المدرسة في الخرطوم ودرس الاقتصاد في القاهرة. كان دوت الشخص الوحيد الذي يتجاوز السادسة عشرة من العمر في مجموعتنا. وبدا أن ثقة الصبية الآخرين فيه قوية. لكني كلما سرت معهم أكثر ازددت يقيناً بأنني لا أنتمي إلى هذه المجموعة. كان يبدو أن هؤلاء الصبية يعرفون أن عائلاتهم ماتت، لكن على الرغم مما قاله لي الرجل العجوز والمرأة المرضعة حول النار المشتعلة في تلك الليلة، أقنعت نفسي بأنّ مكروهاً لم يحدث لعائلتي. وعندما اقترب المساء، جريت وراء دوت.

- دوت؟

- نعم يا أتشاك. هل أنت جائع؟

- لا. لا، شكراً.

- جيّد. لأنه لا يوجد لدينا طعام.

ابتسم. كان غالباً ما يجد نفسه مسلياً.

- إذن ما الأمر يا أتشاك؟ هل تريد أن تمشي في المقدمة معي؟

- لا شكراً. لا توجد مشكلة في الخلف.

- حسناً. لأنني كنت سأقول لك إن الذين أختارهم هم فقط الذين يستطيعون أن يسيروا في المقدمة معي. وأنا لا أعرفك جيّداً بعد.

- نعم. شكراً.

- إذن ماذا في الأمر؟ كيف يمكنني أن أساعدك؟

انتظرت لحظة لأتأكد من أنه مستعد للاستماع إلى كلماتي.

- أريد فقط أن أذهب إلى مايال باي. لا أريد أن أذهب إلى بيلبام.

- مايال باي؟ لقد رأيتَ مايال باي من فوق الشجرة! أتذكر؟ لقد أصبحت مايال باي مقراً للبَقَارة. لم يعد فيها شيء. لا بيوت، لا دينكا. مجرد غبار وخيول ودم. لقد رأيت ذلك بأمّ عينك. لم يعد أحد يعيش فيها الآن - أتشاك، توقّف. أتشاك.

لقد رأى شيئاً في وجهي. كنت منهكاً، وخيّل إليّ أنني كنت أشعر بالانهيار في تلك اللحظة. فقد يكون ما حدث للذين لقوا حتفهم في مايال باي، جميع عائلات هؤلاء الصبية المتجهمين، قد حدث لعائلتي أيضاً. فتخيّلتهم أشلاء ممزّقة، أجسادهم مليئة بالثقوب، متفحّمة. فرأيت أبي يسقط من فوق شجرة، ميّتاً قبل أن يسقط. وسمعت أمّي تصرخ، محصورة في بيتنا الذي يحترق.

- أتشاك. أتشاك. توقّف. لا تبدو هكذا. توقّف.

أمسكني دوت من كتفيَّ. كانت عيناه صغيرتين، مختبئتين تحت سلسلة من الطيّات المتداخلة، كما لو أنه تعلّم كيف يدع قليلاً من الضوء يتسلل إليهما.

- الصبية في هذه المجموعة لا يبكون، يا أتشاك. هل ترى أحداً يبكي؟ لا أحد يبكي. قد تكون عائلتك لا تزال على قيد الحياة. لقد نجا الكثيرون من هذه الهجمات. أنت تعرف ذلك. فقد بقيت أنت حياً. وهؤلاء الصبية ظلوا أحياء. ربما هربت أمّك وأبوك. ربما نراهما. أنت تعرف إن هذا ممكن. لقد هرب الجميع. إلى أين هربنا كلّنا؟ لقد هربنا في ألف اتّجاه. الجميع يسير باتجاه شروق الشمس. هذه بيلبام. إننا ذاهبون إلى بيلبام لأنني سمعت أنها مكان آمن للصبية. لهذا السبب فإننا هنا، أنا وأنت وجميع هؤلاء الصبية. أما مايال باي فلم يعد لها وجود الآن. إذا وجدت والديك، فلن تعثر عليهما في مايال باي. أتفهم؟

فهمت.

- جيّد. أنت مستمع جيّد، يا أتشاك. إنك تستمع وتستمع لتفهم بعقلانية. هذا أمر مهمّ. عندما أريد أن أكلّم أحداً بعقلانية سأبحث عنك. اتفقنا. يجب أن نمضي الآن. أمامنا مسيرة طويلة قبل أن يهبط الظلام.

الآن، بدأت أمشي بثقة. بدأت أعتقد بأنني سأجد عائلتي وأن عائلتي ستجدني بما أننا أصبحت في هذه المجموعة. رحت أسير بجانب الصفّ

الأخير من مجموعة مؤلفة من ستة وثلاثين صبياً، كلّهم في عمري تقريباً، وقد بدأ الشعر ينبت تحت آباط حفنة منهم. قلت إن البقاء معهم فكرة جيّدة، هذا العدد الكبير من الصبية، مع مشرف قدير مثل دوت. أحسست بالأمان مع هؤلاء الصبية الذين كان بعضهم يكاد يدخل مرحلة الرجولة، فإذا هاجمنا رجال البَقَّارَة فإنه سيكون بوسعنا أن نفعل شيئاً. فلا بد أن عدداً من الصبية يستطيعون أن يفعلوا شيئاً. وإذا كانت لدينا أسلحة! قلت ذلك لدوت، إنه يجب أن تكون لدينا أسلحة.

- إنها فكرة جيّدة، نعم، قال. - كانت عندي بندقيّة ذات مرّة.

- هل أطلقت النار بها؟

- نعم. أطلقت النار بها عدة مرات.

- هل يمكننا أن نحصل على بندقية؟

- لا أعرف، يا أتشاك. ليس من السهل أن نحصل على بندقية. سنرى. أظن أنّنا قد نجد بعض الرجال الذين يحملون أسلحة لمساعدتنا. أما الآن فنحن في أمان بسبب كثيرة عددنا. إن عددنا هو سلاحنا.

كنت واثقاً من وجودنا، إذ سيُعرف وجود عدد كبير من الصبية يسيرون في رتل كهذا، وسيأتي والداي إليّ. بدا لي ذلك منطقيّاً للغاية، لذلك نقلت هذه الفكرة إلى صبي يسير أمامي، فتى يدعى دنغ. كان دنغ يبدو صغيراً جداً بالنسبة إلى عمره، له رأس كبيرة لا تناسب بنيته الضعيفة، أضلاعه نحيفة مثل عظام في جناح طير. قلت لدنغ إنّنا سنكون في أمان، وقد نجد عائلاتنا إذا بقينا مع دوت. فضحك دنغ.

- هل خاف العرب من الصبية في بلدتك؟ سألني.

- لا.

- هل أطلقوا النار عليهم؟

- نعم.

- لماذا تظن إذاً أنّ العرب سيخافون من عددنا الكبير هذا؟ لا تكن غبياً. إنهم لا يخافون من إخوتنا أو آبائنا، وإذا وجدونا فإنهم سيأسرونا أو يقتلونا. نحن

لسنا في أمان أكثر يا أتشاك، بل على العكس تماماً. فنحن لسنا في مأمن أبداً. لا يوجد أحد يسهل قتله أكثر من قتل صبية مثلنا.

مايكل، كما قلت، أنا على يقين من أن قصّتك حزينة. لن أنسى ذلك. لا أظن أن الرجل والمرأة اللذان تركاك هنا هما والداك. إذاً أين هما والداك؟ لا أظن أنها قصّة سعيدة. لكنّك ترتدي ثياباً جيدة، وتتناول طعاماً جيداً، وتتمتع بصحة جيدة، وأسنانك سليمة، وبالتأكيد سريرك.

أما هؤلاء الصبية فلم ينعموا بما تنعم به. لم أسمع الكثير من قصصهم، لأنه يُفترض أننا جئنا جميعاً من ظروف متشابهة، ولم يكن لدينا اهتمام بسماع مزيد من العنف والفقدان. سأحكي لك قصّة دنغ فقط، أو سأدع دنغ يحكيها لك كما حكاها لي عندما كنّا نسير في بداية المساء في أرض استوائية أكثر من مايل باي في ذلك الوقت من السنة. كنّا قد ابتعدنا كثيراً عن بيوتنا وقرانا.

لم تكن قرية دنغ تختلف كثيراً عن قريتي. كان في معسكر للماشية على مسافة بضعة أميال، عندما وصل المرحلّون. وبدأ إطلاق النار، وسقط الصبية الأكبر سنّاً في المكان الذي كانوا يقفون فيه، وسرعان ما استولوا على المعسكر.

- رحت أجري، قال دنغ. - ركضت عائداً إلى البلدة، ظناً مني أن ذلك أفضل، لكن الخيّالة كانوا ذاهبين إليها. كان من الغباء الذهاب إلى ذلك المكان. جريت نحو منزلي لكنّه كان يحترق. كان العرب يحبّون أن يحرقوا بيوتنا. هل رأيتهم يحرقون بيوتاً؟

كان دنغ يسألني هذه الأسئلة دائما.

- جريت إلى المدرسة، تابع قائلاً. - كانت عبارة عن مبنى بسيط مشيّد من الإسمنت له سقف متموّج، وبدا لي أنها أكثر أماناً، وكنت أعرف أن المدرسة لن تحترق لأن معلّمنا كان يقول لنا ذلك دائماً، لأن طريقة بنائها تجعلها لا تحترق. فجريت إلى المدرسة واختبأت فيها. بقيت في المدرسة طوال اليوم. واختبأت في الخزانة التي يضعون فيها اللوازم والتجهيزات.

كان يبدو أن الاختباء في الخزانة شيئاً سخيفاً، لأنهم كانوا عادة يبحثون عن الأطفال ليأخذوهم. لكني لم أقل ذلك لدنغ. بل سألته فقط هل جاؤوا يبحثون عن أشخاص في المدرسة.

- نعم جاؤوا! طبعاً جاؤوا. لكنّي كنت مختبئاً في الخزانة، خزانة معدنية. جثمت في الرفّ السفلي ووضعت فوقي كيس سيسال. كنت تحت الرفّ السفلي مغطّى في كيس السيسال، ولم يروني مع أن رجلاً كان قد فتح الخزانة. ظللت فيها لمدة يومين، بينما كانوا يحرقون البلدة.

سألت دنغ كيف تمكّن من البقاء في ذلك الحيز الصغير طوال ذلك الوقت.

- أخجل أن أقول إنّني بلّلت سروالي آنذاك، وخريت تحتي في تلك اللحظة، ولا أزال لا أستطيع أن أفهم لماذا لم يشمّوا رائحتي! لا أزال أشعر بالخجل لأنني خريت في هذا السروال، ومشيت به لعدّة أيّام يا أتشاك. نفس السروال هذا. بقيت في الخزانة طوال يومين. لم أخرج منها ولا مرّة. رأيت النهار يأتي والليل يأتي من ثقب المفتاح في الخزانة. رأيت النهار يأتي ويذهب مرّتين. كانت هناك أصوات خيول والعرب طوال ذلك الوقت. نام الرجال في المدرسة وكان بإمكاني أن أسمعهم.

- ألم يفتحوا الخزانة مرة أخرى؟

- نعم! فتحوها عدة مرات يا أتشاك. لكن في هذا المكان لم تكن فضلاتي عدوّي، وإنما صديقي! ففي كلّ مرّة كانوا يفتحون فيها باب الخزانة كانوا يختنقون من رائحة الفضلات التي خرجت مني! أسعدني ذلك كثيراً. كنت أعاقب أولئك الأوغاد برائحة فضلاتي وقد جعلني ذلك أشعر بالفخر. لقد فتحوا تلك الخزانة عشر مرات، وكانوا في كلّ مرّة يختنقون من الرائحة ويغلقون باب الخزانة بقوة، لذلك كنت في مكان آمن. كانوا يخبطون الباب بأقدامهم في كلّ مرّة. أبناء الحرام الأغبياء. كانوا يظنّون أنّ حيواناً قد نفق فيها.

كنت مندهشاً من الشتائم التي كان دنغ يعرف كيف يقولها.

- ثم غادروا المدرسة. عندما لم أعد أسمعهم، فتحت الباب ببطء. كان جسمي متيبسّاً من الجلوس هكذا ولم يكن لديّ ماء أو طعام. عندما خرجت من الخزانة، لم يبق أحد في المدرسة، لكن بعض الرجال كانوا لا يزالون جالسين خارج المدرسة. غادر معظمهم وبقي بعضهم. كان هناك عدد منهم يمتطون الجمال وبعض الجنود. لا أعرف لماذا كانوا هناك، لكنّهم كانوا يقيمون في بيوتنا التي لم تحترق. كان اثنان يقيمان في بيت جدتي. شعرت بالاشمئزاز عندما رأيتهما يخرجان من بيتها كما لو كان بيتهم. ظللت مختبئاً في المدرسة حتى هبط الليل، ثمّ خرجت منها. لم يكن ذلك صعباً. فقد كنت وحدي وكان الليل حالك الظلمة. وهكذا غادرت بلدتي ورحت أركض وأركض ولم أشعر

بالأمان إلاّ بعد أن ابتعدت كثيراً. جريت حتى الصباح ووصلت إلى قرية رأيت فيها رجلين من الدينكا أخذاني معهما وقدّما لي طعاماً. في البداية كانا خائفين عندما سمعا صوتي. خرجت من بين الأعشاب ورفع أحدهما بندقيّة في وجهي. كان يحمل بندقيّة صغيرة، تسع في راحة يده. كهذا.

وأشار دنغ بإصبعه الصغير النحيف إليّ.

- خاف الرجلان لكنهما رأيا أنني لست سوى صبي صغير. ثمّ شمّا رائحتي. فراحا يصيحان بي ويوبخاني. اعتذرت لهما. ثم أخذاني إلى جدول الماء ودفعاني إليه. ركلاني وطلبا مني أن أبقى فيه حتى أصبح نظيفاً. خلعت ثيابي وفركتها حتى أصبحت فضلاتي جزءاً من النهر.

الشيء المضحك يا مايكل هو أن الرائحة لا تزال تفوح من دنغ - حتّى عندما كان يحكي لي هذه القصّة عن رائحته. كانت تفوح منه حقاً رائحة كريهة جداً، ولا يمكن إزالة هذه الرائحة الكريهة من ملابسه. لكن ينبغي أن أقول إن الرائحة الكريهة كانت تنبعث منّا كلنّا، وكان من شبه المستحيل فصل رائحة عن أخرى.

- سرت مع هذين الرجلين لفترة من الوقت، واصل دنغ. - لم أكن أعرف إلى أين كنّا ذاهبين لكنني أحسست بأنني سأكون أفضل حالاً عندما أكون برفقة رجلين قويين. لكنّنا كنّا نختبئ طول الوقت. كان الرجلان يخافان من أي صوت يسمعانه، وكانا يتحاشيان جميع الناس. سألتهما عن سبب ذلك فقالا إنهما يخافان من العرب والجنود، لكنّهما كانا يهربان من الدينكا أيضاً. كنّا نسير في الليل وعندما كنا نصل إلى قرية مأهولة، كانا يطلبان مني أن أتسلّل إليها وأسرق طعاماً. كنت أزحف إلى كوخ وأسرق بعض الفستق أو اللحم أو أيّ شيء تقع عليه يدي. في إحدى المرات، سرقت عنزة. استدرجتُ العنزة إلى الغابة بثمرة مانجا. كانت فكرة الرجلين. قالا خذ تلك العنزة واستدرجها بثمرة المانجا التي كنت قد سرقتها الليلة الماضية. وقد فعلت ذلك ونجحت. أخذنا العنزة وقتلاها بحجرة وتناولنا قليلاً من لحم العنزة في تلك الليلة واحتفظنا بالباقي. كان الرجلان يجيدان التفكير بمثل هذه الأفكار. كانت تخطر لهما أفكار كثيرة ويعرفان حيلاً كثيرة. كانت شراكتي مع هذين الرجلين ناجحة، حتى وصلنا إلى بلدة استولى عليها المتمرّدون. ابتعد الرجلان عن البلدة على الفور، وعدنا إلى الغابة، حيث صادفنا جندياً من جيش المتمرّدين يبدو أنه كان يقوم بأعمال دورية على حدود البلدة. كان الجندي يشبه الرجلين. بدأ يطرح عليهما أسئلة. ماذا تفعلان هنا؟ لماذا لستما في كابويتا؟ من هو هذا الصبي؟ أسئلة من هذا القبيل. أظن أن الجندي كان

يعرف هذين الرجلين. طلب الجندي أن ينتظر الرجلان هناك ريثما يذهب ويحضر رفاقه. لكن ما إن استدار الجندي ليعود إلى المعسكر حتى طعنه أحد الرجلين بسكين في ظهره. لقد غرز سكينه هنا.

وأشار دنغ إلى وسط ظهري.

- دخلت بسهولة كبيرة. فوجئت. وسقط الجندي إلى الأمام بصمت وكانت تلك نهايته. ثمّ رحنا نجري. جرينا واختبأنا في تلك الليلة. ثم قلت في نفسي ربما كان هذان الرجلان ينتميان إلى المتمردين ثم هربا. وأنت تعرف أنه لا يُسمح لأحد بالانشقاق عن جيش المتمردين. فإذا هربت فقد يقتلك أي شخص. هل سمعت بهذا؟

لا لم أسمع.

- عندها قرّرت أن أهرب من هذين الرجلين. لكني كنت متأكّداً من أن شيئاً مشابهاً قد يحدث لي. فقد كانا يخشيان أن يقتلهما المتمردون لأنهما هربا، وكنت أخشى أن يقتلني هذان الرجلان إذا تركتهما. كان يبدو أنهما يجيدان قتل الناس. كان ذلك أمراً غريباً جداً يا أتشاك. كنت مشوّشاً جداً. هل أنت مشوّش؟

قلت إنني كنت مشوّشاً أيضاً.

- وهكذا قطعنا مسافة ثم رحت أترقب فرصة لأهرب منهما. وبعد ثمانية أيام، كنّا نسير في الطريق ورأيت شاحنة. جرى الرجلان ليختبأ بين الأشجار وينتظرا حتى تمر الشاحنة. عندما اقتربت الشاحنة رأيت أن على متنها متمردين. فأوحى لي ذلك بفكرة. قفزت إلى الطريق ورحت أركض وراء الشاحنة. كنت أعرف أن الرجلين لن يطلقا عليّ النار لأن المتمردين سيكتشفون مكانهما، فجريت وراء الشاحنة ورحت أصرخ لأن تتوقّف. توقّفت الشاحنة وصعدت إليها. جلست في مؤخرة الشاحنة مع المتمردين. كان الأمر مخيفاً في البداية لأنهم كانوا مسلحين. كانوا مرهقين وبدا أنه لم يرق لهم وجودي. لبثت صامتاً، فأعجبهم ذلك. بقيت معهم حتى وصلنا إلى قرية أخرى، وسمحوا لي أن أبقى معهم. أصبحتُ واحداً منهم يا أتشاك! فقد أقمت في معسكرهم لأسابيع طويلة، وأقمت مع رجل يدعى مالك كوش مالك، أحد قادة جيش المتمردين. كان رجلاً هاماً، له ندبة كبيرة هنا.

ورسم دنغ خطّاً بإصبعه من صدغي حتى أذني.

- قال إنها بسبب قنبلة. أصبح بمثابة أبي. قال إني سأصبح جندياً قريباً وأنّه سيدرّبني. أصبحت مساعداً له. فبدأت أجلب له الماء، وأنظّف نظاراته الشمسية وأفتح مذياعه وأغلقه. كان يحبّ أن يطلب مني أن أفتح له المذياع بدلاً عنه. وكنّا ننصت إلى إذاعة المتمرّدين معاً، وكنّا أحياناً نستمع إلى نشرة الأخبار العالمية التي تبثها الإذاعة البريطانية. كان أباً جيّداً بالنسبة لي، وكنت أتناول نفس الطعام الذي كان يتناوله هو، القائد. خيّل إليّ أنني سأظل ابنه دائماً يا أتشاك. كنت سعيداً لأن أعيش معه إلى أطول فترة ممكنة.

راقت لي فكرة المكوث في مكان واحد في ذلك اليوم.

- وفي أحد الأيام، جاء الجيش الحكومي. لم يكن مالك في البيت عندما سمعت صوت الدبابة تقترب. انتشر جميع المتمردين وتحصنوا في مواقعهم. ثم انفجرت الدبابة بين الأشجار. انفجر كلّ شيء فأطلقت ساقاي للريح. ركضت وحدي حتى وصلت إلى شاحنة محترقة. كانت الشاحنة الوحيدة التي احترقت بكاملها. اختبأت في تلك الشاحنة تلك الليلة حتى لم أعد أسمع صوت إطلاق نيران. وفي الصباح لم أر أحداً. فقد ذهب مالك، وذهب المتمردون وذهب جنود الجيش الحكومي. سرت في الاتجاه الذي ظننت أن المتمردين ذهبوا منه. وأخيراً وصلت إلى قرية لم تتعرض لأي هجوم ورأتني امرأة لطيفة جداً كانت في طريقها إلى وو. فركبت الحافلة معها. كنت أنوي الذهاب إلى وو لأعيش فيها مع هذه المرأة. قالت إن الوضع هناك آمن، وأنه يمكنني أن أكون ابنها. ركبت الحافلة وسارت بنا لفترة من الوقت وغططت في النوم. ثمّ استيقظت على صوت جلبة. توقّفت الحافلة. نظرت من النافذة ورأيت المتمردين. كان هناك عشرة منهم، معهم أسلحة، وكانوا يصرخون في السائق. أنزلوا جميع الركاب من الحافلة. وسألوا كلّ راكب إلى أين ذاهب. ثمّ أخذوا -

- من أين حصلت على هذا القميص؟

رجع دوت إلى نهاية الرتل بجانبنا، وأبدى اهتماماً بدنغ. كان مسروراً بقميص دنغ.

- أعطاني إياه أبي، قال دنغ. - حصل عليه من وو.

- هل تعرف لأي شيء يُلبس هذا القميص؟

- لا، قال دنغ.

كان دنغ يعرف أنّ دوت يسخر من قميصه.

- قال أبي إنه قميص من نوعية عالية. ابتسم دوت ووضع ذراعه حول كتف دنغ.

- إنه قميص يسمونه قميص توكسيدو يا بني. يلبسونه عندما يتزوّج أحدهم. إنك ترتدي قميص رجل على وشك أن يتزوج.

ضحك دوت مصدراً شخيراً. - لكني لم أر قط قميصاً وردي اللون، قال، وضحك بصوت عال.

لم يضحك دنغ. كان قول ذلك قاسياً من جانب دوت، وعندما أدرك ذلك، حاول أن يصلح الأمر. - يا لها من مجموعة جيّدة لدينا هنا! قال لنا كلّنا. - أنتم حقاً مجموعة استثنائية. الآن واصلوا السير. يجب أن نمشي حتى الظلام. سنصل إلى قرية بحلول الظلام وسنتناول فيها قليلاً من الطعام.

نسيت آنذاك أنّ دنغ كان يحكي لي قصّته، ونسيت أن أطلب منه أن يكملها. فلكلّ صبي منّا قصّة كهذه، فيها أماكن كثيرة كانوا يظنون إنّهم سيمكثون فيها، وأشخاص كثيرون ساعدوهم لكنهم سرعان ما اختفوا، والكثير من إطلاق النار والمعارك والخيانات. لكنّي لم أسمع قط نهاية قصّة دنغ، وكنت أتساءل دائماً عنها.

كانت الأرض التي عبرناها أرضاً غريبة. فقد رأينا حقولاً أُحرقت، وماعزاً نُزعت أحشاؤها وقُطعت رؤوسها. ورأينا مسارات الخيول والشاحنات، وأغلفة الرصاص. لم أمش في حياتي مسافة طويلة كهذه في يوم واحد. فلم نتوقّف عن السير منذ الصباح ولم نأكل شيئاً. كان علينا أن نتقاسم كمية الماء المسموح لكل منّا بشربها من صفيحة واحدة كان دوت قد جلبها وكنّا نتناوب على حملها.

سرنا طوال اليوم حتى وصلنا إلى قرية تعجّ بحركة لم أرها من قبل. كانت قرية مثالية. في كل مكان كنت ترى أشخاصاً يتحرّكون كما كنّا نتحرّك في مايال باي. كانت النساء يحملن الأغصان والماء على رؤوسهن، والرجال يجلسون في السوق الصغير يلعبون الدومينو ويحتسون النبيذ. وبدا أن القرية لم تشهد أي معارك. تبعت المجموعة إلى مركز البلدة.

- اجلسوا، كلكّم، قال دوت. فجلسنا. - لا يتحرك أحد منكم من هنا. لا تنهضوا. لا تلقوا بالاً لأي شخص. لا تتحرّكوا.

ذهب دوت إلى القرية. كانت النساء يسرن بجانبنا، يتباطأن في سيرهن لحظات ثمّ يتابعن طريقهن. وكان يتبعهن كلب يتشمّم طريقه إلى المكان الذي كنا نجلس فيه. كان له فراء قصير ومرقّط، لونه غريب، يكاد يكون أزرق في بعض أجزاء جسمه.

- أيها الكلب الأزرق! قال له دنغ فجاء إليه الكلب، ولعق وجهه، ثمّ دفن أنفه بين ساقيْ دنغ. — أيها الكلب الأزرق! لقد أحبّنا الكلب الأزرق يا أتشاك. انظر إلى الكلب الأزرق والبقع الغريبة في جسمه.

فرك دنغ الكلب الذي كان يبدو أن لونه أزرق بالفعل، خلف أذنيه، فاستلقى الكلب الأزرق على ظهره وأخذ دنغ يدلك بطنه بقوة. بدأت سيقان الكلب تتمايل يميناً ويساراً. كان من الغريب أن نتوقّف في قرية لم أرها من قبل لنرتاح فيها، ونداعب كلباً أزرق مبتهجاً.

اقترب منّا عدد من الصبية الأكبر سنّاً. وعلى الفور طرد أضخم صبي فيهم الكلب ووقف أمام دنغ وأمامي، واقترب منّا كثيراً إلى حدّ أنه كان عليّ أن أنظر إلى الأعلى لأرى الطرف السفلي من وجهه العريض. كان ينتعل حذاء أبيض لامعاً. بدا مثل غيمتين كأنهما لم تمسّا الأرض قط.

- إلى أين أنتم ذاهبون؟ سأل.

- إلى بيلبام، قلت.

- بيلبام؟ ما هي بيلبام؟

أدركت أنني لم أكن أعرف. - إنها بلدة كبيرة تبعد عدة أيام، خمّنت. لم تكن لديّ فكرة عن حجمها أو عدد الأيام التي يجب أن نسيرها كي نصل إليها، لكنّي أردت أن يكون سيرنا محدداً ومهمّاً.

- لماذا؟ سأل الفتى ذو الحذاء الذي يشبه الغيمة.

- لقد أُحرقت قرانا، قال دنغ.

لم أشأ أن أحكي لهذا الفتى ما الذي حدث لمايال باي. فعندما رأيت هذه القرية التي لم تجر فيها أيّ معارك، شعرت بالخجل ثانية لأنّنا لم نقاتل جيداً الرجال الذين هاجمونا، ولأنّنا تركنا بيوتنا تحترق بينما ظلت هذه القرية سليمة. لم

يكن ذلك نهاية العالم. قلت لنفسي إن العرب هاجموا البلدات والقرى التي يوجد فيها أكثر الرجال ضعفاً.

- احترقت؟ من الذي أحرقها؟ سأل الفتى. كان مرتاباً.

- البَقَّارَة، أجابه دنغ.

- البَقَّارَة؟ لمَ لم تحاربوهم؟

- كانت لديهم أسلحة جديدة، قال دنغ. - أسلحة سريعة. كان بإمكانهم أن يقتلوا عشرة رجال في ثوان.

ضحك الفتى.

- لا يمكنكم البقاء هنا، قال صبي آخر.

- إننا لا نزمع البقاء هنا، قلت.

- جيّد. يجب أن تواصلوا سيركم. أنتم تسيرون فقط يا أولاد. يبدو أنكم تحملون أمراضاً. هل أنتم مصابون بالملاريا؟

عند ذاك، لم أرغب في أن أسمع شيئاً آخر منهم. فأدرت لهم ظهري. وما إن فعلت ذلك، حتى شعرت بركلة في ظهري. كان الفتى ذو الحذاء الأبيض الذي يشبه الغيمة هو الذي ركلني.

- لا نريد شحاذين هنا. أتسمع؟ ألا توجد لديك عائلة؟

لم أردّ عليه، لكن دنغ نهض الآن ووقف على قدميه. وصل رأسه إلى صدر الفتى ذي الحذاء الذي يشبه الغيمة. بجانب هذا الفتى الأكبر سناً، الجيد التغذية، بدا دنغ مثل حشرة.

- يا أولاد!

علا صوت دوت فوقنا. تفرّق الصبية الذين كانوا يضايقوننا، وظهر دوت من السوق مع رجل مسنّ يرتدي ثوباً بلون الدم. كان الرجل الجديد يحمل عصا ويمشي بخطوات سريعة وآثقة. توقّف عند طرف دائرة الصبية، ، مجفلاً. أطلق تنهيدة مضطربة طويلة.

- قلت لكم إن عددنا كبير، قال دوت.

- أعرف. أعرف. هذا إذن ما يجري؟ الصبية ذاهبون إلى بيلبام؟

- هذا أملنا، يا عمّ.

تنهّد شيخ القرية مرة أخرى ومسح بعينيه مجموعتنا، ثم ابتسم وهزّ رأسه. ثم أمسك عصاه بكلتا يديه وأخذ ينقرها بقوة على الأرض ثم عاد إلى القرية.

- هذا جيّد يا أولاد. فقد وافق شيخ القرية على أن يقدّم لنا الطعام. أرجو أن تجلسوا في مكانكم، ولا تطلبوا شيئاً من أحد. لقد طلب شيخ القرية من بعض النساء أن يحضّرن لنا المنيهوت.

بالفعل، دبّت بسرعة حركة كبيرة في الأكواخ القريبة من مجموعتنا. وانهمكت النساء والفتيات في تحضير الطعام. وعندما انتهين، قُدِّم لنا الطعام، ووضعت أجزاء من الطعام في أيدينا، فلم تكن هناك صحون تكفي لعشرات الصبية وأصرّ دوت على أنها غير ضرورية. بعد أن أكلنا وقدّم شيخ القرية لدوت كيسين مليئين بالفستق وصفيحتيْ ماء، عدنا نسير على الدرب، لأنهم لم يسمحوا لنا أن نبقى في القرية.

كنت أشعر بوهن وأن ساقيَّ ثقيلتان في ذلك اليوم، أما الآن فقد شعرت بالقوة، وأن معنوياتي أصبحت عالية. كنت أريد أن أرى ما الذي سيحدث بعد ذلك. ومع أنني كنت قلقاً على عائلتي، فقد قلت في نفسي إنني إذا كنت في مأمن، فإنهم سيكونون في مأمن، وإلى أن يلتئم شملنا، فإني سأعيش نوعاً من المغامرة. فقد رأيت أشياء بُهرت من رؤيتها. فقد سمعت عن أنهار عريضة لا تستطيع الطيور أن تعبرها، وأنها ستسقط في منتصف طريقها وستختفي في عمق المياه العميقة. وكنت قد سمعت عن أرض ترتفع كثيراً كما لو كانت الأرض تميل إلى أحد جانبيها، أرض شُكّلت مثل معالم شخص نائم. كنت أريد أن أرى هذه الأشياء ثمّ أعود إلى والداي، لأحكي لهما عن رحلتي. وعندما تخيّلت أنني أفعل ذلك، اشتدّت الخيوط في داخلي مرة أخرى، وكان عليّ أن تنفّس بقوة حتى أرخيها.

مشينا حتى الغروب، ومرّرنا بنساء ورجال يمشون على طول الدرب، وعندما هبط الليل أصبحنا وحدنا ومُحيَ الطريق.

- سيروا بشكل مستقيم، قال دوت. - الدرب جديد تماماً.

كنت قد سرت في الظلام مرات كثيرة قبل الآن. كان بإمكاني أن أسير تحت ضوء قمر أو في أحلك الليالي سواداً. لكن السير بعيداً عن البيت، وبلا درب، كان أمراً في غاية الصعوبة والإرهاق. كان عليّ أن أثبّت عينيَّ على ظهر الصبي الذي يسير أمامي، وأن أحافظ على سرعة خطواتي، لأن السير ببطء، حتى للحظات قليلة، يعني أنك ستضلّ طريقك وتخرج عن المجموعة. فإذا تخلّف صبي عن السرعة التي تسير فيها المجموعة في الليل، أو خرج عن الرتل ليتبوّل، فعليه أن يصيح ليجد الرتل مرة أخرى. وكان الصبية الذين يفعلون يوبخّون ويُضربون ويُركلون أحياناً، لأن إحداث أي ضجة قد تجلب الانتباه إلى المجموعة، وهذا شيء غير مستحب عندما تعود الحيوانات للاستيلاء على الغابة في الليل.

سار دنغ ورائي، وأصرّ على أن يمسك بقميصي. كان الصبية الأصغر يفضّلون عمل ذلك في تلك الليلة وفي الليالي التي أعقبتها - الإمساك بقميص الصبي أمامك. وبالطبع كنا، أنا ودنغ، من بين الصبية الصغار. وكان بعض الصبية ينزعون أحد أكمام قمصانهم لكي يمسك الصبية الذين يسيرون وراءهم به كمقود لهم. كان العديد من الصبية يفعلون ذلك مع إخوتهم الأصغر سناً. فقد كان يوجد عدد من الأشقاء في المجموعة، وعندما كنت أسمع أسماءهم في الصباح، عند إعلان التفقد، كان ينتابني شعور بالحسد، لأنني لا أعرف شيئاً عن مصير إخوتي: هل هم أحياء أم أموات أم أنهم يقبعون في قعر بئر.

في تلك الليلة، توقّفنا في بقعة خالية من الأشجار والأعشاب، وأُرسل بعض الصبية إلى الغابة لإحضار حطب لإشعاله. لكن الصبية الذين اختارهم دوت رفضوا الذهاب إلى الغابة لأنها موحشة تمتلئ بأصوات الحيوانات وحفيف الأعشاب.

- لن أذهب، قال صبي ذو بنية قوية.

- ماذا؟ صاح دوت.

كان من الواضح أنّه كان متعباً وجائعاً.

- ألا تريد أن نشعل ناراً؟ سأله دوت.

- لا، قال الصبي.

- لا؟

- لا. لا تهمني أيّ نار لعينة.

كانت تلك المرة الأولى التي يضرب فيها دوت صبياً. فقد ضربه على وجهه بظاهر قبضته فوقع الصبي على الأرض وهو ينشج.

- أنت، أنت، أنت! قال دوت متلعثماً. بدا مصدوماً مثل الصبي الذي ألقاه أرضاً. لكنه لم يتراجع. - الآن اذهب. اذهب!

اختار دوت ثلاثة فتيان آخرين، وأُضرمت النار بسرعة وجلسنا حولها. وسرعان ما غطّ معظمنا في النوم، أما أنا ودنغ فقد بقينا مستيقظين، نحدّق في اللهب.

- لم أكن أريد أن أضرب ذلك الصبي، قال دوت.

أدركت أنا ودنغ بأنّه كان يكلّمنا. فقد كنّا الصبيين الوحيدين اللذين كنا لا نزال مستيقظين. لم نقل شيئاً، لأنني لم أستطع أن أفكّر بشيء مناسب يمكنني أن أقوله. وبدلاً من ذلك، سألتُ دوت ماذا قال الرجل العجوز - بأنّ الخيّالة هبطوا إلى مستوى الحيوانات. لم يوضح لي أحد بعد لماذا هوجمت مايال باي أصلاً. قلت لدوت ما قاله الرجل، لقد سقط البَقَّارَة إلى مستوى الحيوانات، وقد سكنتهم أرواح وأصبحوا الآن رجال الأسد.

حدّق دوت بي، عيناه ترمشان، يبتسم بصعوبة.

- هل قال ذلك حقاً؟ أومأتُ.

- وهل صدّقت ذلك؟ هززت كتفي.

- أتشاك، قال، ثمّ حدّق في النار للحظة طويلة.

- لا أقصد أي إساءة لهذا الرجل. لكن هؤلاء ليسوا رجال الأسد. إنهم عرب عاديون. سأحكي لكما قصّة كيف حدث ذلك، مع أنكما لن تفهماها كلّها. هل تريدان أن تسمعاها؟

هززنا رأسينا، أنا ودنغ.

- بما أنني معلّم فإني أفكّر بهذه الطريقة. أراكما جالسين هكذا تنصتان، وأريد أن أخبركما القصة. هل أنتما متأكدان من أنكما تريدان سماعها؟

أصررت أنا ودنغ على أنّنا نريد أن نسمعها.

- حسناً إذن. من أين يجب أن أبدأ؟ حسناً. كان هناك رجل اسمه سوار الذهب. كان وزير الدفاع في الحكومة في الخرطوم.

قاطعه دنغ. - ما هي الخرطوم؟

تنهّد دوت. - حقاً؟ ألا تعرف ذلك؟ إنها المكان الذي توجد فيه الحكومة، يا دنغ. حكومة البلد المركزية. السودان كلّها. ألا تعرف ذلك؟

ألحّ دنغ. - لكن الزعيم هو رئيس البلد.

- إنه زعيم قريتك، يا دنغ. الآن لست متأكداً من أنك ستفهم هذا.

حثثته على أن يحاول، وهكذا أمضى دوت بعض الوقت ليشرح تركيبة الحكومة والقبائل وزعماء القبائل والبرلمان، والعرب الذين يحكمون في الخرطوم.

- هل تعرفان شيئاً عن الأنيانيا؟ سمّ الأفعى. إنهم الجماعة المتمرّدة التي جاءت قبل المتمردين. ربما كان والداكما عضوين في هذه المجموعة. جميع آبائكم كانوا أعضاء فيها.

هززنا رأسينا، أنا ودنغ. كنت أعرف أنّ أبي كان ضابطاً في الأنيانيا.

- حسناً، عندنا الآن جيش التحرير الشعبي السوداني. لديه نفس الأهداف تقريباً. بعضها جديد. هل تتذكّران الهجمات الأولى التي شنتها طائرات الهيلوكوبتر؟

قلنا إنّنا نتذكّر.

- حسناً، كانت تلك الطائرات تابعة للحكومة. جاءت رداً على أعمال رجل يدعى كيروبينو بول. كان في الجيش السوداني. هل تتذكّران عندما كان جنود الجيش من الدينكا والعرب أيضاً؟ أتشاك، أعرف أنك تتذكّر ذلك. كان يوجد عدد كبير منهم في مايال باي.

قلت إنّني أتذكّر.

- كان كيروبنو ضابطاً برتبة رائد مسؤول عن الكتيبة ١٠٥ المتمركزة في بلدة كبيرة تدعى بور. وتقع بور في جنوب السودان، وتسمى المنطقة أعالي النيل. والناس في تلك المنطقة مثلكما، لكن توجد بعض الاختلافات. كلّنا دينكا، لكن عاداتهم تختلف. إذ يضع أبناء الكثير من العشائر ندوباً على وجوههم عندما يبلغون مرحلة الرجولة. لعلكما سمعتما بذلك. وهناك بلدة أخرى يدخّن فيها جميع الرجال الغليون. لدينا كلّنا عادات مختلفة لكننا جميعاً دينكا. أترى ذلك؟ إنها أرض واسعة، يا أولاد، أكبر مما يمكنكما تصوّره، ثمّ أكبر مرّتين من ذلك.

أومأنا أنا ودنغ.

- جيّد. الآن، أمضى كيروبنو ورجاله فترة من الزمن في بور، وكانوا سعيدين هناك. فقد كان منح سلطة كهذه إلى سوداني جنوبي جزءاً من اتّفاقية السلام مع الأنيانيا. كان كيروبنو ورجاله يقيمون في بور مع أهاليهم، لأن معظمهم أخذوا عائلاتهم معهم إلى تلك البلدة وكانوا سعداء هناك. لم يكن يتعين عليهم أن يبذلوا جهداً كبيراً. لقد رأيت هؤلاء الجنود. إنهم لا يحبّون التنقل كثيراً. وفي أحد الأيام، انتشرت إشاعات بأنّه سيتم نقلهم إلى الشمال، لكن ذلك لم يرضهم كثيراً، فلم يرغبوا في الابتعاد عن عائلاتهم. وما زاد الأمر سوءاً هو أنّ الخرطوم لم تكن تدفع لهم ما وعدوا به. فساءت الأمور، وهاجم أخيراً الموالون للخرطوم، عندما عرفوا أنّ كيروبنو يخطّط للقيام بتمرّد، الكتيبة ١٠٥. فأخذ كيروبنو بول الكتيبة كلها وهرب إلى إثيوبيا. إلى هناك سنذهب، يا أولاد. بيلبام هي في إثيوبيا. هل تعرفان ذلك؟

أوقفنا القصّة هنا. فلم نسمع أنا ودنغ كلمة إثيوبيا من قبل. لم نكن نعرف ما هي إثيوبيا.

- إنها بلد كما أن السودان بلد، قال دوت.

- إذا كانت مثلنا، فلماذا هي في مكان آخر؟ سأل دنغ. كان دوت رجلاً يتحلّى بالصبر.

- في إثيوبيا، تابع قائلاً، -انضمّ إلى كيروبنو رجل يدعى جون غارانغ، عقيد في الجيش السوداني. كان قد هرب أيضاً. ثمّ هربت الكتيبة ١٠٤ المتمركزة في أيود إلى إثيوبيا أيضاً. في ذلك الوقت، تحولت إلى حركة. كان هناك مئات الجنود المدرّبين جيداً، معظمهم من الدينكا، وهكذا تشكّل جيش المتمرّدين الجديد. إنه جيش التحرير الشعبي السوداني. وهكذا بدأت هذه المرحلة من الحرب الأهلية. هل فهمتما هذه الأشياء الآن؟

أومأنا.

- عندما بدأ جون غارانغ حركة التمرّد، استشاط الجنرال ذهب غضباً، وكذلك الحكومة في الخرطوم. فأرادوا سحق المتمردين. لكن عدد المتمردين أصبح كبيراً، وكانوا مسلّحين جيداً، وأصبح لديهم هدف يقاتلون في سبيله. فأصبحوا خطرين على الحكومة، وجعلت مساعدة إثيوبيا لهم تهديداً أكبر.

- إذاً توجد لدى المتمردين أسلحة؟ سألته.

- أسلحة! طبعاً. عندنا أسلحة ومدفعية ومنصات صواريخ يا أتشاك.

ضحك دنغ وابتسمت أنا وأحسست بالفخر. أقنعت نفسي الآن بأن الرجال الذين ضربوا أبي يختلفون عن هؤلاء المتمردين، أو لعل المتمردين قد تعلّموا أساليب أفضل.

- استشاطت الحكومة غضباً بسبب وجود المتمرّدين من جديد، تابع دوت، فأرسلت طائرات الهيلوكوبتر، وأحرقت القرى عقاباً لدعمها المتمردين. من السهل جداً قتل بلدة، أليس كذلك؟ أصعب بكثير من قتل جيش. لذلك، عندما ذهب الرجال ليتدربوا في إثيوبيا، أخذ جيش التحرير ينمو وبدأ يحقق بعض الانتصارات في بعض المعارك، حتى أنه بدأ يحتلّ بعض الأرضي. بدأت الأوضاع تبدو سيئة في نظر الحكومة. أصبحت تواجه مشكلة. فأصبحت بحاجة إلى مزيد من الجنود، وإلى مزيد من الأسلحة. لكن إقامة جيش يكلف كثيراً. إذ يتعين على الحكومة أن تدفع رواتب لأفراد الجيش، وأن توفر لهم الطعام، وتزوّدهم بالأسلحة. فاتبع الجنرال ذهب استراتيجية كانت قد اتبعتها عدة حكومات قبله: فراح يسلّح جهات أخرى للقيام بمهام الجيش. فزوّد عشرات الآلاف من الرجال العرب، من بينهم البَقَّارَة، بأسلحة آليّة. كان عدد كبير منهم يعيشون في الجانب الآخر من بحر الغزال. وآلاف أخرى من دارفور. لقد شاهدت أولئك الرجال مع أسلحتهم التي تطلق مائة طلقة دفعة واحدة، ولم يكن باستطاعتنا الدفاع عن أنفسنا أمام هذه الأسلحة.

- لماذا لم تدفع الحكومة رواتب لهؤلاء الرجال؟ سألته.

- حسناً، هذا سؤال وجيه. فقد كان هؤلاء البَقَّارَة يقاتلون الدينكا منذ زمن بعيد من أجل المراعي وأشياء أخرى. أظن أنك تعرف ذلك. وساد سلام نسبي لعدّة سنوات بين القبائل الجنوبية والقبائل العربية، لكن الإخلال بهذا السلام كان فكرة الجنرال ذهب، الذي أخذ يبثّ الكراهية في نفوس البَقَّارَة. فعندما أعطاهم هذه الأسلحة، أدرك البَقَّارَة أنهم أصبحوا متفوقين كثيراً على الدينكا.

فقد أصبح لديهم بنادق كلاشنكوف وكان عندنا رماح وعصي ودروع جلدية. لقد أخلّ ذلك بالتوازن الذي كنا نعيش فيه منذ سنوات طويلة. لكن كيف كان على الحكومة أن تدفع رواتب لجميع هؤلاء الرجال؟ كان الأمر بسيطاً. فقد قالوا للخيّالة إنه لقاء خدماتهم، يحق لهم سلب كلّ ما يريدونه. وقال لهم الجنرال ذهب بأنهم يستطيعون أن يهاجموا أيّ قرية من قرى الدينكا على امتداد السكة الحديدية، وأن يأخذوا منها ما يشاؤون - مواشي، طعام، أيّ شيء من الأسواق، بل حتى الناس. كانت هذه بداية عودة ظهور الرق. لقد حدث ذلك في عام ١٩٨٣.

لم نكن نعرف مفهوم السنوات.

- منذ بضع مواسم مضى، قال دوت. - هل تتذكّر متى بدأ ذلك؟

أومأنا.

- كانوا يغيرون على قرية ويحاصرونها في الليل. وعندما تستيقظ أهل القرية، كانوا يهاجمونهم من جميع الجهات ويقتلون وينهبون كما يحلوا لهم، ويستولون على المواشي، ويقتلون الحيوانات التي يتركونها. وكان ينجم عن أي مقاومة أعمال انتقامية. ويُقتل الرجال أمام الجميع. وتُغتصب النساء، وتُحرق البيوت، وتُسمّم الآبار، ويُخطف الأطفال. أعتقد أنكما رأيتما كلّ ذلك.

لقد رأينا.

- كان ذلك شيئاً رائعاً بالنسبة للبَقَّارَة لأن مزارعهم كانت تعاني من الجفاف. فقد نفقت مواشيهم وكانت محاصيلهم سيئة. لذلك كانوا يسرقون مواشينا ويبيعونها في دارفور، ثمّ تباع مرة أخرى في الخرطوم. كانت الأرباح التي يجنونها هائلة. وهكذا ازدادت أعداد المواشي في الشمال كثيراً، فأصبح هناك فائض، وانخفضت أسعار لحوم البقر. هذه كلّها أبقار الدينكا، مهورنا وإرثنا، قدر رجالنا. لقد ساهمت سرقة الحيوانات والطعام من هذه القرى في حلّ جزء كبير من مشاكل البَقَّارَة، كما فعل استعباد شعبنا. هل تعرفان لماذا؟

لم نكن نعرف.

- بعد أن يسرقوا حيواناتنا، من يرعاها؟ أها. هذا أحد الأسباب الذي جعلهم يسرقون نساءنا وأولادنا. إننا نعتني بقطعانهم لكي يتمكنوا من مواصلة مهاجمة قرانا. هل يمكنكما أن تتخيّلا ذلك؟ إنه شيء قبيح. إن البَقَّارَة ليسوا أناساً سيّئين بطبعهم. معظمهم مثلنا، رعاة بقر. والبَقَّارَة تعني بالعربية رعاة

البقر، ونحن نستخدمها للإشارة إلى الذين يعملون في رعي الأبقار- الرزيقات في دارفور، والمسيرية في كردفان. جميعهم من المسلمين السنّة. إنكما تعرفان المسلمين، أليس كذلك؟

تذكّرت صادق عزيز. لم أتذكّر صادق منذ أن رأيته آخر مرّة.

- لقد أُحرق المسجد في قريتنا، قلت.

- معظم أفراد الميليشيا شبان اعتادوا على الإشراف على الأبقار وهي تتحرك وترعى. وتعني كلمة المرحلّين في لغتهم «المسافرين» - وهكذا هم، رجال يمتطون الخيل ويعرفون الأرض وقد اعتادوا على حمل السلاح لحماية أنفسهم ومواشيهم من هجوم الحيوانات عليها. لكن بعد فترة قصيرة من اندلاع الحرب، أصبح المرحلّون نوعاً من ميليشيا، مدجّجين بالسلاح ولم يعودوا يرعون المواشي، وإنما أصبحوا يهاجمون القرى.

- لكن لماذا لم نحصل نحن على أسلحة أيضاً؟ سأل دنغ.

- مِنْ من؟ من العرب؟ من الخرطوم؟

أطرق دنغ رأسه.

- لدينا بعض الأسلحة الآن يا دنغ، نعم. لكن الأمر لم يكن سهلاً. لقد استغرق ذلك وقتاً طويلاً. عندنا الأسلحة التي أخذتها معها الكتيبتان ١٠٤ و ١٠٥ عندما غادرتا السودان، وتوجد لدينا الأسلحة التي قدّمها لنا الأثيوبيون.

أذكى دوت النار ووضع بعض حبات الفستق في فمه.

- لكن الرجال في مايال باي يرتدون بدلات رسمية أيضاً، قال دنغ.

- من هم؟

- الجيش الحكومي. بدأت الخرطوم تتكاسل. فقد أصبحت ترسل الآن الجيش مع المرحلّين. لا يهم. الجميع يذهبون الآن. أيّ أحد. إن استراتيجيتها تتمثل في إرسال أي شيء للقضاء على الدينكا. هل سمعت المثل الذي يقول: جفّف البركة حتى تصاد السمك؟ إنهم يجفّفون البركة التي قد يولد فيها المتمردون أو التي يجدون فيها دعماً. إنهم يدّمرون أراضي الدينكا حتى لا يتمكن المتمردون من الظهور في هذه المنطقة. وعندما يهاجم المرحلّون،

يشردّون الناس، وعندما يذهب هؤلاء الناس، عندما يترك الدينكا مثلنا بيوتهم وقراهم، فإنهم سينتقلون إليها. وهكذا فإنهم يربحون على عدة أصعدة. فلديهم مواشينا، ولديهم أرضنا، ولديهم شعبنا الذي يرعى الماشية التي سلبوها منّا. لقد قضوا على عالمنا. نجوب أنحاء البلد، ونبتعد عن مصادر رزقنا وعيشنا، وعن مزارعنا وبيوتنا ومستشفياتنا. إن الخرطوم تريد أن تدمر أرض الدينكا لتصبح غير صالحة للسكن، حتى نصبح بحاجة إليهم لاستعادة النظام، وحتى نصبح بحاجة إليهم من أجل كلّ شيء.

- إذاً هذا هو الـ ماذا، قلت.

نظر دوت إليّ طويلاً، ثمّ عاد وأذكى النار.

- ربّما، يا أتشاك. ربما كان هو. لا أعرف. لا أعرف ما هو الـ ماذا.

بدأنا نغفو في المكان الذي نجلس فيه.

- لقد جعلتكما تشعران بالنعاس، قال دوت. - كمعلّم فأنا معتاد على ذلك.

عندما استيقظنا، كان عدد مجموعتنا قد ازداد. فقد كان عددنا في الليلة الماضية أكثر من ثلاثين صبياً، أما الآن فقد أصبح أربعة وأربعين. فخلال سيرنا في النهار وتوقفنا في تلك الليلة، ارتفع العدد إلى واحد وستّين. وجلب الأسبوع التالي مزيداً من الصبية، حتى أصبح عددنا يناهز المئتين. وكان الصبية ينضمون إلينا من البلدات والقرى التي كنّا نمرّ بها، أو يأتون من الغابة في الليل يلهثون من الركض. كانوا يأتون في مجموعات أو وحدهم وينضمون إلى مجموعتنا. وكلما ازداد عددنا، كان دوت يفتح الورقة الخضراء ويدوّن فيها أسماء الصبية الجدد، ثم يطويها ويعيدها إلى جيبه. كان يعرف اسم كلّ صبي.

اعتدت على المشي، وعلى الألم في ساقي ومفاصل ركبتي، واعتدت على الألم أسفل بطني وفي كليتيّ، وعلى نزع الأشواك من قدمي. وفي تلك الأيام الأولى، لم يكن العثور على الطعام صعباً. فكلما مررنا بجانب قرية كلّ يوم كانوا يقدمون لنا كميات تكفينا من الفستق والبذور والحبوب. لكن ذلك بدأ يزداد صعوبة عندما بدأت أعداد مجموعتنا تزداد. وقد ازداد كثيراً يا مايكل! فقد كان ينضم إلينا كنا المزيد من الصبية، وأحياناً فتيات، ونواصل سيرنا كلّ يوم. وفي أحيان كثيرة، بينما كنّا نتناول الطعام في قرية ما، كانت تجري مفاوضات بين دوت وبين شيوخ القرية، وبعد أن ننهي طعامنا ونعود إلى سيرنا، يصبح صبية تلك القرية جزءاً من مجموعتنا. كان لا يزال لدى بعض

هؤلاء الفتيان والفتيات آباء، وكان هؤلاء الآباء يرسلون أطفالهم معنا في أحيان كثيرة. في ذلك الوقت، لم نكن ندرك تماماً ما الذي يجعلهم يفعلون ذلك، ما الذي يجعل الآباء يرسلون أطفالهم بمحض إرادتهم في رحلة يسيرون فيها بأقدام حافية إلى المجهول، لكن ذلك كان يحدث، ويكون الصبية الذين ترسلهم عائلاتهم مجهزين بشكل أفضل من بعضنا الذين اضطروا إلى الانضمام إلى المجموعة لأنه لم تكن لديهم خيارات أخرى. فقد كان هؤلاء الفتيان والفتيات يزودّون بملابس إضافية، ويحملون أكياساً مليئة بالطعام، وفي بعض الأحيان، بأحذية، بل حتى جوارب. لكن سرعان ما يتلاشى كل ذلك. فبعد بضعة أيام، يصبح هؤلاء محتاجين مثلنا، بعد أن يقايضوا ملابسهم لقاء الطعام، أو لقاء ناموسية، أو لقاء أي شيء يمكن أن يحصلوا عليه، ويشعرون بالأسف. يشعرون بالأسف لأنّهم لم يكونوا يعرفون أننا نمشي، يشعرون بالأسف لأنّهم انضمّوا إلى موكبنا أصلاً. فلم يمش أحد منّا قط كلّ هذه المسافة في يوم واحد، لكنّنا كنّا نواصل المشي، وكنا نمشي كلّ يوم مسافة أبعد، ولم يكن أحد منّا يعرف بأنّنا لن نعود أبداً.

(١١)

أسمع صوت حركة مفاتيح في قفل الباب. مايكل، أخشى أنك في ورطة الآن، لأن أتشور أتشور عاد إلى البيت وستُحاسب على كلّ ما فعلته. ليتني أرى هذا المشهد من خلال عينيه! لأنه سيعاملك وأنت والمتواطئين معك بدون رأفة.

أُدير القفل وفُتح الباب. رأيت هيئة تونيا الضخمة.

«انظر من هو مستيقظ!» قالت وهي تحدّق بي إلى الأسفل. صاحت «مايكل!». لقد بدّلت ثيابها، وارتدت بدلة سوداء من الساتان. اندفع مايكل من غرفتي. بدأ يعتذر لكنّها أسكتته، ثم قالت: هيا حرّك مؤخرتك. لقد أحضرنا الشاحنة الصغيرة المغلقة». ذهب مايكل إلى الحمام وعاد بحذائه الرياضي الذي بدأ يعقده. لم أفهم لماذا ترك حذاءه في الحمّام.

جاء الآن رجل آخر، ليس باودر، إنه في مطبخي. إنه أصغر حجماً من باودر، له أصابع مرخية طويلة، وراح يقدّر بعينيه حجم جهاز التلفزيون، يحدّق به كما لو كان يخمّن كم وزنه. ثم فصل الكابل ووضع صندوق الكابل على الطاولة، ثم جمع الشريط الكهربائي بيده ذات الأصابع الطويلة، وقرفص أمام التلفزيون وأماله إلى صدره. وخرج من الباب في ثوان.

مرّت تونيا من أمامي، وهبّت منها رائحة قوية من عطر الفراولة، ثم عادت إلى غرفة نومي وراحت تفتش في أدراجي مرة أخرى، كأنها تعيش هنا وقد نسيت شيئاً. انكمشت معدتي مرة أخرى عندما تصوّرت أنها هي أيضاً قد رأت صور تابيثا.كان مجرد التفكير بأنها تعبث بتلك الصور جعلني أشعر بالرغبة في أن أتقيأ.

وقف مايكل بجانب الباب، منتعلاً حذاءه وبيده علبة الفانتا. لم ينظر إليّ. ففغرت فمي للحظة طويلة، أتهيأ لأقول شيئاً، لكنني قرّرت أخيراً ألاّ أقول شيئاً. يمكنني أن أطلب منهم أن يفكّوا قيدي، لكن هذا سيذكّرهم بأن ترك شاهد قد يكون أكثر خطورة من التخلّص منه.

ظهرت تونيا مرة أخرى لبضع ثوان مع الرجل الجديد عند الباب. مسحت الغرفة بعينيها مرة أخرى، دون أن تلتفت إليّ. دفعت مايكل إلى خارج الباب الذي لم ينظر إلى الوراء نحوي. بعد أن شعرت بالرضا على كل شيء، أغلقت تونيا الباب. وذهبوا كلّهم.

فاجأتني نهاية مغادرتهم بهذه السرعة. هذه المرة، لم يمكثوا في شقّتي أكثر من دقيقتين، مع أن رائحتها تظل عابقة.

أصبحت وحدي مرة أخرى. بدأت أكره مدينة أتلانتا هذه. لا أستطيع أن أتذكّر وقتاً لم أشعر به بغير ذلك. يجب أن أترك هذا المكان.

كم الساعة الآن؟ أدركت الآن أنّه قد يمضي يوم كامل قبل أن أرى أتشور أتشور مرة أخرى. إن كنت محظوظاً، فإنه سيعود إلى البيت قبل أن يذهب إلى العمل. لكنّه اختفى منذ بضعة أيام. إنه في بيت ميشيل. إنه يحتفظ بفرشاة أسنان وبدلة إضافيّة في بيتها. لن يعود هذه الليلة وأظن أنه سيذهب إلى عمله من هناك مباشرة. إذا حدث ذلك، فإني سأظل هنا، ملقى على الأرضيّة، حتى السادسة والنصف مساء الغد، على أقل تقدير. لا، بل حتى الثامنة والنصف - لأنه سيذهب إلى المعهد بعد عمله غداً.

سأحاول أن أصرخ، قلت لنفسي. فعلى الرغم من صوتي المكتوم، فقد يكون عالياً بما يكفي ليلفت انتباه أحد الجيران. حاولتُ، لكن الصوت كان خافتاً، كامداً. ولم ينبعث مني سوى أنين مكتوم.

سأتمكن من تبليل الشريط اللاصق على فمي لينفك عن شفتيّ، لكن بالشريط الملتفّ حول رأسي، سيكون من الصعب أن يحركه لساني إلى الأسفل. يجب أن يسمعني الآخرون، يجب أن أنبّه الجيران إلى حالتي، يجب أن يأتي أحد إلى باب بيتي، يجب أن يستدعي أحد الشرطة لتلقي القبض على اللصوص. إني بحاجة إلى ماء وطعام. يجب أن أغيّر ملابسي. يجب أن تنتهي هذه المعاناة.

لكنّها لم تنته. فأنا لا أزال ملقى على أرضيّة الغرفة، وقد لا يعود أتشور أتشور قبل أربع وعشرين ساعة. لقد مضى على غيابه ثلاثة أيام متواصلة. لكن لا بد أن يتّصل بي. سيتّصل وعندما لا أردّ على الهاتف ولا أتصل به ثانية، فإنه سيدرك بأنّ هناك شيئاً ليس على ما يرام. وإلى أن يحدث ذلك، لا بد أن تكون هناك خيارات أخرى. فهذه البناية مليئة بالناس ولا بد أن أجعلهم يعرفون ما حدث لي.

يمكنني أن أخبط على الأرضيّة. يمكنني أن أرفع قدميَّ عالياً وأخبطهما حتى يُسمع صوت الخبطة، حتى لو كانت من فوق السجادة التي تكسو الغرفة كلها، في الأسفل. الجيران في الطابق السفلي، الجيران الذين لم أتكلّم معهم إلاّ مرة واحدة فقط، أناس محترمون، هم الثلاثة، امرأتان ورجل، جميعهم بيض، تتجاوز أعمارهم الستّين. إنهم ليسوا أغنياء، إذ يعيشون هم الثلاثة في شقّة

حجمها بحجم هذه الشقة التي يشاركني فيها آتشور. إحدى المرآتين، امرأة متينة البنية، تعلو رأسها خصلة خفيفة من الشعر الأبيض، تعمل في عمل يتطلّب منها أن ترتدي بدلة حارس أمن. أما المرأة الأخرى والرجل فلست متأكداً ماذا يعملان وأين.

أعرف أنّهم مسيحيون، إنجيليون. فقد كانوا يدسّون كتيبات من تحت باب شقتي، وأعرف أنّهم كانوا يتناقشون حول عقيدتهم مع أدغاردو. وأدغاردو، مثلي، كاثوليكي، لكن هؤلاء الجيران لم يكفّوا عن محاولة جذبنا إلى ولادتهم الجديدة. إن محاولة تحويلنا إلى عقيدتهم لم يجعلني أشعر بالإهانة. عندما دنا مني رون، الرجل الأكبر سنّاً الذي يمكث في البيت طوال الوقت، ذات يوم وأنا ذاهب إلى الكلية، وقال إنه يريد أن يحدّثني عن الرق. إنه رجل ذو مظهر جديّ له وجه طفل متخم، وقد قرأ عن استمرار الرق في السودان. قال لي إن كنيسته ترسل أموالاً إلى جماعة إنجيلية تزمع السفر إلى السودان لإعتاق الرقيق. «حوالي اثني عشر شخصاً»، قال. إنه عمل مربح إلى حدّ ما، أو كان ذلك منذ بضع سنين. فما إن علمت الأوساط الإنجيلية بعمليات الاختطاف بهدف الرق في المنطقة، حتى أصبح ذلك شغلهم الشاغل. المسألة معقّدة، لكن مثل أمور عديدة في السودان، فإنها ليست مسألة معقّدة كما ترغب الخرطوم أن يظن الغرب. فقد عاود المرحلّون عمليات الاختطاف في سنة ١٩٨٣، عندما تم تسليحهم وإطلاق يدهم من دون أن ينالوا أي عقاب.

أيها الجيران المسيحيون في الأسفل، أين أنتم هذه الليلة؟ هل أنتم في البيت؟ هل تسمعونني إذا صحت؟ هل يكفي أن أخبط على الأرضيّة؟ هل ستسمعون خبطات قدميَّ؟ أرفع ساقيَّ اللتين لا تزالان مقيدتين بإحكام، من الركبة حتى الأسفل، وأخبط على الأرضيّة المكسوة بالسجاد بكل ما أوتيت من قوة. الصوت غير مسموع، صوت خبطة مكتومة. حاولت مرة أخرى، أقوى هذه المرة. رحت أخبط طوال دقيقة كاملة، حتى تعبت. انتظرت ردّ فعل ما، ربّما عصا مكنسة تجيبني. لكن لا شيء.

أيها الجيران المسيحيون، بما أن هذه المسألة تثير اهتمامكم، فإني سأحكي لكم عن الهجمات التي كانت تهدف إلى الاستيلاء على العبيد، تجارة الرقيق. فقد بدأت تجارة الرقيق منذ آلاف السنين. إنها أقدم من ظهور عقيدتنا. إنكم تعرفون ذلك، أو ربما تفترضون ذلك. فقد كان العرب يهاجمون قرى في جنوب السودان، غالباً بمساعدة قبائل جنوبية منافسة. هذا ليس خبراً بالنسبة لكم، لأنه يتبع نمط معظم الهجمات التي يشنونها لأخذ الرقيق في أفريقيا. وتعرفون أن البريطانيين قد ألغوا العبودية رسمياً في عام ١٨٩٨، لكن ممارسة العبودية ظلت مستمرة، حتى لو أصبحت أقلّ شيوعاً بكثير.

عندما بدأت الحرب وزُوِّد المرحلّون بالسلاح، نُقل الأشخاص المسروقون - هكذا كان أبي يسميهم، الأشخاص المسروقون - إلى الشمال، حيث يتم الإتجار بهم بين العرب. إن معظم ما سمعتموه، أيها الجيران المسيحيون، حقيقي. فقد كانت الفتيات يُرغمن على العمل في منازل العرب، ثم يصبحن محظيات، وينجبن أطفالاً من أسيادهن. وكان الصبية الذي يرعون المواشي يُغتصبون غالباً أيضاً. ويجب أن أقول إن هذه إحدى أكبر الجرائم التي ارتكبها العرب بحقنا. إن المثلية ليست جزءاً من ثقافة الدينكا، ولا حتى في السرّ. لذلك ساهم اللواط، خاصة ممارسة اللواط القسري على الصبية الأبرياء، في تأجيج الحرب مثل أيّ جريمة أخرى ارتكبها المرحلّون. أقول هذا بكلّ الاحترام الواجب للمثليين في هذا البلد أو في أيّ بلد آخر.

في هذه الحرب، يجب أن أقول إننا نحن الدينكا، معظمنا تقريباً، بدأنا نكره العرب السودانيين، ونسينا الأصدقاء الذين كنا نعرفهم من الشمال، ونسينا الحياة المشتركة التي كان يسودها السلام والتي عشناها معهم منذ زمن طويل. لقد حوّلت هذه الحرب أعداداً كبيرة منهم ومنّا إلى عنصريين، وقد أذكت القيادة في الخرطوم هذه النار، وأثارت، في بعض الحالات، كراهية جديدة نجم عنها تصرفات وحشية لم يسبق لها مثيل.

والشيء الغريب هو أن الذين يُسَمّون عرباً لا يختلفون كثيراً، لا سيما في الشكل، عن سكان الجنوب. هل رأيتم رئيس السودان، عمر البشير؟ إن بشرته داكنة مثل بشرتي تقريباً، لكنّه ينظر هو وأسلافه من الإسلاميين العرقيين إلى الدينكا والنوير باستعلاء، ويريدون أن يجعلونا نعتنق عقيدتهم، وقد حاول الزعماء في الخرطوم، في الماضي، أن يجعلوا السودان المركز العالمي للأصولية الإسلامية. وهناك عدة شعوب عربية في الشرق الأوسط متحيزة ضدّ البشير وأصدقائه المسلمين السودانيين من ذوي البشرة الداكنة. ويوجد عدد كبير داخل السودان وخارجه لا يُعتبرون عرباً على الإطلاق.

وعلى الرغم من ذلك، فقد أيدّ العرب من ذوي البشرة السوداء في شمال السودان استعباد الدينكا الذين يعيشون في جنوب السودان، وماذا كان دفاع الخرطوم، أيها الجيران المسيحيون؟ إنهم يقولون إن ذلك كلّه يعزى إلى عالم «الخلافات العشائرية» الذي يعود إلى قرون عدة. وعندما تمارس عليهم ضغوط أقوى، فإنهم يدّعون بإنّ هذه ليست عمليات اختطاف، وإنما ترتيبات عمل بالتراضي. فهل كانت تلك الفتاة التي لا تتجاوز التاسعة من عمرها والتي اختُطفت على ظهر جمل وحُملت إلى مسافة أربعمائة ميل شمالاً، وأجبرت على العمل كخادمة في بيت أحد الضباط- جارية؟ لا، تقول الخرطوم. إنها تقول إنّ الفتاة موجودة هناك بمحض إرادتها، لأن عائلتها

تواجه أوقاتاً عصيبة، وقد اتخذت ترتيبات مع ذلك الضابط الذي يوظفها في بيته ويطعمها ويوفر لها حياة أفضل، إلى أن تتمكن عائلتها الحقيقية من إعالتها. مرة أخرى، إن صفاقة القادة في الخرطوم مدهشة: فهي تنكر وجود العبودية منذ عشرين سنة، وتصرّ على أنّ أهالي جنوب السودان قد اختاروا أن يكونوا خدماً يعملون بلا أجر، ويُضربون ويُغتصبون في بيوت العرب. والكلمة العربية التي يستخدمها الكثير من العرب لوصف السودانيين الجنوبيين هي كلمة عبيد.

يكاد الأمر يكون هزلياً. هذا ما يدّعونه، أقول لكم! وقد أقنعوا الآخرين أيضاً. يقولون إن المناوشات العشائرية والممارسات الثقافية هي من خصائص وسمات تلك المنطقة. وقد عاد دبلوماسي أمريكي كان قد بعث إلى السودان ليحقق في مسألة انتشار العبودية حاملاً هذا الرأي. لقد خدعوه، وكان يجب أن يعرف أنه كان قد خُدع. لقد رأيت العبيد بنفسي. رأيتهم يُختطفون - فقد أخذوا التوأم، أهوك وأواتش أوغيث خلال الإغارة الثانية - ورآهما عدد من أصدقائي. وعندما تحاول بعض القرى الآن استعادة رقيق سابقين من الأطفال والنساء، تنشأ مشاكل كثيرة. فقد أُخذت بعض النساء وهن في سنّ صغيرة جداً، عندما لم يكنّ يتجاوزن السادسة أو السابعة من عمرهن، ولم يعدن يتذكّرن شيئاً عن عائلاتهن وبيوتهن، بعد أن بلغن الآن الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة. وبما أنهن كنّ صغيرات جداً عندما اختُطفن، فإنهن لا يتكلّمن لغة الدينكا، وإنما يتكلمن اللغة العربية فقط، ولا يعرفن شيئاً عن عاداتنا وتقاليدنا. لقد أنجبت الكثيرات منهن أطفالاً من آسريهن، وعندما اكتشف مناصرون لإلغاء العبودية تلك النساء وتم إعتاقهن، كان عليهن أن يتركن أطفالهن في الشمال. ما أقسى الحياة التي عاشتها تلك النساء، حتّى بعد أن عدن إلى قراهن.

إنّ حدوث كلّ ذلك، والسماح بحدوث كلّ ذلك إجرام حقيقي.

في ثورة غضب عنيفة، رحت أركل وأخبط بقدمي مرات ومرات، أتلّوى بجسدي مثل سمكة جنحت إلى البر. اسمعوني، أيها الجيران المسيحيون! اسمعوا أخوكم في الطابق الأعلى!

لا شيء ثانية. لم يكن أحد يسمعني. لا أحد ينتظر أن يسمع رجلاً يهبط بقدميه في الطابق الأعلى. إنه أمر غير متوقّع. لا توجد لديكم آذان لسماع شخص مثلي.

(١٢)

بعد ظهر أحد الأيام من تلك الأسابيع المتفائلة الأولى لمسيرنا، وصلنا إلى قرية تدعى غوك آرول كاتشوول. وتجمعت النساء على طول الدرب على أطراف القرية ليشاهدن مجموعتنا التي زاد عددها الآن إلى أكثر من مئتين وخمسين صبياً.

- انظروا كم هم مريضون، قالت النساء وهنّ ينظرن إلينا ونحن نمرّ.

- رؤوسهم كبيرة جداً! مثل بيضات فوق أغصان! ضحكت النساء بطريقة مسرحية، وهن يغطّين أفواههن.

- إنهم، قالت امرأة أخرى، امرأة مسنة، عجوز ومحنية مثل شجرة أكاسيا. - إنهم مثل ملاعق. يشبهون ملاعق تمشي!

كانت النساء يضحكن ويشرن إلينا ونحن نمرّ من أمامهن. كن يخترن الصبية الذين يبدون غريبي الشكل أو يائسين.

عندما دخل عدد من الصبية في مجموعتنا إلى القرية، عرفنا أنه لم يكن مُرَّحب بنا. - لا نريد متمردين هنا، قال شيخ القرية وهو يسير بسرعة متجهاً إلى الدرب. — لا، لا، لا! تابعوا سيركم. استمرّوا. اذهبوا!

وقف شيخ القرية الذي يضع غليوناً في فمه، ورفع ذراعيه ليمنعنا من دخول القرية، ملوّحاً بهما كما لو أنّ الريح التي تنبعث منهما ستنفخنا إلى مكان آخر.

دنا منه دوت وكلّمه بحزم لم أسمعه من قبل.

- يجب أن نرتاح هنا. وإلاّ فإنك ستسمع من المتمردين.

- لكن لا يوجد لدينا شيء نقدّمه لكم، أصرّ شيخ القرية. - فقد هاجمنا المتمردّون منذ يومين. تستطيعون أن تجلسوا وترتاحوا قليلاً، لكنّنا لا نستطيع أن نقدم لكم الطعام.

مسحت عيناه الرتل الذي نصطف فيه، وكنا لا نزال نتدفق إلى البلدة من الدرب، أفواج من الصبية يظهرون من الغابة ويملؤون القرية. نقل غليونه من جانب فمه إلى الجانب الآخر.

- لا يمكن لأحد أن يطعم كلّ هذا العدد، قال شيخ القرية.

لم يتزحزح دوت من موقفه. - أريدك أن تعرف عواقب ما تقوله.

صمت شيخ القرية ونخر بصوت عال. كانت النخرة الثانية أكثر تصالحاً. التفت دوت نحونا.

- اجلسوا هنا. لا تتحرّكوا حتى أعود.

تبع دوت شيخ القرية إلى المجمعّ الذي يقيم فيه. استلقينا على العشب، جائعين وعطشانين وغاضبين من هذه القرية. استغرق اجتماع دوت مع شيخ القرية أكثر مما كان مفترضاً، وأصبحت الشمس فوقنا تماماً، تتفحصنّا وتعاقبنا. لم يكن لدى أي واحد منا ظلّ يستظل به، وكنّا نخاف أن نترك أماكننا. لكننا لم نعد نستطيع البقاء في أماكننا. تحرّك بعض الصبية بضع مئات الياردات ليجلسوا تحت شجرة. وأخذ صبية آخرون، صبية أكبر سنّا، على عاتقهم جلب طعام بأنفسهم. رحنا نراقبهم وهم يزحفون إلى بيت قريب ووجدوا فيه بذور يقطين، فسرقوها وهربوا بها.

كان المشهد الذي أعقب ذلك فوضى شديدة. في البداية صراخ نساء، ثمّ أخذ اثنا عشر رجلاً يطاردون اللصوص الثلاثة. وعندما لم يتمكنوا من الإمساك بهم، بدأوا يطاردوننا نحن، يلوحون برماحهم. ركضنا بأقصى سرعتنا، نحن المئتان وخمسون صبياً، في كلّ اتجاه، ثم توقفنا أخيراً على الدرب خارج القرية، الدرب الذي جئنا منه. كنا نجري طوال الوقت والرجال يدرون وراءنا حتى أمسكوا بعدد من الصبية الذين لم يكونوا سريعين وعاقبوهم، بينما تمكنّا من السير في الدرب الذي كنا قد أمضينا اليوم كله ونحن نسير فيه. لذلك، استغرق سيرنا فترة أطول مما كان ينبغي: لم يكن درباً مستقيماً، كان أيّ شيء إلاّ ذلك.

عندما توقّفنا عن الركض، جمعنا كور وأحصى عددنا. كان هناك ستّ صبية مفقودين. - أين دوت؟ سأل.

لم يكن يعرف. كان كور الفتى الأكبر سناً، لذلك كنا نتطلّع إليه كلنا للحصول على إجابات. لم يكن يعرف أين دوت وكان ذلك أمراً مزعجاً.

- سنبقى هنا حتى يعود دوت، قال.

أصيب خمسة صبية بجروح. وأصيب أحدهم برمح في كتفه فحمله كور إلى بقعة تحت شجرة وقدم له ماء. لم يكن كور يعرف كيف يساعد الصبي. فقد كان المكان الوحيد الذي يمكن مساعدته هو في القرية التي سببت له ذلك الجرح. فلم يكن معنا شيء أو أحد يمكنه المساعدة في علاج أي صبي منّا إذا أصيب بمكروه.

ثم أعيد ثلاثة صبية مع الصبي الجريح إلى القرية لمعالجته. لا أعرف ما الذي حدث لهؤلاء الصبية، لأننا لم نرهم بعد ذلك. أردت أن أفكّر بأن القرويين ربما ندموا على ما فعلوه لنا فأخذوا الصبية ليعيشوا معهم في القرية.

كانت تلك الأيام سيّئة. فلم ينضم إلينا دوت طوال النهار، فاستلم كور قيادة المجموعة. لم يكن ذلك أمراً سيئاً، لأن إحساس كور بالاتّجاهات كان أفضل من دوت بكثير، وكان عدم تأكده عمّا ستؤول إليه الرحلة أقل مما كان يعلنه دوت. لكن دوت كان رئيسنا، مع أنه جلب لنا سوء الحظ في أحيان كثيرة. وبعد عودته بفترة وجيزة، قفز أسد في الظلام وخطف صبيين، والتهمهما داخل الأعشاب الطويلة. لم نتوقّف طويلاً لنستمع إلى صوت التهامه لهما.

عندما كنّا نمرّ بمسافرين آخرين، كانوا يحذّروننا من وجود المرحلّين في المنطقة. كنّا مستعدين للجري باستمرار. فقد كانت لدى كلّ صبي خطّة إذا هاجمتنا الميليشيات. وعندما كنّا نصادف مشهداً طبيعياً جديداً، كنّا نتفحصه أولاً لنجد أماكن يمكننا أن نختبئ فيها، ودروباً ومسالك يمكننا أن نتبعها. كنّا نعرف بأنّ تلك الإشاعات عن وجود تلك المليشيات في أماكن قريبة صحيحة لأن دنغ رأى عمامة على شجرة. قطعة قماش بيضاء، عالقة بين الأغصان، تلوحها الريح. فرفعتُ دنغ ليجلبها. وأكّد لنا كور بأن أحد أفراد البَقَّارَة كان يرتديها، ولم نعرف كيف انتهى بها الأمر فوق هذه الشجرة.

- هل يمكنني أن أضعها على رأسي؟ سأل دنغ كور.

- هل تريد أن تضعها كما يضعها شخص عربي؟

- لا. سأضعها بطريقة مختلفة.

وقد فعل ذلك. فقد وضعها من دون إحكام على رأسه. وبدا شكله مضحكاً بها لكنه أحس بشيء من البرودة. لقد ألغت محاولاته الكثيرة لإبعادها عن عينيه وكي لا تسقط على الأرض جميع الفوائد التي كان بإمكانه أن يجنيها منها، لكنّي لم أقل له شيئاً، لأنني كنت أعرف أنني قد أجد قطعة قماش متينة كهذه في أي لحظة.

لكن كلّ ذلك انتهى بسرعة وعدتُ إلى البيت. عدتُ إلى البيت وكنت أساعد أمّي في إشعال النار. كان إخوتي يلعبون وراء المجمّع، وكان أبي جالساً على كرسيه المعتاد خارج البيت وكأس النبيذ عند قدميه. ومن مسافة بعيدة في القرية، كان يتناهى إليّ صوت غناء - ما فتئت الجوقة تنشد هذه الترتيلة أربعمائة مرّة في اليوم. وكنت أسمع نقنقة الدجاج وصياح الديكة، وعواء الكلاب التي تحاول أن تصل إلى السلال لتأكل طعام البشر. وكان البدر يتربع السماء فوق مايال باي ويضيئها. وكنت أعرف أن فتيان القرية يلعبون خارج بيوتهم، وكنت أعرف أن الليالي كهذه، ليال طويلة، وتجعل كثرة اللعب والحركة النوم صعباً، لذلك لم أبذل أيّ جهد لأغفو، وإنما كنت أرقد صاحياً، أنصت، أتخيّل ما الذي يفعله كل واحد من الصبية، وماذا يعني كلّ صوت يتناهى إليّ. كنت أحاول أن أخمّن الأصوات من تلك المسافة التي تفصلني عن كلّ صوت. وإرضاء لأمّي، كنت أبقي عينيَّ مغمضتين جلّ الليل، لكني كنت أفتحهما عدة مرّات، على الأقل، في تلك الليالي، لأرى عينيَ أمّي لا تزالان مفتوحتين، فنتبادل ابتسامة ناعسة. كانت هكذا في هذه الليلة، عندما أحسست بالدفء مرة أخرى وأنا في بيت أمّي، أرقد بجانب ثوبها الأصفر، أشعر بحرارة جسدها. ما أروع أن تكون في البيت وأنا أحكي مغامراتي لأفراد أسرتي، فيبدون دهشتهم وافتتانهم بما أقوله.

- انظر إليه، قال صوت. - إنه يحلم بأمّه، قال الصوت. كان يبدو صوت دنغ. لقد حدّثته عن عائلتي. حكيت له أشياء كثيرة.

فتحتُ عينيَّ. كان دنغ أمامي، لكنّنا لم نكن في بيت أمّي. وفي لحظة، أضحى كل شيء دافئ في داخلي بارداً. كنت خارج البيت، أنام في دائرة الصبية، وكان الهواء أكثر حدّة من كلّ الليالي الأخرى التي مشينا فيها.

لم أتحرّك. كان دنغ واقفاً أمامي، ولم يكن خلفه لون بيت أمّي الدافئ القرمزي والأصفر، وإنما لون السماء غير المقمرة الأسود المحترق. أغمضتُ عينيَّ، راجياً، بغباء، أن أعود إلى الحلم. أليس من الغريب أن يجعلك حلم تشعر بالدفء بينما جسدك يرتجف من شدة البرد. أليس من الغريب أن تكون نائماً مع كلّ هؤلاء الصبية، داخل هذه الدائرة المغلقة، تحت سماء مظلمة. أردت أن أعاقب دنغ لأنّه لم يكن أمّي وإخوتي، لكني لا أستطيع أن أعيش من دونه. إن رؤية وجهه كلّ يوم كانت الحبل الوحيد الذي أتشبّث به.

فقد عدد من الصبية في مجموعتنا صوابهم. فلم يغمض لأحد من الصبية جفن، لا في الليل ولا في النهار، وكان يرفض أن ينام لأنه كان يريد أن يرى ما الذي سيحدث، والمخاطر التي قد تحلّ بنا. وفي النهاية ، تُرك في إحدى

القرى، عند امرأة ما إن وضعته في حضنها حتى غطّ في نوم عميق. وكان صبي آخر يجرّ عصا خلفه ليرسم خطّاً في التراب ليعرف طريقه عندما يعود إلى البيت. فعل ذلك طوال يومين حتى أخذ منه أحد الصبية الأكبر سنّاً العصا وكسرها على رأسه. وكان صبي آخر يظنّ أنّ السير لعبة، فكان يقفز ويجري ويستثير الصبية الآخرين. كان يريد أن يلعب معهم لكنه لم يكن يجد أحداً يريد أن يلعب معه. فتوقّف عن اللعب عندما ركله صبي بقوة في ظهره سئم من رؤيته وهو يقفز يميناً ويساراً. وصبي آخر يُدعى أجينغ كان أكثر غرابة من الآخرين: فقد كان يحتفظ بالطعام الذي يُعطى له - غالباً ما يكون معجون الفول السوداني - في قميص أحضره معه. وكان يدّس يده في القميص مرة في اليوم، ويجمع بأصابعه الثلاث الأولى كمية من ذلك المعجون الدبق، ثم يلعقها حتى تنظف تماماً، ثمّ يعود ويربط قميصه ثانية. كان مستعداً للبقاء بدون طعام لعدة أسابيع، أما معظم الصبية فكانوا يسيرون ولا يتكلّمون إلاّ قليلاً لأنه لم يكن هناك شيء يمكن التحدث عنه.

- الكلب الأزرق!

بعد قيام الرجال بطردنا من تلك القرية برماحهم بأربعة أيام، صادفنا الكلب الأزرق مرة أخرى. دنغ رآه أولاً.

- هل هو الكلب نفسه؟ سألت.

- طبعاً إنه هو، قال دنغ، وجثا ليلاعبه.

كان الكلب أسمن بكثير مما كان عندما رأيناه آخر مرّة. لم نعرف كيف استطاع هذا الكلب قطع كلّ هذه المسافة بعيداً عن القرية التي رأيناه فيها. هل كان يتبعنا طوال تلك الأيام، متوارياً عن أبصارنا؟ سمعنا في مقدمة الرتل صوت جلبة، أصوات صبية. توجّهنا إلى مصدر الصوات ولحق بنا الكلب الأزرق.

اكتشفنا أن الكلب الأزرق لم يكن بعيداً عن القرية التي كان فيها، وأدركت أنّ الأشجار المنتصبة في هذا المكان مألوفة لديّ. وسرعان ما أدركنا بأنّها القرية السعيدة نفسها. فقد كنّا نسير في دائرة، نقتفي آثار خطواتنا لأيام عدة، وعدنا الآن إلى القرية المفعمة بالحركة التي رأيناها منذ بضعة أيام، القرية التي رأينا فيها الشاب الذي ينتعل حذاء أبيض جديداً، القرية التي قدّمت لنا فيها النساء الطعام ثم لم يسمحوا لنا بالبقاء فيها. لقد أنكروا تهديد المرحلّين لكنهم رحلوا الآن، ولم يعد هناك شيء في المكان الذي كانت توجد فيه القرية. فقد رُفعت البيوت إلى السماء، ولم تعد هناك سوى بقع سوداء كانت تنتصب فوقها البيوت. كان الدمار شاملاً وكاملاً.

ثمّ رأيت أجساداً، أذرعاً ورؤوساً في الأحراش، وركام الأكواخ. ومن بعيد، كان الكلب الأزرق يمضغ شيئاً. عندها عرفنا كيف أصبح سميناً هكذا.

من بين الأعشاب الطويلة، خرجت امرأة وركضت نحونا. كانت تحمل طفلاً رضيعاً في حمالة تشدّها حول صدرها. عندما دنت أكثر، أصبح الطفل الرضيع طفلين، توأم، وكانت المرأة تولول وتصرخ. كانت يدها ملفوفة بقماشة وردية اللون، مبللة بالدم. انتشر الآن الصبية في القرية، وراحوا يفتّشون بين البيوت المحطمة ويلمسون أشياء لن ألمسها أبداً.

- عودوا إلى هنا! صاح دوت.

لكنّه لم يتمكن من السيطرة على الصبية وعلى فضولهم، فلم ير جميع الصبية المرحلّين أو ماذا يفعلون بأمّ عيونهم. انتشروا، فوجد بعضهم أيضاً طعاماً مهجوراً فأكلوه، وعندما هبطوا إلى القرية، بدأ الناجون يخرجون من مخابئهم: نساء، رجال مسنّون، أطفال، مزيد من الصبية. لم تستطع المرأة التي تحمل الطفلين أن تكّف عن البكاء، فأجلسها كور وحاول تهدئتها. جلستُ وأوليت ظهري للمرأة وللنساء اللاتي جئن إليها. وضعت أصابعي في أذنيَ. كنت أعرف كلّ ذلك، ومللت من سماعه.

أمضينا الليلة في القرية. كان لا يزال فيها طعام، وقلنا إنها أكثر الأماكن أماناً التي يمكن أن نكون فيها، لأنه هوجم منذ فترة قصيرة. وبينما كنّا نستريح، خرج المزيد من الأشخاص من الأحراش ومن بين الأعشاب. تكلّموا مع دوت وتبادلوا المعلومات، وفي الصباح غادرنا القرية مع ثمانية عشرة صبياً جديداً. كانوا صبية هادئين جداً، ولم يكن أحد منهم ينتعل تلك الأحذية البيضاء التي تشبه الغيمة.

***

- بطني تؤلمني، قال دنغ. - أتشاك.

- نعم.

- هل تؤلمك بطنك مثلي؟ كأن فيها شيئاً يتحرّك؟ هل تشعر هكذا؟

كان ذلك بعد عدة أيام، ولم أعد أصبر على ذلك. فقد كانت بطون الجميع تؤلمهم. كانت بطوننا كلّنا تزداد صلابة وتتكور واعتدنا على آلام الجوع. قلت شيئاً كهذا، آملاً أن يخفّف قولي مخاوف دنغ ويسكته.

- لكن هذا ألم جديد، قال دنغ. - إنه في مكان أسفل مما كان من قبل. كأن أحداً يلكمني، يطعنني.

وجدت صعوبة في التعاطف مع دنغ وأنا نفسي جائع. كان جوعي في مدّ وجزر، وعندما كان يأتيني، كنت أحسُّ به في كل مكان في جسدي. أحسست به في معدتي وفي صدري وذراعي وفخذي.

- اشتقتُ إلى أمّي، قال دنغ.

- أريد بيتي، قال.

- يجب أن أتوقّف عن المشي، قال.

سرت في مقدمة الرتل كي لا أسمع ثغاء دنغ. كان معظمنا يتحمّل ذلك، ويقبل عبث الشكوى. كان سلوك دنغ إهانة للطريقة التي كنا نسير فيها.

في سماء بعد الظهر، سمعنا صوت انفجار. توقّفنا. عاد الصوت مرة أخرى. أصبح من الواضح الآن أنه صوت طلقات بندقيّة. ثم عادت الطلقات، خمس مرات. أوقف دوت المجموعة ورحنا ننصت.

- اجلسوا. اجلسوا وانتظروا، قال.

ركض إلى الأمام. عندما عاد كان يبتسم ابتسامة عريضة.

- لقد قتلوا فيلاً. تعالوا الآن! سيأكل الجميع لحماً اليوم.

بدأنا نجري. لم يعرف أحد كلّ ما قاله دوت لكنّهم سمعوا كلمة لحم. جرينا وراء دوت وكور غارانغ كور.

ركضت وكانت الأرض تحت قدميَّ تطير لأنني كنت أركض بسرعة كبيرة، أقفز فوق الصخور والأعشاب. ركضنا كلّنا. كان الصبية يضحكون. مضت أسابيع لم نتناول فيها أيّ نوع من اللحم. كنت سعيداً لكني عندما كنت أجري كانت تدور في رأسي أفكار متضاربة. كنت أتضور جوعاً، كان الجوع يشقني في كل مكان في جسدي، لكن الفيل كان مقدّساً في عشيرتي. فلن يفكّر أحد

من أهلي في مايال باي أن يقتل فيلاً أبداً، أو يأكل لحمه، لكنني كنت لا أزال أجري نحو الحيوان. لم يتردد أحد من الصبية في أكل لحمه، فأخذوا يتسابقون كما لو أنهم لم يكونوا مرضى، كما لو أنهم لم يسيروا تلك المسافة الطويلة. في تلك اللحظة، لم نعد أولئك الصبية الذين نحتضر، لم نكن أولئك الصبية الذين كنّا نمشي. كنّا صبية جائعين سنلتهم لحماً طازجاً.

عندما اقتربنا رأينا جبلاً رمادياً صغيراً، وقد تحلّق الصبية حول ذلك الجبل. كان يتحلّق حوله مئات الصبية، عشرة منهم فوق الفيل. كان أحد الصبية يمزّق أذن الفيل. كان قد صعد فوق رأس الفيل وأخذ يقتلع أذن الفيل من جمجمته. ووقف صبي آخر أمام الفيل، لم تكن تظهر يده ورسغه، وكان كتفه أحمر من الدم. وما هي إلاّ لحظات حتى عادت يد الصبي، لكنها كانت مكسوة بالدم. كانت داخل جسم الفيل، فقد أدخلها في المكان الذي أحدثت فيه الرصاصة فتحة. وأمسك بكلّ ما استطاع أن يمسك به من اللحم، وراح يلتهمه، نيئاً، ووجهه يقطر بدم الحيوان.

كان رجلان يرتديان بدلة عسكرية ويحملان سلاحاً يقفان بجانب الفيل.

بينما كان الصبية يمزّقون لحم الحيوان، رحت أراقب الرجلين.

- من هما؟ سألت كور.

- إنهما من جيشك، قال. - أمل الدينكا.

رحت أراقب بينما كان دوت وكور وأحد الجنود يساعدون في الحفر داخل جلد الفيل. فتحوا شريحة طويلة في أعلى الفيل ثمّ راح الصبية، عشرة في وقت واحد، يسلخون الجلد، ينزعونه، يشدّونه إلى الأرض. في الأسفل، كان الفيل أحمر اللون مثل حرق. قفز الصبية إلى داخل الفيل، يعضون ويمزقون اللحم، وعندما أصبح في قبضة كلّ صبي حفنة من اللحم، ركضوا كالضباع ليلتهموها تحت الأشجار.

بدأ بعض الصبية يأكلون على الفور. ولم يعرف آخرون إذا كان عليهم أن ينتظروا حتى الانتهاء من طهي اللحم. كنّا لا نزال في الصباح، ولم يكن الكثير من الصبية يعرفون إلى متى سنظلّ هنا، مع الفيل، وهل سيُسمح لهم بأن يأخذوا معهم قطعاً من اللحم.

أشعل الجنديان ناراً كبيرة. وأمر دوت خمسة صبية بأن يجمعوا حطباً لإيقاد النار، وأشعل كور ناراً أخرى في الطرف الآخر من الفيل وشوياه على أعواد،

نحن الذين لم نأكل شيئاً بعد.

سُر الجنديان لرؤيتنا ونحن نأكل وتكلّما معنا بطريقة ودّية. جلست بجانب دنغ، أراقبه وهو يأكل. شعرت بالسعادة عندما رأيت دنغ يأكل، مع أنه كان يأكل من دون أن يبتسم، ولم يكن يستمتع باللحم كالآخرين. كانت حواف عينيه مصفّرة، فمّه مشقق عليه بقع بيضاء. لكنّه أكل بقدر ما أمكنه. أكل حتى لم يعد قادراً على تناول المزيد.

عندما أنهى طعامه، أخذنا نتأمل الجنديين الجالسين تحت شجرة هجليج عملاقة. تحلّقنا حول الرجلين ورحنا نحدّق بهما.

تدخّل دوت بسرعة.

- أعطوهما مجالاً ليتنفّسا، يا أولاد! إنكم كالبعوض.

رجعنا بضع خطوات لكننا عدنا مرة أخرى ببطء. ابتسم الرجلان، مقدّرين هذا الاهتمام.

- واجهنا بعض المتاعب في غوك آرول كاتشوول، قال دوت.

- ما نوع المتاعب؟ سأل أحد المتمردين.

أحضر دوت أحد الصبية الجرحى. كان رمح قد أحدث جرحاً في ساقه.

- من فعل هذا؟ سأل المتمرّد.

كان الرجل يدعى ماوين، ونهض واقفاً فجأة، غاضباً. أوضح له دوت ما حدث، وقال له إننا دخلنا إلى القرية بسلام، لكنهم رفضوا أن يقدموا لنا أي طعام ثمّ طردونا من البلدة وطاردنا بعض الرجال وألقوا علينا رماحهم. لكنه لم يذكر له سرقة الفستق، ورأى الصبية أن إثارة هذا الموضوع غير ضروري. غمرنا شعور بالكبرياء والتوقع ونحن نراقب غضب ماوين يزداد.

- هل فعلوا ذلك لفتيان الجيش الأحمر؟ فتيان عزّل؟

كان بإمكان دوت أن يرى الانتقام في وجهه فأضاف إلى آثامهم. - لقد طاردونا لمدة نصف يوم. لم يكونوا يريدون رؤية أحد من المتمردين. لقد أطلقوا علينا اسم متمردين ولعنوا جيش التحرير الشعبي السوداني.

ضحك ماوين. - سنرى شيخ القرية هذا قريباً. أليس هو الرجل الذي يدخن الغليون؟

- نعم، قال دوت. - هناك الكثير من الرجال الذين يدخنون الغليون.

- نعرف هذا المكان. سنزور هذه القرية غداً ونبحث معهم مسألة معالجة صبية الجيش الأحمر.

- شكراً، يا ماوين، قال دوت. كان قد اتخذ نبرة وقار كبيرة.

هزّ ماوين رأسه نحوه.

- الآن تناولوا مزيداً من الطعام، قال. - كلوا بقدر ما تستطيعون.

أكلنا ونحن نحدّق في الرجلين. كان يتحلّق حول كلّ جندي عشرون صبياً يأكلون من دون أن يرفعوا عيونهم عنه. وبدا الرجلان ضخمين، أضخم رجلين رأيناهما منذ أشهر. يتمتعان بصحة جيدة، عضلاتهما بارزة ووجهيهما مليئان بالثقة. هؤلاء هم الرجال الذين يستطيعون محاربة المرحلّين أو جنود الجيش الحكومي. لقد جسّد الرجلان كلّ غضبنا وأعربا عن كلّ أمل يراودنا.

- هل تنتصرون في الحرب؟ سألت.

- أيّ حرب تلك، أيها الجيش الأحمر؟

صمتُ لحظة. - ما هذه الكلمة التي قلتها؟

- الجيش الأحمر.

- ماذا تقصد؟

— دوت، ألاّ تعلّم هؤلاء الصبية شيئاً؟

- هؤلاء الصبية لم يصبحوا بعد أفراداً في الجيش الأحمر، يا ماوين. إنهم صغار.

- صغار؟ انظر إلى بعض هؤلاء الفتية. إنهم جاهزون للقتال! هؤلاء جنود! انظر إلى هؤلاء الثلاثة.

وأشار إلى ثلاثة صبية أكبر سنّاً، كانوا لا يزالون يطهون لحماً على النار.

- إنهم طوال القامة، نعم، لكنهم شبان صغار. بنفس عمر الصبية هنا.

- سنبحث في ذلك، يا دوت.

- هل تنتصرون في الحرب، يا ماوين؟ قال دنغ. - الحرب ضدّ المرحلّين؟

نظر ماوين إلى دوت ثمّ عاد ونظر إلى دنغ.

- نعم، يا ولد. إننا ننتصر في هذه الحرب. لكن الحرب هي ضدّ حكومة السودان. أظن أنك تعرف ذلك، أليس كذلك؟

مهما فسّر لي دوت الأمر، فقد كنت لا أزال مشوشاً. لأن المرحلّين هم الذين يهاجمون قرانا، أما المتمردون فقد تركوا القرى وذهبوا ليحاربوا الجيش الحكومي في أماكن أخرى. كان الأمر محيّراً بالنسبة لي، وسيظل كذلك لسنوات عديدة قادمة.

- هل تريد أن تحملها؟ قال ماوين، وأشار إلى بندقيّته.

نعم كنت أريد أن أحملها، أردت ذلك كثيراً.

- اجلس. إنها ثقيلة جداً عليك.

جلست، بينما أجرى ماوين بعض التعديلات في البندقيّة، ثمّ وضعتها في حضني. كنت أخشى أن تكون ثقيلة أو حارة.

- إنها ثقيلة، أليس كذلك؟ حاول أن تحملها طوال اليوم، أيها الجيش الأحمر.

- ماذا تعني الجيش الأحمر؟ همستُ. عارفاً أنّ دوت لم يكن يريد أن نعرف الجواب عن هذا السؤال.

- إنه أنت، يا ولد. إنها تعني الجيش الأحمر. أنت هو الجيش الأحمر.

ابتسم ماوين وابتسمت أنا. في تلك اللحظة، أحببت فكرة أن أكون جزءاً من جيش، أن أكون جديراً بلقب محارب. مررّت يدي فوق سطح البندقيّة. كان شكلها غريباً جداً، قلت في نفسي. فلم تكن تشبه أي شيء أعرفه، بأذرعها

التي تذهب في كلّ اتّجاه. كان عليّ أن أتفحصّها بدقة لكي أتذكّر من أين تخرج الطلقات. أدخلت إصبعي في فوهة السبطانة.

- إنها صغيرة جداً، الفتحة، قلت.

- الطلقات ليست عريضة. لكن ليس من الضروري أن تكون كبيرة. إنها حادّة وتطير بسرعة تكفي لتخترق الفولاذ. هل تريد أن ترى رصاصة؟

قلت نعم. كنت قد رأيت أغلفة رصاصات، لكني لم أر رصاصة لم تُطلق.

دسّ ماوين يده في جيب في مقدمة سترته وأخرج منه شيئاً صغيراً ذهبي اللون، ووضعه على راحته. كان بحجم إبهامي، مسطحاً من أحد طرفيه، ومدبباً من الطرف الآخر.

- هل يمكنني أن أمسكها؟ سألت.

- طبعاً. إنك مهذب جداً! قال مندهشاً. - الجندي لا يكون مؤدّباً أبداً.

- هل هي حارّة؟ سألته.

- هل الرصاصة حارّة؟ ضحك. - لا. البندقيّة هي التي تجعلها حارّة.

الآن هي باردة.

أسقط ماوين الرصاصة على راحة يدي فتسارعت نبضات قلبي. كنت أثق بماوين لكني لم أكن متأكّداً من أن الرصاصة لن تخترق يدي. الآن قبعت في راحة يدي، أخفّ وزناً مما توقّعت. لم تتحرّك، لم تجرح جلدي. أمسكت الرصاصة بأصابعي وقرّبتها من وجهي. شممتها أولاً، لأرى إن كانت تفوح منها رائحة النار أو الموت. لم أشمّ إلاّ رائحة معدن.

- دعني أشمّها!

أمسك دنغ الرصاصة لكنها سقطت على الأرض.

- انتبهوا يا أولاد. إنها ثمينة.

ضربت صدر دنغ، ووجدت الرصاصة، أزلت منها التراب ولمّعتها بقميصي. ثم أعدتها لماوين، خجلاً.

- شكراً، قال ماوين، وأخذ مني الرصاصة وأعادها إلى جيب قميصه.

- كم طلقة أطلقتم لقتل الفيل؟ سأل دنغ.

- ثلاث طلقات، قال ماوين.

- كم طلقة تحتاج لقتل رجل؟

- أيّ نوع من الرجال؟

- عربي، قال دنغ.

- واحدة فقط، قال ماوين.

- كم عربي تستطيع هذه البندقيّة أن تقتل؟ سأل دنغ.

- بعدد الطلقات الموجودة فيها، قال ماوين.

كان لدى دنغ أسئلة كثيرة وكان ماوين مستعداً للإجابة عنها.

- كم طلقة معك؟

- عندنا طلقات كثيرة، لكنّنا نحاول أن نحصل على كمية أكبر منها.

- من أين تحصلون عليها؟

- من إثيوبيا.

- إلى حيث نحن ذاهبون الآن.

- أعرف. سنذهب إلى إثيوبيا كلنا.

- من؟

- أنت، أنا، كلّنا. جميع الصبية في جنوب السودان. الآلاف ذاهبون الآن. أنتم مجموعة واحدة من مجموعات كثيرة. ألم يقل لكم دوت ذلك؟ دوت! نادى دوت الذي كان يحاول أن يملأ بعض قطع لحم الفيل. - هل تعلّم هؤلاء الصبية أم لا؟ هل تقول لهم أيّ شيء؟

نظر دوت إلى ماوين بقلق. كان لدى دنغ أسئلة أخرى.

- هل أسهل للعرب أن يقتلوا رجلاً من الدينكا، أم أسهل للدينكا أن يقتلوا عربياً؟

- بالرصاصة نفسها سيموت كلا الرجلين. فالرصاصة لا تميّز هذا عن ذاك.

سماع ذلك أزعجني أنا ودنغ، لكنّه تابع قائلاً.

- لماذا لا نملك أسلحة؟ هل نستطيع أن نطلق النار من هذه البندقيّة؟

أرجع ماوين رأسه وضحك.

- أترى يا دوت؟ هؤلاء الصبية مستعدّون! إنهم يريدون أن يقاتلوا الآن.

ظللنا نسأل ماوين حتى تناولنا كلّ ما يمكننا تناوله من الفيل، حتى ملّ منّا. وغربت الشمس وهبط الليل. نام الجنديان في كوخ فارغ في مكان قريب، بينما نمنا نحن في دائرة، مرتاحين، شاعرين بالأمان بجانب هذين الجنديين، وقد امتلأ رأسانا بأفكار الثأر والانتقام.

نمت بجانب دنغ، وعرفت أننا سنجد في الأيام القادمة طعاماً أكثر كهذا الفيل. تخيّلت أنّنا دخلنا إلى منطقة فيها أعداد كبيرة من المتمردين الذين يصطادون فيلة كهذا. فحيثما يوجد صيّادون، توجد فيلة مقتولة تنتظر أن نأكلها، والفيلة جيدة للأكل: فهي كبيرة يكفي لحمها لإطعام مئات الصبية، ولحمها مقوٍ. لم أعد أبالي بمعتقدات أسلافي. فنحن الجيش الأحمر ويجب أن نأكل.

في الصباح نهضت بسرعة، وشعرت بأنني أقوى مما كنت منذ عدة أسابيع. كان دنغ نائماً إلى جانبي فتركته ينام. رحت أبحث في المعسكر عن الجنديين لكني لم أر أحداً منهما.

- لقد غادرا، قال دوت. - ذهبا لزيارة شيخ قرية غوك آرول كاتشوول.

ضحكت. - ستكون زيارة لطيفة!

- أتمنى أن أكون هناك، قال دوت.

يا له من عمل مثير! كنت سعيداً لمجرد التفكير بذلك. أصبحت مخيلتي تعج بالأسلحة، وبقوّة البندقيّة، وبوضع الأمور في نصابها في قرية غوك آرول كاتشوول. وللمرة الأولى منذ أسابيع، كنت متعطشاً للمغامرة. أردت أن أمشي. أردت أن أرى ما الذي يقبع أمامنا في ذلك اليوم عندما نسير على الدرب. تصوّرت مجموعات صبية أخرى مثل مجموعتنا، كلّها متوجهة إلى إثيوبيا. زادني التفكير بالجنود المتمرّدين، وأسلحتهم ورغبتهم للقتال في سبيلنا قوّة. كانت تلك أول مرّة أشعر فيها بأن لدينا قوّة، وأن الدينكا يستطيعون أن يقاتلوا أيضاً.

عادت الشمس لتصبح صديقتي مرة أخرى. فقد أصبحتُ مستعداً لأن أرى أشياء وأحقق تقدّماً وأن أظل حيّاً. نظرت حولي إلى الصبية الآخرين الذين بدأوا يستيقظون ويجمعون أغراضهم. كان دنغ لا يزال نائماً. غمرتني سعادة كبيرة عندما رأيته يغط في النوم نائماً مرتاحاً، من دون أي شكوى، قلم أوقظه.

اتجهت نحو الكوخ الذي نام فيه الجنديان. كانا قد ذهبا، لكني كنت أرى ظلال الصبية الآخرين داخل الكوخ يبحثون عن أي طعام متبق، عن أيّ شيء. لكنهم لم يجدوا شيئاً. عندما غادرنا الكوخ، كان معظم الصبية يجلسون ضمن مجموعاتهم، مستعدين للسير. أخذت مكاني بين مجموعتي، ثمّ تذكّرت دنغ بغتة.

- دوت، قلت. - أظن أنّ دنغ لا يزال نائماً.

لكني لم أجد دنغ في المكان الذي رأيته فيه آخر مرّة. كان بعض الصبية القريبين مني يتصرّفون بغرابة. كانوا يتحاشون النظر إليّ.

- تعال يا أتشاك، قال دوت، ووضع ذراعه حول كتفي.

سرنا قليلاً ثمّ توقّف، وأشار. من بعيد، رأيت دنغ نائماً، لكن في مكان مختلف الآن، وقد غطى وجهه بكوفيه بيضاء كالتي يضعها العرب.

- إنه ليس نائماً، يا أتشاك.

وضع دوت يده على رأسي للحظة.

- لا تذهب إليه يا أتشاك. لا أظن أنك تريد أن تمرض مثله. ثمّ التفت دوت وخاطب عدداً من الصبية الأكبر سنّاً.

- اذهبوا واجمعوا أوراق أشجار. أوراق كبيرة. سنحتاج إلى كمية كبيرة منها إذا أردنا أن نغطيه بالكامل.

اختار ثلاثة صبية لحمل جسد دنغ إلى أقدم شجرة وأثخنها في المنطقة، ووضعوا جسد دنغ تحت الشجرة وغطوها بأوراق الشجر لإرضاء روح الميت. أخذ دوت يتلو بعض الصلوات ثمّ واصلنا سيرنا. لم يُدفن دنغ ولم أر جثمانه.

عندما مات دنغ، قرّرت أن أتوقّف عن الكلام. فلم أكلّم أحداً. كان دنغ أول صبي يموت بيننا، لكن سرعان ما بدأ صبية آخرون يموتون، ولم يكن هناك وقت لدفنهم. كانوا يموتون من الملاريا، من الجوع. كانوا يموتون من الإصابة بالالتهابات. وكلّما مات صبي، كان دوت وكور يبذلان كلّ ما بوسعهما لتكريم الموتى، لكنّ كان علينا أن نواصل سيرنا. كان دوت يستلّ من جيبه قائمة الأسماء، ويدّون ملاحظة عن الصبي الذي مات والمكان الذي مات فيه، ثم نتابع سيرنا. وإذا أصيب أحد الصبية بمرض، فقد كان يسير وحده، ولا يعود الصبية الآخرون يمسكون أي شيء كان قد أمسكه ذلك الصبي، ولا يرغبون في الاقتراب منه لأنهم يعرفون أنه سيموت بعد فترة قصيرة. فلم نكن نريد أن نسمع صوته في رؤوسنا.

عندما ارتفع عدد الصبية الذين ماتوا إلى عشرة، ثم إلى اثني عشرة، بدأ الخوف يتملك دوت وكور. فقد كان عليهما أن يحملا كلّ يوم صبية لم يعودوا قادرين على المشي. وفي صباح كلّ يوم، كان فتى آخر يضعف ولا يعود يقوى على السير، فكان دوت يحمل هذا الصبي طوال اليوم، بأمل أن نصادف طبيباً أو قرية يمكن أن تقبل بأن تأخذ الصبي. كان ذلك يحدث أحياناً. ولم أعد أنظر إلى المكان الذي يدفن فيه دوت الصبية الذين يموتون أو أين يضع أجسادهم، لأن ذلك لم يعد ذلك مهماً بالنسبة لي مع مضي الرحلة. فقد كنّا كلّنا ضعفاء، ضعفاء إلى حدّ أننا لم نعد نستطيع أن نفكر بوضوح متى يجب أن نتفاعل مع الأخطار. وكنّا عراة تقريباً، لأننا كنّا نقايض ملابسنا بالطعام في القرى التي نمرّ بها، وكان معظمنا حفاة.

لماذا نكون بهذا القدر من الأهمية بالنسبة لقاذفة قنابل تحلّق فوقنا على ارتفاعات شاهقة؟

عندما رأيتها، رآها جميع الصبية أيضاً. ارتفع ثلاثمائة رأس إلى الأعلى في وقت واحد. في البداية، لم يكن الصوت مختلفاً عن صوت طائرة إمداد، أو واحدة من تلك الطائرات الصغيرة التي تحلّق أحياناً في السماء. لكن الصوت

لعلع في أعماق جلدي، وكانت الطائرة أكبر من جميع الطائرات التي أذكر أنني رأيتها تحلّق في ذلك الارتفاع.

مرّت الطائرة فوقنا واختفت، وتابعنا سيرنا. وعندما كانت طائرات الهليكوبتر تحلّق فوقنا، كنا نختبئ بين الأشجار، في الأدغال، أما بالنسبة لطائرات الأنتونوف، فالقاعدة الوحيدة هي إزالة أو إخفاء أيّ شيء قد يعكس ضوء الشمس: مرايا، زجاج، أيّ شيء يمكن أن يعكسه الضوء. كانت كلّ هذه الأشياء ممنوعة، لكنها اختفت منذ فترة طويلة، وكان لدى حفنة قليلة من الصبية، بالطبع، أشياء كهذه أصلاً. لذلك كنّا نمشي، ولم نتخيّل أنّنا يمكن أن نكون هدفاً. فقد كنّا مئات من الصبية شبه العراة، لا نحمل أي نوع من السلاح، وكان معظمنا دون الثانية عشرة من العمر. فلماذا تركز هذه الطائرة علينا؟

لكن الطائرة عادت تحلّق فوقنا بعد بضع دقائق، ثم سمعنا صفيراً. فصاح دوت بأنّنا يجب أن نركض، لكنه لم يقل لنا إلى أين، فرحنا نركض في مئة اتجاه واتجاه، واختار صبيّان الاتّجاه الخطأ، فركضا والتجأ تحت شجرة كبيرة حيث سقطت القذيفة.

كان كما لو أنّ قبضة قد حفرت حفرة كبيرة في الأرض، وقلبت التراب من باطن الأرض إلى خارجها. واجتثّ الانفجار الشجرة، وانتشر الدخان والتراب على مسافة خمسين قدماً في الهواء، وامتلأت السماء بالغبار واسوّد النهار. ورُميت على الأرض، وبقيت مستلقياً، رأسي يدقّ. نظرت إلى الأعلى. كان الصبية مستلقين في كل مكان فوق التراب. اختفت الشجرة وكانت الحفرة في الأرض كبيرة تتسع لخمسين صبي منّا. وللحظة، ساد هدوء. رحت أراقب، مذهولاً، لا أستطيع أن آتي بحركة. ثم نهض بعض الصبية واقتربوا من الحفرة.

- لا تقتربوا من الحفرة! صاح دوت. - اذهبوا! اذهبوا، واختبئوا بين الأعشاب. اذهبوا! كان الصبية لا يزالون يمشون بجانب الحفرة وينظرون إلى داخلها. لم يروا شيئاً. لم يبق فيها شيء. فقد زال الصبيان عن الوجود.

لم أتوقع أن تعود القاذفة مرة أخرى.

لكنها سرعان ما عادت. كان هديرها يشق الغيوم.

- اركضوا بعيداً عن البلدة! صاح دوت. ابتعدوا عن المباني! لم يتحرّك أحد.

- ابتعدوا عن البيوت! صاح.

ظهرت الطائرة. جريت مبتعداً عن الحفرة لكن بعض الصبية ركضوا نحوها. - أين ستختبئون؟ سألتهم ووجدت أنهم غير قادرين على الكلام. كنّا مجرد أجساد وعيون تركض. أخذ الصبية يركضون في جميع الاتجاهات.

سمعت ورائي صفيراً آخر، هذه المرة أسرع وأقوى من سابقه، وجاءت ضربة أخرى من باطن الأرض واستحال النهار إلى أسود مرة أخرى. سادت لحظة صمت، لحظة سكون مطبق، ثمّ وجدت نفسي أطير في الهواء. دارت الأرض صعوداً حول أذني اليمنى، وضربت مؤخرة رأسي. كنت مستلقياً على ظهري. انتشر الألم في رأسي مثل ماء بارد. لم أسمع شيئاً. استلقيت لفترة من الزمن، وأحسست بأطرافي انفصلت عن جسدي. كان يعلو غبار فوقي، لكني رأيت، في الوسط أمامي، نافذة زرقاء مستديرة. حدّقت فيها وخيّل إليّ أنها اللّه. أحسست بالعجز وبالسلام، لأنني لم أستطع أن أتحرّك. لم أستطع أن أتكلّم أو أسمع أو أتحرّك، فملأني ذلك بصفاء غريب.

أيقظتني أصوات. ضحكات. نهضت على ركبتي لكني لم أتمكن من وضع قدميَّ على الأرض. لم أعد أثق بالأرض. تقيّأت في المكان الذي أجثو فيه ثم عدت واستلقيت. بدأت السماء تضيء عندما حاولت أن أنهض مرة أخرى. نهضت أولاً على ركبتي، وكان رأسي يدور. وخز إبر بيضاء تقافزت أمام عينيّ، وأحسست بوخز في أطرافي. جثوت قليلاً حتى عادت لي رؤيتي.

أصبح رأسي صافياً. تطلعت حولي. كان هناك صبية، بعضهم جالس، وبعضهم يتناولون الذرة. وضعت قدميَّ تحت جسدي ووقفت ببطء. بدا الوقوف شيئاً غير طبيعي. عندما استعدت طولي بالكامل، كان الهواء يدور من حولي، يصدر هسيساً. باعدت بين ساقيَّ ومددت يديَّ إلى اليسار واليمين. وقفت حتى توقفت الاهتزازات في أطرافي، وما هي إلاَّ لحظات حتى وقفت على قدميَّ وأحسست بأنني إنسان مرة أخرى.

قُتل خمسة صبية، ثلاثة على الفور، وظلّ صبيّان آخران، قطعت سيقانهم إلى شرائط بواسطة القنابل، أحياء ليروا الدم يغادر جسديهما ويسوّد الأرض.

عندما عدنا إلى سيرنا، لم يعد الكثيرون يتكلّمون. أما الذين بقوا أحياء، فقد أصيب بعضهم إصابات مختلفة. كان من بينهم صبي يدعى مونينهيال كان قد كُسر أنفه منذ سنوات عندما كان يتصارع مع صبي آخر. كانت عيناه ضيقتان، ولم يكن يبتسم، ونادراً ما كان يتكلّم. حاولت أن أكلّمه، لكنه كان يجيبني باقتضاب شديد وينهي الحديث بسرعة. أما بعد قصف الطائرة، فلم يعد أي نور في عينيه.

- لا أستطيع أن أطارد هكذا، قال لي.

كنّا نمشي عند الغروب، عبر منطقة كانت مأهولة ذات يوم لكنها أصبحت مقفرة الآن. كان الضوء في ذلك المساء جميلاً، دوّامة من اللون الوردي والأصفر والأبيض.

- أنت لست مطارداً، قلت. - كلّنا مطاردون.

- نعم، لكن لا يمكن أن أُطارد هكذا. فكلّ صوت ينبعث من الغابة أو من السماء يحطمني. أهتزّ مثل طير وقع في قبضة أحد. أريد أن أتوقّف عن السير. أريد أن ألبث واقفاً لا أتحرك، عندها يمكنني أن أعرف على الأقل الأصوات التي أتوقّعها. أريد أن أجعل كلّ الأصوات تتوقف، والفرصة بأن نُقصف أو نُلتهم مرة أخرى.

- إنك في أمان معنا. فنحن ذاهبون إلى إثيوبيا. إنك تعرف إن هذا صحيح.

- إننا مستهدفون يا أتشاك. انظر إلينا. عدد كبير من الصبية. الكلّ يريدون رؤيتنا أمواتاً. اللّه يريدنا أن نموت. إنه يحاول أن يقتلنا.

- امش بضعة أيام أخرى، سيتحسّن وضعك.

- سأترك المجموعة عندما أجد قرية، قال مونينهيال.

- لا تقل ذلك، قلت.

لكنه سرعان ما نفذ ما وعد به. فتوقّف عند القرية التالية التي كانت قرية مهجورة، ومع أن دوت قال له إن المرحلّين سيعودون إليها، فقد رر مونينهيال أن يتوقف عن السير.

- سأراكم في وقت آخر، قال.

في هذه القرية، وجد مونينهيال حفرة عميقة أحدثتها طائرة أنتونوف، ونزل فيها. ودعنّاه لأننا تعوّدنا على رؤية الصبية وهم يموتون، ويغادرون المجموعة بطرق شتى. واصلنا سيرنا بينما مكث مونينهيال في الحفرة ثلاثة أيام، لا يأتي بحركة، مستمتعاً بالصمت داخل الحفرة. وحفر لنفسه كهفاً بجانب الحفرة، وبواسطة قشّ من كوخ نصف محترق، صنع باباً صغيراً لتغطية المدخل، ولحمايته من الحيوانات. لم يأت أحد لزيارة مونينهيال، لا

حيوان ولا إنسان. لم يعرف أحد بوجوده هناك. عندما جاع في اليوم الأول، خرج من حفرته وزحف عبر القرية إلى كوخ وجد عظمة تحت رماد نار. كانت لا تزال فيها ثلاث لقيمات من لحم الماعز. كانت سوداء من الخارج لكنه شبع في ذلك اليوم، وشرب من برك الماء ثمّ زحف عائداً إلى حفرته التي مكث فيها طوال الليل والنهار. وفي اليوم الثالث، قرّر أن يموت في الحفرة، لأنها دافئة، ولأنه لا توجد أصوات في داخلها. ومات في ذلك اليوم لأنه كان قد هيأ نفسه لذلك. لم ير أحد من الصبية الذين كانوا يسيرون معي مونينهيال وهو يموت في حفرته، لكننا كنّا نعرف كلّنا أن هذه القصّة حقيقية. فما أسهل أن يموت فتى في السودان.

(١٣)

مستلقياً هنا، على أرضيّة غرفتي، أخبط بقدميَّ على الأرض عسى أن يسمعني جيراني المسيحيون. أتأرجح بين الهدوء والغضب الشديد. أجد نفسي في سلام في خضم هذه المحنة، لأنني أعرف أنها ستنتهي عندما يعود أتشور أتشور. لكن بعد ساعة، بدأت أشعر بدقق من الغضب الأعمى يغمرني، فأتلّوى وأخبط بقدمي وأحاول أن أفكّ قيودي. لكن هذه الحركات كانت تزيد من إحكام قيودي، وتجلب الدموع إلى عيني، وترسل وخزات من الألم إلى قعر جمجمتي.

لكن ثمة شيئاً يسفر عن هذا الانفجار في الشعور بالإحباط أخيراً. فقد خطر لي أنّني أستطيع أن أتدحرج على الأرض. شعرت بالغباء لأن هذه الفكرة لم تخطر لي قبل الآن، وفي لحظة، استدرت واتجهت بشكل عمودي نحو باب البيت. ورحت أتدحرج على جانبي، أدفع بذقني على السجادة. خمس دورات حتى وصلت إلى باب المنزل. استدرت مثل عجلة وثنيت ركبتي. أخذت نفساً عميقاً، وشعرت بدوار عندما عرفت أنني توصلت إلى الحلّ، ورحت أخبط على الباب بقدميَّ المقيدتين.

الآن، إذا لم أخبط على الباب، فلن أجلب انتباه أحد في الخارج. رحت أخبط وأخبط، وأخذ الباب الثقيل المبطن بالمعدن يهتزّ على إطار الباب. بدأ ينبعث صوت عال. رحت أركل مرة أخرى وسرعان ما وجدت نفسي أخبط في إيقاع. كنت أُحدث صوتاً عالياً. لا بد أن أحداً يسمعني. رحت أخبط على الباب وارتسمت ابتسامة على وجهي، لأنني أدركت أنّ كلّ من في الخارج سيستيقظون على صوت شخص في ورطة. شخص في أتلانتا يعاني، يُضرب، جاء إلى هذه المدينة لا يريد شيئاً سوى أن يكمّل تعليمه ويحظى بقدر من الاستقرار، لكنه مقيّد الآن داخل شقته. لكنّه يخبط ويركل ويصدر ضجيجاً عالياً.

اسمعيني يا أتلانتا! ابتسمت ابتسامة عريضة والدموع تسيل فوق صدغي لأنني أعرف أن أحداً، سيأتي قريباً، قد يكونون الجيران المسيحيين، أو ربما أدغاردو، أو أي شخص غريب عابر، إلى هذا الباب ويسأل من هناك؟ ماذا في الأمر؟ وسيشعرون بالذنب عندما يعرفون أنه كان بإمكانهم أن يفعلوا شيئاً قبل الآن لو أنهم كانوا يسمعون.

بدأت أعدّ الخبطات على الباب. خمس وعشرون، خمس وأربعون. تسعون.

عند الرقم المائة وخمسة وعشرين، توقفت لأستريح قليلاً. لا أريد أنّ أصدّق أن كلّ هذا الضجيج لم يثر انتباه أحد ويجعله يهرع إلى باب بيتي. كان شعوري بالإحباط أسوأ بكثير من ألم تقييدي، ومن ضربي بفوهة مسدس. أين هم هؤلاء الناس؟ أعرف أنّ الناس يسمعونني. فليس من الممكن أنّهم لا يسمعونني، لكنّهم يرون أن هذا الأمر لا يعنيهم. افتحوا الباب ودعوني أقف مرة أخرى! لو تمكنت من استعادة يديّ لاستطعت أن أنهض وأقف على قدمي. لو تمكنت من استعادة يدي لاستطعت أن أحرّر فمي، وأحكي لكم ما حدث هنا.

أركل الباب مرة أخرى: مائة وخمسون. مئتان.

من المستحيل ألاّ يأتي أحد إلى هذا الباب بعد كل هذا الضجيج. هل الضوضاء التي يحدثها العالم نشاز إلى حدّ أن أحداً لا يستطيع أن يسمع الضوضاء التي أحدثها؟ أريد شخصاً واحداً فقط! يكفي أن يأتي شخص واحد إلى باب شقتي.

كانت ماري وليامز واحدة من أوائل الأشخاص التي عرفها معظم «أطفال السودان الضائعين» في أمريكا، وهي الواسطة التي ربطتهم بجميع أنواع المساعدة الممكنة. وماري ذات العينين الدامعتين والصوت المتهدج هي التي أنشأت مؤسسة «أطفال السودان الضائعين»، وهي منظمة لا تبغي الربح تهدف إلى مساعدة اللاجئين السودانيين في أتلانتا لكي يتأقلموا مع الحياة هنا، والدراسة في الجامعة، وإيجاد عمل. عرّفني أتشور أتشور عليها بعد أسبوع من وصولي إلى أتلانتا. كنّا قد غادرنا الشقّة تحت رذاذ المطر واستقللنا الحافلة وذهبنا إلى مكتبها - الذي كان يضم طاولتيْ مكتب في مبنى مبنيٌ من الزجاج والكروم وسط مدينة أتلانتا.

- من هي؟ سألته.

- إنها امرأة تحبّنا، قال. وقال إنها تشبه عاملات الإغاثة في مخيمات اللاجئين التي كنّا فيها، لكنها لا تتقاضى أجراً لقاء العمل الذي تقوم به مع المتطوعين الذين يعملون معها. بدت لي تلك فكرة غريبة، وتساءلت ما هو الدافع الذي يجعلها هي والمتطوعون الذين يعملون معها تساعدنا من دون مقابل. كنت أسأل نفسي كثيراً هذا السؤال، ومعظم السودانيين الآخرين أيضاً: ما هدف هؤلاء الناس الذين يمضون أوقاتاً كثيرة لمساعدتنا؟

كان شعر ماري قصيراً، لها قسمات ناعمة، ويدان دافئتان. جلسنا وتحدّثنا عن نشاطات المؤسسة، وما الذي أحتاجه. وكانتٍ قد سمعت بأنّني ألقيت كلمات

في عدة مناسبات، وسألتني إن كنت مستعداً لإلقاء كلمات في الكنائس والمعاهد والمدارس الابتدائية المحليّة. فوافقت. وكانت على طاولة مكتبها نماذج أبقار صغيرة من الطين، تشبه تلك النماذج التي كان يصنعها موسى عندما كنّا صغاراً. وكان السودانيون في أتلانتا يصنعونها، وتبيعها ماري بالمزاد لتجمع أموالاً من أجل المؤسسة التي تديرها بدعم من والدة ماري، امرأة تدعى جين فوندا. وعلمت أن جين فوندا ممثلة مشهورة، ويدفع الناس مبالغ كبيرة لشراء الأشياء التي توقع عليها، وقد وقّعت على بعض نماذج الأبقار المصنوعة من الطين أيضاً.

أذكر أنني قمت بجولة في المكتب بعد أن تبادلنا الحديث لمدة قصيرة مع ماري في ذلك اليوم حول الأشياء التي أحتاج إليها وعن مخططاتي، وأذكر أنني كنت مضطرباً. فقد رأيت خزانة كبيرة تعرض فيها مئات التماثيل والأوسمة التي مُنحت إلى جين فوندا. وعندما كنت أتفحص ما تحتويه تلك الخزانة لم أستطع أن أغمض عيني. أعترف بأنّني أحبّ أن أنظر إلى الجوائز والشهادات - رأيت صوراً عديدة لامرأة بيضاء لا تشبه ماري وليامز التي كانت امرأة سوداء، لكنّي أدركت أنّ جين فوندا امرأة بيضاء، وعرفت أنه سيكون عندي أسئلة كثيرة أريد أن أسألها لماري بعد أن أنتهي من تفحص محتويات الخزانة الزجاجية. وفي الصور العديدة المعلقة في المكتب، كانت جين فوندا تظهر وهي مرتدية ثياباً قليلة جداً: ملابس تمارين رياضية، وردية وأرجوانية اللون. كانت تبدو امرأة مفعمة بالنشاط. وعندما غادرنا المكتب، سألت أتشور أتشور إن كان باستطاعته أن يقدّم لي تفسيراً عن كلّ هذا.

«ألا تعرف عنها شيئاً؟» سألني.

طبعاً لا أعرف عنها شيئاً. فحكى لي قصّتها.

ولدت ماري في أوكلاند في أواخر الستّينات، لتجد نفسها داخل عالم حركة الفهود السود. كان أبوها ضابطاً برتبة كابتن، عضواً بارزاً في الحركة، رجلاً شجاعاً. وكان عندها خمسة أشقّاء، كلّهم يكبرونها في السنّ، وكانت الأسرة فقيرة وكثيرة الارتحال. وكان أبوها قد دخل السجن عدة مرات، وكانت التهم التي وجِّهت إليه تتعلّق بنشاطاته الثورية. وعندما يكون خارج السجن، كان يتعاطى المخدّرات، ويزاول أعمالاً صغيرة متنوعة. وفي النهاية استسلمت أمّها، التي كانت ذات يوم أول امرأة أمريكية سوداء عضواً في اتحاد عمال اللحام المحلي، لتعاطي الكحول والمخدّرات. وفي وسط كلّ ذلك، أُرسلت ماري إلى معسكر صيفي في سانتا باربرة للشبان في المدينة تديره وتشرف

عليه الممثلة جين فوندا. وتعرّفت جين فوندا على ماري خلال موسميْ صيف شاركت فيهما ماري في المعسكر، وفي النهاية أخذتها من بيتها المتهاوي وتبنّتها، فانتقلت من أوكلاند إلى سانتا مونيكا ونشأت فيها مع أبناء جين فوندا البيولوجيين الآخرين. وبعد خمس عشرة سنة، بعد أن أنهت دراستها في الجامعة وعملها في مجال حقوق الإنسان في أفريقيا، وبعد أن قُتلت أختها التي أصبحت عاهرة وهي في الخامسة عشرة من عمرها في أحد شوارع أوكلاند، قرأت ماري مقالات في الصحف عن أطفال السودان الضائعين، فأنشأت هذه المؤسسة. وساهمت جين فوندا وتيد تيرنر الذي عرفت أنه كان بحّاراً ويمتلك عدة شبكات تلفزيونية، في تمويل هذه المؤسسة. ثم أتيحت لي فرصة اللقاء بكل من جين فوندا وتيد ترنر، كل على حدة، ووجدت أنهما شخصان محترمان، وتذكّرا اسمي ووضعا يديَ في يديهما.

لم تكن تلك المرة الوحيدة التي وجد فيها «أطفال السودان الضائعين» في أتلانتا أنفسهم في اتّصال مباشر مع أشخاص بارزين. لم أفهم سبب ذلك، لكني أظن أن كلّ ذلك يعزى إلى ماري التي بذلت كلّ ما بوسعها لتوجيه الانتباه إلينا، وبالتالي لجمع أموال للمؤسسة. ثم أتيحت لي الفرصة لمصافحة جيمي كارتر وحتى أنجيلينا جولي التي أمضت مساء يوم في شقّة أحد اللاجئين في أتلانتا. كان ذلك يوماً غريباً. فقد أُبلغت قبل بضعة أيام بأنّ ممثلة شابة بيضاء ستأتي لزيارة بعض أطفال السودان الضائعين، وكالعادة، دار جدال كثير حول من يجب أن يمثّلنا، ولماذا. وبما أنني كنت قائداً لعدة فرق شبابية في مخيّم اللاجئين في كاكوما، فقد كنت أحد الذين أُختيروا للحضور، إلاّ أن ذلك لم يرق لبعض الشبان السودانيين. لكني لم أكترث لهم، لأنني كنت أريد أن أحضر لأتأكد من تقديم صورة حقيقية عن حياتنا، وعدم تقديم روايات مبالغ فيها كثيراً. فتجمع عشرون شاباً منّا في شقّة أحد هؤلاء الأطفال الذي كان يعيش في أتلانتا منذ فترة من الزمن، ثمّ دخلت السيدة جولي يرافقها رجل أشيب الشعر يضع على رأسه قبعة بيسبول. وجلسا كلاهما على أريكة وتحلّق حولهما الشبان السودانيون، وحاول كلّ واحد منهم أن يُسمع رأيه، وحاولنا أيضاً أن نكون مهذبين وألاّ نتكلم بصوت مرتفع. يجب أن أعترف بأنني عندما رأيتها، لم أكن أعرف من هي، وقيل لي إنها تشبه ممثلة - كان لها نفس وقار الآنسة غلاديس، معلّمة الدراما الجذابة في كاكوما، ونفس عينيها الناعستين، ما جعلني أحبّها على الفور. واستمعت إلينا السيدة جولي لمدة ساعتين كاملتين، وقالت لنا إنها تنوي زيارة كاكوما شخصياً. وأظن أنها فعلت ذلك.

حدثت عدة أشياء مثيرة للاهتمام خلال الأشهر الأولى من وصولي إلى أمريكا! وكانت ماري وليامز تتصل بي وأنا أتصل بها باستمرار، ونشأت بيننا علاقة مثمرة. فعندما كنت أواجه مشكلة في الحصول على العلاج من أجل صداعي والألم في ركبتي - التي أصبت بها في كاكوما - كانت ماري تتصل بجين فوندا التي كانت تأخذني إلى طبيبها الخاص في أتلانتا. ثم أجرى هذا الطبيب عملية لركبتي فتحسّنت قدرتي على الحركة كثيراً. كانت ماري امرأة كريمة جداً، لكن مواقف بعض السودانيين الذين كانت تخدمهم جرحتها كثيراً، وكنت أرى في عينيها اللتين تبدوان دائماً بأنهما ستذرفان الدموع، بأنّها منهكة، وأنها لن تستمر طويلاً في خدمة قضيتنا. أتذكّر كم كان الأمر صعباً بالنسبة لها، وكم كان الشعور بالامتنان الذي تتلقاه على عملها من أجلنا قليلاً، في إحدى حفلات عيد الميلاد. فقد رتّبت كلّ شيء - حفلة تزخر بالطعام، وتذاكر لحضور مباراة لفريق «صقور أتلانتا» لكرة السلة، وكلمة خاصة سيلقيها مانوتي بول، أشهر رجل سوداني في التاريخ، لاعب سابق في الدوري الأمريكي لكرة السلة للمحترفين الذي حوّل جزءاً كبيراً من أمواله لصالح جيش التحرير الشعبي السوداني. لكن على الرغم من ذلك، كان هناك الكثير من التذمّر والتخمينات حول العمل الذي كانت ماري تقوم به من أجل مؤسسة أطفال السودان الضائعين. هل كانت تختلس التبرّعات؟ ألم يكن بوسعها إدخال أطفال السودان الضائعين إلى الجامعة؟

لم يكن قد مضى على قدومي إلى أمريكا سوى بضعة أشهر، وكنت جالساً، مرتدياً بدلة رسمية، في الصف الأمامي لحضور مباراة كرة السلة للمحترفين. تصوّر ذلك! تصوّر اثني عشر لاجئاً سودانياً، نرتدي كلّنا بدلات، وكانت جميع هذه البدلات من قياس واحد، ضيقة جداً، تبرّعت بها كنائسنا والمشرفون علينا. تصوّر ونحن جالسون، نحاول أن نفهم ما يجري من حولنا. كان الاضطراب قد بدأ قبل أن تبدأ المباراة، عندما نزلت إلى الملعب الفارغ اثنتا عشر فتاة أمريكية، ذوات لون بشرة مختلفة، رشيقات، يرتدين ملابس ضيّقة، ورقصن رقصة تضج بالحركة والإثارة على أنغام أغنية باف دادي. رحنا جميعاً نحدّق في تلك الفتيات اللاتي كنّ يرقصن ويقدّمن صورة مليئة بالعنفوان الجنسي. ولم يكن من اللياقة أن أدير وجهي، لكن الراقصات جعلنني أشعر بالارتباك وعدم الارتياح. وكانت الموسيقى صاخبة لم أسمع أعلى منها في حياتي، وبدا أن الملعب كله، بسقفه الذي يزيد ارتفاعه على ١٢٠ قدماً، وآلاف المقاعد فيه، والزجاج والكروم واللافتات المنتشرة حوله، والمشجّعين وجهاز الصوت القاتل - بدا أن ذلك كلّه قد صمم ليدفع الناس إلى حافة الجنون.

ثم بدأ فريق آخر من المشجّعات يرمين قمصان تي شيرت على مقاعد الجمهور، باستخدام أدوات تشبه مدافع رشاش. رحت أحدّق في هذه الأسلحة التي لُفَّ حول سبطانتها عشرة قمصان وكان بإمكانها أن تقذف تلك القمصان إلى مسافة أربعين أو خمسين قدماً في الهواء. كانت تلك الشابات، مشجّعات فريق أتلانتا هوكس يحاولن حثّ الجمهور على التشجيع بإعطائهم ملابس وكرات سلة صغيرة، ولم تكن مهمّتهن صعبة. وكان فريق أتلانتا هوكس يلعب في مواجهة نادي غولدن ستايت ووريورز، وكان في الملعب بضع مئات من المشجعين.

كان هناك عدد لا بأس به من السودانيين في تلك الليلة - مائة وثمانون - وكان قد تم اختيار اثني عشرة شخصاً منّا ليجلسوا في الصفوف الأمامية من الملعب مع مانوتي بول. كنّا نجلس في الملعب، نشاهد مباراة في كرة السلة، بجانب أحد أطول الرجال قامة في فرق كرة السلة للمحترفين. كانت تلك الليلة مميزة في حياتي، وكان يجب أن تكون إيجابية، كلّها، لكنّها لم تكن. وكان أول شيء مزعج حدث هو عندما اقترب منا أحد أطفال السودان الضائعين، الذي لم يخصص له مقعد في المقدمة، وبدأ يشكو ويتذمر بصوت عال، حتى لمانوت، بأن هذا ليس عدلاً. وبينما أخذ هذا الشابّ الذي لن أذكر اسمه، يصيح معترضاً على هذا الظلم، ذكر اسم ماري عدة مرات، وقال إنها هي سبب المشكلة.

وتساءل، «كيف يمكنها أن تفعل ذلك؟ بأيّ حقّ تفعل ذلك؟» وأحسست بالازدراء تجاه هذا الشاب في تلك الليلة. وطلب منه أحد المشرفين أخيراً أن يعود ويجلس في مقعده، ثم حوّلنا، محرجين، انتباهنا إلى الملعب. وعندما واصلت الفتيات الرقص، اندفع بعض اللاعبين من فريق أتلانتا هوكس الذين كانوا يبدون شخصياً أضخم بكثير مما يبدون على شاشة التلفزيون، بأحذيتهم الضخمة لمصافحة بول الذي ظلّ جالساً، لأنّه كان يبدو أن وقوفه لم يكن سهلاً كما كان ذات يوم. ورأينا بول يكلّم اللاعبين الأمريكيين الذين قال له معظمهم بضع كلمات وهم يصافحونه بسرعة، ثم عادوا إلى فريقهم. ورمقنا عدد من لاعبي فريق الهوكس بعيونهم، ضيوف بول، وبدا أنهم استنتجوا على الفور من نحن.

كان ذلك أمراً مشجّعاً ومخجلاً في الوقت نفسه. وعلى الرغم من أننا كنّا نتمتع بصحّة أفضل بكثير مما كنّا عليه قبل الآن، فقد بدونا بجانب هؤلاء اللاعبين، ضامرين مصابين بسوء تغذية. حتى زعيمنا، مانوتي بول، فقد كان برأسه الصغير وقدميه الضخمتين، يشبه غصناً كبيراً اقتُلع من شجرة ضخمة.

وكنّا نبدو، نحن السودانيين، أناساً ضامرين ضعاف البنية. ولم يكن بالإمكان صنع بدلات تمنحنا وهم السهولة والراحة في هذا العالم.

كانت هذه المباراة بداية أمسية للاحتفال بعيد ميلادنا الجماعي، نظّمتها ماري والمتطوعون الذين يعملون معها. وبعد انتهاء المباراة، احتفلنا بعيد ميلادنا في مركز شبكة السي إن إن المجاور. فقد استخدمت ماري نفوذها لدى تيد تيرنر الذي قدّم لنا قاعة، وكان هناك دجاج مقلي، وفاصولياء، وسلطة، وكيك، وصودا. وكانت قد أقامت مؤسسة أطفال السودان الضائعين حفلة مماثلة لكلّ واحد منّا السنة الماضية قبل وصولي إلى أمريكا. لماذا كنّا نحتفل كلنّا بعيد ميلادنا في اليوم نفسه؟ إنه سؤال وجيه، والجواب مثير للاهتمام على الرغم من تفاهته. فعندما كان موظفو مفوضية شؤون اللاجئين التابعة للأمم المتحدة في كاكوما يجهّزون أوراقنا، سجلّوا عمر كلّ واحد منّا وفق تقديرهم هم، وهكذا سجلونا كلّنا في يوم ميلاد واحد وهو ١ كانون الثاني (يناير). ولا أعرف حتى الآن سبب ذلك. فقد كان يبدو أنّ تحديد يوم واحد لنا جميعاً أسهل للأمم المتّحدة بكثير من اختيار تواريخ ميلاد مختلفة عشوائيا لكلّ واحد منّا. ومع أنّ عدداً من الصبية اختاروا تاريخ ميلاد جديد، فقد قبل معظمنا بتاريخ ١ كانون الثاني (يناير) كتاريخ ميلاد. وفي جميع الأحوال، أصبح تغييرها في جميع وثائقنا الرسمية أمراً بالغ الصعوبة.

أثناء الاحتفال، كنّا نحن الرجال الذين قدم بعضنا من مسافات بعيدة مثل جاكسونفيل وشارلوت، نتبادل الأحاديث مع أحدنا الآخر ومع العائلات التي تبنّتنا. وكان قد تبنّى كلّ لاجئ منّا شخص أمريكي أو أكثر معظمهم مع عائلاتهم من البيض، لكنهم كانوا يتفاوتون من الناحية الاجتماعية والاقتصادية: فقد كان هناك أزواج شبان يعملون في مهن راقية، ورجال أكبر سناً يضعون على رؤوسهم قبعات سائقي شاحنات، ومتقدمون في السن. وكان يرافق معظم هؤلاء الأمريكيين الحاضرين نساء تتراوح أعمارهن بين الثلاثين والستّين سنة، لطيفات، من ذلك النوع الذي تحسبهن متطوّعات في مدرسة أو في كنيسة.

كانت رؤية كلّ هؤلاء الرجال في هذا المكان - شيئاً عظيماً. فقد رأيت بين الحاضرين شقيقين كنت قد درّبتهما على كرة القدم عندما كنّا مراهقين، وكان هناك صبية أعرفهم من صفوف اللغة الإنكليزية، وآخرون من فريق المسرح في كاكوما الذي كنت عضواً فيه، وآخرون كانوا يبيعون أحذية في المخيّم. كانت هذه أول مرة ألتقي فيها بأكثر من عشرة صبية أعرفهم من كاكوما، وكاد ذلك يصعقني: فقد نجونا كلّنا وبقينا أحياء، ونرتدي الآن بدلات رسمية وأحذية جديدة، ونقف في معبد الثروة الزجاجي الذي يشبه الكهف! حيّا

أحدنا الآخر بالعناق والابتسامات المفتوحة، وكنا مصدومين جميعاً من رؤية بعضنا.

وكان هناك عدد من الصبية بيننا يرتدون ملابس مختلفة عن الآخرين، بدلات رياضية، وواقيات شمس، وقبعات بيسبول وقمصان كرة سلة، وساعات وسلاسل ذهبية. كنا نطلق على هؤلاء اسم هاواي ٥-٠، لأنهم عادوا للتو من هاواي حيث عملوا ممثلين ثانويين في فيلم بروس ويليس. هذا صحيح. فقد كان يبدو أن أحد المتطوعين في مؤسسة أطفال السودان الضائعين يعرف أحد المسؤولين عن اختيار طاقم الممثلين يدعى فيلوس أنجلوس الذي كان يبحث عن رجال من شرقي أفريقيا للعمل كممثلين ثانويين في فيلم يحكي قصة رجل أمريكي أسود اسمه أنتوان فوكوا. فأرسل المتطوّع صوراً لعشرة رجال سودانيين يقيمون في أتلانتا، فأخذهم كلّهم. وفي الحفلة، كان هؤلاء العشرة قد عادوا مؤخراً بعد أن أمضوا ثلاثة أشهر في الجزر، حيث أقاموا في فندق خمس نجوم حيث تمت تلبية جميع طلباتهم، وحصلوا على أجور مجزية. وبعد أن عادوا إلى أتلانتا، قرروا الآن أن يُظهروا للآخرين بأنهم كانوا في مكان ما، وأنهم أصبحوا ينتمون الآن إلى طبقة تختلف عن الآخرين منّا. وكان أحدهم يضع فوق قميص من هاواي نصف دزينة من السلاسل الذهبية. وكان آخر يرتدي قميص تي شيرت طُبعت عليه صورته مع بروس ويليس، ودأب على ارتداء هذا القميص كلّ يوم طوال سنة، وقد غسله كثيراً حتى كاد وجه السيد ويليس يمّحي وأصبح يبدو كأنه شبح.

وبينما كان صبية هاواي ٥-٠ يتفاخرون ويتباهون ويأخذون أوضاعاً، كنّا نحاول أن نبدو بأننا لم نتأثر بما يفعلونه. ففي أحسن الأحوال، كنّا سعداء من أجلهم، أو كنّا نضحك عليهم لسخافة كلّ ذلك، وفي أسوأ الأحوال، كانت هناك غيرة، غيرة شديدة، ومرة أخرى، انصبّ كلّ اللوم على ماري التي أُشيع بأنها هي التي خططت لذهاب هؤلاء الشباب إلى هاواي، ومن هي حتى تستخدم هذه السلطة؟ لقد بُذرت بذور موت مؤسسة أطفال السودان الضائعين في تلك الليلة. ومنذ ذلك اليوم، لم يعد بإمكان ماري أن تفعل شيئاً مفيداً. لا أظن أن السودانيين أناس يحبون الجدال وإثارة المشاكل، لكن يبدو أن السودانيين الذين يعيشون في أتلانتا هم كذلك في معظم الأحيان. فقد كانوا يبحثون عن سبب يُشعرهم بأنهم أُهينوا لأن ثمة شيئاً أُعطي لشخص آخر ولم يُعط لهم. فأصبح من الصعب قبول عمل، أو توصية، أو أيّ هدية تقدّمها كنيسة أو جهة أخرى، لأنه أصبح يُنظر إليها بمزيج من الشعور بالامتنان والهلع. ففي أتلانتا، كان يوجد مئة وثمانون زوجاً من العيون المسلطة علينا في أي لحظة، وأصبح يبدو أنه لم يعد هناك شيء كاف من أي شيء يحدث، ولم تعد هناك طريقة لتوزيع أيّ شيء بإنصاف. وبعد فترة، أصبح قبول

هدايا، أو دعوات للتكلّم في المدارس أو في الكنائس، أو حتى الخروج من المجتمع برمته، أمراً غير مأمون العواقب. لأنه لا يمكن أن يعيش المرء من دون أن يراقبه أحد ويطلق عليه أحكاماً.

ثم عُقدت رقصات على الرغم من وجود أربع نساء مؤهّلات فقط، من بينهن امرأتان سودانيتان. وبعد انتهاء الرقص، ألقى مانوتي بول كلمته. كان أطول منّا جميعاً. كان صارماً ومفوهاً. وألقى كلمته بلغة الدينكا أولاً ثمّ باللغة الإنكليزية لكي يفهم الأمريكيون الحاضرون. وحثّنا على أن يكون سلوكنا جيداً خلال إقامتنا في الولايات المتّحدة. وأصرّ على أن نكون مهاجرين قدوة، نعمل بجدّ ونسعى إلى التعلم في الجامعة. وقال إننا إذا تصرفنا بكرامة، وتهذيب، وأظهرنا طموحاً، فإننا سنحظى بمحبة الأمريكيين الذين استضافونا، وسيشجّع نجاحنا حكومة الولايات المتّحدة على جلب المزيد من اللاجئين السودانيين. وقال إن الأمر يتوقف علينا، وأن نكون النور الذي ينبعث منه الأمل للسودانيين الذين لا يزالون يقبعون في المخيمات في السودان ويعانون الكثير.

«تذكّروا أنّ الوقت من ذهب!» قال يحثّنا.

ثم صمت ليحدث تأثيراً على الحاضرين.

«لا يمكنكم أن تتأخروا في أمريكا!»

فترة صمت طويلة أخرى.

تحدّث مانوت بعد توقفات عديدة. فقد كان يبدأ كلّ جملة ببضع كلمات عالية، ثمّ يعود ويتحدّث بنبرة أكثر هدوءاً مستدركاً بعض الأفكار. وعندما كان يتكلّم، كنّا نقف جميعاً، صامتين، نهزّ رؤوسنا. كان احترامنا لمانوتي بول لا حدود له. فقد بذل كل ما بوسعه لإحلال السلام في السودان. وكانت الحكومة قد شجعته منذ سنوات على المجيء إلى الخرطوم، لتنصيبه وزيراً للرياضة والثقافة. وبما أنه مخلص لبلده، فقد اعتبر ذلك فرصة ليلفت انتباه الحكومة الإسلامية إلى مصالح شعبه، فقبل مانوت الدعوة وسافر إلى الخرطوم. وعندما وصل إليها، قالوا له إنهم سيمنحونه هذا المنصب إذا تخلّى عن المسيحية واعتنق الإسلام. فرفض، وكان هذا الأمر كارثياً. فأُحرج الذين وجهوا له الدعوة، وبحسب الأسطورة، فقد تمكن من الخروج حياً من البلد بأعجوبة. ويقال إنه دفع رشوة ليغادر البلد وعاد إلى ولاية كونيتيكت.

«لم تعودوا تعيشون بحسب التوقيت الأفريقي! لقد ولّت تلك الأيام!»

لم يُقل لنا أيّ شيء جديد. وفي الأحاديث مع كلّ واحد منّا، تبين له إننا كنّا نرغب جميعاً في الدراسة في الجامعة وأن نتمكن من إرسال نقود إلى أهلنا في السودان.

«اجعلوا أسلافكم فخورين بكم!» صاح.

كانت ماري تراقب كلّ ذلك وهي منهمكة في فتح صرر الطعام، وتقديم الشكر للمتبنّين، ومصافحة القادمين. كانت تلك آخر مرّة أذكر أنني رأيتها سعيدة وهي تعمل من أجلنا. ثم بدأت أتعرّف على ماري بصورة أفضل في الأشهر التالية - فقد شاهدنا معاً فيلم «طارد الأرواح الشريرة» - وحكت لي عن الصعوبات التي تواجهها مع السودانيين الآخرين الذين تسعى لخدمتهم. فقد كانوا يصرخون في وجهها، ويشككّون في قدراتها وكفاءتها، وكانوا غالباً ما يعزون حماقتها إلى جنسها، وأعترف بأن عدداً كبيراً من الرجال السودانيين يلجؤون إلى هذا الأسلوب. ومع كلّ اتهام جديد يوجّهونه إليها - بأنّها تبدد التبرعات التي تتلقاها، وأنّها تحابي البعض، وإلى ما هنالك - كانت تتراجع أكثر، وبطبيعة الحال لم يكن أمامها إلاّ أن تحابي السودانيين الذين لم يكونوا يسعون إلى تشويه سمعتها. وبقيت أدعمها، لأن أشياء كثيرة فعلها السودانيون في أتلانتا أعاقت عملها. وأعترف بأنّني استفدت من الصبر والمودة التي أظهرتها لي، وكانت الهدية الرئيسية التي قدمتها لي هي شخص يدعى فيل مايس.

على الرغم من وجود عدد كبير من المتبنّين مثلكم، أيها الجيران المسيحيون - روّاد الكنيسة ذوي النوايا الحسنة الذين تأثروا كثيراً بمحنة أطفال السودان الضائعين- بعد قضاء عدة أشهر في أتلانتا، لم يتبناني أحد، وكان مبلغ الإيجار الذي قدمته لنا الحكومة الأمريكية لمدة ثلاثة أشهر فقط على وشك أن ينتهي. وكنت أعاني من صداع شديد يكاد ألاّ يتوقف، ولم يكن بمقدوري أن أتحرّك في أحيان كثيرة. كنت أحسب أن الألم سيصيبني بالعمى. كنت أريد أن أبدأ حياة جديدة، وكنت بحاجة إلى أحد يساعدني في أمور لا تعد ولا تحصى: رخصة قيادة، الحصول على سيارة، وعلى عمل، وقبول في الجامعة.

« سيساعدك فيل في تحقيق كلّ هذه الأشياء»، قالت ماري عندما كنّا ننتظر في أحد الأيام الماطرة في مكتب مؤسسة أطفال السودان الضائعين. ربتت على ركبتي، وقالت: «إنه أفضل متبنٍّ لك».

كان معظم المتبنّين نساء، وكنت أعرفت مدى الكراهية التي ستُوجّه إليّ عندما يعرف الآخرون أن الشخص الذي تبنّاني هو واحد من الرجال القلائل المتاحين، لكني لم أكترث بذلك. فقد كنت بحاجة إلى المساعدة، ولم أعد آبه لما يقوله الشبان السودانيون في أتلانتا.

كنت أشعر بتوتر شديد للقائي بفيل. ولا أمزح عندما أقول لكم إننا، نحن السودانيين، نعتقد كلّنا بأنّ أيّ شيء سيئ يمكن أن يحدث في أي لحظة، وفكّرت باحتمالية أن أُسلَّم إلى مسؤولي الهجرة عندما أصل إلى مكتب المؤسسة، ويرحلونني إلى كاكوما أو إلى مكان آخر. كانت ثقتي بماري كبيرة، لكني فكّرت بأن فيل مايس قد يكون مسؤولاً في دائرة الهجرة لم ترق له تصرُّفاتنا أثناء فترة إقامتنا في الولايات المتحدة. وقال لي فيل فيما بعد إنه رأى ذلك في تصرفي: طريقة توسلي، توتري. كنت أشعر بالامتنان لأيّ ساعة لقيت فيها ترحيباً ولم أكن معرضاً فيها للخطر.

انتظرت في البهو. كنت أرتدي بنطالي الأزرق الذي قدّمته لي الكنيسة. كان قصيراً، وكان الخصر عريضاً جداً، لكنّه كان نظيفاً. وكان القميص الأبيض الذي أرتديه على مقاسي. كنت قد كويته الليلة الماضية وكويته ثانية في الصباح.

خرج رجل من المصعد، يرتدي بنطال جينز وقميص بولو. كان يبدو لطيفاً، في الثلاثينات من عمره، يشبه أي رجل عادي أبيض في أتلانتا. كان ذاك هو فيل مايس. ابتسم واتجه نحوي. أخذ يدي بين يديه، وصافحها ببطء، محدّقاً في عيني. حتى أن يقيني ازداد بأنه ينوي ترحيلي عن البلد.

تركتنا ماري وحدنا، وحكيت لفيل قصّتي باختصار. شعرت بأنه تأثّر كثيراً بما سمعه. كان قد قرأ عن أطفال السودان الضائعين في الصحف، لكن سماع قصتي بالتفصيل أزعجه أكثر. سألته عن حياته فحكى لي شيئاً عن نفسه. قال إنه يعمل في العقارات، وقد حقق نجاحاً في عمله، وقال إنه نشأ في مدينة غاينيسفيل، بفلوريدا، الابن المتبنّى لأستاذ في علم الحشرات ترك الحياة الأكاديمية وأصبح ميكانيكياً. وقد تركت أمّه بالتبّني البيت وهو في الرابعة من عمره، فربّاه أبوه وحده. وكان فيل رياضياً، وعندما لم يحقق نجاحاً على مستوى شهادته الجامعية، أصبح مذيعاً في برنامج رياضي بعد تخرجه. ثم درس الحقوق وانتقل إلى أتلانتا، وتزوّج، وفتح مكتبه الخاصّ. وعندما كان مراهقاً، اكتشف أنه كان ابناً بالتبنّي، وبدأ أخيراً يبحث عن أبويه الحقيقيين. كانت النتائج مختلطة، وكانت لديه دائماً أسئلة عن حياته، وعن أصوله وطبيعته، والتربية التي تلقاها. وعندما قرأ فيل عنّا وعن مؤسسة أطفال السودان الضائعين، قرر أن يتبرّع بمبلغ معين للمؤسسة، وقرّر هو

وزوجته ستايسي أن يتبرّعا بمبلغ عشرة آلاف دولار، فاتّصل بالمؤسسة وتحدّث إلى ماري التي سرّها ذلك كثيراً، ثم سألت فيل إن كان يحبّ أن يتبرّع بشيء أكثر من المال، وإذا كان بإمكانه أن يأتي إلى المكتب، وربما يتبرّع بقدر من وقته أيضاً؟

ها هو الآن يجلس معي، وكان جلياً أنّه وجد صعوبة في المأزق الذي وجدنا فيه أنفسنا معاً. فلم يكن قد خطّط أصلاً لأن يتبنّاني، لكنه عرف خلال دقائق بأنه إذا غادر المكتب في ذلك اليوم وكتب شيكاً فقط، فإنني سأبقى كما كنتُ من قبل - ضائعاً وعاجزاً. حزنت عليه وأنا أراقبه يكافح لكي يتوصل إلى قرار. ولو كنت في وضع آخر لقلت له إن النقود تكفي، لكنّي كنت أعرف أنّني بحاجة إلى شخص يرشدني، شخص يأخذ بيدي ويدلّني، مثلاً، كيف أجد علاجاً لصداعي. رحت أحدّق به وحاولت أن أبدو له شخصاً يمكنه أن يمضي معي وقتاً جيداً، شخصاً ملائماً يدعوه إلى بيته، ويعرّفه على زوجته وطفلتيه التوأم اللتين لم تبلغا السنة الواحدة من عمرهما. ابتسمت وحاولت أن أبدو طيّعاً ولطيفاً، لا شخصاً يجلب البؤس والمتاعب.

قلت له: «إني أحبّ الأطفال وأجيد التعامل معهم»، وأضفت بأن «أيّ مساعدة يمكن أن تقدّمها لي، سأردّها لك برعاية الطفلتين، أو بالعمل في الحديقة. سأكون سعيداً لأن أفعل أيّ شيء من أجلك».

المسكين. أظن أنّني أثقلت عليه. كان على وشك أن يبكي عندما نهض واقفاً أخيراً وصافحني، وقال: «سأتبنّاك، وسأشرف عليك»، وأضاف، «سأجد لك عملاً، وسأجلب لك سيارة وشقّة. ثمّ سنفكّر بإمكانية دخولك إلى الجامعة». عرفت أنه سيفعل ذلك. فقد كان فيل مايس رجلاً ناجحاً وسينجح معي. صافحته بقوة وابتسمت ورافقته إلى المصعد. ثم عدت إلى مكتب المؤسسة ونظرت من النافذة. كان فيل خارجاً من البناية، وأصبح الآن تحتي. راقبته وهو يصعد إلى سيارته، سيارة جميلة، ملساء وسوداء، تحتي تماماً وأنا واقف أمام الزجاج. جلس وراء المقود، ووضع يديه على حضنه وراح يبكي. رأيت كتفيه تهتزان، ورأيته يرفع يديه إلى وجهه.

كان تناول العشاء في بيت فيل وستايسي مناسبة بالغة الأهمية، فقد كان عليّ أن أمنحهما انطباعاً جيداً عني. كان عليّ أن أكون لطيفاً، شاكراً، وأن أحرص على أن أجعل طفليهما يحبانني. لكنّي لم أذهب لزيارته وحدي. فلم تكن عندي سيارة في ذلك الوقت، فطلبت من أتشور أتشور أن يوصلني إلى بيت فيل وهو في طريقه للقاء بعض اللاجئين. غسلت وكويت نفس القميص الذي كنت قد لبسته عندما التقيت بفيل - كان القميص الملائم الوحيد الذي

كنت أملكه حينذاك - وكويت بنطلوني الكاكي. عندما صعدنا إلى السيارة قال لي أتشور أتشور إنه سيأخذ معه على الطريق لاجئين سودانيين آخرين، هما بيول وداو.

«ماذا؟» قلت، غاضباً. فقد كنت قد خطّطت أن يرافقني أتشور أتشور حتى باب بيت فيل، لأنني شعرت بأنني لا أستطيع أن أفعل ذلك وحدي. أما الآن، فسيكون معي ثلاثة شبان سودانيين؟ هل سيفتح لنا فيل وستايسي الباب؟

«لا تقلق»، قال أتشور أتشور، «سنغادر فور أن نوصلك إلى الباب».

ركن السيارة في الشارع ومشينا في الممر. كان البيت ضخماً، بحجم بيت يقيم فيه أكثر الوجهاء بروزاً في السودان - وزراء وسفراء. وكان المرج أخضر زاه، والسياج العشبي مشذّب في شكل مكعّبات وأجرام سماوية.

قرعنا الجرس. فُتح الباب ورأيت آثار الصدمة على وجهيهما. كان فيل وستايسي، يحمل كلّ منهما أحد التوأمين.

«هيه»، قالت ستايسي. كانت نحيفة وشقراء، صوتها واضح لكنه غير واثق. نظرت إلى فيل، كما لو أنه لم يخبرها بأنه دعا أربعة سودانيين إلى العشاء، لا شخصاً واحداً.

«تفضلوا، تفضلوا!» قال فيل.

دخلنا. أغلقا الباب وراءنا.

«آمل أنّ تحبّوا الشواء يا شباب»، قالت ستايسي.

التفتُ إلى أتشور أتشور ونظرت إليه نظرة أحثّه فيها على أن يغادر، لكنّه كان منهمكاً بانبهاره بالبيت. كان من الواضح أن أتشور أتشور وبيول وداو قد نسوا أنهم سيذهبون لحضور الاجتماع. وقرروا البقاء على العشاء.

كان البيت في الداخل أجمل بكثير مما هو في الخارج، وبدا أن سقفه على ارتفاع ثلاثين قدماً. وكانت توجد غرفة جلوس مضاءة، وسلّم يلتف إلى اليمين يفضي إلى الغرف في الطابق العلوي، فيه شرفة تطلّ على غرفة الجلوس. وامتدت رفوف مليئة بالكتب على ارتفاع الجدران، وبين الرفوف، يوجد في الزاوية جهاز تلفزيون ضخم. كان كلّ شيء باللونين الأبيض والأصفر - كان بيتاً مضيئاً وسعيداً، مليئاً بالهواء. وعلى طاولة رخامية تمتدّ

من المطبخ، توجد طاسة فضّية، تلمع، مليئة بالفواكه الطازجة. سرنا إلى الشرفة الخلفية، حيث راح فيل يتفحص قطع الهامبرغر الستّ في الشواية التي بدأت تسوّد. حاولت أن أبتسم للطفلتين، لكن يبدو أنني لم أعجبهما، فراحتا تنظران إليّ، ببشرتي السوداء بلون الباذنجان، وأسناني الغريبة الشكل، فأجهشتا في البكاء.

«لا تقلق»، قال فيل، «إنهما تبكيان كلما شاهدتا شخصاً غريباً».

«هل تناولتم هامبرغر من قبل؟» سألنا فيل كلنّا.

كنا أنا وأتشور أتشور قد تناولنا هامبرغر في مطاعم قبل الآن، وكذلك في أتلانتا.

«نعم، نعم»، أجبته.

«وهل تعرفون ماذا يوجد داخل الهامبرغر؟»

«نعم، طبعاً»، قال أتشور أتشور، «لحم خنزير».

بدت مثل نكتة، كما هو الحال مع الأخطاء التي كنا نرتكبها، الفجوات الكثيرة في فهمنا التي كانت في معظم الأحيان تثير ضحك الأمريكيين. فعندما انتقلنا إلى شقّتنا في بادئ الأمر، لم نكن نعرف كيف نشغّل مكيّف الهواء، أو كيف نوقفه، فنمنا طوال أسبوع بملابسنا، نتغطى بالبطانيات والمناشف، أيّ قطعة قماش متوفرة لدينا.

حكينا هذه القصّة لفيل وستايسي، فضحكا. ثمّ حكى لهما أتشور أتشور قصّة علبة الفوط النسائية. فقد ذهب اثنان من اللاجئين السودانيين مؤخراً للتسوق لأول مرة منذ وصولهما في مخزن بقالية ضخم. وكان معهما خمسون دولاراً، لكنهما لم يعرفا ماذا يشتريان. وفي أثناء جولتهما في المخزن اختارا علبة خاصة جداً ووضعاها في عربتهما. فابتسمت المرأة المشرفة عليهما، وهي امرأة في الخمسينات من عمرها، وحاولت أن تشرح لهما ماذا يوجد في العلبة، التي كانت في الحقيقة فوطاً نسائية. وقالت لهما «إنها للنساء»، ولم تكن تعرف ماذا يعرفان عن جسد المرأة وعن دورتها الشهرية. (لم يكونا يعرفان شيئاً). وظنّت أنّها أنجزت مهمّتها، لكنها فوجئت بأن الرجلين أصرّا على أخذ العلبة. «إنها تبدو جميلة»، قالا واشترا العلبة، وأخذاها معهما إلى البيت، ووضعاها على منضدتهما الصغيرة وبقيت هناك عدة أشهر.

حاولنا أن نكون مهذبين أثناء تناول الطعام، لكن كانت على مائدة مايس أنواع عديدة وجديدة من الطعام، ولم نكن نعرف ما هي الأطعمة المناسبة وغير المناسبة لنا. فقد بدت لنا السَلَطة مختلفة عن السَلَطة التي أكلناها من قبل، فلم يلمس أتشور أتشور طبق سلطته. وبدت الخضراوات مألوفة، لكنها كانت نيئة، وكنّا نفضّل أن تكون سلطتنا مطهية. فقد كانت الخضراوات والفواكه الطازجة تسبب لنا مشاكل صحية، لأننا لم نتناول أشياء كهذه طوال السنوات العشر التي عشنا فيها في كاكوما. شربت الحليب الذي وضع أمامي. كان أول كأس حليب بالطريقة الغربية أشربه في حياتي، وقد سبّب لي ألماً بعد ساعات من تناوله. لم أكن أعرف آنذاك بأن معدتي لا تحتمل اللاكتوز. وهكذا أصبحت في حالة حرب مع معدتي خلال السنة الأولى في أمريكا.

عندما أنهى فيل عشاءه، وضع منديله على الطاولة، وقال: «إذاً هل توجد عندكم، يا شباب، تعابير تستخدمونها، مثل، عبارات تشي بالحكمة بلغة الدينكا؟»

نظرت إلى أتشور أتشور ونظر إليّ. حاول فيل مرة أخرى.

«آسف. فأنا مهتمّ بالأمثال. فعلى سبيل المثال، قد أقول، ‹ A stitch in time saves nine ›، وهي تعني...» ثم صمت، ونظر إلى ستايسي. لكنها لم تسعفه، فقال: «حسناً، لا أعرف ماذا تعني. لكن هل تعرفون ماذا أقصد؟ أقصد أشياء يقولها لكم آباؤكم؟»

رمق كلّ واحد منّا نحن السودانيين الأربعة بنظرات سريعة، آملاً أن يكون لدى أحدنا جواب مقنع.

«المعذرة»، قال أتشور أتشور، واتجه إلى الحمّام. عندما أصبح في نهاية القاعة، تنحنح بصوت عال. نظرت إليه، ورأيته يومئ إليّ لأن آتي إليه. اعتذرت أنا أيضاً، وسرعان ما بدأنا أنا أتشور أتشور نتهامس بعنف في حمّام عائلة مايسي.

«هل تعرف ماذا يريد؟» همس لي. يجب أن نجيبه على هذه السؤال». فقد كنا نظن أن عالمنا كلّه يتوقّف على كلّ سؤال، وعلى كلّ جواب. وظننا أننا إذا لم نُرض فيل، فقد يغيّر رأيه بشأني، ويرفض أن يساعدني.

«لا»، قلت، «ظننت أنك ستفعل ذلك. فأنت أفضل مني بلغة الدينكا». هذا صحيح. كان إتقان أتشور أتشور للغة ولهجاتها ومصطلحاتها أفضل مني بكثير.

في أثناء الدقائق الخمس التي أمضيناها معاً في الحمّام، تمكّنا من تذكّر مثلين ظننا أنهما سيعجبان فيل.

«ها هنا مثل»، قال أتشور أتشور، وهو يجلس إلى الطاولة. «قاله مسؤول مهمّ في حركة تحرير الشعب السوداني: ‹أحياناً تستطيع الأسنان أن تعضّ اللسان، لكن الحلّ هو ألاّ يجد اللسان فماً آخر ليعيش فيه›».

ابتسم أتشور أتشور، وابتسمنا كلّنا. لم يكن أحد يعرف معنى المثل إلاّ أتشور أتشور.

بعد أن رُفعت الصحون عن المائدة، وغادر أتشور أتشور وبيول وداو، طلب مني فيل أن أبقى لنتحدّث. أخذت ستايسي الطفلتين إلى غرفتهما، وقالت طابت ليلتكما. وصعدنا أنا وفيل درجات بيتهم الكبيرة إلى غرفة ألعاب الطفلتين. لم أر في حياتي هذا العدد من الألعاب في مكان واحد. فقد كان أشبه بمركز لرعاية الأطفال أو دار حضانة، لكن لعشرات الأطفال، لا لطفلتين فقط. وامتلأت الحيطان بجداريات، رسوم مستمدة من كتب أطفال - حوريّات وأبقار طائرة. وكانت هناك حيوانات محشوة، وألغاز ثلاثية الأبعاد، وبيت ألعاب. كان كلّ شيء ملون بالأبيض والوردي والأصفر. وفي الجانب الآخر من الغرفة، تنتصب طاولة مكتب كبيرة، عليها جهاز كمبيوتر محمول وهاتف وطابعة. «هذا مكتبي المنزلي»، قال لي فيل موضحاً. «أستخدمه عندما أحتاج إلى ذلك».

كان في الغرفة كرسي واحد فقط، فجلسنا على الأرض. ثم قال: «إذن».

لم أعرف كيف أجيبه أو ما الذي يجب أن أفعله، فقلت له ما أردت أنه أقوله وهو «إنها مشيئة الله أننا التقينا».

وافق فيل وقال: «أنا سعيد بذلك».

سألته عن الصور المرسومة على الجدران، فحدّثني فيل عن أليس في بلاد العجائب، وعن همبتي دامبتي، وبيغ باد وولف، وليتل رد رايدينغ هوود. وعندما حلّ الظلام، أشعل فيل مصباحاً، ضوءاً يتدفّق عبر سلسلة من الصور الجانبية البطيئة: خيول بلون سمك السلمون، وفيلة بلون الليمون الأخضر تجري على الجدران والنوافذ.

«إذن، أظن أنك يجب أن تحكي لي القصّة بأكملها»، قال.

منذ أن وصلتُ إلى آتلانتا، لم أحكِ قصتي بكاملها لأحد، لكنّي أردت أن أحكي لفيل مايس، لأنه رجل طيب جداً، وعرفت أنه سينصت إلى ما سأقوله.

«لا أظن أنك تريد أن تسمعها كلّها»، قلت.

«لا، أريد. أريد أن أسمعها كلها» قال مؤكداً. كان يحمل بيده لعبة حصان محشو فوضعها على الأرض بجانبه، وأوقفه على قوائمه.

شعرت بالرضى لأنه كان جادّاً. فبدأت أحكي له القصّة، منذ الأيام الأولى في مايال باي. حكيت له عن ثوب أمّي الأصفر بلون الشمس، وحكيت له عن دكّان أبي، وعن اللعب بالمطارق كزرافات، واليوم الذي وصلت فيه الحرب إلى مايال باي.

أصبح ذلك طقساً. ففي كلّ يوم ثلاثاء، كنت آتي لتناول العشاء، وبعد العشاء، تأخذ ستايسي الطفلتين إلى سريرهما، ونجلس أنا وفيل على أرضيّة غرفة الألعاب وأحدّثه عن الحرب في السودان وعن الرحلة التي قمت بها. وفي الأيام التي لم نكن نفعل فيها ذلك، كان فيل يساعدني في أشياء أخرى.

وخلال شهر، فتح لي حساباً مصرفياً، وأُعطيتُ بطاقة لسحب نقود من الصراف الآلي، ورتّب دروساً لقيادة السيارة، ووعدني بأن يشاركني في التوقيع على قرض سيارة عندما أكون مستعدّاً لذلك. وذهبنا مع ستايسي والطفلين إلى مخزن بقالية، وشرحا لي أنواع الطعام التي ينبغي أن أتناولها في كلّ وجبة طعام. وقبل تلك الزيارة إلى البقالية، لم أكن قد تناولت ساندويشة. فلم نكن، أنا وأتشور أتشور، طاهيين جيدين، وكنا نتناول وجبة طعام واحدة فقط في اليوم. ولم نكن نعرف أي طريقة أخرى، لذلك كنّا نخشى دائماً أنّ ينفد الطعام. يخيّل لي أن فيل كان يُدهش لأننا لم نكن نعرف أشياء كثيرة، وكيف أنه لم يكن يتصوّر أننا لا نعرف الأشياء التي يعتبرها بديهية. فكان يشرح لي كيف يعمل منظّم الحرارة في الشقّة، وكيف أكتب شيكاً، وكيف أسدد فاتورة، والمكان الذي تذهب إليه كل حافلة. وأخيراً، ساعدني في شراء سيارة تويوتا كورولا سهّلت كثيراً قدرتي على الحركة والتنقل. وأصبح بإمكاني أن أذهب إلى مكان عملي في صالة المفروشات، ثمّ إلى معهد جورجيا بيريميتر كولدج، في أقل من ثلث الوقت الذي كنت أمضيه في التنقل بالحافلة. ولم أعد أحنّ إلى أن أستقلّ تلك الحافلة.

منذ البداية، كان منحنى التعلّم مع فيل شديد الانحدار، لكنني بقيت معه وبدا أن فيل لم يكن يشعر بعبء كبير، وإنما كان يبدو سعيداً عندما يشرح لي الأشياء الأساسية جداً، مثل غلى الماء على الموقد، أو الفرق بين المجمّدة

والثلاجة. وكان يعالج كلّ مشكلة بنفس نبرة الصوت الحذرة والجدّية، وكان يبدو أنه يشعر بالإحباط لأنه لم يكن يستطيع أن يقدم لي أكثر. وكان قلقاً على أتشور أتشور الذي لم يكن عنده أحد يشرف عليه مثلي - فقد كان يشارك ستّة سودانيين آخرين مع امرأة في الستّينات من عمرها، ولم يكن يحصل على الاهتمام الذي أحصل عليه. لم يقل أتشور أتشور كلمة واحدة حول ذلك، ولم أقل أنا شيئاً أيضاً، لكن كان من الواضح لنا جميعاً بأنّه كان يحتاج إلى مساعدة فيل أيضاً، وكان من الواضح أيضاً أنه لم يكن باستطاعة فيل أن يفعل ذلك.

كان تشور أتشور قد وصل إلى أمريكا قبلي بثمانية عشر شهراً، وبالطبع، كان يسبقني كثيراً في التكيّف مع الحياة هنا. كان عنده سيارة، وعمل منتظم، وكان يدرس في معهد جورجيا بيريميتر كولدج، وكان أيضاً مشرفاً على مجموعات السودانيين في أتلانتا، ولم يكن يتوقف عن التكلم على الهاتف، يتوسّط بين أطراف مختلفة، وينظّم لقاءات واجتماعات في أتلانتا وفي أماكن أخرى. وبعد أن أمضيت فترة من الوقت في أتلانتا، حضرت أول اجتماع كبير عُقد في كانساس سيتي حيث قابلت بوبي نيومير.

كان بوبي نيومير يحلم بعقد وتنظيم مؤتمر كهذا، وكان يهدف من ذلك إلى تحقيق هدفين: فقد كان مخرجاً سينمائياً ويرغب في إنتاج فيلم يحكي عن تجربة أطفال السودان الضائعين، وكان يريد أن يحدّثنا عن المشروع. وكان يريد أن ينشئ شبكة وطنية للسودانيين في أمريكا يمكننا أن نتبادل المعلومات والمصادر من خلالها، وممارسة الضغط على الحكومتين السودانية والأمريكية، وإرسال أموال وأفكار إلى جنوب السودان.

جاء خمسة وثلاثون منّا إلى كنساس سيتي في نهاية إحدى عطل الأسبوع في تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠٠٣، وكان مشهداً يجب رؤيته. فقد خُصصت لكلّ واحد منّا غرفة في فندق كورتيارد ماريوت، وكان هناك برنامج مفصّل للنشاطات التي ستُنفذ خلال ثلاثة أيام، يتوجّها اجتماع كبير سيعقد في غرفة المناسبات في الكنيسة اللوثرية القريبة. لكن ثبت أن التقيد بالبرنامج أمر مستحيل. فقد وصل الجميع في أوقات مختلفة، وفي أيام مختلفة، ولم يتمكن الكثيرون من إيجاد مكان الفندق. وعندما حضر الجميع أخيراً، كان على الجميع أن يأخذوا الأماكن المخصصة لهم. وخُصصت لنا قاعة اجتماعات في الفندق، واستغرقنا ساعتين ليتعرّف أحدنا على الآخر. فقد كان هناك سودانيون يقيمون في دالاس وبوسطن ولانسنغ وسان دياغو وشيكاغو وغراند رابيدز وسان خوزيه وسياتل وريتشموند ولويسفيل، وفي أماكن عديدة أخرى. كنت أعرف معظم الرجال من كاكوما أو بينيدو، وإذا لم أكن

أعرفهم شخصياً، فقد كنت قد سمعت عنهم. كانوا شباناً سودانيين معروفين، يلقي معظمهم كلمات في مناسبات عامة منذ أن كانوا في سن المراهقة.

عندما وصلنا وجلسنا في مقاعدنا في صباح أول يوم، التقينا ببوبي نيومير الذي حدّثتني عنه ماري وليامز. في الواقع، كانت ماري هي أول من كلّمت بوبي حول فكرة إخراج فيلم طويل عن حياتنا. وها هو الآن يحيّينا عندما جلسنا في نصف الدائرة، نرتدي أفضل بدلاتنا. وعلى الفور، لاحظت أنه لم يكن يبدو ذلك الرجل القوي الذي نظّم هذا الاجتماع وأخرج أفلام شعبية عديدة في هوليود. فقد كان شعره مزيجاً من اللون الأحمر والبني والأشقر، غير مرتب، وكان قميصه متهدلاً ولم يكن مزرراً جيداً. تكلّم لبضع دقائق، منحنياً قليلاً - كان يبدو دائماً أنه يمشي أو يقف في زاوية - ثمّ بدا متحمساً ليسلّم وقائع الجلسة إلى إحدى مساعديه، امرأة اسمها مارغريت، التي ستكتب سيناريو الفيلم الذي سيخرجه أبوبي.

وقفت وشرحت بوضوح شديد فكرة القصّة التي ستكتبها، وبدت لي فكرة معقولة، لكن كان للحاضرين الآخرين رأي آخر. وسرعان ما تعقدت الأمور، وأثيرت أسئلة حول من هو المستفيد من الفيلم. وطُرحت أسئلة مثل لماذا ستُحكى رواية واحدة من القصّة، لا رواية أخرى. ووقف ممثلو أطفال السودان الضائعين، الواحد تلو الآخر، وعرضوا أفكارهم. وإذا لم تكونوا قد سمعتم خطاباً سودانياً من قبل، فيجب أن أوضح لكم أننا عندما نقف لنقول شيئاً، نادراً ما تكون تعليقاتنا قصيرة. يقول بعضهم إن ذلك يعزى إلى تأثير جون غارانغ الذي يُعرف بأنه يتكلّم لمدة ثماني ساعات متواصلة ويشعر بأنه لا يزال لم يوضح فكرته. وفي جميع الأحوال، فإن السودانيين من جيلنا يحبّون أن يتكلموا كثيراً. فإذا كانت تدور مناقشة حول أيّ موضوع، يرجح أن يدلي جميع الأشخاص الموجودين في الغرفة برأيهم، وسيحتاج كلّ واحد منهم إلى خمس دقائق ليعبّر عمّا يجول في خاطره. وحتى في اجتماع صغير كهذا في كنساس سيتي، لا يضم إلاّ خمسة وثلاثين شخصاً، فهذا يعني أنّ أيّ موضوع، مهما كان تافهاً، سيستغرق ساعتين من الخطابات، كلّ خطاب متشابه من حيث التركيب والأهمية. إذ يقف المتكلّم أولاً، يسوّي بدلته، ويتنحنح، ثمّ يبدأ بالقول: «لقد استمعت إلى هذه المناقشة»، ثم يضيف، «لكن عندي بعض الأفكار التي يجب أن أعرب عنها». أما الشيء الذي سيعقب ذلك، فهو نبذة عن سيرته الذاتية، ثم يتطرق إلى نقاط ربما تكون قد نوقشت بإسهاب، لأن كلّ شخص موجود يشعر بضرورة أن يُسمع صوته بعد أن تكون ذات الأفكار قد نوقشت مرات عدة.

وكان كلّ شخص في الاجتماع يسعى إلى حماية مصالحه. فقد أراد ممثّل منطقة النوبة في السودان التأكيد على أن يكون تمثيل النوبة جيداً. وأراد ممثل منطقة بور التأكيد على توفير احتياجات اللاجئين القادمين من بور. وكان يجب مناقشة كلّ ذلك بإسهاب قبل تنفيذ أيّ شيء، لذلك لم يحرز الشيء الكثير في اجتماع كنساس، كما في العديد من الاجتماعات الأخرى المشابهة. وأرادت فتاة لاجئة في كنساس سيتي أن تعرف ما هي الخطط المزمع تنفيذها من أجل اللاجئات السودانيات. أطفال السودان الضائعون! قالت. دائماً الصبية الضائعون! وماذا عن الفتيات الضائعات؟ لقد طُرح هذا الموضوع في كنساس، وطُرح مراراً في مؤتمرات أخرى. ولم يخالفها أحد، لكننا كنّا نعرف بأنّ وجودها، وإدراج احتياجات الفتيات الضائعات التسع والثمانين في كلّ ما نبحثه، سيعرقل تقدّم أمور كثيرة.

ومع تعثّر التقدّم في اجتماع كنساس، فقد أمضيت وقتاً تعرّفت فيه على بوبي، وأصبحت واحداً من مستشاريه في الفيلم وفي الشبكة الوطنية. وفي النهاية، قدمت مساعدة بقدر استطاعتي في الإعداد للمؤتمر الأضخم الذي عقد في فينيكس بعد ثمانية عشر شهراً، والذي نظّمته آن ويت، إحدى المشرفات على أطفال السودان المفقودين في تلك المدينة، وبوبي الذي أظن أنه كان حائراً مثلنا لتورطه في مشاكل الشتات السوداني. وكان الهدف أن يكون المؤتمر الذي سيُعقد في فينيكس أضخم تجمع للسودانيين في أمريكا. وكان من المقرر أن يضم مركز المؤتمرات في المدينة ما لا يقل عن ألف من الأطفال الضائعين وأقاربهم، وفي بعض الحالات أزواجهم وأطفالهم. وقد فاق هذا المؤتمر كلّ التوقّعات، فقد جمع في وقت واحد ٣٢٠٠ سوداني في قاعة ولائم ضخمة.

لكنّ الطقس كان حاراً جداً في فينيكس في عطلة نهاية الأسبوع تلك. واشتكى جميع الحاضرين. هنا أسوأ من كاكوما! ضحكنا. ففي كاكوما تهب على الأقل رياح! قلنا. فقد تجاوزت درجة الحرارة في فينيكس ٤٥ درجة مئوية، مع أننا لم نكن نشعر بها إلاّ نادراً عندما نغادر مركز المؤتمرات. فقد عقدت جميع النشاطات داخل قاعة ضخمة، فيها منصة بسيطة وآلاف الكراسي. وكان الهدف هو الاجتماع نفسه، اجتماع واسع، والإعداد لمؤتمر يضم جميع اللاجئين السودانيين الموجودين في أمريكا. أردنا أن ننتخب مجلس قيادة، يعمل أعضاؤه على تنظيم آلاف السودانيين، وأن نكون الصوت الدولي للشباب السودانيين النازحين. وتوّجت عطلة نهاية الأسبوع بزيارة لجون غارانغ نفسه. بالنسبة للكثيرين منّا، كانت تلك أول مرّة نراه فيها منذ أن كنّا في العاشرة أو الثانية عشرة من عمرنا في بينيدو.

كان من الرائع أن نرى هذا العدد الكبير من شباب كاكوما هنا في فينيكس. وهذا العدد من البدلات الرسمية! فقد كان الجميع يرتدون بدلات. وكان من الجيّد رؤية الفتيان والفتيات الضائعات أيضاً اللاتي مُثّلن بأعداد كبيرة - فقد حضر إلى فينكس في عطلة نهاية الأسبوع تلك ثلاثة أرباع الفتيات التسع والثمانين اللاتي جئن إلى أمريكا، وتحدّثت كلّ واحدة منهن بصوت أعلى من نظرائهن الذكور الثلاثة. لم يكن من الممكن الاستهانة بهن، أو التقليل من أهميتهن. كنّ جميلات وعنيفات، لغتهن الإنكليزية أفضل بكثير من لغتنا، وعقولهن أكثر حيوية ومتأهبات للهجوم في أي لحظة. ففي أمريكا على الأقل، وفي هذا السياق، كنّ يطلبن الاحترام الكامل من الجميع وكنّ يحصلن عليه. كان ترتيب الأحداث منطقيّاً ومهيباً. فقد افتتح حاكم فينيكس المؤتمر، ثم تكلّم جون بريندرغراست من فريق الأزمة الدولي، عن موقف العالم تجاه السودان، وما الذي كان من الممكن أن يحدث. كنا قد رأينا بريندرغراست في بينيدو سنة ١٩٨٩، وقد تذكّره بضعة رجال. وحاول بوبي وآن ألاّ يظهرا كثيراً وقالا على الرغم من أن المؤتمر قد عُقد نتيجة الجهود التي بذلاها، لكنه مؤتمرنا نحن، ويقع على عاتقنا إنجاح المؤتمر أو إفشاله.

لست متأكداً ماذا كانت النتيجة. أعتقد أن خلافاتنا المعتادة غطت على نجاحه. فقد أجريت ترشيحات لإنشاء مجلس وطني، وصعد المرشّحون الذين يبلغ عددهم حوالي أربعين إلى المنصة، وألقى كلّ منهم كلمة قصيرة. وفي وقت لاحق من ذلك اليوم، أدلى الحاضرون بأصواتهم لهؤلاء المرشحين، وعندما أُعلنت النتائج، احتّد بعضهم، بل نشب شجار قصير. فقد تبين أنّ معظم الذين تم انتخابهم هم من منطقة بحر الغزال، منطقتي أنا، وأحسّ القادمون من النوبة بأن تمثيلهم ضعيف، وظل الخلاف محتدماً بقوة أثناء حفل الشواء في المساء وعروض التسلية التي قدّمتها عدة فرق سودانية، بل حتى في اليوم الثاني والأخير للمؤتمر، فأُغلقت الأبواب، وانتشر الحرّاس، وطلبوا من الجميع الجلوس والتزام الهدوء.

كان ذلك عندما دخل جون غارانغ. الرجل الذي أشعل فتيل الحرب الأهلية التي جلبت الحرب والدمار إلى بيوتنا، الحرب التي أدّت إلى موت أقاربنا، والبدء في رحلتنا إلى إثيوبيا، ثم إلى كينيا، والتي أدّت أخيراً إلى مجيئنا إلى أمريكا. وعلى الرغم من وجود عدد كبير من الأشخاص في تلك الغرفة الذين كانت تنتابهم مشاعر متباينة حول جون غارانغ، فقد دخل القوة الدافعة للحرب الأهلية والاستقلال المتوقّع إلى القاعة وسط هتافات يحيط به عدد من الحرّاس الشخصيين، وصعد إلى المنصة.

كان يبدو متحمساً جداً لأنه بيننا، وعندما صعد إلى المنصّة، كان من الواضح - ربّما تخيّلت ذلك، لكنّي أراهن بأنني لم أكن أتخيّل- بأنّه كان يعتبر نفسه أكبر مؤثر فينا، معلّمنا الروحي، وبأنّه سيبدأ من حيث انطلق منذ خمس عشرة سنة أو قبل ذلك بكثير، عندما ألقى خطابه علينا آخر مرّة في مخيم بينيدو للاجئين.

بعد المؤتمر، عندما حاولت أن أدرس مطالب الجماعات المختلفة والتزاماتها، وعندما حاولت مع أتشور أتشور وآخرين أن نتوسّط للتوصل إلى حلّ وسط مقبول يمكّن المجلس الوطني من المضي قدماً، عملت بشكل وثيق مع بوبي حول خيارات لإنقاذ المؤتمر. وبينما كنا نتحدّث، تطرقنا إلى مواضيع شخصية أكثر: كيف كانت حياتي في أتلانتا، كيف كان تقدمي في الدراسة، وماذا سأفعل في الصيف القادم. وبما أنني كنت أريد أن أغادر المدينة بأي شكل من الأشكال لأيّ فترة من الوقت، فقد سألته إن كان بإمكاني أن آتي إلى لوس أنجلوس وأمضي فترة الصيف معه، أعمل أي شيء يراه مناسباً. فاجأت نفسي بسؤالي هذا، وفاجأني هو بقبوله طلبي، فذهبت لزيارته في بيته الرحب المريح، وأقمت معه ومع ديب، زوجته، وأبنائهما. كان عندهما أربعة أبناء تتراوح أعمارهم من السابعة عشرة إلى بيلي ذي الثلاث سنوات من العمر، وسعدت كثيراً لأنهم أحبوني. فسبحت في مسبح بيتهم، وحاولت أن أتعلّم لعب التنس، وساعدت في الطبخ والتسوق من البقالية، وكنت أعتني بالأطفال الصغار عندما يطلبون منّي ذلك. وتعلّمت حدودي أيضاً، ما هي الأشياء التي يسمح لي أن أفعلها. ونمت في السرير السفلي في غرفة جيمس. وفي صباح أحد الأيام استيقظت متأخراً - فقد كنت أغطّ في النوم دائماً في هذا البيت - ووجدت أنني وحدي في الغرفة. كان الجميع يتناولون طعام الفطور، فرتّبت سريري وسرير جيمس بالطريقة التي علّمني إياها غوب تشول. وعندما رأت ديب أن السريرين قد رُتّبا، أرادت أن تعرف لماذا فعلت ذلك. فقلت لها إن جيمس أخي الصغير وأنّ الغرفة تبدو أفضل عندما يكون كلا السريرين مرتبين. فقبلت ذلك، لكنها قالت إنني يجب ألاّ أفعل ذلك مرة أخرى، وقالت إن جيمس في الثانية عشرة، ويجب أن يرتب سريره بنفسه.

كنت أرى أن كرم عائلة نيومير غير عقلاني، لا بل كان يصل إلى حدّ التهور والطياشة. كان يصعب عليّ أن أفهمه. فقد كانوا يرحّبون بي لأشارك في جميع نشاطاتهم العائلية، بما في ذلك رحلة قاموا بها مع أفراد أسرتهما وأصدقائهما في سيارة كبيرة من لوس أنجلوس إلى غراند كانيون. وأطلق عليّ ابن بوبي المراهق تيدي وأصدقائه لقب «ابن الوادي» عندما كنت أقود تلك السيارة وكادت تسقط في هاوية. كان ثقة بوبي بي كبيرة، فلم يسألني إن كانت لديّ رخصة قيادة. فلم أقد سيارة بحضوره منذ أن جئت لأقيم في

بيتهم، ولم يسألني إن كنت أجيد السواقة، ولم يسألني إن كنت مرتاحاً بقيادة هذه السيارة الكبيرة. ففي أحد الأيام في أريزونا، أعطاني مفتاح السيارة، وتكوم الجميع في مؤخرة السيارة، وهكذا وضعني في موقع المسؤولية. جلس بوبي بجانبي، ابتسم ابتسامة عريضة، وشغّلت السيارة.

عندما ضغطت على دواسة البنزين بدلاً من الكابح بالخطأ، ضحك بصوت عال. وعندما كان الطريق مستقيماً وواضحاً، لم أجد فرقاً كبيراً من حيث المبدأ بين قيادة هذه السيارة الكبيرة وقيادة سيارتي التويوتا، لكن كان هناك فرق شاسع عند المنعطفات، وعندما كان يتعين عليّ تجاوز أو تفادي سيارات أخرى. لا أحبّ أن أتذكّر كم اقتربنا من حافّة هاوية عندما عدّلت مسار العربة أخيراً، لكنّ بوبي لم يكد يقول كلمة واحدة، وعندما عدت إلى الطريق الرئيسي، أغمض عينيه ونام.

غادرت لوس أنجلوس في ذلك الصيف وكنت قد خططت للعودة لزيارتهم في عيد الشكر، وكنت لا أزال أكلّم بوبي على الهاتف كثيراً. وكان بوبي وفيل يساعدانني في التقدم بطلب إلى الجامعة، وكانت لديّ أمور كثيرة عليّ أن أنجزها. كنت قد أنهيت المواضيع الضرورية للحصول على شهادة من معهد جورجيا بيريميتر كولدج، المعهد لمدة سنتين في أتلانتا، وكان بوبي يساعدني للانتقال إلى جامعة للدراسة أربع سنوات. كنا نتحدّث عن ذلك كلّ يوم تقريباً، وكان يرسل لي كتيبات على الدوام.

لكن الصيف والخريف الماضيين لم يكونا جيّدين بالنسبة لي على الإطلاق، وبدا أنّ معظم ما بنيته وما بنيته حولي قد انهار. فقد سافر فيل وستايسي إلى فلوريدا بسبب عمله. ظللنا نتحدّث على الهاتف ونتبادل الإيميلات، لكنّي أشتاق لزيارتهم في بيتهم، أشتاق إلى وجبات العشاء يوم الثلاثاء وإلى الطفلتين. وحُلّت مؤسسة أطفال السودان الضائعين عام ٢٠٠٥. فلم تعد ماري تتحمّل الضغوط التي مورست عليها، بسبب الشكوك الكثيرة حول إدارتها للمؤسسة، وتبخّر بعض التبرّعات. ولم تعد المؤسسة تقدم منحاً دراسية، ولم تعد صلة الوصل بين المشرفين واللاجئين ولم تقدّم مساعدة لأي سوداني. ولا تزال ماري تقدم المساعدة لعدد قليل من اللاجئين للدراسة في الجامعة. وتقوم حالياً برحلة على دراجة هوائية تجوب فيها الولايات، وعندما تنهي رحلتها، ستغادر أتلانتا أيضاً، لتعمل حارسة في إحدى الحدائق العامة.

مات جون غارانغ في شهر تموز (يوليه) ٢٠٠٥، بعد سنة من التوسّط لعقد اتّفاقية السلام بين حركة التحرر الشعبي السوداني (حالياً الذراع السياسي لجيش التحرير الشعبي السوداني) وحكومة السودان، وبعد ثلاثة أسابيع

فقط من تعيينه نائباً للرئيس السوداني. فقد كان مسافراً على متن طائرة هليكوبتر من أوغندا إلى السودان عندما سقطت الطائرة في الغابة وقُتل جميع من على متنها. وعلى الرغم من وجود شكوك بأنها عملية اغتيال، لم يظهر أي دليل يدعم هذا الرأي، فقبل السودانيون، هنا وفي بقاع العالم الأخرى، بأن موته نجم عن تلك الحادثة. وربما يتعين علينا أن نشكره لأنه وقعّ اتفاقية السلام قبل موته، لأن أي زعيم آخر في جنوب السودان لم يكن يحظى بالقوة التي تمكّنه من إبرام هذه الاتفاقية.

ومات بوبي في شتاء ٢٠٠٥. كان في التاسعة والأربعين من عمره ولا يزال أطفاله في نفس الأعمار عندما زرتهم في ذلك الصيف - في السابعة عشرة، الثانية عشرة، التاسعة، ثلاث سنوات. كان في تورنتو يصوّر فيلماً وكان يتدرب في صالة الألعاب الرياضية في الفندق. أظن أنّه كان يتمرّن على دراجة ثابتة عندما أحس برفرفة، ثم بوخزة ألم في صدره. فترك الجهاز وجلس يرتاح قليلاً. وعندما اختفى الألم، لم يفعل ما كان يجب أن يفعله، وهو أن يغادر بل ربّما أن يطلب مساعدة طبية. لأنه كان من هو، فعاد إلى جهاز الرياضة، وما هي إلا دقائق حتى انهار ثانية. وكانت النوبة القلبية قوية جداً هذه المرة ولم تعد أمامه أي فرصة للنجاة.

وبعد كلّ هذا، فأنا لا أزال في أتلانتا، ولا أزال ملقى على أرضيّة شقّتي، مقيداً بحبل الهاتف، لا أزال أركل الباب.

(١٤)

لم يكن ينبغي أن يستغرق عبور نهر النيل كلّ هذا الوقت. لكن كان هناك مئات، بل ربّما آلاف، منّا على ضفّة النهر، وكان هناك مركبان فقط، والمسافة بعيدة جداً لا يمكن عبورها سباحة. في البداية، حاول بعض الصبية عبورها، يخوضون في الماء مثل الكلاب، لكنّهم لم يقدّروا قوّة النهر. فقد كان التيار سريعاً والنهر عميقاً، وجُرف ثلاثة صبية في تيّار النهر ولم يرهم أحد مرة أخرى.

أما نحن فقد انتظرنا. انتظر الجميع. ربما مضى علينا ستّة أسابيع ونحن نسير إلى إثيوبيا، واختلطت مجموعتنا بمجموعات أخرى تضم بالغين، وعائلات، ورجالاً مسنّين ونساء وأطفالاً رضّع. كانت تلك أول مرة أدرك فيها بأن السير إلى إثيوبيا لم يكن يقتصر على الصبية. فقد كان يوجد على ضفّة النهر تلك مئات من الأشخاص البالغين والأطفال الصغار، وقالوا لنا إنه لا تزال هناك آلاف أمامنا وآلاف وراءنا.

كانت تنمو أعشاب طويلة على ضفّة النهر، وكانت الحشرات تعجّ في داخل الأعشاب القريبة جداً من الماء. لم تكن عندنا ناموسيات. نمنا في العراء، وأشعلنا النار بالعيدان والخيزران لكن ذلك لم يسعفنا في طرد البعوض. وفي الليل، كنا نسمع صوت بكاء. فقد كان الكبار يئنون، والأطفال يبكون. وكان البعوض يتغذى علينا. مئة وجبة من كلّ واحد منا. لم يكن ثمة حلّ. لا شك في أن العشرات أصيبوا بالملاريا في أثناء انتظارنا لعبور النهر. استغرقنا أربعة أيام حتى نعبر من الجانب الذي كنّا فيه إلى الجانب الآخر.

عندما اجتزنا النهر إلى الضفة الأخرى، صادفنا قرية رحبّ أهلها بنا. كان سكان القرية يعيشون بالقرب من شاطئهم الرملي، ويعملون في زراعة الذرة الصفراء، وقدموا لنا الطعام، وظننت أنّني سأغيب عن الوعي من شدة كرمهم وسخائهم. جلسنا في مجموعاتنا، وجلبت لنا نساء القرية ماء من البئر وحساء في كلّ طاسة منها قطعة لحم صغيرة واحدة. وبعد أن تناولوا طعامهم بدقائق، غطّ الصبية في النوم في كل مكان. فلم يستطيعوا أن يبقوا مستيقظين بعد أن شبعوا.

عندما استيقظتُ كانت الشمس البرتقالية قد سقطت باتجاه خط الأشجار وتناهى إليّ صوت.

- أنت!

لم أر أمامي شيئاً سوى صبية، بعضهم يستحمّ في الماء. ولم يكن خلفي سوى الظلام ودرب.

- أتشاك!

كان الصوت مألوفاً جداً. نظرت إلى الأعلى. رأيت ظلّاً في إحدى الأشجار. كان يبدو مثل فهد، بطوله وهيئته.

- من هناك؟ سألته.

قفز الظلّ من الشجرة إلى جانبي. ذعرت وهممت لأجري، لكنّه كان صبياً.

- أنت، أتشاك!

- ليس أنت! قلت، ونهضت واقفاً.

كان هو. بعد عدة أسابيع، إنه وليام كي.

عانق أحدنا الآخر ولم نقل شيئاً. ضاقت حنجرتي، لكنّي لم أستطع أن أبكي. لم أعد أعرف كيف أبكي. لكنّي كنت شاكراً جداً. أحسست أن اللّه يمنحني هذه الهدية، وليام كي، بعد أن أخذ دينغ. فلم أره منذ أن جاء المرحلّون إلى مايال باي وبدا لي أنه يستحيل عليّ أن أجده هنا، على امتداد نهر النيل. ابتسم أحدنا للآخر، لكننا كنّا في غاية الشوق فلم نستطع أن نجلس. جرينا إلى النهر ثمّ مشينا فوق الرمل، مبتعدين عن الصبية الآخرين.

- ماذا عن موسى؟ سألني وليام كي. - هل جاء معك؟

لم يخطر ببالي أن وليام كي لا يعرف مصير موسى. قلت له إن موسى مات، الخيّالة قتلوه. فجلس وليام كي بسرعة على الرمل. وجلست معه.

- ألم تعرف ذلك؟ سألته.

- لا. لم أره في ذلك اليوم. هل أطلقوا عليه النار؟

- لا أعرف. كانوا على وشك أن يقتلوه. أشحت بعيني بعيداً عنهم.

جلسنا قليلاً، ننظر إلى الصخور الناعمة بجانب ضفة النهر. التقط وليام كي أحجاراً وألقى بها في المياه البنية.

- وماذا عن والديك؟ سألني.

- لا أعرف. ووالداك؟

- قالا إنهما سيراانني في البيت عند موسم الأمطار. أظن أنّهما ينتظران عودتي. لذلك يجب أن أعود إلى البيت عندما يحين موسم المطر.

عرفت أن هذه ليست إلاّ أمنيات، لكني لم أعلّق على ما قاله. جلسنا قليلاً، صامتين، وتمنيت ألاّ تكون الرحلة إلى إثيوبيا صعبة الآن. فالسير مع صديقي الحميم وليام كي سيجعل الرحلة محتملة. وأنا واثق من أن لديه نفس الشعور. وكان ينظر إليّ من طرف عينه، كأنّه يريد أن يتأكد إن كنت حقيقياً أم لا، يتأكد من أنّ كلّ هذا يحدث في الواقع.

استغرقنا بعض الوقت لنتذكّر أن يسأل أحدنا الآخر كيف وصلنا إلى النهر هنا مع المجموعات المتجهة شرقاً. حكيت له قصّتي ثمّ حكى لي قصته. فقد ركض، مثلي، في اليوم الأول، طوال الليل وطوال اليوم التالي. كان محظوظاً لأنه صادف حافلة تنقل الناس إلى الضعين التي يوجد لديه فيها أقرباء. كان يعرف أنّ الضعين تقع في الشمال، وكان الدينكا الذين استقلّوا الحافلة متأكدين من أنهم سيكونون في أمان في الضعين لأنها بلدة كبيرة يعيش فيها مزيج من الدينكا والعرب والمسيحيين والمسلمين. ومثل المجموعة التي تضم كباراً في السن التي رأيتها في بداية هروبي، كانوا يظنون أن وجودهم في بلدة تسيطر عليها الحكومة سيكون آمناً جداً.

- كانت البلدة آمنة لفترة من الوقت، قال وليام كي. - كان عمّي وعمّاتي يعيشون فيها، وكان يعمل عامل بناء، يعمل لصالح الرزيقات. كان عملاً جيداً وكان قادراً على إطعامنا جميعاً. وكنا نعيش بالقرب من مئات عائلات الدينكا، وكنا نستطيع أن نفعل ما نريد. كان يوجد قرابة سبعة عشر ألف نسمة من الدينكا، الأمر الذي جعلنا نشعر بالأمان.

- الرزيقات، هم رعاة عرب، لهم السطوة في البلدة، لكن كان هناك أيضا أناس من قبائل الفور والزاغاوا وجور وبيرتي، وقبائل أخرى. كانت البلدة مفعمة بالحركة، ويسود فيها السلام، أو هذا ما كان يقوله عمّي. لكن الأمور تغيّرت بعد أن جئت إليها بفترة ليست طويلة. فقد بدأت مشاعر الكراهية تتنامى، وبدأت أعداد الميليشيات تزداد في البلدة التي جلبت مشاعر الكراهية

للدينكا. وبدأ المسلمون في البلدة يتصرفون بشكل مختلف تجاه غير المسلمين. وكان في البلدة كنيسة مسيحية بُنيت منذ زمن بعيد بمساعدة شيخ الرزيقات. لكن بدأ المسلمون ينظرون إلى هذه الكنيسة بأنها مشكلة. فقد غضب سكان البلدة من الدينكا ومن المسيحيين بسبب المتمردين. فكلما سمعوا أن المتمردين حققوا انتصاراً في أي معركة، كانوا يزدادون غضباً. وفي الربيع، جاء الرزيقات إلى الكنيسة وأحرقوها. كان فيها أشخاص يصلّون، لكنّ على الرغم من ذلك أحرقوها، واحترق شخصان كانا في داخلها. ثمّ توجّه أبناء الرزيقات إلى بيوت الدينكا وأحرقوا عدداً منها أيضاً. وقُتل ثلاثة آخرون.

- تملكنا الخوف. عندها عرف الدينكا أن هذا المكان لم يعد آمناً لهم. وفي صباح أحد الأيام، أخذنا عمّي إلى مخفر الشرطة الذي توجّه إليه مئات الدينكا من أجل سلامتهم. ساعدنا رجال الشرطة وطلبوا منا أن نتجمّع في هيلات، وهي منطقة قريبة من محطّة سكة الحديد. بقينا فيها طوال الليل. ثم قررنا أن نسير ونعود إلى جنوب السودان حيث يستطيع المتمردون حمايتنا.

- وفي الصباح، أخذنا بعض المسؤولين في الحكومة بمساعدة الشرطة، إلى محطّة سكة الحديد، وقالوا إننا سنكون أكثر أماناً فيها، وقالوا إنهم سينقلوننا إلى مكان بعيد عن البلدة بالقطار. سيبعدوننا عن البلدة وسنكون في مأمن لنعود إلى جنوب السودان أو إلى أي مكان نريد أن نذهب إليه.

- وهكذا ساعدونا في الصعود إلى القطار، إلى العربات التي ينقلون فيها الماشية. كانت هناك ثماني عربات، وشعر معظمنا بالسعادة لأننا سنغادر البلدة، ولن نضطر إلى السفر سيراً على الأقدام. وطلبوا منّا أن يتجمع الرجال والصبية في عربة واحدة، ليتمكنوا من مراقبتهم، ويتأكدوا من أنهم لا ينتمون إلى المتمردين. شعرت بالقلق لهذا التطور، لكن عمّي طمأنني وقال إن ذلك طبيعي لأنّهم يريدون التأكد من أنّ الرجال ليسوا مسلّحين، فركب عمّي وأبناء عمي إحدى العربات المخصصة للرجال.

- صعدت إلى عربة أخرى مع عمّاتي وبنات عمّي الأصغر مني. كلّهن فتيات. كان عمّي في أول عربة، وكنّا نحن في العربة الخامسة. كنّا مكدسين داخل العربات. كان في العربة معنا مائتي امرأة وطفل تقريباً. لم نكد نستطيع أن نتنفّس. كنا ندفع أفواهنا إلى الشقوق المفتوحة إلى الخارج، وكنا نتناوب على ذلك، نقترب من الهواء. وكان الأطفال يبكون، وأصيب الكثيرون بدوار، وتقيّأت فتاة تقف بجانبي فوق ظهري.

- بعد ساعتين، سمعنا صراخاً كثيراً من العربة الأولى التي يوجد فيها عمّي، ثمّ صوت إطلاق نار. لم يكن بوسعنا أن نرى شيئاً من مكاننا. لم نعرف إن كان الجيش النظامي قد بدأ معركة مع المتمردين، أو ما الذي كان يجري في حقيقة الأمر. ثمّ سمعنا صوت شيء يحترق. صوت أزيز وطقطقة. ثمّ، مثل موجة، بدأنا نسمع أصوات صراخ مئات رجال الدينكا. وكان رجال الرزيقات يصرخون أيضاً، يصرخون ويقولون أشياء على الدينكا.»إنهم يحترقون»، صاحت إحداهن في عربتنا. «إنهم يحرقون الرجال!» بدأ الجميع يصرخون. بدأنا كلنّا نصرخ. صرخنا لمدة طويلة لكنّنا كنّا محاصرين.

- لا أعرف كيف فُتح باب عربتنا، لكنه فُتح وجرينا إلى خارجها. لكن الوقت كان متأخّراً بالنسبة للكثيرين منا. فقد احترق ألف شخص. ومات عمّي. ثم جرينا من البلدة بالمئات مع آخرين واختبأنا في الغابة حتى وصلنا إلى بلدة يسيطر عليها المتمردون. وأخيراً، قالت عمّاتي إنني يجب أن أنضمّ إلى الصبية المتنقّلين.

كان وليام كي قد وصل إلى النهر قبل أن نصل ببضعة أيام لأنه سافر بحافلة لمسافة من الطريق، ثمّ انضمّ إلى مجموعة أكبر من الصبية الذين سار معظمهم لكن وليام بقي، مستمتعاً بضيافة النساء على ضفة النهر. كان في صحّة أفضل من الكثيرين منّا، وبدا متفائلاً بما سيأتي.

- هل سمعت بأنّنا اقتربنا كثيراً من إثيوبيا؟ سألني. لم أسمع ذلك.

- سمعت أنها ليست بعيدة من هنا. بضعة أيام فقط، ثمّ نصبح في مأمن. ما علينا إلاّ أن نعبر صحراء وإذا ركضنا يمكن أن نصل في يوم واحد. لعلنا نركض، أنا وأنت، ونسبقهم لنصل أولاً. ثمّ سنعود إلى بلدتنا عندما تأتي الأمطار. إذا لم يكن والداك في مايال باي، يمكنك أن تعتبر والداي والداك، ويمكن أن نصبح إخوة.

لأول مرة في حياتي، رحّبت بأكاذيب وليام كي. حكي لي العديد منها بعد ظهر ذلك اليوم، كيف عرف أنّ والديه ذهبا إلى إثيوبيا، لأنه كان يسأل الناس على الطريق هل رأوا شخصين يشبهان والديه، وكانوا يقولون له نعم على الفور. وعلى الرغم من أنه قد يكون قد استعاد قوّته مؤخّراً، فقد كان من المدهش أن تسمع فتى يتكلّم بمثل هذه الحماسة عن أيّ شيء. فمنذ عدة أسابيع، لم يكن باستطاعة أحد منّا أن يتكلم.

- هل هذا صبي جديد يا أتشاك؟

وجدنا دوت جالسين عند ضفة النهر.

- هذا وليام كي. إنه من قريتنا.

- مايال باي؟

- نعم، يا عمّ، قال وليام كي. - كان أبي مساعد شيخ القرية.

بدا أن دوت عرف على الفور أن وليام يختلق قصصاً، لكنه لم يكن شخصاً مؤذياً. هزّ رأسه ولم يقل شيئاً. جلس معنا، يراقب مرور الناس على النيل. ثم سأل وليام كي كيف جاء، هو ابن مساعد شيخ مايال باي، للانضمام إلينا عند النهر، فحكى له وليام كي رواية معدّلة من القصة التي حكاها لي. واستجابة لذلك، حكى لنا دوت بعد ظهر ذلك اليوم قصّة أغرب من القصّة كان قد حكاها لنا عن عشيرة البَقَّارَة وأسلحتهم الجديدة.

- لست متفاجئاً بأنك تعرضت إلى مشكلة في الضعين، يا وليام كي. لأن تاريخ سكان الجنوب وسكان الشمال لم يكن تاريخاً سعيداً. فقد كان العرب دائماً مسلحين بشكل أفضل منّا نحن الدينكا، وأذكى منّا أيضاً. لذلك فإننا سنعكس هذا الخلل عندما نصل إلى إثيوبيا. هل سمعتم عن شعب الإنكليز، يا أولاد؟

هززنا رأسينا. فقد كانت إثيوبيا هي البلد الوحيد الآخر الذي سمعنا به.

- إنهم شعب بعيد عنا كثيراً. شكلهم يختلف عن شكلنا كثيراً. لكنّهم أقوياء جداً، يمتلكون أسلحة أكثر وأفضل من التي يمتلكها أي فرد من البَقَّارَة يمكن أن تصادفوه. هل يمكنكم أن تتخيّلوا هذا؟ أقوى شعب يمكن أن تتخيلوه.

حاولت أن أتخيّل ذلك، أفكّر بالمرحلّين، لكن صورة أضخم منهم.

- كان الشعب البريطاني في جنوب السودان، في هذه الأرض التي نمشي عليها، في القرن التاسع عشر. منذ زمن بعيد. وهم الذين ساعدوا في جلب المسيحية إلى قبائل الدينكا. ذات يوم سأحدّثكم عن رجل اسمه الجنرال غوردن، الذي حاول أن يلغي العبودية في أرضنا. أما الآن، فإني سأحكي لكم هذه. هل تسمعوني؟

نعم.

- إن الجزء الآخر من تاريخ هذه الأرض هو بلد مصر. ومصر بلد قويّ آخر، لكن شعبه يشبه إلى حد ما سكّان شمال السودان. إنهم عرب. وكان لدى كلّ من المصريين والبريطانيين اهتمام بالسودان -

قاطعته. - ماذا تعني عندما تقول إنه كان لديهم اهتمام؟

- كانوا يريدون أشياء هنا. كانوا يريدون الأرض. كانوا يريدون نهر النيل، النهر الذي عبرناه للتو. وكان البريطانيون يسيطرون على بلدان عديد في أفريقيا. إنها قصة معقّدة، لكنّهم كانوا يريدون أن يبسطوا نفوذهم على أجزاء واسعة من العالم. فأبرم البريطانيون والمصريون اتفاقاً. اتفقوا على أنّ يسيطر المصريون على شمال البلاد حيث يعيش العرب ولايزالون يعيشون، وأن يسيطر البريطانيون على الجنوب، الأرض التي نعرفها، حيث يعيش الدينكا وقبائل أخرى مثلنا. كان ذلك شيئاً جيّداً بالنسبة لسكان الجنوب، لأن البريطانيين كانوا أعداء لقراصنة الرقيق. في الحقيقة، قالوا إنّهم سيقضون على تجارة الرقيق التي كانت تنشط آنذاك. كانوا يأخذون أكثر بكثير مما يأخذونه الآن، وكانوا يُرسلون إلى جميع أنحاء العالم. وحكم البريطانيون جنوب السودان بيد خفيفة جداً. فجلبوا المدارس إلى السودان التي كان الأطفال يتعلّمون فيها المسيحية والإنكليزية أيضاً.

- ألهذا السبب يُسمّون إنكليز؟ سأل وليام كي.

- حسناً... بالتأكيد يا وليام. على أيّ حال، كان الإنكليز جيّدين، على نحو ما، لأنهم لم يسمحوا بانتشار الإسلام في أراضينا، وحمونا من العرب. لكن في سنة ١٩٥٣، منذ زمن طويل، قبل أن أولد، عندما كان أبوك صغيراً يا أتشاك، وقّع المصريون والبريطانيون اتفاقية لمغادرة السودان ليحكم نفسه بنفسه. حدث ذلك بعد الحرب العالمية الثانية و-

- ماذا؟ سألته.

- أوه يا أتشاك. لا أستطيع أن أشرح لك ذلك الآن. لكن البريطانيين دخلوا في حرب، حرب تجعل نزاعنا الحالي يبدو ضئيلاً بالمقارنة مع تلك الحرب. لكن بما أنهم توسعوا كثيراً في أنحاء العالم، لم يعد بإمكانهم الإبقاء على قبضتهم على العالم، فقرّروا أن يمنحوا السودانيين السيطرة على البلد. كانت تلك فترة شديدة الأهمية. وظن الكثيرون بأنهم سيقسّمون البلد إلى قسمين، الشمال والجنوب، لأن هاتين المنطقتين كانتا قد أُدمجتا في ظل حكم البريطاني، ولأنه لم تكن تجمع الجانبين سمات ثقافية كثيرة. هنا بذر

البريطانيون بذور الكارثة في بلدنا التي لا نزال نحصدها حتى اليوم. في الحقيقة، انظرا إلى هذا.

أخرج دوت من جيبه رزمة من الصحف. لم نكن نعرف بأنّه كان يحتفظ بأوراق أخرى، بالإضافة إلى قائمة أسماء الصبية الذين يشرف عليهم. كان يحمل عدة أوراق صحف، وراح يقلّبها بسرعة حتى صادف صفحة صفراء مجعدة، ففتحها وأعطاها لي. كانت الطباعة عليها شيئاً لم أره من قبل. لو كان بإمكاني أن أقرأها لكان بإمكاني أن أصنع منها أجنحة وأحلّق بعيداً. لكنه عندما تذكّر بأنّني لا أستطيع قرأتها، سحبها مني على الفور.

- استغرقتُ وقتاً طويلاً في ترجمتها، لذلك سأعطيكم نبذة عن خلاصة عملي الشاقّ. نعم، الآن:

إنّ سياسة الحكومة المتفق عليها هي التصرّف بناء على الواقع بأنّ سكان جنوب السودان هم أفارقة وزنوج، لذلك يتمثل واجبنا تجاههم في أن ندفعهم إلى الأمام بقدر ما نستطيع من أجل تنميتهم الاقتصادية وفق المسار الأفريقي والزنجي، وليس وفق مسار تقدّم العرب في الشرق الأوسط الذي يلائم شمال السودان. ويتجلّى ذلك في التنمية الاقتصادية والتعليمية حتى يتمكن هؤلاء الناس من الدفاع عن أنفسهم في المستقبل، سواء أكان مصيرهم في نهاية الأمر مع شمال السودان أم مع شرق أفريقيا، أم جزئياً مع كلّ منهما.

لم نكد أنا ووليام نفهم شيئاً مما قرأه دوت، لكنّه بدا راضياً تماماً.

- كتب البريطانيون ذلك عندما كانوا يحاولون تقرير كيف يمكنهم معالجة مسألة مغادرتهم السودان. كانوا يعرفون أن من الخطأ أن يبقى السودان موحّداً. كانوا يعرفون أنّنا لسنا موحّدين، ولا يمكن أن نكون هكذا. كانوا متناقضين كثيراً حول هذه المسألة التي أطلقوا عليها «مسألة جنوب السودان».

لم أكن متأكداً ماذا يعني ذلك.

- لقد خُتم مصيركما، مصيرنا كلّنا، منذ خمسين سنة على يد حفنة من الإنكليز الذين كان بقدرتهم رسم خطّ بين الشمال والجنوب، لكنّ العرب أقنعوهم بألاّ يفعلوا ذلك. كانت لدى البريطانيين الفرصة ليسألوا سكان جنوب السودان إن كانوا يريدون الانفصال عن الشمال، أو أن يتوحدوا مع الشمال. لا أظن أنّ زعماء الجنوب كانوا يريدون أن يصبحوا بلداً واحداً مع الشمال، صحيح؟

هززنا رأسينا، لكنّي تساءلت إن كان هذا صحيح. فتذكرت أيام السوق في مايال باي، وتذكّرت صادق والعرب في دكان أبي، والانسجام الذي كان سائداً بين التجّار.

- لكنّهم وافقوا، واصل دوت. - فقد خدعهم العرب الذين كانوا أذكى منهم. ورشوا الزعماء في الجنوب، ووعدوهم بأمور كثيرة. وفي النهاية، اقتنعوا بأنه ستكون هناك فوائد كثيرة في العيش في كنف دولة واحدة. كانت تلك حماقة. لكن كلّ ذلك سيتغيّر الآن، قال دوت، ونهض واقفاً. - في إثيوبيا، ستكون هناك مدارس، أفضل مدارس يمكن أن نحصل عليها. وسيكون هناك أعظم معلمي السودان وإثيوبيا، وسوف تتعلمون. ستتهيؤون لعصر جديد، ولن تخدعنا الخرطوم مرة أخرى. عندما تنتهي هذه الحرب، ستقوم دولة مستقلة في جنوب السودان، وسترثونها أنتم في نهاية الأمر. كيف تريان ذلك؟

قلت لدوت إن هذا يبدو أمراً جيّداً. لكن وليام كي غطّ في النوم وسرعان ما انضممت إليه. فقد أردت أن أستريح من عناء السير وأن أكون إلى جانب وليام كي. بدا أن مجيئه، انبعاثه، قد جاء في وقت لم أكن متأكداً فيه إن كان بإمكاني أن أكمل الرحلة بدونه. هل كنت سأدخل في حفرة كما فعل مونينهيال؟ لا أعرف. لكن بدون وليام كي، كنت سأنسى أنّني سأولد من جديد في هذه الرحلة، وأنّني كنت أعيش قبل الآن. من دون وليام كي، كان من الممكن أن أتصوّر بأنني ولدت هنا بين هذه الأعشاب الطويلة والدروب التي سار فيها الصبية من قبلي، وأنه لم تكن لديّ أسرة، وأنه لم يكن عندي بيت، ولم أنم قط تحت سقف، وأنني لم أتناول طعاماً ساخناً أملأ به معدتي، وأنني لم أغطّ في النوم وأنا أشعر بالأمان وأعرف ماذا يمكن أن يحدث ولا يمكن أن يحدث عندما تشرق الشمس مرة أخرى.

أغمضتُ عيني وغمرني شعور بالسعادة هناك، على ضفة ذاك النهر في ذلك اليوم، بعد أن رأيت وليام كي ثانية، عندما بدأت الغيوم تأتي في فترات منتظمة، وتجعل اليوم بارداً، وتجلب ظلّاً متسامحاً إلى جفنيَّ وأنا نائم.

لكن عندما حلّ المساء، انتهت هذه الحياة مع قدوم الرعد.

- انهض!

كان دوت يصرخ بنا. لقد أتت الحرب، قال. لم يقل لنا من يحارب مَنْ أو أين، لكننا كنا نسمع أصوات إطلاق نار من بعيد، هدير قذائف هاون. فلم نبق في تلك القرية التي كنت متأكداً من أنه لن يعود لها وجود على الأرض. غادرنا

القرية عندما بزغت الشمس وسرنا باتجاه الصحراء. كان سكان القرية قد أخبرونا بأننا قريبون جداً من إثيوبيا، ولم يبق أمامنا سوى أن نعبر الصحراء، وقالوا لنا إننا بعد أسبوع واحد سنصل إلى نهاية السودان.

أولاً، تخلّينا عن كلّ ما لدينا، لأن دوت قال إننا سنكون في أمان من قطاع الطرق إذا لم نكن نحمل أشياء يريدها أحد. أكلنا الطعام الذي كنّا قد جمعناه أو احتفظنا به، وتركنا كل شيء لا نستطيع أن نلبسه. وأكلت كيس البذور الصغير الذي كنت قد ربطته برسغي. وخلع الكثير من الصبية قمصانهم. لعنّا دوت على أوامره هذه، لكن لم يكن لدينا خيار آخر سوى أن نثق به. لقد وثقنا بدوت دائماً. آنذاك، كنّا صبية صغاراً وكان هو إلهاً.

سرنا طوال تلك الليلة، لنبتعد عن المعارك، وفي وقت مبكّر من الصباح، استرحنا بضع ساعات قبل أن نستأنف سيرنا.

في الأيام القليلة الأولى تلك، كنّا نمشي بثقة وبسرعة. وظنّ الصبية بأننا سنصل إلى إثيوبيا في غضون بضعة أيام. إن اقتراب حياتنا الجديدة أيقظ الشخص الحالم في وليام كي، الذي ملأ الهواء بيننا بأكاذيبه الجميلة.

- سمعت دوت وكور يتكلمان. قالا إنّنا سنصل إلى إثيوبيا في وقت قريب جداً، خلال بضعة أيام، مع أننا سنواجه مشاكل في الحصول على الطعام. وقالا إنه ستكون هناك كميات كبيرة من الطعام إلى حدّ أننا سنمضي نصف كلّ يوم في تناوله كي لا يفسد.

- إنك تكذب يا وليام، قلت. - هس.

- أنا لا أكذب. فقط سمعتهم يقولون ذلك.

لم يكن وليام كي ضمن مسافة النصف ميل من دوت وكور. لم يسمع وليام كي أحداً يقول شيئاً من هذا القبيل. استمرّ.

- قال دوت إن كلّ واحد منّا سيختار بيتاً من بين ثلاثة بيوت. سيعرضون على كلّ واحد منا ثلاثة بيوت وعلينا أن نختار واحداً منها، أرضيات كلّ منها مكسوة بالمطاط، مثل الأحذية، وهي باردة ونظيفة دائماً من الداخل، وعلينا أن نختار أيضاً من مجموعة من البطانيات، وسيقدمون لنا قمصاناً مختلفة الألوان وبنطلونات قصيرة. وستنشأ معظم المشاكل التي سنتعرض إليها في إثيوبيا من اختيارنا هذا.

حاولت أن أحجب صوته عني، لكن أكاذيبه كانت جميلة لذلك كنت أنصت إليه خلسة.

- وعائلاتنا هناك أيضاً. وقال دوت إن طائرات جاءت إلى بحر الغزال بعد أن غادرنا، ونقلت الجميع إلى إثيوبيا، لذلك سيكونون كلّهم هناك عندما نصل. أظن أنهم قلقون علينا كثيراً.

كانت أكاذيبه رائعة حتى كدت أبكي.

لكن لم يكن هناك ماء ولم يكن هناك طعام. قال أحدهم لدوت، لا أعرف من هو، بأننا سنجد في الصحراء طعاماً، وأننا سنجد كمية محدودة من الماء، ولم يكن مصيباً في كلتا الحالتين. وبعد بضعة أيام، أصبحت سرعتنا بطيئة، وبدأ الصبية يفقدون صوابهم. وفي صباح اليوم الرابع، استيقظت لأجد صبياً يدعى جوك دينغ يتبوّل عليّ. كان من بين أوائل الصبية الذين فقدوا رشدهم في الصحراء. كانت الحرارة شديدة ولم نأكل شيئاً منذ ثلاثة أيام. عندما استيقظت ورأيت جوك دينغ يتبوّل عليّ، سحبته من ساقه فسقط على الأرض، وكان قضيبه لا يزال ينثر البول في دوائر. مشيت إلى الجانب الآخر من دائرة النوم، واستلقيت. كنت أشمّ رائحة بول جوك دينغ في كل مكان، وراح يتبوّل على الصبية الآخرين كلّ يوم. وهناك دو كينيانغ أيضاً، الذي لم يعد يستطيع أن يردّ عندما يسمع أحداً ينادي اسمه، وبدأت عيناه تتراجعان إلى وراء جمجمته وفقدتا بريقهما. كان يفتح فمه لكنه لم يكن يقول شيئاً. وبدأنا نرى أنه عندما يفتح شفتيه، ثم يغلقهما، لا يخرج منهما شيء.

كان وليام كي الشخص التالي. فقد بدأ جنونه بعدم قدرته على النوم. فأصبح يسهر طوال الليل في وسط دائرة النوم، يركل الجميع من حوله. وجدنا ذلك مزعجاً لأن ذلك كان دلالة على أنّ وليام بدأ ينزلق من قبضة ملكاته العقلية، ثمّ بدأ يلقي رملاً على الصبية. فقد كان يبدو أنه يحمل دائماً حفنة من الرمل ويلقي بها على وجه أيّ صبي يكلّمه، وكان يطلق عليهم أحياناً اسم عدوه اللدود في مايال باي، وليام أ.

كنت أول من تلقى هدية الرمل من وليام كي. سألته هل يمكنني أن أستعير سكينه، فرمى عليّ الرمل، فملأ فمي ولسع عيني. - ثم قال، هيا استمتع بوجبة طعامك من الرمل، يا وليام أ.

كنت متعباً جداً فلم أستطع حتى أن أغضب أو أردّ عليه بأي شكل. فقد ضعفت عضلاتي، وكانت التشنجات تأتي وتذهب، وكنت أشعر بدوار طوال الوقت. كنّا نبذل كل ما بوسعنا لنسير في خط مستقيم، لكن توازننا الجماعي

أصبح سيئاً وأصبحنا نبدو مثل صفّ من السكارى نترنح ونتعثّر في مشينا. وأحسست بأن خفقات قلبي بدأت تزداد سرعة، ولم تعد منتظمة، يرفرف ويرتعش. وكان معظم الصبية في وضع أسوأ من وضعي بكثير.

كنّا نأكل ما نعثر عليه فقط. وكان الكنز الذي كنّا نبحث عنه هو ثمرة تُدعى آبوك. وهي جذر يمكن اقتلاعه إذا رأى الصيّاد ورقة الثمرة الوحيدة تبرز من الأرض. وكان بعض الصبية خبراء في هذا الصيد، أما أنا فلم أكن أرى شيئاً. وكان أحد الصبية يندفع باتجاه معين ويبدأ بالحفر، أما أنا فلم أكن أعثر على شيء. وعندما توفرت كمية كافية منه، جربّت الآبوك. كان مرّ المذاق، لكنّه كان يحتوي على كمية من الماء، لذلك كان ذا قيمة عالية.

وفي كلّ يوم، كان دوت يرسلنا إلى الأشجار، إن كانت هناك أشجار، لنعثر على ما يمكننا أن نعثر عليه. لكن لا تبتعدوا كثيراً، كان يحذّرنا.

- ابقوا قريبين وظلوا قريبين من بعضكم. وقال دوت إن قبائل تقيم في هذه المنطقة تسرق صبياناً مثلنا. وقال إنهم يقتلون الصبية أو يخطفونهم ويستخدمونهم لرعي مواشيهم.

كنّا نأكل، إذا كنّا محظوظين، ملعقة طعام كلّ يوم. وكنّا نشرب أكبر كمية من الماء يمكننا أن نبقيها في يدينا المكوّرة.

بدأ الموت في اليوم الخامس.

- انظر، قال وليام كي في ذلك اليوم.

كان يتبع المكان الذي تشير إليه أصابع الصبية في الرتل أمامنا. كان كلّ واحد منا ينظر إلى جثّة متكمشة لأحد الصبية، في حجمنا تماماً، على مسافة عشرين قدماً من الأثر الذي كنّا نتبعه. كان الصبي الميّت من مجموعة أخرى، مرّت من هنا منذ بعضة أيام. كان الصبي عارياً ماعدا شورت مخطّط وقد أُسند إلى جذع شجرة رفيعة انحنت أغصانها فوقه كأنّها تحاول أن تقيه من الشمس.

وسرعان ما وقف كور بين رتلنا الماشي وبين الصبي الميّت، ليتأكد من أننا نواصل سيرنا وأن أحداً لم يتوقف ليتفحص جثّة الصبي. فقد كان يخشى أن تحمل الجثة أمراضاً، بالإضافة إلى أن كلّ لحظة كانت ثمينة جداً في تلك الأيام العصيبة. فعندما نكون مستيقظين كان علينا أن نسير، كان يقول، لأننا

كلما مشينا أكثر وصلنا بسرعة أكبر إلى أي مكان قد نعثر فيه على طعام أو ماء.

لكنّ بعد بضع ساعات من مرورنا بجانب جثّة الصبي، توقّف صبي من رتلنا عن المشي أيضاً، وجلس على الدرب. رأينا الصبية أمامنا يتجاوزونه، أو يدوسون فوقه. وقد فعلنا ذلك أنا ووليام كي أيضاً، لأننا لم نكن نعرف ماذا يمكننا أن نفعل غير ذلك. وسمع دوت أخيراً عن الصبي الذي توقّف فعاد إليه وحمله طوال فترة بعد الظهر، لكننا سمعنا بعد ذلك بأنّه كان ميتاً معظم ذلك الوقت. فقد مات بين ذراعي دوت وكان دوت يبحث عن مكان ملائم ليضعه في مثواه الأخير.

في عصر اليوم التالي، رأينا ثمانية صبية آخرين ميتين على طول الدرب، من المجموعات التي سبقتنا، وأضفنا ثلاثة آخرين منّا. في ذلك اليوم وفي الأيام التالية، كان الصبي الذي يوشك أن يموت يتوقف عن الكلام أولاً، إذ تجفّ حنجرته وإذا أراد أن يقول شيئاً فإنه يحتاج إلى طاقة كبيرة، ثمّ تغور عيناه، وتحيط بها ظلال داكنة أكثر، ولا يعود يستجيب لسماع اسمه. ويتباطأ سيره، ويجرجر قدميه، ويكون من بين الصبية الذين يأخذون فترة استراحة أطول. وفي النهاية، يبحث الصبي المحتضر عن شجرة، ويستند إليها ويغط في النوم. وعندما يلامس رأسه الشجرة، تتلاشى الحياة فيه ليعود جسده إلى التراب.

كان الموت ينتشل صبية في كلّ يوم، وبطريقة مألوفة: بسرعة وبحسم، من دون سابق إنذار أو جلبة. كان هؤلاء الصبية وجوهاً بالنسبة لي، صبية جلستُ بجانبهم أثناء تناول الطعام، أو رأيتهم يصطادون في النهر. وبدأت أتساءل إن كانوا كلّهم هم أنفسهم، وهل هناك أيّ سبب يجعل واحداً يذهب ويبقى آخر. وبدأت أتوقّع الموت في أيّ لحظة. لكن لا بد أن هناك أشياء يفعلها الصبية الذين يموتون تساعد في رحيلهم. لعلهم أكلوا أوراق أشجار غير ملائمة. ربّما كانوا كسالى. ربّما ليسوا أقوياء مثلي، وليسوا سريعين مثلي. قد لا يكون ذلك عشوائياً، وأن الله ينتشل الضعفاء من مجموعتنا. قد يكون الهدف من ذلك هو أن يتمكن الأقوى فقط من الوصول إلى إثيوبيا؛ لأن إثيوبيا تحتاج إلى أفضل الصبية. كانت تلك نظرية وليام كي الذي استعاد أحاسيسه وعاد يتكلّم أكثر من قبل.

- إن الله يختار الذين يستطيعون الوصول إلى إثيوبيا، قال. - الأذكى والأقوى منّا فقط هم الذين يتمكنون من الوصول إليها. لن يصل إلاّ نصف عددنا، في الواقع. مائة صبي فقط، في الحقيقة. لذلك، سيموت المزيد يا أتشاك.

لم يكن باستطاعتنا أن نحزن على الموتى. لم يكن هناك وقت للحزن عليهم. لقد مضى علينا في الصحراء عشرة أيام وإذا لم نتجاوزها في وقت قريب فلن نتمكن من تجاوزها. وفي الوقت نفسه، فقد كانت الحرب قادمة إلينا على نحو متزايد. ففي أثناء النهار، كنا نرى طائرات هليكوبتر من بعيد، وكان دوت يبذل كلّ ما بوسعه لمساعدتنا في الاختباء. بعد ذلك، بدأنا نمشي في الليل. وفي إحدى المرات، خلال سيرنا في الليل، وبينما كنا نرتاح لبضع ساعات، خيّل إلينا أنّ دبابة جاءت لتقتلنا جميعاً.

كنت نائماً عندما شعرت بدبيب في الأرض. انتصبت جالساً ووجدت صبية آخرين قد استيقظوا أيضاً. ومن خارج الظلام انبثق ضوءان وفتحا الليل بقوّة.

- اركضوا!

لم أر دوت في أيّ مكان، وطلب منا كور أن نركض. كنت أثق بأوامره، فوجدت أن وليام كي قد عاد لينام وكان يغط في سبات عميق. أيقظته ورحنا نركض، نتعثّر في الليل، نسمع أصوات عربات ونرى أضواء من بعيد. ركضنا أولاً باتجاه الأضواء، ثمّ ابتعدنا عنها. كان ثلاثمائة صبي يركضون في جميع الاتجاهات. قفزت أنا ووليام كي من فوق الصبية الذين وقعوا على الأرض والصبية الذين توقّفوا ليختبئوا بين الشجيرات.

- هل علينا أن نتوقّف؟ همست ونحن نركض.

- لا، لا. اركض. لا تتوقف عن الجري.

واصلنا الركض، وعزمنا على أن نكون أبعد الصبية عن الأضواء. ركضنا جنباً إلى جنب وأحسست بأنّنا نركض في الاتجاه الصحيح. كانت أصوات الصبية والجعجعة تزداد بعداً، ثم نظرت إلى يميني حيث يركض وليام كي، لكن وليام كي لم يعد بجانبي.

توقّفت وهمست بصوت عال منادياً وليام كي. في الظلام تناهت إليّ أصوات عويل الصبية. سيحلّ الصباح قبل أن أعرف ما الذي حدث في هذه الليلة ومن كان يصرخ وما السبب.

- اركض، اركض! إنهم قادمون!

انطلق صبي أمامي فتبعته. قلت لنفسي لا بد أن وليام كي قد اختبأ. كان وليام كي في أمان. تبعت الصبي لكني سرعان ما فقدته أيضاً. كم يصعب وصف كم أن الظلام مظلم في الصحراء في هذه الليالي.

ركضت طوال الليل. ركضت لأن أحداً لم يقل لي أن أتوقّف. ركضت وأنا أنصت إلى صوت تنفّسي المرتفع مثل صوت قطار، وركضت وأنا أمدّ ذراعي أمامي لاتقاء الأشجار والأشواك. ظللت أجري حتى أمسك بي شيء. كنت أركض بأقصى سرعتي، ثمّ توقّفت. فقد علقتُ مثل حشرة في خيط حرير عنكبوت. حاولت أن أفكّ نفسي لكني جُرحت. أحرقني الألم الذي سار في أنحاء جسمي. كانت هناك أسنان في ساقي، في ذراعي. غبت عن الوعي.

عندما أفقتُ، كنت في نفس المكان، وكان الضوء قد بدأ يزيح السقف عن السماء. لقد علقت في سياج من الأسلاك الفولاذية المتوازية فيها أشواك تشبه أشكال النجوم. وعلق السياج في مكانين من قميصي، وانغرزت شوكة بعمق في ساقي اليمنى. تمكنت من فك قميصي وحبست أنفاسي عندما بدأ الألم في ساقي يظهر بقوة.

حرّرت نفسي من الأسلاك الشائكة، لكن ساقي نزفت دماً كثيراً. لففت مكان الجرح بورقة شجرة، لكني لم أستطع أن أمشي وأنا أضغط على الجرح كي يظل مغلقاً. بدأ لون السماء يصبح ورديا وسرت في الاتجاه الذي ظننت أن الصبية كانوا يسيرون فيه.

- من هناك؟

انبعث صوت من الأجمة.

- إنه صبي، قلت.

لم أر أحداً. بدا لي أن الصوت ينبعث من الهواء الوردي نفسه.

- لماذا تسير هكذا، وأنت تضع يدك على رجلك بهذه الطريقة؟

لم أشأ أن أبدأ حديثاً مع الهواء فلم أقل شيئاً.

- هل أنت فتى غاضب أم فتى سعيد؟ سألني الصوت.

ظهر رجل، له بطن مكوّرة يضع على رأسه قبعة. ظلّ أزرق إزاء السماء النابضة. اقترب مني ببطء، كما يمكن أن يفعل مع حيوان عالق في فخ. كانت لكنة الرجل ذو البطن المكوّرة غريبة، ولم أكد أفهم كلماته. لم أعرف ما هو الجواب الصحيح، فأجبت على سؤال مختلف.

- كنت مع الصبية الذين يسيرون، يا أبي.

أصبح الرجل فوقي الآن. قبعته مموهة تشبه بدلة الجندي ماوين، لكن تمويه قبعة هذا الرجل أفضل: لأنها تمتزج كلية مع المشهد الطبيعي، اللون البني واللون الرمادي. لم يكن عمره محدّداً، يتراوح بين عمر دوت وعمر أبي. وبشكل ما، كان يشبه أبي، بكتفيه الضيقتين، وبطريقة تحركه السلسة ومشيته المنتصبة. لكن بطن هذا الرجل ممتلئة، لا بل أكثر من ممتلئة. لم أر قط بطناً كبيرة كهذه منذ مسابقة «الرجل البدين» التي كانت تقام في قريتي، إحدى الطقوس السنوية التي توقفت بعد قدوم الحرب. ففي هذه المسابقة، يشرب الرجال في المنطقة حليباً لأشهر عدة، وقلما يتحركون. والفائز هو صاحب أكبر بطن. لكن لم يكن بالإمكان إقامة هذه المسابقة في أثناء الحرب الأهلية. ويبدو هذا الرجل الواقف أمامي واحداً من أولئك المتسابقين.

- دعني أرى لماذا تمسك ساقك، قال، وجثم عند ركبتي.

أريته الجرح.

- آه. مممم. الأسلاك الشائكة. عندي شيء من أجل ذلك. في بيتي. تعال.

ذهبت مع الرجل ذي البطن المكوّرة لأنني كنت منهكاً لا أستطيع أن أفكّر بالهرب. لاح أمامي كوخ الرجل. كان يبدو أنه مبني بشكل جيد وينتصب في بقعة لا يحيط بها شيء آخر. لم تكن هناك أي إشارة تدل على وجود أي إنسان آخر في أيّ مكان.

- هل أحملك؟ سألني.

- لا. شكراً.

- آه آه آه، أفهم. اعتزازك بنفسك. أنت واحد من أولئك الصبية الذاهبين إلى إثيوبيا ليصبحوا جنوداً.

- لا، قلت.

- الجيش الأحمر؟ قال.

- لا، لا، قلت.

- الجيش الأحمر؟ نعم. لقد رأيتك تعبر.

- لا. كنت أمشي فقط. إننا نسير إلى إثيوبيا. للدراسة.

- الدراسة، ثمّ الجيش. نعم، أظن هذا هو الأفضل. ادخل واجلس للحظة. سأعالج ساقك.

توقّفت لبرهة خارج البيت المتين للرجل. لم يكن يعرف من أنا، لكنّه ظنّ بأنّه يعرف شيئاً عنيّ. فقد رأى صبية في عمري يسيرون ويطلق عليهم الجيش الأحمر، كما كان ماوين يقول. ثمة غموض يكتنف هذا الرجل. قلت لنفسي إن دخولي إلى بيته قد يكون مجازفة مني، لكن عندما يُدعى أحد إلى بيت شخص آخر في السودان، لاسيما إذا كان مسافراً، فإنه يتوقّع أن يُقدّم له طعام. إن إمكانية تقديم الطعام لي هيمنت على جميع المخاوف والشكوك التي انتابتني. دلفت إلى ظلام كوخ الرجل الكبير ورأيته. يا إلهي، إنها دراجة هوائية. بدت لي نفس الدراجة. أقسم بأنّها الدراجة نفسها - فضية اللون، تلمع، جديدة، نفس الطراز الذي أحضره جوك نيبيك آرو إلى مايال باي. لكن البلاستيك نُزع عن قضبان هذه الدراجة. وأصبحت أجمل بكثير.

- آه! أعجبتك الدراجة. كنت أعرف أنها ستعجبك.

لم أستطع أن أقول شيئاً. رمشت بعينيَّ بقوة.

- خذ هذه.

أعطاني الرجل خرقة مسحت بها جرحي.

- لا، لا. دعني أفعل ذلك، قال.

أخذ الرجل الخرقة وربطها بأحكام حول ساقي. كُتم صراخ الجرح، وكدت أضحك من بساطة حلّه.

أومأ لي الرجل بأن أجلس، فجلستُ. جلسنا للحظة راح يقيّم فيها أحدنا الآخر، وأدركت الآن بأنّ له وجهاً يشبه وجه القطط، بعظام خدّ عنيفة عالية، وعينين كبيرتين تبدوان سعيدتين باستمرارٍ كانت راحتا يداه المرخيتان فى

حضنه مفتوحتين باتجاهي وتشكلان أساساً لأصابع طويلة جداً، في كلّ منها ستّة مفاصل أو أكثر.

- أنت أول شخص يأتي إلى هذا المكان منذ فترة طويلة جداً، قال.

هززت رأسي بقوة. خيّل إليّ أن الرجل ذا البطن المكوّرة قد فقد زوجته وأسرته. فهناك رجال كثيرون مثله في كل مكان في السودان، رجال في عمر هذا الرجل، يعيشون وحيدين.

بحركة سريعة، أبعد سجادته من على الأرضيّة. كان يقبع تحتها باب مصنوع من الورق المقوّى والحبال. أزاحه ورأيت تحته فتحة عميقة، مليئة بالطعام والماء ويقطين فيها سوائل غامضة. عاد وأغلق الفتحة بسرعة وأعاد السجادة إلى مكانها.

- هنا، قال.

وضع كمية قليلة من الفول السوداني في صحن.

- هذه لي؟

- آه آه آه! إنك صبي خجول جداً. هل يمكن أن تكون خجولاً هكذا؟ لا بد أنك جائع جداً لأنك خجول جداً! كل الطعام عندما يكون في متناولك، يا ولد. هيا كل.

أكلتُ الفستق بسرعة، في البداية حبة واحدة في كلّ مرة، ثمّ ملأت فمي بحفنة منه. كان ذلك أكثر مما أكلته منذ أسابيع. مضغته وبلعته وأحسست بمعجون الفستق يقوّي صدري وذراعيّ، وعاد الصفاء إلى رأسي. ملأ الرجل الصحن مرة أخرى بالفستق فرحت أتناوله ببطء الآن. شعرت بالحاجة إلى أن أستلقي فاستلقيت، ولم أتوقف عن تناول حبات الفستق، الواحدة تلو الأخرى.

- من أين حصلت عليها؟ سألته، وأشرت إلى الدراجة.

- إنها لي، هذا هو المهم، يا صبي الجيش الأحمر. هل ركبت دراجة؟

انتصبت في جلستي وهززت رأسي. بدت عيناه أكثر سعادة.

- أوه لا! هذا مؤسف. كنت سأدعك تجربها.

- أعرف كيف! قلت بإلحاح.

ضحك على ذلك، وأمال رأسه إلى الوراء.

- يقول الصبي إنه يعرف كيف يقودها مع أنه لم يفعل ذلك من قبل. كل شيئاً معي وسنعرف بعد ذلك ماذا تستطيع أن تفعل وما لا تستطيع، أيها الجندي الصغير.

لم أعرف السبب، لكنّي شعرت بارتياح كبير في بيت هذا الرجل. واعتراني القلق بأنّ المجموعة ستمشي عندما تعلو الشمس، بينما أنا جالس هنا آكل الفستق والرجل يضمد جرحي، وفكّرت بأن أبقى مع هذا الرجل، لأن بقائي هنا سينقذني من الموت.

- لماذا تعيش هنا؟ سألته.

بدا الرجل أكثر جدّية للحظة، كما لو أنه فهم أن للسؤال معان خفية، ثمّ اكتشف أنه لا توجد، فاسترخى ولان.

- لماذا أنا هنا؟ يعجبني هذا السؤال. شكراً لأنك سألتني. نعم.

أسند ظهره وابتسم لي ابتسامة عريضة، لم يكن يبدو أنه مهتمّ بالإجابة على هذا السؤال.

- كنت قليل الذوق! قال وأزاح السجادة ثانية، وأخرج وعاء بلاستيكياً، وأعطاه لي. — لأنني أعطيتك الفستق بدون شراب! هيا اشرب.

أخذت الوعاء وفاجأت برودة سطحه يديَّ. أدرت غطاءه الأبيض ووضعته في حضني وأملت الوعاء إلى فمي. كان الماء بارداً جداً، بارداً إلى حد لا يصدق. لم أستطع أن أغمض عيني، ولم أكد أستطيع أن أبتلع الماء. شربت الماء البارد وشعرت به يتدفق إلى حنجرتي، يبلّلني تحت جلدي، ثمّ إلى داخل صدري وذراعي وساقيَّ. كان أبرد ماء شربته في حياتي.

جرّبت سؤالاً مختلفاً. - أين نحن؟

أخذ الرجل الوعاء منّي وأعاده إلى الحفرة تحت الأرض.

- إننا قريبون من بلدة تدعى ذييت حيث كانت مجموعتك تمرّ. مجموعات عديدةٍ عبرت ذييت.

- إذن أنت تعيش في ذييت؟

- لا، لا. أنا أعيش في لا مكان. هذا هو اللا مكان. عندما تغادر هذا المكان فإنك لن تعرف من أين أتيت. يجب أن تنسى أين أنت الآن. هل تفهمني؟ فأنا لست أيّ مكان وهذا ليس أي مكان ولذلك فأنا حيّ.

قبل بضع لحظات، كنت ممتناً للرجل، وكنت أفكّر بأن أطلب منه أن يسمح لي بالبقاء معه إلى فترة طويلة. أما الآن، فقد عرفت أنّ الرجل لا بد أنه فقد صوابه، وأنّني يجب أن أغادر المكان بسرعة. الشيء الغريب هو أن هذا الرجل يستطيع أن يتكلّم بصورة طبيعية لفترة من الوقت، ثمّ يكشف عن نفسه بأنه مجنون. إن ذلك أشبه بأن تكتشف عفناً تحت قشرة فاكهة نظيفة.

- يجب أن أعود إلى المجموعة، قلت، ونهضت واقفاً. بدا الرعب على وجه الرجل.

- اجلس. اجلس. عندي المزيد. هل تحبّ البرتقال؟ عندي برتقال.

عاد إلى حفرته، واختفت ذراعه هذه المرة حتى كتفه. وعندما ظهرت يده، كانت تحمل برتقالة، مستديرة وطازجة تماماً. أعطاني واحدة وبينما رحت التهمها، أعاد السجادة إلى مكانها فوق الحفرة تحت الأرض.

- أنا لا أعيش في أيّ مكان، ويجب أن تتعلّم من هذا. لماذا تظن أنني حيّ يا ولد؟ أنا حيّ لأن أحداً لا يعرف أنني هنا. أعيش لأنني غير موجود.

أخذ وعاء الماء منّي وأعاده إلى الحفرة.

- هناك كلّ شخص يقتل الآخر، والذين لا يقتلون بعضهم بعضاً بالأسلحة والقنابل، فإن الله يحاول أن يقتلهم بالملاريا والديزنطاريا وألف شيء آخر. لكن لا أحد يستطيع أت يقتل الرجل الذي ليس هناك، صحيح؟ لذلك فأنا شبح. كيف يمكنك أن تقتل شبحاً؟

لم يكن لديّ تعليق على ما قاله لأنّه يبدو أنّ هذا الرجل غير موجود في الواقع.

- بهذا التواصل وحده، معك، فإني أسبّب لنفسي مشكلة كبيرة. فقد أطعمتك ورأيت وجهك. لكنّي لن أشعر بالأمان إلاّ بعد أن أتأكد من أن أحداً لن يبحث عن فتى مثلك. كم عددكم هناك؟ آلاف؟

قلت له إنه توجد أعداد كبيرة منّا بقدر ما يستطيع أن يتخيّل.

- إذن فلن يلاحظ غيابك أحد. عندما ننهي حديثنا، سأعيدك بالاتجاه الذي جئت منه، لكنّ يجب ألاّ تخبر أحداً عن مكاني. اتفقنا؟

وافقت. لا أتذكّر لماذا خطر ببالي أن أسأل هذا الرجل عن الـ «ماذا»، لكني فكّرت بأنه لو كان لدى الرجل أيّ إجابة، أو حتى مجرد تخمين، لما كان هذا الرجل الغريب الذي يعيش بمفرده قد تمكن من توفير الكثير حتّى أصبح غنياً في وسط حرب أهلية. فسألته.

- نعم؟ قال.

كرّرت السؤال، وشرحت له القصّة. لم يسمع الرجل بهذه القصّة لكنّها أعجبته.

- ماذا برأيك الـ «ماذا»؟ سألته.

لا أعرف بمَ فكرت. - بندقية كلاشنكوف؟

هزّ رأسه. - لا أظن ذلك، لا.

- الحصان؟

هزّ رأسه ثانية.

- طائرات؟ دبابات؟

- أرجوك توقّف. إنك لا تفكّر بطريقة صحيحة.

- التعليم؟ الكتب؟

- لا أظن أن هذه هي الـ «ماذا» يا أتشاك. أظن أنك يجب أن تواصل البحث. هل لديك أفكار أخرى؟

جلسنا صامتين للحظة. كان بإمكانه أن يشعر بانكماشي.

- هل تريد أن تجرّب الدراجة؟ سألني.

لم أستطع أن أجد الكلمات للتعبير عن فرحتي.

- لم تتوقّع ذلك. أليس كذلك أيها الصبي المنصت؟

هززت رأسي. - هل أنت جادّ؟

- طبعاً. لم أكن أعرف بأنني سأعرض عليك ذلك حتى عرضت عليك للتو. لم يكن يخطر ببالي أنني سأعرض دراجتي على أي شخص لكن بما أنك ستذهب إلى إثيوبيا، وقد تموت على الطريق، فإني سأسمح لك بأن تركبها.

رأى الرجل وجهي يسقط.

- لا، لا. أنا آسف! كنت أمزح. لن تموت على الطريق. لا. أنتم صبية كثيرون، وستكونون آمنين. فليحرسكم الله. لقد أصبحت قوياً الآن وامتلأت بطنك بالفول السوداني. كنت أمزح لأنّ الأمر سيكون سخيفاً جداً إذا تعرضت للخطر. أنه أمر سخيف حقاً. ستكون بخير! والآن ستركب الدراجة.

- نعم أرجوك.

- لكنك لم تركب دراجة من قبل قط.

- لا.

تنهّد الرجل ذو البطن المكورة الذي اعتبرته مجنوناً. أخرج الدراجة من بيته وإلى الشمس. بدأت أسياخ العجلات تلمع، وأشرق إطارها. أراني كيف أجلس على المقعد. وعندما جلست، أمسك الرجل الدرّاجة بشكل مستقيم. كانت أجمل دراجة رأيتها في السودان، وها أنا أجلس الآن على مقعدها الأسود الجلدي الفخم.

- حسناً، الآن سأدفع الدرّاجة إلى الأمام حتى تتحرّك. يجب أن تبدأ بتحريك الدواسات عندما أبدأ. فهمت؟

أومأتُ وبدأت العجلات تتحرّك. وعلى الفور، بدأت تجري بسرعة كبيرة، لكن الرجل كان يمسّك بها فشعرت بثباتها. رحت أحرّك الدواسات، مع أنه كان يبدو أنها تتحرك من تلقاء نفسها.

- الدواسة، يا ولد، الدواسة!

كان الرجل يركض بجانبي وبجانب الدرّاجة، يلهث وينفخ ويضحك. رحت أدفع الدواسات وكانت قدماي تهبطان ثمّ ترتفعان. شعرت باضطراب في

معدّتي.

- نعم! ها أنت تفعل ذلك، يا ولد، إنك تقودها!

ابتسمتُ ونظرت إلى الأمام محاولاً قدر الإمكان أن أهدئ من اضطراب معدتي التي كانت تهدّد بأن ترسل محتوياتها في الغبار. حبست أنفاسي ورحت أنظر إلى الأمام، ورجوت أن تهدأ معدتي. فأطاعتني وتركتني أفكّر. ها أنا ذا أركب الدراجة! إنه شيء أشبه بالطيران، قلت لنفسي. كانت الريح تهبّ على وجهي بقوة. خطرت ببالي الفكرة غير المتوقّعة وهي أنني أردت أماث أن تراني. لا بد أنها ستُعجب بي كثيراً!

- سأتركك، قال الرجل.

- لا! قلت.

قلت في نفسي لا أزال لا أستطيع أن أقودها بمفردي.

- نعم! نعم، قال الرجل. - سأترك الدراجة. تركها وراح يضحك.

- تركتها! تابع، أيها الجيش الأحمر! قد إلى الأمام!

لم أستطع أن أبقي المقود مستقيماً إلى الأمام. وما هي إلاّ بضع ثوان، حتى مالت الدراجة ودارت العجلة ببطء وسقطتُ كما سقط الرجل من على صهوة الحصان في مايل باي، تحت الدرّاجة. وارتطمت ساقي ببقعة صلبة من التراب والجذور، فنكأ جرحي ثانية، أوسع مما كان من قبل. وبعد بضع دقائق، عدت إلى كوخ الرجل ذي البطن المكوّرة الذي بدأ يضمد الجرح مرة أخرى. اعتذر مرات كثيرة لكنّي أكدت له بأن ذلك خطئي أنا. قال إنّني قدتها بشكل جيد بما أنني أركبها لأول مرة، فابتسمتُ. كنتُ متيقناً بأنني سأتمكن من قيادتها لو حاولت مرة أخرى. لكنّي كنت أعرف بأنني إذا لم ألحق بالصبية الآخرين فإنني سأفقدهم إلى الأبد، وقد أضطر لأن أعيش مع هذا الرجل حتى نهاية الحرب التي لا يعرف أحد متى ستتوقف. قلت له يجب أن أذهب. لم يحزن كثيراً عندما رآني أذهب.

- أرجو ألاّ تخبر أحداً عن الدراجة. فقلت له لن أفعل.

- هل تعدني بذلك؟ قال. فوعدته.

- جيّد. فالدراجات سرّ في هذه الحرب. الدراجات سرّ، أيها الصبي المنصت. الآن دعنا نعيدك إلى جيشك. سأعيدك إليهم. من أيّ اتّجاه كنت تركض؟

بدا لي إنني جريت لساعات طويلة في الليلة الماضية، لكنّنا عدنا إلى المجموعة في وقت أقصر بكثير. رأيت مجموعة الصبية من مسافة غير بعيدة عن البيت السرّي لذلك الرجل. لم يكن دوت موجوداً، وبدا في ذلك الصباح أنّ أحداً لم يبدِ اهتماماً بغيابي، أو بأنّني لم أكن موجوداً. استفسرت عن الأمر وعرفت أنّ إثني عشر صبياً قد فُقدوا عندما ركضنا الليلة الماضية، وسقط ثلاثة صبية في آبار، مات اثنان منهم، وتشتت مئات الصبية ولم يُعرف أين هم. ودّعتُ الرجل ذا البطن المكوّرة ووجدت وليام كي الذي كان قد وجد صفيحة بلاستيك كبيرة يحاول طيها ليضعها في جيبه. كانت قطعة البلاستيك تلك، حتى بعد أن طواها في عدة، كبيرة مثل صدره.

- في أي اتّجاه ركضتَ؟ سألني وليام كي.

أشرت إلى الطريق الذي أتيتُ منه للتو. كان وليام كي قد ركض في الاتجاه المعاكس لكنه توقّف بعد فترة قصيرة، واختبأ بين جذور شجرة بابوا.

- هل سمعت ماذا حدث؟ ماذا كان الهدير، الأضواء؟ سألني.

هززت رأسي.

- كان ذلك نحن. لم يكن شيئاً.

لم يكن هناك هجوم في الليل. لم تكن هناك مدافع، ولا طلقات. لم تكن سوى سيارة لاند روفر تسير في الليل. لم يُعرف لمن هذه السيارة لكنّها لم تكن سيارة الأعداء. قد تكون شاحنة تنقل مساعدات.

عندما وصل دوت، في وقت لاحق من الصباح، جمعنا. كان غاضباً.

- لا يمكن أن تركضوا في جميع الاتجاهات عندما تسمعون أيّ صوت في الليل.

كنّا مشوّشين إلى حدّ أننا لم نكن نستطيع أن نجادله.

- فقدنا إثني عشر فتى ليلة البارحة. نعرف أن ثلاثة منهم ماتوا لأنهم سقطوا في تلك الآبار. لقد سقط عدد كبير من الصبية في الآبار. إنها طريقة سيّئة

للموت، يا أولاد. وجرى الآخرون إلى حيث يعلم اللّه.

وافقت على أن السقوط في بئر طريقة سيّئة للموت، لكنّي كنت متأكّداً من أن مساعده، كور هو الذي طلب منا أن نهرب في الليل. لكن في تلك اللحظة لم يكن أي شيء واضح. بعد السير لمدة ساعة بعيداً عن الرجل ذي البطن المكورة ودراجته، لم أعد متيقناً إن كان ذلك حقيقياً أم لا. ولم أخبر أحداً عنه.

لقد منحني الطعام الذي تناولته طاقة، كما منحني سرّ الرجل ذو البطن المكورة، وعلى الرغم من ذلك، فقد كنت شبه متأكّد من أنني سأموت. فقد كان الجرح في رجلي، التمزّق في جلدي عند قصبة ساقي بسبب الأسلاك الشائكة، كبيراً جداً. جرح يمتد من ركبتي حتى أسفل ربلة ساقي نزف ببطء طوال اليوم، وحتى وليام كي قال إنه هذا يعني أنني قد أموت. فبحسب تجربتنا، مات معظم الصبية الذين أصيبوا بجروح كبيرة، في نهاية الأمر. وفي ذلك اليوم وفي الأيام التالية لم يعد الصبية يحبّون أن يسيروا بجانبي، لأنهم رأوا جرحي وظنّوا أنّ المرض قد تمكّن مني وبدأ يتقيّح في داخلي.

عرف وليام كي بأنني قلق وحاول أن يخفف من حدّة مخاوفي.

- في إثيوبيا سيعالجون هذا الجرح بسرعة. ففيها أفضل الأطباء. ثم ستنظر إلى ساقك وتقول، ما الذي حدث؟ ألم يكن يوجد فيها جرح؟ لكنّه سيختفي. إنهم سيمحونه من الوجود. ابتسمتُ، مع أن النظر إلى وليام كي جعلني أشعر بالقلق. فقد كان يبدو مريضاً جداً، وكان مرآتي الوحيدة. لم نكن نستطيع أن نرى أنفسنا، لذلك كنت أعتمد على مظهر الصبية الآخرين، لاسيما وليام كي، لأعرف شيئاً عن صحتي. فقد كنا نأكل الطعام نفسه، وبنيتنا الجسدية متشابهة، لذلك كنت أراقبه لأرى إلى أي حدّ أصبحت ضامراً، وإلى أي درجة أصبحت عيناي غائرتين. أما اليوم، فلم أكن أبدو في مظهر جيّد.

- في الواقع إنهم لا يمرضون في إثيوبيا، واصل وليام كلامه، - لأن الماء والهواء مختلفان هناك. إنه شيء غريب، لكنّه حقيقي. فالناس لا يمرضون إلاّ إذا كانوا أغبياء جداً. وعلى الرغم من ذلك، فالأطباء يساعدونهم. ويقول الأطباء هناك، يجب أن تكون غبياً جداً لأن تمرض في مكان لا يمرض فيه أحد! لكنّ بالرغم من ذلك، فإني سأعالجك لأن هذه هي إثيوبيا وهكذا هي الأمور هنا. لقد سمعت دوت يقول ذلك في تلك الليلة. كنتَ أنتَ نائماً.

كان وليام كذاباً ميؤوساً منه، لكن ذلك كان يدخل السرور إلى نفسي.

- هل يمكننا أن نرتاح للحظة؟ سألني.

كنت سعيداً لأن أتوقّف للحظة. في العادة كنا نجلس لمدة طويلة حتى نشعر بأننا أصبحنا أفضل حالاً، بينما لا تزال عيوننا تراقب خط سير المجموعة. وبعد بضع دقائق، عندما نرى الصبية الآخرين بدأوا يسيرون، نكون أنا ووليام قد أصبحنا أكثر قوة ونشاطاً ونبدأ بالسير.

- أشعر بأنني مختلف اليوم، قال. أظن أن شعوري بالدوار ازداد.

كانت عظامي تهتزّ مع كلّ خطوة أخطوها، وبدأت أشعر بوخز غريب في ساقي اليسرى، لسعة برودة كلّما لمس كعب قدمي الأرض. لكنّه كان يجعلني أشعر بالارتياح فتركته يتحدّث عن جرحي وعن إثيوبيا وكم سيصبح قوياً عندما يكبر. كان ذلك أحد مواضيعه المفضّلة، وكان يتحدّث عنه بتفصيل شديد وبدقّة علمية.

- سأصبح رجلاً ضخماً. لم يكن أبي طويلاً جداً، لكن إخوتي طوال القامة، لذلك فإني سأكون مثلهم، لا بل حتى أطول منهم. ربما سأكون أحد أطول الرجال قامة في السودان. هكذا هو الأمر. لن يكون عندي خيار. لذلك سأكون محارباً عظيماً، وسأحمل عدة أسلحة في وقت واحد، وسأقود دبابة أيضاً. ستخرج عيون الناس من محاجرها عندما يروني.

ستكون أمّي فخورة عندما نصل كلّنا إلى هناك، عندما نعود إلى البيت، لأصدّ هجمات البَقّارَة. سيكون الدفاع عن المنطقة سهلاً عندما يصبح بحوزتنا أسلحة. أخي جور رجل ضخم. عنده زوجتان ولا يزال شاباً، لذلك ستكون لديه زوجات أكثر عندما يمتلك المزيد من المواشي، وسيكون عنده الكثير من المواشي لأنه ذكي جداً ويعرف في المواشي وفي تربيتها -

كنت أمشي مطرق الرأس، أتبع خطوات وليام وأستمع إلى كلماته، لذلك لم ألاحظ على الفور أنّ جميع الصبية أخذوا يركضون مبتعدين عن الدرب باتجاه الأشجار. تطلعت حولي، يميناً ويساراً وفي كل مكان، ورأيتهم يجرون نحو الأشجار ويتسلّقون بعضها. الصبية الذين استطاعوا أن يستلّقوا تسلّقوا، والذين كانوا ضعاف البنية ظلوا واقفين تحت الأشجار، بأمل أنّ يسقط عليهم شيء.

كانت الأشجار مليئة بالطيور.

ركضت إلى شجرةٍ لم يصعد إليها أحد وتسلّقتها، ولاحظت أن تسلّق الشجرة استغرق مني وقتاً أطول مما كان يستغرق عادة. ركض وليام كي إلى الشجرة أيضاً، وأصبح تحتي الآن.

- لا أستطيع أن أتسلّقها، قال. ليس اليوم، لا أظن.

- سأرميها لك، قلت.

في وسط الشجرة وجدت عشّاً فيه ثلاث بيضات صغيرة. لم أنتظر. أكلت بيضتين وأنا لا أزال فوق الشجرة. التهمت كلّ شيء: القشر، الريش الذي في داخلها. التهمتها كلّها حتى قبل أن أفكّر. ثم أكلت بيضة أخرى، لكني تذكّرت وليام كي الذي ينتظر أسفل الشجرة. قفزت من الشجرة ووجدت وليام كي مستلقياً على جانبه، مغمض العينين.

- هيا استيقظ! قلت. فتح عينيه.

- شعرت بدوار شديد بعد أن ركضت، قال. - لا تطلب مني أن أركض في المرة القادمة.

- يجب ألاّ تركض في المرة القادمة.

- لا، لا. أرجوك لا تمزح يا أتشاك. لقد تعبت كثيراً.

- كل هذه البيضة. طعمها فظيع.

وجد صبية آخرون أعشاشاً مليئة بالطيور الصغيرة، فأكلوها بعد أن أخرجوا منها الريش. وأكلوا أيضاً الطيور كلّها، رؤوسها وأقدامها وعظامها. كان كور يلفظ منقار طير من فمه عندما رأيت شجرة أخرى، لم يتسلقها أحد بعد.

- سأحضر لك واحدة. ابق هنا، قلت لوليام، وشعرت أنني أصبحت أكثر قوة. فركضت إلى الشجرة التالية وعندما أصبحت على أغصانها، وبدأت أستمتع بتناول بيضة أخرى، سمعت ضجيجاً. كان صوت ضجيج طائرة مروحية. في ثوان، قفزنا من فوق الأغصان وهبطنا على الأرض ورحنا نجري بسرعة. لكن لم يكن هناك مكان نجري إليه. فلم تكن هناك سوى الأشجار الواطئة التي تسلقناها والتي كادت أغصانها تكون عارية ولم تكن توّفر لنا أي غطاء، وفي المكان الآخر، لم تكن هناك سوى الصحراء. وقف بعض الصبية في أماكنهم. اختبأ عشرة صبية وراء بضع أشجار. تشبثنا بالأغصان، وألصقنا أجسادنا

بلحاء الشجر حتى نبدو أننا جزء منها، نلّف أذرعنا حولها ونضغط بوجوهنا على سطحها الصلب. اقترب الضجيج أكثر وظهرت ثلاث مروحيات، سوداء تطير على ارتفاع منخفض قريبة من مستوى الأرض. شقّت المروحيات الهواء وحلّقت فوق الأشجار التي كنّا فوقها لكن المروحيات لم تطلق النار.

وسرعان ما هدأ الضجيج وذهبت المروحيات.

بالنسبة لدوت ولنا جميعاً، كان ما حدث أمراً محيّراً أكثر من قصف طائرات الأنتونوف. فلماذا اقتربت كثيراً ورأت أهدافاً كثيرة ولم تطلق علينا النار؟ لم نكن نفهم فلسفة الجيش السوداني هذا الأمر. ففي بعض الأحيان نكون جديرين برصاصهم وقنابلهم، وفي أحيان أخرى لا نكون.

للمرة الثانية، قرّر دوت أنه يجب أن نسير في الليل. لأن طائرات الهليكوبتر لا تحلّق في الليل. لذلك لم نرتح في تلك الليلة. أحسّ دوت بأنّنا أصبحنا أقوياء بما يكفي، بما أننا أكلنا البيض والطيور، فسرنا تلك الليلة، طوال الليلة، ونمنا في اليوم التالي حتى تأتي الليلة التالية.

- توجد أخبار أخرى عن إثيوبيا، قال وليام كي.

- أرجوك، قلت.

- نعم، تقول الإشاعة إن السودانيين هناك أثرياء. وأن جميع السكان يحترمون شعبنا، ويقدّمون لنا كلّ ما نريده. ويجعلون كلّ شخص من الدينكا رئيساً. هذا ما يقولونه. لذلك سنصبح كلّنا رؤساء وسنحصل على كلّ ما نريد. وسيتوفر لكلّ واحد منا عشرة أشخاص لمساعدتنا على تلبية احتياجاتنا. فإذا أردنا طعاماً، نقول «أعطني هذا الطعام» أو» أعطني ذاك الطعام» وما عليهم إلاّ أن يركضوا ويأتوا به. ليس الأمر صعباً، لأن الطعام يتوفر في كل مكان. إنهم يحبّون أناساً مثلنا. أظن أن من المهم بالنسبة لهم أن تكون قد أتيت من مكان بعيد، وبما أننا أتينا من أبعد مكان، فيجب أن نختار أين نعيش، وسيكون لدينا المزيد من الخدم. سيقدمون لكلّ واحد عشرين خادماً.

قلت إنهم عشرة.

- نعم، هم عشرة عادة. لكنهم سيعطوننا عشرين لأننا جئنا من مكان بعيد. قلت لك ذلك من قبل يا أتشاك. أرجوك استمع إليّ جيداً. يجب أن تعرف هذه الأشياء وإلاّ فإنك ستهين الناس في إثيوبيا. أنا حزين لأن موسى لن يرى ذلك معنا. أو ربما سيراه. فقد يكون موسى قد وصل للتو إلى هناك. أراهن بأنّه

هناك الآن. لقد تمكن من الذهاب إلى هناك، وهو ينتظرنا هناك، هذا الصبي المحظوظ.

بقدر ما يمكنني أن أقبل بعض ما قاله وليام كي، فإني أعرف أنّ موسى ليس في إثيوبيا ولن يكون فيها أبداً. فقد طارده الرجل الذي كان يمتطي صهوة الحصان ومصيره معروف.

- نعم، تابع وليام كي، فموسى يحصل الآن على كلّ الأشياء التي سنحصل عليها، وهو يسخر منا الآن. ما الذي جعلكم تتأخرون هكذا؟ يقول لنا. من الأفضل أن نسرع، صحيح يا أتشاك؟

لم يكن وليام كي يبدو في صحة جيدة. كنت سعيداً بأننا أصبحنا في الليل ولم يكن عليّ أن أنظر في عيني وليام الغائرتين، وبطنه المنتفخة. أعرف أنّني أبدو هكذا أيضاً، لذلك فإن الأمر مزعج مرتين لأنني سأرى وليام وسأرى نفسي في وليام. وفي ليل الصحراء الأسود لم نر معاناة وكان الهواء أكثر برودة.

- انظر إلى هذا، قال وليام كي، ممسكاً بذراعي.

من بعيد، ارتفع الأفق ورسم خطّاً متعرجاً عبر السماء. لم أكن قد رأيت في حياتي سلسلة جبال، لكنها كانت هناك. كان وليام كي متأكّداً من أنّنا اقتربنا من مقصدنا.

- تلك هي إثيوبيا! همس. - لم أتوقّع أن نصل بهذه السرعة. كنت أنا ووليام كي في الصفوف الخلفية ولم يكن باستطاعتنا أن نسأل دوت أو كور أين نحن. لكن تفسير وليام كان معقولاً. فقد ظهرت أمامنا كتلة سوداء ضخمة، أكبر بكثير من أيّ كتلة أرضية رأيناها من قبل، يمكن أن تسع كلّ الفيلة التي تدّب على الأرض. وسار وليام كي الآن واضعاً ذراعه حول كتفي.

- عندما نصل إلى ذلك الجبل نكون قد أصبحنا في إثيوبيا، قال.

لم أستطع أن أخالفه. - أظن أنّك على حقّ.

- هذا ليس بالأمر السيء أبداً يا أتشاك. لم تكن تلك رحلة طويلة جداً على الأقدام لنصل إلى إثيوبيا. أليس كذلك؟ الآن بعد أن اقتربنا كثيراً، لم يعد الأمر يبدو سيئاً أبداً، أليس كذلك؟

* * *

اقتربنا، لكن الأمور ازدادت سوءاً. فلم نصل إلى إثيوبيا في ذلك اليوم، ولم نصل إلى إثيوبيا في اليوم الذي أعقبه. نمنا طوال الوقت، في النهار وفي الليل لأننا لم نعد نستطيع أن نمشي. فتصلّبت أقدامنا، وبدأنا نشعر بأذرعنا قد انفصلت عن أجسادنا. وتقرّح الجرح في ساقي، ولم يكن عندي أصدقاء سوى وليام كي. لأن أحداً غيره لم يكن يريد أن يقترب مني، خاصة بعد قصة النسر. فبعد أن غفوت قليلاً في وقت مبكر من الصباح، استيقظت على ظلّ يحجب رؤيتي، يحجب عني الشمس. في البداية، ظننت أنّني في مشكلة مع دوت لأنّني نمت لفترة طويلة، وأنه يريد أن يوقظني بركلة منه. لكن ذلك الطيف رفع ذراعيه فجأة، وأدار رأسه، وعرفت حينها أنه نسر. فقفزت واقفاً على ساقي غير المصابة ورحت أتفحّص ساقي المصابة. قفزت إلى الوراء فزعق النسر ووثب إلى الأمام مرة أخرى، نحوي. لم يخف مني.

أصبحت تلك مشكلة بالنسبة لجميع الصبية. فإذا مكثنا في مكان واحد لمدة طويلة، فإن العقبان ستتجمع حولنا. أصبح من المؤكد أن النوم لأكثر من ساعة تحت الشمس سيجلب الطيور الجارحة آكلة الجيف، لذلك كان علينا أن نكون يقظين، كي لا تلتهمنا الطيور ونحن أحياء.

في ذلك اليوم، بعد أن طردت الطير الذي كان على وشك أن يلتهمني، بدا لي وليام كي مختلفاً. فقد ظهرت على وجهه علامات، أشكال دائرية لونها أخفّ من لون بشرته، وبدأ يشتكي من تشنجات ومن الشعور بدوار، لكنني أصبحت أنا كذلك أعاني من تشنجات ومن دوخة أيضاً. وواصل وليام كي كلامه، وبما أنه ظل يتكلّم فقد ظننت أنه قوي كأي واحد منّا.

- انظر، قال لي وليام كي.

تتبعت إصبع وليام كي إلى كتلة مظلمة أمامنا. طار نسر مبتعداً عنها عندما اقتربنا. كانت جثة صبي يكبرنا بقليل.

- أحمق، قال وليام كي .

قلت له إنه يجب ألاّ يتحدّث عن الموتى بهذه الطريقة.

- لكنّه أحمق! أن يقطع كل هذه المسافة ليموت هنا.

الآن بدأنا نرى جثثاً على طول الدروب. صبية، أطفال رضّع، نساء، رجال. في كلّ ميل كنّا نرى جثثاً لصبية ورجال، ملقاة تحت الأشجار، إلى جانب الدرب. وبعد فترة قصيرة، بدأنا نرى جثثاً في ثياب جيش المتمردين.

- كيف يمكن لجندي أن يموت هكذا؟ سأل وليام كي دوت.

- لم يقتصد في الماء الذي لديه، قال دوت.

- كم نبعد يا دوت؟

- سنصل قريباً. لقد اقتربنا كثيراً.

- جيد، جيد. كلمة اقتربنا كلمة جيدة.

سرنا في ذلك اليوم، عبر أكثر الأراضي قفراً التي سرنا فيها حتى الآن، وبدأت الحرارة تشتد. وقبل الظهر، أصبح الهواء مثل شيء يكسوه جلد أو شعر. كانت الشمس عدونا اللدود. لكن طوال الوقت، كانت أحلامي عن روعة إثيوبيا تزداد حيوية من حيث التفاصيل. ففي إثيوبيا سيصبح عندي سرير خاص بي، مثل السرير الذي كان ينام عليه الكبار في مايال بي، فرشته محشوة بالقشّ، وعليه بطانية من جلد الغزال. وسيكون في إثيوبيا مستشفيات وأسواق تباع فيها جميع أنواع الأطعمة. سكاكر بطعم الليمون! وسنستعيد أوزاننا السابقة، ولن نضطر إلى السير في كلّ يوم، وفي بعض الأيام، لن نضطر إلى أن نفعل شيئاً على الإطلاق. كراسٍ! سيكون عندنا كراس في إثيوبيا. سأجلس على كرسي، وأستمع إلى الراديو، لأنه يوجد في إثيوبيا جهاز راديو تحت كلّ شجرة. والحليب والبيض - ستتوفر كميات كبيرة منها، وكميات كبيرة من اللحم والفستق والحساء. وسيكون هناك ماء نظيف نستحمّ به، وسيكون هناك بئر في كلّ بيت، كلّ بئر مليئة بالماء البارد لنشرب منها. كم هو بارد! إذ يجب أن ننتظر قليلاً قبل أن نشربه من شدّة برودته. وستكون لدي أسرة جديدة في إثيوبيا، فيها أمّ وأب يضماني إليهما ويقولان لي يا بني.

على مسافة أمامنا، رأينا مجموعة من الرجال يجلسون تحت ظلّ شجرة هيليغل صغيرة. كان هناك أحد عشر رجلاً، يجلسون في دائرتين، إحداهما داخل الأخرى. عندما دنونا منهم، رأينا رجلين من بين الرجال الثلاثة مريضين جداً. وبدا أن واحداً منهم ميت.

- هل هو ميت؟ سأل وليام كي.

اندفع الرجل الأقرب إلى وليام كي نحوه، وضربه على صدره بقفا يده الضخمة.

- ستكون أنت كذلك إذا لم تواصل سيرك!

اهتزت عينا الرجل المصفّرة بالغضب. وتجاهلنا الجنود الآخرون.

- ما الذي حدث له؟ سأل وليام كي.

- ابتعد من هنا، دمدم الجندي.

ألحّ وليام. - هل أطلقت عليه النار؟

حدّق الرجل به. أظهر قليلاً من الاحترام، أيها البقّة الجاحدة! إننا نقاتل من أجلك!

- أنا أقرّ بالجميل، قال وليام كي محتجّاً. شخر الرجل.

- أرجوك صدّقني، قال وليام كي.

لان الرجل، وبعد لحظة، صدّق أنّ وليام مخلص.

- من أين أنت، من الجيش الأحمر؟ سأل.

- مايال باي.

استرخى وجه الرجل.

- أنا من تشاك تشاك! ما اسمك؟

- وليام كينيانغ.

- أها، أظن أنّني أعرف عشيرتك. أعرف ذييت كينيانغ كون الذي لا بد أنه عمّك.

- إنه عمّي. هل رأيته؟

- لا، لا. أتمنّى أن تكون عندي أخبار لك، لكنّي مشيت مسافة أطول مما مشيت أنت. لم تعد بعيداً الآن. بضعة أيام أخرى وتصبح في إثيوبيا. لقد أتينا للتو من هناك.

جلسنا مع الجنود لفترة من الوقت، وفرح بعض الصبية لرؤيتهم، لكن وجودهم كان مزعجاً. كان لدى الرجال أسلحة وكانوا جزءاً من وحدة تدعى «القبضة»، التي بدت لي قوية جداً. لكن بعد ذلك، كان رجال القبضة يتضورون جوعاً، يحتضرون. ما هو ذلك المكان الذي سنذهب إليه، إذا كان رجال مسلحون غادروا ذلك البلد وهم يتضورون جوعاً وسيعودون إلى السودان؟

لقد أزعجني الجندي الميت أكثر مما أزعجني موت أيّ صبي على طول الطريق، وعندما اهتز إيماني برحلتنا، أصبحت خطواتي مترددة وبطيئة.

في مرآة وليام كي، لم أر أنني في صحة جيّدة في ذلك اليوم. فقد كان خدايّ غائرين، ويحيط بعيني لون أزرق، وكان لساني أبيض، وعظام وركي نائتة من تحت الشورت. وبدت حنجرتي مبطنة بالخشب وبالعشب، وكانت أي محاولة لابتلاع ريقي تسبّب لي ألماً شديداً. كان الصبية يمشون وأيديهم على حناجرهم، يفركونها لجعلها رطبة. ظللت هادئاً وواصلنا السير. كانت فترة بعد الظهر بطيئة جداً، ولم نعد نستطيع أن نمشي بنفس السرعة التي كنا نمشي بها عندما انطلقنا. كنّا نقطع مسافة صغيرة من الأرض. في هذا اليوم، بدأ وليام كي يطلب أن نتوقّف كثيرا.

- سأتوقف للحظة فقط ، قال.

عندما كنّا نتوقّف كان وليام يتّكئ عليّ، ويضع يده على كتفي، ثم يأخذ ثلاثة أنفاس ويقول إنّه أصبح مستعدّاً لاستئناف السير. فلم نكن نريد أن نتخلّف عن الآخرين.

- أشعر بأنني ثقيل جداً، يا أتشاك. هل تشعر بأنك ثقيل مثلي؟

- نعم. نعم يا وليام. الجميع يشعرون بذلك.

أصبحت فترة بعد الظهر باردة قليلاً، وأصبح الهواء أسهل للتنفّس. وانتقلت كلمة بين الصبية بأن أحداً وجد جيفة ظبي الدقدق. هشّ الصبية العقبان عنها وبدأوا يحاولون العثور على قطع من اللحم الصالح للأكل متبقية على عظام الحيوان.

- يجب أن أرتاح مرة أخرى، همس وليام كي.-يجب أن نجلس قليلاً.

لم أقبل أن نجلس، لكني رأيت وليام يتجه إلى إحدى الأشجار، ثم جلس تحتها، وأسند رأسه إلى جذعها.

- يجب أن نمشي، قلت.

أغمض وليام كي عينيه. - يجب أن نرتاح. ارتح معي يا أتشاك.

- لقد وجدوا ظبي الدقدق.

- هذا جيد.

نظر إليّ وابتسم.

- يجب أن نحصل على قليل من اللحم. سينتهي بعد لحظات، يا وليام.

رحت أراقب وليام كي الذي أخذت عيناه ترمشان، وبدأ جفناه يغلقان ببطء.

- قريباً، قال. - لكن اجلس لثانية. هذا يساعدني. أرجوك.

وقفت أمامه، أمنحه ظلّاً، تاركاً له بضع لحظات من السلام، ثم قلت حان الوقت للذهاب.

- لم يحن الوقت بعد، قال.

- سينتهي اللحم.

- اذهب واحصل على قليل من اللحم. هل يمكنك أن تأتي لي بشيء منه؟ ليسامحني الله، ظننت أن هذه فكرة جيدة.

- سأعود، قلت.

- جيد، قال.

- أبق عينيك مفتوحتين، قلت.

- حسناً، قال. رفع عينيه إليّ وأومأ. - أحتاج إلى هذا. أشعر بأن هذا يساعدني.

ٌ

أغمضت عيناه ببطء، وركضت لآخذ نصيبنا من الحيوان. عندما ذهبت، تلاشت الحياة في وليام كي وعاد جسده إلى الأرض.

كان الموت الآن أسهل. مع دنغ، كانت هناك ليلة بين دنغ الحيّ ودنغ الراحل. كنت أظن أنّ الموت يحدث دائماً في تلك الساعات العديدة في الظلام. لكن وليام كي فعل شيئاً مختلفاً. فهو لم يفعل شيئاً سوى أنه توقّف عن المشي، وجلس تحت شجرة، وأغمض عينيه، ومضى. عدت أحمل ما يساوي إصبعاً من اللحم لمشاركته به لكني وجدت جسده بارداً.

كنت أعرف وليام كي منذ أن كنّا طفلين رضيعين. وكانت أمّي وأمّه تضعانا في نفس السرير، وكنّا نعرف بعضنا منذ أن تعلّمنا المشي والكلام. لم أستطع أن أتذكّر أكثر من حفنة من تلك الأيام التي لم نكن فيها معاً، التي لم أركض فيها مع وليام كي. كنّا مجرد صديقين عاشا في قرية معاً، وكانا يتوقّعان أن يكونا دائماً صبيين وصديقين في قريتنا. لكن في الشهور الماضية هذه، ابتعدنا كثيراً عن أسرتينا، ولم يعد عندنا بيوت نعيش فيها، وأصبحنا هزيلين وضعيفين إلى درجة لم نعد نبدو كما كنّا. لقد انتهت الآن حياة وليام كي وها هو جثمانه يرقد عند قدمي.

جلست بجانبه لفترة من الوقت. يدي في يده التي أصبحت دافئة. ورحت أنظر في وجهه. أبعدتُ الذباب عنه، ولم أنظر إلى الأعلى لأنني أعرف أن العقبان ستحوم فوقه وأعرف أنّني لن أستطيع أن أمنعها من الانقضاض على جسد وليام كي . لكنّي قرّرت أن أدفنه، أن أدفنه حتى لو كان ذلك يعني أنّني سأفقد مكاني في المجموعة. فبعد أن رأيت الأموات والذين يحتضرون في مجموعة «القبضة» التي ضلت طريقها، لم تعد لديّ ثقة برحلتنا أو بمرشدينا. وبدا أن المنطق الوحيد هو أن ما بدأ يجب أن يستمرّ: أنّ نمشي ونموت حتى يموت جميع الصبية.

حفرت حفرة بقدر ما أستطيع. كنت أحتاج إلى قليل من الراحة بين حين وآخر، لأن الحفر جعلني أشعر بدوار وألهث. لم أستطع أن أذرف دمعة عليه لأن الماء جفّ من جسدي.

- أتشاك، تعال!

كان كور. رأيته من بعيد، يلوّح لي. تجمّعت المجموعة مرة أخرى وبدأت المسير. قررت ألاّ أخبر كور أو أي أحد آخر بأن وليام كي مات. فهو لي ولم أشأ أن يمسّه أحد. لم أشأ أن يقول لي أحد كيف أدفنه أو كيف أغطّيه أو أنّ عليّ

أن أتركه في المكان الذي يرقد فيه. لم أدفن دنغ لكنّي سأدفن وليام كي. لوّحت لكور وقلت له إنني سأنضم إلى المجموعة قريباً، ثم استأنفت حفري.

- الآن، يا أتشاك!

كانت الحفرة صغيرة وكنت أعرف أنها لن تغطّي وليام كي بالكامل، لكنّها ستُبعد الطيور الجارحة لفترة من الوقت، بعد أن أكون قد ابتعدت مسافة حتى لا أراها وهي تنقضّ عليه وتلتهمه. فرشت أوراق شجر داخل الحفرة تكفي ليسند عليها رأسه ولا يضعه فوق التراب. سحبت وليام كي إلى الحفرة ثم غطيت وجهه ويديه بأوراق الشجر، ثم ثنيت ركبتيه ثم ثنيت قدميه وراء ركبتيه حتى أوفرّ مكاناً. شعرت الآن بأنني بحاجة إلى استراحة أخرى، فجلست، راضياً بعض الشيء لأنني أعرف أنه سيتسع داخل الحفرة التي حفرتها.

- إلى اللقاء، يا أتشاك! صاح كور. رأيت أنّ الصبية قد غادروا للتو. انتظرني كور بضع لحظات، ثمّ استدار.

لم أشأ أن أترك وليام كي. أردت أن أموت معه. كنت متعباً جداً في تلك اللحظة، عظامي متعبة إلى حد أنني شعرت بأنّني قد أغفو، أنام حتى يبرد جسدي. لكني فكّرت بعد ذلك بأمّي وأبي، بإخوتي وأخواتي، ووجدت نفسي أتذكر رؤية وليام الأسطورية عن إثيوبيا. كان العالم فظيعاً لكن ربما أراهم ثانية. كان ذلك كافياً ليجعلني أقف على قدميّ مرة أخرى. وقفت وقررت أن أواصل السير، أن أمشي حتى لا أعود قادراً على أن أمشي. سأنهي دفن وليام كي ثم أتبع الصبية.

لم أستطع أن أرى التراب الأول ينهال على وجه ليام كي فدفعت الطبقة الأولى بمؤخرة كعبي. ما إن غُطّي رأسه، حتى نثرت مزيداً من التراب والأحجار حتى بدا أشبه بقبر حقيقي. عندما انتهيت، قلت لوليام كي إنّني آسف. آسف لأنّني لم أكن أعرف أنه مريض هكذا، ولأنّني لم أتمكن من إبقائه حياً، ولأنّني كنت آخر شخص يراه على هذه الأرض. ولأنّه لم يستطع أن يودع والديه، ولأنني أنا الوحيد الذي يعرف أين يرقد جثمانه. عرفت عندها أن العالم محطم لأنه سمح لصبي مثلي أن يدفن صبياً مثل وليام كي .

سرت مع المجموعة لكنّي لم أتكلّم مع أحد وراودتني كثيراً فكرة أن أتوقف عن المشي. وكلّما رأيت بقايا بيت، أو تجويف شجرة، كنت أشعر بالرغبة في أن أتوقّف، وأن عيش هناك وأتخلّى عن كلّ هذا.

مشينا طوال الليل، وعند الضحى اقتربنا كثيراً من الحدود مع إثيوبيا. لم يكن المطر في وقته. فلا تهطل أمطار عادة في ذلك الجزء من السودان في ذلك الوقت من السنة، لكن الأمطار هطلت بغزارة معظم النهار. شربنا من قطرات المطر وجمعنا الماء في الأوعية المتوفرة لدينا. لكن بقدر ما كان المطر نعمة، فقد أصبح لعنة علينا. فقد كنّا نصلي منذ شهور من أجل قطرة ماء، من أجل أن يلامس تراب رطب أصابع أقدامنا، أما الآن فكان كلّ ما نريده هو أرض صلبة جافة. وعندما وصلنا إلى غومرو، لم تكن هناك قطعة أرض لا تغمرها الماء فتحوّلت كلها إلى مستنقع. لكن كانت هناك بقعة مرتفعة قادنا دوت إليها.

- دبابات!

كان كور أول من رآها. توقّفنا وقبعنا بين الأعشاب. لم أكن أعرف أنه توجد لدى جيش التحرير الشعبي السوداني دبابات، فظننت في البداية أن هذه الدبابات تابعة للجيش الحكومي، وهي تربض هناك لكي تقتلنا.

- لا بد أن هذه المنطقة تابعة لجيش التحرير، قال دوت، وسار باتجاه القرية.

كانت ثلاث شاحنات عسكرية تقف في مركز البلدة. كانت البلدة قد أُحرقت بكاملها، لكنّنا ابتهجنا عندما رأينا ثلاثة جنود من جيش التحرير يخرجون من هيكل حافلة. سار دوت نحوهم بحذر.

- أهلاً بكم! قال لنا أحد الجنود. كان يرتدي بدلة عسكرية مموهة وحذاء طويلاً بدون قميص. ابتسمنا له، بعد أن تأكدنا بأنهم سيطعموننا ويهتمون بنا.

- الآن أرجوكم غادروا، قال. - يجب أن تخرجوا من هنا.

تقدّم دوت، وأصرّ على أنّنا من جانبهم وبحاجة إلى طعام، وأننا يجب أن نرتاح فوق أرض جافة إلى أن تتوقف الأمطار.

- لا يوجد عندنا شيء، قال صوت مرهق. كان جندياً آخر، يرتدي شورتاً فقط. كان يشبهنا كثيراً، ضامراً ومهزوماً.

- هل هذه الأرض تابعة لجيش التحرير؟ سأله دوت.

- أظن نعم، قال الجندي الثاني. - لم نسمع شيئاً منهم. فقد تركونا هنا لنموت. هذه حرب يديرها أغبياء.

كان الجنود، أحد عشر جندياً ينتظرون في غومرو، من كتيبة أخرى ضلت طريقها، مثل وحدة «القبضة». لقد تُرك هؤلاء الرجال في غومرو من دون إمدادات ومن دون وسائل اتصال مع قادتهم في رومبيك، أو في أيّ مكان آخر. وأوضح دوت للجنود بأنّه لا يريد أن يضيف إلى مشاكلهم مشاكل أخرى، لكنّ برفقته أكثر من ثلاثمائة صبي لا يستطيعون أن يسيروا في الليل ويحتاجون إلى أن يستريحوا.

- لا يهمني كلّ ذلك، قال الجندي الثاني. - فقط لا تأخذوا شيئاً. لا يوجد عندنا شيء يمكنكم أن تأخذوه. افعلوا ما تريدون.

وهكذا اختيرت غومرو مكاناً لنستريح فيه أثناء النهار، فانتشرنا تحت الشاحنات وفي ظلّ الدبابة، في أي مكان لم تصله الأمطار. وبعد فترة قصيرة، أراد بعض الصبية أن يبحثوا عن طعام، أو عن سمك في المستنقعات. فطلب منهم الجندي الأول الذي يدعى تيتو، ألاّ يتحركوا من أماكنهم.

- توجد ألغام هنا، يا أولاد. لا تستطيعون التجوّل في المكان. لقد زرع الجيش السوداني ألغاماً في كلّ مكان هنا.

لم تصل الرسالة إلى الصبية، عندها تدّخل دوت.

- هل تعرفون ماذا تفعل الألغام للشخص؟

هزّ الجميع رؤوسهم، لكن دوت لم يقتنع، فأجرى تجربة أمامنا. فجثا على الأرض، وطلب من متطوّع أن يتظاهر بأنه يدوس فوق يده. وعندما فعل ذلك، أطلق دوت صوت انفجار ضخم، وأمسك بقدم الفتى وألقى به على ظهره، فسقط مصدراً صوت ارتطام. نهض الصبي، عيناه تتميّزان غضباً وألماً، وعاد إلى مكانه تحت الحافلة.

لكن سرعان ما عصى الصبية الأوامر. فقد تبعثر عشرات الصبية في جميع الاتجاهات. كان الكثير منهم جائعين، وقد صمّموا على البحث عن طعام. فدخل ثلاثة صبية بين الأعشاب. سألتهم إلى أين سيذهبون، راجياً أنهم سيذهبون لصيد السمك لأرافقهم. لكنهم لم يردّوا عليّ وساروا أسفل التلّ. جلست تحت شاحنة، رأسي بين ركبتي، ورحت أفكّر بوليام كي، وبالطيور آكلة الجيف التي قد تكون متلهفة لالتهامه. وفكّرت بأماث وبأمّي وبثوبها الأصفر. كنت أعرف أنّني سأموت قريباً وتمنّيت أنّ تكون قد ماتت أيضاً، وأنّني أستطيع اللحاق بها. فلم أشأ أن أنتظر الموت حتى أراها.

كان الصوت أشبه بصوت فرقعة بالون. ثمّ صيحة. لم أسأل عن الأمر. لم أرغب أن أرى. عرفت أن الصبية وجدوا لغماً. وأعقب ذلك حركة عدة رجال، الرجال الذين هرعوا لمساعدة الصبي. وتبين أن أحد الصبية فقد إحدى ساقيه، وقُتل آخران. كانوا هؤلاء هم الصبية الذين طلبتُ أن أرافقهم. ومات الصبي الذي فقد ساقه لاحقاً في ذلك المساء، لأنه لا يوجد أطباء في غومرو.

ارتاح بعض الصبية لكنّي قرّرت ألاّ أنام، وألاّ أغمض عيني حتى نصل إلى إثيوبيا. فلم أعد أريد أن أعيش، وكنت متيقناً من أنني سأموت أيضاً. فقد أكلت البيض على الشجرة، والفستق من الرجل صاحب الدراجة، لذلك فقد أكلت أكثر مما أكله بعض الصبية، لكن الجرح في ساقي لم يبرأ، وكنت أحس في كلّ ليلة بالحشرات تحطّ عليه. وعندما كنّا نمشي، كنت أرى الصبية أمامي مثل أشباح ضبابية ولم يعد لأصواتهم، عندما أسمعها، أي معنى. فقد التهبت أذناي، ولم تعد قدرتي على الرؤية جيدة. كنت مرشّحاً ممتازاً لأن يكون دوري هو التالي.

بعد أن ساعد الجنود دوت في دفن الصبية الذين قتلوا، رآني أحد الجنود تحت الشاحنة وقرفص أمامي. كانت الأمطار قد هدأت.

- تعال إلى هنا، أيها الجيش الأحمر، قال.

لم أتحرّك. فمن طبعي أنني لست وقحاً، لكن في تلك اللحظة لم أكترث بهذا الجندي أو بمَ يريد أن أفعله. فلم أشأ أن أساعد في دفن الموتى أو في أيّ أفكار أخرى تراوده.

- هذا أمر، أيها الجيش الأحمر! صاح.

- أنا لست في جيشك، قلت.

كانت ذراعه سريعة وقبضته فورية. وبحركة سريعة سحبني من تحت الشاحنة ورفعني على قدمي.

- أنت ألست جزءاً منّا؟ من هذه القضية؟ سألني. الآن رأيت أنّه الجندي الذي اسمه تيتو. كان وجهه مليئاً بالندوب، لون عينيه أصفر، محاطتين بهالتين حمراوين.

هززت رأسي. فأنا لست جزءاً من أي شيء، قرّرت في نفسي. حتى أنني لست جزءاً من الصبية السائرين. بل كنت أريد أن أعود إلى الرجل صاحب الدراجة،

إلى برتقالاته ومائه البارد الذي يخبئه.

- إذاً تريد فقط أن تموت هنا؟ سألني تيتو.

- نعم، قلت. وعلى الرغم من ذلك فقد كنت أشعر بالخجل من وقاحة تصرّفي. أخذني تيتو بقوة من ذراعي وقادني عبر القرية إلى هرم من الحطب والأغصان، تظهر وراءه ساقا رجل. وكان باقي جسم الرجل مخفياً تحت أوراق الشجر. كان لون قدميه ورديا، أسود، أبيض، تغطّيهما اليرقات.

- أترى هذا الرجل؟ أومأتُ.

هذا رجل ميت. كان رجلاً مثلي، رجل في عمري. رجل ضخم. رجل قوي يتمتع بصحة جيدة. أسقط طائرة هليكوبتر. هل تستطيع أن تتخيّل هذا، أيها الجيش الأحمر، رجل من الدينكا يسقط طائرة هليكوبتر؟ كنت هناك. كان يوماً عظيماً. لكنّه مات الآن، ولماذا؟ لأنه قرّر ألاّ يكون شجاعاً. هل تريد أن تكون مثل الرجل الميت؟

كنت مرهقاً فلم أردّ.

هل تقبل ذلك؟ صاح.

- سيموت الجميع، قلت. لقد مررنا بجنود قتلى ونحن في طريقنا إلى هنا. بدا ذلك مفاجئاً لتيتو. أراد أن يعرف أين رأيناهم، وكم عددهم. عندما أخبرته، تغيّر: فقد اتضح له أن مجموعته ليست مجموعة الجنود الوحيدة التي تُركت وحيدة في الصحراء، منسية في الحرب. أظن أن هذا الخبر منح تيتو قوّة. ورأيته يركض عائداً إلى الحافلة ليخبر رفاقه، وبدوت أنا أقوى أيضاً. فقد أدركت أنّ كلّ ذلك غير منطقي.

في بداية المساء، عندما تحوّل لون السماء الأزرق إلى أسود، كنّا نتهيأ للنوم عندما كُسر طيف الأفق. رآه دوت ووقف عند طرف القرية، يحدّق بعيداً. واستحال الطيف إلى صبي.

-هل هو واحد منّا؟ سأل دوت.

لم يجب أحد. كان تيتو نائماً في ظلّ الدبابة.

- كور، هل يمكن أن يكون هذا واحداً منا؟ سأل دوت. هز كور كتفيه.

رحت أحدّق، ورأيت أنّ الصبي قد أصبح عدة صبيان في الأفق، ثمّ مئات. انتصبت واقفاً. ووقف دوت وكور، يديهما على وركيهما.

- يا إلهي، من هذا؟

أيقظ دوت تيتو وسأله عمّا إن كان يعرف شيئاً عن مجموعة الصبية القادمة إلى غومرو.

- لم نكن نعرف عنكم، قال تيتو متعباً. لم يكن سعيداً لأن أحداً أيقظه لكنه كان مهتماً في الحشد الذي بدأ يقترب.

اقتربت المجموعة. كان جميع الصبية في مجموعتنا يراقبون اقتراب هذه المجموعة الأخرى الأكبر من الصبية. لم ينته الخطّ. وأصبح عرض الخطّ أربعة صبية وسرعان ما ظهرت نساء وأطفال صغار جداً، ورجال مسلّحون. فاحتدّ تيتو.

- ما كلّ هذا بحقّ الجحيم؟

كان هذا نهر من السودانيين القادمين إلى غومرو. كانوا يبدون أقوى، وكانوا يسيرون بسرعة، بهدف. كانوا يحملون أكياساً، سلالاً، حقائب، أكياس خيش. ثم الشيء الذي لا يُصدق: معهم صهريج ماء.

- ماء، قال تيتو. إنه صهريج لجيش التحرير.

- صهريج؟ همس دوت. - عندنا صهريج؟

كانت المجموعة التي انبثقت من الأفق المبلل تتألف من ثمانمائة، أو ربما ألف شخص، يرافقهم خمسون جندياً أو أكثر، أصحاء ومسلّحين يحرسون المشاة. بدأ أول واحد فيهم يدخل البلدة. ارتفعت معنويات دوت. عندما رأى الطعام والماء معهم جمعنا.

اقترب أحد الجنود الجدد من دوت وتيتو.

- مرحبا يا عمّ! قال دوت، مبتهجاً الآن، تكاد الدموع تطفر من عينيه.

- من أنت؟ قال الجندي الجديد. كان يعتمر قبعة بيسبول ويرتدي بدلة رسمية كاملة.

نحن بعض الصبية السائرين، قال دوت. مثلكم. وصلنا اليوم. من الجيد أن نراكم هنا! إننا نتضور جوعاً! ولا يوجد لدينا ماء نظيف. إنهم يشربون من برك الماء، من المستنقعات. عندما رأيت ذلك الصهريج قلت إن اللّه نفسه أرسله إلينا. نستطيع أن نستخدم بعضاً منه. إننا نموت هنا. لقد فقدنا عدداً كبيراً من الصبية. كيف ينبغي لنا...

- سنطعم الجنود، قال المتمرد الجديد، لكنّك ينبغي ألاّ تكون هنا.

- في هذه القرية؟ شعر دوت بالارتياب. تصدّع صوته.

- يجب أن نأخذ هذه القرية. معنا ألف شخص.

- حسناً، نحن ثلاثمائة فقط. أنا متأكّد من أنه يوجد مكان لنا جميعاً. ونحن حقاً بحاجة إلى مساعدة. لقد فقدنا تسعة عشرة صبياً في الصحراء.

- قد يكون هذا هو الحال. لكنّ يجب أن تغادروا الآن قبل أن تصل بقيّة مجموعتي. هؤلاء أناس مهمون ونحن نرافقهم إلى بينيدو.

رأى دوت الناس القادمين. كان من بينهم عائلات وأشخاص كبار السن يرتدون ثياباً جيدة، وكان معهم عدد كبير من الفتيان، والصبية الصغار الذين كانوا يشبهوننا كثيراً. لكن الفرق الوحيد بيننا هو أن تغذية المجموعة الجديدة أفضل. فلم تكن عيونهم غائرة، وبطونهم منتفخة، وكانوا يرتدون قمصاناً وأحذية.

- يا عمّ، حاول دوت. - أكنّ لك ولمكانتك كلّ الاحترام. ولا أطلب سوى أن نشاطركم هذه الأرض الليلة. بدأ الظلام يهبط.

- إذن من الأفضل أن تتحرّكوا الآن.

بدأ دوت يدمدم الآن، بعد أن اتضحت عزيمة الجندي.

- إلى أين؟ إلى أين سنذهب؟

- لن أرسم لك خريطة. هيا تحرّكوا. أبعدوا هذا البعوض عن طريقنا.

ألقى نظرة ازدراء علينا كلّنا، على عظامنا الناتئة وعيوننا الجاحظة وجلدنا المتقشر، وأفواهنا المحاطة بالأبيض.

- لكن يا عمّ، نحن نفس الشيء! ألسنا نفس الشيء؟ هل أهدافكم نختلف عن أهدافنا؟

- لا أعرف ما هي أهدافكم.

- لا أستطيع أن أصدّق ذلك. شيء سخيف.

في تلك اللحظة سمعت صوتاً يشبه كثيراً الصوت الذي سمعته عندما ضُرب أبي في دكانه. استدرتُ. كان دوت ملقى على الأرض، وكان الدم ينزف من صدغيه بسبب ضربة بعقب البندقية. وقف الجندي فوقه.

- شيء سخيف، يا دكتور. اختيار جيد للكلمات. الآن أخرج من هنا.

رفع الجندي بندقيته وأطلق النار في الهواء. - اخرجوا من هنا، أيها الحشرات! هيا تحرّكوا!

طردنا الجنود الجدد من القرية، وراحوا يضربون كلّ من تقع أيديهم عليه. سقط الصبية ونزفوا. ركض الصبية. ركضنا وركضت ولم أشعر بالغضب كما شعرت به في تلك اللحظة. كان غضبي أشدّ حدّة من غضبي على المرحلّين. الذي تولد من إدراكي بأنه توجد طبقات بين النازحين، وأننا نأتي في أسفل درجات السلّم الطبقي. فلم نكن مهمين بالنسبة للحكومة، وللمرحلّين، وللمتمردين، وللاجئين الذين كانت أوضاعهم أفضل من أوضاعنا.

توقفنا عند أطراف غومرو، في مستنقع، حيث استرحنا في مياه بعمق كاحلنا وحاولنا أن ننام. كنّا وحدنا وفي دائرة مرة أخرى، ننصت إلى أصوات الغابة، نراقب أضواء الصهريج من بعيد.

بعد يومين وصلنا إلى إثيوبيا. وقبل أن نصل إلى إثيوبيا كان علينا أن نعبر أحد روافد النيل، نهر جيلو، العريض والعميق. وكان لدى السكان الذين يعيشون بالقرب من النهر قوارب لكنهم لم يسمحوا لنا أن نستخدمها. لذلك كانت السباحة خيارنا الوحيد.

- من سيكون الأول؟ سأل دوت.

على ضفّة النهر كانت هناك ثلاثة تماسيح تجفّف نفسها. عندما دخل الصبية الأوائل النهر، دخلت تلك التماسيح إلى الماء أيضاً. فقفز الصبية خارج الماء، وراحوا يصيحون.

- تعالوا، انظروا، قال دوت. لن تهاجمكم هذه التماسيح. إنها ليست جائعة اليوم.

خاض في النهر ثم بدأ يسبح، ينزلق بسهولة، رأسه فوق الماء، نظارته لم تتبلّل أبداً. كان يبدو أن دوت قادر على عمل أيّ شيء. صاح بعض الصبية ثانية وهم يرونه في منتصف النهر. توقّعنا أن يختفي بعد لحظة. لكنّه عاد ولم يصب بأي أذى.

- يجب أن ننطلق الآن. أي صبي يريد أن يبقى هنا، يستطيع أن يفعل ذلك. لكنّنا يجب أن نعبر هذا النهر اليوم، وعندما نعبره، نكون قد اقتربنا كثيراً من المكان الذي سنذهب إليه.

حدّقنا لنرى ما الذي يقبع أمامنا على الضفّة المقابلة من النهر. من مكاننا، كان يبدو شبيهاً بجانب النهر الذي نقف عليه، لكن كان لدينا إيمان بأننا عندما نعبر الماء، سيكون كلّ شيء جديداً. كان قلة منّا يعرفون السباحة، فأخذ كور ودوت والصبية الذين يجيدون السباحة، يسحبون الصبية الذين لا يجيدون السباحة. وكان سبّاحان يأخذان صبياً في كلّ مرة، واستغرق ذلك وقتاً طويلاً. كان جميع الصبية يتحلّون بالشجاعة والهدوء عندما وصلوا إلى الضفة الأخرى، وكانوا حريصين على ألاّ تغوص أرجلهم عميقاً في الماء. ولم تهاجم التماسيح أحداً في النهر في ذلك اليوم، لكن هذه التماسيح نفسها ستعتاد على التهام الأشخاص بعد فترة من الوقت.

بينما كنت أنتظر دوري، داهمني إحساس بالجوع كما لم أشعر به منذ أسابيع. ربما لأنني كنت أعرف بأنه يوجد في القرية في الجانب الآخر طعام حقيقي، وأنه لا بد أن تكون هناك طريقة للحصول عليه. رحت أنتقل من بيت إلى بيت، أحاول أن أفكّر بخطة أقايض فيها طعاماً مسروقاً. لم أسرق في حياتي قط، لكن الإغراء بذلك بدأ يزداد لديّ.

سمعتُ صوت صبي من ورائي. - أنت، يا ولد، من أين أنت؟

كان في عمري تقريباً، صبي لا يبدو أنه لا يشبهنا، نحن الدينكا. كان يتكلّم بلغة قريبة من العربية. فوجئت بأنني وجدت نفسي أفهم ما يقوله الصبي. قلت له إنني جئت سيراً على الأقدام من منطقة بحر الغزال، لكن ذلك لم يعن له شيئاً. فلم يكن بحر الغزال موجوداً هنا.

- أريد قميصك، قال الصبي. ثم جاء صبي آخر، يبدو أنه الأخ الأكبر للصبي الأول، اقترب وقال إنه هو أيضاً يريد قميصي. وفي لحظة أبرمنا اتفاقاً: قلت

لهما إنني سأبيعهما قميصي مقابل كوب من الذرة الصفراء وكأس من الفاصولياء الخضراء.

ركض الصبي الأكبر سنّاً إلى كوخهم وعاد بالطعام. أعطيتهما القميص الوحيد الذي أملكه. وسرعان ما انضممت إلى الصبية الذين يسيرون بجانب النهر، وقايض آخرون القرويّين الذين كانوا يطبخون ويأكلون. كانوا عراة إلاّ من سراويلهم، أما أنا فقد سلقتُ الذرة الصفراء وأكلتها بسرعة. وبينما كنا ننتظر حتى ننتقل إلى الضفة الأخرى، ذهب الصبية الذين لم يأكلوا للمقايضة بما لديهم. فباع بعضهم ثياباً إضافية، أو أشياء عثروا عليها أو كانوا يحملونها: مانجا، سمك مجفّف، ناموسية. لم نكن نعرف أنه بقيت أمامنا ساعة واحدة حتى نصل إلى مخيّم اللاجئين الذي سنقيم فيه لمدة ثلاث سنوات. وعندما وصلنا إلى بينيدو، لعنت القرار الذي اتخذته لمقايضة قميصي بكوب الذرة الصفراء. وقد قايض أحد الصبية بملابسه كلها، وأصبح عارياً تماماً، وظل عارياً طوال ستّة شهور حتى وصلت إلى المخيّم أول شحنة من الملابس المستعملة من أماكن أخرى من العالم.

في وقت متأخر من بعد الظهر، جاء دوري أخيراً لعبور النهر. كنت قد أكلت وأحسست بالشبع. وأصبح دوت وكور مرهقين. وأمضيا معظم فترة عبوري إلى الضفة الأخرى وهما يسبحان على ظهريهما، يركلاني بدون قصد، ويرشّان رذاذ الماء ويحركان أيديهما إلى الخلف. وعندما وصلنا إلى الضفة البعيدة، جلست مع الصبية الآخرين، نستريح حتى تستقر دقات قلوبنا. وعندما حلّ الليل، انتهى دوت وكور من نقل الصبية عبر النهر. فشكرناهما لأنهما أوصلانا إلى الضفة الأخرى، وبقيت قريباً من كور الذي قادنا من النهر إلى أجمة من الأشجار، ثم إلى بقعة خالية من الأشجار.

- هذا كلّ شيء، قال كور. نحن الآن في إثيوبيا.

- لا، قلت، عارفاً أنه يمزح. - متى سنصل إليها يا كور؟

- لقد وصلنا. نحن هنا.

نظرت إلى الأرض. كانت تشبه كثيراً الجانب الآخر من النهر، الجانب الذي كان السودان، الجانب الذي غادرناه. فلا توجد هنا بيوت، ولا مرافق طبية، ولا طعام، ولا ماء للشرب.

- هذا ليس هو المكان، قلت.

- إنه المكان يا آتشاك. الآن نستطيع أن نرتاح.

كان هناك سودانيون بالغون ينتشرون في الحقول، لاجئون وصلوا قبلنا، مستلقين على الأرض، مريضين ويحتضرون. هذه ليست إثيوبيا التي سرنا كل هذه المسافة للوصول إليها. كنت متيقناً من أنه لا تزال أمامنا مسافة يجب أن نقطعها.

إننا لسنا في إثيوبيا، قلت في نفسي. هذه ليست إثيوبيا.

الكتاب الثاني

(١٥)

سمعت صوته أولاً. أصبح أتشور أتشور في مكان قريب. إنه يتكلّم في هاتفه الخلوي بالإنكليزية. صوته الرائع العالي النبرة. نظرت إلى الأعلى ورأيت هيئته تعبر من النافذة. سمعت الآن صوت خشخشة مفاتيحه في الباب التي وجدت مكانها في القفل.

فتح الباب وسقطت يده إلى جانبه. «ماذا تفعل؟» سأل باللغة الإنكليزية.

كانت رؤيته صعبة جداً. اعتراني خوف خفي بأنّني لن أرى وجهه ثانية. أصدرت صوت صرير وبضع همهمات تشي بالامتنان قبل أن يجثو ويزيل الشريط من فمي.

«أتشاك! هل أنت بخير؟»

استغرقت لحظة لأتمالك نفسي.

«بحقّ الجحيم ما هذا؟» سألني.

«هوجمت»، قلت أخيراً، «لقد سُرقنا».

أخذ لحظة طويلة ليستوعب المشهد. استقرّت عيناه على وجهي ويدي وساقي. جال بعينيه في الغرفة كما لو أنه سيجد تفسيراً أفضل.

«فكّ قيدي!» قلت له.

وجد سكيناً بسرعة وجثا بجانبي. قطع شريط الهاتف. دفعت له قدمي فحلّ العقدة. انتقل ليتكلّم بالدينكا.

«أتشاك، بحقّ الجحيم ما الذي حدث؟ منذ متى وأنت هنا؟»

قلت إنه مضى يوم كامل تقريباً على ذلك. ساعدني في أن أقف.

- «لنذهب إلى المستشفى»، قال.

«لا يوجد جرح في جسمي»، قلت مع أنّني لم أكن أعرف.

توجهنا إلى الحمّام حيث تفحص آتشور الجرح تحت الضوء المتلألئ. نظّف الجرح بعناية بمنشفة نقعها في ماء دافئ. وبينما كان يفعل ذلك، أخذ نفساً سريعاً، ثمّ صحح نفسه.

«ربّما بضع غرز. لنذهب».

أصررت على أن نستدعي الشرطة أولاً. فقد أردت أن يبدأوا التحقيق في القضية. كنت متيقناً من أنهم يريدون رؤية الأثر الأكثر دفئاً حتى يتتبعوا خيط الجريمة. لا يمكن أن يكون المهاجمون بعيدين.

«لقد تبوّلت في سروالك».

«أنا هنا طوال اليوم. كم الساعة الآن؟ هل نحن بعد الظهر؟»

«الواحدة والربع».

«لماذا جئت إلى البيت؟»

«جئت لآخذ بعض النقود لهذه الليلة. كنت ذاهباً إلى يت ميشيل بعد العمل. يُفترض أن أعود إلى المخزن بعد عشر دقائق».

بدا أن أتشور أتشور كان قلقاً حول عودته إلى العمل بقدر قلقه عليّ. توجهت إلى خزانة ثيابي لأبدّل ملابسي. استخدمت الحمّام، تحممت، وغيرّت ثيابي، وأمضيت وقتاً طويلاً في الأشياء الأساسية.

قرع أتشور أتشور الباب. «هل أنت على ما يرام؟»

« أنا جائع جداً. هل عندك طعام؟»

«لا. سأذهب وأحضر بعض الطعام».

«لا!» قلت وكدت أقفز من فوق كرسي المرحاض. «لا تذهب. سآكل أي شيء موجود عندنا. لا تذهب».

نظرتُ في المرآة. لقد جفّ الدم على صدغي وعلى فمي. أنهيت عملي في الحمّام وأعطاني أتشور أتشور نصف سندويشة لحم خنزير أخرجها من المجمّدة وسخنّها في المايكرويف. جلسنا على الأريكة.

«هل كنت عند ميشيل؟»

«آسف جداً يا أتشاك. من كانوا؟»

«لا أحد يعرف».

«لو كنت هنا لما حدث كل ذلك».

«أظن كان سيحدث. انظر إلينا. ماذا كنّا سنفعل؟»

ناقشنا مسألة استدعاء الشرطة. علينا أن نراجع كلّ شيء بسرعة كي لا نقع في أي مشكلة. هل أوراق الهجرة لدينا مرتبة بشكل صحيح؟

نعم. هل عندنا مخالفات لركن السيارة لم نسددها؟ لديّ ثلاث مخالفات، ولدى أتشور أتشور مخالفتان. دققنا إن كان يوجد في حسابنا مبلغ كاف لتسديد المخالفات إذا طلبت الشرطة ذلك. قال إنه يوجد لدينا مبلغ كاف.

اتّصل أتشور أتشور بالشرطة، وأخبرهم بما حدث، وبأنّني تعرضت لهجوم وأننا سُرقنا. لم يذكر بأن الرجل كان يحمل مسدساً، لكنّي قلت إن هذا غير مهم الآن. فعندما تصل سيارات الشرطة سيكون عندي الكثير من الوقت لأصف لهم ما جرى. وسيأخذونني إلى مخفر الشرطة لألقي نظرة على صور المجرمين الذين يشبهون المجرمين الذين هاجموني. أتخيّل نفسي وأنا أدلي بشهادتي ضدّ تونيا وباودر، أشير إليهما عبر قاعة محكمة غاضبة. أدرك بأنّني سأعرف أسميهما الكاملين، وأنهما سيعرفان اسمي. سأكون راضياً إذا دفعا لقاء ما فعلاه لي، لكنني يجب أن أنتقل من هنا، لأن أصدقاءهما سيعرفون عنواني أيضاً. في السودان، قد تؤدي جريمة ترتكب ضدّ أحد إلى تحريض عائلات بأكملها ضدّ بعضها البعض، عشائر بأكملها، إلى أن تُسوَّى القضية تماماً.

جلس أتشور أتشور وأنا على الأريكة وساد صمت بيننا. إن قدوم الشرطة إلى شقتنا هذه يسبّب قلقاً متزايداً. حظّي مع السيارات أو مع الشرطة سيء. فقد كان لديّ سيارة لمدة ثلاث سنوات ووقعت لي ستّة حوادث. ففي ١٦ كانون الثاني (يناير) ٢٠٠٤ وقعت لي ثلاثة حوادث خلال أربع وعشرين ساعة. كانت الحوادث كلها صغيرة، عند إشارات المرور وفي الممرات الفرعية وأماكن الوقوف، لكنّ يجب أن أتساءل ماذا يجري لي حقاً. وبدأت هذه السنة بمحنة سحب السيارة بصورة دائمة تقريباً. فقد سُحبت سيارتي بسبب مخالفات الوقوف في أماكن غير مسموح الوقوف فيها، وسُحبت بسبب التأخير في تسجيل السيارة. لقد حدث ذلك منذ أسبوعين وبدأ عندما تجاوزت سيارة

شرطة وأنا أغادر محل «كنتاكي فرايد تشيكن». فلحق بي الشرطي، وأشعل أضواء سيارته، فوقفت على الفور. قال لي الرجل الطويل القامة والشديد البياض الذي يخفي عينيه وراء نظارات شمسية، بأنّه قد يأخذني إلى السجن. «هل تريد أن تدخل السجن؟» سألني، فجأة، بصوت عال. حاولت أن أتكلم. «هل تريد؟» فقاطعني، «هل تريد؟» فقلت لا، لا أريد أن أدخل السجن، ثم سألته لماذا سأذهب إلى السجن. فقال، «انتظر هنا». فانتظرت في سيارتي وعاد إلى سيارته. وسرعان ما علمت أنه أوقفني لأن تاريخ اللاصقة على لوحة سيارتي قد انتهى، وأنني بحاجة إلى لاصقة مختلفة بلون جديد. لهذا الأمر أنقذني - قال هذه الكلمات «سأجازف وسأتحمل المسؤولية وسأنقذك، يا فتى» - من السجن، وجعلني أترك السيارة بجانب الطريق السريع وسحبوها من هناك.

«أظن أنني يجب أن أعود إلى عملي»، قال أتشور أتشور.

لم أقل شيئاً. كنت أعرف أنّه كان يفكّر بالخيارات المتاحة له. أعرف أنّه سيأتي معي إلى المستشفى لكن عليه أولاً أن يقيّم مدى صعوبة الاتصال برئيسه في العمل. فهو يشعر بأنّه قد يُطرد من عمله في أيّ يوم لأيّ سبب كان، وأن أخذ عطلة لفترة بعد الظهر ليس قراراً يمكن التوصل إليه بسهولة.

«يمكنني أن أخبرهم بما حدث»، قال.

«لا توجد حاجة إلى ذلك»، قلت.

«لا، سأتصل بهم. قد يسمحون لي بأن أعمل في عطلة نهاية الأسبوع للتعويض عن اليوم».

اتّصل بهم، لكنه لم يفلح. فقد تعلّم أتشور أتشور، وتعلّم معظمنا، قواعد العمل المختلفة والمتناقضة هنا. فقد فرضت علينا قواعد صارمة جديدة، لكنّ يبدو أيضاً أنها ليست ثابتة ومنصفة. ففي قسم تصنيف الأقمشة الذي أعمل فيه، كان يبدو أن زميلتي تعمل بموجب قواعد مختلفة كثيراً عن القواعد المفروضة عليّ. فكانت تأتي متأخّرة كلّ يوم، وكانت تكذب حول الساعات التي اشتغلت فيها. وكان يبدو أنها لا تعمل أبداً عندما أكون موجوداً، فقد كانت تتركني - تعتبرني مساعداً لها، مع أنني لست كذلك -أقوم بكل أعمال اليوم. وبما أنني لم أكن أستطيع أن أبلغ عن سوء أخلاقياتها في العمل، لم يكن لديّ شيء ألجأ إليه سوى أن أعمل ضعف ما تفعله، لقاء ثلثي ما تتقاضاه من أجر.

«آتساءل هل ستلعلع صافرات سياراتهم لأمر كهذا»، تساءل آتشور آتشور.

«أظن ذلك»

«هل تظن أنّهم يقبضون على أناس مثلهم؟»

«أراهن أنّهم سيفعلون ذلك. فقد كان هذان مجرمين. أنا متأكد من أنه توجد لدى الشرطة صور عنهما».

كانت أفكار مطاردة تونيا وباودر والقبض عليهما تجعلني أشعر بسعادة كبيرة. وأنا علي يقين بأن هذا البلد لا يتهاون بأشياء كهذه. وخطر ببالي أنه هذه هي أول مرة سيتصرّف شرطي بالنيابة عني. كانت هذه الفكرة تمدّني بقوّة كبيرة.

مرت عشر دقائق، ثمّ عشرون. سجلّنا قائمة بالأشياء الرئيسية، لكن الآن، بعد أن أصبح لدينا وقت أكثر مما توقّعنا، بدأت أنا وأتشور آتشور نسجل الأشياء المسروقة الأقل أهمية. وجمعنا كلّ الكتيبات المتعلقة بالأجهزة المفقودة، في حال احتاجت الشرطة إلى أرقام الموديلات. فقد تساعدهم هذه المعلومات في استعادة المواد المسروقة، كما أن شركات التأمين ستحتاج إلى هذه المعلومات أيضاً.

«ستضطر إلى إعادة تسجيل جميع أعياد الميلاد في هاتفك»، قال أتشور أتشور.

إن أتشور أتشور واحد من أصدقائي القلائل الذين لم يسخروا مني عندما عرف أنّني أسجّل تاريخ ميلاد جميع من أعرفهم. فقد بدا له الأمر منطقيّاً، لأنه يقدّم خيطاً من نقاط التوقف على طول مسار السّنة، مواقع يمكنك أن تقدّر من تعرفه، وعدد الأشخاص الذين يعتبرونك صديقاً.

بدأ أتشور أتشور الآن يعيد الأشياء إلى أماكنها في الشقّة - الطاولة، المصباح، وسائد الأريكة التي كانت لا تزال على الأرض. أتشور أتشور شخص عملي إلى أبعد الحدود، ومنظّم جداً. فقد كان ينهي واجبه المدرسي قبل يوم من استحقاقه، لأنه عندما يفعل ذلك، يكون لديه يوم إضافي ليعيد النظر فيه. ويأخذ سيارته لتغيير الزيت فيها كلّ ألفين وخمسمائة ميل، ويقود سيارته كما لو أنّ الفاحص في قسم المرور يجلس معه في السيارة طوال الوقت. وفي المطبخ، فإنه يستعمل الأجهزة الملائمة لكلّ عمل يقوم به. كانت آن وجيرالد نيوتن اللذان يمضيان وقتاً طويلاً في الطهي، ويشاهدان برامج

الطهي في تلفزيونية، ويقرآن كتباً عن الطبخ، قد أعطيانا مجموعة واسعة من الأواني والقدور ومعدات المطبخ الأخرى. ويعرف أتشور كيف يستعمل كلّ منها، ويرتبها بشكل جيد، ويبذل جهده ليجد مناسبة لاستعمال كلّ منها. ففي الأسبوع الماضي، وجدته يفرم البصل وهو يضع نظارات واقية عليها شريط كتبت عليه عبارة «البصل للذين يبكون».

بعد نصف ساعة، خطر ببال أتشور أن الشرطة قد لا تكون قد دوّنت العنوان الصحيح. فتح الباب ليرى إن كانت سيارة الشرطة قد وصلت. قد يكون شرطياً يبحث في الشقق الأخرى. حكيت له عن الشرطي الذي ظل واقفاً هناك أربعين دقيقة البارحة، مع أنني أستطيع أن أقول إنها فكرة غريبة جداً لن يفهمها. بدلاً من ذلك، اتصل أتشور بالشرطة مرة أخرى. لم يكن الردّ جدياً. قالوا له إن سيارة الشرطة في طريقها إلينا.

«أنا ملعون»، قلت. كانت الفكرة التي خطرت لكلينا. «أنا آسف»، قلت.

لم يزل عن كاهلي هذا العبء على الفور.

«لا، لا أظن ذلك»، قال كاذباً. لا يمكن أن يكون هناك تفسير آخر للأشياء التي حدثت لي منذ أن انتقلت إلى أمريكا.

كان من المقرر نقل ستّة وأربعين لاجئاً فقط بالطائرة إلى نيويورك في ١١ أيلول (سبتمبر)، وكنت واحداً منهم. فقد فقدت صديقي المخلص بوبي نيومير، وذهبت تابيثا، والآن يحدث لي هذا. إنه أمر يدعو إلى الضحك، بصراحة. وما إن خطرت لي هذه الفكرة، حتى ضحك أتشور أتشور. ابتسمت وكنا نعرف لماذا ابتسمنا.

«حتى أنهما أخذا الساعات»، قال.

لم يكن اختيار أتشور أتشور لي موفقاً. نعم، هناك رجال أسوأ بكثير، شبان سودانيون يستمتعون بأوقاتهم كثيراً، وقد تورطوا في جميع المشاكل التي يمكن لشابّ أن يتورط فيها، لكني لست من ذلك النوع من الشبان، ولا حتى أتشور أتشور. لكنّي لم أجلب له حظاً جيداً. عندما جلسنا، وجدت صعوبة في أن أنظر إليه. لقد تعرّف أحدنا على الآخر منذ زمن، وقد يكون وجودي معه هنا من أكثر المواقف التي وجدنا أنفسنا فيها حزناً. إننا شخصان مثيران للشفقة، قلت في نفسي، فهو لا يزال يعمل في مخزن لبيع الأثاث، وأنا أحضر ثلاثة دروس تعويضية في معهد محلي. هل نحن مستقبل السودان حقاً؟ لا يبدو ذلك. ليس بالطريقة التي نجذب فيها المشاكل، ولا في المرات العديدة

التي نقع فيها ضحايا للمصائب. إننا نجلبها على أنفسنا. إن رؤيتنا للأشياء الخارجية غير صحيحة، كما أرى. ففي أمريكا، لا نرى أن المتاعب تأتي إلينا.

بعد اثنتين وخمسين دقيقة سمعنا نقرات على الباب.

هممت بأن أقف لكن أتشور أتشور أومأ لي بأن أجلس. أمسك مقبض الباب وأداره.

«انتظر!» صحت. لم يتردّد. خطر ببالي لوهلة أن تونيا عادت. لكنه فتح الباب ووجد أمامه امرأة آسيوية، رشيقة الجسم عقدت شعرها في شكل ذنب حصان، ترتدي نصف بدلة شرطة رسمية. لم تكن تضع قبعة على رأسها، ولم يكن بنطالها يتماشى مع سترتها. دعاها أتشور أتشور للدخول، وهو ينظر إليها بفضول مفضوح.

«سمعت أنك تعرضت إلى حادث هنا»، قالت.

دعاها أتشور أتشور للدخول وأغلق الباب. مسحت بعينيها غرفة الجلوس ولم تر بقعة الدم. لامست أصابع قدمها أطراف البقعة على السجادة. حدّق أتشور أتشور بالبقعة للحظة، وتبعت عينيه.

«ها»، قالت. وخطت بعيداً عن البقعة.

«من منكما الضحيّة؟» سألت، يداها على خصرها. نظرت إليّ ثم إلى أتشور أتشور. كنت أجلس بعيداً عنها حوالي أربعة أقدام، وكان الدم الجاف لا يزال على فمي وصدغي. تحوّل انتباهها إليّ.

«هل أنت الضحيّة؟» سألتني.

قلت أنا وأتشور أتشور نعم في وقت واحد. ثمّ نهض وأشار إلى وجهي، وقال: «لقد أصيب بجروح أيتها الشرطية».

ابتسمت، أمالت رأسها، وأطلقت تنهّيدة عالية. بدأت تطرح عليّ أسئلة، عن عددهم ومتى.

«هل تعرف الجناة؟» سألتني.

«لا»، قلت.

حكيت لها الأحداث التي جرت في الليل وفي الصباح. دوّنت بضع كلمات في دفتر ملاحظات مجلّد. كانت امرأة نحيفة، رشيقة الجسد، شعرها أسود، وعظام خدّها عالية، وحركات يديها الصغيرة - نظيفة، صغيرة.

«هل أنت متأكّد من أنك لا تعرف هؤلاء الأشخاص؟» كررت سؤالها.

«لا»، قلت ثانية.

«لكن، لماذا فتحت الباب إذن؟»

شرحتُ لها للمرة الثانية أنّ المرأة أرادت أن تستخدم هاتفي. هزّت الشرطية رأسها. لم يكن يبدو لها أنه جواب مقنع.

«لكنك لم تكن تعرفها».

قلت لها إنني لا أعرفها.

«ولم تكن تعرف الرجل أيضاً؟»

«لا»، قلت.

«لم ترهما من قبل قط؟»

قلت لها إنني رأيت المرأة متجهة إلى شقّتي. لفت ذلك اهتمام الشرطية. كتبت شيئاً في دفتر ملاحظاتها.

«هل عندك تأمين؟» سألتني.

قال أتشور أتشور إن لديه تأمين، وأخرج لها بطاقته. أخذت البطاقة وحدقت فيها وقالت: «لا، لا. تأمين مستأجر»، وأضافت، «شيء يغطّي سرقة كهذه».

أدركنا أنه لا يوجد عندنا شيء كهذا. قلت لها إن المرأة أجرت على الأقل مكالمة هاتفية واحدة من هاتفي الخلوي.

« يجب أن يساعدنا هذا، يا سّيد أتشور»، قالت لي، لكنها لم تكتب ذلك في دفتر ملاحظاتها.

«أنا أتشور أتشور»، قال أتشور أتشور، «هو فالانتينو».

اعتذرت، وأشارت إلى أن اسمينا يبدوان غريبين. رأت ذلك مقدمة للسؤال الحتمي حول أصلنا. سألتنا من أين نحن، فقلنا لها إننا من السودان. تبعثت الحيوية في عينيها.

«انتظرا. دارفور، صحيح؟»

في الحقيقة أصبحت دارفور الآن معروفة أكثر من البلد الذي تقع فيه تلك المنطقة. شرحنا لها جغرافيا البلد باختصار.

«السودان، يا إلهي»، قالت بشيء من الحماسة، وراحت تتفحص الأقفال على الباب الأمامي. «ماذا تفعلان هنا؟»

قلنا لها إننا نعمل ونحاول أن نذهب إلى الجامعة.

«إذن هل أنتما طرف في الإبادة الجماعية؟ ضحايا من ضحاياها؟»

جلستُ، وحاول أتشور أتشور أن يوضح لها الأمور. تركته يشرح لها، وظننت أنها ربما ستفتح دفتر ملاحظاتها مرة أخرى وتسجل المزيد من المعلومات عن هذا الاعتداء. أخبرها أتشور أتشور من أين جئنا، وعلاقتنا بسكان دارفور، وعندما قال إنّ عدداً قليلاً من تلك المنطقة جاؤوا ليعيشوا في أتلانتا بدا عليها الاهتمام.

ذات يوم جاؤوا إلى كنيستنا في كلاركستون. لفت راهبنا، الأب كيراتشي جانغي، انتباهنا إلى الضيوف الجالسين في مؤخرة الكنيسة، وعندما التفتنا إليهم، وقعت عيوننا على ثمانية قادمين جدد: ثلاثة رجال، ثلاث نساء، وطفلان دون الثامنة. وكان معظمهم يرتدون بدلات رسمية. كان الصبي الصغير يرتدي قميص فريق نمور كارولاينا. حييناهم، وعندما خرجنا من الكنيسة، فوجئنا برؤيتهم بيننا، وأردنا أن نعرف ماذا ينوون أن يفعلوا. فلم يكن من المعتاد أن يختلط سكان دارفور الذين معظمهم من المسلمين مع الدينكا، ولم يأتوا قط إلى كنيسة مسيحية يوم الأحد. لأن أهل دارفور يرتبطون تاريخياً بالعرب أكثر مما يرتبطون بنا مع أنهم يشبهوننا أكثر مما يشبهون العرق العربي بكثير. كانت مشاعرنا إزاءهم معقّدة أيضاً منذ زمن بعيد، لأنّ أكثر المهاجمين الذين يُطلق عليهم اسم «المرحلّين» والذين بثّوا الرعب في قرانا، كانوا من دارفور. ثم علمنا أنّ هؤلاء الذين بدأوا يعانون في هذه المرحلة الجديدة من الحرب الأهلية لم يكونوا هم الذين اضطهدونا، وإنما ضحايا مثلنا. فتركناهم وشأنهم، وتركونا وشأننا. لكن كلّ شيء اختلف الآن، فالتحالفات تتغيّر.

عندما انهى آتشور آتشور كلامه، أطلقت الشرطية تنهيدة وأغلقت دفتر ملاحظاتها.

«حسناً»، قالت، وألقت نظرة أخرى على بقعة الدم.

أعطتني ورقة بحجم بطاقة عمل، كتب عليها «بطاقة شكوى». أخذها أتشور أتشور.

«هل هذا يعني أنّ ما حدث له مجرد شكوى؟» سألها أتشور أتشور.

«نعم»، قالت، تكاد تبتسم. ثمّ أدركت أنه لم يوافق على هذه الطريقة بتسمية الجريمة. «ماذا تقصد؟»

قلت لها إن توجيه مسدس إلى رأسي أكثر من شكوى.

«هذه هي الطريقة التي نعرّف فيها قضية كهذه»، قالت، وأغلقت دفتر ملاحظاتها. لم تكتب فيه أكثر من خمس كلمات.

«انتبها إلى نفسيكما الآن، أوكي؟»

همّت لتغادر، لكني لم أستطع احتمال ذلك. فقد اكتمل شعوري بالهزيمة. ففي الدقائق الخمسين التي كنا ننتظر فيها وصول الشرطية، حشّدت قدراً كبيراً من السخط والتعطش للثأر، أما الآن فلم يعد يوجد لديّ مكان أضع فيه عواطفي. ارتميت على سريري وتركت كلّ شيء يتدفّق عبر الشراشف، وأرضية الغرف، والأرض. لم يتبق لي شيء آخر. يمكنهم أن يحتفلوا بنا نحن اللاجئين، ويمكنهم أن يساعدونا ويرفعون معنوياتنا، ثم يتجاهلوننا عندما نثبت لهم أننا أناس مزعجون، وعندما نقع في مشكلة هنا، فنحن السبب دائماً.

«أنا آسف»، قال أتشور أتشور، وقد جلس على سريري. «يجب أن نذهب إلى المستشفى، أليس كذلك؟ كيف تشعر، رأسك؟ «

قلت له إن الألم شديد، ويبدو أنه بدأ ينتشر في أنحاء جسمي.

«إذن سنذهب»، قال، «لنذهب».

أخذني أتشور أتشور إلى المستشفى في بيدمونت. قاد سيارتي، وبناء على اقتراحه، ركبت في المقعد الخلفي. استلقيت، بأمل أن يخفّف ذلك الألم في

رأسي. رحت أراقب السماء العابرة، الأشجار العارية وهي تتسابق من وراء النافذة، لكن الألم كان يزداد حدّة.

(١٦)

كنت قد جئت إلى هذا المستشفى من قبل. فقد كانت آن نيوتن قد أحضرتني إليه لأجري فحصاً عاماً بعد قدومي إلى أتلانتا بفترة وجيزة. وقالت لي آنذاك إنه أفضل مستشفى في أتلانتا، وقد أجري فيه زوجها جيرالد الذي لا أعرفه جيداً - مدير في مؤسسة مالية، لم يكن يأتي دائماً إلى البيت لتناول العشاء - عملية جراحية في كتفه بعد أن أصيب عندما كان يمارس رياضة التزحلق على الماء. وقالت آن إنه أفضل مستشفى هنا، وأنا سعيد لأنني أتيت إليه. ففي المستشفيات، يغمرني شعور بالارتياح، وأحسّ بالكفاءة، والخبرات، والكثير من التعليم والأموال التي أنفقت عليها، حيث تجد جميع الأدوات والتجهيزات معقّمة، وكلّ شيء فيها معبأ ومختوم بإحكام. وما إن تغلق الأبواب الآلية الصماء، حتى تتلاشى كلّ مخاوفي.

«يمكنك أن تعود إلى البيت»، قلت لأتشور أتشو، «فقد يستغرق ذلك وقتاً طويلاً». فقال: «سأبقى. سأنتظر حتى يعالجونك، ثمّ يمكنك أن تتصل بي عندما تحتاج لأعيدك إلى البيت. سأحاول أن أعود إلى العمل لمدة ساعة أو حوالي ذلك».

عندما دخلنا إلى بهو الاستقبال كانت الساعة الرابعة. كان رجل أمريكي أسود، في حوالي الثلاثين من العمر، يرتدي سترة زرقاء بأردان قصيرة، يجلس وراء منضدة مكتب الاستقبال. رمقنا بفضول شديد، وارتسمت ابتسامة عريضة فضولية تحت شاربه الكث. عندما اقتربنا، بدا أنه يسجّل في ذهنه الجروح البادية على وجهي ورأسي. سألني ما الذي حدث، فحكيت له نسخة موجزة عن القصّة. هزّ رأسه وبدا متعاطفاً. اعتراني شعور بالامتنان له بشكل لا عقلاني تقريباً.

«سنعالجك بسرعة»، قال.

«شكراً جزيلاً، يا سيدي»، قلت له ومددت يدي من فوق المنضدة لمصافحته بين يدي. كان جلده قاسياً وجافاً.

أعطاني أوراقاً وقال: «فقط املأ الفراغات -» ورفع يده بشكل أفقي في الهواء، من بطنه باتجاهي، أغمض عينيه وهزّ رأسه، كما لو أنه يريد أن يقول، سيكون كل شيء سهلاً، لن يكون هذا شيئاً، لا تقلق.

جلستُ أنا وأتشور أتشور ورحنا نملأ الاستمارات. وبسرعة كبيرة وصلت إلى السطر الذي يسأل عن اسم شركة التأمين لديّ، فتوقّفت. بدأ أتشور أتشور يفكّر.

«هذه مشكلة»، قال، وأعرف أن هذا صحيح.

كان لديّ تأمين لمدة ثمانية عشر شهراً تقريباً، لكني ألغيته عندما بدأت دراستي. فأنا أتقاضى ١٢٤٥ دولاراً في الشهر، وتبلغ رسوم الدراسة ٤٥٠ دولاراً، والإيجار ٤٢٥ دولاراً، ثم الطعام والتدفئة وأشياء عديدة أخرى. ولم يكن بإمكاني أن أضيف التأمين إلى هذه المعادلة.

ملأت الاستمارة بأفضل ما يمكنني، وأعدت الأوراق إلى الرجل. ألقيت نظرة على البطاقة التي تحمل اسمه: جوليان.

«يمكنني أن أدفع نقداً لأي شيء تفعلونه لي»، قلت له.

«لا نأخذ نقداً»، قال جوليان، «لكن لا تقلق. سنعالجك سواء أكان لديك تأمين أم لا. كما قلت - لا تقلق». وفعل تلك الحركة الأفقية عدة مرات، فشعرت بالراحة. لا بد أنه قادر على تيسير الأمور الضرورية. سيتأكّد شخصياً من معالجتي بسرعة وبشكل جيّد. كان أتشور أتشور جالساً عندما عدت.

«قال إنهم سيعالجونني في جميع الأحوال. يمكنك أن تذهب الآن»، قلت له، «يجب أن تعود إلى عملك».

«لا بأس»، قال أتشور أتشور دون أن يرفع عينيه عن المجلة. لسبب ما كان يقرأ مقالة عن «صيد الأسماك والحيوانات». قال: «سأنتظرك حتى تدخل».

فتحت فمي لأعترض، لكني أمسكت نفسي. فأنا أريد أن يبقى معي هنا، كما كان يريد أن أكون معه عندما حصل على رخصة القيادة، وعندما قدّم أول طلب للحصول على عمل، كما كنّا نريد أن يكون أحدنا بالقرب من الآخر، في عشرات الأشياء الأخرى حيث كنا نبدو أننا أكثر قوة وقدرة كشخصين لا كشخص واحد. وهكذا بقي أتشور أتشور، ورحنا نشاهد التلفزيون المثبّت على الجدار فوقنا، ورحت أتصفّح مجلة كرة السلة.

عندما مرّت خمس عشرة دقيقة، كتمت شعوري بالإحباط. لا يعتبر الانتظار خمس عشرة دقيقة وقتاً طويلاً لتحصل على عناية طبية عالية الجودة، لكنّي توقّعت شيئاً أكثر من جوليان. انتابني إحباط يصعب تبريره لكن لا يمكن

تجاهله، لأنني عرفت أنّ جرحي لم يكن يثير اهتمام جوليان أو اهتمام هذا المستشفى حتى يضعونني في عربة ويدفعون بها بسرعة عبر الممرات والأبواب، وهم يصدرون الأوامر والتعليمات إلى أحدهم الآخر. خطرت ببالي فكرة بأنني أستطيع، بمساعدة أتشور أتشور، أن أجد طريقة أجعل فيها رأسي ينزف مرة أخرى، حتى لو قليلاً.

مرّت عشرون دقيقة، ثلاثون دقيقة، واستغرقنا في مشاهدة مباراة كرة السلة على محطة إي إس بي إن.

«هل تظن أن ذلك بسبب التأمين؟» همست لأتشور أتشور.

فقال أتشور أتشور، «لا، فقد قلت لهم إنك ستدفع. إنهم يريدون أن يتأكدوا من أنك تستطيع أن تدفع. هل أريته بطاقة الائتمان؟»

لم أفعل ذلك. انزعج أتشور أتشور، ثم قال: «حسناً، أره إياها. لديك بطاقة ائتمان من سيتي بنك».

لم يتحرك جوليان من مكتبه منذ أن وصلنا. رحت أراقبه وهو يملأ استمارات وينظّم ملفات، ويردّ على مكالمات هاتفية. اقتربت منه، وأخرجت محفظتي عندما وصلت إليه.

استبقني وقال: «ينبغي ألاّ تنتظر طويلاً»، ونظر إلى الورقة التي ملأتها. «كيف تلفظ اسمك؟ أيّهما أول؟ دنغ؟»

«فالانتينو هو اسمي الأول، ودنغ اسمي الأخير».

«آه، فالانتينو. يعجبني ذلك. فقط اذهب واجلس و-»

فقلت: «أعذرني، لكني كنت أتساءل إن كان سبب التأخير في معالجتي هو السؤال عن قدرتي على الدفع».

رأيت فم جوليان بدأ يُفتح، فقلت في نفسي يجب أن أنهي كلامي قبل أن يسيء فهمي، فأردفت، «وأردت أن أوضح بأنني أستطيع أن أدفع. أعرف أنّك لا تستطيع أن تأخذ نقداً، لكنّ لديّ بطاقة ائتمان أيضاً» - وهنا أخرجت بطاقة سيتي بنك الذهبية الجديدة من محفظتي - «التي يمكنها أن تغطّي التكاليف. إنها مضمونة ويبلغ حدّ بطاقتي ٢٥٠٠ دولار، لذلك يجب ألاّ تقلق بأنّني لن أدفع».

بدا أن النظرة على وجهه تشير إلى أنّني قلت شيئاً فظاً من الناحية الثقافية.

«فالانتينو، يجب أن نعتني بكلّ شخص يأتي إلى هنا. إننا نفعل ذلك بحسب القانون. لا نستطيع أن نرفضك. لذلك فإنك لست بحاجة إلى أن تريني بطاقات ائتمانك. فقط ارتح في مكانك وشاهد مباراة جورج تاون، وأنا واثق من أنهم سيخيطونها قريباً. أستطيع أن أخيطها بنفسي لكني لست طبيباً. فهم لا يسمحون لي بأن أقترب من الإبرة والخيط». وهنا ابتسم ابتسامة كبيرة، انزلقت بسرعة لتصبح ابتسامة أوسع، تشير إلى أنّ مناقشتنا انتهت الآن.

كررت شكري له، وعدت إلى مقعدي وشرحت ما قاله لي لأتشور أتشور.

«قلت لك»، قال.

«قلت لي؟»

رنّ الهاتف فرفع أتشور أتشور إصبعه وطلب مني أن أصمت. إنه حقاً شخص مثير للسخط. ردّ على الهاتف وبدأ يتكلم بسرعة بالدينكا. إنه لوول ماجوك، واحد من رفاقنا، يعيش حالياً في نيوهامشير ويعمل بواباً في أحد الفنادق. ويقول إنه يعرف مانشستر أكثر مما يعرفها أي شخص ولد أو نشأ فيها. كان الحديث بينهما مفعماً بالحيوية ومليئاً بالضحكات. رأى أتشور أتشور نظرتي نحوه وهمس، «إنه في حفلة زفاف».

في العادة كنت أهتم بمعرفة زفاف من - وسرعان ما عرفت بأنها حفلة عرس سودانية في مانشستر الشديدة البرودة - لكنّي لم أستطع أن أستجمع الحماسة الكافية لأسمع مزيداً من التفاصيل. بدأ أتشور أتشور يوضح للوول بأننا في المستشفى، لكنّي لوّحت يدي أمام وجهه كي لا يقول أكثر من ذلك. فلم أكن أريد أن يعرف لوول. لم أكن أريد أن يعرف أحد، لأن ذلك سيعكّر صفو الحفلة. وعندها لن تتوقف المكالمات الهاتفية، وستنتشر بعد دقائق قليلة إشاعات بأنني غبت عن الوعي أو أنني مت ولن يعود أحد يريد أن يرقص. ثم أنهى أتشور أتشور المكالمة وأعاد هاتفه إلى الحافظة في حزامه. فبين عشية وضحاها، اشترى جميع الرجال السودانيين في أتلانتا حافظة تُثبت في الحزام يضعون فيها هاتفهم الخلوي.

«هل تذكر دوت غارانغ؟» سألني، «إنه يعقد قرانه الآن على أدوي نيبيك، ويحضر حفلة العرس خمسمئة شخص». في السودان، لا يوجد حدّ لحفلات الأعراس، فلا يستثنى أحد من حضورها، سواء أكان الضيف يعرف العروس

والعريس أو لا يعرفهما. إذ يستطيع جميع الناس أن يحضروا العرس، ولا توجد نهاية للنفقات والخطابات والولائم. لكن بطبيعة الحال، فإن حفلات الأعراس السودانية في أمريكا تختلف عن تلك التي تقام في السودان. فلا توجد هنا حيوانات لذبحها، مثلاً، ولا الكشف عن بقع دم على الشراشف الناصعة البياض. لكن الروح متشابهة، وستقام حفلات زفاف كثيرة بعد الآن، لأن أطفال السودان الضائعين الأوائل سيحصلون على الجنسية قريباً، عندها ستتدفق العرائس من كاكوما والسودان، وسيتضاعف عدد السودانيين في أمريكا، ثم سيتضاعف عددهم مرة أخرى. لأن معظم الرجال يرغبون في إقامة أسر.

واصل أتشور أتشور حديثه لفترة من الوقت، وراح يحيّي الشبان الآخرين الذين كنت أعرفهم. لم تكن لديّ رغبة في التحدث مع أي منهم، لأن الحديث عن الأعراس يذكّرني بتابيثا، وبالزفاف الذي كان من الممكن أن نقيمه، لذلك، لم أكن أريد أن أفكّر بذلك في هذا اليوم الذي ضُربت وسُرقت فيه.

أصبحت الساعة السادسة، يا جوليان. مضى علينا ساعتان في غرفة الانتظار. لم يخفّ الألم في رأسي، لكنه أصبح أقل حدّة من ذي قبل. كنت أتوقّع أن أحصل على مساعدة منك، يا جوليان. لا لأنك تتحدر من أصل أفريقي، بل لأن هذا المستشفى هادئ جداً، وتكاد غرفة الطوارئ تكون فارغة من المرضى، وأنا الوحيد الموجود في غرفة الانتظار، وأرجو أن تكون جروحي طفيفة، وأن يعالجونني بسرعة ويرسلونني إلى البيت. لا أستطيع أن أتخيّل لماذا تريدني أن أحدّق بك هنا.

«لا فائدة من محاولة العودة إلى العمل الآن»، قال أتشور أتشور.

«أنا آسف»، قلت.

«لا توجد مشكلة».

«هل يجب أن نتصل بلينو؟ كان من المفترض أن أراه الليلة».

اتفقنا على أن نتصل بلينو، ولينو فقط. فاتصل به أتشور أتشور، وقبل أن يخبره عن مكاني، ألّح عليه بأنّ لا يخبر أحداً بمكاننا الحالي.

«سيأتي»، قال أتشور أتشور، «فقد استعار سيارة».

لم أفهم الفائدة من مجيئه إلى هنا لأنني كنت متأكّداً من أنهم سيعالجونني في أيّ لحظة. وكان لينو يقيم على مسافة عشرين دقيقة من المستشفى. أكّدت لأتشور أتشور بأنّ لينو سيضل طريقه إلى المستشفى مما سيضاعف من الوقت الذي سيمضيه للوصول إلينا. لكن إذا طالت فترة الانتظار، وهو أمر غر محتمل، فإن وجود لينو سيبعث البهجة في الغرفة. كان ليون قد بدأ يواعد نساء بواسطة موقع eHarmony.com وفي جعبته الكثير من القصص. فقد كانت قصص المواعدة هذه التي لم تنجح كلها، مسلّية، لكن سرعان ما سيتحوّل الحديث إلى الأعراس، ثم إلى مخططات لينو للعودة إلى كاكوما ليبحث عن زوجة. وسيفعل لينو ذلك قريباً، وتحدوه آمال كثيرة، مع أن هذه العملية طالت كثيراً وستكلّفه مبلغاً كبيراً.

فقد قام غابرييل، شقيق لينو الباسم دائماً، بهذه الرحلة مؤخراً. لم تكن رحلة سهلة. وكان غابرييل قد جاء إلى أمريكا سنة ٢٠٠٠، ودرس سنة واحدة في المدرسة الثانوية، ويعمل حالياً في مصنع للتعبئة يقع خارج أتلانتا. وكان قد قرّر في السنة الماضية أن يتزوج، وقرّر أن يختار عروسه من كاكوما. وقد بدأ هذه الأسلوب يزداد لدى الشبان السودانيين المقيمين في أمريكا. فأخبر معارفه الذين لا يزالون يعيشون في المخيّم- عنده عمّ هناك، كان جندياً في جيش التحرير الشعبي السوداني -بأنّه يريد أن يتزوج. فبدأ عمّه يبحث له عن عروس بالنيابة عنه، وكان يرسل له بين الحين والآخر صوراً لفتيات على الإنترنت. كان غابرييل يعرف بعضهن ولا يعرف بعضهن الآخر. وكان غابرييل يفضّل أن يتزوج امرأة من منطقته، منطقة أعالي النيل، إلا أنه لم تكن توجد العديد من الفتيات اللاتي يرغب في الزواج منهن، كما قال له عمّه. وسرعان ما بدأ غابرييل يقلّص مجال اختياراته إلى أربع نساء، تتراوح أعمارهن بين السابعة عشرة والثانية والعشرين، لم تذهب أي منهن إلى المدرسة، وكنّ جميعهن يعملن في بيوت أقارب لهن في كاكوما. وكنّ كلهن مستعدات لاغتنام فرصة الانتقال إلى أمريكا للزواج من أحد اللاجئين السودانيين.

ويُعتبر السودانيون الذين يعيشون في أمريكا مشاهير في كاكوما، فهم ينظرون إلينا على أننا نمتلك بأنهم ثروة كبيرة، ونقيم في شقق كبيرة ودافئة ونظيفة، وعندنا تلفزيونات ومسجلات. إن الواقع بأنّ معظم هؤلاء الشبان يمتلكون سيارات كان شيئاً يفوق تصور الذين لا يزالون في كاكوما، لذلك فإن الزواج من رجل كهذا فرصة لا تُعوّض. لكن بدأت بعض العقبات تظهر الآن. فمنذ عشر سنوات، كان من المستحيل أنّ تصرّ امرأة على أن ترى صورة عريس محتمل، أما الآن فقد أصبحت الفتيات يدققن في الرجال الذين يطلبونهن للزواج!

وهذا ما جرى الآن، الأمر الذي جعلني أضحك وأضحك. فعلى الرغم من أن غابرييل كان رجلاً لطيفاً ومحترماً، فإنه لم يكن وسيماً بحسب المقاييس التقليدية، ولم تقبل به عروستان اختارهما. وبدا أن الفتاتين الأخيرتين، كلاهما في الثامنة عشرة، وهما صديقتان، قد رضيتا بالاقتران بغابرييل، مع أنه لا يعرفهما ولا يعرف أسرتيهما. ثم أثير موضوع مبلغ مهر العروس. وكانت إحدى الفتاتين واسمها جوليا، تعيش في أسرة تضم خمس عشرة فرداً تقريباً، وكانت فتاة جذّابة ممشوقة القوام، فارعة الطول، لها عنق طويل، وعينان واسعتان. وكان أبوها قد قُتل في انفجار بقنبلة يدوية في النوبة، لكن أعمامها كانوا سعيدين في التفاوض على مهرها، لأنهم سيكونون المستفيدين الوحيدين منه. وبحسب العادات السودانية، فإن المرأة لا تقبض المهر. وإذا كان الأب متوفى، فإن الأعمام هم الذين يحصلون على مهرها المتمثل في عدد من الأبقار.

لذلك كان أعمام هذه الفتاة يعرفون أن لديهم فتاة حسناء، ويتوقّعون أن يحصلوا على مهر مرتفع جداً حتى يوافقوا على زواجها. وكان عرضهم الأول من أعلى المهور التي سُمع عنها في كاكوما: مئتان وأربعون بقرة، تعادل عشرين ألف دولاراً تقريباً. ويمكنك أن تتخيّل شخصاً مثل غابرييل يتقاضى تسعة دولارات وتسعين سنتاً في الساعة في مصنع للتعبئة، وكان محظوظاً لأنه تمكّن من توفير ٥٠٠ دولار خلال سنتين. وهكذا انتظر غابرييل ليسمع المبلغ الذي تطلبه أسرة العروس الأقل جمالاً. إنها صبيّة جميلة، لكنها أقل جمالاً من الفتاة الأخرى. فقد كانت أقصر قامة من منافستها، وأقل بهاء، لكنها جذابة جداً، وقيل إنها تتقن مهارات منزلية كثيرة ولها مزاج جيد. وكانت تعيش مع أمّها وزوج أمّها، وكانت طلباتهم معقولة أكثر: مائة وأربعون بقرة، أو حوالي ثلاثة عشر ألف دولار.

من هناك، كان على غابرييل أن يفكّر في الأمر. فلم يكن باستطاعته أن يدفع هذا المبلغ أيضاً، إلاّ أنه نادراً ما يتحمل العريس نفقات مهر العروس وحده، لأنها تُعتبر مسألة عائلية، فيساعده الأعمام وأبناء الأعمام والأصدقاء. فتوجّه غابرييل إلى أقربائه وأصدقائه، في كل من أمريكا وكاكوما، وتبين له أن كلّ ما يستطيع أن يجمعه لا يعادل سوى مئة بقرة، أي حوالي تسعة آلاف دولار. وبعد أن قرر الزواج من الفتاة الأقل مهراً، نقل غابرييل عرضه إلى أهل الفتاة في كاكوما عن طريق ممثلين عنه. فرفضوا، ولم يقدموا عرضاً آخر. لذلك كان عليه أن يدبّر الثلاثين بقرة الباقية، وإلاّ فلن يحظى بعروس. فناشد الآن الشخص الوحيد الذي كان باستطاعته أن يحدث فرقاً - وهو عمّ غني لا يزال يعيش في السودان. فاتصل غابرييل بالهاتف عن طريق الستالايت برومبيك، القرية الكبيرة التي تبعد حوالي مسيرة يوم عن القرية الأصغر التي يعيش

فيها هذا العمّ. ونُقلت الرسالة إلى العمّ: «هذا أنا، غابرييل، ابن أغوتو، وأريد أن أتزوج فتاة من كاكوما. هل تستطيع مساعدتي؟ هل يمكنك أن تقدّم لي ثلاثين بقرة؟» سُلّمت الرسالة إلى العمّ بعد يومين من إرسالها إلى روميبيك، ووصلت بعد ثلاثة أيام رسالة من روميبيك، وتم الاتصال بغابرييل في أتلانتا: كان الجواب نعم؛ إذ سيكون هذا العمّ الغني سعيداً لتقديم الأبقار المتبقية، وبالمناسبة، هل كان غابرييل يعرف أنّ عمّه رشّح نفسه لعضوية البرلمان في المنطقة؟ كانت هناك أخبار جيدة تنتقل في جميع الاتجاهات.

وهكذا تم الاتفاق، وكان كلّ ما على غابرييل أن يفعله هو هذا: أن يحوّل ثمن الأبقار إلى شلنات كينية، ويبرم الاتفاق، ثم يسافر بالطائرة إلى نيروبي ثم يسافر إلى كاكوما، ويمضي ثلاثة أشهر للحصول على تأشيرة دخول وإذن للسفر إلى كينيا. وعندما يصل إلى كاكوما، يتعين عليه أن يقابل عروسه وعائلتها، ويزور جميع أقاربها في كاكوما، ويقدم لكلّ منهم مبلغاً من المال، وهدايا، وطعام، ومجوهرات، وأحذية رياضية، وساعات، وأجهزة آي بود، وبناطيل ماركة لي فايس من أمريكا؛ ويتخذ ترتيبات العرس، ويقيم حفلة العرس في كاكوما (في الكنيسة اللوثرية ذات السقف الصفيح)؛ وبعد أن يعود إلى أتلانتا، سيبدأ عملية إحضار عروسه إلى أمريكا. وكبداية، عليه أن ينتظر سنتين أخريين، حتى يحصل على الجنسية، ثم يبدأ تقديم أوراق لإحضارها، وخلال فترة الانتظار هذه، يصلّي بأن لا يقوم رجل سوداني آخر في كاكوما بإغواء عروسه أو يغتصبها أحد من التوركانا عندما تقوم بجمع الحطب، لأنه إذا حدث ذلك، فلن يعود أحد يرغب بها، وسيخسر مئة وثلاثين بقرة، لأنه يصعب دائماً استعادة الأبقار إذا ما فُسخ الزواج.

جوليان، عندما وجدت تابيثا ثانية، لم أكن أفكّر بالزواج. كان عليّ أن أتخرّج من الجامعة أولاً، ولكي أتخرّج من الجامعة، كان يجب أن أوفر مبلغاً لدراسة اللغة الإنكليزية في المعهد المتوسط. وحسبت أنه لا تزال أمامي ستّ سنوات تقريباً حتى أصبح مؤهلاً للزواج من أي فتاة، سواء أكانت سودانية أم غير سودانية. لذلك، عندما قالت لي تابيثا بأنها مرتبطة برجل آخر في سياتل، كان جندياً في جيش التحرير، يدعى دولوما مام أتر، لم أشعر بالحسرة.

لكن على الرغم من ذلك، فقد بدأنا نتكلّم. فقد تحدثنا بعد يوم من تلك المحادثة الأولى، ومنذ ذلك الحين، لم تهدأ الاتصالات بيننا. فدخلت إلى حياتي بثقة كبيرة، وبدأت تخابرني ثلاث، أربع، سبع مرات يومياً. كانت تتصل في الصباح لتقول لي صباح الخير، وفي أحيان كثيرة كانت تتصل في الليل لتقول لي تصبح على خير. وفي نواح عديدة، بدا أننا في نوع من علاقة رومانسية، لكن عندما كنّا نتحدث على الهاتف، كنّا نتحدّث غالباً عن دولوما.

لم أعرف هذا الرجل في كاكوما. وسمعت أنه كان لاعب كرة سلة معروف، أما الأشياء الأخرى التي عرفتها عنه، فقد عرفتها من تابيثا التي كانت تهاتفني لتشتكي لي منه، وتعبّر عن قلقها، وعن الخطط البديلة. وقالت إنه رجل تافه، ويريد أن يعاملها بالطريقة السودانية. وهو لا يعمل ويقترض منها بعض النقود. كنت أستمع إليها وأنصحها، وحاولتُ ألاّ أبدو متلهّفاً لأن تتركه.

لكنّي بدأت أشعر بالقلق، لأني سرعان ما بدأت أحبّ تابيثا بقوة. كان من المستحيل ألاّ أقع في حبها. كلّ تلك الساعات على الهاتف، وذلك الصوت - أقول لك، يصعب وصفه. موسيقى صوتها، ذكاؤها وفطنتها. كنت أكلّمها وأنا في غرفة النوم، في المطبخ، في الحمّام، عند مدخل بنايتنا. كان من المستحيل أنّها لا تزال ترى دولوما، لأننا كنّا نتكلّم على الهاتف ستّ ساعات متواصلة كل يوم. ففي أي ساعة تكلّم دولوما هذا؟

«هل تحبّ أن آتي لزيارتك؟» سألتني ذات يوم.

عندها عرفت أنّها تختبرني. فقد كانت مستعدّة لأن تترك دولوما وتأتي لزيارتي وأرادت في البداية أن ترى إن كانت ستحبّني شخصياً.

بعد أسبوعين، جاءت إلى أتلانتا. كان من الغريب أن أراها، أن أرى المرأة التي أصبحت. كانت امرأة بكلّ معنى الكلمة، امرأة في قوام مثير. فتحت الباب لها. لم تكن تتوقّعني. في البداية، مع أنها جاءت لتراني، فقد بدا للحظة، أنها لم تعرفني. فلم ير أحدنا الآخر منذ ثلاث سنوات، في كاكوما. أكثر من ثلاث سنوات، وآلاف الأميال. بعد تلك اللحظة من الشكّ، أدركت حقيقة وجودي.

«لقد ازداد وزنك!» قالت، وأمسكت بكتفيَ. «إني أحبّ ذلك!» ولاحظت عضلاتي الجديدة، ورقبتي الثخينة. كان الكثيرون الذين يعرفونني في المخيمات يعلّقون ويقولون إنّ جسمي لم يعد يشبه جسم تلك الحشرة.

عندما وضعت يديها على كتفي، عندما أصبح أحدنا في مواجهة الآخر، عن قرب - قرب شديد جعل من الصعب أن أنظر مباشرة إلى وجهها الرائع - كنّا أشبه بزوج وزوجة. كانت فكرة أن تابيثا ستمضي الليلة عندي مصدر سحر عظيم بين السودانيين في أتلانتا. ففي ذلك الوقت، لم يكن من الشائع أن يستضيف رجال مثلنا امرأة في بيتنا، فما بالك بامرأة سودانية، ستقيم لأيام وليال. كان ذلك قبل أن يتعرف أتشور أتشور على صديقته ميشيل، وكان يمضي معظم أيام عطلة نهاية الأسبوع في غرفته، لا يعرف كيف يمكنه أن يتعامل مع هذا الوضع. كان ذلك بالنسبة لي أيضاً بمثابة تحوّل كبير في عطلة نهاية الأسبوع. إن وجود تابيثا بهذا القرب مني لساعات عديدة، مستيقظة

ونائمة، جعلني أشعر بأنّني حصلت على كلّ شيء أريد أن أحصل عليه، وأنّني بدأت أعيش الحياة التي كنت أريد أن أعيشها.

على أريكتي في اليوم الثاني، بينما كنا نشاهد مسلسل «الهارب» - كانت تريد أن تشاهده، كنت أشاهده للمرة الثالثة - قالت لي إنها تركت دولوما. وقالت إنه انزعج كثيراً في البداية.

في الحقيقة، اتصل بي في عطلة نهاية الأسبوع تلك. كان في حالة هياج شديد. قال لي إنه يريد أن يفضي إليّ ببعض الأمور، من رجل إلى رجل. قال إن تابيثا فتاة عاهرة، وأنها نامت مع عدة رجال، وأنها ستواصل عمل ذلك. وبينما كان يقول لي ذلك، لم أصدّق أي حرف مما قاله لي، وكنت خلال ذلك أحدّق في تابيثا، المستلقية على سريري، تقرأ نسخة من مجلة «غلامر» التي اشترتها عندما خرجنا لتناول الفطور. وقال إنها حامل. حامل بطفل منه، لكنها أجهضته، لأنها لم تكن تريد الطفل ولا تريد أن تنصت إلى ما يقوله. وقال إنها قتلت الجنين على الرغم من اعتراضاته، وأي نوع من النساء يمكن أن تفعل ذلك؟ وقال إنها فتاة مدمرة، وأنها عاقر. وكنت طوال الوقت أنظر إلى تابيثا وهي مستلقية على بطنها، تقلّب صفحات المجلة ببطء، ترتدي بيجامتها، قدماها مشبوكتان في الهواء. ومع كلّ كلمة كاذبة ومقنعة كان دولوما يقولها عنها، كنت أزداد حباً لها. أغلقت الخطّ وعدت إلى تابيثا، إلى صباحنا الكسول والفخم معاً، ولم أقل لها من اتصل بي.

أخذ أتشور يتصفح المجلات الملقاة على المنضدة. وجد شيئاً مهماً في مجلة على غلافها موضوع عن السودان. وعلى الغلاف صورة امرأة من دارفور، لها شفتان مشققتان وعينان صفراوان، تنظر في الكاميرا، نظرة يائسة ومتحدّية في آن معاً. هل تعرف ماذا تريد يا جوليان؟ إنها امرأة مذهولة تحدّق في العدسة. لا يوجد عندي شكّ بأنها كانت تريد أن تحكي قصّتها، أو نسخة منها. أما الآن، وبعد أن حُكيت قصتها، وبعد أن وُثّق عدد كبير من جرائم القتل والاغتصاب، أو استُمدت من الروايات القليلة التي رُويت، يستطيع العالم أن يتساءل كيف يمكن مقاربة العنف الذي تمارسه السودان ضدّ دارفور التي يتواجد فيها بضعة آلاف جندي من الاتحاد الأفريقي، مع أن مساحة دارفور بقدر مساحة فرنسا، ويفضّل سكان دارفور تواجد جنود غربيين لأنهم يعتبرون أنهم أفضل تسليحاً وتدريباً وأقل عرضة لقبول الرشاوى.

هل يثير هذا اهتمامك، يا جوليان؟ يبدو أنك رجل مطلع ومتعاطف، لكن من المؤكد أن لتعاطفك حدود. لأنك سمعت قصّتي بأن لصوصاً هاجموني في

بيتي، وقد صافحتني وتنظر في عينيَّ ووعدت بأن تعالجني، لكني لا أزال أنتظر. ننتظر أحداً. قد يكون هناك أطباء وراء الستائر أو الأبواب، أو بيروقراطيون يقبعون في مكاتب غير مرئية، ليقرروا متى وكيف سأحظى بالاهتمام والرعاية. إنك ترتدي زيّاً رسمياً وتعمل في مستشفى منذ فترة من الوقت، وأنا أقبل العلاج منك، حتى لو لم تكن واثقاً منه. لكنّك تجلس هناك وتظن أنّك لا تستطيع أن تفعل شيئاً.

ألقينا، أنا وأتشور أتشور، نظرة على المقالة التي تتناول دارفور ورأيت فقرات تذكر النفط، والدور الذي أدّاه النفط في النزاع في السودان. في الحقيقة، لم يكن النفط هو محور ما جرى في دارفور، لكن يستطيع لينو أن يحدّثك، يا جوليان، عن الدور الذي كان للنفط في تشردّه. هل تعرف هذه الأمور يا جوليان؟ هل تعرف أن جورج بوش الأب هو الذي اكتشف الرواسب النفطية الرئيسية تحت تراب السودان؟ نعم، هذا ما يقولونه. كان ذلك في عام ١٩٧٤، وفي ذلك الوقت، كان بوش الأب السفير الأمريكي لدى الأمم المتحدة. وكان السيد بوش يعمل في مجال النفط، بالطبع، وكان ينظر إلى بعض خرائط السودان بالأقمار الاصطناعية التي باستطاعته أن يحصل عليها، أو التي وضعها أصدقاؤه النفطيون، وكانت تلك الخرائط تشير إلى وجود نفط في المنطقة. فأعلم حكومة السودان بذلك، وكان ذلك بداية أول عملية استكشاف، بداية التدخّل النفطي الأمريكي في السودان، وإلى حدّ ما، بداية منتصف الحرب. هل كانت الحرب ستدوم طوال هذه المدة لو لم يكن هناك نفط؟ مستحيل.

جوليان، لقد اكتُشف النفط بعد فترة قصيرة من إبرام اتفاقية أديس أبابا، الاتفاق الذي أنهى الحرب الأهلية الأولى، تلك الحرب الأولى التي استمرت حوالي سبع عشرة سنة. وفي عام ١٩٧٢، اجتمع شمال وجنوب السودان في إثيوبيا، ووقّعا اتفاقية السلام التي شملت بين أمور أخرى، بنوداً تقتضي تقاسم المصادر الطبيعية الموجودة في الجنوب، مناصفة. ووافقت الخرطوم، لكنها كانت تعتقد أن اليورانيوم هو المصدر الطبيعي الأساسي في الجنوب. ولم يكن أحد في أديس أبابا يعرف شيئاً عن مسألة النفط، لذلك، عندما اكتُشف النفط، تملك الخرطوم القلق. فقد كانت قد وقّعت على هذه الاتفاقية التي تصرّ على أنه يجب تقسيم جميع الموارد مناصفة، باستثناء النفط! فهل يتقاسمون النفط مع السود؟ لا، هذا أمر غير وارد! كان ذلك أمراً فظيعاً بالنسبة لهم، كما أظن، وهنا، بدأ معظم المتشدّدين في الخرطوم يفكّرون بإلغاء اتفاقية أديس أبابا والاحتفاظ بالنفط لأنفسهم.

عاشت أسرة لينو في حوض موغلاد، وهي منطقة تقع قرب الحدود بين الشمال والجنوب. لم يكونوا سعداء. ففي عام ١٩٧٨، اكتشفت شركة شيفرون حقل نفط ضخم هنا، فغيّرت الخرطوم التي سمحت بالقيام بعمليات الاستكشاف، اسم هذه المنطقة إلى الكلمة العربية «الوحدة». هل يعجبك هذا الاسم يا جوليان؟ إن الوحدة تعني أن يلتقي الناس معاً، شعوب عديدة تلتقي معاً لتصبح شعباً واحداً. ألا يدعو هذا الأمر للسخرية؟ ولتوسيع النكتة، حاولت الخرطوم في سنة ١٩٨٠ إعادة رسم الحدود بين الشمال والجنوب، لكي تصبح حقول النفط في الشمال! لم يتمكنوا من ذلك، شكراً لله. لكن كان عليهم أن يفعلوا شيئاً ليصبح النوير الذين يعيشون هناك خارج إطار هذه العملية، حتى يفصلوهم عن النفط، ويكفلوا أنه لن يكون هناك أي تدخل أو مطالبة منهم في المستقبل.

وفي عام ١٩٨٢، بدأت الحكومة تُظهر جدّية في التعامل مع هؤلاء، مثل عائلة لينو التي تعيش فوق النفط. فبدأ المرحلّون يظهرون بأسلحتهم الآلية، تماماً كما فعلوا بعد ذلك في مايال باي. وكان هدفهم إرغام النوير على الرحيل من المنطقة وقيام عشائر البَقَّارَة أو قوّات أمن خاصّة بحماية حقول النفط، وبذلك يمكن منع حدوث أيّ تمرد. فجاء الخيّالة، كما كانوا دائماً يجيئون، بأسلحتهم وبنهبهم وعنفهم العشوائيين. لكنّه لم يكن عنيفاً جداً في المرّة الأولى تلك. كانت رسالة إلى النوير الذين يعيشون فوق النفط: اتركوا المنطقة ولا تعودوا إليها.

لم تغادر عائلة لينو القرية. ولم تفهم الرسالة الموجهة إليها، أو أنها أرادت أن تتجاهلها. وبعد ستّة أشهر، جاء جنود الجيش السوداني إلى القرية ليوضحوا الرسالة التي أرسلوها. وطلبوا من النوير أن يغادروا على الفور، وأن يعبروا النهر وينتقلوا إلى الجنوب. قالوا لهم إنهم سيسجلون أسماءهم وسيتلقون تعويضاً عن أراضهم وبيوتهم ومحاصيلهم وأي ممتلكات يضطرون إلى تركها. فأعطت عائلة لينو وجميع العائلات الأخرى في القرية أسماءها إلى الجنود في ذلك اليوم، ثم غادر الجنود. لكن على الرغم من ذلك، لم تغادر عائلة لينو. كان أفراد هذه الأسرة عنيدين، يا جوليان، كما هو شأن الكثير من السودانيين. لا شكّ أنك سمعت عن آلاف السودانيين في القاهرة، الذين ديسوا بالأقدام؟ لقد حدث ذلك منذ عهد ليس ببعيد. فقد اعتصم ألف سوداني في حديقة صغيرة في القاهرة، للمطالبة بالحصول على جنسية أو على مرور آمن إلى بلدان أخرى. ومرّت شهور دون أن يغادروا مكانهم، ورفضوا أن يقبلوا أي شيء إلا بعد أن تُلبى مطالبهم. لكن المصريين رأوا أن هذه ليست مشكلتهم، وأصبح مشهد الحديقة التي اعتصم فيها السودانيون قبيحاً. فتحرّكت أخيراً القوّات المصرية وحطمت مدينة الصفيح التي أقامها

السودانيون، وقتلوا سبعة وعشرين سودانياً في هذه العملية، كان من بينهم أحد عشر طفلاً. إنهم عنيدون، هؤلاء السودانيون.

وهكذا بقيت عائلة لينو. فقد قررت هي ومئات العائلات الأخرى أن تبقى في مكانها. وبعد شهر، كما كان متوقّعاً، دخل فوج من جنود الجيش النظامي والمليشيا إلى القرية. وتجولوا بهدوء في أرجاء البلدة، كما فعلوا عندما أخذوا الأسماء. ولم يقولوا شيئاً لأحد؛ وما إن أخذوا مواقعهم، حتى بدأوا يطلقون النار. قتلوا تسعة عشر شخصاً في الدقيقة الأولى. وسمّروا رجلاً على شجرة، وألقوا برضيع في البئر. وقتلوا ما مجموعه اثنان وثلاثون شخصاً، ثم صعدوا إلى شاحناتهم وغادروا. في ذلك اليوم، حزم الذين نجوا من القرية أغراضهم وهربوا، واتجهوا جنوباً. وبحلول عام ١٩٨٤، كانت قرية لينو والقرى المجاورة لها، كلّ الذين يجلسون فوق النفط، قد سُلبت من النوير، وبدأت شركة شيفرون عمليات الحفر.

«أيها المريض!»

وصل لينو يرتدي بدلة مقلمة زرقاء فاخرة، تتدلى من عنقه ثلاث سلاسل ذهبية. يوجد محل في أتلانتا، ليساعدنا الله، يشتري منه عدد كبير من السودانيين ملابسهم. رفع جوليان عينيه إلى الأعلى من الشيء الذي كان يقرأه، معجباً ببدلة لينو، مبدياً اهتماماً بثلاثتنا عندما بدأنا نتكلّم بالدينكا بسرعة. وقعت عيني بعينه فعاد إلى كتابه.

أصبحت الساعة السابعة. مضى علينا هنا أكثر من ثلاث ساعات.

ألقى لينو بنفسه فوق أحد الكراسي بجانبنا، وأمسك بجهاز التحكّم عن بعد. وبينما راح يقلّب القنوات بسرعة، سأل لماذا استغرقنا كلّ هذا الوقت. حاولنا أن نوضح له، لكنه سأل إن كان لديّ تأمين فقلت لا، وأنني عرضت أن أدفع نقداً أو ببطاقة الائتمان.

«هذا لن ينفع»، قال لينو، «إنهم لا يثقون بك. ولماذا يثقون بك؟ فهم لا يظنون أنّك تستطيع أن تدفع، وسينتظرونك حتى تغادر، كما أظن. أو أن تفكّر بطريقة تضمن لهم أنك ستدفع».

لم أكن أعرف أنّ لدى لينو بصيرة تفوق بصيرتي، لكنّه جعلني أشكّ ثانية بجوليان، وبهذه المستشفى، وبإمكانية معالجتي هنا.

«اتصل بفيل، أو بدب»، قال آتشور، مشيراً إلى ديب نيوميز، أرملة بوبي. كنت أفكّر بنفس الشيء. كان بإمكاني أن أتصل بفيل، لكن الاتصال بفيل في الليل، مع أطفاله الصغار، لم يكن خياراً جيداً؛ أعرف أن التوأم يخلدان إلى النوم في الساعة السابعة، فقد وضعتهما في السرير بنفسي. يمكنني أن أتصل بآن وجيرالد نيوتن، لكني تريثت قليلاً. لأن ذلك سيثير قلقهما، وسيأتينا فوراً إلى المستشفى، وسيحضران أليسون معهما الذي يزعج حياتهما، ولا أريد أن أفعل ذلك. لا أريد سوى مكالمة هاتفية واحدة. أريد أن أكلّم شخصاً يعرف القواعد في حالات كهذه، ليتصل ويوضح الأمور لي ولجوليان. ديب تعيش في كاليفورنيا، وقد تكون في البيت الآن. اتّصلت برقمها، فردّت عليّ بيلي، أصغر أبناء أسرة نيوميز.

«فالانتينو!» قالت.

«مرحبا بصديقتي الصغيرة!» قلت. سألتها عن دروسها في السباحة. كنت قد أوصلتها إلى المسبح عدة مرات في الصباح، وجلست على المقعد الاسمنتي أنتظرها ريثما تقوم بمحاولتها الأولى في السباحة الحرّة. خافت أن تضع وجهها إلى الأسفل مباشرة، تحدّق في أرضية المسبح المشققة. ابتسمت لها، محاولاً أن أمنحها الثقة، لكن ذلك لم يجد نفعاً. بكت طوال فترة الدرس ولم تشأ أن تتكلم عن ذلك في الليل.

بعد ثوان جاءت ديب لتكلمني. حكيت لها القصّة بالتفصيل. ساور ديب التي عملت في هوليود لعدة سنوات وشاركت في مسلسل تلفزيوني يدعى «قصص مدهشة»، شعور بالارتياب. قالت إنني مثل الصبي الذي كذب وادّعى أنه هناك ذئباً، وعندما جاء ذئب حقاً لم يصدقه أحد. طلبت ديب أن تكلّم الرجل الجالس إلى المكتب. بشيء من الفخر أعطيت الهاتف لجوليان. نظر إليه باستغراب.

«من هذا؟» سألني.

«إنها واحدة من المشرفين عليّ. إنها تتصل من لوس أنجلوس وتريد أن تستفسر عن العناية التي أتلقاها».

قطّب جوليان حاجبيه وقرّب الهاتف من أذنه. كلّم ديب لبضع دقائق، ولوى قسمات وجهه أثناء حديثه إلى تعابير استياء واستغراب. وعندما أنهيا حديثهما، أعاد إليّ الهاتف.

«يقول إن عدد العاملين قليل»، قالت ديب، «صرخت به، لكنّي لا أعرف ماذا يمكن أن أفعل. أتمنّى لو كان بإمكاني أن أتي إليك وأحلّ المسألة، يا فال».

سألتها كم يجب عليّ أن أنتظر.

«حسناً، قال الرجل في أيّ لحظة الآن. منذ متى وأنت هناك؟ «

قلت لها حوالي أربع ساعات.

«ماذا؟ هل يوجد زحام؟ هل هو نوع من مستشفى المجانين هناك؟» فقلت لها إنه هادئ، هادئ جداً.

«اسمع، اتصل بي بعد نصف ساعة إذا لم يعالجوك في ذلك الوقت. إذا لم تر طبيباً، فسأكون جادّة معهم. أعرف بعض الخدع».

شكرت ديب، وشعرت بأنها أحدثت فرقاً كبيراً. أطلقت تلك التنهيدة المرهقة التي سمعتها كثيراً من قبل. إن ديب امرأة نشيطة، لكن التعامل معي، كانت تقول، فاق كلّ تفائلها.

«فالانتينو، لا أعرف ما الذي يحمله الله ضدّك»، قالت.

جلسنا بتلك الفكرة للحظة. نعرف كلانا بأنّ هناك سؤالاً لم يجب عليه بعد.

«اتصل بي بعد أن يشخصوك»، قالت، «فإذا كان الأمر خطيراً فإننا سنأتي بك بالطائرة إلى هنا ويمكنك أن ترى طبيبي. لكني أظن أنك ستكون على ما يرام. اتصل بي قريباً».

هذا بلد ديب، فإذا قالت ديب بأنّني سأُعالج، وأن الأمر لا يتعلق بالنقود أو بالتأمين، فإني أصدقها.

عدت إلى غرفة الانتظار، إلى لينو وأتشور أتشور اللذين عادا يتحدثان على الهاتف، يتحدّثان مع عدد من الذين يحضرون حفل العرس في مانشستر. من الحديث بصوت مرتفع بينهما واضطراره لتوضيح الأمر لديب، بدا جوليان الآن منزعجاً. لم أكن أريد أن أكون مصدر إزعاج له، ولا لديب، أو لأي شخص. كنت أريد أن أكون مستقلاً وأن أتحرّك في هذا العالم من دون الحاجة إلى أن أسأل أسئلة. أما الآن، فلا يزال لديّ أسئلة كثيرة، وهذا أمر محبط بالنسبة

لشخص مثل جوليان الذي يشعر بأنّه يعرف الأجوبة ويعرفني. لكن، جوليان، أنت لا تعرف شيئاً بعد.

(١٧)

السير إلى إثيوبيا، يا جوليان، لم يكن سوى البداية. نعم فقد سرنا عدة شهور عبر الصحاري والأهوار، وكانت أرتالنا تقلّ يوماً بعد يوم. كانت الحرب مشتعلة في أنحاء جنوب السودان، في إثيوبيا، قالوا لنا، إننا سنكون في مأمن وسيتوفر لنا طعام، وأسرّة ننام عليها، ومدرسة ندرس فيها. وأعترف أنني في الطريق، أطلقت العنان لمخيلتي. وعندما كنّا نقترب من الحدود، كانت توقّعاتي تصوّر لي بيتاً لكلّ واحد منّا، عائلات جديدة، بنايات عالية، زجاج، شلالات، صحون مليئة ببرتقال يلمع موضوعة على طاولات نظيفة.

لكن عندما وصلنا إلى إثيوبيا، لم يكن المكان كذلك.

- نحن هنا، قال دوت.

- ليس هذا هو المكان، قلت.

- هذه هي إثيوبيا، قال كور.

بدت لي نفس الشيء. فلم تكن هناك بنايات، ولا زجاج. ولم تكن هناك أطباق مليئة بالبرتقال على طاولات نظيفة. لم يكن هناك شيء. كان هناك نهر وأشياء أخرى قليلة. ليس هذا هو المكان، كررت، وقلت ذلك مراراً في الأيام التالية حتى سئم منّي الصبية الآخرون. وظنّ بعضهم أنّني فقدت صوابي.

سأعترف أننا عندما عبرنا إلى إثيوبيا، وجدنا قدراً من الأمن، وقدراً من الراحة. فقد أصبح بإمكاننا أن نتوقّف، وكان ذلك أمراً غريباً. فقد كانت الغرابة هي ألاّ نمشي. ففي الليلة الأولى تلك، نمنا للمرة الثانية في المكان الذي كنا نجلس فيه. فقد اعتدت على السير كلّ يوم، السير في الليل، وعند طلوع الفجر، أما الآن، فعندما بزغت الشمس، لم نتحرك من مكاننا، وانتشر الصبية في أرجاء المكان، وكان كلّ ما بقي أمام بعض الصبية هو أن يموتوا هنا.

كان العويل والبكاء ينبعثان من كل مكان. ففي سكون الليل، وعلى دندنة الجنادب ونقيق الضفادع، كانت تعلو الصرخات وأصوات الأنين، تنتشر فوق سماء المخيم كعاصفة. كان كما لو أنّ الكثير من الصبية ينتظرون أن يخلدوا إلى الراحة، وها قد حلّ بهم المقام الآن في بينيدو، فتهاوت أجسادهم. فبدأ

الصبية يموتون من الملاريا، والزحار، ومن لدغات الأفاعي، ولدغات العقارب. أما الأمراض الأخرى فلم تكن تعد ولا تحصى.

ها قد أصبحنا في إثيوبيا بأعداد كبيرة. وفي غضون أيام، أصبح عددنا بالآلاف. وبعد فترة قصيرة، وصلت أفواج أخرى ضمت بالغين وعائلات وأطفالاً رضّع، وامتلأت الأرض بالسودانيين. وبعد بضعة أسابيع أقيمت مدينة للاجئين. كانت شيئاً يجب أن تراه: أناس يجلسون، يحيط بهم جنود من المتمردين وجنود أثيوبيين، ينتظرون أن يُقدّم لهم الطعام. وأصبح هذا المكان يدعى مخيّم بينيدو للاجئين.

وبما أن عدداً كبيراً منّا فقدوا ثيابهم أو قايضوا بها على طول الطريق، كان نصفنا فقط يرتدي أيّ شيء. وهكذا ظهر نظام طبقات في صفوفنا. فقد اعتُبر الصبية الذين يملكون قمصاناً وبناطيل وأحذية الطبقة الأغنى، أما الطبقة التي تليها فكانت الصبية الذين يملكون اثنين من الثلاثة. وكنت محظوظاً لأنني صُنفت من الطبقة المتوسطة العليا، لأنني أملك قميصاً واحداً وحذائين وبنطالاً قصيراً. وكان هناك عدد كبير من الصبية عراة، وكانت تلك مشكلة. فلم تكن هناك حماية من أيّ شيء.

- انتظروا، قال لنا دوت. - ستتحسّن الأحوال.

كان دوت مشغولاً الآن، ينتقل ذهاباً وإياباً في المخيّم، يلتقي دائماً بالوجهاء ويختفي لأيام. وعندما يعود، كان يزورنا، نحن الصبية الذين أحضرنا إلى هنا، ويطمئننا بأنّ بينيدو ستصبح بيتنا قريباً.

وعلى الرغم من ذلك، فقد ألقيت مهمة البحث عن الطعام على عاتق كلّ واحد منّا لفترة من الوقت. فقد كان علينا أن نعيل أنفسنا. ومثل صبية كثيرين، كنت أذهب إلى النهر لأصطاد، مع أنه لم تكن لديّ أي تجربة في صيد السمك. فكنت آتي إلى النهر، وينتشر الصبية في كل مكان، يحمل بعضهم عصى وحبلاً رقيعاً، ويحمل بعضهم الآخر رماحاً بدائية. وفي أول يوم للصيد لي، أحضرت عصا معقوفة وقطعة سلك وجدته تحت شاحنة.

- هذا لن ينفع، قال لي أحد الصبية. - لا توجد لديك فرصة لصيد شيء بهذه الطريقة.

كان صبياً نحيفاً، نحيفاً كالعصا التي أحملها. كان يبدو أنه عديم الوزن، ينحني إلى جهة اليسار عندما تهبّ رياح خفيفة. لم أقل له شيئاً، وألقيت بعصاي في النهر. كنت أعرف أنّه قد يكون محقاً بشأن فرصي في الصيد، لكنّي لم أعترف

له بذلك. كان صوته رفيعاً بشكل غريب، فيه نغمة، يدخل السرور إلى النفس، ويشي بالثقة. من هو على أيّ حال، ولماذا ظن أنه يستطيع أن يكلّمني بهذه الطريقة؟

كان اسمه أتشور أتشور، وقد ساعدني في عصر ذلك اليوم في العثور على عصا مناسبة وحبل رفيع. وخضنا معاً في ذلك اليوم، وفي الأيام التي تلته في مياه النهر ومعنا عصي صيد ورمح صنعه أتشور أتشور بنفسه. فإذا رأى أحدنا سمكة، كنا نحاول تثليثها، ويدفع أتشور أتشور العصا في الماء، ويحاول أن يطعنها. لم نكن نحقق أي نجاح. وكنا نجد أحياناً سمكة ميتة في مستنقع ضحل، فنطهو السمكة أو نأكلها نيئة.

أصبح أتشور أتشور أعزّ صديق لي في إثيوبيا. وفي بينيدو كان ضامراً مثلي، نحيفاً جداً، هزيلاً أكثر منّا جميعاً، لكنه كان لماحاً، ذكياً جداً، ماكراً. كان خبيراً في العثور على الأشياء التي كنّا نحتاج إليها قبل أن أدرك بأنّنا نحتاج إليها. ففي أحد الأيام وجد علبة قارغة مليئة بالثقوب فأخذها ونظّفها وملأ الثقوب فيها حتى أصبحت كوباً ممتازاً - ولم يكن يملك أكواباً إلاّ قلة قليلة من الصبية. وعثر أخيراً على قصبة صيد وشبكة ناموسية كبيرة في حالة جيدة، وأكياس سيسال كبيرة، وربطها كلها معاً مثل بطانية. وكان يقاسمني دائماً ما يحصل عليه، مع أنني لم أكن أعرف ما الذي كنت أجلبه لشراكتنا هذه.

كان الجيش الأثيوبي يزوّدنا ببعض الطعام. وكان الجنود يجلبون إلى المخيّم براميل فيها ذرة وزيت نباتي، وكان كلّ واحد منّا يتناول صحناً. شعرت بالتحسّن، لكن عدداً من الصبية أكلوا كثيراً وأصيبوا بالتخمة ومرضوا بعد ذلك مباشرة. وكنا نقايض أيّ شيء لدينا مقابل طحين الذرة أو الذرة في القرية المجاورة. وسرعان ما تعلّمنا كيف نميّز الخضراوات البرّية الصالحة للأكل والشائعة، وأصبحنا نخرج لحصادها. لكن مع مرور الأيام، واستمرار تدفق أعداد أخرى من الصبية، ازداد عدد صائدي تلك الخضراوات، وسرعان ما أصبحت شحيحة ثم استُنزفت بالكامل.

في كلّ يوم كانت تصل أعداد أكبر من الصبية، والعائلات أيضاً. وفي كلّ يوم كنت أراهم يعبرون النهر. كانوا يأتون في الصباح، ويأتون بعد الظهر، وعندما كنت أستيقظ، كنت أرى أعداداً أكبر كانت قد وصلت في الليل. وفي بعض الأيام كان يصل مئة شخص، وفي أيام أخرى يصل أكثر من ذلك بكثير. وكانت بعض المجموعات مثل مجموعتي تضم مئات من الصبية الضعفاء، نصفهم عراة، وبضعة مسنين. وكان في بعض المجموعات نساء وفتيات وأطفال رضّع فقط، يرافقهم جنود من جيش التحرير يحملون أسلحة على

ظهورهم. لم يتوقف الناس عن المجيء، وكلّما عبروا النهر، كنا نعرف أنّ الطعام المتوفر لدينا سيُقسّم في ما بيننا أكثر. فبدأت أكره رؤية أبناء جلدتي، وأكره أعدادهم الكبيرة، وكم كانوا أناساً محتاجين، مريضين، عيونهم جاحظة، وينوحون.

في أحد الأيام، ألقت مجموعة من الصبية أحجاراً على مجموعة من القادمين الجدد، فضُرب الصبية الذي ألقوا الحجارة ضرباً مبرحاً، فلم يتكرر ذلك. أما أنا فقد ألقيت حجارة في مخيلتي أيضاً. ألقيت حجارة على النساء والأطفال، وكنت أريد أن ألقي حجارة على الجنود، لكنّي لم ألق حجرة واحدة على أحد.

عندما استتب النظام في المخيّم، تحسّنت الحياة. أصبحنا منظّمين، مقسّمين، وأُنشئت فرق: الفرقة واحد، والفرقة اثنان، والفرقة ثلاثة. ستّ عشرة فرقة من الصبية، كلّ فرقة تتألف من أكثر من ألف صبي، وضمن الفرق توجد فرق تتألف من مئة صبي، وفي داخل تلك الفرق، توجد فرق تتألف من خمسين، ثم من اثني عشر صبياً.

عُيّنتُ مسؤولاً عن فرقة مؤلفة من اثني عشر صبياً، أحد عشر صبياً وأنا. كنّا اثنا عشر وأطلقتُ عليهم اسم «الأحد عشر». كان أتشور أتشور نائبي وعشنا جميعاً معاً، نأكل معاً، ونقتسم المهام فيما بيننا - جلب الطعام والماء، والملح، وإصلاح الملجأ الذي نقيم فيه، والناموسيات. ووضعونا معاً لأننا ننتمي إلى نفس المنطقة ونتكلّم لهجات متشابهة، لكنّنا أقنعنا أنفسنا بأنّ فريقنا هو الأفضل. واعتبرنا أن فريقنا يتفوق على جميع الفرق الأخرى.

بعد أتشور أتشور يأتي أثوربي تشول غويت، الصريح والجريء. كان يتقرّب من الجميع ويقيم معهم صداقات بسرعة. وكان يعرف رئيس مخيّم بينيدو للاجئين، والعاملين في مجال الإغاثة لدى الأمم المتحدة، والتجّار الأثيوبيين. وكان غام أتر فارع الطول ونحيفاً بشكل غير معقول، وكان ابن عم بعيد للشخص الثاني في قيادة المخيّم، جوركوتش باراتش. وكانت بشرة كلّ من أكوك آني وأكوك كووانين بلون نحاس خفيف، وكان يخشاهما الكثير من الصبية لأنهما كانا أكبر سناً وأكثر عنفاً منّا جميعاً. وكان غارانغ بول صائد سمك عظيم وكان ماهراً جداً في العثور على الثمار والخضراوات الصالحة للأكل. وكان هناك صبي لا أعرف اسمه عضواً في فريق الأحد عشر لبضعة أيام فقط، ثم شرب من إحدى البرك ليروي عطشه لكنه مات بعد فترة قصيرة بعد إصابته بالديزنطاريا. أظن أنه يوجد عدد كبير من الصبية الذين يجب أن أذكرهم، يا جوليان.

وكان هناك أيضاً إسحاق أهير آرول، الصبي الوحيد في فريق «الأحد عشر» الذي قطع مسافة طويلة مثلي. فقد وصل الصبية إلى إثيوبيا سيراً على الأقدام من جميع أنحاء جنوب السودان، لكن معظمهم جاء من مكان يدعى بور، غير بعيد عن الحدود الأثيوبية. فقد مشيتُ شهوراً، بينما لم يمش عدد كبير من الصبية إلاّ أياماً معدودة فقط. وهكذا كان إسحاق أهير آرول من منطقتي، منطقة بحر الغزال، وأطلق عليّ اسم «ذهَبَ بعيداً» وأطلقت عليه أنا كذلك اسم «ذهَبَ بعيداً»، وأصبح الجميع ينادوننا كلينا «ذهَبَ بعيداً». وحتى الآن، عندما أرى بعض الصبية الذين كانوا في بينيدو، فإنهم ينادونني بهذا الاسم.

لكنّ توجد لديّ أيضاً أسماء عديدة أخرى يا جوليان. فقد كان الصبية الذين يعرفونني في مايال باي ينادونني باسم أتشاك، أو ماريالديت. أما في بينيدو، فقد كانوا ينادونني في معظم الأحيان باسم «ذهب بعيداً»، وفي كاكوما، أصبحوا ينادونني فالانتينو، وفي بعض الأحيان، أتشاك. أما هنا، في أمريكا، فقد أصبح اسمي دومينيك آرو لثلاث سنوات، حتى السنة الماضية، عندما غيّرت اسمي، رسمياً بعد الكثير من الجهد، وأصبح توليفة من أسمائي السابقة: فالانتينو أتشاك دنغ. وهذا أمر مربك للأمريكيين الذين يعرفونني، لكن ليس للصبية الذين ساروا معي. فلدى كلّ واحد منّا نصف دزينة من الهويّات: فهناك أسماء العائلة، وهناك الأسماء المسيحية، والأسماء التي اتخذناها عندما كنّا في كاكوما. كان وجود أسماء عديدة ضرورياً لأسباب عديدة يعرفها اللاجئون جيداً.

في بينيدو، اشتقت إلى عائلتي، أردت أن أعود إلى البيت، لكنّنا فهمنا أنه لم يعد هناك شيء في جنوب السودان، والعودة تعني الموت المحتم. وكانت الصور التي رسموها لنا قاسية، الدمار التام. كنّا كما لو كنّا الناجين الوحيدين، وأن سوداناً جديداً سينبثق منّا وحدنا، عندما نعود إلى أرض قاحلة لإعادة إعمارها. واستقر بنا المقام في بينيدو، وشكرنا على ما كان يتوفر لدينا هناك: شيء من الأمان والاستقرار. فقد أصبح لدينا ما كنّا نسعى إليه: وجبات طعام منتظمة، وبطانيات، وملاذ آمن. وكنّا، كما قيل لنا، أيتاماً، لكن كان معظمنا يأمل بأننا سنعثر على عائلاتنا أو على بعض منها، عندما تنتهي الحرب. ولم تكن لدينا أسس نبني عليها اعتقادنا هذا، لكنّنا كنّا ننام على هذا الأمل في كلّ ليلة، ونستيقظ معه في كلّ صباح.

في الأسابيع والشهور الأولى التي أمضيناها في بينيدو، لم يكن هناك سوى الصبية والواجبات التي يتعين علينا القيام بها، ومحاولات فرض النظام في المخيّم. وأصبح معظم الصبية في فرقتي، لأنهم الأصغر سناً، يجلبون الماء.

وكانت مهمتي تتمثل في أن آذهب إلى النهر وأجلب الماء للشرب وللطهي. فكنت أذهب كلّ يوم إلى ضفة النهر وأنا أحمل صفيحة ماء لملئها ثم أعود إلى المخيّم. ثم قالوا لي إن الماء على ضفة النهر غير صالح للشرب، فاضطررت لأن أخوض حتى منتصف مياه النهر لأجلب ماء أنظف.

لكنّي لم أكن أجيد السباحة. فلم يكن طولي يتجاوز أربعة أقدام، وربّما أقل، ومن الممكن أن تعلو مياه النهر إلى أكثر من ذلك في بعض الأيام، ويتحرّك تياره بسرعة. وكنت أضطر لأن أطلب من صبية وشبان آخرين أطول مني قامة لمساعدتي في جلب ماء أفضل. وكان عليّ أن أذهب إلى النهر أربع مرات في اليوم، وكنت أطلب من أحد الصبية أن يخوض في ماء النهر ليملأ صفيحة الماء. كنت أريد كثيراً أن أتعلّم السباحة، لكن لم يكن هناك وقت ولم يكن هناك أحد ليعلّمني. لذلك كنت أجلب الماء مرّتين في الصباح ومرّتين بعد الظهر بمساعدة آخرين، أحمل الصفيحة التي تتسع ستّة لترات وأعود بها إلى المخيّم. كانت ثقيلة الوزن بالنسبة لحشرة مثلي. وكان عليّ أن أستريح عند كلّ عشر خطوات.

كنت أصادف أحياناً صبية من القرية - يقيمون على ضفة النهر من قبيلة «أنياك» - يلعبون بجانب النهر، يبنون بيوتاً في الرمل. وكنت أضع صفيحة الماء بين الأعشاب الطويلة وأجلس معهم، أساعدهم في حفر خنادق وبناء قرى من الطين والرمل والعيدان. ثم نقفز إلى الماء، نضحك ويرشّ أحدنا الآخر بالماء.

في وقت مبكّر من صباح أحد الأيام، كان الضوء لا يزال ذهبياً، وكنت لا أزال ألعب مع الصبية «الأنياك»، ثم عدت إلى المخيّم. فجاء إليّ أحد الوجهاء في المخيّم وسألني:

- أتشاك، أين الماء؟

لم أعرف عن أي شيء يتحدّث. فقد كنت صبياً كثير النسيان، يا جوليان، وأظن أن لذلك علاقة بسوء التغذية.

- لقد أرسلناك إلى النهر لتجلب الماء. أين هي صفيحة الماء؟ ودون أن أنبس بكلمة، استدرت وعدت أجري إلى النهر، أقفز فوق جذوع الأشجار والحفر المنتشرة في الطريق. لم أركض بهذه السرعة إلاّ نادراً. وعندما وصلت إلى النهر، لم أجد أحداً على ضفته. كان جميع الصبية قد ذهبوا. فانزلقت إلى الضفة وبيدي صفيحة الماء. عندما وصلت إلى قعر النهر، شعرت بحجرة كبيرة تلمس قدمي، فسحبتها على الفور. كانت حجرة كبيرة مكسوة بنوع من

الأشنّة الداكنة. كان من الصعب رؤيتها في الظّل، فأقعيت لأرى إن كانت توجد تحتها أيّ كائنات. وعندما قرّبت وجهي أكثر، هبّت عليّ رائحة. كانت الحجرة رأس رجل. كان جسد رجل، مات منذ فترة، يعوم في النهر. وكان الجزء المتبقي من الجثّة مخفياً بين الأعشاب عند حافة النهر، وكانت عينا الرجل مصوبتين إلى قاع النهر، ذراعاه على جانبيه، كتفاه يتحرّكان قليلاً مع التيار، وكان هناك حبل ملفوف حول خصره، وكان جذعه منتفخاً، يبدو أنه على وشك أن ينفجر.

ثم عرفوا أن الجثة تعود إلى شاب سوداني، جندي في جيش التحرير، طُعن ثلاث طعنات. وقدّر الوجهاء السودانيون بأنّ «الأنياك»، هم الذين قتلوا الرجل، وربما كانوا قد قبضوا عليه وهو يسرق، لذلك استخدموا هذا الشاب عبرة: فإذا سرق أي سوداني، فإن سكان النهر سيقتلونه.

بعد ذلك اليوم، لم أعد أريد أن أذهب إلى النهر، ولم تعد صورة الرجل تغيب عن ذهني طوال اليوم وخاصة في الليل. فعلى الرغم من أن الحياة في إثيوبيا لم تكن مريحة بأي شكل من الأشكال، فقد كان فيها شيء من الأمان، وأصبحت أفكّر بأنّني لا أريد أن أعيش بالقرب من الموت العنيف. لكن الشرّ قد يحدث في بينيدو. طبعاً يمكن أن يحدث. فأمضيت اليوم التالي نائماً، مختبئاً من أصوات الكبار الذين كانوا يدعونني إلى العمل، والأكل، واللعب. لم ينته كلّ شيء. فلا يوجد شيء آمن. ولم تعد إثيوبيا تشكّل لي شيئاً مهماً. فهي ليست أكثر أماناً من السودان، وهي ليست السودان، وأنا لست قريباً من عائلتي. لماذا ابتعدنا كثيراً؟ فلم تعد لديّ قوّة كافية، أصبحت الحياة التي فيّ تكفي لكل هذا.

قال لي وجهاء المخيّم إنّني لن أرى رجلاً مطعوناً آخر، وأنّ هذا لن يحدث مرة أخرى. لكن لم يكن الأمر كذلك. فقد قُتل عدد من جنود جيش التحرير، وقُتل عدد أكبر من الأنياك انتقاماً، وسرعان ما تدهورت العلاقات بيننا، نحن المتطفّلين، وبين الأنياك. ووجّهت تهم بأن جنوداً من جيش التحرير اغتصبوا نساء من الأنياك، وانتقاماً لذلك كان السودانيون يُقتلون ويُسحلون. وأجج جنود جيش التحرير الذين كانوا مسلحين بشكل أفضل، هذا النزاع، فأحرقوا بيوتاً وقتلوا كلّ من كان يبدي مقاومة. وبعد ذلك بفترة طويلة، أطلق الأنياك النار على جنديين من جيش التحرير كانا يسيران على ضفة النهر، فنجم عن ذلك ما يُعرف باسم مذبحة بينيدو أجينغا. إذ أُحرقت قرية أجينغا التي يعيش فيها الأنياك، وقُتلت النساء والأطفال والحيوانات. فغادر سكان أجينغا الأنياك إلى مكان أكثر أماناً، لكن عدداً كبيراً من رجال القرية بقوا في المنطقة، وشكّلوا عصابات من القنّاصين كان هدفهم بسيطاً وناجحاً في أحيان كثيرة:

وهو قنص جنود جيش التحرير، أو أيّ سوداني. وعندما طوردنا، نحن السودانيين في نهاية الأمر من إثيوبيا، بعد سنتين، شارك الأنياك في إطلاق الرصاص برحابة صدر على ظهورنا ونحن نعبر نهر جيلو، وكان مائة منّا مثقلين بدمائهم.

لكن سلاماً نسبياً ساد بين السودانيين والأنياك لفترة من الوقت، بل حتى ساد شعور بالأمان في مخيّم اللاجئين الذي كنا نقيم فيه. فعندما اعترفت هيئات المساعدة الدولية بعد بضعة أشهر بمخيّم بينيدو، أصبح للأنياك مصادر جديدة من الغذاء، ونشطت التجارة بين مخيّمنا وبين القرى الممتدة على ضفة النهر، وأصبحت مقبولة للجميع.

ومع أن وجهاء المخيّم طلبوا منّا ألاّ نزور القرى الممتدة على ضفة النهر وحدنا، فقد كان أتشور أتشور وأنا نفعل ذلك. فقد كان جريئاً وكان يعترينا الملل. وكان جميع سكان القرى يراقبوننا، وكانت عيونهم تلاحقنا لأنهم كانوا يشكّون بأنّنا جئنا لنسرق شيئاً. ففي كلّ يوم كنّا نستكشف الحياة القائمة على امتداد ضفة النهر، وننظر خلسة إلى الأكواخ، ونشمّ رائحة الطعام راجين أن يقدّم لنا أحد طعاماً من دون أن نطلب ذلك. وفي أحد الأيام، حدث ذلك، لكني لم أكن مع أتشور أتشور الذي كان قد ذهب إلى مهبط الطائرات ليشاهد طائرة يتوقّع أن تهبط بعد ظهر ذلك اليوم.

- أنت، تعال إلى هنا.

قالت لي بلغة الأنياك امرأة تطبخ أمام بيتها. كانت إحدى زوجات أبي في مايال باي نصف أنياك، لذلك كنت أعرف قليلاً من هذه اللغة لأفهم هذه المرأة. توقّفت، وخطوت نحوها.

- هل يقدّمون لكم طعاماً في ذلك المخيّم؟ سألتني. كانت امرأة مسنة، أكبر من أمّي، تكاد تكون جدّة، ظهرها محني، وفمها يشبه مغارة خالية من الأسنان.

- نعم، قلت.

- ادخل، يا ولد.

دخلتُ إلى كوخها الذي كانت تملؤه رائحة اليقطين والسمسم والفاصولياء. وكان السمك المجفّف يتدلّى من الجدران. كانت المرأة تطبخ خارج الكوخ، وجلستُ واستندتُ إلى جدارِ الكوخ، وأرخيت ظهري على كيس من الطحين.

عندما عادت صبّت صحناً من الطحين والماء في طاسة. وعندما انتهيت من ذلك، أخذت طاسة من ذرة فو - فو وصبّت فيها كأساً مليئاً بالنبيذ، توليفة لم أرها من قبل. عندما تناولتها، ابتسمت ابتسامة حزينة من فمها الأدرد. كان اسمها أجولو، وكانت تعيش وحدها.

- إلى أين ستذهبون؟ سألتني.

- لا أظن أنّنا سنذهب إلى أيّ مكان، قلت. ففاجأها هذا الجواب.

- ألن تذهبوا إلى أيّ مكان؟ لماذا ستبقون هنا؟

قلت لها لا أعرف.

- توجد أعداد كبيرة منكم هنا، قالت، وبدا عليها اضطراب شديد الآن، لأنها لم تكن تتوقع أن تسمع مني ذلك. فلم يكن أحد من أهالي القرية على ضفة النهر يتوقع أن يظل السودانيون ضيوفاً دائمين. - إلى أن تغادرون، يمكنك أن تأتي هنا في أيّ وقت. تعال وحدك ويمكنك أن تأكل معي في أيّ يوم، يا أتشاك.

عندما قالت ذلك، يا جوليان، لمستْ خدي كما تفعل الأمّهات، فتهاويت. تهاوت عظامي واستلقيت على أرضية كوخها. كنت أمامها، أتنفس بصعوبة، كتفاي تهتزان وتحاول قبضتي إعادة الماء إلى عينيَ. فلم أعد أعرف كيف أردّ على مثل هذا اللطف والرقة. قرّبتني المرأة إلى صدرها. لم يكن أحد قد لمسني منذ أربعة شهور. لقد اشتقت إلى ظلّ أمّي، إلى أن أنصت إلى الأصوات في داخلها. لم أدرك أنني كنت أشعر بالبرد منذ زمن. أعطتني هذه المرأة ظلّها وأردت أن أعيش في داخله إلى أن أعود إلى بيتي ثانية.

- يجب أن تبقى هنا، همست لي أجولو. - يمكنك أن تصبح ابني.

لم أفه بكلمة. بقيت معها حتى المساء، وتساءلت هل يمكنني حقاً أن أصبح ابنها. فلا يمكنني أن أحصل على الراحة التي أعرفها وأنا أعيش مع صبية شبه عراة في المخيّم. لكنّي كنت أعرف أنّني لا أستطيع أن أبقى معها. لأن البقاء معها يعني أنني سأفقد الأمل بأن أعود إلى بيتي. وإن قبولي بأن تكون هذه المرأة مثل أمّي هو إنكار لأمّي التي ربما لا تزال على قيد الحياة، وربما ستنتظرني في السنوات المتبقية من عمرها. تساءلت وأنا مستلق في حضن هذه المرأة من الأنياك، كيف يبدو شكل أمّي؟ فلدي ذاكرة سائبة، خفيفة كالكتّان، فإذا بقيت مع هذه المرأة، أجولو، مدة أطول، فإن رؤيتي لأمّي ستزداد بعداً وسيصعب إدراكها. قلت لأجولو لا أستطيع أن أكون ابنها، لكنّها

على الرغم من ذلك، ظلت تقدم لي الطعام. كنت آتي مرة في الأسبوع وكنت أساعدها بقدر ما أستطيع، أجلب لها الماء، وبعضاً من إعاشتي، وأشياء لا تستطيع أن تجلبها بنفسها. كنت أذهب إلى كوخها، تقدّم لي الطعام، وتدعني أرقد في حضنها. في تلك الساعات، كنت أشعر بأنني صبي أصبح له بيت.

بعد مضي شهر، لم تعد بطني تقرقر من الجوع، ولم يعد رأسي يدور. بدأت أشعر بالارتياح، وشعرت بأنني شخص يعيش كما يريد الله للشخص أن يشعر. شعرت بأنني أصبحت قوياً، كاملاً، لكن هناك أعمال يجب على الصبية الأصحاء أن يقوموا بها.

- أتشاك، تعال إلى هنا، قال دوت ذات يوم. فقد أصبح دوت الآن مسؤولاً مهماً في المخيّم، وبما أننا قطعنا الرحلة سيراً على الأقدام معاً، فقد كان يحرص على أن يوفر لي احتياجاتي واحتياجات فرقة «الأحد عشر» التي أقودها. لكنّه كان يتوقّع أشياء أخرى لقاء ذلك.

تبعته وعرفت أنّنا متوجهان إلى خيمة المستشفى التي نصبها الأثيوبيون والتي يوجد في داخلها جميع الأشخاص الذين أصيبوا في المعارك في السودان، والمرضى، والأشخاص الذين يحتضرون في بينيدو. لم أكن قد زرت هذه الخيمة من قبل، ولم أكن أعرفها إلاّ من رائحتها التي كانت رائحة نتنة، ثاقبة، عندما تهب الريح.

- يوجد رجل في الداخل مات منذ قليل، قال. - وأريد أن تساعد في حمله ثمّ سندفنه.

لم أستطع أن أعارض. كنت أدين بحياتي لدوت.

داخل الخيمة، كان الضوء أزرق - أخضر، وكان هناك جثمان مُدّثر بالموسلين، ويتحلّق حوله ستّة صبية، كلّهم أكبر منيّ سنّاً.

- تعال إلى هنا، قال دوت، وأشار بأن أقف عند قدمي الميت.

حملت قدم الرجل اليسرى، وحمل كلّ صبي من الصبية الستّة الآخرين جزءاً من جسد الرجل البارد المتصلّب. وحمل دوت كتفيْ الرجل، وسرنا رجوعاً إلى الخلف. نظرت إلى الغيوم، إلى الأعشاب والأشجار - إلى أي مكان إلاّ إلى وجه الرجل الميت.

عندما وصلنا إلى شجرة ضخمة ملتوية، طلب منّا دوت أن نبدأ بالحفر. لم تكن لدينا مجارف، فبدأنا نحفر الأرض بأظافرنا، نرمي الأحجار والتراب جانباً. ورحنا نحفر كما تحفر الكلاب، ندفع التراب بين سيقاننا. وجدت صخرة لها حافة تشبه طاسة استعملتها لأغرف التراب إلى الجانب. بعد ساعة، حفرنا حفرة طولها ستّة أقدام وعمقها ثلاثة أقدام. وطلب منا دوت أن نغطي الحفرة بأوراق الأشجار، فجمعنا الأوراق وجعلنا الحفرة خضراء. ثمّ رقع دوت والصبية الآخرون الجثمان إلى الحفرة، وأداروا وجه الميت باتجاه الشرق. لم نكن نعرف لماذا، لكنّنا لم نسأل عندما طلب منا دوت أن نفعل ذلك. ثم طلب منّا أن نغطي الجسد بأوراق الأشجار، وعندما فعلنا ذلك، أهلنا التراب على الجثمان حتى اختفى عن أنظارنا.

كانت هذه بداية إقامة المقبرة في بينيدو، وأعقب أول دفن المزيد من الموتى الذين شاركت في دفنهم. كان الصبية والبالغون لا يزالون يموتون، لأن طعامنا كان محدوداً جداً والأخطار كثيرة. ففي معظم الأيام، كانوا يقدمون لنا وجبة طعام واحدة فقط، حبوب الذرة الصفراء وقليل من الفاصولياء البيضاء. وكنّا نشرب الماء من النهر الذي كان ملوّثاً، مليئاً بالبكتيريا، فكانت الوفيّات تنجم عن الإصابة بالديزنطاريا والإسهال وأمراض كثيرة مختلفة لا اسم لها. وكانت العناية الطبية في بينيدو ضعيفة جداً، والمرضى الوحيدون الذين يُنقلون إلى عيادة بينيدو للصحة العامة هم الذين كانوا على مشارف الموت ولم بالإمكان إنقاذهم. فعندما لا ينهض صبي من السرير، ويأنف الطعام، أو ينسى اسمه، يلفّه أصدقاؤه ببطانية ويحملونه إلى العيادة. ومن المعروف أن أيّ مريض يدخل العيادة لا يغادرها، فأصبحت تُعرف تلك الخيمة باسم «المنطقة الثامنة». فقد كانت توجد في المخيّم سبع مناطق حيث يقيم الصبية ويعملون، أما «المنطقة الثامنة» فقد أصبحت آخر مكان يذهب إليه المرء على هذه الأرض. «أين أكول ماوين؟» قد يسأل أحدهم، فنجيب، «لقد ذهب إلى المنطقة الثامنة». كانت المنطقة الثامنة هي العالم الآخر. كانت المنطقة الثامنة هي نهاية النهايات.

وأصبح الدفن في المنطقة الثامنة من مهمتي. وبمساعدة خمسة صبية آخرين، كنّا ندفن من خمسة إلى عشرة جثامين في الأسبوع. وكان كلّ واحد منّا يحمل نفس الجزء الذي يحمله في كلّ مرة، وكنت أحمل باستمرار قدم الميت اليسرى.

- لقد أصبحتَ صبي الدفن، قال لي أتشور أتشور ذات يوم.

ابتسمتُ، كنت أظن آنذاك أنه عمل فيه شيء من التقدير.

- لا أظن أنه عمل يناسبك، قال آتشور آتشور - أظن أنه ليس جيداً لك. لماذا تفعل ذلك؟

لم يكن لديّ خيار في ذلك. فقد طلب مني دوت أن أفعل ذلك، وكان عليّ أن أوافق. وقد وعد بأن يقدم لي بعض المزايا لأنني أقوم بهذه المهمة، كان من بينها حصص إضافية من الطعام، حتى أنه أعطاني قميصاً آخر، فأصبح عندي قميصان، وهو ترف في بينيدو.

لكن بعد فترة قصيرة، أُعفي دوت من العمل كمشرف على الدفن وأُوكل إلى رجل فظ، عصبي، أطلقنا عليه اسم القائد «إبزيم الحزام». فقد كان يضع فوق بدلته المموهة حزاماً فضّياً وأحمر ضخماً ومضحكاً جداً إلى حد أنه يستحيل أن تراه ولا تضحك. لكنّه كان فخوراً جداً به، وبحجمه وبلمعانه. وكان يلمع دائماً ولم يكن يظهر بدونه. وكان عنده صبي اسمه لوول يقوم بتلميع الحزام كلّ ليلة. وأشيع بأنه كان ينام على ظهره في الليل لأنه لم يكن يخلع بنطاله، لأن النوم على جانبه أو على بطنه سيدفع الإبزيم إلى أسفل بطنه. لم نكن نقدّر كثيراً القائد «إبزيم الحزام» أو الأشياء التي يرتديها.

كانت لدى القائد «إبزيم الحزام» سلسلة من القواعد المتعلقة بحمل الجثامين ودفنها، كان بعضها معقولاً وبعضها الآخر بعيد كلّ البعد عن أيّ منطق أو هدف. فعندما كنا نحمل الجثمان، كان يتعين علينا أن نبقيه مستوياً متصلّباً حفاظاً على كرامة الميت، وكان على أحدنا أن يسير تحت الجثة كي لا يلمس ظهر الميت الأرض. وعندما كنّا نحفر القبور، كان يجب حفرها بزوايا كاملة بدرجة تسعين من جميع الجهات. وعندما كنّا نضع الجثمان في الحفرة، كان يجب وضع يديه فوق خصره، وندير رأسه قليلاً نحو اليمين، ثمّ نغطيه ببطانية ثم نهيل التراب على القبر. لم يسأل أحد عن جدوى هذه القواعد، لأنه لم تكن هناك جدوى من السؤال.

تعودت على الدفن، وكنت أساعد في دفن ما لا يقل عن جثمان واحد في اليوم. وفي بعض الأيام كنّا ندفن شخصين أو ثلاثة أو حتى أربعة أشخاص، معظمهم صبية. كان دفن الصبية نعمة ولعنة في آن معاً - نعمة لأنهم أخف وزناً من الرجال والنساء الاضخم أجساداً، لكن أصعب شيء عندما كنّا نعرف الفتى الذي ندفنه معرفة شخصية. لكن لحسن الحظ، كانت تلك حالات نادرة. وكان القائد «إبزيم الحزام» يحرص على تغطية وجوه الموجودين في المنطقة الثامنة، ولم نكن نسأل عن هويّاتهم، مع أنه كان بوسعنا أن نخمّن من هم في أحيان كثيرة، فلم نكن نريد أن نعرف من هذا ومن ذاك.

كان باستطاعة أربعة من فريق الدفن أن يحملوا الصبية، أما الأكبر سناً فقد كان يحملهم ستّة أشخاص أو أكثر. والشيء الوحيد الذي رفضت أن أفعله هو المشاركة في دفن الأطفال الرضّع. فقد قلت للقائد «إيزيم الحزام» إنّني لا أريد أن أدفن الأطفال الرضّع، فلم أعد أفعل ذلك، مع أن هؤلاء الأطفال كانوا نادرين، لأن آباءهم كانوا يفضّلون أن يدفنوهم بأنفسهم. أما الأطفال الرضّع الذين يدفنهم فريق الدفن فهم الأطفال الذين ماتت أمهاتهم أو كنّ في عداد المفقودات. واتسعت المقبرة بسرعة كبيرة، تمددت في كلّ اتجاه، وبدأت نوعية الدفن تتفاوت.

وفي أحد الأيام، كنّا نحمل صبياً ميتاً من المستشفى إلى المقبرة ورأينا ضبعاً يتصارع مع شيء في الأرض. كان يبدو كأنه يحاول أن يسحب سنجاباً من تحت الأرض، فرميت عليه أحجاراً لكي أخيفه ويهرب، لكنه لم يهرب. فركض صبيان آخران واقتربا منه وراحا يضربانه بالعصي وبالأحجار ويصيحان به، حتى استدار أخيراً وهرب، ثم رأينا ماذا كان يمضغ الضبع: مرفق رجل. عندها عرفنا أنّ فرق الدفن الأخرى لا تدفن الأموات بشكل جيد، فأعدنا دفن ذلك الرجل.

أومأ إليّ دوت فهرعت إليه. كان يعيش في بيت متين يمكن أن ينام فيه أربعة أشخاص.

- اجلس يا أتشاك. فجلست.

- أنا آسف لأنك تقوم بهذا العمل.

قلت له إنني اعتدت عليه.

- نعم، لكن يجب ألاّ تتعود عليه. لم يكن هذا ما كنت أتصوّره لك في هذا المخيّم، وخلال رحلتنا إلى إثيوبيا. أريد أن تكون الأمور أفضل بالنسبة لك هنا. أريدك أن تكون في المدرسة.

حدّق دوت خارج المخيّم بعينيه الصغيرتين، وأردت أن أطمئنه.

- لا بأس، قلت. فهذا عمل مؤقت.

فتح فمه ليتكلم، لكنه لم يقل شيئاً. شكرني على عملي الشاقّ وأعطاني حبتيْ تمر أخرجهما من كيس على سريره. غادرت بيت دوت، وأنا قلق عليه. كنت قد رأيته تائهاً من قبل، لكن هذا اليأس كان شيئاً جديداً. فقد كان دوت رجلاً

مخلصاً، رجلاً متفائلاً، ورؤيته هكذا أثارت قلقي. لم تكن لديّ توقّعات محددة بأنه سيتم إنشاء المدارس التي وعدت بها منذ زمن، لكنّي كنت أتخيّل أنّ إقامتنا في إثيوبيا مؤقتة. وعشت مفترضاً أن ذلك اليوم سيأتي عندما أعود مع المجموعة التي رافقتها إلى السودان، عندما ينتهي القتال، ويتوقف في كلّ قرية الصبية الذين يعيشون فيها، حتى يتضاءل رتل الصبية إلى أن لا يبقى منهم أحد. وسأمشي أنا أطول مسافة لكنّي سأعود إلى بيتي قريباً لأحكي لأهلي قصصاً كثيرة.

كانت تخطر لي أفكار غريبة كثيرة في أثناء النهار. كانت تظهر أمامي أحلام ورؤى كثيرة. فعندما أقف أو التفت بسرعة، أشعر بدوار يخدّر أطرافي ويجلب ذباباً أبيض إلى عيني، وفي أثناء هذا التشويش كان يأتيني أحياناً أشخاص أعرفهم. فأرى أبي، أو ابن زوجة أبي الصغير، أو سريري في البيت. وغالباً ما كنت أرى رأس الرجل الميت في النهر، مع أنني كنت أرى في رؤياي وجهه الذي سُلخ كما كان وجه الرجل الذي لا وجه له مسلوخاً.

كنت استيقظ في كثير من الأحيان في الصباح متخيّلاً أنّني مستلق على سريري، وأستغرق لحظة قبل أن أدرك بأنّني لست في بيتي، وبأنّني لن أكون في البيت مرة أخرى إلاّ بعد فترة من الزمن، هذا إن عدت أصلاً. لقد اعتدت على الرؤى، الطريقة التي تظهر فيها هذه الوجوه من بيتي أمامي. أخافتني في البداية، لكنها سرعان ما أصبحت نوعاً من الراحة بالنسبة لي. كنت أعرف أنها ستأتي وستتلاشى بعد بضع لحظات. كانت تحيط بي أشباح من كل جانب وبدأت أقبلها وأقبل عالم الظلّ ذاك الذي كنت أعيش فيه في تلك الأيام.

وفي أحد الأيام، رأيت رؤيا أخرى، هذه المرة عن موسى ولم تكن تغادرني. فعندما كنت أغسل قميصي الثاني في النهر ظهر إلى جانبي، وراح يبتسم كما لو أن لديه سرّاً عظيماً. لم تكن تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها موسى، لأنني تخيّلته كثيراً وهو يرافقني يحميني بقوّته وبقدرته على القتال. لكن طيف موسى اليوم، عند النهر، كان يتحرّك، عيناه مفتوحتان على وسعيهما، مائلاً رأسه، كما لو كان يريدني أن أعترف بأنه حقيقي. لكني كنت قد خُدعت منذ زمن من إحدى هذه الرؤى به أو بأي شخص آخر.

- هل فقدت فمك، يا أتشاك؟

عدت إلى غسيلي، متوقّعاً أن يختفي الطيف في أيّ لحظة. لكن الطيف الذي راح يكلّمني أثار قلقي، لكن ذلك حدث كثيراً من قبل. فقد استيقظت ذات مرة

على صوت ابن زوجة أبي الصغير صموئيل وهو يحدّثني عن الخيول. هل رأيت حصانه الجديد؟ كان يريد أن يعرف. فقد اتهمني بأنني سرقت حصانه الجديد.

- أتشاك، ألا تعرفني؟

عرفت أن الصبي الواقف أمامي لا بد أن يكون موسى، لكن موسى الحقيقي كان قد قُتل على يد المرحلّين. فقد رأيته بأمّ عيني وهو يُقتل.

- أتشاك، كلّمني. هل هذا أنت؟ هل أنا مجنون؟

استسلمت وقلت للطيف.

- لن أكلّمك. هيا اذهب من هنا.

وبذلك، نهض خيال موسى ومضى. كان هذا شيئاً لم أره في أي رؤيا من قبل.

- انتظر! قلت، نهضت واقفاً ورميت قميصي جانباً. لكن طيف موسى ظلّ يمشي.

- انتظر! موسى؟ هل هذا أنت؟

عندما ركضت واقتربت من طيف موسى، أصبح يبدو لي أكثر فأكثر أنه موسى الحقيقي وليس طيف موسى، وقفز قلبي في صدري كأنه يريد أن يجد منفذاً يخرج منه من جسمي.

وأخيراً، التفت طيف موسى نحوي. إنه موسى حقاً. عانقته وربتّ على ظهره وحدّقت في وجهه. إنه موسى. كان قد كبر قليلاً، لكن هيئته كانت لا تزال كما هي، رجل منمنم تكسوه عضلات. لا بد أنه موسى.

حدّثته عن الرؤى التي كانت تتراءى لي وما هي الأشياء الحقيقية وغير الحقيقية، فضحك موسى، وضحكت ثم لكمت موسى بقبضتي لكمة خفيفة على ذراعه، فضربني موسى بقوة على ظهري وصدري، فرددت له الضربة، وسرعان ما بدأنا نتلاكم ثم تصارعنا فوق التراب بعنف أكثر مما كنّا نريد. لكن موسى ألقى بي أخيراً عنه، وراح يئن بألم حقيقي.

- ماذا؟ ما الذي يؤلمك؟

فاستدار ورفع قميصه. كان ظهره مخطّطاً بندب قرمزية عميقة.

- من فعل لك ذلك؟ سألته.

- قصّتي غريبة جداً، يا أتشاك.

سرنا وجلسنا تحت شجرة.

هل رأيت وليام؟ سألني.

لم أتوقّع أن يسألني عن وليام في تلك اللحظة.

- لا، قلت.

كنّا بعيدين جداً عن بيوتنا فقلت في نفسي لا مانع من أن أكذب عليه هذه الكذبة. فلم أكن أريد أن أفكّر بوليام كي. وعوضاً عن ذلك، طلبتُ من موسى أن يحكي لي قصّته فحكاها.

- أتذكر الحريق يا أتشاك، هل تتذكّره؟ مع أنه لم يكن برتقالياً في جميع الأماكن. أرأيته عندما كانت القرية تحترق؟ كانت الشمس فوقنا مباشرة وكانت النار صافية أو رمادية. هل رأيت هذا، كيف كانت النار صافية؟

لم أتذكّر لون النار في اليوم الذي احترقت فيه قريتنا. في ذهني، كانت النار برتقالية وحمراء، لكنّي صدّقت موسى.

- أذكر أنني كنت أتنفّس ببطء، واصل موسى كلامه. - كنت أتنفسّ بين ألسنة الدخان لأن التنفس أصبح شديد الصعوبة في كوخنا. كنت أتنفس قليلاً من الهواء فأسعل، لكنّي نجحت أخيراً. ظللت أتنفّس، وسرعان ما بدأت أشعر بالوهن. كنت متعباً جداً! كنت سأغطّ في النوم، لكنّي عرفت أن ذلك لم يكن نوماً. كنت أعرف ما الذي يجري، كنت أعرف أنّني سأموت. وعرفت أن أمّي ماتت خارج الكوخ. عرفت كلّ ذلك لكنّي لا أتذكّر كيف عرفتها. ربّما لم أعرف كلّ شيء. وأظن الآن أنّني أعرف.

تذكّرت أنني رأيت أمّ موسى. كان ظهرها مكشوفاً وقد احترق طرف وجهها إلى حدّ أنه لم يعد بالإمكان التعرف عليها، أما باقي جسمها فلم يصب بشيء.

- فركضت. ركضت وخرجت من الباب وقفزت فوق أمّي وظللت أجري. لم أشأ أن أنظر إليها لأننى كنت أعرف أنّها ماتت. وكنت غاضباً منها لأنها تركتنى فى

الكوخ وذهبت. خيّل إليّ أنّها كانت غبية لأنها تركتني في المكان الذي كانت تعرف بأنّني سأختنق فيه. كنت غاضباً جداً منها لأنها ماتت وتركتني داخل الكوخ. كنت أظنّ أنّها ضعيفة وغبية جداً.

- موسى، اسكت.

تذكّرت موسى وهو واقف فوق أمّه، يصرخ بها. لم أقل لموسى إنني رأيته يفعل ذلك. فقد كنت أشعر بالخجل لأنني لم آت وأنقذه في وقت أبكر.

- أنا آسف يا أتشاك. هكذا ظننت. لقد صلّيت من أجلها وطلبت أن تغفر لي لأنني فكرت بذلك. ورحت أركض حتى رأيت المدرسة من بعيد.

- لكنّهم أحرقوا المدرسة أيضاً، قلت.

- لم أكن أظن أن المدرسة ستحميني، لكنّي ظننت أنه ربما كان فيها أشخاص آخرون، يقولون لي ماذا يجب أن أفعل. جريت عبر القرية، وأنا لا أزال أسعل. كان الدخان يملأ كلّ مكان. وكنت تسمع الكثير من الصراخ والعويل، صرخات أشخاص سقطوا وينزفون دماً. قفزت فوق جسدين آخرين، رجلان طاعنان في السن في وسط الدرب. أمسك الرجل الثاني بكاحلي. كان لا يزال حيّاً. أمسك بي وقال إني يجب أن أستلقي معه، وأتظاهر بأنني ميت. لكنّ الدم كان يكسو جسده. كانت إحدى عينيه مغمضة وقد أحرقت والدم يسيل من فمه. لم أشأ أن استلقي بجانب الرجل الذي ينزف دماً. فعدت أجري.

- كان ذاك الرجل العجوز السكران من السوق.

- أظن ذلك.

- رأيته أنا أيضاً.

- مات.

- نعم مات.

- لم أر أيّاً من المرحلّين، ولفترة من الوقت خيّل إليّ أنّهم رحلوا. لكني سمعت بعد ذلك صوت حوافر أحصنة. كان هناك كثيرون يتحرّكون بسهولة في أنحاء القرية، ويرددون الله أكبر! الله أكبر! هل سمعتهم يصيحون ذلك؟

- نعم، سمعت ذلك أيضاً.

- نظرت إلى يميني، باتجاه السوق، فرأيت رجلين على ظهور خيليهما. كانا بعيدين. كنت متيقناً من أنني سأصل إلى المدرسة. لكني لم أكن أركض بسرعة كبيرة. كنت ضعيفاً جداً ومذهولاً. بدأت الحوافر تقترب مني أكثر وأكثر. كان صوتها عال جدا. صوت حوافر الأحصنة ملأ رأسي. ظننت أن الخيول ستدهسني، ستسحق سيقانها ظهري ورأسي في أيّ لحظة. ثمة شيء ضربني، وكنت متأكّداً من أنها قدم حصان. وقعت وسقطت على وجهي، وملأ الغبار عيني. سمعت صوت رجل يترجّل من على حصانه وصوت أقدام تُجّر على الأرض. ثمّ أصبحت في الهواء. فقد رفعني الرجل الذي كانت يده تمسك بأضلاعي، وباليد الأخرى ساقيَّ. لبضع ثوان، انتظرت الموت. توقّعت أن سكيناً أو رصاصة ستُنهي حياتي.

مرة أخرى أردت أن أقول لموسى إنّني رأيت الخيّال يطارده لكني لم أقل له، لكن الأوان كان قد فات لأقول له ذلك. فقد كانت ذاكرتي عن المطاردة تختلف عن ذاكرة موسى، فلذت بالصمت واستعضت عن ذاكرتي بذاكرته.

- ثم أصبح وجهي يلامس الجلد. فقد وضعني على سرج حصانه وربطني به. أحسست بالحبل على ظهري، يحفر في جلدي. كان يربطني بالحصان. استغرق ذلك بضع دقائق، وظل يعقد المزيد من العقد، وكانت كلّ عقدة تحزّ في جلدي أكثر. وأخيراً بدأنا نتحرّك. أمسك بي، عندها عرفت أنني أصبحت عبداً.

- هل رأيت أماث؟

- لم أرها في البداية. بعد ذلك رأيتها للحظة. بدأنا نسير، وتقيّأت على الفور. فلم أركب حصاناً قط من قبل. كنت أرى الأرض تحتي، وقد ملأ الغبار عيني. كانت الحركة فوق الحصان كما لو أنه ألقي بي داخل كيس مليء بالعظام. هل ركبتَ حصاناً؟

- ليس وهو يتحرّك.

- كان شيئاً فظيعاً. لم أشعر بالتحسن. لم أعتد على ذلك، مع أننا سرنا ساعات عدة. وعندما توقّف الحصان أخيراً، ظللت فوق الحصان. كنت مُقيّداً به وكنت أشعر بأنه يتنفّس تحتي. كان بإمكاني أن أسمع الرجال يأكلون ويتحدّثون، لكنّهم لم ينزلوني من على السرج. نمت فوقه، ثم بدأت أنام فترات أطول. لم أستطع أن أظل مستيقظاً. كنت أصحو فأرى الأرض تجري من تحتي. وعندما كنت أصحو، يكون قد حلّ الليل، ثم الظهر، ثم المغرب. وبعد يومين ألقوا بي على الأرض، وقالوا إنني سأنام هنا، تحت حوافر الحصان. في الصباح حلمت

أن الشمس تضغط فوق رأسي. وفي حلمي، رأيت الشمس أصغر حجماً، بحجم مقلاة كبيرة، ورأسي مضغوط فوقها. كانت الحرارة شديدة، وكان يبدو أنها قد أذابت شعري وجمجمتي. صحوت على رائحة شيء يحترق. كانت رائحة تشبه رائحة لحم على النار. ثمّ أدركت أنّ الحلم لم يكن حلماً: وأن الرجل العربي كان يضع قضيباً معدنياً حامياً على رأسي. كان يوسمني. ووسم في أذني الرقم ٨، وأدار وجهه.

استدار موسى ليريني. كانت علامة فظة وخشنة، الرمز بارز وأرجواني اللون، مُحدثاً ندبة في اللحم وراء أذنه.

- من الآن وصاعداً ستعرف من هو سيدك، قال لي هذا الرجل. كان الألم حادّاً جداً فأغمي عليّ. استيقظت عندما رُفعت. ألقى بي فوق السرج مرة أخرى وربطني، هذه المرة بقوة أكثر. سرنا مسافة يومين آخرين. وعندما توقّفنا، كنّا في مكان يدعى أم الجوز. كان أشبه بمعسكر للجيش الحكومي. كان فيه مئات الصبية مثلي، كلّهم دون الثانية عشرة من العمر، صبية من الدينكا والنوير. وضعوني في حظيرة ضخمة مع جميع هؤلاء الصبية، ثم أقفلوا علينا الباب. لم يكن هناك طعام. كانت الحظيرة مليئة بالجرذان، وكان كلّ واحد منّا قد عضه جرذ. لم تكن توجد أسرّة في الحظيرة، لكننا لم نكن نريد أن نستلقي على الأرض في الليل لأن الجرذان لم تكن تخاف منّا، وكانت تهاجمنا. هل عضك جرذ، يا أتشاك؟

هززت رأسي.

- قرّرنا أن نشكّل دائرة وننام ضمنها لتحمينا من الجرذان. كان معنا عصياً وكان الصبية في خارج الدائرة يحاولون إخافة الجرذان وإبعادها. هكذا كنّا ننام. هل تعرف دائرة النوم يا أتشاك؟

قلت له إنّني تعلّمت هذه الطريقة في النوم.

- في اليوم التالي، أخذونا إلى مبنى ووضعونا في أسرّة ضيقة. كان نوعاً من مبنى طبي، توجد فيه ممرضات، غرزن إبراً في أذرعنا وأخذوا منّا دماً. عندما رأيت الدم يخرج من ذراع أحد الصبية تقيأت مرة أخرى. كانت الممرضات متفهمات. كان ذلك أمراً غريباً. فنظفّن القيء ثم قدمن لي قليلاً من الماء، ثمّ وضعنني على السرير وجاءت ممرضة أخرى لتثبتني. مالت فوقي، وأمسكت بإحدى ذراعي ووضعت يدها الأخرى على صدري. غرزن الإبرة في ذراعي وأخذن منّي كيسين من الدم. هل غُرزت إبرة في ذراعك، يا أتشاك؟

قلت لا.

- إنها طويلة ومجوّفة.

لم أشأ أن أسمع المزيد عن الإبرة.

- حسناً، لكنّها كانت ضخمة. في طرفها زاوية. يخزونك بها هكذا.

- أرجوك.

- ثم قدّمت لي الممرضة عصير ليمون حلو، ثم أعادوني إلى الحظيرة. ثم عرفت أن بعض الصبية موجودون هنا منذ عدّة شهور، وأنّهم يأخذون منهم دماً مرة كلّ أسبوع أو أكثر، ليزودوا جنود الجيش الحكومي بالدم. فكلّما دارت معركة مع جيش التحرير، كانوا يأخذون من الحظيرة بعض الصبية ويأخذون منهم كمية من الدم.

- إذاً بقيت هناك؟

- لفترة من الزمن. ثم ساد هدوء لفترة. فلم يعد هناك مصابون، كما أظن. لم يعودوا بحاجة إلينا. ليس كلّنا على الأقل. لذلك، بعد أربعة أيام من إقامتي في أمّ الجوز، وضعوني على ظهر الحصان مرة أخرى، وسرنا برفقة حوالي مئة شخص من المرحلّين الآخرين، هذه المرة قطعنا مسافة بعيدة. وبعد فترة، رأيت أماث. سمعت صراخ فتاة شابة، تتكلّم بلغتي، ورأيتها فوق حصان آخر، قريباً جداً منيّ. كان الرجل الذي يمسك بها يضربها ببندقيته ويضحك. التقت عيناي بعينيها لثانية واحدة، ثم غابت عن نظري، ولم أراها مرة ثانية. كان من الغريب أن تراها على مسافة مئات الأميال بعيداً عن البيت.

تفتقت الخيوط في داخلي مرة أخرى لكنّي لم أقل شيئاً.

سرنا أياماً عديدة، ثم توقّفنا عند أحد المنازل، بيت جميل. كان بيت رجل مهم يدعى النقيب عادل محمد حسن. وكان الرجل الذي جلبني يمت بصلة قرابة للضابط. سمعتهما يتكلّمان، وعرفت أنه قدّمني هدية للنقيب الذي شكره كثيراً، ثم دخلا ليتناولا الطعام. كنت لا أزال مقيداً فوق الحصان خارج البيت. وظلاّ داخل البيت طوال فترة المساء، وبقيت وحدي على الحصان. كنت أحدّق في الأرض وأحاول أن أعرف أين أنا. وأخيراً، حلّوا وثاقي وأدخلوني إلى بيت ذاك الرجل. هل رأيت بيتاً مثل بيت هذا الرجل، الضابط في جيش السودان الحكومي؟

هززت رأسي.

- إنه بيت لا تستطيع أن تتخيّل مثله يا أتشاك. أرضيات ملساء جداً وكل شيء فيه نظيف. زجاج على النوافذ. مياه جارية داخل المنزل. أصبحت خادم هذا الرجل. له زوجتان وثلاثة أطفال، كلّهم صغار جداً. ظننت أنّ الأطفال سيكونون لطفين معي، لكنّهم كانوا أقسى من أبويهم. فقد علّما الأطفال على أن يضربوني ويبصقون عليّ. بالنسبة لهم، كنت واحداً من تلك الحيوانات. وطوال أربعة شهور كنت أرعى الماعز والخراف في حديقة المنزل، وكنت أنظّف البيت. فكنت أغسل الأرضيات، وأساعد في إعداد وجبات الطعام وأقدّم الطعام.

- هل كنت الخادم الوحيد؟

- كانت هناك خادمة سودانية أخرى اسمها أكول، بعمر أختك أمل. كانت أكول تعمل في المطبخ في معظم الأحيان، لكنّها كانت أيضاً محظية حسن. كانت حاملاً بطفل من حسن لذلك كانت زوجته تكرهها. وعندما كانت الزوجة تجد أكول تبكي من أجل أمّها، كانت تصرخ بها، وتهدّدها بأن تحزّ حنجرتها بسكين. وكانت تدعوها كلبة وجارية وحيوانة. تعلّمت عدة كلمات عربية، وهي التي كنت أسمعها كثيراً. كانت تناديني جانجي - شخص كافر، قذر، جاهل. أطلقوا عليّ اسماً آخر أيضاً: عبدل. وأرسلوني إلى مدرسة تحفيظ القرآن وغيّروا إسمي إلى عبدل.

لماذا يرسلون عبدهم إلى المدرسة؟

- رجال كهؤلاء يريدون أن يكون الجميع مسلمين يا أتشاك. فتظاهرت بأنني أصبحت مسلماً جيداً. ظننت أنهم سيعاملونني بلطف أكثر، لكن ذلك لم يحدث. بل أصبحوا يضربونني أكثر. وكان الأطفال يحبّون أن يضربوني بالسوط. وعندما يبقى الابن الأكبر، وهو أصغر منّا، في البيت وحده معي، كان يضربني بالسوط بدون توقف. وبما أنني لم أكن أستطيع أن أردّ عليه، كنت أهرب منه، أركض حول باحة البيت حتى يتعب. كم كنت أريد أن أقتل ذلك الصبي، وقد وضعت عدة خطط لأفعل ذلك.

لم أستطع أن أبعد عيني عن الرقم ٨ الموسوم على جانب رأس موسى الذي تغيّر لونه تحت ضوء الشمس.

- بقيت هناك لمدة ثلاثة أشهر قبل أن أقرّر الهرب. قلت لأكول إنّي سأهرب وظنت أنّني مجنون. خطّطت للهروب في الليل. في أول محاولة، كادوا

يكشفونني على الفور. فقد جريت إلى باحة أخرى، لكن كلباً بدأ ينبح. فخرج صاحبه من البيت يحمل مشعلاً وأمسك بي. أغمي عليّ لفترة قصيرة.
وضحك عليّ حسن كثيراً، ثمّ أخذني إلى باحة بيته وطلب مني أن أقرفص، فقرفصت مثل ضفدع، وأخرج أطفاله، وطلب منهم أن يقفزوا فوقي. جلسوا فوق ظهري كأنني حمار. كانوا يضحكون، وضحك معهم حسن. أطلقوا عليّ اسم حمار غبي، وأطعمني الأطفال من القمامة. قالوا يجب أن آكلها، فأكلتها - كنت آكل أيّ شيء يقدمونه لي. شحم حيوانات، أكياس شاي، خضراوات متعفّنة.

- أنا آسف جداً يا موسى.

- لا، لا. لا تأسف. فقد كان هذا المفتاح لهروبي. فبعد أن أكلت كلّ القمامة، بدأت أتقيّأ. تقيّأت لعدة ساعات في تلك الليلة، ومرضت طوال يومين. لم أستطع أن أقف على قدمي. لم أعد أستطيع أن أعمل. ساعدتني أكول، ثم بدأت أشعر بالتحسّن. وبينما كنت أتماثل للشفاء، خطرت ببالي فكرة. فقد قرّرت أن أظلّ مريضاً طوال الوقت.

- أهكذا هربت؟

- كان الأمر سهلاً. فقد أرغمت نفسي على أن أكون مريضاً دائماً. فعندما كنت أتناول شيئاً كنت أفكّر بأيّ شيء يجعلني أتقيّأ. فكنت أتصوّر نفسي آكل لحم بشر، أو جلد حمار وحشي، أو أذرع أطفال رضّع، وكنت أتقيّأ وأتقيّأ. وبعد فترة وجيزة، قرّر حسن بأنه لم يعد يريدني في البيت، وقال إنّني هدية سيئة، وقرر أن يبيعني. وفي أحد الأيام، ظهر رجلان، يمتطي كلّ منهما جملاً. كانا يلبسان ثياباً بيضاء، يغطّيان وجهيهما وأقدامهما بالأبيض. وضعاني فوق ظهر جمل وقاداني لعدة أيام، حتى وصلنا إلى بلدة تدعى شندي. ومرة أخرى، وضعاني في حظيرة مع أولاد آخرين من الدينكا والنوير، لكن هذه الحظيرة كانت أصغر من سابقتها. وكان بعض الصبية قد أمضوا أسبوعاً أو أكثر هنا، وقالوا لي إنهم يتاجرون بالعبيد في هذه البلدة، وقالوا إنّ التجار يشترون العبيد هنا ويرسلونهم إلى بلدان عديدة مختلفة - ليبيا، تشاد، موريتانيا. بقيتُ في تلك الحظيرة يومين من دون طعام، وكانوا يضعون دلواً من الماء ليشرب منه خمسون صبياً.

- هل باعوك؟

- نعم، يا أتشاك! لقد باعوني مرّتين. أولاً باعوني إلى شخص سوداني عربي. كان رجلاً مسناً يرافقه ابنه. كانا يبدوان غريبي الأطوار. اشتريانى وذهبت

معهما، فخرجا من القرية ولم يربطاني بأيّ قيود أو زمام أو أيّ شيء. كان معهما جمل لكننا كنا نمشي نحن الثلاثة. سافرنا لعدّة أيام، كنّا نمشي على أقدامنا، ولم نركب هذا الجمل نحن الثلاثة. لم يكن ذلك مريحاً كثيراً لكنّهم لم يكونا فظين أو قاسيين. لم يكادا ينبسان بكلمة، ولم أكن أسألهما شيئاً. ومن اتجاه الشمس، عرفت أنّنا متجهون جنوباً، وكنت أريد أن أرى كم سنبتعد، حتى وجدت فرصتي أخيراً وهربت.

- وإلى أين هربت؟

- لم أكن بحاجة إلى أن أهرب، يا أتشاك! قلت لك إنني اشتُريت مرّتين، وفي المرة الثانية كيف أصبحت حرّاً. خيّمنا في هذا الغابة لمدة ثلاثة أيام، ولم نكد نفعل شيئاً طوال اليوم. كانا يطلبان مني أن أجمع الحطب أثناء النهار، وكانا يجلسان وينامان في الظلّ. وفي اليوم التالي، جاء رجل عربي آخر لزيارتهما، وتبادلوا بعض المعلومات، ثم غادر الرجل. وفي اليوم الثالث، استيقظنا عند الفجر ومشينا حتى منتصف النهار، إلى أن وصلنا إلى مهبط طائرات رأيت فيه عشرين صبياً آخر من الدينكا - صبية مثلي، ونساء، وفتيات، ورجل عجوز. وكان يحيط بهم عشرة رجال من العرب، بعضهم على ظهور الخيل، وبعضهم يحملون أسلحة. كان يبدو أنهم مزيج من التجّار ومن المرحلّين. قادني الرجلان اللذان كانا قد اشترياني إلى باقي المجموعة فتملكني خوف شديد، يا أتشاك! ظننت أنهما سارا بي كلّ هذه المسافة ليقتلاني مع باقي الدينكا، لكن لم تكن هذه خطتهما.

- لم يقتلوا أحداً؟

- لا، لا. كانت قيمتنا كبيرة بالنسبة لهم! يا له من شعور! فقد وصلت طائرة وهبطت على المدرج وخرج منها شخصان لهما بشرة بيضاء. هل رأيت أشخاصاً مثل هؤلاء، يا أتشاك؟

قلت له لا.

- كان هناك رجل، بدين جداً، وامرأة طويلة جداً. وكان الطيار يبدو مثل هؤلاء الأثيوبيين هنا. ثم تحدّث الشخصان الأبيضان قليلاً مع الرجال العرب الذين كانوا يحتجزون الدينكا. وكانا يحملان شيئاً يشبه حقيبة علمت لاحقاً أنها مليئة بالنقود. وهكذا اشتُريت مرة أخرى يا أتشاك!

- هل اشتروك هؤلاء الناس؟ لماذا؟

- لقد اشترونا كلّنا يا أتشاك. كان ذلك أمراً شديد الغرابة. لقد دفعوا ثمننا جميعاً، ثم قالوا لنا إنّنا أصبحنا أحراراً. لقد أُعتقنا كلنّا، نحن العشرين شخصاً، لكنّنا لم نكن نعرف أين نحن. استدار العرب وغادروا، وتوجهوا غرباً، ثم انتظرنا، وانتظر معنا الشخصان الأبيضان طوال فترة بعد الظهر. وأخيراً جاء رجلان من الدينكا، يرتديان ثياباً أنيقة وقمصاناً نظيفة، في سيارة بيضاء كبيرة. كانت تبدو جديدة تماماً، وركب عدد من العبيد السابقين في السيارة وراح بعضهم يسيرون بجانبها، وصعدت أنا وصبي آخر فوقها، وسارت بنا عدّة ساعات، حتى حلّ الظلام ووصلنا إلى قرية يسكنها الدينكا، فأكلت ونمت لبضعة أسابيع، إلى أن طُلب مني أن أنضم إلى مجموعة الصبية الذين يسيرون.

- وهل سرت مع مجموعة كبيرة؟

- لم تكن رحلة سيئة يا أتشاك. حتى أنني ركبت شاحنة عليها صهريج ماء.

شعرت بغيرة شديدة من موسى في تلك اللحظة، لكنّي لم أعبرّ له عنها. شكرت الله لأنه منح موسى هذا القدر من الرحمة. ثمّ حكيت لموسى عن وليام كي، ثم أمضينا بقية اليوم على ضفة النهر. ولم يقل موسى شيئاً بعد ذلك.

بدأت قصص أخرى مثل قصة موسى تُروى في بينيدو، أُعتق فيها بعض الصبية الذين اختطفوا أحياناً، أو هربوا ووجدوا طريقهم إلى المخيّم. أما موسى فكان الصبي الوحيد الذي أعرفه والذي ساعده أناس بيض، لذلك، فإن المعلومات عن الأعمال التي قاموا بها نادرة، وساورني الشك بأنّ الأشخاص الذين رآهم موسى هم بيض حقاً حتى رأيت أول شخص من هذا النوع. قد يكون قد حدث ذلك بعد ثلاثة أشهر من وصولنا إلى إثيوبيا، وبعد أن أصبح موسى عضواً في فريق «الأحد عشر». عندما بدأ باقي العالم، أو جزء من عالم المساعدات الإنسانية على الأقل، يدرك أن هناك حوالي أربعين ألف لاجئ، نصفهم من القاصرين غير المصحوبين، يعيشون عند الحدود الأثيوبية.

أيقظني حديث محتدم خارج الملجأ.

- ألم تره؟

- لا. هل تقول إنه رجل أبيض؟ هل شعره أبيض؟

- لا، لون بشرته، كلّ جزء فيه. أبيض كالطباشير.

انتصبتُ في جلستي وزحفت إلى الخارج، لم أكن قد صحوت جيداً لأفهم ما الذي يدور بين ثلاثة من أعضاء فريق «الأحد عشر». عندما نهضت وبدأت أتبوّل، رأيت مجموعات من الصبية انتشروا في المخيّم وهم يتحدّثون بحماسة، يتحلقون في مجموعات من عشرة صبية أو أكثر. لا بد أن شيئاً يجري له علاقة بالحديث الذي كان يدور بين رفاقي في الخيمة. وعندما بدأت أجمع شتات كلامهم، نظرت إلى الأعلى فرأيت رؤوس مئات الصبية ترتفع في وقت واحد. فتتبعت نظراتهم ورأيت رجلاً يبدو أن جلده قُلب من داخله إلى خارجه. رجل غائب. رجل قد مُحي. سرت قشعريرة لا إرادية في جسدي، نفس القشعريرة التي كانت تعتريني عندما أرى حرقاً، طرفاً مبتوراً - تشويهاً أو شيئاً خربته الطبيعة.

سرت نحو الرجل الذي مُحي قبل أن أدرك بأنّني لم أرفع سروالي بعد أن تبوّلت. رفعت سروالي ومشيت وراء مجموعة من الصبية الذين كانوا يسيرون نحو الرجل الممحي. بحثت عن موسى لأسأله هل هذا من نفس نوع الرجل الذي رآه، لكني لم أر موسى في أي مكان. كان الرجل الأبيض يقف على مسافة بضع مئات من الياردات، وبدأت همهمات الصبية تخفت عندما اقتربنا منه أكثر. اندفع فتى أكبر منّا سنّاً ووقف أمامنا.

توقّفوا! لا تزعجوا الخواجا. سيهرب إذا اقتربتم منه أكثر من ذلك. إن مئة صبي يركضون نحوه سيصيبه بالذعر. هيا ابتعدوا الآن.

عدنا إلى ملاجئنا، إلى أعمالنا اليومية، لكن في ذلك اليوم، كثرت النظريات حول هذا الرجل الجديد. فقد قالت النظرية الأولى إن الحكومة السودانية أرسلته ليقتلنا جميعاً - وأنّه سيحصي عدد الصبية الموجودين ليقرّر كم يحتاجون من أسلحة لإبادتنا. وعندما يفعل ذلك، فإن عملية القتل ستحدث في الليل. لكن سرعان ما تبين زيف هذه النظرية عندما اكتشفنا أنّ الوجهاء في المخيّم لم يخافوا منه، بل راحوا يتحدثون إليه ويصافحونه. وبشكل طبيعي، تأرجح البندول بعد ذلك، وقالت الفرضية التالية إنّه إله، وأنّه جاء لينقذنا جميعاً، وأنه سيعيدنا إلى جنوب السودان، لننتصر على المرحلّين. اكتسبت هذه الفكرة رواجاً طوال اليوم، ولم تبطل إلاّ عندما عدّدنا الأعمال التي تقوم بها الإله. فقد أمضى معظم وقته مع عدد من الوجهاء في المخيّم، وأقام خيمة لخزن الأطعمة، وهو عمل بدا أنه لا يليق بإله أيضاً، أو حتى لإله صغير، ثم قدّم بعض الصبية الأكبر سنّاً آراء متنوعة أكثر.

- إنه يعمل لصالح الحكومة، لكن بالسرّ. لذلك فهو يتخفّى وراء الجلد الأبيض.

- لقد قلب جلده من الداخل إلى الخارج، وقد جاء مع السودانيين الآن ليعرف كيف يعود إلى طبيعته.

أخيراً لم أعد أحتمل سماع المزيد من هذه النظريات، فذهبت لأسأل دوت.

- ألم تر قط رجلاً أبيض؟ قال ضاحكاً.

أثار ذلك اهتمام دوت. فلم أعرف كيف يمكنني أن أرى رجلاً أبيض. لم أر أن الأمر مضحك. فلان وجهه وتنهّد.

- الناس البيض يأتون إلى السودان لأسباب كثيرة، من بينها رغبتهم في تعليمنا عن مملكة الله... أعرف أنه لم يأت أي شخص أبيض إلى مايال باي، لكن ألم يكن هناك مبشّرون بيض في كنيستكم في أويل أيضاً؟

هززت رأسي.

- حسناً، وهم يأتون من أجل البترول أيضاً، وكان هذا مصدر مشاكل كثيرة لأناس مثلنا، وسأحكي لك هذه القصّة في وقت آخر. أما الآن فإننا سنتحدّث عن سبب آخر لمجيئهم، وهو مساعدة الناس عندما يتعرضون للقتل أو الاضطهاد. في بعض الأحيان عندما يأتي الرجل الأبيض ليبحث عن أشياء هنا فهو يمثّل جيوشاً من الرجال البيض، وهي أقوى الجيوش على الأرض.

تخيّلت جيوش المرحلّين، لكن برجال بيض على صهوات خيول بيضاء.

- إذن ما السبب الذي جلب هذا الرجل الأبيض إلى بينيدو؟ سألته.

- لا أعرف بعد، قال دوت.

قرّرت أن أنتظر بضعة أيام، إلى أن يتوفر مزيد من المعلومات عنه، حتى أعرف الرجل أكثر. وفي اليوم التالي، اتضحت الحقائق: فقد تبين أن للرجل اسماً، إمّا بيتر أو بول، وهو فرنسي، يمثّل شيئاً يطلق عليه اسم مفوضية شؤون اللاجئين للأمم المتحدة. وقد جاء إلى هنا ليساعد وجهاء المخيّم في إقامة مخازن لتخزين الأغذية، وقالوا إنه إذا أحبّ الناس الذين التقى بهم، فإنه سيجلب طعاماً لملء المخازن. وتقبّل معظم الصبية هذه المعلومات، مع أن عدداً منّا راح ينظر إلى الرجل بحذر، وكانوا يتوقّعون أيّ شيء منه: الموت، الخلاص، النار.

عندما هدأ اللغط حول الرجل، اقتربت أكثر لأراقبه عن كثب. كان لون بشرته عجيباً. ففي بعض الأيام تكون بيضاء كالطباشير، وفي أيام أخرى تصبح وردية اللون، مثل لون خنزير أو باطن بطن عنزة. وكانت ذراعاه وساقاه مكسوة بكتل من الشعر الأسود، مرة أخرى مثل خنزير، لكن بفارق أن هذه الشعرات أطول.

كان الرجل يتفصّد عرقاً أكثر من أيّ رجل رأيته في حياتي. وكان يجفف العرق من على وجهه كلّ بضع دقائق، وبدا لي أن هذا هو عمله الرئيسي طوال اليوم. ووجدت نفسي أحزن على الرجل الأبيض من كثرة تعرّقه، ولأنه كان يشبه الخنزير من نواحٍ عديدة. فلم تكن تناسبه الحرارة في بينيدو، وخشيت أنّ تحرقه. كان يبدو هشّاً، تعذّبه الشمس، وكان يحمل معه دائماً قنينة ماء، يعلّقها على ظهره بحزام من نوع ما. كان يتعرّق، ثم يجفف عرقه، ثم يشرب ماء، ثم يجلس تحت شجرة تين، وحده.

زرت أجولو وسألتها عنه. كانت قد سمعت عن الرجل الأبيض أيضاً. سألتها إن كان وجود هذا الرجل الذي قلب من داخله إلى خارجه أمراً جيداً، وماذا يمكن أن يعني. فكّرت بذلك للحظة طويلة ثم قالت.

- هذا الخواجا شيء مثير للاهتمام، يا بني. فهو رجل وسيم جداً، وتدور في رأسه أمور لن تصدّقها. فهو يعرف عدة لغات، وهو يعرف أسماء قرى ومدن، ويستطيع أن يقود طائرات وسيارات. وبولد الرجال البيض وهم يعرفون كلّ هذه الأشياء. وهو رجل قوي، ومفيد جداً، يساعدنا كثيراً. وعندما ترى رجلاً أبيض، فإن هذا يعني أن الأوضاع ستتحسّن. لذلك فإني أرى أن هذا الرجل مفيد لك.

بعد الكنيسة، سألت الكاهن نفس السؤال.

- إنه شيء جيد جداً، يا أتشاك، قال. - والرجل الأبيض سليل قريب من آدم وحواء، كما ترى. لا بد أنك رأيت صور المسيح في كتبك، أليس كذلك؟ فلدى آدم وحواء والمسيح والله جميعاً هذه البشرة. وهم هشّون، يحترق جلدهم في الشمس، لأنهم أقرب إلى منزلة الملائكة. الملائكة تحترق على نحو مشابه إذا وضعت على الأرض. لذلك فإن هذا الرجل موجود هنا لينقل إلينا رسائل من عند الله.

بدأت أدور بالقرب من هذا الرجل الذي يدعى بيتر أو بول، وبدا أن الرجل قد لاحظ وجودي بعد فترة قصيرة. ففي أحد الأيام كنّا، أنا وموسى نتمشّى

بالقرب من الرجل، وتظاهرنا بأننا لم نكن ننظر إليه وهو جالس تحت شجرة التين التي يجلس تحتها عادة.

- ابتسم الخواجا لك! قال موسى.

في البداية أقلقني ذلك، فقد قرّرت أنّه سيكون من السيء إذا نظر الرجل الأبيض إليّ، فرحت أشيح بوجهي كلما التفت الرجل نحوي، ثم عدت بسرعة إلى البيت. وأصبحت أفضّل أن أراقبه من مسافة آمنة، وهو يعمل، وأراقبه وهو يخلد إلى الراحة. كان دائماً وحده، يجلس تحت شجرة التين العملاقة. كان من المنطقي أن يجلس الرجل الأبيض وحده، لأنه سيتلقى رسائل من الله، ولأنه سيصعب عليه أن يسمع هذه الرسائل وسط حشود من الصبية الصاخبين. وتخيّلت أيضاً أن الرسائل أشياء حسّاسة ورهيفة. كان ذلك يبدو ملائماً في حالة الرجل الأبيض، لأنه كان يبدو نوعاً لطيفاً من الرجال، إله هادئ، لو كان إلهاً حقاً أو رسولاً للآلهة. ولعدة ليال، لم يغمض لي جفن، والناموسية قريبة جداً من وجهي، والليل وضوضاء الليل تحتشد بالقرب مني، وتساءلت إن كان عليّ أن أسأل بيتر أو بول هل يعرف شيئاً عن مايال باي وعن عائلتي وعن مصيرها. وهل أن الرجل حقاً سليل آدم وحواء، وأنه يكلّم الله من تحت شجرة التين، فلا بد أنه يعرف إن كان أقربائي لا يزالون أحياء، وأين هم الآن. ولعله يستطيع أن يعيدني إلى مايال باي. وهل قُتل والداي، وهل هو قادراً على أن يعيدهما إلى الحياة، ويعيد بلدتنا كما كانت قبل أن تصل سحابة المرحلّين المظلمة. وإذا كان بقدرته أن يفعل ذلك، وبدا لي إن هذا أمراً ممكناً، ألا يمكنه أن يوقف أيضاً الحرب في جنوب السودان؟ ربما لا يستطيع أن يفعل ذلك بنفسه، لكن بمساعدة إلهه وبالاستنجاد بآلهة أخرى، لماذا لا يستطيعون أن يتدخلوا، وأن يسمحوا، من أجل جميع الصبية في بينيدو، بأن نعود إلى قرانا وبيوتنا؟ قرّرت أن أفعل ذلك، بل وأسأله على أقل تقدير، إن كان باستطاعته أن ينقذ مايال باي. وإذا كان استمرار الحرب ضرورياً، لأني أعرف أنّ الآلهة تسمح في كثير من الأحيان للرجال أن يتحاربوا، فهل من الممكن استثناء مايال باي. فكنت أظل صاحياً لمدّة طويلة كلّ ليلة، بينما يغطّ الأحد عشر صبياً في النوم من حولي، أفكّر كيف يمكنني أن أقترب من الرسول الأبيض، وكيف يمكنني أن أطلب منه هذه الأفضال من دون أن تبدو مرهقة. لكن ذات يوم، ذهب بيتر أو بول ولم يُر مرة أخرى. ولم يكن لدى أحد تفسير على ذلك.

لكن لم تمض فترة طويلة، حتى بدأ يأتي إلى بينيدو عدد أكبر من البيض، وعمال إغاثة من جميع أنحاء أفريقيا. ومن بعيد، كنت أرى وفوداً تعبر المخيّم بسرعة، يقودهم دائماً أحد الوجهاء السودانيين في المخيّم. وكان

يُطلب منا أحياناً أن نغني للزوّار، أو أن نلّون رايات كبيرة للترحيب بهم. لكن كان ذلك أكثر شيء يمكننا أن نقترب منهم. ولم يدخل الزوّار قط إلى داخل المخيّم، وكانوا عادة يغادرون في اليوم الذي يصلون فيه.

وسرعان ما بدأت شاحنات الإمدادات تأتي ثلاث مرات في اليوم، وبدأنا نأكل ما لا يقل عن اثنتي عشرة وجبة طعام في الأسبوع - بعد أن كانت سبع وجبات فقط. فازداد وزننا، وبدأت تقام مشاريع في أرجاء المخيّم: فحُفرت آبار جديدة، وفُتحت مرافق طبية، ووصلت كميات من الكتب وأقلام الرصاص. ومع الشعور بالرضى النسبي وبعد أن امتلأت البطون بدأت تراودنا أفكار العودة. وكان موسى واحداً من أوائل الصبية الذين اقترحوا أن نعود إلى السودان.

- عندنا طعام هنا، وقد استقرّت الأمور، قال. - وهذا يعني أن الأمور أصبحت آمنة في بلدتنا. يجب أن نعود إلى بيوتنا الآن. لماذا يتوجب علينا أن نبقى؟ لقد مضت سنة على مغادرتنا.

لم أعرف كيف أفكّر. فقد بدت هذه الفكرة مجنونة، لكن أجولو كانت قد تساءلت عن سبب وجودنا هنا، وها أنا بدأت أتساءل أيضاً لماذا لا نذهب إلى مكان آخر، أو نعود إلى بلدنا.

- لكن لن يكون معنا وجهاء يشرفون علينا، قلت. - سنُقتل كلنا.

- أصبحنا نعرف الطريق الآن، قال موسى. - سنجمع عشرين صبياً منّا. هذا يكفي. ربّما بندقية واحدة. وبعض السكاكين والرماح. نضع بعض الطعام في أكياس. فلم يعد الأمر كما كان عندما أتينا إلى هنا. ستكون لدينا كلّ اللوازم التي نحتاج إليها.

في الواقع، بدأت أحاديث كثيرة تدور بين الصبية عمّا إذا كانت الحرب قد انتهت أم لا. فقد رأى عدد منّا أن وقت العودة قد حان، ولم يصمتوا إلاّ عندما وصلت إشاعات إلى الوجهاء. ففي إحدى الليالي، جاء دوت إلى ملجأنا يستشيط غضباً. لم يكن قد زارنا من قبل قط.

- لم تنته هذه الحرب! زعق. - هل فقدتم صوابكم؟ هل تعرفون ماذا ينتظركم في السودان؟ الوضع هناك أسوأ بكثير من أي وقت مضى، أيها الأغبياء. فهنا تعيشون في أمان، تتغذون جيداً، وبعد فترة قليلة ستتعلمون. وتريدون أن تتركوا كل ذلك وتهيموا في الصحراء وحدكم؟ بعضكم يا أولاد ليسوا أكبر

من القطط! فقد سمعنا للتو أن صبيين غادرا المخيّم في ظلام الليل. ما الذي حدث لهما، هل تعرفون ماذا؟

كنا نعرف الصبيين اللذين غادرا، لكننا لم نكن نعرف شيئاً عن مصيرهما.

- لقد قتلهما قطاع الطرق عند النهر. لا يمكنكم حتى أن تبتعدوا أكثر من قرية الأنياك!

كانت تعابيره وحركات يديه عنيفة. صمت قليلاً حتى يستعيد تمالك نفسه.

- إذا كان أيّ واحد منكم يفكّر بأن يغادر، فليغادر، لأنكم ستكونون أغبياء جداً إذا لم تبقوا هنا. أنا لا أريدكم. أريد فقط الصبية ذوي العقول. غادروا الآن، وعندما ستبدأ المدرسة في الخريف، فلن أتوقّع إلاّ الأولاد الأذكياء الذين يعرفون ما الذي يتوفر لديهم هنا وماذا سيواجهون في الصحراء. إلى اللقاء.

وخرج محتدماً، وهو يدمدم ويسير مبتعداً. ولم يصدّق بعض الصبية الأحد عشرة القصّة عن قطاع الطرق، لأنهم لم يتخيّلوا ماذا يريد قطاع الطرق من صبية صغار، لكن بعد غضب دوت، تضاءل شعورنا العام بالقلق. وكان توقع بدء الدراسة خيالاً نتمنى أن نصدقه. لكن على الرغم من ذلك، لم يقتنع موسى، فقد كان ثمة غضب يعتمل في نفسه سيقوده إلى مغامرات أسوأ من المغامرات التي جلبته إلى شندي.

- فالانتينو!

في أحد الأيام، كنت متوجهاً لحضور صلاة القداس التي تقام دائماً تحت شجرة بالقرب من المكان الذي يعيش فيه الأثيوبيون، عندما ألقى أحدهم هذا الاسم في السماء. لم أسمع هذا الاسم منذ زمن. التفتُ فرأيت رجلاً مألوفاً يتقدم نحوي، قس. إنه الأب ماتونغ، الكاهن الذي عمّدني في مايال باي. قال إنه يزور بعض المخيّمات في إثيوبيا، وجاء إلى بينيدو ليطمئن على الصبية. كان أول شخص أراه في هذا المخيّم، بالإضافة إلى دوت وموسى الذي كنت أعرفه من حياتي في البلدة. وقفت لوهلة، صامتاً، أحدّق فيه، واعتراني شعور، للحظة، بأن العالم الذي عرفته فيه في البداية، مسقط رأسي وكلّ ما ينطوي عليه، قد ولد من جديد حوله.

- يا بني، هل أنت على ما يرام؟ وضع يده على رأسي. كانت رائعة. ومع ذلك لم أستطع أن أقول شيئاً.

- تعال معي، قال.

سرت مع الأب ماتونغ في هذا اليوم وفي الأيام الأخرى طوال الأسبوعين اللذين أمضاهما في بينيدو. لا أعرف لماذا أمضى معي وقتاً لوحدي، لكنّي كنت ممتناً للوقت الذي أمضيته معه. سألته أسئلة عن الله وعن الإيمان. لعلي كنت متميّزاً في الانتباه الذي أوليته لأجوبته.

- من كان فالانتينو؟ سألته ذات يوم.

كنّا في إحدى نزهاتنا، عندما توقّف عن السير.

- ألا تعرف؟

- لا.

- ألم أقل لك ذلك أبداً؟ إنه قدّيسي المفضّل!

لم يقل لي ذلك من قبل، ولم يقل لي لماذا اختار لي هذا الاسم.

- من هو؟ سألته.

كنّا نسير بجانب مهبط المطار. كانت مجموعة من الجنود تنزل من طائرة شحن صناديق ضخمة. وقف الأب ماتونغ لحظة، يراقبهم، ثمّ استدار وعدنا إلى المخيّم.

- عاش منذ عهد بعيد، يا بني. قبل جدّ جدّك. قبل جدّه وجدّه. قبل أجداد أكثر من عدد النجوم. كان قسّاً مثلي، قسّ عادي يدعى فالانتينو. كان يعمل في روما، في مكان يدعى حالياً إيطاليا، في أقصى الشمال من هنا، حيث تعيش شعوب بيضاء.

- إذن هل كان رجلاً أبيض؟ سألته. لم تخطر لي الفكرة من قبل.

- نعم. وكان رجلاً ناكراً للذات. كان يعظ رعيته لكنه كان يولي اهتماماً كبيراً بالسجناء. في ذلك الوقت، كان رجال كثيرون في روما يُسجنون لأنهم كانوا موضع شك، ولم يشأ الأب فالانتينو أن يحرمهم من الإنجيل. فذهب إلى هؤلاء المساجين وقال كلمة الله، فآمن هؤلاء الرجال. لكن السجّانين لم يرق لهم ذلك. فاستاءوا من وجوده ومن النور الذي جلبه إلى حياة السجناء.

فعوقب هو أيضاً. فسُجن، وضُرب، وطُرد. لكنه كان يجد دائماً سبلاً يتكلم من خلالها مع السجناء، وبعد فترة أقنع ابنة السجّان الكفيفة بأن تؤمن.

بينما كنّا نمشي، لم ندرك أننا اقتربنا كثيراً من ثكنات الجيش الأثيوبي. سمعنا أصواتاً، وبعد قليل اقتربنا من مجموعة من الجنود متحلقين يشاهدون عراكاً بين شخصين. بدا لنا ذلك مثل اثنين يتصارعان، وكان أحد المتصارعين يرتدي بدلة جندي، وكان المتصارع الثاني يرتدي ثوباً بلون ثياب الأنياك، ثم أطلق صرخة أنثوية. فغيّرنا وجهة سيرنا.

- كان يزور الفتاة كثيراً. لم تكن أكبر منك سنّاً يا بني. كانا يصلّيان معاً ويتحدّثان عن سبب فقدانها للبصر. كانت قد فقدت بصرها منذ أن كانت فتاة صغيرة جداً.

مرة أخرى وضع راحة يده على رأسي ومرة أخرى شعرت كأنني في البيت.

- لكن عندما اكتشف السجّان جهود القسّ، استشاط غضباً. فقد جلبت ابنته كلمة الله إلى بيت أبيها وكانت تلك نهاية فالانتينو. فسجنه، وعذّبه. لكن الفتاة كانت تعرف المكان الذي سُجن فيه، فجاءت لتزور القسّ. كان مقيّداً بالسلاسل بالأرض، لكن بالرغم من ذلك، ظلا يصلّيان، ونامت خارج زنزانته لعدة ليال. وفي إحدى الليالي، عندما كانا يصلّيان معاً قبل أن يخلدا إلى النوم، أضاء شعاع في الزنزانة، تسلل عبر القضبان وأحاط بفالانتينو وبالفتاة. لم يكن القسّ متيقناً إن كان ملاكاً، لكنّه ضمّ ابنة السجّان إليه، وبعد أن دار الضوء حول الزنزانة مثل عصفور، غادر من بين قضبان النافذة من حيث جاء، وعاد القسّ وابنة السجّان يغمرهما الظلام مرة أخرى.

- ماذا كان؟ سألته.

- كان رسولاً مبعوثاً من الله يا بني. لا يوجد تفسير آخر. وفي صباح اليوم التالي، استيقظت الفتاة وأصبح بإمكانها أن ترى ثانية. فلم تكن عيناها تريان منذ أن كانت طفلة صغيرة، أما الآن فقد أصبحت ترى مرة أخرى. وبسبب هذه المعجزة، قُطع رأس الأب فالانتينو.

سألت الأب ماتونغ لماذا كان هذا الرجل قديسه المفضّل، ولماذا منحني اسمه. لكن الجواب لم يكن واضحاً بالنسبة لي، مع أنني أظن أن ماتونغ كان يتوقّع أن الفكرة كانت واضحة، فأبعد يده عن رأسي.

- أظن أنه ستكون لديك القوّة لتجعل الناس يرون، قال. - أظن أنّك ستتذكّر كيف كانت الحياة هنا، وسترى الدروس هنا. وسترى ذات يوم ابنة سجّانك، وستجلب لها النور.

(١٨)

معظم النبوءات لا تتحقق. وهذا شيء جيد. فقد استغرقت التوقّعات التي توقعها لي الأب ماتونغ استغرقت سنوات طويلة حتى خبت من ذاكرتي، وأحمد الله أنها تلاشت أخيراً. وبعد أن زال عن كاهلي هذا الضغط، أصبح رأسي صافياً لفترة أكثر بكثير مما كان منذ سنوات.

كان قد انتصف الليل وكان لينو نائماً. لا بد أن جوليان قد ملّ من رؤية وجوهنا، وبما أنه لم يكن باستطاعته مساعدتنا، أو أنه لم يكن راغباً في ذلك، فقد انكفأ إلى مكتبه خلف النضد. وكان أتشور أتشور يشاهد فيلماً وثائقياً عن ريتشارد نيكسون على شاشة التلفزيون المعلق على الحائط. كان يحب أن يشاهد كلّ شيء يتعلق بالسياسة الأمريكية، أو بأيّ سياسة مهما كانت. فقد كان متيقناً بأنه سيشغل منصباً هاماً في جنوب السودان الجديد، إذا أصبح بلداً مستقلاً بالفعل. ويوجد حالياً عدد كبير من السودانيين الجنوبيين الذين يعملون في حكومة الخرطوم، لكن أتشور أتشور كان يصرّ على أنّه لن يعود إلى السودان إلاّ بعد أن يتم التصويت على انفصال الجنوب سنة ٢٠١١ وفق اتفاقية السلام الشاملة، لكنه لم يكن يعرف حتى الآن إن كانت الجبهة الإسلامية القومية أو عمر البشير، رئيس السودان، سيسمحان بذلك.

بدأ هاتف أتشور يرجّ على الطاولة بيننا، يدور ببطء باتجاه عقرب الساعة. بينما كان يبحث في جيوبه، رفعت الهاتف وأعطيته له. في هذه الساعة، كنت متأكّداً من أنه اتصال من أفريقيا. فتح أتشور أتشور غطاء هاتفه وجحظت عيناه.

«ماذا؟ في جوبا؟ لا! «وقف أتشور أتشور فجأة وابتعد، متجاوزاً جوليان. لم يتحرك لينو. تبعت أتشور أتشور وأعطاني الهاتف.

«إنه أجينغ. لقد فقد صوابه. كلّمه».

كان أجينغ صديقاً لنا من كاكوما يعمل حالياً لصالح حكومة جنوب السودان الجديدة. وهو يعيش في جوبا ويتدرّب ليصبح مهندساً.

أخذت منه الهاتف.

«فالانتينو! هذا أجينغ! اتصل بالسي إن إن فوراً وأخبرهم بأنّ الحرب اندلعت ثانية!»

كان يلهث. رجوته أن يتمهل.

«لقد انفجرت قنبلة للتو، أو ربما قذيفة هاون. إنهم يقصفوننا. انفجار ضخم. اتصل بالسي إن إن واطلب منهم أن يرسلوا كاميرا. يجب أن يعرف العالم. عاد البشير يهاجمنا. عادت الحرب! سأتّصل بك مرة أخرى - اتصل بالسي إن إن».

أغلق الخطّ. رحت أنا وأتشور أتشور يحدّق أحدنا بالآخر. كانت هناك أصوات صاخبة في خلفية الاتصال، صوت آلات وحركة. وبما أن أجينغ كان في جوبا، فلا بد أنه يعرف ما الذي يجري هناك. سقطت أمعائي بين قدميَّ. فإذا بدأت الحرب مرة أخرى، لا أعرف إن كنت سأتحمل ذلك، حتى لو كنت أعيش في سلام هنا في أمريكا. أشكّ إن كان أيّ منّا يستطيع ذلك، مع أننا نعيش ونحن نعلم أنّ إعادة البناء أصبحت ممكنة في جنوب السودان، وأنّ تعيش عائلاتنا في أمان. أما هذه العودة إلى الدم والجنون - فإنني واثق من أنني لن أتمكن من احتمال هذا العبء.

«هل يجب أن نتصل بالسي إن إن؟» سألني أتشور أتشور.

«لماذا نحن؟» سألته.

«لأننا نعيش في أتلانتا، وقد التقيت أنت بتيد ترنر».

إنها فكرة جيدة. قرّرت أن أتصل بماري وليامز أولاً، وننطلق من هناك. ما إن بدأت الاتصال بها حتى بدأ هاتف أتشور أتشور يرنّ مرة أخرى. أجبت.

«فالانتينو، أنا آسف. كنتُ مخطئاً. يا للفرج! «إنه أجينغ الذي كان لا يزال يتنفّس بصعوبة، وبدا أنه نسي باقي تفسيره.

«ماذا؟» صرخت، «ما الذي حدث؟»

كان إنذاراً كاذباً، قال. وقع انفجار داخل الثكنة، لكنّه كان حادثاً من داخل الثكنة، خطأ، لا شيء.

«آسف لأنني أخفتك يا صديقي»، قال أجينغ، «كيف حالك، بالمناسبة؟»

* * *

كان لينو لا يزال نائماً، رأسه مائل إلى الخلف، يستند إلى الحائط خلفنا. كنت أراقبه عندما بدأ يميل ببطء إلى اليمين، حتى ثقل وزن رأسه، فسقط على كتفه فاستيقظ مجفلاً، وعندما رآني يبدو أن فوجئ برؤيتي، وابتسم بثمالة، ثمّ عاد يغط في النوم.

بعد ساعة من اتصال أجينغ، حلّ محل جوليان امرأة بيضاء أكبر سنّاً لها شعر أصفر يرتفع من فوق جبينها وينسدل على ظهرها. لفتُ انتباهها. ما إن رأتني أقترب منها لأناشدها بالإسراع في معالجتي، حتى نهضت وانشغلت بشيء عاجل في الغرفة المجاورة. لم نعد نُعتبر مرضى هنا. لا أحد يعرف ماذا يمكنهم أن يفعلوا معنا. لقد أصبحنا جزءاً من الأثاث هنا.

وهكذا جلست مع أتشور أتشور.

مع تابيثا، حتى الجلوس لساعات في غرفة انتظار في المستشفى سيكون مثيراً. وشأن الكثير من الأزواج في الشهور الأولى من الحبّ، كنّا سعيدين في أكثر الحالات دنيوية. لم نكن قد فعلنا أشياء كثيرة يمكن أن تُعتبر جذابة أو حتى ذات مخيّلة واسعة، فلم نكن نملك نقوداً ننفقها على وجبات عشاء في مطاعم أو على عروض من أيّ نوع، لذلك كنّا نمكث عادة في شقّتي ونشاهد أفلاماً أو حتى برامج رياضية في التلفزيون. وفي إحدى ليالي صيف، عندما كان أدغاردو يصلح سيارتي الكورولا، أمضينا الليلة ونحن ننتظر باصات المدينة ونستقلّها. كانت ليلة انتظار مليئة بأضواء النيون، وعلى الرغم من ذلك، فقد كانت ليلة خلابة. فبينما كنّا ننتظر الباص الذي سيقلّنا من وسط المدينة إلى البيت، بعد أن تمشّينا في حديقة أوليمبيك بارك، دفنت رأسها في رقبتي، وهمست أنها تريد أن تقبلّني، أن تخلع قميصي. كان صوتها مغرياً على الهاتف، لكنه أصبح قوياً، شخصياً، متفجّراً حاراً في أذني. وتحت مظلات مواقف الباصات في أتلانتا لم نشهد رومانسية كهذه.

أما عندما لا نكون معاً، فإنها تصبح طائشة ومتقلّبة المزاج، وتهاتفني سبع مرات في اليوم الواحد، وإذا لم أكن موجوداً في ذلك اليوم، فإن نبرة رسائلها تصبح غاضبة، مرتابة، بل وحتى فظة. وعندما نتصالح أخيراً، تعود أحاديثنا الهاتفية بهيجة، ثم تختفي عدة أيام، ولم تكن تعطي تفسيراً لغيابها. وعندما تظهر ثانية، لم تكن تسمح لي بأن أسألها لماذا أو إلى أين ذهبت. كنت أبذل كل ما بوسعي لأفهم إشاراتها وأفكّ رموزها. «هل تلاحقني؟» سألتني في

أحد الأسابيع، وفي الأسبوع التالي، تتساءل إن كانت هي التي تلاحقني. كان سلوكها يحيّرني كثيراً، حتى أنني سألت أليسون نيوتن، صديقتي المراهقة حول هذا الأمر، فقالت لي: «يبدو أن عندها لهب آخر». لكني لم أصدقها، وأضافت، «إن السلوك المعتاد لهذه الحالة هو أن تختفي، وعندما تعود فإنها تعوّض عن ذلك بإفراط، وتشكّ في الأشياء التي تفعلها هي نفسها». كانت تلك آخر مرة أطلب فيها نصيحة من أليسون حول أمور كهذه.

آملاً بأن أجد شيئاً آكله، غادرت غرفة الانتظار ومشيت في الممر الذي لُونّت جدرانه بلون سمك السلمون، وتجاوزت صور مديري المستشفى السابقين والأعمال الفنية الشبابية. فقد كانت هناك لوحات رسمها طلاب مدرسة ثانوية محليّة بالألوان المائية والباستيل، كلّها معروضة للبيع. رحت أتفحصّ كلّ واحدة منها. كانت هناك عدة لوحات رسمت فيها حيوانات أليفة، وأربع لوحات تُظهر مغني الهيب هوب توباك شاكور، ولوحتان تصور أرصفة متقلقلة فوق بحيرات هادئة. وينتهي صفّ الأعمال الفنية عند نافذة طويلة تطلّ على غرفة الانتظار. كانت الغرفة مظلمة، وقطع الأثاث موشاة برسوم حمراء غامقة وزرقاء. ثم رأيت آلتيْ بيع. أردت أن أفتح الباب، لكني وجدت أنه توجد في الغرفة أسرة ينام أفرادها على الأريكة معاً. عند الطرف أب شاب يسند رأسه إلى كيس من القماش الخشن وضعه على مسند الأريكة، وإلى جانبه ثلاثة أطفال صغار، فتاتان وفتى، جميعهم دون الخامسة من العمر، يستلقون بجانب بعضهم بعضاً. وتوجد عند أقدامهم حقائب ظهر صغيرة وردية اللون، وعلى الطاولة توجد بقايا طعام العشاء. لعل أمّهم مريضة في المستشفى هنا. وفي الخلف، في باحة موقف السيارات، تنتصب شجرة منارة بأضواء من الأسفل، تمنح أغصانها الجرداء وهجاً ورديا. ومن المكان الذي أقف فيه، تبدو كأن الأسرة النائمة مستلقية تحت هذه الشجرة، تحميها الأغصان الكبيرة الممتدة.

مع أنني كنت أريد أن أدخل إلى الغرفة وأشتري شيئاً أتناوله، لكني لم أشأ أن أوقظهم، فجلست خارج الغرفة ورحت أقرأ الكلمات التي أرسلتها تابيثا. فتحتُ محفظتي وأخرجت منها الورقة التي أحتفظ بها في المحفظة: ثلاثة إيميلات من تابيثا، كنت قد طبعتها في ليلة قبل موعد كنّا قد اتفقنا عليه على الهاتف. كنت أريد أن أكلّمها عن مزاجها، عن إشاراتها المتضاربة، وكنت أريد أن أستشهد بهذه الإيميلات الثلاثة التي كتبتها خلال أسبوع واحد. في تلك الليلة قررت أن أواجهها، لكني مع ذلك، لا أزال أحتفظ بالصفحة مطوية في محفظتي، وأقرأ هذه الرسائل لأعاقب نفسي، وأتذكّر الطريقة التي عبّرت فيها تابيثا عن نفسها تجاهي عندما كتبت - باستفاضة أكبر بكثير مما تفعله عندما نكون وحدنا. فقلما قالت كلمة «أحبّك» في وجهي، أما في الرسائل

الإلكترونية التي كتبتها في تلك الساعات المعتمة، فقد أحسّت أنها تستطيع أن تقولها.

الرسالة الأولى:

حبيبي فال،

أردت أن أقول فقط إنّني أحبّك. أرجو أن تبقي روح الله حيّنا مشتعلاً وحلواً. أحبّك يا عزيزي، وقلبي ينظر إليك دائماً وأنت تبتسم لي. أحبّ ابتساماتك الحلوة. لا أعرف إن كنت أستطيع أن أحصل على كفايتي منها. إني أعشقك، ولا أستطيع أن أتوقّف عن التفكير بك لأنك حبيب، حلو، حسّاس، جميل، مبتسم، محترم، ورائع. لقد اشتقت إليك كثيراً هذا الأسبوع. الحديث المقتضب الذي دار بيننا لم يكن كافياً للأسبوع.

ظننت أنّك كنت ستهاتفني لكنّي لم أتلقّ منك أيّ مكالمة. لا أعرف إن كنت قد اتصلت بي أم لا.

حبّي، حبّي، حبيّ،

تابيثا

الرسالة الثانية، بعد يومين:

هاي فال،

لا أعرف إن كنتَ قد خابرتني البارحة أم لا. فقط لأعلمك أن هاتفي الخلوي، وأدوات التجميل، ومستحضر التجميل قد سُرقت مني البارحة عندما كنت أمارس الرياضة في النادي. لذلك، فصلت الخطّ لفترة من الوقت إلى أن أستبدله. لا أعرف متى سأستبدله بهاتف آخر.

أنا في حالة جيدة، سوى أني أشعر بالاضطراب والحيرة في كلّ شيء. وأنا محتارة أيضاً لأنني لا أعرف إن كان علينا أن نكون معاً. فأثلانتا بعيدة جداً وأشعر أحياناً بأنك لو كنت تهتم بي فعلاً لكنت قد انتقلت إلى هنا. فأنت تعرف أنّني لا أستطيع أن أنتقل إلى مدينتك، بسبب دراستي في المعهد ووجود إخوتي في سياتل. لكن لو كنت تحبني حقاً كما تقول، لكنت قد فعلتَ ذلك.

أظن أنه يجب أن نتبادل الإيميلات إلى أن أشتري هاتفاً جديداً. قد يكون ذلك جيداً لكلينا حتى نأخذ فترة استراحة.

كلّ المودّة،

تابيثا

وبعد أسبوع، عندما استعادت هاتفها، كتبت لي:

حبيبي،

كنت أفكّر بك البارحة، قبل أن أخلد إلى النوم مباشرة. ثمّ حلمتُ أحلاماً دافئة، حلوة، بك وبي. لا تسألني ما الذي حدث في الحلم. لا أريد أن أخبرك على الهاتف، أريد أن أهمسه لك عندما تكون على وساداتنا. أرجوك ألاّ تذهب إلى الفراش في وقت مبكّر اليوم لأتمكن من الاتصال بك؟ سأتصل بك بين العاشرة والحادية عشرة بحسب توقيتك كحد أقصى.

هل أرسل لك رسائل كثيرة؟ أرجو أن تقول لي. أين كنت؟ هل تتحاشاني؟ أرجو ألاّ تلعب معي ألعاباً. أريد أن أعرف أنّك تحبّني لأن الحياة دراميّة بما يكفي الآن ولا يستطيع المرء أن يكون واثقاً من أشياء في غاية الأهمية، مثل الحبّ.

المستميتة والراغبة،

تابيثا

أعتقد أنّ تابيثا تحبّ كثيراً أن تكون مطلوبة، ملاحقة، تحبّ أن تعرف أنني بعيد عنها لكنني انتظرها، وأنّني أشتاق إليها. أتصوّر أنها تقول لأصدقائها إنني «فتى لطيف» في الوقت الذي تبقي فيه عينيها مفتوحتين على فرص جديدة. وهذا لا يعني أنني أقول إنّني أشك في أنّها على علاقة مع شاب آخر. فقط أريد أن أقول إنّها شابّة مشتهاة، مرغوبة، جديدة على إمكانيات هذا البلد، وأنها بحاجة إلى الاهتمام بقدر ما هي بحاجة إلى الحبّ، وربما تحتاج إلى أكثر من ذلك.

في جميع الأحوال، ليست تابيثا أول امرأة تثير حيرتي، تربكني. ففي إثيوبيا، كانت هناك أربع فتيات، أخوات، من هذا النوع. وكان من الرائع أن أجد فتيات مثلهن في مخيّم للاجئين مثل مخيّم بينيدو. ولم أكن وحدي مهووساً بهن،

مع أنني كنت الشاب الوحيد الذي نجح معهن في النهاية. فكلّ من كان معي في المخيّم في إثيوبيا يعرف عن «فتيات بينيدو الملكيات»، لكني فوجئت بأن تابيثا كانت تعرفهن أيضاً.

في أحد الأيام كنّا نتحدّث عن أصل اسمي. فقد قالت تابيثا لصديق أمريكي بأنّها ترى شاباً اسمه فالانتينو، فشرح لها صديقها قصة هذا الاسم. فاتصلت بي تابيثا حال سماعها قصص رودولف فالانتينو، وأرادت أن تعرف، وقد تملّكتها غيرة شديدة مؤخراً، إن كنت أقيم علاقات ناجحة مع النساء كما يوحي اسمي. فلم أتبجّح بالقول نعم، لكني لم أستطع أن أنكر بأنّ بعض النساء والفتيات كنّ يجدنني شاباً لطيفاً ووسيماً. ثم سألتني «منذ متى يحدث ذلك، أقصد علاقاتك الناجحة هذه مع السيدات؟» قالتها بمزيج مزعج من المرح والاتهام، فقلت لها إني كذلك منذ ما تسعفني به ذاكرتي. فسألتني، «حتى في بينيدو كنت تلتقي بفتيات؟»، متوقّعة أن أجيب بلا.

«كانت هناك فتيات، نعم»، قلت لها، وأضفت، «كانت هناك أربع فتيات، أخوات، وذكرت لها أسماءهن: أجوم، وأغار، وأكون، ويار أكيتش، و...»

أوقّفتني هنا. كانت تعرف تلك الفتيات. سألتني، «هل هنّ من يرول؟ « فقلت نعم إنهن من يرول. بالطبع كانت تابيثا تعرف تلك الفتيات. وقالت إنها لا تعرفهن فحسب، وإنما هي على صلة قرابة بهن، ابنة خالتهن. إن معرفتها بهن جعل تابيثا أقل غيرة مما كانت عندما حكيت لها قصّة الفتيات الملكيات.

كان ذلك في عام ١٩٨٨. كان قد مضى علينا في بينيدو بضعة أشهر عندما حدث شيء غريب: فقد فُتحت مدارس، وأصبح للمخيّم مدير جديد، اسمه بيانغ دنغ، رجل عطوف، نزيه، عاقل، يستمع إلى مشاكلنا. وكان يشاركنا في اللعب والرقص. وبمساعدة الفرع السويدي لمنظمة «أنقذوا الأطفال»، ومفوضية شؤون اللاجئين التابعة للأمم المتحدة، فتح مدارس لحوالي ثمانية عشر ألف طفل لاجئ. وفي أحد الأيام دعا إلى اجتماع، وبما أنه لم تكن توجد في المخيّم آنذاك كراس أو ميكروفونات أو مكبّرات صوت، فقد جلسنا على التراب وراح يتكلم بأعلى صوته.

ستكون المدارس لكم! قال بصوت عال. فهتفنا جميعاً.

- ستصبحون أفضل السودانيين تعليماً في التاريخ! صاح.

مرتبكين، هتفنا مرة أخرى.

الآن سنبني مدارس!

هتفنا مرة أخرى، لكن سرعان ما خمد الهتاف. فقد خطر لنا بأن هذه المهمّة ستلقى على عاتقنا، وهذا ما حدث بالفعل. ففي اليوم التالي، أرسلونا إلى الغابة لنقطع الأشجار ونجمع الأعشاب. وحذرونا من أن الغابة خطيرة، وأن فيها حيوانات مفترسة، وقالوا إنه يوجد أناس محليّون يعتبرون الغابة ملكاً لهم، ويجب تحاشيهم. وعلى الرغم من شدة الأخطار في الغابة، فقد أرسلونا إليها، وفُقد في الحال بضعة صبية. ففي اليوم الأول، دخل فتى اسمه بول إلى الغابة، ثم عُثر على قطعة من ساقه بعد ثمانية أيام، فقد التهمت الحيوانات ما تبقى منه. لكننا أتينا بالمواد المطلوبة، فانتصبت المدارس: أربعة عواميد لكلّ سقف فُرشت فوقها طبقة من القشّ، أو بصفائح بلاستيكية إذا كانت متوفرة. بنينا اثنتا عشرة مدرسة خلال أسبوع، أُطلق عليها ببساطة: المدرسة رقم واحد، المدرسة رقم اثنان، المدرسة رقم ثلاثة، وما إلى ذلك. وعندما أنهينا بناء المدارس، دُعينا إلى الحقل المفتوح الذي أصبح باحة تجمع لإبلاغنا بالإعلانات الرئيسية. وتحدّث إلينا رجلان، رجل سوداني وآخر أثيوبي، المديران المشتركان للمخيّم.

- أصبحت عندكم مدارس الآن! قالا. فهتفنا.

- في كلّ يوم، أولاً ستصطفون وتسيرون في موكب ثم ستحضرون دروسكم. وبعد الدروس، ستعملون حتى العشاء.

مرة أخرى، همدت حماستنا.

كانت مظاهر الحياة الأخرى في المخيّم قد بدأت تتحسّن. فمع قدوم الأمم المتّحدة، جاءت الألبسة، مثلاً، ولقي هذا الأمر ارتياحاً عظيماً لدى جميع الصبية، لاسيما الصبية الذين أصبحوا في سنّ لم يعد من اللائق أن يظلوا عراة، والذين عاشوا هكذا منذ أن وصلنا إلى إثيوبيا. فعندما كانت تصل شحنة من الألبسة، كان الصبية الأكبر سنّاً يأخذون الأكياس الكبيرة المليئة بالملابس المكتوب عليها «هدية من المملكة المتحدة» أو «هدية من الإمارات العربية المتحدة»، ثم يعيدونها إلى الفرق الأصغر. وعندما وصلت أول حصة لنا، طُلب مني أن أوزع الملابس إلى الأحد عشر صبياً، ولكي لا ندخل في أي جدال جلسنا في شكل دائرة، ووزعت محتويات الكيس، قطعة لكلّ صبي، بالترتيب باتجاه عقرب الساعة. ولم يكن من المهم أن تلائم الثياب الشخص الذي يحصل عليها، لأنني أعرف أن الصبية الأحد عشر سيتبادلونها فيما بينهم أو مع صبية آخرين. وكان ذلك أمراً ضرورياً، لأن نصف الشحنة الأولى التي

وصلتنا، كانت ثياباً نسائية. ومع أن ذلك سيبدو مضحكاً، فقد كان أفضل من أن نظهر كما كنّا عندما وصلنا، بدون قمصان وأحذية وملابس داخلية. فمن دون ملابس لن نتمكن من إخفاء جروحنا وأضلاعنا الناتئة. كان عرينا، والخرق التي كنّا نلبسها، يتحدثان بوضوح شديد عن سوء وضعنا.

عندما بدأت المدرسة، كان معظمنا قد قايض ثيابه بنجاح مع صبية آخرين، وعندما جلسنا في اليوم الأول ذاك، شعرنا بأننا طلاب حقيقيون، وأحسسنا بأن المدرسة تشبه مدرسة حقيقية. فقد كانت غرف الصفّ مسقوفة بالقش، سقوف بدون جدران، وفي صباح أول يوم من بدء المدرسة، جلس الصبية الواحد والخمسين على الأرض وانتظروا. وأخيراً جاء رجل، وعرّف على نفسه بأنه السّيد كونديت. كان رجلاً طويل القامة، نحيفاً جداً، له جمجمة صغيرة جداً. كتب اسمه على لوح الطباشير وكنّا في غاية الحماسة. لم يكن يعرف هذه الحروف إلاّ قلة قليلة من الصبية، لكن بالرغم من ذلك، ظللنا نحدّق في تلك الإشارات البيضاء المرسومة على اللوح، سعيدين برؤية أي شيء قد يحدث بعد ذلك.

كان درس اليوم الأول عن الأبجدية. كان صوت السيد كونديت عالياً وحاداً، وكان يبدو من صوته ضجراً لأنه كان عليه أن يشرح لنا هذه الأمور. وكان يبدو أنه يريد، منذ اليوم الأول، أن ينهي الدرس وكلّ دروس تعليم الأبجدية والكتابة واللغة عامة، في ساعة واحدة. كان يريد ببساطة أن يشرح لنا حروف الأبجدية وينتهي منها بسرعة.

كتب أحرف الأبجدية الثلاثة (A B C) وقرأها بصوت مرتفع، مبيناً الأصوات التي تدلّ عليها. وبما أنه لم تكن لدينا أقلام رصاص أو أوراق، فقد أخرجنا السّيد كونديت من غرفة الصفّ ورحنا ننسخ الحروف على التراب إما بأعواد أو بأصابعنا.

- اكتبوا الأحرف بشكل جميل! صاح من وراء لوحه. - عندكم ثلاث دقائق. إذا أخطأتم، امحوا الحروف وارسموها مرة أخرى. عندما ترضون عن كتابة الأحرف الثلاثة، ارفعوا أيديكم وسأرى ما كتبتموه. رفعت الأيدي وبدأ السّيد كونديت يدور علينا.

لم أكتب من قبل قط. كانت المرة الأولى التي حاولت فيها أن أكتب حرف B على التراب. جاء السيد كونديت ووقف ورائي ولم يعجبه ما كتبت.

انحنى فوقي وأمسك بإصبعي بفظاظة، وراح يحركها فوق التراب ليرسم حرف B بشكل صحيح، دافعاً سبّابتي على الأرض بقوة حتى تشققت أظافري

وسال منها الدم.

- يجب أن تفعلوا أفضل من ذلك! صاح فوق رؤوسنا. - لا يوجد لديكم شيء الآن، لا شيء سوى التعلّم. ألا ترون؟ بلدنا في حالة فوضى، والطريقة الوحيدة التي يمكننا أن نستعيده هو أن نتعلّم! لقد سُلب استقلالنا منّا بسبب جهل أسلافنا، والآن فقط يمكننا أن نصحّح ذلك. لم يعد للكثير منكم أمهات. لقد فقدتم آباءكم. لكنّ لديكم فرصة التعلّم. هنا، إذا كنتم أذكياء لقبول ذلك، فإنكم ستصبحون متعلّمين. سيكون التعلّم أمّكم. سيكون التعلّم أباكم. ففي حين يقاتل إخوتكم في هذه الحرب بالأسلحة، فإنكم، عندما يتوقّف الرصاص، ستخوضون الحرب القادمة بأقلامكم. هل تفهمون ما أقوله لكم؟

أصبح صوته أجشاً الآن ثم هدأ. - أريدكم أن تنجحوا، يا أولاد. إذا شئنا أن يكون لدينا سودان جديد، فيجب أن تنجحوا. أنا لست صبوراً كثيراً، لأنني لا أستطيع أن أنتظر حتى تنتهي هذه الحرب البائسة، حتى تأخذوا دوركم في مستقبل أرضنا المدمرة.

في طريق عودتنا إلى ملاجئنا، كان السّيد كونديت موضوع إعجابنا ونقاشنا.

- هل سمعتم الرجل المجنون؟ قلنا.

- التعليم هو أمّكم؟ قلنا.

ضحكنا وقلدناه. وخيّل إلينا أن السّيد كونديت، مثل عدد من الرجال والصبية الذي اجتازوا الصحراء ليصلوا إلى إثيوبيا، قد فقدوا صوابهم على الطريق.

لم تمض فترة طويلة على فتح المدارس حتى حدث شيء غريب آخر: فقد جاءت إلى الصفّ فتيات. بصورة عامة، كان عدد الفتيات في بينيدو قليلاً جداً، ولم تكن هناك أي فتاة في المدرسة، بحسب علمي. لكن في صباح أحد الأيام، عندما جلس الصبية الأحد والخمسين في صفّ السّيد كونديت على الأرض أمام اللوح، لاحظنا وجود أربعة أشخاص جدد، كلّهن إناث، يجلسن في الصفّ الأمامي. كان السيد كونديت يقرفص أمامهن، يكلّمهن، يضع يديه على رؤوسهن بطريقة ودية. كنت مذهولاً.

- أيها التلاميذ، قال السيد كونديت، منتصباً بكامل طوله، عندنا اليوم أربع طالبات جدد، أسماؤهن: أغار، وأكون، وأغوم، ويار أكيتش. ويجب أن تعاملونهن بكل احترام ولطف لأنهن كلّهن طالبات مجدّات، وهن أيضاً بنات

أختي، لذلك فإني أتوقّع أن تكونوا حريصين جداً وحذرين في سلوككم معهن.

وهكذا، بدأ الدرس. كنت أجلس في ثالث صفّ وراء الفتيات، وأمضيت ساعات طوال ذلك اليوم وأنا لا أنظر إلى شيء إلاّ إلى مؤخرة رؤوسهن، وأتفحصّ أعناقهن وشعرهن، كما لو أنّ أسرار العالم والتاريخ كانت مدوّنة في لفائف ضفائرهن. رحت أتطلع حولي لأرى إن كان الصبية الآخرون يواجهون نفس المشكلة التي أواجهها، فوجدت أنّني لم أكن الوحيد في ذلك. لم نتعلم شيئاً في ذلك اليوم، وأحسسنا، نحو الصبية، بشكل متزايد بأنّ تركيز حياتنا وكلّ المساعي الدنيوية الأخرى قد تغيّرت. فقد كانت تلك الأخوات الأربع: أغار، وأكون، وأغوم، ويار أكيتش، كلّ واحدة منهن لطيفة، يرتدين ثياباً جميلة، ومتحفظات بشكل جذاب، أهم من الدراسة ومن أيّ شيء يمكن كتابته على اللوح أو على التراب الذي يحيط بغرفة الصفّ.

لم نعد نأكل أو يغمض لنا جفن كما في السابق. وأصبح طعام العشاء يُحضّر ويؤكل، لكن بدون طعم. وكان النوم يداعب جفوننا عندما يبدأ ضوء الصباح يتسرب من الجانب الآخر من الأرض. كنّا نظل مستيقظين طوال تلك الساعات المظلمة، نتناقش في موضوع الأخوات. في البداية، لم يكن أحد يميّز أختاً عن أخرى، لأن تعريف السّيد كونديت كان سريعاً ومقتضباً. وبعد تبادل الكثير من المعلومات بدأ الأحد عشر صبياً يتذكّرون الأسماء الأربعة كلّها، ومن خلال نفس نظام المعلومات الذي كنّا نتبادله، تمكنّا من جمع ملف عن كلّ فتاة من الفتيات الأربع. كانت أغار أكبرهن، وكان يبدو ذلك جلياً. كانت طويلة القامة وترسل شعرها في ضفائر، وترتدي ثوباً ورديا براقاً موشّى بزهور بيضاء. وكانت أكون تليها في العمر، وجهها مستدير ورموشها طويلة جداً، وكانت ترتدي ثوباً فيه خطوط حمراء وزرقاء، وتضع على شعرها مشبك شعر مماثل. وقد تكون أغوم بعمر أكون لأنها طويلة مثلها، لكنها أنحف بكثير. وكان يبدو أنها أقلّ منهن اهتماماً بما يجري في المدرسة، فكانت تبدو ضجرة باستمرار أو مستاءة من الجميع ومن كلّ شيء. أما يار أكيتش، فقد كان من الواضح أنها أصغرهن، أصغر من أغوم وأكون ببضع سنوات، وقد تكون أصغر منيّ ومن الأحد عشر صبياً بسنة واحدة. لكنها كانت أطول منّا أيضاً، مع أنّنا كنّا جميعاً أقصر قامة وأقل نضجاً بكثير من بنات خالاتنا وأعمامنا، أما هؤلاء الفتيات فكنّ أكثر سحراً ولا يمكن بلوغهن بأي شكل من الأشكال.

بعد أن امتلأ الليل بتشريح كلّ تفصيل معروف عن الأخوات، حام فوقنا سؤال واحد وبدا أنه لا توجد إجابة عليه: هل ستأتي الفتيات غداً؟ وبعد غد؟

كان ذلك يبدو أمراً رائعاً بالنسبة لي ولموسى وللأحد عشر صبياً أو حتى للواحد والخمسين. هل سنكون محظوظين حقاً ؟ لأن ذلك يعني حدوث انقلاب كامل للمدرسة وللعالم الذي نعرفه.

في صباح ذلك اليوم ذهبنا كلّنا، أنا والأحد عشر صبياً، إلى المدرسة في الضباب. لم يكن أيّ منّا قد نام بشكل كاف ليصبح تفكيرنا صافياً. صادفنا الفتيات عندما دخلنا. كنّ يجلسن في مؤخرة الصفّ، على كراسٍ. وجلسنا نحن في المقدمة.

- حسناً، بدأ السّيد كونديت، وأضاف، من الواضح أنكم كلكم في سنّ يجعل تركيزكم صعباً في وجود شابّات.

لم نقل شيئاً. كيف عرف ذلك؟ إن السّيد كونديت رجل ذكي! قلنا لأنفسنا.

- لقد أجريت بضع تعديلات على ترتيب الجلوس لمساعدتكم كلكم على التركيز أفضل، وأنا واثق من أن الدرس اليوم سيجذب انتباهكم أكثر يا طلاب. الآن، اليوم، سنواصل تعلّم الحروف الساكنة...

لم يكن لدينا خيار سوى أن ننظر إلى السّيد كونديت وننصت له. لكنّنا لم نكن قد خطّطنا لذلك. فقد جئنا، كلّ صبي منا، إلى الصفّ وفي رأسنا خطط أخرى. وفي الواقع، كنّا قد قسمّنا المهام فيما بيننا، وخُصص صبيّان أو ثلاثة صبية لكلّ فتاة، لنحصل على أكبر قدر من المعلومات من خلال المراقبة الوثيقة لهن. فقد أصبحت رؤية الأخوات مستحيلة الآن، إلاّ إذا التفتنا كليّاً إلى الوراء. ولم يعد تقصّي الحقائق ممكناً إلاّ إذا خرجنا كلنا من الصفّ، قبل بدء الدرس أو عند انتهائه.

وخلال عملية الاستطلاع التي كنّا نقوم بها قبل بدء الدروس، وبعدها، وفي أثناء التدريبات على التراب، بدأنا نعرف، في نهاية الأسبوع الأول، المزيد عن ملابس الأخوات الأربع وعن شعرهن وعيونهن وأذرعهن وسيقانهن، لكنّهن لم يكنّ يكلّمن أحداً. فلم يكنّ يتكلّمن في الصفّ، ولم يكنّ يشجعن أحداً على التحدث معهن. وكان كل ما عرفناه عنهن هو أنهن فتيات جميلات، شديدات الذكاء، يرتدين ثياباً أفضل بكثير مما يرتديه جميع القاصرين غير المصحوبين مثلي، وأن ملابسهن نظيفة لا توجد فيها مزق أو ثقوب، ويرتدين ثياباً في أزهى ألوان الأحمر والأرجواني والأزرق، وشعرهن مرتب ومصفوف دائماً بعناية. ولم يكن لديّ اهتمام بالفتيات كرفيقات في اللعب لأنهن يبكين بسرعة ولا يرغبن في لعب المصارعة، لكن في كلّ ليلة ولأسابيع عدة، بعد أن يتحوّل كلام الأحد عشر صبياً إلى همسات بعد أن يغلبنا النوم، كنت أجد

نفسي أتساءل كم أنا مبارك حتى تكون تلك الأخوات الملكيات في صفّي أنا بالتحديد. لماذا أنا محظوظ هكذا؟ وبدا لي آنئذ أن اللّٰه يرسم خطة لي، فقد فصلني عن بيتي وأبعدني عن عائلتي وأرسلني إلى هذا المكان التعس، لكن بدأ يبدو لي الآن أن هناك سبباً لكلّ هذا. وقلت في نفسي كانت هناك معاناة، ثم جاء نور. كانت هناك معاناة، ثم حلّت محلها نعمة. وأصبح من الواضح لي الآن بأنني أُرسلت إلى بينيدو كي ألتقي بهذه الفتيات الرائعات، وأن وجود أربع فتيات في صفّي يعني أنّ اللّٰه يريد أن يعوضني عن كلّ المشاق التي رأيتها في حياتي. إن اللّٰه طيب وعادل.

وجدت نفسي أرفع يدي أكثر من ذي قبل. وغالباً ما تكون أجوبتي صحيحة. لم يكن من المحتمل أن أكون قد أصبحت أذكى مما كنت عليه في الأيام الماضية. جلست في المقدمة. مع أنني كنت أجلس على مسافة أبعد من الفتيات، فقد كان يجب أن أكون في المكان الذي يمكن أن يراني فيه السّيد كونديت، وبالتالي، بنات أخته. كنت أجيب على كلّ سؤال أُسئل، وبدأت أدرس بهمة كبيرة في الليل. كان يجب على الفتيات أن يلاحظنني، وإذا كانت فترة الدرس هي الفترة الوحيدة التي أستطيع أن أراهن فيها - وهذا ما كان، لأنهن يقمن في الجانب الآخر من المخيّم، حيث يعيش الناس الأكثر أهمية - لذلك يجب أن تكون هذه الفترة هي الفترة التي يجب أن أبرز فيها.

عندما تكون إجابتي صحيحة، كان السّيد كونديت يقول: «جيد، يا أتشاك!» وإذا فعلت ذلك دون أن يلاحظنني، كنت أنظر إلى الوراء إلى الأخوات، لأرى إذا كانت الفتيات قد لاحظن ذلك. لكنّ يبدو أنهن نادراً ما كنّ يلاحظنني.

أما الأحد عشر صبياً، فلا بد أنهم لاحظوا ذلك، فكانوا لا يكفّون عن مضايقتي وبدون رحمة. فقد غطى نجاحي الجديد في المدرسة على بريق الآخرين، وأحدث ذلك شيئاً من القلق لدى بعض الصبية. فأرادوا أن يعرفوا، هل سأظل أسبّب لهم دائماً هذا القدر من الألم؟

- لماذا أصبحت تهتمّ بالمدرسة فجأة هكذا يا أتشاك؟ كانوا يسألونني.

- هل التعليم هو أمّك وأبوك، يا أتشاك؟ سألني موسى.

مطاردتهم لي أجبرتني على أن أعترف لهم بخطتي.

- لا أبالي إذا كان التعليم هو أبي! قلت. فانفجر الأحد عشر صبياً في الضحك.

- إنكم تعرفون السبب الذي يجعلني أرفع يدي اللعينة. اخرسوا الآن.

لكنّي لم أكن قد أنهيت ما كنت قد بدأت به. فكلما حاولت أكثر، ولم يثر ذلك اهتمام الأخوات الأربع، ازداد نشاطي وهمة، فبدأت أساعد الآخرين بعد انتهاء الدروس، وبدأت أمسح اللوح، وأنظّم أوراق وكتب السّيد كونديت. وبدأت أسجل أسماء الحاضرين في بداية الدرس. كان ذلك الأمر نعمة ونقمة في آن معاً. فكلما ناديت الأسماء، كنت أواجه نظرات الأحد عشر صبياً المحدّقة بي، يبتسم لي كلّ صبي منهم ابتسامة عريضة كالمجانين، ويرمش لي بعضهم كأنهم يغازلونني. وعندما كنت أنتهي منهم، يصبح بإمكاني أن أنادي الأسماء: أغار، وأكون، وأغوم، ويار أكيتش، وبهذه الطريقة، أصبحت الفتى الوحيد الذي تنظر إليه الفتيات مباشرة، الفتى الوحيد الذي يكلّمنه. هنا، كانت الأخوات يقلن. هنا، هنا، هنا.

أطلق أحد التلاميذ في الصفّ عليهن اسم «بنات بينيدو الملكيات». وعلى الفور أصبحت الفتيات يُعرفن بهذا الاسم - أو باسم الفتيات الملكيات - في الصفّ الذي يوجد فيه واحد وخمسون صبياً، وفي أماكن أخرى في المخيّم أيضاً. فعلى الرغم من وجود عائلات أخرى، مجموعات أخرى من الأخوات، لم يكنّ كلهنّ مميزات مثل هذه الفتيات. ولا بد أنّ الفتيات الأربع قد سمعن هذا الاسم، ونظن أنّهن وجدنه مقبولاً. فقد كنّ يدركن الاحترام الذي نبديه لهن، ومع ذلك، فقد كان يبدو أنهن يتجاهلنني بشكل خاص.

مع اقتراب نهاية الفصل الدراسي، بدأت أشكّ في الأسلوب الذي كنت أتبعّه. فمع أنني كنت أفضل طالب في الصفّ، لم يكنّ يولين أي انتباه لي، وبدأ القلق يساورني بأنّهن لا يكترثن بأي إنجاز مدرسي أحققه أو يحققه أيّ صبي. لعلهن لم يكن يرغبن في أن يقمن أي علاقة مع أحد مثلي، فتى قاصر لا يرافقه أهله. وكان وضعي هذا يختلف كثيراً عن أن تكون ابنة أخت السّيد كونديت. فقد كان القاصرون غير المصحوبين يحتلون أدنى مرتبة في السلم الاجتماعي في بينيدو، وكانوا يذكّروننا بذلك باستمرار. فقد كانت ملابسنا قليلة ورثّة وكأن بيوتنا بناها صبية، وهذا فعلاً ما حدث. وعندما وصلت إلى أمريكا، اشترى لي صديق قديم لي من المخيّم هدية: مجموعة ألعاب تنكير، وكانت المسامير الرفيعة فيها تشبه العيدان التي بنينا بها ملاجئنا الأولى في بينيدو، فضحكت. وبنيت أنا وأتشور أتشور بيتاً نسخة من البيت الذي كنا نقيم فيه في المخيّم، ووضعناه على منضدتنا الصغيرة، وضحكنا كثيراً. فقد كان البيت الذي بنيناه في اللعبة يكاد يطابق بيتنا في المخيّم إلى درجة أننا أصبنا بالذهول.

بعد كل الجهد الذي بذلته طوال الفصل الدراسي ذاك، أثمرت جهودي تجاه الفتيات الملكيات في نهاية المطاف. فقبل أسبوع واحد من اقتراب انتهاء

الفصل لقضاء استراحة لمدّة شهر، وبينما كنت أغادر المدرسة في أحد الأيام، وقفت أمامي أغوم وقالت لي شيئاً. بدا ذلك أمراً مستحيلاً وكان ردي كذلك. فلم أنبس بكلمة واحدة، لأنني لم أصدّق بأنّها كلّمتني في الحقيقة. لكن هل هذا ممكن؟ وإذا كان الأمر كذلك، فماذا قالت؟ يجب أن أعيد تجميع الكلمات التي قالتها، فقد رحت أحدّق في عينيها ورموشها وفي فمها الذي كان شديد القرب من فمي. لقد حدث كلّ ذلك بغتة. تحوّل حياة إلى حياة أخرى.

- أتشاك، أختي تريد أن تسألك عن شيء، قالت. وفجأة أصبحت أغار، الأكبر منها سناً وأطول قامة، بجانبها.

داست أختها على قدمها فلكزتها رداً على ذلك. لم أعرف ما الذي يجري بينهما، لكنّه كان يبدو شيئاً جيداً حتى الآن.

- هل تريد أن تأتي لتناول طعام الغداء في بيتنا؟ سألتني أغار.

في تلك اللحظة أدركت أنّني أقف على أطراف أصابع قدمي. عدّلت نفسي، آملاً أنهما لم تلاحظا ذلك.

- اليوم؟ سألتها.

- نعم، اليوم.

فكّرت للحظة. فكّرت طويلاً لأفكّر بالشيء الخاطئ الذي قلته.

- لا يمكنني أن أقبل، قلت.

لم أصدّق إنني قلت ذلك. هل يمكنك أن تصدّق أن هذا ما قلته؟ أن أرفض دعوة أخوات بينيدو الملكيات. لماذا؟ لأنني عُلّمت بأنه يجب على الرجل المحترم أن يرفض أي دعوة. كان أبي قد علّمني هذا الدرس ذات ليلة دافئة عندما كنت أساعده في إغلاق الدكان. لكن السياق كان مختلفاً ولا ينطبق على هذه الدعوة، كما عرفت لاحقاً. فقد كان أبي يتحدّث عن الزنا، عن شرف الرجل، عن احترام المرأة، عن قدسية الزواج. ولم يكن، كما تذكّرت لاحقاً، يتحدّث عن رفض دعوة إلى الغداء. أما في هذه اللحظة، فقد ظننت أنني تصرّفت كما يتصرّف الرجل المحترم، فرفضت الدعوة.

تجّهم وجه أغوم وأغار المشرقين.

- ألا تستطيع أن تقبل؟ قالتا.

- أنا آسف. لا أستطيع أن أقبل الدعوة، قلت وتراجعت قليلاً.

خطوت إلى الوراء حتى ارتطمت بأحد العواميد التي تسند سقف الصفّ. كاد ينهار فوقي، لكنّي ابتعدت عنه بسرعة، وأعدته إلى مكانه، ثم ركضت إلى البيت. ظللت سعيداً بنفسي طوال ساعة، لأنني استطعت أن أتمالك عواطفي ودوافعي. كنت نموذجاً لضبط النفس. رجل محترم حقيقي من رجال الدينكا! وكنت متيقناً من الأخوات الملكيات قد عرفن ذلك الآن. لكن بعد ساعة من التأمل والتفكير، أصابتني الحقيقة في رأسي. فقد رفضت الدعوة التي وجهتها لي الفتيات اللاتي أمضيت الفصل الدراسي كله وأنا أحاول إثارة إعجابهن ولفت انتباههن. فقد أتيحت لي الفرصة لأحصل على كلّ ما كنت أريد: أن أمضي معهن وقتاً بمفردي، وأن أنصت إلى ما يقلنه من دون تكلف، وأن أعرف رأيهن بي وبالمدرسة وبيينيدو، وسبب مجيئهن إليها، وأن أتناول وجبة طعام طهتها أمّهم - وجبة طعام حقيقية، طبختها امرأة من الدينكا! يا لي من أحمق.

بدأت أفكّر بطريقة يمكنني أن أصلح الأمر. ماذا يمكنني أن أفعل؟ يجب أن أقبل الدعوة التي أضعتها، ويجب أن أعيد الأمور إلى نصابها على نحو ما. يجب أن أضحك على نفسي. هل يمكنني أن أقول لهن إنني كنت أمزح؟ هل سيصدقن ذلك؟

اقتربت نهاية الفصل الدراسي من نهايته، ومعه الامتحانات النهائية. فعندما ينتهي الفصل الدراسي سنمضي شهراً دون مدرسة، وإذا لم أنقذ الموقف فإني لن أراهن على أن تتاح لي فرصة أخرى حتى بداية الفصل الثاني في الربيع. وجدت أصغر الأخوات، يار، جالسة تحت شجرة، تقرأ في كتابها الدراسي.

- مرحبا، يار، قلت.

لم تقل شيئاً. حدّقت فيّ كما لو كنت قد سرقت طعام غدائها.

- هل تعرفين أين أخواتك؟

من دون أن تنبس بكلمة، أشارت إلى أغار التي كانت تسير نحونا. عدّلت نفسي وابتسمت لها ابتسامة تطلب المغفرة.

- لم يكن من المفترض أن أقول لا، قلت. - كنت أريد أن أذهب لتناول الغداء.

- إذن لماذا قلت لا؟ قالت أغار.

- لأن...

بينما كنّا نتكلّم، وبينما كنت أتلعثم، انضمت إلينا أغوم. وفي غمرة كلّ هذا الضغط عليّ، طرأت لي فكرة سريعة ومباركة. فبعد أسبوع من التفكير بهوس، لم يخطر ببالي أي عذر مناسب، أما هنا، وفي لحظة اليأس هذه، خطر لي فوراً الحلّ المثالي.

- كنت قلقاً حول ما يمكن أن تفكّر به أمّك بي. أبدت أغار وأغوم اهتمامهما الآن.

- ماذا تقصد؟

- أنا من دينكا مالوال غيرنيانغ. ولا أجيد التحدّث بلهجتكم وعاداتي تختلف عن عاداتكم. لذلك لم أكن متأكّداً من أن أمّكما ستقبلني.

- أوه! قالت أغار.

- لوهلة، قالت أغوم، ظنّنا إن هناك شيئاً في عقلك. ضحكت أغار وأغوم ضحكة شاركتهما فيها يار، قدمتا من خلالها دليلاً كافياً على أن الفتاتين كانتا قد ناقشتا حالتي العقلية بإسهاب.

- لا تقلق لأنك من دينكا مالوال، قالت أغوم. -فهي لا تهتمّ من أين أنت. إنها ستحبّك.

ثمّ همست أغار شيئاً بسرعة في أذن أغوم. صحّحت أغار نفسها، وقالت - لكن حتى نكون في مأمن، فمن الممكن ألاّ نقول لها إنك من الدينكا مالوال.

مرّت لحظة أخرى من الهمس.

- وسنقول لها إنك تسكن في المبنى رقم ٢، وليس مع مجموعة الصبية القاصرين غير المصحوبين.

وقفت صامتاً للحظة.

- اتفقنا؟ سألت أغار.

لم أكترث بكلّ ذلك. لم يكن يهمني إلاّ أنّ تنجح مناورتي. فقد لعبت دور الضحيّة، وادّعيت بأنني أنتمي إلى الدينكا مالوال، وأنني أشعر بعقدة النقص، وأنني لست جديراً بصحبتهن، وقد نجحت خطتي. فقد جعلهن ذلك يشعرن بأنهن تكّرمن عليّ لأنهن دعونني، وبدوت لهن شخصاً أكثر احتراماً وتقديراً لأنني رفضت الدعوة في البداية. وهنّأت عقلي لأنه نجح في التفكير تحت الضغط. لكن يجب ألاّ أفرط كثيراً في نجاحي، ويجب أن أظل حذراً.

- هذا أفضل شيء، قلت، وأنا أهزّ رأسي بجدية. وماذا عن خالكما؟

- إنه يعمل حتى وقت متأخر، قالتا. لن يعود حتى العشاء.

في تلك اللحظة، بدا أن الفتاتين الأكبر سنّاً قد انتبهتا فجأة لوجود أختهما الصغرى، يار، فرمقتاها كأنها شوكة علقت في كعبيهما.

- لن تقولي شيئاً، يا يار.

ضيّقت الفتاة الصغيرة عينيها، ورمقتهما بنظرة متحدّية.

- لا شيء، يا يار. وإلاّ فلن تنامي بسلام مرة أخرى. سننقل سريرك إلى النهر عندما تحلمين، ثم تستيقظين لتجدي نفسك محاطة بالتماسيح.

ظلّ وجه يار الصغير المستدير يشي بالتحدي، لكن الخوف ارتسم عليه فجأة. اقتربت أغار، وألقت ظلّاً خفيفاً فوق جسد يار الضئيل. جاءت موافقة الأخت الأصغر بنبرة تذمّر. - لن أقول شيئاً.

أعادت أغار انتباهها إليّ.

- سنلتقي بك عند مركز التنسيق بعد المدرسة.

كنت أعرف المكان. المكان الذي يتسكع فيه الصبية بعد المدرسة. وسأكون في مركز التنسيق ذاك بين الصبية الذين يعيشون مع آبائهم في المخيّم - الأطفال الأغنى، أبناء وبنات المعلمين والجنود والقادة.

عندما انتهت الدروس، رحت أجري إلى البيت. عندما وصلت، أدركت أنه لا يوجد سبب يجعلني أعود إلى البيت. توقفت لحظة وتساءلت إن كان هناك شيء أستطيع أن أفعله. لبست قميصي الآخر، الأزرق الباهت، وعدت أجري إلى مركز التنسيق.

- لماذا غيّرت قميصك؟ سألتني آغار. - أحبّ قميصك الآخر. لعنت نفسي.

- أحبّ هذا أكثر، قالت أغوم.

بدأتا تتشاجران من أجلي! يا لها من نعمة.

- هل أنت جاهز؟ سألتني أغوم.

- لتناول طعام الغداء؟ سألتها.

- نعم، لتناول طعام الغداء، قالت. - هل أنت متأكّد من أنك على ما يرام؟

أومأتُ. هززت رأسي بقوة، لأنني كنت مستعدّاً لتناول الطعام. لكن كان علينا أولاً أن نمشي عبر المخيّم، وكان ذلك - كنت أعرف قبل أن يبدأ ويحقق كلّ توقّع، كلّ خوف وكلّ حلم راودني طوال ثلاثة أشهر من التخطيط - السير الأكثر روعة سرته في حياتي.

وهكذا بدأنا نمشي. فتاتان من الأخوات الملكيات إلى يساري، واثنتان إلى يميني. رحت أسير بين تلك الأخوات الأكثر تقديراً واحتراماً، متجهين إلى بيتهن. نعم، لقد لاحظ المخيّم. ويمكنني أن أقول إن جميع الصبية في صفّي ماتوا حسداً ومن هول الصدمة. ومع كلّ خطوة، عندما كنّا نمرّ بمبنى ثم بآخر، كانت أعداد أكبر تحدّق بموكبنا، الذي بدا لهم، أنه نوع من التواعد، أكثر منه تسكعاً عادياً. كان استعراضاً، موكباً، إعلاناً: فقد كانت أخوات بينيدو الملكيات فخورات بأنني معهن، وقد صدم ذلك الجميع. من هذا؟ كان مشاهدو الاستعراض يتساءلون. من هو الذي يسير مع أخوات بينيدو الملكيات؟

هذا أنا، أتشاك دنغ، الذي يحقق نجاحاً مع النساء.

نظرت إلى موسى الذي كادت عيناه تخرجان من محجريهما، وكنت أعرف أن وليام كي سيكون سعيداً لو عرف ذلك. ابتسمت ابتسامة عريضة وكتمت ضحكة. لقد أحببت كلّ ذلك، لكني في الوقت نفسه، كنت مضطرباً، وكان جسدي يتكون من مجموعة مركبة من الأجزاء الغريبة، فبدأت أنسى كيف أمشي. وكدت أتعثّر فوق خرطوم، ثم وجدت أنني أفكّر كثيراً بقدميَّ وساقيَّ. كنت أرفع ساقيَّ ببطء لكن أعلى مما يجب، حتى كادت ركبتاي تلامسان بطني. لاحظت أغوم ذلك.

- ماذا تفعل؟ سألتني. هل تقلّد مشية الجنود؟

ابتسمت بحياء.

- أتشاك! قالت، - يجب ألا تفعل ذلك.

سماع ضحكتها أراح ساقيَ فعدت أمشي مثل شخص يتحكّم بساقيه. لكن سرعان ما فقدت ذراعيّ ارتباطهما بجهازي العصبي، فلم أعد أحرّك ذراعيَ اللتين أصبحتا مرخيتين، ثقيلتين. فاستسلمت.

لكنّي لم آبه لكلّ ذلك. فأنا أسير الآن مع الأخوات بينيدو الملكيات! عبرنا المبنى ١٠، ثم المبنى ٩، ثم المبنى ٨ و٧، و ٦، و٥، وسألتني الفتيات أسئلة كنت أرجو ألاّ يسألنني إياها.

- أين هما والداك؟ سألتني أغوم. فقلت لها لا أعرف.

- متى انفصلت عنهما؟ حكيت لهن رواية قصيرة جداً من قصّتي.

- متى ستراهما مرة أخرى؟ سألت يار، ولسؤالها هذا تلقت ضربة على كتفها من أغار.

تعبتُ من هذه السلسلة من الأسئلة. قلت لهن إنني لا أعرف متى أو كيف سأرى عائلتي مرة أخرى، راجياً أن يشجّع ذلك، وأنا أكلّم الأرض، الأخوات على التحدث في موضوع آخر. وقد فعلن ذلك.

كان البيت واحداً من أفخم البيوت في المخيّم. فقد كان محاطاً بحائط من الحجر، له ممر يفضي إلى الباب الأمامي، وتوجد في داخله أربع غرف مختلفة - غرفة جلوس، ومطبخ، وغرفتا نوم. كان أكبر بيت رأيته منذ أن غادرت بيتي. فلم يكن كوخاً كالذي كنّا نعيش فيه في مايال باي أو في أي مكان آخر في جنوب السودان، وإنما كان مبنياً من الآجر، ويبدو هيكله متيناً، دائماً.

عندما وقفت أمام باب البيت، انحلّت ساقاي، ووجدت الحائط في الوقت المناسب لأستند إليه. فُتح الباب.

- مرحباً يا بنات، قالت خالتهن. وقفت أمامنا، جميلة جداً، تشبه بنات أختها لكن في شكل امرأة. حوّلت انتباهها إليّ. - هل هذا هو الصبي الذي كنتن تتحدّثن عنه، الطالب النجم؟

- هذا أتشاك، قالت آغار، وسارت أمام خالتها ودخلت إلى البيت.

- أهلاً أتشاك. يقول زوجي إنّك شابّ نموذجي.

- شكراً، قلت.

دُعيت إلى داخل البيت، وقُدِّم لي كرسي. كرسي! فلم أجلس على كرسي إلاّ مرة واحدة منذ أن وصلت إلى بينيدو. وبعد قليل أُعدَّ طعام الغداء، مرق لحم كثيف مليء بالتوابل. وكان هناك خبز طازج وحليب. لقد فاق ذلك أشدّ أحلامي المحمومة. كنت لا أزال أنهي ما تبقى من الحليب الذي أشربه عندما أمسكتني أغار بيدها ورفعتني من الكرسي الذي أجلس عليه.

- سندرس العلوم، قالت أغار. وبذلك، سحبتني إلى غرفة النوم التي تتقاسمها الفتيات الأربع. أُغلق الباب، وتُركت يار في الجانب الآخر. قرعت عليه مرة ثم غادرت.

أصبحت وحدي مع الفتيات الثلاث الأكبر سنّاً في غرفة نومهن. كان لكلّ منهن سرير، اثنان منهما سريران فوق بعضهما. كانت الجدران بيضاء، مزدانة بصور عن المحيطات والمدن. جلست أغوم وأكون على السرير المفرد، وتركتاني واقفاً وجها لوجه مع أغار. تمالكت نفسي وبذلت كلّ ما بوسعي لأحبس أمعائي في تلك اللحظة. كان ذلك قبل أن يحدث أيّ شيء من تلك الأشياء التي كانت على وشك أن تحدث.

أخذت أغار يدي اليمنى ووضعتها في يدها وتكلّمت. كانت عينا أغوم وأكون منصبة علينا. كان يبدو أنهما تتوقعان وتعرفان السيناريو الذي سننفذه.

- سنلعب الآن لعبة الغميضة، قالت أغار. أولاً، عليك أن تعثر على الشيء الذي خبأته هنا.

أشارت أغار إلى صدرها. أخذت نفساً سريعاً. حتى مجرد التفكّير بذلك الآن، لا أستطيع أن أصدّق بأنه حدث، بأنه تم اختياري لهذه التجارب. لكن ذلك حدث، تماماً كما أقول إنه حدث، ثم قالت الكلمات التي لا يزال صداها يتردد في رأسي حتى اليوم، عندما أغمض عيني وأضع رأسي على الوسادة.

- يجب أن تبحث عنه. بيدك.

نظرت إلى الفتاتين الأخريين آناشدهما بن تهرعا لمساعدتي. فأومأتا لي. كنّ جميعهن يشتركن في هذه اللعبة! شعرت بأنني قادر على أن أضع يدي تحت قميصها كما لو أنني أشعل ناراً من شمع أذن. وقفت ورحت أبتسم بغباء. لقد شُلّ جهازي العصبي ولم يعد يعمل.

- هنا! قالت أغار، وأخذت يدي بسرعة ووضعتها تحت قميصها.

هل أستطيع أن أشعر، حتى يومنا هذا، بحرارة بشرتها؟ نعم أستطيع ذلك! كان جلدها دافئاً جداً، ومشدّوداً مثل طبل، تكسوه طبقة رقيقة جداً من العرق. تحسستُ جلدها الحار، وحبست أنفاسي. فاجأني جلدها. لم يكن يبدو مختلفاً عن جلدي، أو عن جلد الصبية الآخرين، لكني مع ذلك، شعرت بأنني سأنفجر.

- يجب أن تبحث!

أجبرت ُيدي على أن تفتش بسرعة عن شيء حول صدر أغار. لم أعرف ما هو. - حسناً. هذه محاولة جيدة، قالت.

- أظن أنك وجدته.

- الآن يجب أن نبحث عن شيء فيك، قالت أغوم.

- أظن أنّه هناك، قالت أغار، وأشارت إلى بنطالي الشورت.

كانت تلك خطوة مختلفة تماماً، ولم أستطع أن أنظر. نعم، كانت هناك أيد تجوس فوق شورتي. عندما وصلت إلى هناك وبدأت تتحرك، حدّقت في الجدار من خلف كتف أغار، غير متأكد إن كان اللّه سيمسخني في تلك اللحظة أو في ذلك اليوم.

وفي ثوان، راحت الفتيات الثلاث يفتشن عن ذلك الشيء الضائع في شورتي، وأحسست بالرضا عندما عثرن عليه، ثم قلن إن شيئاً ضائعا الآن تحت أثوابهن. فرضخت ورحت أفتش تحت ثوب أغار أولاً، ثمّ تحت ثوب أكون. ومهما كان السبب، فقد قالت أغوم إنه لا يوجد شيء ضائع تحت ثوبها.

وفي لحظة ما، قرّرن أنّ نذهب لنسبح. فأحضرت الفتيات مناشفهن إلى الباب، وجلبن منشفة لي. تظاهرت بأنني سررت لهذه الفكرة، لكني كنت مشدوهاً ونحن نسير. فقد انتابني شعور بالقلق من شيء ما، ثم وجدت حلّاً، وأخرجته

من تفكيري. وقادتني الفتيات إلى بقعة منعزلة عند النهر، عند انعطافة وفي الظلّ حيث سحبت الفتيات أثوابهن بسرعة من فوق رؤوسهن وتعرّين. وهكذا وقفت الأخوات الملكيات الثلاث في ملابسهن الداخلية في الماء الضحل. شعرت بحنجرتي جافّة كما كانت في أثناء رحلتنا في الصحراء. كان ذلك شيئاً غريباً. ففي مايال باي، قبل الحرب، كان من المستحيل أن يُدعى صبي في عمري - ربّما في الثامنة أو التاسعة أو حتى العاشرة من عمره - للسباحة عارياً في النهر مع ثلاث فتيات كهؤلاء. لكن أشياء كثيرة اختلفت هنا، وبدأت أفكاري حول حالتي تتصارع بقوة. هل كنت سأعاني كما عانيت، هل كنت سأغادر قريتي وأسير كما سرت، هل كنت سأرى الصبية يموتون، وندوس فوق عظام الجنود المتمردين البيضاء كالطباشير، لو كنت أعرف أنّ هذه ستكون جائزتي؟ هل كان كلّ ذلك جديراً بما يحدث لي الآن؟ لأن الواقع هو أنه لم يكن من المرجح أن شيئاً كهذا يمكن أن يحدث لي في قريتي. فالقواعد فيها صارمة، والعيون مبثوثة في كل مكان. أما في هذا المخيّم، ونحن في إثيوبيا وتدور في بلدنا حرب، فقد تخلينا عن الكثير من عاداتنا، وأصبحت أمور كهذه، ألعاب تفتيش وبحث في غرفة نوم الفتيات الملكيات، ممكنة وقد تكرر حدوث ذلك، وتنوعت التجارب وكثرت. ولم تعد متعتي في هذه اللحظة بالذات عند النهر، وأنا أرى الفتيات وهن يلعبن في الماء الضحل، شيئاً، إلى حد ما، بالمقارنة مع ما حدث لاحقاً.

- اخلع شورتك، يا أتشاك، قالت أغار. وقفت متصلّباً غير مصدق، مرعوباً.

- أتشاك، لماذا أنت واقف هناك؟

- سأسبح به، قلت متلعثماً.

- لا لن تفعل ذلك. ستبقى مبللاً طوال اليوم. هيا اخلعه.

- سأراقبكن وأنتن تسبحن، قلت. - أحبّ أن أقف هنا، قلت، وأشرت إلى بقعة رملية جلست فيها على الفور. بذلت ما بوسعي كي أبدو سعيداً بالمكان الذي أنا فيه، وبالوضع العام للأشياء. حتى أنني غطّيت ساقيَ بالرمل، لأربط نفسي أكثر بالأرض ولألمح إلى أنّ نزولي إلى الماء لم يكن ممكناً.

- تعال إلى هنا، يا أتشاك! طلبت مني أغوم.

استمر ذلك لفترة من الوقت. أصررت على أن أظل بالشورت، ولم تفهم الفتيات سبب ذلك. لماذا عليّ أن أسبح وأنا في شورتي؟ نظرت خالتهن إليّ باستغراب أيضاً. لم تنجح خطتي.

كنت أحتاج إلى فرصة لأوضح محنتي، لكن لم يكن هذا هو المكان المناسب لذلك. فأنا لست كالصبية الذين تعرفونهم، كنت سأقول. ألم تلاحظن عندما فتّشتن داخل شورتي، لا أظن. فقد كانت عشيرتي تمارس الختان على الذكور فيها، وكنت أعرف الدينكا من المنطقة التي ينتمون إليها. كنت متأكّداً من أنه عندما ترى الأخوات الملكيات، بأنني أنغوالا - أي صبياً مختوناً - فإنهن سيهربن من أنين الماء.

وأخيراً ركضت أغار وخرجت من النهر واتجهت نحوي مباشرة. وقفت أمامي لحظة وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة تشي بوعيد مطلق. ثمّ سحبت شورتي إلى الأسفل حتى كاحليَّ. لم أقاوم. فلم يكن هناك وقت وكنّ مصرات على ذلك أيضاً. وهكذا وقفت أمامهن، قضيبي مكشوف أمامهن.

حدّقت الفتيات لفترة طويلة جداً. ثمّ عدنا كلنّا إلى حالتنا الطبيعية، أو أننا تظاهرنا بأن ذلك ممكن. وواصلت اللعب مع الفتيات، مع أنهن كنّ، في الساعة التالية، أو في أي فرصة تتاح لهن، كنّ يلقين نظرة بين ساقيَّ، لا يعرفن ما الذي حدث لقضيبي. فلم يرين شيئاً كهذا من قبل.

- إذن هذا هو شكل الدينكا مالوال؟ تمتمت أغار. أومأت أغوم. سمعت ما تبادلاته من حديث لكني تظاهرت بأنني لم أسمعهن.

واصلنا اللعب، لكنّي عرفت أن كلّ شيء قد تغيّر. بعد ذلك، عدت إلى فريق الصبية الاثني عشر، وعادت الأخوات الملكيات إلى المبنى ٤. خيّل إليّ أنّني لن ألتقي بهن مرة أخرى. وطلب مني الصبية أن أحكي لهم عن كلّ ما جرى بالتفصيل، لكني قرّرت ألاّ أقول شيئاً، لأنني كنت أعرف أنني لو قلت شيئاً، فإن القصّة ستنتشر في أرجاء المخيّم في ساعات معدودة، ولن يعود أحد ينظر إلى الفتيات الملكيات بأنهن ملكيات. وقد يعتبرهن البعض عاهرات، ولا توجد ثمة مبالغة إن قلت إنه من بين عشرات آلاف الأشخاص الذين يعيشون في ذلك المخيّم، لا بد أن يكون هناك رجل واحد، أو ربما أكثر، يريد أن يجازف بحياته حتى يعرّي واحدة من تلك الفتيات. وقلت للأحد عشر صبياً إنني تناولت غداء لذيذاً معهن، وحكيت لهم عن الديكور الجميل الذي يزيّن بيتهن. كان ذلك كافياً للصبية، حتى أن هذه التفاصيل كانت عظيمة بالنسبة لهم. في تلك الليلة، استلقيت فوق فراشي، ولم يغمض لي جفن، ورحت أستعيد كلّ لحظة، أسجلها في ذاكرتي، ولا أظن أنني سأحكي لأحد شيئاً عنها مرة أخرى.

لكن في اليوم التالي، دعونني إلى الغداء. صُدمت وغمرتني البهجة وقبلت، وقبلت من دون تردّد. كانت دعوتهن وصداقتنا نصراً على التحيّز التافه بين العشائر، وبين المناطق، وهزيمة لنظام الطبقات في مخيّم اللاجئين في بينيدو. فعدت إلى بيتهن، وإلى حساء اللحم، وإلى غرفة النوم - حتى في هذه اللحظة يمكنني أن أصف كلّ ما حدث في تلك الغرفة، ومكان كلّ شيء مهما كان صغيراً فوق أرضية غرفتهن، وكلّ عقدة في الخشب المعاكس في أسرّتهن - وعدت مرات كثيرة إلى بيتهن، ولعبنا لعبة الغميضة التي لم يطرأ، الحمد لله، أي تحسن على قدراتنا فيها، فلم أكن أجيد التفتيش عن الأشياء، فكنت أضطرّ إلى أن أبحث وأبحث! كانت هذه هي حياتي لأيام عديدة في تلك السنة في إثيوبيا. لم تكن أسوأ سنواتي.

(١٩)

«هيا بنا يا فالانتينو.»

وقف جوليان أمامي. عاد. «سنجري تصويراً بالرنين المغناطيسي. اتبعني.»

نهضت واقفاً وتبعت جوليان. خرجنا من غرفة الطوارئ وسرنا في الممر. كانت تفوح من الأرضية رائحة غائط بشري.

«رجل مشرّد تغوّط هنا»، قال لي جوليان الذي كان يمشي بخفة مدهشة . وصلنا إلى المصعد وضغط على الزرّ.

«آسف لقد سُرقت يا رجل»، قال. دخلنا المصعد. كانت الساعة ١:٢١ صباحاً.

«حدث ذلك لي أيضاً. قبل بضعة أشهر»، قال. «شيء يشبه ما حدث لك. صبيّان، أحدهما يحمل مسدساً. تبعاني إلى البيت من المخزن وأوقفاني عند بئر الدرج. غبيان. كان وزنهما لا يزيد على مئة كيلو غراماً، إذا وضعا معاً».

ألقيت نظرة أخرى على جوليان. كان قوي البنية، ليس من ذلك النوع من الرجال الذين يتوقّع المرء أن يتعرضوا للسرقة. لكن إذا كان يرتدي صدرية المستشفى، فربما اعتبراه رجلاً مسالماً.

«ما الذي أخذاه منك؟ « سألته.

«أخذا؟ لم يأخذا شيئاً يا رجل. فأنا جندي سابق! كنت قد عدت من العراق منذ خمسة أسابيع عندما حاولوا أنّ يخرّوا عليّ. كنت أعرف أنّهما يتبعانني طوال الطريق وأنا ذاهب إلى البيت. كان عندي الكثير من الوقت لأفكّر ماذا أفعل، فوضعت خطة: كنت سأكسر أنف أحدهما، ثمّ آخذ المسدس من الصبي وأطلق به النار على صديقه. وأمسك الفتى الذي لم أقتله حتى تصل الشرطة. سيمضي بقية حياته مرعوباً. يا، ما هو اسمك، على أي حال - كيف تلفظه؟»

«أتشاك»، قلت، قافزاً بسرعة من المقطع الأول. ففي السودان لا يكاد حرف «أ» يكون مسموعاً.

«هل سمعت عن تشاكا خان؟» سألني جوليان. قلت ماذا.

«إنس الأمر»، قال، «إشارة في غير محلها».

هذا الرجل جعلني أخجل من نفسي لأنّني لم أفعل شيئاً ضدّ مهاجميَ. فأنا أيضاً كنت في حرب، لكن، كما أظن، فأنا لم أتدرّب كما تدرّب هذا الرجل، جوليان. نظرت إلى ذراعيه المنحوتتين اللتين يكسوهما الوشم. كان حجمهما لا يقل عن ثلاثة أضعاف حجم ذراعي.

فُتح باب المصعد، ووصلنا إلى قسم التصوير بالرنين المغناطيسي. رجل هندي كان يقف بانتظارنا. لم يقل شيئاً لأيّ منّا. دخلنا إلى غرفة كبيرة في وسطها قبر دائري. سرير مسطح يمتدّ من الفتحة في المركز.

«هل أجريت فحصاً كهذا من قبل؟» سألني جوليان.

«لا»، قلت، «لم أر في حياتي جهازاً كهذا».

«لا تقلق. إنها لا تؤلم. فقط لا تفكّر بعملية حرق الجثث».

استلقيت على السرير الأبيض. «هل أُبقي عيني مفتوحتين أم أُغمضهما؟»

«هذا يعود لك، يا فالانتينو».

قرّرت أن أُبقي عيني مفتوحتين. تركني جوليان وسمعت صوت خطواته، تكاد لا تُسمع، وهو يغادر الغرفة. أصبحت وحدي وبدأ السرير ينزلق إلى داخل المقصورة.

بدأت الحلقة فوقي تصدر طنيناً وتدور حول جمجمتي. بدأت أفكّر بتونيا وباودر وتذكّرت أنّهما طليقان ولن يُقبض عليهما أبداً، ولا بد أنهما يبيعان أغراضي الآن إلى مكتب رهونات بعد أن وضعا مايكل في أي مكان يعتبرانه بيتاً. إنهما يظنان أنّهما لقّناني درساً، وهذا صحيح.

فوقي، تبدأ الحلقة الأصغر تدور داخل الحلقة الأكبر.

كانت تراودني آمال كبيرة لهذا النوع من الفحص. فقد سمعت عن التصوير بالرّنين المغناطيسي من ماري وليامز وفيل وآخرون الذين كانوا يريدون أن يعرفوا سبب الصداع الدائم الذي يلّم بي. الآن، سأعرف ما هي المشكلة، سأحصل أخيراً على الجواب. في أحد الأيام عندما كنّا في بينيدو، كان الأب ماتونغ يعطينا درساً تحت سقف أبيض تتناثر فيه الغيوم عن يوم القيامة.

وعندما قال بعض الصبية مثلي إننا خفنا كثيراً لأن اللّه سيحاسبنا بهذه الطريقة، هدّأ من مخاوفنا، وقال إن الحساب إعتاق. وأضاف الأب ماتونغ إن المرء يعيش الحياة وهو غير متأكد إن كان عمل صالحاً أم طالحاً، لكن حكم اللّه فقط هو الذي يمنحنا حقيقة الطريقة التي عاشها المرء. لقد فكّرت كثيراً بهذا الدرس منذ ذلك الحين. فلم أكن متيقناً من أشياء كثيرة، خاصة، هل أنا من أطفال اللّه الصالحين، لكني أنحو للاعتقاد بأنّني ارتكبت أخطاء كثيرة، وإلاّ لما عوقبت هكذا، ولما عوقب الكثيرون ممن أحبّهم.

كانت الضوضاء التي يحدثها الجهاز فوقي مستمرة، دندنة آلية تبدو في آن معاً مطمئنة وواثقة من نفسها.

كنت أعرف أنّ التصوير بالرنين المغناطيسي ليس حساباً ربانياً، لكنه، بالرغم من ذلك، فهو يعد بأن يخلصني من أسئلة كثيرة تراودني. لماذا لا يزال رأسي يؤلمني في أحيان كثيرة في الصباح؟ لماذا يلّم بي غالباً ألم ثاقب في مؤخرة رأسي، ألم ينطلق من وراء جمجمتي حتى يصل إلى بياض عيني؟ يحدوني أمل بأنني لو عرفت الجواب على هذه الأسئلة، حتى لو كانت نتيجة التشخيص مخيفة، فإني سأشعر بالارتياح. فقد يفسّر هذا الفحص السبب الذي يجعلني لا أحصل على درجات عالية أحياناً في معهد جورجيا بريميتر كولدج مع إني أعرف بأنّني يجب أن أكون طالباً متفوقاً، وأنه بإمكاني أن أكون كذلك. لماذا مضى عليّ الآن خمس سنوات في أمريكا ولم أحرز إلا تقدّماً ضئيلاً؟ ولماذا يجب أن يموت كلّ من أعرفهم قبل الأوان، وبطرائق مريعة؟ جوليان، إنك لا تعرف إلاّ النزر اليسير عن الموت الذي رأيته أنا. لم أحكِ لك بالتفصيل ما حدث لجور، الصبي الذي كنت أعرفه في بينيدو والذي اختطفه أسد لا يبعد سوى بضع خطوات منّي. كنا قد ذهبنا لنجلب الماء عند غروب الشمس، وكنا نمشي بين الأعشاب العالية. وفي لحظة أحسست بأنفاس جور فوق رقبتي، وفي اللحظة الثانية شممت رائحة الحيوان، رائحة عرقه في الظلام. التفت ورأيت جسد جور مرخياً وميتاً بين فكيه. كان الأسد ينظر إليّ مباشرة، بقسوة، وحدّق أحدنا بالآخر لأيام وليال، ثمّ استدار وغادر مع جور. جوليان، لا أريد أن أعتبر نفسي شخصاً مهماً حتى يختارني اللّه ليعاقبني هكذا، لكن مرة أخرى، فإن محيط الكارثة التي يحيط بي يستحيل تجاهله.

أنجزت الحلقة الداخلية دورة كاملة وتوقّفت الآن. خيّم سكون مطبق على الغرفة. تناهى إليّ الآن صوت خطوات.

«الأمر ليس سيئاً للغاية، صحيح؟» عاد جوليان يقف بجانبي.

«نعم، شكراً»، قلت له، «إنه غريب».

«نعم إنه هكذا. لنعد إلى الطابق السفلي».

وقفت واحتجت إلى لحظة لأثبت نفسي متكئاً على الجهاز. كانت أدفأ مما توقّعت. «ماذا سيحدث الآن»، سألته، «هل تقرأ النتائج؟»

«من، أنا؟ لا، لا. ليس أنا».

تركنا المشرف على الجهاز وراء الزجاج ورأيت في الغرفة المظلمة صور مقطع عرضي لرأس على الشاشة، إنه رأسي؟ ملوّنة بالأخضر، والأصفر، والأحمر. مثل صور قمر اصطناعي عن أحوال الطقس من كوكب آخر.

«هل هذا أنا؟»

«إنه أنت، يا فالانتينو».

وقفنا للحظة وراء الزجاج، نراقب بينما تحوّلت الشاشة إلى ما أظن مقاطع مختلفة من دماغي، لرؤيتها بأشكال مختلفة. أليس انتهاكاً أنّ يكون بإمكان هذا الشخص الغريب أن يفحص رأسي بدون علمي.

«هل يفحص هذا الرجل النتائج؟» سألته.

«لا، ليس هو أيضاً. إنه مجرد تقني. إنه ليس طبيباً».

«أوه».

«قريباً جداً يا فالانتينو. الآن لا يوجد أحد هنا يعرف كيف يقرأ هذه الصور إلاّ الطبيب الذي سيأتي بعد قليل. يمكنك أن تنتظر في الغرفة التي كنت تنتظر فيها. هل أنت جائع؟»

قلت له إنني لست جائعاً، فرمقني بنظرة تشي بالشكّ.

عدنا إلى المصعد. سألته إن كان قد قتل أحد الصبيين، فقال: «لا، لم أفعل ذلك. قال لي الصبي الثاني، حقير، فالتفتّ إليهما، ودققت رأسيهما بالحائط، وركلت الصبي الثاني على صدره. لم يكن قد أخرج مسدسه بعد. غاب أحدهما عن الوعي عندما دققت رأسه بالحائط، أما الذي ركلته فقد كان مرمياً على الأرض. وضعت ركبتي على صدره، وأخذت منه المسدس ورحت ألاعبه لبضع

دقائق. وضعت المسدس في فمه، هذا كلّ ما فعلته. لقد بال على نفسه. ثمّ اتصلت بالشرطة. لم يصلوا إلاّ بعد خمس وأربعين دقيقة».

«هذا ما حدث معي»، قلت، «بعد خمس وخمسين دقيقة.»

وضع جوليان ذراعه حول كتفي وعصر رقبتي كإيماءة اعتذار. فُتحت أبواب المصعد ورأيت أتشور أتشور ولينو في الطرف الآخر.

«إن هذا يجعلك تتساءل ما هي المشاكل التي تجعل الشرطة تأتي بسرعة، صحيح؟»

لأن جوليان ابتسم، أرغمت نفسي على أن أضحك ضحكة خافتة.

«في جميع الأحوال»، قال، «ما الذي تريده، صحيح»

أدرت رأسي بسرعة وسألته، «ماذا قلت؟»

«آه، لا شيء يا رجل. كنت أحرك فمي فقط».

سرى في جسدي تيار.

«أرجوك. ماذا قلت؟»

«لا شيء. قلت، ماذا تريد؟ مثل، ماذا ستفعل؟ ماذا تظن أنّني قلت؟»

وهكذا، خمد التيار.

«آسف»، قلت. لن أفاجأ إذا سمعت جوليان يسأل عن الـ «ماذا». الـ :ماذا»، أظن أن لها علاقة بالسبب الذي جعلنا، أنا وهو، ننتظر حوالي ساعة، على الرغم من أننا هُدّدنا بالسلاح، حتى جاءت الشرطة. إن لذلك علاقة بالسبب الذي جعل التصوير بالرنين المغناطيسي يستغرق تسع ساعات، وسبب إحضاري الآن إلى سرير في غرفة الطوارئ - مررت أمام أتشور أتشور ولينو اللذين وقفا - لانتظار الطبيب الذي سيقرأ نتائج التصوير.

«كنت أتمنّى أن يكون باستطاعتي أن أسرّع هذه العملية، يا فالانتينو»، قال جوليان.

«أفهم ذلك»، قلت.

جلست على السرير، ووقف جوليان معي للحظة، ثم قال: «ستكون على ما يرام هنا؟»

«نعم. هل تستطيع أن تخبر صديقيَّ أين أنا؟»

«طبعاً. لا توجد مشكلة».

تركني جوليان على السرير، وسحب الستارة المعلّقة بسكة في السقف، حول المنطقة المحيطة بالغرفة. ساورني شكّ بأن جوليان يفضّل أن أكون هنا، حيث لا يراني جالساً أمامه في غرفة الانتظار. لكن عندما يعود إلى منضدة مكتبه، كيف سيجعل أتشور أتشور ولينو يختفيان عن أنظاره؟

«أعذرني يا جوليان؟» قلت.

عاد. صدر صوت أنين من وراء الستارة وغاب وجه جوليان.

«أنا آسف»، قلت، «هل يمكنك أن تقول لصديقيَّ أن يعودا إلى البيت الآن، وبأنني على ما يرام؟»

أومأ وابتسم ابتسامة عريضة. «بالتأكيد. أنا واثق من أنهما جاهزان. سأخبرهما». استدار ليتركني لكنه ظل واقفاً. حدّق في اللوح للحظة طويلة، ثمّ نظر إليّ من طرف عينه.

«هل حاربت في تلك الحرب، يافالانتينو، تلك الحرب الأهلية؟»

قلت له لا، وأنّني لم أكن جندياً.

«أوه. جيد إذاً»، قال، «أنا سعيد بذلك».

وغادر.

(٢٠)

كدت أن أصبح جندياً، يا جوليان. لكن مذبحة أنقذتني.

شيئاً فشيئاً، بدأت بينيدو تتغيّر، وأحسست بأنني أحمق لأنني لم أعرف ما الذي كانوا يخططون له. لا أعتقد الآن أنّهم، قادة جيش التحرير الشعبي السوداني، فكّروا بكلّ ذلك منذ البداية. فإذا كانوا مذنبين بعدم التبصر في العواقب، فإني ممزق بين الرهبة والرعب.

بدأ وعيي حول ذلك يتشكّل في أحد الأيام في بداية الصيف، عندما كان الصبية يرقصون مبتهجين. كنت مع فريق الأحد عشر صبياً. كنّا نتناول طعام العشاء تحت سقف السماء الرمادية الرطبة المنخفض.

- سيأتي غارانغ! غنّى الصبية، وهم يركضون أمام ملجئنا.

- سيأتي غارانغ! صاح صبي آخر، مراهق،. راح يقفز مثل طفل.

- من سيأتي؟ سألتُ شاباً ماراً.

- غارانغ سيأتي!

- من؟ سألت. كنت قد نسيت تفاصيل كثيرة من دروس دوت.

- هس! قال الشاب موبّخاً، وتطلّع حوله خشية أن يكون أحداً قد سمعنا. - غارانغ، قائد جيش التحرير الشعبي السوداني، أيها الغبي، همس. ثم ذهب.

بالفعل كان جون غارانغ قادماً. كنت قد سمعت بهذا الاسم، لكني لم أكن أعرف عنه أشياء كثيرة. فقد أعلن الوجهاء خبر وصوله بعد العشاء بطريقة رسمية. أصبحنا نعيش الآن في مبان مشيدة من الآجر، رمادية، وباردة لكنها متينة - ثم سقط المخيم في حالة شديدة من الفوضى. لم ينم أحد. كنت قد سمعت النزر اليسير عن جون غارانغ من قبل، الأشياء التي قالها لي دوت منذ فترة طويلة فقط، لكن خلال الفترة حتى وصوله، بدأت المعلومات تتدفّق بحرية ومن دون تمحيص.

- إنه دكتور. ليس دكتوراً في الطبّ، وإنما في الزراعة. درس في أمريكا، في ولاية آيوا. - حصل على درجة عالية في الزراعة من إحدى جامعات ولاية

آيوا. - إنه أذكى رجل سوداني حيّ. - وهو جندي يحمل أوسمة كثيرة، وهو أكثر الأشخاص تقديراً في صفوف الدينكا. - وهو من منطقة أعالي النيل. - ويبلغ طوله تسعة أقدام، وله بنية تشبه الكركدن.

سألت السيد كونديت ووجدت أن معظم هذه المعلومات صحيحة. فقد حصل غارانغ على درجة الدكتوراه من جامعة في ولاية آيوا، وبدا لي ذلك أمراً شديد الغرابة إلى حد أنه تملكني شعور على الفور بأنّ هذا الرجل يستطيع أن يقود جنوب السودان الجديد إلى النصر، ويبعثه من جديد.

قبل وصوله، طُلب منّا أن ننظف أماكن إقامتنا، ثم بيوت المعلمين، وأخيراً الطريق المؤدي إلى بينيدو. وتقرّر طلاء الأحجار التي تحفّ الطريق على الجانبين، ووزعوا علينا الطلاء، فأصبحت الأحجار بيضاء وحمراء وزرقاء، بالتدريج. وفي يوم الزيارة، بدا المخيم جميلاً ونظيفاً كما لم يكن من قبل. كنت فخوراً. لا أزال أذكر ذلك الشعور. كنّا قادرين على عمل ذلك، أن نخلق حياة من لا شيء.

في يوم الزيارة، كان سكّان بينيدو في حالة شديدة من التوتر. لم أر وجهاء المخيّم عصبيين ومحمومين بهذه الدرجة. كانت زيارة غارانغ ستتم في باحة الاجتماع، وسيحضر الجميع. عندما تجمعنا أنا وموسي في الصباح مع الآخرين في المخيّم، ازداد عدد المتجمهرين إلى درجة لم أكن أتخيّلها. كانت تلك أول مرة أرى فيها سكان المخيم جميعاً، الذين قد يصل عددهم إلى أربعين ألف شخص، متجمعين في مكان واحد. كان يستحيل تصور هذا المشهد. وكان جنود جيش التحرير الشعبي السوداني ينتشرون في كل مكان - المئات منهم، من صبية مراهقين حتى أكثر الرجال المتمرسين في المعارك.

أجلسونا، نحن الستة عشر ألف صبيّ غير المصحوبين، أمام الميكروفون مباشرة، وبينما كنّا ننتظر وصول جون غارانغ، بدأ الأربعون ألف صبي الذين تجمعوا من أرجاء السودان ينشدون بعض الأغاني. فأنشدنا أغان تقليدية من جنوب السودان، وغنّينا أغان جديدة أُعدّت خصيصاً لهذه المناسبة. فقد ألّف أحد الصبية غير المصحوبين بعض الأناشيد لهذه المناسبة:

الرئيس جون غارانغ،

الرئيس جون غارانغ،

رئيس شجاع كالجاموس، كالأسد، وكالنمر

في أرض السودان
كيف ستُحرّر السودان، من دون القوّة الهائلة التي نمتلكها؟
القوّة الهائلة التي يمتلكها الرئيس
انظروا إلى السودان! إنه يشبه خرائب العصور المظلمة
انظروا إلى الرئيس - الدكتور!
إنه يحمل بندقية متطوّرة
انظروا إلى جون غارانغ،
فهو يحمل بندقية متطوّرة
كلّ الجذور قد اجتُثّ
كلّ الجذور قد اجتُثّ
الصادق مهدي يظل جذراً وحيداً
وجون سيجتثّه في أرضنا
سنكافح لنحرر أرض السودان!
سنفعل ذلك بالكلاشينكوف
كتائب الجيش الأحمر ستأتي
سنأتي
مسلحين بأسلحة في اليد اليسرى،
وبالأقلام في اليد اليمنى
لنحرر وطننا، أوه، أووووووو!

عندما انتهت الأغنية، بدأت تتكرر مرة ثانية وثالثة. أخيراً وصل الحرّاس الذين يأتون في المقدمة وأعلنوا عن وصول غارانغ. تقدم ثلاثون من أولئك الحراس نحو الباحة، وأحاطوا بالمنصة، يحملون جميعاً رشاشات الكلاشينكوف وينظرون إلينا بشكّ واستياء.

لم أحبّ هؤلاء الحرّاس. كانوا يحملون أسلحة كثيرة، وكان يبدو أنهم متهوّرون وأفظاظ. تكّدر مزاجي بعد أن كان مبتهجاً من الأغاني والهتافات. أخبرت إسحاق، الصبي الآخر الذي يدعى غوني فار، عن مشاعري.

- إنهم هنا لحماية غارانغ، لقد ابتعدوا. استرخ.

- مِنْ مَنْ؟ منّا؟ هذا خطأ، الرجال المسلحون في كل مكان.

- من دون حرّاس سيقتله أحدهم. إنك تعرف ذلك. أخيراً دخلت القيادة: نائب القائد وليام نيون باني، والقائد لوال دنغ ول، ثم الرئيس غارانغ نفسه.

كان حقاً رجلاً ضخماً، عريض الصدر، وله لحية رمادية غريبة، شعثاء، ومنفلتة، وجبهة مستديرة كبيرة، وعينان لامعتان صغيرتان، وفكّ بارز. كان يتمتع بوجود طاغ، ومن أيّ مسافة تراه فيها، فمن الواضح أنك سترى أنّه قائد رجال.

- إنه رجل عظيم، همس موسى.

- هذا الرجل هو الله، قال إسحاق.

رفع غارانغ يديه بانتصار وانطلق الكبار، لاسيما النساء، في حالة هياج. فراحت النساء يزغردن ويرفعن أذرعهن ويغمضن عيونهن. التفتنا ووجدنا أن الوجهاء والمتدربين يرقصون، يلوّحون بأذرعهم بعنف. وأنشدت أغان أخرى وكان سعيداً.

سنعدّل علم السودان

سنعدّل علم السودان

لأن السودان مشوّش الآن

الصادق المهدي فاسد

وول وول فاسد

لجيش التحرير الشعبي سكين - مثبتة على فوهة الكلاشينكوف

الشجعان الذين لا يهابون شيئاً

هؤلاء هم الرجال الذي سيحرّروننا ببذل الدماء

الجيش الأحمر - جنود الدكتور

سنناضل حتى نحرّر السودان

الرجل الذي يعاني من لسعات البعوض،

ومن العطش والجوع؟ إنه محرر أصيل

سنحرّر السودان ببذل الدماء

ثمّ بدأ جون غارانغ.

- أغتنم هذه الفرصة لأنقل إليكم تحياتي الثورية وتقديري وإلى جميع الجنود في جيش التحرير الشعبي السوداني في ساحة المعركة الذين يحرزون، في ظروف شديدة الصعوبة، انتصارات هائلة، مقنعة، الواحدة تلو الأخرى على حكومات الظالمين المختلفة.

انطلق تصفيق وهتاف قوي من الأربعين ألفاً.

- شبه عراة، حفاة، جائعين، عطشانين، تواجههم مشاق كثيرة أخرى، أثبت جنود جيش التحرير للعالم أجمع أن مباهج الحياة لا يمكن أن تثنيهم أبداً عن قضية الشعب وعدالة نضاله. لقد أثبت جنود جيش التحرير مرة أخرى صدق التجربة الإنسانية الأزلية حول لانهائية القدرة الإنسانية على التحمل والعزيمة ضدّ التحديات في سبيل الكرامة والعدالة.

إنه خطيب مفوه، قلت في نفسي، أفضل خطيب سمعته في حياتي.

استمعت إلى الدكتور جون غارانغ وأنا أراقب بدقة كبيرة الجنود المحيطين به. عيونهم تمسح الحشود. تكلّم غارانغ عن ولادة جيش التحرير الشعبي السوداني، وعن الظلم، والبترول، والأرض، وعن التمييز العنصري، والشريعة،

واستعلاء حكومة السودان، وسياسة الأرض المحروقة التي تتبعها في جنوب السودان، وتكلّم عن المرحلّين. ثمّ تحدّث كيف أن الخرطوم استهانت بالدينكا، وكيف أن جيش التحرير يحرز انتصارات في هذه الحرب. تحدّث لساعات عدة، وأخيراً، عندما بدأ بعد الظهر يتحوّل إلى المساء، بدا أنه بدأ يشعر بالتعب.

- إلى جنود جيش التحرير الشعبي السوداني، هدر، حيثما كنتم، مهما كنتم تفعلون الآن، سواء أكنتم في المعركة الآن أم رابضين، مهما كانت التحديات التي تواجهونها، مهما كان شعوركم، مهما كانت ظروفكم الراهنة، فإني أحيّيكم وأهنّئكم، يا جنود جيش التحرير، على تضحياتكم البطولية وعلى صمودكم سعياً لتحقيق هدفكم المتفاني لبناء سودان جديد. انظروا إلينا! إننا سنبني سوداناً جديداً!

كان الهتاف كأن الأرض قد انشقت. وزغردت النساء مرة أخرى وصاح الرجال. وضعت يدي في أذني لأحجب الصوت عني لكن موسى صفع يدي وأبعدهما.

- لكن لا يزال أمامنا الكثير من العمل، تابع غارانغ. لا يزال أمامنا طريق طويل. أيها الصبية - وهنا أشار غارانغ إلى الستّة عشر ألف مراهق منّا الجالسين أمامه - ستحاربون معركة الغد. ستحاربونها في ساحة المعركة وستحاربونها في قاعات الدروس. فمن الآن فصاعداً، ستتغيّر الأمور في بينيدو. يجب أن نصبح جدّيين الآن. فهذا ليس مخيّماً للإنتظار فقط. إننا لا نستطيع أن ننتظر. أنتم الصبية الصغار البذور. أنتم بذور السودان الجديد.

كانت تلك أول مرة ندعى فيها البذور، ومنذ تلك اللحظة، أصبحنا نُعرف بهذا الاسم. وبعد الخطاب، تغيّر كلّ شيء في بينيدو. فغادر على الفور مئات الصبية لمباشرة تدريبهم العسكري في بونغا، معسكر جيش التحرير غير البعيد. وذهب المعلمون ومعظم الرجال الذين تتراوح أعمارهم بين الرابعة عشرة والثلاثين سنة إلى بونغا للتدرب، فأعيد تنظيم المدارس بسبب الطلاب والمعلمين الذين غادروا.

موسى، أيضا رأى أن الوقت قد حان.

- أريد أن أذهب لأتدرب.

- أنت صغير جداً، قلت.

- كنت صغيراً جداً، كما أظن، لذلك فإن موسى صغير جداً أيضاً.

- سألت أحد الجنود وقال إنني كبير بما يكفي.

- لكن هل ستتركني هنا؟

- يمكنك أن تأتي. يجب أن تأتي يا أتشاك. لماذا نحن هنا، في جميع الأحوال؟

لم أشأ أن أذهب لأتدرب. ففي بينيدو يوجد كثير من الصبية الصغار العدوانيين، لكن هذه العدوانية لم تكن تجري في دمي. فعندما كان الصبية يريدون أن يتصارعوا، ويتشاجروا بالأيدي لتمضية الوقت أو لإثبات جدارتهم - في بينيدو، عندما أصبحنا نشعر بأننا نتملك القوة، بدأ الصبية يميلون إلى المشاجرة حتى بدون أي سبب - أما أنا فلم أكن أشعر بذلك. فإذا لم تكن المصارعة ودية بين الأصدقاء، لم أكن أبدي أي اهتمام بهذه المنافسات. كنت أريد أن أدوام على المدرسة، ولم أكن أريد شيئاً سوى أن أرى الفتيات الملكيات وأتناول الطعام الذي تطبخه أمّهن، وأبحث عن الأشياء المخفية تحت أثوابهن.

- من سيقاتل في الحرب إن لم يقاتل رجال مثلنا؟ قال موسى.

كان يرى أنّنا أصبحنا في عداد الرجال. لقد فقد صوابه. لم يكن وزننا يزيد على أربعين كيلوغراماً، مثل أعواد الخيزران، لكن ما قلته لموسى لم يثنه قيد أنملة، فذهب في ذلك الأسبوع والتحق بجيش التحرير، وكانت تلك آخر مرة أراه فيها إلى حين.

* * *

كان الصيف مليئاً بالعمل والنشاط. فبعد مغادرة جون غارانغ بفترة وجيزة، جاء إلى بينيدو قائد شاب آخر من جيش التحرير، له شخصية قوية، ليقيم هنا. كان اسمه ماين نغور، وجاء في مهمة معينة. ومثل غارانغ كان خبيراً في أساليب الزراعة، وجعل شغله الشاغل سقاية الأرض المتاخمة للنهر. رأيناه في أحد الأيام. كان طويل القامة يشبه البجعة، يرتدي قميصاً وبنطالاً أبيضين، يسير وراءه أربع بطات صغيرة غبية - مساعدوه الذين يرتدون بدلات عسكرية بنية، انهمكوا في ترسيم مساحات واسعة من الأرض غير المزروعة. وفي اليوم التالي عاد، مع أثيوبيين وجرّارات ومحاريث، وبسرعة مدهشة قلبوا التربة وأقاموا عشرات من قطع مستطيلة من الأرض تمتدّ من النهر.

كان ماين نغور رجلاً ذا كفاءة عظيمة، وكان يحبّ كثيراً أن يتحدّث عن موهبته وكفاءته.

- هل ترون كيف يتم كلّ ذلك بسرعة؟ سألنا. كان قد جمع حوالي ثلاثمائة صبي بجانب النهر ليشرح لنا خططه ودورنا فيها.

- كلّ هذه الأرض التي ترونها أمامكم هي طعام محتمل، كلّها. وإذا استطعنا أن نشتغل في هذه الأرض بحكمة، فإن كلّ الطعام الذي سنحتاج إليه يمكن أن توفره لنا هذه الأرض، بجانب هذا النهر ورعايتنا لها.

قلنا إنها فكرة رائعة، لكننا كنا نعرف بالطبع أن الجانب الأصعب في العمل في الأرض سيُلقى على كاهلنا نحن القاصرين غير المصحوبين وهذا ما حدث فعلاً. فقد ظل ماين نغور يعلّمنا لأسابيع عدة طرق استخدام المعازق، والمجارف، وعربات الجر باليد، والفؤوس، والمناجل، وظللنا نعمل بأيدينا بعد أن غادرت الآليات الأثيوبية الكبيرة بفترة طويلة. ثم بذرنا أخيراً بذور البندورة (الطماطم) والفاصولياء، والذرة الصفراء، والبصل، والفول السوداني، والذرة البيضاء، كان ماين نغور، يتمشى بيننا وعيناه تلمعان برؤى المحاصيل الوفيرة التي ستمنحنا إياها الأرض.

- ما اسمك أيها الجيش الأحمر؟ سألني ذات يوم.

لاحظ جميع الصبية الأحد عشرة الذين كانوا يعملون بالقرب منيّ وجود الرجل العظيم بيننا. قلت اسمي لماين نغور. لكنه لم ينادني به.

- أيها الجيش الأحمر، هل تتصوّر كيف ستبدو هذه الأرض عندما تنتهي؟ هل ترى أنّ كلّ هذه الأرض هي غذاء محتمل؟

قلت له نعم، وقد أثارت الفكرة حماستي كثيراً.

- جيد، جيد، قال. ثم وقف وراح ينظر في صفوف مئات الصبية ورائي، الذين كانوا كلّهم محنيين فوق معازقهم ومجارفهم. لقد منحه مشهد هؤلاء الصبية الضامرين وهم يعملون تحت شمس الصيف الحارقة متعة كبيرة.

- كلّها! صاح. كلّها، طعام محتمل! ثم سار مبتعداً.

عندما ابتعد كثيراً، انطلق الضحك من حولي، فلم يعد بقدرة الأحد عشر صبياً أن يتمالكوا أنفسهم. ففي ذلك اليوم، أصبح ماين نغور يُعرف باسم السّيد

الطعام المحتمل. وبعد ذلك بشهور، أصبحنا نشير إلى أيّ شيء - صخرة، مجرفة، شاحنة - ونقول «طعام محتمل». وكان أتشور أتشور يقلدّ ذلك على أفضل نحو، وكان يبالغ في تقليده. فأصبح يشير إلى أي شيء بشكل عشوائي، وهو يحدّق في الأفق، ويقول: «أترى تلك الشجرة، أيها الجيش الأحمر؟ إنها طعام محتمل. إطار العجلة ذاك؟ إنه طعام محتمل. كتلة الروث تلك، كومة الأحذية القديمة تلك؟ إنها طعام محتمل».

عند المغرب، بدأ تحوّل المخيّم يزداد اكتمالاً - فقد بدأت الصبغة العسكرية تطغى عليه، ففُرضت قواعد صارمة، وكُلِّفنا جميعاً بأعمال دائمة ومتنوعة، وأُبلغنا أكثر من مرة بأننا هنا من أجل هدف رئيسي واحد وهو أن نُغذّى ونُسمّن حتى نحارب عندما تكبر أجسامنا وتصبح مناسبة لذلك، أو أن جيش التحرير سيجنّدنا في صفوفه إذا وجد نفسه مضطراً لذلك، أيّهما يأتي أولاً. وكان عدد من المعلمين قد عادوا من تدريبهم في بونغا، وبدأوا يطلبون منا في صباح كلّ يوم أن نأتي إلى الساحة، فنصطف ونمارس بعض التمارين الرياضية، ثم نحمل الأدوات الزراعية كأنها بندقية كلاشينكوف، ونسير في استعراض في الساحة، وننشد في أثناء ذلك بعض الأناشيد الوطنية. وعند انتهاء الاستعراض، كانوا يبلغوننا بصدور أيّ قواعد أو تعليمات جديدة. وبدا أنه لم تعد هناك نهاية لتلك التوجيهات والتعليمات الجديدة.

- أعرف أن معظمكم يا أولاد، تتعلّمون الآن اللغة الإنكليزية، قال أحد المعلّمين الجدد ذات يوم، وكان قد عاد حديثاً من بونغا، وجاء ليُعرف باسم «قائد سرّ» - وأصبح عدد قليل منكم يجيدون التحدث بها، لكن يجب أن أحذركم بأنّ هذا لا يعني أنكم تستطيعون أن تستخدموا لغتكم الإنكليزية هذه للتكلم مع أيّ عامل من عمال الإغاثة هنا. فلا يسمح لكم أن تتحدثوا مع أيّ شخص غير سوداني، سواء أكان أسود أم أبيض. هل هذا مفهوم؟

أوضحنا له أننا فهمنا.

- وإذا طرح عامل إغاثة على أحدكم، لأيّ سبب كان، سؤالاً، فاتبعوا هذه التعليمات: أولاً، يجب أن تتظاهروا بالخجل بقدر الإمكان. فمن الأفضل لهذا المخيّم ولكم شخصياً ألاّ تتكلّموا مع أحد عمال الإغاثة، حتى لو طرحوا عليكم أي سؤال. هل هذا مفهوم؟

قلنا للقائد سرّ إننا فهمنا.

- ثمة شيء واحد أخير: إذا سألكم أحد عن جيش التحرير الشعبي السوداني، فيجب أن تقولوا لا نعرف شيئاً عنه. وأنكم لا تعرفون ما هو هذا الجيش

أصلاً، وأنكم لم تروا قط أحداً من أفراده، ولا تعرفون ماذا يعني ذلك. فأنتم لستم سوى أيتام جئتم إلى هنا من أجل سلامتكم والدراسة. هل هذا واضح؟

لم يكن ذلك مفهوماً بالنسبة لنا، لكن الانقسام بين الأمم المتحدة وجيش التحرير الشعبي السوداني بدأ يتضح مع مرور الشهور. فمع تزايد وجود الأمم المتحدة، وبناء مرافق جديدة ووصول المزيد من الأجهزة والمعدات كلّ شهر، بدأ تأثير جيش التحرير على المخيّم يزداد حدة أيضاً. فتقاسمت الفئتان اليوم بالتساوي: فقبل حلول الليل، يكون المخيّم مكرساً للتعليم والتغذية، فنحضر الدروس ونأكل الطعام الصحّي، وفي كلّ شيء كنّا نبدو لمراقبي الأمم المتحدة أننا مجموعة من القاصرين غير المصحوبين، أما في الليل، فيستحوذ جيش التحرير على المخيم، فيأخذ حصته من الطعام الذي يقدمونه لنا وللاجئين الآخرين، ويتم تنفيذ العمليات وتطبّيق العدالة، فيُضرب أيّ صبي أساء التصرف بقضيب خيزران، وكان الضرب بالنسبة لمعظم هؤلاء الصبية الذين كانوا أشبه بهياكل عظمية موهناً لعزيمتهم، أو حتى مميتاً. وبطبيعة الحال، فقد كان الضرب ينفذ في الليل، بعيداً عن أنظار المراقبين الدوليين.

وانقسم الصبية في المخيّم في آرائهم حول قادة المتمردين. فقد كان كثير من الصبية بيننا، بل ربما الأغلبية، ينتظرون بفارغ الصبر الذهاب إلى بونغا ليتدربوا حتى يتسلّموا بندقية، ويتعلّموا القتل والانتقام لقراهم وقتل العرب. لكن كان هناك عدد كبير مثلي يشعرون بأن لا علاقة لهم بهذه الحرب، ويريدون أن يتعلّموا القراءة والكتابة، وينتظروا حتى ينتهي هذا الجنون. ولم يكن القتال في صفوف جيش التحرير سهلاً. فقد انتشرت إشاعات منذ شهور عن المشاق التي يلاقيها الصبية في بونغا، وعن التدريب الذي كان شديد القسوة وعديم الرحمة. وعلمتُ أن الصبية يموتون هناك، وكان تفسير أسباب موتهم متباينة ويستحيل تأكيدها: الإعياء، الضرب. وكانوا يطلقون النار على الصبية الذين يحاولون الهرب ويُقتلون، وكانوا يقتلون الصبية الذين يفقدون بنادقهم. أعرف الآن أنّ بعض الأخبار التي كانت ترد من بونغا لم تكن صحيحة، لكن بين ما هو مخفي وما هو مبالغ فيه يكمن شيء من الحقيقة. فقد كان على الصبية الذين ذهبوا لمحاربة العرب أن يحاربوا الوجهاء في المخيم أولاً. فعلى الرغم من الأمان والراحة النسبيتين في بينيدو، كان بعض الصبية يغادرون كلّ أسبوع بمحض إرادتهم ليتدربوا في بونغا. وقد خسرنا أربعة صبية من الأحد عشر صبياً بهذه الطريقة، بين الصيف والشتاء، وقُتلوا جميعاً في النهاية. فقد قاتل ماتشار ديني وقُتل في جنوب السودان سنة ١٩٩٠، وانضم مو مايول إلى صفوف جيش التحرير وقُتل في جوبا عام ١٩٩٢، وانضمّ أبوي بيث إلى جيش التحرير وقُتل في

كابويتا عام ١٩٩٥. أظن أنه لم يكن يتجاوز الرابعة عشرة من عمره. إن الصبية جنود لا يصلحون للقتال. هذه هي المشكلة.

وهكذا تشكلت أيامنا من جديد. فبينما كانت هناك دراسة وألعاب بكرة القدم وأداء بعض الأعمال العادية الأخرى، مثل جلب الماء، فقد حلّت محلها الآن أعمال يدوية - بالإضافة إلى أعمال الفلاحة - وأصبحنا نقوم بالأعمال التي لا يتوقع أن يقوم بها صبية صغار مثلنا.

ففي صباح كلّ يوم، عندما كنّا نصطف في الباحة، كان الوجهاء في المخيّم يشيرون إلى إحدى المجموعات: ستساعدون زوجة القائد كون في بناء حظيرة لعنزاتها. ومجموعة أخرى: - ستبحثون عن حطب في الغابة. وأخرى: - ستساعدون هذا المسؤول في بناء بيت جديد لأبناء عمه. وعند انتهاء الدوام في المدرسة ومن تناول الطعام، كنّا نعرف إلى أين سنذهب.

أمضيت أسبوعين في بناء بيت لصديق أستاذ علم الأحياء. كانوا يأخذوننا لتنفيذ أيّ عمل، سواء أكان كبيراً أم صغيراً. فكنا نبذر البذور في الحدائق، ونبني مراحيض خارجية. وكنّا نغسل ثياب أيّ مسؤول يطلب منّا ذلك. فقد أحضر بعض ضباط جيش التحرير عائلاتهم إلى بينيدو، بينما كانوا يتدرّبون في مكان قريب في بونغا. فكنّا نغسل لهم ثيابهم في النهر، ونجلب الماء إلى زوجاتهم، ونفعل أي شيء يطلبونه منّا. ولم نكن نتقاضى أجراً على العمل الذي نؤديه لهم، حتى أننا لم نكن نستطيع أن نطلب منهم أو نتوقّع أن يقدموا لنا كوباً من الماء. فقد طلبت ذات يوم كوباً من الماء بعد أن أنهينا، أنا والأحد عشر صبياً - كنّا عشرة في الحقيقة، لأن إسحاق تمارض - بناء بيت لأسرة ضابط وصل مؤخراً. فما كدنا نقترب من باب الكوخ الذي ركّبناه للتو، حتى خرجت زوجة الضابط ورمقتنا بغضب.

- ماء؟ هل تمزحون؟ هيا اخرجوا من هنا، أيها البعوض. اذهبوا واشربوا من بركة موحلة!

في معظم الأحيان كان العمل يستمر حتى حلول الظلام. وفي أوقات أخرى، كنا ننهي عملنا في وقت متأخر من بعد الظهر، فيصبح بإمكاننا أن نلعب. كان الجميع يلعبون كرة القدم في بينيدو، ألعاب لا توجد فيها غالباً حدود مرسومة أو حتى أهداف. فكان أحد الصبية يأخذ الكرة - كانت توجد دائماً كرات قدم جديدة، هدايا من جون غارانغ، كانوا يقولون لنا - تُرمى، وسرعان ما يجري وراءها مئة صبي لا يريدون إلا لمسها. لكن حتى في ذلك الوقت من المساء، كان من الممكن أن يهبط إلهام على أحد المسؤولين.

- هيه أنتم! قد يصيح في مجموعة الصبية الحفاة الذين يجرون وراء الكرة في الغبار - أنتم الثلاثة، تعالوا إلى هنا. لديّ عمل لكم.

فنذهب إليه.

لم يكن أحد يريد أن يذهب إلى الغابة، لأن الصبية يختفون فيها ولا يعودون. فمن المعروف أن أول صبيين دخلا إلى الغابة التهمتهما الأسود، فأصبح همّ كل صبي أن يتهرّب من مهمة البحث عن مواد البناء في الغابة. فعندما كنّا نُستدعى للذهاب إلى الغابة، كان بعض الصبية يفقدون صوابهم، فيختبئون بين الأشجار، أو يهربون. وكان بعضهم يهرب إلى بونغا ليصبحوا جنوداً، يفعلون أيّ شيء للتهرب من الذهاب إلى الغابة التي يختفي فيها الصبية. وازداد الأمر سوءاً مع مضي الشهور، وبدأت الوفرة في الغابة تشّح في كلّ يوم، حتى أصبح يتعين على الصبية الذين يبحثون عن أعشاب أو جذوع أشجار أن يخاطروا بأنفسهم ويتوغلوا أكثر وأكثر في كلّ يوم، حتى يقتربوا من المجهول. ولم يعد هناك الكثير من الصبية، لكن العمل تواصل، وبدأت عملية البناء تزداد انتشاراً.

في أحد الأيام، هبّت ريح قوية فطارت سقوف بيوت عشرات الوجهاء، فكُلِّف ستّة منّا بمهمّة إعادة بناء السقوف، وكنت أنا وإسحاق منهمكين في هذه المهمة عندما وجدنا قائد سرّ.

- هيا اذهبا إلى الغابة كلاكما. لا يوجد عندنا حطب. حاولت أن أكون رسمياً ومؤدّباً معه بقدر ما بوسعي عندما قلت:

- لا يا سيدي، لا أريد أن يأكلني أسد هناك.

وقف القائد سرّ، غاضباً. - إذاً ستُضرب!

لم أسمع من قبل هذه الكلمات اللذيذة، فقد كنت مستعداً لأن أُضرب على أن أعرّض نفسي لخطر أن يلتهمني أسد، فاقتادني القائد سرّ إلى الثكنة وضربني على ساقيَ وعلى ظهري بخيزرانة بقوة، لكني لم أصب بأي أذى. وعندما انتهى كتمت ابتسامة. أحسست أنني انتصرت ورحت أجري مبتعداً، غير قادر على أن أتمالك نفسي من أن أغني أغنية لنفسي ولهواء الليل.

بعد ذلك، لم يعد الصبية يذهبون إلى الغابة، وتضاعف الضرب. وعندما تضاعف الضرب، ازدادت أيضاً السبل للتخفيف من تأثير كلّ ضربة. فقد انتشر نظام استعارة الثياب للذين يتوقّعون أن يُضربوا بقضيب الخيزران. فقد

جرت العادة بأنه يتم تنبيه الصبي الذي سيُضرب قبل بضع ساعات على الأقل، لذلك كان بإمكانه أن يستعير أكبر عدد من السراويل الداخلية والشورتات التي يستطيع أن يلبسها. وكان الضرب يتم عادة في الليل؛ وقد شكرنا الله على ذلك، لأنه لم يكن بإمكانهم اكتشاف الملابس الداخلية تلك.

بعد بضعة أسابيع، بدافع الكسل أو بدافع الرغبة في أن يغرسوا فينا نوعاً من الانضباط العسكري، أمرونا بأن يضرب أحدنا الآخر بالخيزرانة كعقاب على أي مخالفة قد نرتكبها. ومع أن بضعة صبية كانوا ينفذون عملية الضرب بالكامل في البداية - فقد دفعوا في النهاية ثمن حماستهم الزائدة هذه - فقد استنبط الصبية طريقة يقوم فيها الصبي الذي يضرب بضرب الأرض، لا ظهر الصبي الذي يُضرب، ويظل الضارب والمضروب يصدران نفس الأصوات المتوقّعة من الجهد والألم.

أصبحت القواعد الصارمة الجديدة التي يصدرها الجيش مصدر إزعاج، لكننا، أحسسنا بأننا أقوياء ولم يمت منّا أحد. وكان وزن معظمنا في ازدياد، وكان بإمكاننا أن نعمل ونركض. وأصبحت تتوافر كميات كافية من الطعام، وكان الطعام يتيح لنا، في حقيقة الأمر، العذر للتهرب من العمل بعد الظهر. ففي الفرق التي يتألف كلّ منها من إثني عشر صبياً، كان يخصص لكلّ صبي يوم للطهي، فيُسمح للصبي المسؤول عن الطبخ في ذلك اليوم بأن يتغيّب عن المدرسة وعن العمل بعد ذلك، لأنه سيكون مشغولاً بطهي الطعام للأحد عشر صبياً الآخرين. وكان الطعام يوزّع مرة في الشهر، بالشاحنة. فقد كانوا يرسلوننا لننقله إلى المخيّم، ونضعه في سلسلة المخازن المسقوفة. وكان حجم أكياس طحين الذرة، والفاصولياء البيضاء، والعدس، والزيت النباتي، كبيرة يزيد حجمها على حجم الكثيرين منّا، وكان يتعين أن يحملها صبيّان اثنان في معظم الأحيان.

كان اليوم الثاني عشر هو يوم عطلتي، وكان ذلك يوماً جيداً. ففي الليالي التي تسبقه كنت أنام وابتسامة ترتسم على وجهي، وكلما اقترب ذلك اليوم، يبدأ مزاجي يتحسن. وعندما يأتي ذلك اليوم، كنت أخلد إلى النوم بعد أن يذهب الأحد عشر صبياً إلى الباحة ثم إلى المدرسة، وعندما أستيقظ، أفكّر ماذا سأطبخ لهم. كنت أفكّر بذلك وأنا في طريقي إلى النهر لأجلب الماء، وأفكّر بذلك وأنا عائد من النهر. كان الحساء الشيء الذي نستطيع كلنّا تقريباً أن نعدّه لطعام الغداء، وعندما يأتي دوري، كنت أحاول أن أعدّ حساء غير حساء العدس. فقد كان حساء العدس الحساء اليومي، وكان معظم الصبية الأحد عشر يشعرون بالرضا به، لكن بما أنني رئيس الفريق، فقد كنت أحاول

أن أفعل شيئاً أفضل عندما يأتي دوري، شيئاً يجعل الأحد عشر صبياً يشعرون بأنه يوم استثنائي.

كنت أتفحص المواد المتوفرة لأرى إن كان هناك شيء إضافي يمكن مقايضته. فإذا كانت لدينا كمية إضافية من الرزّ مثلاً، يكون بوسعي أن أقايضها بسمكة من النهر التي يمكنني أن أعدّ بها حساء السمك، وكان الأحد عشر يحبّون كثيراً حساء السمك. وخلال وجودهم في المدرسة، أكون منشغلاً في إعداد الحساء وأفكّر بوجبة المساء، لكن إعداد الحساء لا يحتاج إلى ساعات اليوم كلّها، بل يتيح وقتاً للراحة. وإذا وجدني أحد المسؤولين أتسكّع، فإني أقول له، «إنه دوري في الطبخ اليوم»، فيسكت، لأن من الضروري أن يكون أحدنا طاهياً جيداً ومسؤولاً.

كنت طاهياً ممتازاً، لكن تقديم الحساء كان صعباً في بادئ الأمر. فعندما بدأ المخيّم، لم تكن لدينا صحون أو أدوات مطبخ، وكان الطعام، وحتى الحساء، يُقدَّم فوق أكياس حبوب، أكياس متينة مصنوعة من البلاستيك المحاك، فيبقى الطعام فوق الكيس ولا يتسرب منه. وبعد عدة أشهر، أحضروا لنا أدوات مطبخ، وبعد عدّة أشهر، وزّعوا علينا صحوناً، صحن واحد من الألمنيوم لكلّ صبي. ولم يتناول أحد منّا طعام الفطور طوال فترة وجودنا في بينيدو، لكن بعد فترة، بدأنا نشرب الشاي في الصباح مع أن الشاي لم يكن يوزّع علينا. لذلك كان علينا أن نقايض بجزء من حصّة طعامنا مقابل الشاي والسكّر في البلدة. وعندما لا يوجد شيء يمكننا أن نقايض عليه مقابل السكّر، أو عندما لا يكون السكّر متوفراً في الدكاكين، فقد تعلّمنا كيف نتعقّب النحل وننتزع العسل من خلايا النحل.

في أحد الأيام، بينما كنت أطبخ، أسرع نحوي أحد جيراني، صبي مستدير الوجه يدعى غور. كان من الواضح أنه يحمل خبراً ما، لكنّنا لم نكن، أنا وهو، صديقين، وبدا أنه شعر بالاستياء عندما لم ير أحداً غيري، وكنت أنا المستمع الوحيد لما يحمله من أخبار.

- غزت الولايات المتحدة الكويت والعراق!

لم أكن أعرف ما هي الكويت أو العراق. كان غور صبياً ذكياً، لكنّي صُعقت بمعرفته بالشؤون العالمية. ظننت أننا كنّا نحصل على نفس التعليم في بينيدو، لكن على الرغم من ذلك، فقد كانت توجد فروقات يصعب تفسيرها.

- إنهم ينقذون الكويت من صدام حسين! لقد جلبوا خمسمائة ألف جندي لإستعادة الكويت. سيتخلّصون من حسين!

أخيراً، بعد أن تظاهرت بأنني فهمت ما قاله لبضع دقائق، ابتلعت كبريائي وطلبت منه أن يشرح لي أكثر. فقال إن صدام حسين هو دكتاتور العراق، ويزود الجيش السوداني بالأسلحة والطائرات، وكان صدام حسين يزود الخرطوم بالمال وبغاز الأعصاب، وقال إن طيارين عراقيين كانوا يقودون بعض طائرات الهليكوبتر التي قصفت قرانا.

- إذن هذا شيء جيد، سألته، - أن تحاربه الولايات المتّحدة؟

- نعم! نعم! قال غور. - هذا يعني أنّ الأمريكيين سيحاربون الخرطوم قريباً أيضاً. هذا يعني أنّهم سيتخلصون من جميع الطغاة المسلمين في العالم. بالتأكيد هذا ما يعنيه. أؤكد لك. لقد تكلّم الله من خلال الأمريكان، يا أتشاك.

ثم جرى بحثاً عن عدد أكبر من الصبية ليخبرهم.

سادت تلك النظرية لفترة من الوقت، بأن الحرب في العراق والكويت ستؤدي حتماً إلى إسقاط المتعصبين الإسلاميين في السودان، لكن ذلك لم يحدث. ولم تكن ثروات جيش التحرير واعدة في تلك السنة، وخسر أراض كثيرة وقتل عدد كبير من المتمردين.

في الساعة العاشرة من صباح أحد الأيام، دُعينا إلى اجتماع. وأُغلقت المدرسة وخرجنا من قاعات الصفّ.

إلى الباحة! قال لنا المعلمون.

سألت أتشور أتشور عن سبب هذا الاجتماع، لكنه لم يكن يعرف. فسألت أحد الوجهاء فصرخ في وجهي وقال.

- اذهب إلى الساحة، وستستمتع بذلك.

- هل علينا أن نعمل بعد ظهر اليوم؟

- لا. بعد ظهر اليوم مخصص للتعليم.

اتجهنا أنا وأتشور أتشور إلى الباحة، مزاجنا مبتهج. فهل يوجد شيء أفضل من عدم العمل بعد الظهر، وجلسنا في الصفّ الأمامي بين مجموعات الصبية التي كانت تتزايد باستمرار. فقد جاء إلى المخيم في ذلك الأسبوع أحد قادة

جيش التحرير يدعى جير تشوانغ، وقد ظننّا أننا دعينا للاجتماع من أجل تكريمه والاحتفاء به.

كان القائد سرّ موجوداً هناك، والقائد الإبزيم الأزرق والسيد احتمال الطعام والسّيد كونديت وجميع المسؤولين في المخيّم. بحثت عن دوت، لكني لم أجده. كان وجوده في المخيّم متقطعاً منذ عدّة أشهر، وقد اختلق الصبية الذين كانوا يرافقونه نظريات عنه: بأنّه أصبح الآن قائداً في جيش التحرير، وأنّه يدرس في الجامعة في أديس أبابا. وفي جميع الأحوال، فقد اشتقنا إليه، كلّنا، في ذلك اليوم. تطلّعت حولي ورأيت أنّ معظم الصبية المتجمعين في عمري تقريباً، بين السادسة والثانية عشرة، وكان بيننا بضعة صبية يكبروننا في السن. كان جميع الصبية يبتسمون ابتسامة عريضة ويضحكون، وبعد قليل بدأوا ينشدون. وقف دينغ بانان، أشهر مغن يغني الأغاني الوطنية في صفوف المتمردين، أمامنا يحمل الميكروفون. وبدأ يغنّي عن الله وعن الإيمان، عن قدرة السودانيين الجنوبيين على التحمل ومعاناتهم على يد العرب. وانطلق هتاف عندما بدأ يغني الكلمات التي كتبها أحد الصبية في بينيدو.

سنناضل لتحرير أرض السودان

سنحررها بالكلاشينكوف

ستأتي كتائب الجيش الأحمر

ستأتي!

تحمل سلاحاً في اليد اليسرى

وأقلاماً في اليد اليمنى

لنحرر وطننا، أوه، أوه..

في هذه الأثناء سار صفّ مؤلف من خمسة عشر جندياً في الساحة، واصطفوا في خط مستقيم، كتفاً لكتف، أمامنا مباشرة. ثم، دُفع صفّ من الرجال في ثياب رثة ومقيدين معاً بالحبل، إلى الساحة. سبعة رجال، كان يبدو أنهم كلّهم يعانون من سوء تغذية، بعضهم ينزف دماً من جروح في رؤوسهم وأقدامهم.

- من هؤلاء؟ همس أتشور أتشور.

لم أكن أعرف. ركعوا الآن في صفّ واحد أمامنا، ولم يكن هؤلاء الرجال يغنّون. ووقف جنود جيش التحرير في بدلاتهم العسكرية النظيفة وراءهم، يحملون بنادق الكلاشينكوف. وكان هناك رجل، أحد الرجال المقيدين مع الآخرين، يجلس أمامي مباشرة. وبسرعة لفتُّ انتباهه، فراح يحدّق فيّ بنظرة مليئة بالغضب.

عندما أنهى دنغ بانان أغنيته، أخذ جير تشوانغ الميكروفون.

- أيها الفتيان، أنتم مستقبل السودان! لهذا السبب فإننا نطلق عليكم البذور. فأنتم بذور السودان الجديد.

هتف الصبية حولي. ظللت أحدّق بالرجال المقيدين.

- سرعان ما ستصبح السودان لكم! صاح جير تشوانغ. فهتف الصبية أكثر.

تكلّم القائد عن قدرتنا على إعادة بناء بلدنا الحبيب عندما تنتهي الحرب، وأنّنا سنعود إلى سودان مدمّر، لكننا ننتظر البذور - وأن أيدينا وظهورنا وعقولنا فقط هي التي ستعيد بناء جنوب السودان. فهتفنا مرة أخرى.

- لكن حتى يسود السلام في السودان، يجب أن نكون يقظين. لا يمكننا أن نقبل الضعف في داخل صفوفنا، ولا نستطيع أن نقبل خيانة من أيّ نوع. هل توافقون؟

هززنا رؤوسنا كلّنا.

- هل توافقون؟ كرّر القائد. فقلنا نعم نوافق.

- هؤلاء الرجال خونة! إنهم منحرفون!

نظرنا الآن إلى الرجال. كانوا يرتدون ثياباً رثة.

- إنهم مغتصبون!

بدا أن جير تشوانغ كان يتوقّع ردّ فعل منّا، لكنّنا ظللنا صامتين. لقد فقدنا الخيط. كنّا في سن صغيرة جداً لنعرف ما هو الاغتصاب، ومدى شناعة هذه الجريمة.

- وقد أعطوا أيضاً أسرار جيش التحرير إلى حكومة السودان، وكشفوا عن خطط جيش التحرير إلى الخواجات في بينيدو. لقد عرّضوا الحركة للخطر، وحاولوا أن يخرّبوا كلّ ما حققناه معاً. السودان الجديد الذي سترثونه أنتم - لقد بصقوا عليه! وإذا تركناهم يفعلون ذلك، فإنهم سيسمّمون كلّ ما لدينا. إذا منحناهم الفرصة، فإنهم سيتعاونون مع الحكومة حتى نصبح كلّنا مسلمين، حتى نطلب الرحمة تحت حذاء العرب وشريعتهم! هل يمكننا أن نتركهم يفعلون ذلك، أيها الفتيان؟

صحنا لا. شعرت بأنه لا بد من معاقبة الرجال على هذه الخيانات. كرهت هؤلاء الرجال. ثمّ حدث شيء غير متوقّع. فقد تكلّم أحد الرجال.

- لم نفعل شيئاً! لم نغتصب أحداً! هذه ذريعة!

تلقى الرجل الذي أبدى احتجاجاً ضربة على رأسه بعقب بندقية، فوقع على صدره. متشجّعين من زميلهم، بدأ السجناء الآخرون يقولون.

- إنهم يكذبون عليكم! صاح أحد السجناء الضامرين. - كلّها أكاذيب! فضُرب هذا الرجل أيضا بعقب بندقية.

- جيش التحرير الشعبي السوداني يأكل نفسه بنفسه!

رُكل هذا الرجل في مؤخرة رقبته وسقط فوق التراب.

بدا جير تشوانغ متفاجئاً من ذلك، لكنه رآها فرصة.

- هؤلاء الرجال يكذبون عليكم، يا بذور السودان الجديد! إنهم لا يخجلون. إنهم يكذبون علينا، يكذبون علينا جميعاً. هل يمكننا أن ندعهم يكذبون علينا؟ هل يمكننا أن ندعهم ينظرون في عيوننا ويهدّدون مستقبل أمتنا الجديد بخيانتهم؟

- لا! صرخنا.

- هل يمكننا أن ندع هذه الخيانة تمرّ من دون عقاب؟

- لا! صرخنا.

- جيد. أنا سعيد بأنك موافقون.

وبذلك، تقدّم الجنود، إثنان خلف كلّ رجل من الرجال المقيدين. ووجهوا بنادقهم إلى رأس وصدر كلّ واحد منهم، وأطلقوا النار. فاخترقت الطلقات أجساد الرجال وصعد تراب من الأرض.

صرخت. صرخ ألف صبي. لقد قتلوا كلّ هؤلاء الرجال.

لكن أحدهم لم يمت. فقد أشار القائد إلى سجين كان لا يزال يركل برجليه ويتنفّس. فتقدّم منه جندي وأطلق عليه النار ثانية، هذه المرة في وجهه.

حاولنا أن نركض. لكن المعلمين منعوا الصبية القلائل الأوائل الذين حاولوا مغادرة الساحة ورموهم على الأرض وأخذوا يضربونهم بعصيهم وخيزراناتهم. فوقفنا نحن بقية الصبية، وخفنا أن نتحرّك، لكن البكاء لم يتوقّف. فقد بكينا من أجل الأمهات والآباء الذين لم نرهم منذ سنوات، حتى أولئك الذين كنّا نعرف أنهم ماتوا. أردنا أن نعود إلى بيوتنا. أردنا أن نجري من باحة الاستعراض، من بينيدو.

أنهى القائد الاجتماع فجأة.

- شكراً لكم. نراكم في مرة قادمة، قال.

بدأ الصبية الآن يركضون في جميع الاتّجاهات. تعلّق بعضهم بأقرب شخص كبير لهم وراحوا يرتجفون ويبكون. واستلقى بعضهم في الأماكن التي كانوا واقفين فيها، مكورين على أنفسهم وينشجون. استدرت، تقيّأت، وهربت، أبصق وأنا أجري إلى بيت السيد كونديت الذي وجدته جالساً داخل البيت، على سريره، يحدّق في السقف. لم أره قط شاحباً هكذا. كان جالساً لا يأتي بحركة، يداه مرخيتان فوق ركبتيه.

- أنا متعب جداً، قال.

جلست على الأرض تحته.

- لا أعرف لماذا بقيت هنا، قال. أصبحت الأشياء تبدو مشوّشة للغاية.

لم أر قط السيد كونديت يعبّر عن شكوكه مهما كانت.

- لا أعرف إن كنا سنجد طريقة للخروج من هنا يا أتشاك. ليس بهذه الطريقة. ليس هذا أفضل شيء يمكننا أن نفعله. إننا لا نبذل أفضل ما بوسعنا. جلسنا

حتى حلّ المساء ثم ذهبت إلى البيت الذي يقيم فيه الأحد عشر صبياً الذين قلّ عددهم الآن. فقد أصبحنا تسعة الآن لأن صبيّين اثنين غادرا بعد ظهر ذلك اليوم ولم يعودا.

بعد ذلك اليوم، لم يعد الكثير من الصبية يحضرون الإجتماعات، مهما كان الهدف المعلن لذلك الاجتماع. وبدأوا يختبئون في ملاجئهم، ويتمارضون. كانوا يذهبون إلى العيادة، يركضون إلى النهر. كانوا يتذرعون بأيّ سبب كي لا يحضروا تلك الاجتماعات، وبما أنه لم يكن بالإمكان إحصاء عدد الصبية الحاضرين، فقلما كانوا يعاقبون.

وكثرت القصص بعد تلك الإعدامات. فقد اتُّهم الرجال بجرائم مختلفة، لكن أولئك الذين اتُّهموا بالاغتصاب، وبحسب الهمسات التي كان يتم تناقلها في المخيم، فقد كانوا أبرياء. فقد هرب أحدهم مع امرأة كان يشتهيها ضابط كبير في جيش التحرير، فاتّهم العريس بأنه اغتصب المرأة، وتواطأت أمّ المرأة التي لم تكن موافقة على الزواج من ذلك الرجل مع المتّهمين، وادّعت بأن أصدقاء العريس اغتصبوها هي أيضاً. كانت القضية مكتملة، فأُدين الرجال، وكان كلّ ما تبقى هو إعدامهم أمام عشرة آلاف مراهق.

كنتُ قد اقتربتُ كثيراً من السنّ الذي يجعلهم يرسلونني إلى التدريب، يا جوليان، لكني أُنقذت من ذلك المصير عندما أُرغمنا على الخروج من بينيدو، نحن الأربعون ألف لاجئ، على يد القوات الأثيوبية التي أطاحت بالرئيس مينجيستو. وكما علمت لاحقاً، فقد كان يُعدّ لهذا الأمر منذ حين، وسيجرّ ذلك مشاكل على إثيوبيا لسنوات قادمة. لكنّه بدأ بتحالف بين الجماعات المتباينة في إثيوبيا، بمساعدة انفصاليين إرتيريين. فقد كان المتمردون الأثيوبيون بحاجة إلى مساعدة الإرتيريين، والعكس بالعكس. وفي المقابل، فقد وعد الإرتيريون بالاستقلال إذا نجح الانقلاب. وبالفعل نجح الانقلاب، لكن الأمور تعقّدت فيما بعد بالنسبة للدولتين.

كنت خارجاً من الكنيسة عندما وصل الخبر. كانت كنيستي قريبة من القسم الذي يقيم فيه عمال الإغاثة الأثيوبيين، وعندما انتهى القداس رأيناهم يبكون، نساء ورجالاً.

- لقد أُطيح بالحكومة. ذهب مينجيستو، قالوا وهم يبكون.

وطلبوا منّا جميعاً أن نجمع أي شيء يمكننا أن نجمعه وأن نستعدّ للمغادرة. عندما وصلتُ إلى ملجئنا، كان فارغاً للتو، وكان التسعة قد غادروا قبلي، وكتبوا لي رسالة تقول: نراك عند النهر - التسعة. حشوت ما استطعتِ من

الطعام الذي كنت قد خزنته وبطانياتي في كيس ذرة صفراء. وفي أقل من ساعة، كان جميع الصبية والعائلات والمتمردين يتجمعون في الحقل، استعداداً لمغادرة بينيدو. وغطّى جميع لاجئي المخيم المشهد الطبيعي، فقد كان بعضهم يجري، وظل بعضهم هادئاً كما لو كانوا سينتقلون إلى القرية التالية، ثمّ انفتحت أبواب السماء.

هطلت أمطار غزيرة. كانت الخطة تتمثل في عبور نهر جيلو والاجتماع مجدّداً في الجانب الآخر، ربما في بوتشالا. عندما أصبحنا في الماء، تبيّن أن المجموعات لم تكن منظّمة جيداً. فقد جرف المطر، الفوضى الرمادية التي أحدثها، أيّ نظام في عملية إخلائنا. وفي النهر لم أعثر على الصبية التسعة، وإنما رأيت بضعة أشخاص أعرفهم. ومن بعيد، رأيت القائد إبزيم الحزام، يستقلّ سيارة جيب، يحمل بيده ميكروفوناً معطوباً، يصيح من خلاله أوامر غير مسموعة. كانت المنطقة القريبة من النهر مليئة بالمستنقعات، وكان الصبية مبللين بالماء، يخوضون في ذلك الماء الثقيل. وعندما وصلنا، كان النهر عالياً ويتحرّك بسرعة. وكانت الأشجار والحطام تجري مع التيار.

بدت الطلقات الأولى صغيرة وبعيدة. استدرت لأتتبع الصوت. لم أر شيئاً، لكن إطلاق النار استمرّ وأصبح أعلى. كان المهاجمون قريبين. تضاعفت الأصوات، وسُمعت الصيحات الأولى. بصقت امرأة دماً من فمها في النهر قبل أن تسقط ميته في الماء. أصيبت بطلقة من مهاجم غير مرئي، وسرعان ما جرفها التيار نحو مجموعتي. بدأ الرعب يدبّ فينا الآن. وراح عشرات الآلاف منّا يندفعون عبر مياه النهر الضحلة، الكثيرون غير قادرين على السباحة. كان البقاء على الضفة يعني موتاً محتماً، لكن القفز إلى ذلك النهر، الهائج والمندفع بقوة، كان بمثابة جنون.

كان الإثيوبيون يهاجموننا، تساندهم مجموعات إيرتيرية، وكان الأنياك يقومون بواجبهم أيضاً. فقد كانوا يريدون أن نخرج من بلدهم، وبدأوا ينتقمون للألف جريمة وإهانة التي تعرضوا لها. وكان أفراد جيش التحرير يحاولون أن يغادروا بسيارات الجيب والدبابات مع الكميات الضخمة من الإمدادات التي كان الإثيوبيون ربما يعتبرونها ملكاً لهم، لذلك كان لديهم سبب لطرد المتمردين وطردنا معهم. ثم انشقّت السماء بسيل من الطلقات ونيران المدافع، فاندفع الجميع وبدأ الموت.

تردّدت طويلاً في المياه الضحلة، المياه التي وصلت إلى بطني. وكان جميع من هم حولي يقررون بسرعة: إما القفز إلى النهر أو الجري نحوه، أو البحث عن بقعة أضيق، أو قارب، أو أي حلّ.

- فقط اعبر النهر. فعندما نعبره، نصبح في أمان.

التفتُ. كان دوت. مرة أخرى أصبحت تحت قيادة دوت.

- لكنّي لا أعرف السباحة، قلت.

- إبق بجانبي. سأسحبك معي.

وجدنا جزءاً ضيّقاً من النهر.

- انظر!

أشرت إلى الماء حيث كان تمساحان يستلقيان على الشاطئ.

- لا يوجد وقت للقلق، قال دوت. صرخت. لقد أصبت بالشلل.

- لم يأكلوك المرّة الماضية، تذكّر؟ ربّما لا يحبّون الدينكا.

- لا أستطيع!

- اقفز! ابدأ بالسباحة. سأكون خلفك تماماً.

- وماذا عن الكيس الذي معي؟

- الق به. لا تستطيع أن تحمله.

رميت الكيس، كلّ ما أملكه، وقفزت إلى الماء. رحت أجدّف بيدي ورأسي فوق الماء. كان دوت بجانبي. - جيد، همس. - جيد. استمرّ.

عندما تحرّكت عبر الماء، شعرت بأن التيار يجرفني. رحت أراقب التمساحين، مثبتّاً عينيَّ عليهما. لم يتحركا. واصلت التجديف بيدي. حدث انفجار كبير خلفي. استدرت ورأيت الجنود، يجثون بين الأعشاب على ضفّة النهر، يطلقون النار علينا كلما مررنا من أمامهم. وفي كل مكان، كنت أرى رؤوس الصبية في النهر، وحولهم بياض الماء، والحطام، وانهمار المطر والرصاص. كانت جميع الرؤوس تحاول أن تتحرّك عبر النهر بينما يخفون أجسامهم تحت السطح. تعالت الصيحات في كل مكان. رحت أجدّف بيدي وأركل برجلي. نظرت مرة أخرى إلى البقعة على ضفّة النهر حيث رأيت التمساحين آخر مرة. كانا قد اختفيا.

- التماسيح!

- نعم. يجب أن نسبح بسرعة. هيا. يوجد عدد كبير منّا. اسبح يا أتشاك، فقط استمرّ بتحريك يديك.

انطلقت صيحة من مكان قريب جداً. استدرت فرأيت صبياً بين فكي تمساح. اصطبغ النهر بلون أحمر واختفى وجه الصبي.

- استمرّ. إنه مشغول الآن، فلن يأكلك.

أصبحنا الآن في منتصف النهر، وسمعت أذناي هسيساً تحت الماء وأصوات الطلقات وقذائف الهاون تتكسّر في الهواء. وكلما هبطت أذناي تحت سطح الماء، غمر رأسي صوت الهسيس، كأن صوت التماسيح يقترب مني. حاولت أن أُبقي أذني فوق سطح الماء، لكني كلما رفعت رأسي عالياً، كان يخيّل لي أن طلقة ستخترق جمجمتي من الخلف، فأخفضه إلى النهر ثانية، لأسمع صوت الهسيس تحت الماء.

كان الصراخ الهيستيري ينبعث من ضفّة النهر الأخرى. التفتُ ورأيت رجلاً من الدينكا يحمل بندقية يصرخ في النهر. - اسحبني! صرخ. - اسحبني! كان بجانبه رجل في النهر، يسبح. ثم غاص رجل آخر في الماء وبدأ يسبح. الآن بدأ الرجل المسلّح يصرخ في الرجلين اللذين يسبحان. - لا أستطيع أن أسبح! اسحبني! ساعدني! استمر الرجلان يسبحان. لم يريدا الانتظار ليساعدا الرجل المسلّح. ثم وجّه الرجل المسلّح بندقيته إلى الرجلين السابحين وبدأ يطلق النار. لم يكن ذلك يبعد أكثر من خمسين قدماً عن المكان الذي كنت أسبح فيه. قتل الرجل المسلّح أحد الرجلين اللذين كانا يسبحان قبل أن ينفجر كتفاه ويتدفق منهما دم أحمر؛ لقد قُتل بطلقات إثيوبية. وسقط ذلك الرجل هناك، على جانبه، وغاص رأسه في طين ضفّة النهر.

الحظّ فقط هو الذي جعلني أجتاز ذلك النهر في ذلك اليوم. التقت قدماي بالأرض وارتميت على ضفّة النهر. في تلك اللحظة، انفجرت قذيفة هاون أمامي على مسافة عشرين قدماً. لم أر أي إشارة تدل على وجود دوت.

- اركض إلى العشب!

من يقول لي ذلك؟

- تعال الآن!

تسلّقت ضفّة النهر وأمسك رجل بذراعي. مرة أخرى كان دوت. رفعني وألقى بي على العشب بجانبه. استلقينا كلانا على بطننا فوق العشب، ننظر خلفنا عبر النهر.

- لا نستطيع أن نتحرّك هنا، قال. - سيروننا وسيطلقون النار علينا. إنهم يقصفون الآن المنطقة خلف النهر، لذلك فإننا أكثر أماناً هنا.

استلقينا على بطننا لمدة ثلاثين دقيقة بينما بدأ الآخرون يصعدون فوق الضفة ويجرون بسرعة. ومن ضفّة النهر العالية، كان بإمكاننا أن نرى كلّ شيء، وكان بإمكاننا أن نرى إلى مسافة بعيدة.

- أغمض عينيك، قال دوت.

قلت إنني سأغمضهما، ودفعت وجهي في التراب، لكني شاهدت سرّاً المذبحة في الأسفل. كان آلاف الصبية والرجال والنساء والأطفال الرضّع يعبرون النهر، وكان جنود يقتلونهم عشوائياً وأحياناً بدقة شديدة. وكانت حفنة من جنود جيش التحرير يقاتلون من جانبنا على ضفة النهر، لكن معظمهم هربوا، وتركوا المدنيين السودانيين وحدهم من دون أي حماية. ثم بدأ الأثيوبيون ينتقون أهدافهم التي كان معظمها أشخاصاً مدنيين غير مسلّحين. وفي غمرة هذه الفوضى انضم الأنياك إلى الجيش الأثيوبي في حربهم ضدّنا. وانطلقت مشاعر العداء المكبوتة التي يكنّها لنا الأنياك في ذلك اليوم، فطردوا السودانيين من أراضيهم بالمناجل والبنادق القليلة التي بحوزتهم، وقطّعوا وأطلقوا النار على الذين كانوا يجرون نحو النهر، وأطلقوا النار على الذين يتعثرون ويخوضون عبر الماء. وكانت القذائف تنفجر، ترسل سحباً بيضاء على ارتفاع عشرين قدماً في الهواء. وألقت النساء أطفالهن الرضّع في النهر، وغرق الصبية الذين لم يتمكنوا من السباحة. وما إن كانت تتحرّك امرأة هاربة للحظة واحدة، حتى ينصب عليها وابل من الرصاص أو تأتيها قذيفة هاون، فتهمد ويجرفها التيار. ثمّ التهمت التماسيح بعض الذين قُتلوا. وأصبح النهر يجري بألوان عديدة في ذلك اليوم، أخضر وأبيض وأسود وبني وأحمر.

عندما خيّم الظلام غادرت أنا ودوت ضفّة النهر. لم نكن قد ركضنا بعيداً عندما وقع أغرب شيء: فقد رأيت أتشور أتشور. كان يقف هناك، ينظر يمنة ويسرة، غير متأكد إلى أين سيذهب في منتصف الدرب. كدت أنا ودوت أن نصطدم به.

- جيد، قال دوت. - لقد وجد أحدكما الآخر. سأراكما في بوتشالا.

عاد دوت إلى النهر، يبحث عن المصابين والمفقودين. كانت تلك آخر مرة نرى فيها دوت ماجوك.

- إلى أين نذهب؟ سألت.

- كيف لي أن أعرف؟ قال أتشور أتشور.

لم يكن أمامنا اتّجاه واضح نذهب منه. كانت الأعشاب لا تزال عالية، وكنت أخشى الأسود والضباع المختبئة فيها. وسرعان ما وجدنا صبيين آخرين، أكبر منّا ببضع سنوات. كانا يبدوان صبيين قويين، لم يكن أي واحد منهما ينزف.

- إلى أين أنتما ذاهبان؟ سألتهما.

- إلى بوتشالا، قالا. - حيث ذهب الجميع الآن. سنتوقّف في بوتشالا ثم سنرى إلى أين سنذهب.

ذهبنا معهما، مع أنّنا لم نكن نعرف اسميهما. رحنا نجري نحن الأربعة، وشعرنا أنا وأتشور أتشور بأنهما صبيّان طيبان لمرافقتهما. كانا سريعين وحاسمين. سرنا عبر الليل، عبر الأعشاب الرطبة، وشممنا رائحة دخان النيران في السماء. كانت الريح قوية وألقت الدخان علينا، والأعشاب من حولنا بعنف. اعتراني شعور بأنني أستطيع أن أركض هكذا دائماً، وأنه يجب ألاّ أتوقف عن ركض، وأنّني سأكون قادراً على أن أركض دون توقف. لم أشعر بالتعب، وبدا أن عيني تستطيعان أن تريا كل شيء في الليل. شعرت بالأمان مع هذين الصبيين.

- تعالوا إلى هنا! قالت لنا امرأة. نظرت لأبحث عن مصدر الصوت. استدرت لأرى امرأة أثيوبية ترتدي بدلة جندي. - تعالوا إلى هنا وسأدلكم على الطريق إلى بوتشالا! قالت. بدأ الصبيان الآخران يسيران نحوها.

- لا! قلت. أنظرا ماذا ترتدي!

- لا تخافوا مني، قالت. - أنا مجرد امرأة! أنا أمّ أحاول أن أساعدكم يا أولاد. تعالوا لعندي، يا أطفال! أنا أمّكم! تعالوا إليّ!

جرى الصبيّان الآخران نحوها. وبقي أتشور أتشور معي. وعندما أصبحا على مسافة عشرين قدماً منها، استدارت المرأة، رفعت بندقية من بين الأعشاب، وبعينيها اللتين يملؤهما البياض، أطلقت النار على الفتى الأطول قامة

وأصابته في قلبه. رأيت الرصاصة تخرج من ظهره. فجثا جسده ثم سقط على جانبه، رأسه يسبق كتفيه.

قبل أن يتمكن أي واحد منا من أن يركض، أطلقت المرأة علينا النار ثانية فأصابت ذراع الصبي القوي الآخر. قوة الطلقة جعلته يدور، ثم يسقط. عندما نهض ليركض، اخترقت طلقة أخيرة عظم ترقوته وخرجت من عظم صدره، أرسلت الصبي بسرعة إلى السماء.

- اركض!

كان أتشور أتشور قد بدأ يجري أمامي. لم أتحرّك من مكاني. كنت لا أزال متسمّراً من المرأة التي صوّبت بندقيتها نحوي الآن.

-اركض! قال مرة أخرى، هذه المرة ممسكاً بقميصي من الخلف. ركضنا مبتعدين عنها، وغصنا في العشب ثم رحنا نزحف مبتعدين عن المرأة التي كانت لا تزال تصيح بنا. - ارجعا! قالت. - أنا أمّكما، ارجعا يا طفليْ!

في كل مكان كنا نجري فيه أنا وأتشور أتشور، كان الناس يجرون بعيداً عنّا. لم تكن هناك ثقة في الظلام. لم يكن أحد ينتظر أحداً ليتبين من هو. وعندما اشتد الظلام في الليل، توقّف الرصاص. ظننا أنّ الأثيوبيين لن يلحقوا بنا إلى بوتشالا - وأنّهم كانوا يطردون السودانيين فقط من بلدهم.

- انظرا، قال أتشور أتشور.

وأشار إلى نصليْ عشبتين كبيرتين، مربوطتين معاً عبر الدرب.

- ماذا يعني هذا؟

- يعني ألاّ نذهب من ذلك الطريق. ثمة أحد يحذرنا بأن الدرب غير آمن.

وكلما رأينا الدرب مسدوداً بأنصال عشب مربوطة، كنّا نغيّر اتجاهنا. ثم هبط السكون على الليل، وسرعان ما اسودّت السماء. مشينا أنا وأتشور أتشور لساعات، وبما أننا تفادينا دروباً كثيرة، فقد ظننا أنّنا نسير في دوائر. وأخيراً صادفنا درباً عريضاً، فيه آثار، قديمة وجافة، سيارة أو شاحنة. كان الدرب مفتوحاً وكان أتشور أتشور متأكّداً من أنه سيوصلنا إلى بوتشالا.

سرنا طوال ساعة. كانت الريح شديدة ودافئة، عندما سمعنا صوت حيوان. لم يكن هذا صوت شخص بالغ - فقد سمعنا أصواتاً كثيرة كهذه على الطريق، أنين وصوت محاولة تقيؤ - هذا صوت طفل رضيع، ينوح بصوت خفيض. كان يخيفني أن أسمع صوت طفل رضيع يصدر صوتاً كهذا. صوت أجشّ يخرج من الحلق ويختنق، صوت يشبه صوت مواء قطة تموت. وسرعان ما وجدنا طفلاً رضيعاً، ربما لا يزيد عمره على ستّة أشهر، مستلقياً إلى جانب أمّه المستلقية على الدرب، ميتة. حاول الطفل أن يرضع من ثدي أمّه للحظة قبل أن يستسلم، يبكي، يداه الصغيرتان مثل قبضتين.

كانت أمّ الرضيع قد أصيبت بطلقة في الخصر. في النهر، ربما، اخترقتها الرصاصة، وقد زحفت كلّ هذه المسافة قبل أن تنهار. كانت هناك آثار دم على طول الدرب.

- يجب أن نأخذ هذا الطفل، قال أتشور أتشور.

- ماذا؟ لا، قلت. الطفل سيبكي وسيُكشف أمرنا.

- علينا أن نأخذ هذا الطفل، كرر أتشور أتشور، وأقعى ليحمل الطفل العاري. أخذ تنورة أمّ الطفل ولفّها حوله. - لا يمكننا أن نترك هذا الطفل هنا.

عندما لفّ أتشور أتشور الطفل وحمله بالقرب من صدره، هدأ.

- انظر، إنه طفل هادئ، قال.

مشينا مع الطفل الهادئ لفترة من الوقت. قلت في نفسي إن هذا الطفل محكوم عليه بالموت.

- أيّ طفل يرضع من شخص ميت سيموت، قلت.

- أنت أحمق، قال أتشور أتشور. - هذا هراء. الطفل الهادئ سيعيش.

تناوبنا على حمل الطفل الهادئ الذي انبعثت منه بضعة أصوات في أثناء سيرنا. حتى اليوم لا أعرف إن كان ذكراً أم أنثى، لكني أظن أنها بنت. ضممتها إليّ، رأسها الدافئ بين كتفي وذقني. جرينا عبر نيران صغيرة وفترات طويلة من الصمت المظلم. وطوال الوقت كنت أحمل الطفل الهادئ على صدري أو على كتفي، لا يصدر صوتاً، عيناه مفتوحتان.

في منتصف الليل، وجدنا أنا وأتشور أتشور مجموعة من الأشخاص يجلسون بين الأعشاب بجانب الدرب. كانوا اثني عشر شخصاً، معظمهم من النساء والرجال المسنين. قلنا للنساء بأننا وجدنا هذا الطفل الهادئ، فعرضت امرأة تنزف من رقبتها بأن تأخذ الطفل.

- لا تقلقي من أجل هذا الطفل، قلت.

- إنه طفل هادئ، قال أتشور أتشور.

رفعت الطفل من فوق كتفي، ففتح عينيه. أخذته المرأة وظل الطفل هادئاً. وتابعنا أنا وأتشور أتشور سيرنا.

وجدنا أنا وأتشور أتشور مجموعة كبيرة من الرجال والفتيان، يرتاحون على الطريق، ثم سرنا معهم إلى بوتشالا. عندما وصلنا، رأينا الذين هربوا من بينيدو ونجوا بحياتهم. ثمانية من التسعة نجوا، كما علمنا. كان شاهدان متأكّدين من أن أكوك كووانين قد غرق.

حاولنا أن نجعل هذه المعلومات حقيقية في قلوبنا لكن كان ذلك مستحيلاً. فرحنا نتصرّف كما لو أنه لم يمت. وقررنا أن نحزن عليه لاحقاً.

كان آلاف السودانيين جالسين متناثرين في الحقول التي تحيط بمهبط طائرات مهجور. تخترت أنا وأتشور أتشور بقعة مكسوة بالأعشاب الطويلة تحت الأشجار. سطّحنا الأعشاب لننام فوقها. ما إن فعلنا ذلك حتى بدأ المطر ينهمر. لم تكن لدينا ناموسية، لكن أتشور أتشور عثر على بطانية، فاستلقى أحدنا بجانب الآخر، وتقاسمناها كأخين.

- هل يلسعك البعوض؟ سألته.

- طبعاً، قال أتشور أتشور.

طوال اللّيل كان أحدنا يسحب البطانية، نشدّها من بعضنا بعضاً، ولم يغمض لأحد منا جفن، فالنوم يغدو مستحيلاً عندما يكون البعوض جائعاً.

- توقّف عن سحبها! همس أتشور أتشور.

- أنا لا أسحبها، قلت مصراً.

كنت أسحبها، يجب أن أعترف، لكنّي كنت متعباً جداً لأعرف ماذا أفعل.

في الليل، سألنا الأشخاص الآخرين إن كانت توجد لديهم أكياس سيزال، فأعطوا كلّ واحد منّا كيساً. نسجنا الكيسين معاً وصنعنا منهما ناموسية كبيرة تكفينا كلينا. ثم ربطناها بالبطانية وبدا أنها كافية. كنّا فخورين بها وتطلّعنا للنوم تحتها. واتفقنا على ألاّ نتبوّل بجانب العشب الذي سويّناه، كي لا يجذب البعوض.

لكن سرعان ما أمطرت السماء وتبين لنا أن ما فعلناه لم يكن كافياً. فتسرّب الماء من الشبكة، فانتصبنا في جلستنا، ورفعنا الشبكة إلى أعلى، فاندفع البعوض إلى داخلها. فأمضينا الليلة مستيقظين، مبلّلين نحارب الحشرات بكلتا يدينا، حتى أصابنا الارهاق وامتص البعوض دمنا من كل بقعة من جسمنا.

المطر هو الذي قتل الكثير من الصبية. فقد أضعفنا المطر وجلب الحشرات، والحشرات جلبت الملاريا. لقد جعلنا المطر ضعفاء. إن ما فعله بنا كان أشبه بما كان يفعله بالأبقار التي كنّا نصنعها من الطين - المطر الذي لم يكن يتوقف عن الهطول، فيرتخي الطين ثم ينهار، وبعد قليل، لا يعود الطين بقراً، بل يتفتت ويتكسّر. وقد فعل المطر ذلك بأهل بوتشالا الذين يعانون، خاصة الصبية الذين لا توجد لديهم أمهات: فقد تكسّروا تحت قوة المطر، وذابوا في التراب.

في الصباح، استلقينا أنا وأتشور أتشور على بطننا، نراقب الناس الذين جاؤوا إلى بوتشالا والناس الذين كانوا لا يزالون يأتون إليها. ظلوا يتدفقون طوال اليوم، منذ بزوغ أول ضوء حتى غروب آخر ضوء. كنا نرى الحقل وهو يتلاشى والأشجار تختفي وراء الكتل البشرية التي تحتشد هناك.

- هل تظن أن دوت هنا؟ سألني أتشور أتشور.

- لا أظن ذلك، قلت.

كان يبدو لي أنّ دوت في مكان قريب، وأننا نعرف ذلك. كان عليّ أن أعتقد بأنّ دوت حيّ يرزق ويقود مجموعات أخرى من الصبية إلى بر الأمان. كنت أعرف أنّ بوتشالا لم تكن المكان الوحيد الذي يتوجه إليه الناس، وإذا كان الناس يسافرون في الليل، فلا بد أن دوت كان يقودهم.

- هل تظن أن الطفل الهادئ هنا؟ سألني أتشور أتشور.

- أظن ذلك، قلت. - أو ربما في مكان قريب.

بحثنا عن الطفل الهادئ في ذلك اليوم، لكن جميع الأطفال الرضّع الذين رأيناهم كانوا يصرخون. وكانت أمهاتهم يعتنين بهم وبجروحهم. كان المصابون في كل مكان. لكن المصابين بجروح طفيفة فقط هم الذين تمكّنوا من الوصول إلى بوتشالا. فقد مات الآلاف عند نهر جيلو ومات مئات أكثر على الطريق إلى بوتشالا. لم تكن هناك أي طريقة لمساعدتهم.

- لقد سئمت من رؤية هؤلاء الناس، قال أتشور أتشور.

- أيّ ناس؟

- الدينكا، كلّ هؤلاء الناس، قال، مومئاً بذقنه نحوهم.

بالقرب منّا، كانت هناك أمّ ترضع طفلها وتمسك طفلاً آخر بين قدميها. كانت الأمّ فقط هي التي ترتدي ثياباً. ثلاثة أطفال صغار آخرون يجلسون في مكان قريب، يصرخون. بدت ذراع أحدهم مثل وجه الرجل الذي لا وجه له الذي صادفته عندما هربت من مايال باي.

- لا أريد دائماً أن أكون هؤلاء الناس، قال أتشور أتشور.

- لا، قلت، موافقاً.

- حقاً لا أريد لأن أكون واحداً من هؤلاء الناس، قال. - ليس إلى الأبد.

نفس الأشخاص الذين غادروا بينيدو أعادوا تنظيم أنفسهم في بوتشالا. وفقد معظمهم كلّ ما بحوزتهم على الطريق. كان المخيم مليئاً بالفوضى التعسة من البلاستيك، والنيران الصغيرة، والبطانيات، والألبسة الوسخة. لم يكن هناك طعام. ثلاثون ألف شخص يبحثون عن الطعام في حقل تتصارع فيه بضعة كلاب على الأكل.

انضممت أنا وأتشور أتشور إلى صبيين آخرين من شمال بحر الغزال وتجولنا في الغابة القريبة نبحث عن عصي وأعشاب. وبنينا كوخاً في شكل A مغطى بسقف من الأعشاب وجدرانه من طين، وأمضينا معظم وقتنا فيه، وأشعلنا ناراً دائمة بالقرب منه، تكفي لتدفئتنا لكنها لم تكن كبيرة جداً بحيث تقفز إلى السقف وتطبخنا كلّنا معها.

- من المؤكد أنه من الأفضل أن نموت، قال أتشور أتشور ذات ليلة. - لنفعل شيئاً ونموت. أتوافق؟ لنغادر هذا المكان، ونحارب مع جيش التحرير الشعبي

السوداني آو نفعل شيئاً، ونموت.

اتّفقت معه لكن مع ذلك أردت مجادلته.

- يأخذنا اللّٰه عندما يريد، قلت.

- اخرس بهذا الخراء، قال غاضباً.

- إذن تريد أن تقتل نفسك؟

- أريد أن أفعل شيئاً. لا أريد أن أنتظر هنا إلى الأبد. الناس يزدادون مرضاً هنا. إننا لا نفعل شيئاً سوى أننا ننتظر الموت. إذا بقينا، فإننا سنصاب بمرض وسنذوي. كلنّا جزء من الموت نفسه، لكننا، أنا وأنت نموت ببطء أكثر من الآخرين. يمكننا أن نذهب ونحارب ونُقتل بسرعة أكبر.

في تلك الليلة، شعرت بأنّ أتشور أتشور قد يكون محقاً. لكني لم أقل شيئاً. رحت أحدّق في حيطان ملجئنا الحمراء، وقد بدأت النار تخفت حتى استلقينا في الظلام، وأنفاسنا تزداد برداً.

(٢١)

لقد آن الأوان لمغادرة هذا المستشفى. لقد استخفّوا بي كثيراً. فلم يفِ جوليان بوعده. لقد ذهب. وغادر أتشور أتشور ولينو غرفة الانتظار أيضاً. اقتربت من الممرضة الجديدة ذات سحابة الشعر الأصفر عند قسم الاستقبال.

«سأغادر الآن» قلت لها.

«لكنك لم تُعالج»، قالت. لقد فوجئت لأنني فكّرت بأن أغادر بعد أربع عشرة ساعة فقط.

«لقد مضى عليّ وقت طويل جداً هنا»، قلت.

همّت بأن تقول شيئاً، لكنها أمسكت لسانها. يبدو أن هذا الخبر جديد عليها. أقول لها إنني أريد أن أتصل لاحقاً لأعرف نتائج التصوير بالرّنين المغناطيسي.

فقالت: «نعم. بالتأكيد...»، وكتبت على بطاقة عمل رقم هاتف قالت إنني أستطيع أن أتصل به. منذ أن تعرضت للهجوم في بيتي، أُعطيت بطاقتيْ عمل. لا أظن أنني طلبت رعاية استثنائية، أو أعمالاً بطولية من الشرطة. عندما يستيقظ الجميع، فيل وديب وأصدقائي السودانيون، سيكون هناك غضب ومكالمات هاتفية وتهديدات لهؤلاء الأطباء.

أما الآن فقد حان الوقت لمغادرة هذا المكان. لم تكن لديّ سيارة ولم يكن بحوزتي نقود لأسدد أجرة تاكسي. من المبكر جداً أن أتصل بأحد ليوصلني إلى البيت، فقرّرت أن أعود سيراً على الأقدام. كانت الساعة ٣:٤٤ صباحاً، ويجب أن أكون في مكان عملي في الخامسة والنصف. خرجت من الباب الآلي وغادرت غرفة الطوارئ وباحة وقوف السيارات، وبدأت أسير إلى شقّتي. سآخذ حماماً وأغيّر ملابسي ثم أذهب إلى العمل. في مكان العمل توجد بعض اللوازم الطبيّة الأولية، لذلك سأضمد جروحي هناك بأفضل ما يمكنني.

رحت أسير في شارع بيدمونت. كانت الشوارع مقفرة. أتلانتا ليست مدينة للمشاة، لاسيما في هذه الساعة المبكرة من الصباح. كانت السيارات تمرّ في الليل المبلل وتنير الطريق كما كانت تفعل في تلك الأيام عندما كنا نمشي في

كاكوما. وكما هو الحال الآن، فقد رحت أمشي وفكرة واحدة تراودني: هل أريد أن أستمر في العيش.

كنت أعمى تقريباً عندما بدأنا نسير أخيراً إلى كاكوما. وفي أثناء ذلك، لم تعد لديّ تلك الأوهام التي كانت تعشعش في رأسي عندما كنّا نسير إلى إثيوبيا.

كانت تلك أقسى السنوات. سنة من حياة البداوة. فبعد نهر جيلو، جاءت بوتشالا، ثمّ غولكور، ثمّ ناروس. اعترضنا قطاع طرق، وكان هناك مزيد من القصف، ومات العديد من الصبية، وفي صباح أحد الأيام، استيقظتُ ووجدت أنني لست قادراً على رؤية شيء. حتى أن مجرد محاولة أن أفتح عيني، كانت تسبّب لي ألماً شديداً.

مدّ أحد أصدقائي يده ليلمس عينيَّ. - إنهما لا تبدوان في حالة جيدة، قال. لم تكن هناك مرايا في ناروس أستطيع أن أرى نفسي من خلالها، فكان عليّ أن أصدق ما قاله لي بأن عينيَّ ليستا في حالة جيدة. بعد ظهر ذلك اليوم، تأكد لي أن ما قاله صحيح. فقد كنت أشعر كأنّ رملاً وحمضاً قد صُبّا تحت جفني. كانت إقامتنا في ناروس التي تبعد حوالي مئة ميل عن شمال كينيا مؤقتة، لكن مناخها مشابه، والهواء فيها مليء بالغبار الأحمر.

انتظرت حتى تشفى عيناي، لكنّهما ازدادتا سوءاً. لم أكن الصبي الوحيد الذي أصيب بعدوى ما يُسمى بـ تيونتوك، مرض العين، لكن حالتهم تحسنت بعد يومين أو ثلاثة أيام، أما عيناي فقد تورمتا بعد خمسة أيام ولم أعد أستطيع أن أفتحهما. اقترح المسنون أن أحاول علاجات مختلفة، فصُبَّ على جفنَي ماء كثيراً، لكن الألم لم يتوقف، فأصابني شعور باليأس. أن تكون أعمى في جنوب السودان في أثناء الحرب أمر شديد الصعوبة. وصلّيت لله بأن يقرر إن كان يريد أن يسلبني بصري أم لا، فلم أكن أريد شيئاً سوى أن ينتهي الألم.

ذات ليلة، بينما كنّا نستلقى تحت سقف جدار - لم تكن توجد ملاجئ حقيقية في ناروس - سمعنا هدير سيارات وشاحنات فعرفت بأنّنا سنُنقل من هنا بعد فترة قريبة. فقد كان الجيش الحكومي في طريقه إلينا، وقد يتم الاستيلاء على ناروس قريبا. وكان علينا نحن الصبية أن نسير إلى لوكيتشوجيو في كينيا، بإشراف مفوضية شؤون اللاجئين التابعة للأمم المتحدة. لم أشأ أن أقف، أو أن أمشي، أو حتى أن أتحرّك، لكنهم سحبوني لأنضم إلى الرتل.

وضعت ضمادات على كلتا العينين وشددتهما كعصابة للعينين. كنت أقتفي طريقي بالإمساك بذيل قميص الصبي الذي يمشي أمامي. ومع أنني كنت أعرف أنّنا سنجتاز قريباً الحدود إلى بلد لا توجد فيه حرب، فلم تزاودني هذه

المرة أحلام عن أطباق مليئة بالبرتقال. وعرفت أنّ العالم هو نفسه في كل مكان، وأنه لا توجد سوى فروق بسيطة جداً بين الذين يعانون من مكان لآخر.

عندما غادرنا إثيوبيا، لقي الكثيرون حتفهم على طول الطريق. كنّا آلافاً، وكان هناك الكثير من الجرحى، والكثير من الدم على طول الدرب. في ذلك الوقت، رأيت أمواتاً أكثر من أي وقت مضى: نساء، وأطفال، وأطفال رضّع بحجم الطفل الرضيع الهادئ الذي لن يعيش. بدا لي أنه لم تعد جدوى من كلّ ذلك. فعندما أتذكّر تلك السنة، فإني لا أرى سوى صوراً مفككة ومشوّهة، كما لو كنت أرى حلماً متقطعاً. كنت أعرف أنّنا كنّا في بوتشالا، ثمّ في مكان قريب، في غولكور، على مسافة ثلاث ساعات. ثم هطلت أمطار بغضب شديد لم تتوقف طوال ثلاثة أشهر. وفي غولكور رأينا مرة أخرى جنوداً من جيش التحرير، ورأينا منظمات غير حكومية، وطعاماً، وأخيراً مدرسة. وسمعنا فيها عن انشقاق جيش المتمردين، عندما قرّر قائد من النوير يدعى رياك مشار أن ينشق ويؤسس حركة تمرّد خاصة به أطلق عليها اسم جيش التحرير الشعبي السوداني - مجموعة الناصر، المجموعة التي سبّبت لجيش التحرير الشعبي لفترة من الوقت مشاكل بقدر ما سببته له الخرطوم. وأسفرت هذه الحرب داخل الحرب عن قيام متمردي الدينكا التابعين لغارانغ بمحاربة متمردي النوير التابعين لمشار. وهكذا قُتل عشرات الآلاف، وأتاح هذا الاقتتال الداخلي والوحشية التي مورست خلاله الفرصة لأن يغمض العالم عيونه عن الأعمال التي تمارسها حكومة السودان: فقد أصبح من الصعب على العالم تفسير هذه الحرب الأهلية، فوضى من النزاعات القبلية لا يوجد فيها أبطال وأوغاد واضحين.

مكثنا في غولكور معظم تلك السنة، وفي أحد الأيام، عندما تحوّلت دفة النزاع ووقعت البلاد في أتون الفوضى، جاء مانوت بول، نجم كرة السلة من أمريكا، لزيارتنا على طائرة ذات محرك واحد، ليحيّ الصبية الذين بقوا في المخيّم. كنّا قد سمعنا عنه في الأسطورة فقط، لكن ها هو يخرج من باب الطائرة التي لم تكد تتسع له. وعلمنا إنه أصبح أمريكياً ففوجئنا بأنه لم يكن أبيض البشرة عندما ظهر. ولم تمض فترة طويلة حتى هاجمتنا ميليشيا استأجرتها الحكومة، وقالوا لنا إننا سنُقصف بعد فترة وجيزة، لذلك أخبرنا الوجهاء ذات يوم بأنه حان الوقت لمغادرة غولكور نهائياً، وهكذا فعلنا. فغادرنا مرة أخرى وبدأنا نسير إلى ناروس. وبعد عدّة أسابيع، وبناء على طلب الأمم المتّحدة، سرنا إلى كينيا التي قيل لنا إننا سنكون فيها آمنين أخيراً، لأنهم قالوا لنا إن هذا البلد بلد ديمقراطي، بلد حيادي ومتحضّر، وأن المجتمع الدولي سيقيم لنا فيه ملاذاً آمناً.

كان علينا أن نتحرّك بسرعة. كان علينا أن نخرج من السودان، لأن الجيش السوداني أصبح يعرف موقعنا. ففي أثناء النهار كنّا نرى المروحيات المقاتلة، وعندما كانت تحلّق فوقنا، كنّا نتفرق ونختبئ تحت الأشجار ويغلّفنا الغبار. كنّا نسير غالباً في الليل، طوال أسبوعين أو أكثر، وبما أننا كنّا نظن أنّنا أصبحنا قريبين من كينيا، وأن الحالة ميؤوس منها والأرض صلبة، أخذنا نسير بسرعة أكبر وبرحمة أقل من أي وقت مضى. وكلما اقتربنا من الحدود، ازداد الطقس سوءاً. وسرنا ضد اتجاه الريح لعدة أيام، وكان الكثير منّا يؤمنون بأن هدف قوّة الريح واستمرارها هو لصدّنا وحثّنا على العودة.

من رائحة الهواء كنت أعرف أنّ هذا المكان مليء بالغبار. فكنت أخلع قميصي وألفّه حول رأسي، لأحمي وجهي من الغبار والريح. وقد أتاحت لي إصابتي بعيني الفرصة، لأيام عديدة، أن أتخيّل أشكالاً مظلمة واسعة تصدّعها رموشي.

خلال سيرنا، كانت شاحنات تمرّ بين الحين والآخر تحمل مسافرين في حالة سيئة للغاية، وكانت تجلب لنا أحياناً بعض الطعام والماء. وحتى بعيني المتورمتين المغلقتين، لم يكن يُسمح لي بأن أصعد إلى تلك الشاحنات، لأن ساقيَّ وقدماي سليمة. لكنّي كنت أريد أن أصعد إلى شاحنة بأي شكل من الأشكال. كنت أحلم بأن أُحمل! كنت أنظر إلى الشاحنات وأفكّر كم هو رائع أن أكون عليها، محمولاً، وتسير بي.

وكلما ابتعدت الشاحنات، كان الصبية يحاولون الصعود إليها، تتوقّف الشاحنة ويلقي السائق بالصبية الذين تعلقوا بها ويعيدهم إلى الأحجار. - انتظر! صوت ينوح. - انتظر! توقّف!

بهذه الطريقة دهست إحدى شاحنات المعونة أحد الصبية. وعندما وصلت إلى البقعة التي قُتل فيها، كان جسد الصبي قد اختفى، فربما سُحبه أحدهم إلى جانب الطريق، لكن بقعة دمه الداكنة كانت واضحة وضوح معالم الجبال أمامنا.

انعطفت من شارع بيدمونت إلى شارع روزويل الذي سيقودني إلى البيت. كان هذه الرحلة على القدمين في الصباح الباكر في أتلانتا طويلة لكنها لم تكن غير سارة. فقد كان باستطاعتي أن أرى حبلاً أرجوانياً من الضوء في الشرق، وكنت أعرف بأنّه سيتمدد وسيتسع كلما ازددت قرباً منه.

وكلّما وجدت نفسي أريد أن أغادر هذا البلد، كانت تراودني تلك العادة الملحة بأن أتذكر بأن ما أمتلكه هنا، لم أكن أمتلكه في أفريقيا. إنها عادة مزعجة،

عندما أريد أن أحسب صعوبات الحياة هنا. بالطبع إنه مكان بائس، لكنه مكان بائس ومجيد في آن معاً أحبّه كثيراً لأنني رأيت فيه أكثر بكثير مما كنت أتوقّع. فأنا أتحرّك بحرية طوال السنوات الخمس التي أمضيتها هنا. فقد سافرت بالطائرة تسعاً وثلاثين مرة وطفت أرجاء هذا البلد، ولعلي قدت السيارة لمسافة عشرين ألف ميل لزيارة الأصدقاء والوديان والأبراج. وسافرت إلى كنساس سيتي، وفينكس، وسان خوزيه، وسان فرانسيسكو، وسان دياغو، وبوسطن، وغاينيسفيل. وأمضيت ستّ عشرة ساعة فقط في شيكاغو، حتى أنني لم أجازف بالدخول إلى المدينة. كنت قد جئت لألقي كلمة في جامعة نورث - ويسترن، وتهت في طريقي من المطار، وفي النهاية، تحدّثت إلى حوالي اثني عشر طالباً وأنا واقف على كرسي ورأيتهم وهم يغادرون القاعة. وفي أوماها، شاهدت مباراة فريق الدوري الثانوي للبيسبول، وفي مناسبة أخرى شاهدت مباراة عندما كان الثلج يهطل فوق المدينة ويكسوها مثل عباءة، وغطّى كلّ بقعة فيها خلال دقائق. وفي أوكلاند مشيت في محطة المترو تحت الأرض، وأنا لا أصدّق أن قطاراً يمكن أن يسير تحت الأرض، ومع أنه كان يبدو لي أمراً مستحيلاً، فقد قررت ألاّ أستقلّه حتى أتأكد من أن أنه فعّال. وسافرت إلى ميمفيس سبع مرات لزيارة عمّي، شقيق أبي، ومشيت داخل هرم زجاجي عملاق أخضر. وفي مدينة نيويورك، رأيت تمثال الحريّة من فوق عبّارة، ودُهشت عندما رأيت المرأة تمشي. ومع أنني كنت قد رأيت صوراً عنها، ربما مئة مرة، لكني لم أكن أدرك أن قدميها تخطوان نصف خطوة. كانت مذهلة وأجمل بكثير مما كنت أتصوّر. وذهبت إلى ساوث كارولينا، وأركانساس، ونيو أورلينز، وبالم بيتش، وريتشموند، ولينكولن، ودي موان، وبورتلند، لأنه يوجد لاجئون في معظم هذه المدن. وزرت سياتل في عام ٢٠٠٣، وتحدّثت أمام جمع من الأطباء في ولاية واشنطن الذين طلبوا مني أن أحكي لهم عن تجربتي، وعندما كنت في سياتل، دعتني نفس الصديقة التي أعطتني الهاتف لتكلمني تابيثا في ذلك اليوم.

من الغريب أن أقول ذلك، لكنّي كنت أحبّ تابيثا عندما تكون بعيدة عني أكثر. أي أن حبّي لها كان يزداد كلّما كنت أراها من بعيد. وقد لا يبدو ذلك صحيحاً. فقد كنت أحبّها عندما نكون معاً، في غرفتي أو على الأريكة، ساقاها متشابكتان في ساقيَّ ويداها في يدي. أما عندما رأيتها وهو تعبر الشارع، أو عندما كانت تسير نحوي، أو عندما كانت تصعد السلم المتحرك المُعطل، فكانت تلك هي اللحظات التي أتذكّرها أكثر من أي شيء آخر. ففي أحد الأيام، كنّا في مركز التسوّق - يبدو أنّنا أمضينا وقتاً طويلاً في مركز التسوّق، أظن ذلك - وراحت تشتري الأشياء التي تريدها، أما أنا فقد ذهبت لشراء مشروب لكلينا، واتفقنا على أن نلتقي عند مكتب المعلومات في الطابق الأول. جلستُ في مكان قريب وانتظرتها طويلاً، فلم يكن التأخير شيئاً غير

عادي بالنسبة لها. وعندما ظهرت أخيراً في أعلى السلم المتحرك، تحمل في يدها كيسين، ارتسمت فجأة على وجهها ابتسامة رائعة فتوقّفت كلّ حركة في كلّ مكان في مركز التسوّق. فتوقّف الناس الذين يتسوّقون عن المشي وعن الكلام، ولم يعد الأطفال يأكلون ويركضون، وتجمّد الماء. في تلك اللحظة بالذات، توقّف السلم المتحرك الذي كانت تقف في أعلاه. نظرت إلى الأسفل، وارتفعت يدها الطليقة إلى فمها، بدهشة. نظرت إليّ في الأسفل، وضحكت. مدركة أنها هي سبب توقف السلم الكهربائي عن الحركة، بدأت تهبط الدرج بطريقة جذلة لا يمكن أن تعتري إلاّ شخصاً راضياً ومرتاحاً مع العالم. كانت ترتدي فانيلة وردية ناعمة وبنطالاً قطنياً أسود ضيقاً. كنت أعرف أنّني كنت أحدّق بها. كنت أعرف أنّني كنت أحدّق بها وهي تهبط الدرجات الستّ والعشرين متجهة نحوي. وبينما كنت أراقبها، لاحظت نظراتي المحدقة بها، ولم يرّف لي جفن وهي تنظر إلى الأسفل وبعيداً. كنت أعرف أنها عندما ستصل إليّ، ستصفعني على ذراعي مازحة، أو توبّخني لأنني أحدّق بها بالطريقة التي كنت أحدّق فيها، لكنّي لم أعبأ بذلك. لقد التهمتها بعيني وهي تهبط الدرج، وخزّنت هذه الصورة في ذاكرتي كي أتمكن من استدعائها باستمرار.

عندما عادت إلى سياتل، بدأ القلق يساورها حول دولوما الذي بدأ يتصل بها كثيراً، غاضباً، وكان يهددها ويسجّل تهديداته في جهاز تسجيل مكالماتها. وكانت تسمع جلبة خارج شقّتها ليلاً، وفي إحدى المرات ترك دولوما رسالة قصيرة تحت باب بيتها، مزيج جنوني من الاتهامات والتوسلات. عندما أخبرتني بهذه التطوّرات، حثثتها على أن تعود إلى أتلانتا، إليّ. فقالت إنها لا تستطيع لأن مواعيد الامتحانات النهائية قد اقتربت، وفي جميع الأحوال، هناك إخوتها الذين يمكنها أن تتصل بهم إذا أحسّت بأي خطر. فقرّرتُ أن أتصل بدولوما هذا، وأناقشه عن سلوكه. وعندما كلمته، كانت النتيجة مرضية. كنت آمل دائماً بأن نتوصل إلى حل وسط، وأن نجد سلاماً واتفاقاً بدلاً من مشاعر الحقد والكراهية. كلّمته بتعاطف وبهدف أن نتصالح نحن الثلاثة. وقبل أن ننهي حديثنا، عليّ أن أقول إنّنا أصبحنا صديقين. وأحسست بأنّني أستطيع أن أثق به وتكونت لدي قناعة بأنّه توصل إلى توازن جديد. وقال لي إنه فقد صوابه عندما عرف أنها تراني - وقال إنه سأل عنّي، وعرف أنّني شخص طيب، ما جعله يشعر بالرضا. وقال إنه مستعدّ ليترك ثابيثا، فشكرته على طيبته، وقلت له ليس من السهل أن يترك المرء امرأة يعزّها، لكنني كنت لا أزال أرى أنه شخص سيء الطبع، سريع الغضب. وودّع أحدنا الآخر كصديقين، وطلب مني أن أتصل به ثانية، فقلت إني سأفعل ذلك مع أنّني لم أكن أنوي أن أتصل به مرة أخرى.

ثم اتصلت بتابيثا، وسخرنا من عقل دولوما المنحرف، وقلنا إن غاز أعصاب قد يكون قد استنزف ملكاته العقلية عندما كان جندياً في جيش التحرير. أذكر أنه كانت تغمرني رغبة عارمة في أن أكون مع تابيثا في ذلك اليوم. كانت تبدو في حالة نفسية مبتهجة على الهاتف، وقالت إنها ترفض دولوما وكلامه البذيء، لكنّها كانت تشعر بالقلق منه وأنا كذلك. كنت أريد أن أسافر إليها، أو أن تأتي لعندي، وسألعن تردّدي طوال حياتي لأنني لم أفعل ذلك. فقد كانت تعيش في سياتل وأنا أعيش هنا في أتلانتا، وتركنا كلّ هذه المسافة تفصل بيننا. فقد كان بوسعي أن أترك هذه المدينة بكل سهولة، وأذهب لأقيم في المدينة التي تعيش فيها. فلا توجد أشياء كثيرة هنا تجعلني أبقى في هذه المدينة. لكنّها كانت تدرس في المعهد، وكنت أريد أن أنهي فصلي الدراسي، لذلك كنّا مضطرين لأن يبقى كل واحد منّا في مكانه. لا يمكنني أن أحصي عدد المرات التي لعنت فيها عدم شعورنا بضرورة أن نلتقي. فإذا أحببت فتاة مرة أخرى، فإني سأحبها بكل جوارحي. فقد كنا نظن أنّنا لا نزال في مرحلة الشباب ولا يزال أمامنا متسع من الوقت للحبّ في المستقبل. إنها طريقة فظيعة في التفكير. أن ينتظر المرء حتى يحبّ، ليست طريقة جيدة في العيش.

وقفت خارج باب شقّتي، وترددت في الدخول إليه. لا أعرف بماذا كنت أفكّر عندما عدت إلى البيت. فلا تزال بقعة دمي على السجادة، وسأكون وحيداً. هل يمكنني أن أزور أدغاردو؟ لكنني لم أزره قط في بيته، ويبدو أن الوقت غير مناسب الآن لزيارة غير متوقعة.

أريد أن أغادر، أن أخرج من هنا في سيارتي، لكن مفاتيح سيارتي لا تزال في داخل الشقّة. أمضيت بضع ثوان أناقش نفسي إن كنت سأحتمل البقاء في الشقّة حتى تأتي لزيارتي. قرّرت أنّني أستطيع ذلك، فأدرت المفتاح.

داخل البيت، كان بإمكاني أن أشمّ ذاكرة رائحة الفراولة التي كانت تعبق من تونيا، لكن ماذا كانت رائحة الصبي؟ كانت رائحة حلوة، رائحة صبي، رائحة نوم صبي يشعر بالقلق. أبقيت رأسي مرفوعاً إلى الأعلى، لكي لا أنظر إلى بقعة دمي التي قد تكون لا تزال على السجادة، أو على مساند الأريكة. وجدت مفاتيحي فوق طاولة المطبخ، فأخذتها وغادرت بسرعة. حتى صوت الباب وهو يغلق بدا لي مختلفاً الآن.

صعدت إلى سيارتي. قرّرت أنني أستطيع أن أنام هنا، في باحة وقوف السيارات، لمدة ساعة، قبل أن أذهب إلى العمل. لكني قريب جداً منهما، المهاجمان، سيارتهما، والجيران المسيحيون، وكلّ من شارك في ما حدث أو

تجاهل ما حدث. رحت أتعثّر فوق الاحتمالات. يمكنني أن أذهب بالسيارة إلى حديقة عامة وأنام هناك. يمكنني أن أجد مكاناً أتناول فيه فطوري. يمكنني أن أذهب إلى بيت أسرة نيوتن.

تبدو هذه الفكرة صحيحة. فعندما بدأت أعمل وأدرس، بدأت زيارتي لأسرة نيوتن تخفّ، لكنهم قالوا لي إن باب بيتهم سيكون مفتوحاً لي دائماً. الآن، في هذا الصباح، أعرف أنّني يجب أن أذهب لزيارتهم. سأقرع على زجاج نافذتهم بلطف، النافذة التي بجانب الزاوية التي يتناولون فيها طعام الفطور في المطبخ، وسيأتي جيرالد الذي يستيقظ عادة باكراً إلى الباب ويرحب بي. سآخذ قيلولة على أريكتهم، الأريكة البنيّة في الغرفة التي يوجد فيها جهاز التلفزيون، وأمضي ساعة مترفة، أشمّ خلالها رائحة الكلاب والثوم ومعطّر الهواء في البيت. سأشعر بأنني في أمان وأنني لا أزال محبوباً، ولن يعرف باقي أفراد أسرة نيوتن أنّني كنت هنا حتى أذهب.

قدت السيارة إلى بيتهم الذي لا يبعد سوى بضعة أميال، تاركاً الفوضى التي أعيش فيها، وخلفت ورائي الطريق السريع، وقدت وسط سلسلة متاجر متعددة، ثم دخلت في شوارع مظلّلة ومتعرّجة حيث تمتد المروج، والأسيجة نظيفة، وصناديق البريد التي في شكل حظائر مصغرة. عندما تعرّفت على أسرة نيوتن في البداية، كنت أمضي يومين أو ثلاثة أيام في الأسبوع عندهم، أتناول العشاء وأمضي معهم عطلة نهاية الأسبوع.

ذهبنا لمشاهدة مباريات أتلانتا برايفز، وزرنا حديقة الحيوانات، وذهبنا إلى السينما. إنها أسرة مشغولة جداً - فقد كان جيرالد عضواً في مجلس إدارة ثلاث منظمات لا تبغي الربح، ولم يكن يتوقف عن العمل، وكانت آن تعمل بنشاط في كنيستهم - فبدأت أشعر بالذنب للوقت الذي يمضونه معي. لكنّي أحسست بأنّني أساعد أليسون في فهم بعض الأشياء، عن الحرب والسودان وأفريقيا وحتى أليساندرو، لذلك يبدو لي أن الفائدة كانت متبادلة بيننا على نحو ما. كان قد مضى على معرفتي بهم بضعة أشهر عندما التقطنا صورة خارج بيتهم، فوق مرج بيتهم، أليسون جالسة على العشب، وأنا واقف مع آن وجيرالد.

- من أجل بطاقة عيد الميلاد، قالوا.

هل ما سمعته صحيح؟ فقد أرادا أن يضعا صورتي على بطاقة عيد الميلاد؟ وأرسلاها لي بعد عشرة أيام، ووضعا الصورة في بطاقة خضراء قابلة للطيّ، نبتسم نحن الأربعة في حديقة بيتهما المعشوشبة. وكتبا في داخلها عبارة:

عطل سعيدة وسلام في السنة الجديدة، من جيرالد، وآن، وأليسون، ودومينيك (صديقنا الجديد من السودان). كنت فخوراً جداً لأنني حصلت على هذه البطاقة، وكنت فخوراً لأنّهم ضموني إليهم. فألصقتها على الجدار في غرفة نومي فوق المنضدة. في البداية، وضعتها في غرفة الجلوس، لكني لاحظت أن بعض الأصدقاء السودانيين الذين يأتون لزيارتي تنتابهم الغيرة في بعض الأحيان، فليس من اللائق إظهار هذا النوع من الصداقات.

دفعني التفكير بالبطاقة إلى التفكير بالسير تحت قنطرة مدخل بيت أسرة نيوتن المقوّسة، لكن عندما وصلت إلى بيتهم، بدت لي الخطة سخيفة. ماذا أفعل؟ فالساعة الآن ٤:٤٨ صباحاً، وقد ركنت السيارة خارج بيتهم المعتم. رحت أبحث عن أضواء في الداخل، لكني لم أجد أي ضوء منار. هذه هي طريقة اللاجئ - لا نعرف حدود كرم مضيّفينا. سأقرع باب بيتهم في الساعة الخامسة صباحاً؟ لا بد أنني جننت.

ابتعدت بالسيارة الآن كي لا يروننني إذا استيقظ أحدهم. قرّرت أن أنتظر هنا حتى يحين موعد الذهاب إلى العمل. يمكنني أن أصل إلى العمل في وقت مبكّر، أستحمّ، وربما أشتري قميصاً جديداً وبنطالاً من المحل الموجود هناك. فأنا أحصل على حسم بنسبة ٣٠ في المائة على جميع الألبسة، وقد استفدت من ذلك قبل الآن. سأنظّف نفسي وأشتري الملابس وأبدو في هيئة حسنة، ولن أخبر أحداً بما حدث لي. لقد سئمت من الحاجة إلى مساعدة. فأنا بحاجة إلى مساعدة في أتلانتا، وكنت بحاجة إلى مساعدة في إثيوبيا وفي كاكوما، لقد سئمت من كل ذلك. مللت من مراقبة العائلات، وزيارة العائلات، وأن أكون جزءاً من هذه العائلات وليس جزءاً منها في الوقت نفسه.

بعد بضعة أسابيع من حديثي مع دولوما، وسخريتي منه أنا وتابيثا، كنت مع بوبي نيومير مرة أخرى في لوس أنجلوس. كان يعقد اجتماعاً «لأطفال السودان الضائعين» في الجامعة العبرية. جاء أربعة عشر مراهقاً من هؤلاء الصبية من أنحاء الولايات المتحدة ليتحدّثوا عن خطط لإنشاء منظمة قومية، وموقع على الإنترنت لتتبع تقدّم جميع الأعضاء في الشتات، وربما اتخاذ إجراء ما أو إصدار بيان موحّد حول دارفور. كنّا على وشك الجلوس لبدء المناقشات الصباحية عندما رنّ هاتفي. وبما أنه كانت لدينا نحن، اللاجئين السودانيين، مشكلة مع هواتفنا الخلوية - فقد كنا نشعر بأننا يجب أن نجيب على أي مكالمة على الفور، مهما كانت الظروف - ففرضت على نفسي قواعد محددة: ألاّ أردّ على أي مخابرة في أثناء الاجتماعات. فلم أتلق أي اتصال من تابيثا. وخلال فترة الاستراحة الأولى، دقّقت في الرسالة التي

وصلتني وأنا في القاعة. كانت قد أرسلت في الساعة العاشرة والنصف في صباح ذلك اليوم.

«أتشاك، أين أنت؟» سألتني، «اتّصل بي فوراً». اتّصلت بها ثانية، ووصلت إلى بريدها الصوتي. قلت لها إنني سأكون مشغولاً في ذلك اليوم، وسأتصل بها بعد انتهاء الاجتماعات. اتصلت بي مرة أخرى، لكنني كنت قد أغلقت هاتفي في ذلك الحين. في الساعة الرابعة، عندما شغّلت هاتفي ثانية، جاءني أول اتصال من أتشور أتشور.

«هل سمعت أي شيء؟» سألني.

«أيّ شئ حول ماذا؟»

صمت لحظة طويلة، ثم قال: «سأتّصل بك مرة أخرى». ثم اتصل بعد بضع دقائق.

«هل سمعت شيئاً عن تابيثا؟» سألني.

قلت له لم أسمع منها شيئاً. أغلق الهاتف ثانية. كان تخميني الوحيد هو أن تابيثا كانت تحاول أن تصل إليّ عن طريق أتشور أتشور، وأنّها انزعجت، بل ربما قالت أشياء بسبب ابتعادي عنها، وقساوتي. فقد كانت تقول أشياء كهذه عندما كانت تريد أن تتصل بي ولا تستطيع.

رنّ الهاتف مرة أخرى وكان أتشور أتشور.

أخبرني بما يعرف: قال إن تابيثا ماتت، وأن دولوما قتلها. كانت في شقّة صديقتها فيرونيكا التي ذهبت إليها لكي تكون في مأمن من دولوما. لكن دولوما عرف مكانها، فاتصل بها، وهدّدها بأنه سيأتي إليها. تحدته تابيثا، وعلى الرغم من احتجاجات فيرونيكا، تحدّته بأن يأتي. لم تشأ فيرونيكا أن تفتح الباب لكن تابيثا لم تكن خائفة. كانت تحمل طفلة فيرونيكا الرضيعة على ذراعها، وفتحت قفل الباب. «سأتدبر أمر هذا الرجل المسكين»، قالت لفيرونيكا، وفتحت الباب. فقفز دولوما إلى داخل البيت وبيده سكين، وطعن تابيثا بين أضلاعها، فطارت الطفلة في الهواء. وعندما أمسكت فيرونيكا بطفلتها، ألقى دولوما تابيثا على الأرض. رأت فيرونيكا التي لم تكن تستطيع أن تفعل شيئاً، دولوما وهو يغمد سكينه في أضلاع تابيثا اثنتين وعشرين طعنة. وأخيراً تباطأ، ثم توقّف. نهض واقفاً، وهو يلهث. نظر إلى فيرونيكا

وابتسم ابتسامة متعبة، وقال: «يجب أن أتأكّد من أنها ماتت، وانتظر، وهو واقف فوق جسد تابيثا.

بعد أن تأكد دولوما من موت تابيثا، خرج من الشقّة وألقى نفسه من فوق جسر. سألت أتشور هل مات. لا لم يمت. وهو يرقد في المستشفى بعد أن أصيب بكسر في ظهره.

غادرتُ المؤتمر ومشيت وحدي لفترة من الوقت، حيث كانت الجامعة تطلّ على الطريق السريع. كان الطريق مزدحماً بالسيارات المنطلقة بسرعة وبلا مبالاة وتصدر أصواتاً صاخبة. كان من المبكر جداً أن أصدّق، أن أشعر. مع أنني كنت متأكّداً، في تلك الساعة التي أمضيتها وحدي بأنّني كنت وحيداً تماماً. لقد عشت من دون اللّه، حتى لفترة من الزمن، وكانت الأفكار التي راودتني هي الأكثر قتامة التي عرفها عقلي.

عدت إلى المؤتمر وأخبرت بوبي وبضعة رجال آخرين بما حدث. انتهى المؤتمر في ذلك اليوم وحاولوا مواساتي. أردت أن أسافر بالطائرة مباشرة إلى سياتل لكن أتشور أتشور طلب مني ألاّ أفعل ذلك. وقال إن عائلتها منزعجة مني كثيراً، وأن إخوتها لا يريدون رؤيتي. لم أستطع أن أصدّق أنها ماتت حقاً. في اليوم الأول ذاك، رحت أفكّر بالأسباب وبالحلول وبالثأر وبالإيمان.

«لا بد أن لله مشكلة معي»، قلت لبوبي. كنّا متجهين بالسيارة إلى البيت من المؤتمر. لم يقل شيئاً لفترة من الوقت، وكان صمته يعني لي بأنّه موافق.

«لا، لا!»، قال أخيراً، «هذا ليس صحيح. إنها مجرد...»

لكنّي كنت متيقناً من أن هناك رسالة موجّهة إليّ.

«أنا آسف جداً على كلّ ذلك»، قال بوبي.

قلت له إنه ليس مضطراً ليتأسف على أي شيء.

راح بوبي يبحث عن أجوبة، وحثّني على ألاّ ألوم نفسي، أو أن أقرأ أيّ شيء حول نوايا اللّه إزاء مقتل تابيثا. لكنه في مرات عديدة في أثناء تلك الرحلة كان يضرب بيديه على المقود ويصرخ، ويمرر يديه في شعره.

«قد يكون هذا البلد الغبي هو السبب»، قال، «لعلنا نجعل الناس يفقدون صوابهم».

كان ذلك قبل أربعة شهور. وعلى الرغم من أن الشكوك المهموسة لا تزال يتردد صداها في رأسي ومع أن لحظات من الكفر كانت تنتابني، فإن إيماني لم يتغيّر، لأنني لم أشعر قط بتدخّل اللّه مباشرة في أيّ أمر على الإطلاق. ربما لم أحصل على هذا النوع من التدريب من معلّمي، وأعرف أنّه هو الذي يوجّه الرياح التي تلقي بنا أو تحملنا. لكن بهذا الخبر، ونحن في السيارة، وجدت نفسي أبتعد عن اللّه. لديّ أصدقاء أعرف أنهم لم يكونوا أصدقاء جيدين، أشخاص يجلبون مشاكل أكثر مما يجلبون السعادة، فكنت أجد دائماً سبلاً لأضع مسافة أكبر بيننا. والآن تراودني نفس الأفكار عن اللّه، عن إيماني، التي كانت تراودني حول هؤلاء الأصدقاء. إن اللّه موجود في حياتي لكنّي لا أعتمد عليه. إن إلهي ليس إلهاً يمكن الوثوق به.

تابيثا، سأظل أحبّك إلى أن أراك ثانية. فهناك تدابير للعشاق مثلنا، وأنا على يقين من ذلك. ففي الحياة الآخرة، مهما كان شكلها، توجد تدابير معينة. أعرف أنّك لم تكوني واثقة مني، وأنّك لم تختاريني أنا وتفضليني على الآخرين، أما الآن، بعد أن رحلتِ، اسمحي لي أن أفترض بأنّك كنتِ على وشك أن تقرري بأنني أنا حبيبك. أم أن هذه ليست الطريقة الصحيحة في التفكير. أعرف أنّك كنت تتلقين اتصالات هاتفية من رجال آخرين، رجال غيري أنا ودولوما. فقد كنّا صغاراً. ولم نكن قد وضعنا خططاً بعد.

تابيثا، إني أصلّي من أجلك كثيراً. وأقرأ كتاب الأم تيريزا وكتاب الأخ روجر الذي عنوانه «البحث عن قلب اللّه»، وكلّما أعدت قراءته، أجد فقرات مختلفة يبدو أنها كتبت من أجلي، تصف ما أشعر به في غيابك. ففي الكتاب، هذا ما يقوله الأخ روجر لي: « بعد المسيح بأربعمائة سنة، عاش مؤمن يدعى أوغسطين في شمال أفريقيا، تعرّض لنوائب عديدة، موت أحبائه. وفي أحد الأيام قال للمسيح: ‹يا نور قلبي، لا تدع ظلامي يكلّمني›. وخلال محنته، أدرك القديس أوغسطين بأنّ وجود المسيح الذي قام من بين الأموات لم يتركه قط. كان النور في وسط عتمته».

كانت تلك الكلمات تساعدني في بعض الأوقات، وفي أوقات أخرى كنت أجد هذه الكلمات جوفاء وغير مقنعة. فهؤلاء المؤلفون الذين أكنّ لهم احتراماً عظيماً، يبدو أنهم لا يزالون يعرفون الشكوك التي قد تساور المرء عندما يكون في أشدّ زوايا روحه غضباً. فهم يطلبون مني في أحيان كثيرة أن أجيب على شكوكي من الصلاة، التي تبدو كما لو أن المرء يواجه جوعه

بالتفكير بالطعام، لكن على الرغم من ذلك، وحتّى عندما أكون محبطاً، فإني أنظر في مكان آخر وأستطيع أن أجد فقرة جديدة تكلّمني. كهذه، من الأم تيريزا: «إن المعاناة، إذا تم قبولها معاً، وتم حملها معاً، فهي بهجة. تذكّر أن آلام المسيح تنتهي دائما في بهجة بعث المسيح من جديد، لذلك عندما تشعر في قلبك بمعاناة المسيح، تذكّر أن يوم البعث لم يأت بعد - يجب أن تبزغ بهجة عيد الفصح «. وصلّيت كثيراً في الأسابيع الماضية، صلوات أرددها همساً في هذه الليلة وأنا أقود سيارتي، في هذا الشارع الذي تظلله الأشجار وتنيره أضواء الشارع ذات اللون العنبري.

الرب يسوع، اجعلنا ندرك

أنّه من خلال موتنا المتكرّر

ورغباتنا الأنانية فقط

نستطيع أن نعيش حياة أكثر كمالاً؛

لأنه بالموت معك فقط

نستطيع أن نقوم معك.

تابيثا، في هذه الشهور التي مضت بدونك، عندما تساءلت في البداية أين يمكن أن تكوني، سواء أكنت في الجنة أم في النار أم في المطهر، فإن أفكاراً لا تُحتمل تراودني، أفكار قاتلة وانتحارية. لقد كافحت بقوة الأذى الذي أردت أن ألحقه بدولوما والعبث الذي رأيته، في أحلك لحظاتي، في العيش.
ووجدت شيئاً من الراحة عندما لجأت إلى شرب الكحول في الليل. قنينتان من البيرة تمكناني من الاستغراق في النوم، ولو بشكل متقطع. بدأ أتشور أتشور يقلق عليّ، لكنّه رأى بأنني أتحسّن. إنه يعرف أنّني كنت هنا من قبل، وبأنّني اقتربت كثيراً من أن أنهي ذاتي ثم ابتعدت عن ذلك.

* * *

لم أخبرك قط عن تلك الأيام القاتمة يا تابيثا، عندما كنت أصغر بكثير.
وأتشور أتشور لا يعرف أيضاً، ولو كنّا، أنا وهو، معاً آنذاك لما كنت قد سقطت

إلى ذلك الحضيض. فقد كنّا قد فَصلنا في غولكور، مع أننا كنّا كلانا في طريقنا إلى كينيا، إلى كاكوما. كنّا نسير في الطريق نفسه، لكن بأيام متباعدة. فقد رأيت أتشور أتشور آخر مرة في خيمة طبية تابعة لمنظمة «أنقذوا الأطفال»، يعالجونه من الجفاف. كنت جباناً. ظننت أنّه سيموت لا محالة، وأنني لن أحتمل رؤية ذلك. فهربت ولم أودّعه. غادرت المخيّم مع مجموعة أخرى، لأنني أردت أن أكون بعيداً عن موته الوشيك، أن أبتعد عن الموت برمته، فرافقت إحدى أولى المجموعات لنواجه الريح والصحراء التي كانت تنتظرنا في كينيا.

في تلك الأيام الماضية من رحلة السير، يا تابيثا، كنت أمشي في الظلام. كانت عيناي متورمتان ومغلقتان تقريباً، وكنت أسير وأنا مصاب بالعمى، أحاول أن أرفع قدميَّ كي لا أتعثّر، لكنني كنت أجد نفسي لا أكاد أقدر على جرّهما فوق الحصى. كان رأسي يسبح بالإعياء والارتباك، تماماً كما يحدث لي هذا الصباح، تابيثا، عندما ضربت واشتقت إليك. في تلك الليلة، عندما كنت أمشي كصبي صغير، كان الوقت يبدو أنه وقت جيد للموت. كان بإمكاني أن أواصل العيش، نعم، لكن أيامي كانت تزداد سوءاً، ولم تكن تتحسن. كانت حياتي في بينيدو تزداد سوءاً والسنوات تمضي، وكنت أخشى أن يكون أتشور أتشور قد مات. والآن هذه المسيرة إلى كينيا، حيث لا توجد وعود. تذكّرت تخيلاتي عن البنايات والشلالات في إثيوبيا بعد أن اجتزنا الحدود، والشعور بالإحباط عندما لم أجد إلاّ مزيداً من البلايا والنكبات التي خيّل إلينا أننا خلفنّاها وراءنا. ولسنوات عديدة، كان اللّه واضحاً للصبية مثلنا. فلم تكن حياتنا جديرة بالحياة كثيراً. ووجد اللّه سبلاً لا حصر لها لقتل صبيان مثلي، ولا شكّ أنه كان سيجد سبلاً وطرائق أكثر بكثير. فقد كان من الممكن أن تنقلب القيادة في كينيا كما حدث في إثيوبيا، وسيكون هناك نهر جيلو آخر، وكنت أعرف أن ذلك شيء لا يطاق. وكنت أعرف أنه لو حدث ذلك ثانية، فلن أجد القوّة لأتمكّن من الجري أو السباحة أو حمل الطفل الهادئ.

فقررت أن أتوقّفت عن المشي في تلك الليلة. جلست ورحت أراقب الصبية وهم يمرون من أمامي. كان مجرد التوقّف راحة عظيمة. كنت منهكاً. كنت متعباً أكثر بكثير مما كنت أدرك، وعندما جلست على الطريق الحار، شعرت براحة أكثر من أي راحة عرفتها في حياتي. ولأن جسدي رحب كثيراً بهذه الاستراحة، تساءلت إن كان بإمكاني، مثل وليام كي، أن أغمض عينيَّ وأموت. لم أكن أشعر بأنني قريب جداً من السقوط من هذا العالم إلى العالم الآخر، لكن ربما لم يشعر وليام كي بذلك أيضاً. فلم يفعل وليام كي شيئاً سوى أنه جلس ليرتاح، وبعد لحظات ذهب. فأسندت رأسي على الطريق ورحت أنظر في السماء.

- هيا، انهض. إن سيدوسون فوقك.

- كان صوت أحد الصبية المارين. لم أقل شيئاً.

- هل أنت على ما يرام؟

- نعم، قلت. تابع سيرك أرجوك.

كانت السماء صافية تماماً في تلك الليلة، وكانت النجوم متناثرة في السماء بلا اكتراث. أغمضت عينيَّ، يا تابيثا، واستحضرتُ أمّي إلى ذاكرتي بقدر ما أستطيع. تصوّرتها في ثوبها الأصفر، الأصفر مثل الشمس عند الغروب، تمشي على الدرب. كنت أحبّ أن أراقبها وهي تسير في الدرب قادمة نحوي، وفي رؤيتي، جعلتها تمشي الدرب كله. وعندما دنت مني قلت لها إنني متعب جداً، وأنني لا أستطيع أن أكمل الطريق، وأنّني سأعاني مرة أخرى، وسأرى الآخرين وهم يعانون، ثم أنتظر لأعاني ثانية وثالثة. وفي رؤيتي تلك لم تقل لي شيئاً، لأنني لم أعرف ما الذي ستقوله أمّي رداً على كل ذلك، فتركتها صامتة. ثمّ أبعدتها من عقلي، وبدا لي أنني لكي أموت يجب أن أزيل كلّ الأفكار وكلّ الرؤى من عقلي، وأركّز على أن أمضي.

انتظرت. استلقيت وأسندت رأسي فوق الحصى، وانتظرت الموت. كنت لا أزال أسمع صوت أقدام الصبية، لكن لم يضايقني أحد وبدا لي ذلك نعمة. لعلهم ظنوا أنني متّ بالفعل. لعلهم، في الظلام وفي الريح، لم يروني. أحسست بأنني على حافة شيء، حتى لو على حافة نوم خفيف فقط، عندما توقفت قدمان. شعرت بوجود شيء فوقي.

- إنك لا تبدو ميتاً.

تجاهلت الصوت الذي كان صوت فتاة.

- هل أنت نائم؟ لم أجب.

- قلت لك هل أنت نائم؟

كان هذا الصوت عالياً جداً في أذني. بقيت في مكاني لا أتحرك.

- أستطيع أن أرى أنّك تغمض عينيك بقوة. أعرف أنّك حيّ. لعنتها من كلّ قلبي.

- لا يمكنك أن تنام هنا على الطريق.

واصلت محاولة أن أغادر الأرض من خلال عيني المغمضتين.

- افتحهما.

أبقيتهما مغمضتين، أكثر الآن.

- لا تستطيع أن تنام عندما تبذل مجهوداً كبيراً لتفعل ذلك.

هذا صحيح. فتحت عيني بما يكفي فرأيت وجهاً، لا يبعد عن وجهي أكثر من خمس بوصات. كانت فتاة، أصغر مني بقليل. إحدى الفتيات القليلات في المجموعة.

- أرجوك اتركيني وشأني، همست.

- إنك تشبه أخي، قالت. وأغمضت عيني ثانية.

- لقد مات. لكنّك تشبهه. هيا انهض. أصبحنا آخر الناس الآن.

- أرجوك. أنا أرتاح.

- لا يمكنك أن تستريح على الطريق.

- لقد استرحت على الطرق من قبل. أرجوك دعيني وشأني.

- إذن سأبقى معك هنا.

- سأبقى هنا إلى الأبد.

عقدت قبضتها في قميصي وشدّتني.

- لن تفعل ذلك. لا تكن غبياً جداً. هيا انهض.

رفعتني إلى الأعلى ورحنا نمشي. كان اسم هذه الفتاة ماريا.

قرّرت أنّ المشي مع هذه الفتاة أسهل من الجدال معها في الظلام. فقد أموت بيسر غداً، فلن تستطيع أن تراقبني إلى الأبد. فمشيت معها كي أرضيها،

لأسكتها، وعند الفجر، أصبحنا في وسط الصحراء مع عشرة آلاف شخص آخر. سيكون هذا بيتنا التالي، قالوا لنا. وقفنا في تلك الأرض وانتظرنا في ذلك اليوم حتى وصلت شاحنات وعربات الصليب الأحمر، وتركت عدداً أكبر من الناس هناك، في أرض متربة ومقفرة لا يمكن لأي دينكا أن يخطر له أنه يستطيع أن يعيش فيها. فقد كانت قاحلة لا شكل لها والريح لا تتوقف. لكن مدينة ستنمو في وسط تلك الصحراء. إنها لوكيتشوجيو التي سرعان ما أصبحت نقطة انطلاق للمساعدات الدولية في المنطقة. وبعد ساعة جنوباً تصل إلى كاكوما التي يسكنها رعاة كينيون متناثرين يُعرفون باسم توركانا، لكن في غضون سنة، سيصبح فيها أربعون ألف لاجئ سوداني أيضاً، وستصبح مكان إقامتنا لمدة سنة، ثم سنتين، ثمّ خمس سنوات، ثم عشر سنوات. عشر سنوات في مكان لا يوجد فيه أحد، ببساطة لا يمكن لأحد أن يفكّر بأن يمضي فيها يوماً واحداً إلاّ إذا كان أكثر الناس بؤساً.

كنتِ هناك يا تابيثا. كنتِ هناك معي آنذاك وأعتقد أنّك معي الآن. تماماً كما تصوّرت أمّي ذات يوم تمشي نحوي في ثوبها الذي بلون شمس حبلى، أعزي نفسي الآن في تخيّلك وأنت تهبطين السلم المتحرك بقميصك الوردي، ووجهك الذي في شكل قلب تغمره ابتسامة رائعة عندما توقف كلّ شيء من حولك عن الحركة.

الكتاب الثالث

(٢٢)

عندما قُتلت تابيثا، أصبح فيل يتصل بي كثيراً، وكذلك آن وأليسون، ليتكلّموا فقط، ليستمعوا، قالوا، لكنّي أعرف أنّهم كانوا قلقين على صحتي وحالتي العقلية. أشكّ في أنّهم قد أرخوا قبضتهم عنّي. فقد أصبحوا يعرفون الآن بأنّ السودانيين في أمريكا يمكنهم أن يرتكبوا جريمة قتل، أن ينتحروا، لذلك أظن أنهم كانوا يتساءلون، إن كان فالانتينو قد يفعل ذلك؟ أعترف بأنّني أمضيت عدة أسابيع غير قادر على أن أتحرّك، ولم أعد أحضر دروسي إلاّ نادراً. وطلبت إجازة من العمل وأمضيت ذلك الوقت في السرير أو في مشاهدة التلفزيون. وكنت أقود سيارتي بدون هدف محدد. وحاولت أن أقرأ كتباً عن الحزن. وأطفأت هاتفي.

قال بوبي إنّ مقتل تابيثا لم يكن ممكناً إلاّ بسبب جنون هذا البلد، وفي بعض الأحيان، في تلك الأسابيع الحالكة بعد موتها سمحت لنفسي بأن أفكّر بأن أمريكا متواطئة في الجريمة. ففي السودان، لم يسمع أحد أن شاباً قتل امرأة. لم يحدث ذلك قط في مايال باي. أشكّ أنّ أحداً في عشيرتي يستطيع أن يتذكّر أن شيئاً من ذلك قد حدث، في أي مكان أو في أي زمان. لقد غيّرتنا ضغوط الحياة هنا. بدأت الأشياء تضيع منّا.

ثمة يأس جديد، نوع جديد من التصنّع من ناحية الرجال. فمنذ فترة قصيرة، قتل رجل سوداني في ميشيغان، لا أعرف اسم البلدة، زوجته وطفلته البريئة، ثم قتل نفسه. لا أعرف القصة كلّها، لكن القصة التي انتشرت في أوساط المجتمع السوداني تقول إنّ زوجة هذا الرجل أرادت أن تزور أسرتها في أثينا، في ولاية جورجيا. فرفض الزوج ذلك. لا أعرف لماذا، لكن في المجتمع السوداني التقليدي، لا يحتاج الزوج إلى سبب ليرفض. ومن الممكن أن تُضرب المرأة، وربما تُضرب لشهور عدة. فتجادل الرجل مع زوجته، فضربها، وظن أنه حقق ما يريد. لكنها ذهبت في اليوم التالي. فقد كانت قد اشترت تذكرة طائرة إلى أثينا لها ولابنتهما منذ عدة أسابيع، حتى قبل أن تناقشه في الأمر. فإما أنها كانت تظن بأنّها ستتدبر الأمر، وإما أنها ببساطة لم تكن تهتم بذلك. أما الرجل في ميشيغان فقد كان يهتم. فبينما كانت زوجته وابنته تزوران خالاتها وبنات خالاتها في أثينا، كان الزوج يغلي غضباً في البيت. إن فقدان ماء الوجه، أقول لكم، قد يؤدي إلى أن يرتكب الرجل أعمالاً شنيعة. وعندما عادت زوجته مع ابنتها، قابلهما عند الباب بسكين كان قد اشتراه في عطلة نهاية الأسبوع. فقتلهما في ردهة البيت، ثم قتل نفسه بعد ساعة.

ثم خطر لي أنّ دولوما يمكن أن يكون قد استوحى فكرة القتل من هذا الرجل، الفكرة بأنك تستطيع أن تعاقب المرأة التي تركتك دون أن تنال أي عقاب. وهذا أيضاً أمر يستحيل حدوثه في السودان. فالرجل هناك لا يقتل ابنته، ولا يقتل نفسه. ومع أن رجالاً كثيرين يسيئون معاملة زوجاتهم، فيضربونهن ويهجرونهن، لكن لا يمكن أن تحدث أشياء كهذه أبداً.

يلوم البعض النساء في حالات كهذه، التضارب بين الأفكار الجديدة التي اكتسبنها هنا وبين عادات الرجال القديمة الذين لا يريدون التكيّف مع الحياة الجديدة. فقد تكون تابيثا قد أجهضت أم لم تجهض - لم أسألها لأن ذلك ليس من حقّي - ثم تركت دولوما بكامل إرادتها. وهذا أمران غير مسبوقين في المجتمع السوداني التقليدي، وهما نادرين جداً أيضاً في السياق الأخلاقي الأكثر حرية الذي كان سائداً في كاكوما. وفي جنوب السودان، حتى العلاقة الجنسية قبل الزواج تعتبر شيئاً غير عادي، وتمنع المرأة من الزواج. وتُفضّل الفتيات العذراوات دائماً، ولكون الفتاة عذراء، فإن أسرة العروس تطلب مهراً أكبر بكثير. إن قول ذلك للأمريكيين يستتبع ردود أفعال مدهشة، فهم لا يستطيعون أن يتخيّلوا كيف يمكن التحقق من وجود العذرية من دون فحص نسائي.

أما الطريقة السودانية في الكشف عن عذرية الفتاة فهي بسيطة للغاية. ففي عشية الزفاف، تجلب امرأتان أو ثلاث نساء من أقارب العروس، عادة يكنّ عمّاتها، شراشف ناصعة البياض إلى سرير الزوجية. وفي أول ليلة يدخل فيها العريس على العروس، تختبئ تلك النسوة داخل البيت، أو يقفن خارج باب غرفة نوم العروسين مباشرة. وعندما يلج العريس عروسه لأول مرة، تطلق النساء زغاريد، وعندما يستطعن، يدخلن إلى غرفة النوم ويبحثن في الشراشف البيضاء عن دم افتضاض غشاء البكارة، ليثبتن للجميع بأنّ ابنة أخيهن عذراء بالفعل. وبهذا الدليل في أيديهن، يعدن إلى أقرباء العروس والعريس.

أما في هذه الحالة، فتوجد علاقة جنسية قبل الزواج، وتوجد شابّة حازمة قرّرت أن تقطع علاقتها بشاب سوداني غاضب، كان يظن بأنّها هجرته بسبب المال. وخيّل إليه بما أن اسمي كان معروفاً في كاكوما، فلا بد أن أكون رجلاً غنياً هنا في أتلانتا، فأثار ذلك غضبه، فأخذ يتّصل بها، ويكلّمها بعنف، ونعتها بأشنع الأسماء والنعوت، وهدّدها بل حتى حذّرها، بأنها إذا فضلتني عليه فإنه سيرتكب عملاً فظيعاً، شيئاً ستندم عليه.

وهنا يمكنني أن أوجّه شيئاً من اللوم لتابيثا لأنها لم تأخذ تهديداته على محمل الجد، ويبدو لي أن هذا كان محض جنون. فقد كان دولوما جندياً في جيش التحرير، ومدرب على استخدام الأسلحة، وسار فوق جثث كثيرة، وعبر النار. ألن ينفذّ تهديداته؟ لكنّها لم تخبرني بهذه التحذيرات. كنت أعرف بأنّه سينفذ تهديداً كهذا، لكنني شعرت بالاطمئنان بعد أن تحدّثنا على الهاتف وأحسست بأنه لم يعد يبدي اهتماماً بها.

عندما اتصل بي فيل، اعتذر عمّا حدث لي في بلده، كما فعل بوبي. لم يكن بوبي رجلاً متديناً، أما فيل فهو رجل متدين، وتكلّمنا بإسهاب عن معتقداتنا عندما تصبح على المحك. كان من المثير للاهتمام عندما سمعت فيل يتحدّث عن تلك الأوقات عندما بدأ إيمانه يضطرب في الأزمات الكبيرة أو المعاناة التي تعرض لها. لست متأكّداً إن كان ما أشعر به هو مجرد شكّ. فأنا أميل لأن ألوم نفسي: ما الذي فعلته لأجلب هذه الكارثة على نفسي وعلى من أحبّهم؟ فمنذ فترة قصيرة، كان من المقرر أن يُعقد اجتماع «لأطفال السودان الضائعين» الذين يقيمون في المنطقة الجنوبية الشرقية في أتلانتا. وفي الطريق، انحرفت سيارة فيها ممثلون عن غرينسبورو، في تورث كارولاينا، عن الطريق السريع، وقُتل السائق وجُرح شخصان آخران. وفي اليوم التالي، قام شاب من غرينسبورو أيضاً، الذي حزن كثيراً عندما سمع بالحادث، وبسبب إحباطات أخرى في حياته، بشنق نفسه في قبو بيته. هل اللعنة التي حلّت عليّ كبيرة جداً إلى درجة أنها أصبحت تلقي بظلالها على كلّ من أعرفهم، أم أنني أعرف بكل بساطة الكثير من الأشخاص؟

لا أقصد أن أشير إلى أنّ هذه الوفيّات هي تجارب لي، لأنني أعرف أن الله لن يأخذ هؤلاء الناس، ولن يأخذ تابيثا بشكل خاص، ليختبر قوّة إيماني. لن أحدس ما هي الدوافع التي جعلته يعيدها إليه. لكن موتها أثبت أنه حافز لي لأن أفكّر بإيماني وبحياتي. لقد تفحّصت مسار حياتي، سواء ارتكبت أخطاء أم لم أرتكب، سواء أكنت طفلاً صالحاً أمام الله أم لم أكن، ومع أنني حاولت أن أحافظ على مساري، وضاعفت جهودي في الصلاة وصرت أحضر القدّاس بانتظام، أدركت أيضاً بأنه آن الأوان لأبدأ حياتي من جديد. لقد فعلت ذلك من قبل - في كلّ مرة، حياة انتهت وحياة أخرى بدأت. فقد انتهت حياتي الأولى عندما تركت مايك باي لأنني لم أر بيتي أو عائلتي منذ ذلك الحين، وأخذت حياتي في إثيوبيا مجراها أيضاً التي عشنا فيها ثلاث سنوات وأدركت مكانتي في الخطة الكبيرة لجيش التحرير ومستقبل جنوب السودان. وأخيراً، عندما وصلنا إلى كاكوما، بدأت من جديد.

بعد أن سرت إلى كينيا، عندما وجدتني ماريا على الطريق كنت أريد أن أصعد وأعود إلى اللّٰه، أمضيت شهوراً عديدة وأنا أفكّر لماذا ولدتُ أصلاً. كان خطأً شنيعاً، كما كان يبدو، وعد لا يمكن تحقيقه. كان هناك موسيقيّ في كاكوما، الموسيقيّ الوحيد في تلك الأيام الأولى، وكان يعزف أغنية واحدة، ليل نهار، على ربابته. وكان للحن الذي يعزفه بهيجاً لكن كلمات الأغنية كانت حزينة. «إنها أنتِ، يا أمّي، إنها أنتِ»، كان يغنّي، «أنتِ التي أنجبتني، وأنتِ التي ألومك». واستمرّ يلوم أمّه، وجميع الأمهات في دينكالاند، لأنهن ينجبن أطفالاً ليعيشوا في بؤس في شمال غرب كينيا.

تسود فكرة في الغرب بأن مخيّمات اللاجئين مؤقتة. فعندما ظهرت صور الزلازل في باكستان، وشوهد الناجون في مدن واسعة من الخيم التي لونها بلون الطين، ينتظرون الطعام أو الإنقاذ قبل حلول الشتاء، ويعتقد معظم الغربيين بأنّ هؤلاء اللاجئين سيعودون قريباً إلى ديارهم، وأن المخيمات ستُزال بعد ستّة شهور، وربما خلال سنة.

لكنّي نشأت في مخيّمات اللاجئين، وعشت في بينيدو حوالي ثلاث سنوات، وفي غولكور زهاء سنة، وفي كاكوما عشر سنوات. وفي كاكوما، كبرت مجموعة صغيرة من الخيم وأضحت رقعة واسعة من الأكواخ والمباني التي تقوم على أعمدة مكسوة بأكياس السيزال والطين، وعشنا في هذا المكان وعملنا وذهبنا إلى المدرسة منذ عام ١٩٩٢ حتى عام ٢٠٠١. لم يكن أسوأ مكان في القارة الأفريقية، لكنّه كان واحداً منها.

وعلى الرغم من ذلك، فقد خلق اللاجئون فيه حياة تشبه حياة البشر الآخرين، فكنّا نأكل ونتكلّم ونضحك وننمو. وكانت تباع السلع، ويتزوج الرجال النساء، ويولد الأطفال، ويشفى المرضى، وفي معظم الأحيان، كانوا يذهبون إلى المنطقة ثمانية ثم إلى العالم الآخر الحلو. وكنا نحن الصغار نذهب إلى المدرسة، نحاول أن نبقى مستيقظين ونركّز على وجبة طعام واحدة في اليوم وننشغل بسحر الآنسة غلاديس وفتيات مثل تابيثا. كنا نحاول أن نتجنّب المشاكل التي يسببها لاجئون آخرون - من الصومال وأوغندا ورواندا - ومن السكان الأصليين في شمال غرب كينيا، ونبقي آذاننا مفتوحة دائماً لأيّ أخبار ترد من البلد، أخبار عن عائلاتنا، وعن أيّ فرص لمغادرة كاكوما بشكل مؤقت أو دائم.

أمضينا السنة الأولى في كاكوما وفي ظننا أنّنا سنعود إلى قرانا في أيّ لحظة. وكنّا نسمع بين الحين والآخر أخباراً عن انتصارات يحققها جيش التحرير في السودان، ويقنعنا المتفائلون بيننا بأن استسلام الخرطوم أصبح وشيكاً. وبدأ

بعض الصبية يسمعون عن عائلاتهم - من لا يزال على قيد الحياة، من مات، ومن هرب إلى أوغندا أو إلى مصر أو إلى أبعد من ذلك. واستمرّ الشتات السوداني وانتشر في كافة أنحاء العالم، وفي كاكوما كنت أنتظر خبراً، أيّ خبر، عن والداي وأشقائي. لكن المعارك استمرت ولم يتوقف اللاجئون عن التدفق إلى المخيّم، مئات في الأسبوع، وبدأنا نقبل الفكرة بأن كاكوما ستظل إلى الأبد، وأنّنا قد نعيش دائماً في داخل حدودها.

هذا هو بيتنا، وأصبح غوب تشول كولونج، الرجل الذي كنت أعتبره أبي في المخيم، محطماً ذات يوم في عام ١٩٩٤. فلم أره مضطرباً ومشوشاً هكذا من قبل.

- يجب أن نرتب هذا المكان، قال. - يجب أن ننظّف هذا المكان. ثمّ علينا أن نبني مزيداً من الغرف. ثمّ علينا أن ننظف المكان مرة أخرى.

كان يقول لي ذلك صباح كلّ يوم طوال أسابيع. كان الصباح هو الوقت الذي يزداد فيه شعوره بالقلق. ففي كلّ صباح، كان يقول، إن الضباع المزمجرة لمسؤولياته الكثيرة تنقض عليه.

- هل تظن أن غرفتين أخريين ستكفيان؟ سألني.

فقلت تبدو كثيرة.

- مهما كانت فلن تكون كافية، قال. لم يستطع أن يفكّر بأنهم قادمون.

- لا أستطيع أن أصدّق بأنّهم سيأتون إلى هنا! إلى جحر الجرذان هذا!

في تلك الفترة، كان قد مضى عليّ في كاكوما، مع غوب تشول، ثلاث سنوات تقريباً. كان غوب تشول من مايال باي، وكان قد جاء إلى كاكوما عن طريق ناروس وتوقّف في أماكن عديدة أخرى. كانت كاكوما قد ولدت بوصول عشرة آلاف صبي مثلي ساروا في الظلام وعبر الغبار، لكن المخيّم نما بسرعة، وسرعان ما أصبح يضم عشرات آلاف السودانيين - عائلات وأجزاء من عائلات، وأيتام، وبعد فترة، أصبح يضم أيضاً رواندیين وأوغنديين وصوماليين، وحتى مصريين.

بعد شهور من العيش في الملاجئ كالتي نبنيها عادة أول ما نصل إلى مخيّم ما، أصبحت مفوضية اللاجئين تُقدَّم لنا عواميد وأقمشة مشمعة ومواد لبناء بيوت مقبولة أكثر. وفي النهاية، كان العديد من الصبية مثلي ينتقلون للعيش

مع عائلات جاءت من قرانا ومن مناطقنا، للمشاركة في الموارد والواجبات وللحفاظ على عادات عشائرنا حيّة. وعندما كبر المخيّم وأصبح يضم عشرين ألف شخص، ثم أربعين ألف وأكثر، عندما كبر وامتد خارجاً إلى العدم الذي تتقاذفه الرياح الجافة، ومع استمرار الحرب الأهلية بلا هوادة، أصبح المخيّم أكثر ديمومة، وبدأ الكثير من هؤلاء، مثل غوب تشول، الذين كانوا يعتبرون كاكوما محطة مؤقتة في البداية حتى تتحسّن الظروف في جنوب السودان، يرسلون في طلب عائلاتهم.

لم أقل لغوب شيئاً عن إمكانية إحضار زوجته وبناته الثلاث إلى مكان كهذا، لكني تساءلت بيني وبين نفسي، لأن كاكوما مكان فظيع ليعيش فيه الناس وينمو فيه الأطفال. لكن لم يكن لديه خيار آخر. فقد تبين أن ابنته الصغرى مصابة بمرض عظمي عندما شُخّصت في عيادة في نياماليل، شرقي مايال باي، وطلب الطبيب هناك تحويلها إلى مستشفى لوبيدنغ - أكثر العيادات تطوّراً القريبة من كاكوما. ولم يكن غوب يعرف متى سيتم تحويلها بالتحديد، وأمضى وقتاً طويلاً في البحث عن معلومات من أي شخص في لوكيتشوجيو، أي شخص له علاقة بالطب أو بنقل اللاجئين.

- هل تظن أنّهم سيكونون سعداء هنا؟ سألني غوب.

- سيكونون سعداء لأنهم سيكونون معك، قلت.

- لكن هذا المكان... هل هذا مكان يمكن لأحد أن يعيش فيه؟

لم أقل شيئاً. فعلى الرغم من عيوبه، فقد كان من الواضح منذ البداية أنّ هذا المخيّم سيكون مختلفاً عن المخيمات في بينيدو وبوتشالا وناروس وعن جميع الأماكن الأخرى. فمنذ البداية كان من المزمع إقامة مخيّم كاكوما وإدارته من قبل الأمم المتحدة ، وكان جميع العاملين فيه تقريباً من الكينيين، وقد أتاح ذلك إمكانية تنظيمه تنظيماً جيداً، لكن الكراهية بدأت تنشأ من داخل المخيّم ومن خارجه على حد سواء. فقد وجد التوركانا، وهم أناس يعملون في الرعي ويعيشون في منطقة كاكوما منذ ألف سنة، أنفسهم فجأة أناساً يقاسمونهم أرضهم - وأن يتخلّوا عن ألف هكتار في لحظة واحدة - لعشرات آلاف السودانيين، ثم الصوماليين، الذين يشاطرونهم بضع أمور ثقافية متشابهة. فاستاء التوركانيون من وجودنا، ثم استاء السودانيون من الكينيين الذين بدا لهم أنهم استولوا على جميع الأعمال المأجورة المتاحة في المخيّم، وأصبحوا يؤدّون أعمالاً كنّا نحن السودانيين أكثر قدرة على القيام بها عندما كنّا في بينيدو. وفي المقابل، كان الكينيون، في أقل لحظاتهم

ترفقاً، يعتبرون السودانيين علَقَات، لا يفعلون شيئاً أكثر من أن يأكلوا ويتغوطوا ويتذمروا عندما لا تسير الأمور وفق ما يرغبون. وفي مكان ما، كان يوجد عدد قليل من العاملين في مجال الإغاثة من أوروبا، والمملكة المتحدة، واليابان، والولايات المتحدة، كانوا يحرصون كلهم على النزول عند رغبة الأفريقيين، وكانوا يغادرون المخيّم عندما تنتشر فوضى مؤقتة في المخيّم، مع أن ذلك لم يحدث كثيراً. لكن مع وجود جنسيات متعددة، وقبائل متنوعة، وكميات شحيحة من الطعام، وهذا القدر من الألم والمعاناة، كان النزاع حتمياً.

كيف كانت الحياة في كاكوما؟ هل كانت حياة؟ كان هناك جدال حول ذلك. فمن ناحية، كنّا أحياء، وهذا يعني أنّنا كنّا نعيش حياة، وأنّنا كنّا نأكل، وبإمكاننا أن نقيم صداقات وأن نتعلّم، وكان بوسعنا أن نحبّ أيضاً. لكنّنا لم نكن في أي مكان. كانت كاكوما في اللا مكان، وقالوا لنا منذ البداية إن كاكوما كلمة كينية تعني اللا مكان. ومهما كان معنى الكلمة، فإن هذا المكان لم يكن مكاناً، وإنما نوع من مطهر، حاجز بين الجنة والنار، أسوأ مما كان عليه الوضع في بينيدو التي كان يوجد فيها على الأقل نهر جار، ومن نواح عديدة، كانت تشبه جنوب السودان الذي غادرناه. أما كاكوما فكانت أشدّ حرارة وأكثر ريحاً وأكثر جفافاً، والأعشاب والأشجار قليلة في هذه الأرض، ولا يوجد فيها غابات يمكن للمرء أن يقتات منها. فأصبحنا نعتمد على الأمم المتّحدة في كلّ شيء.

في أيامي الأولى في المخيّم، ظهر موسى مرة أخرى ثم غادر حياتي. فعندما كانت كاكوما لا تزال منظّمة، كنت أتمشى حولها كلّ يوم، لأرى من تمكّن من الوصول ومن لم يتمكّن. ورأيت مشاحنات عديدة بين السودانيين والتوركانا، وبين عمال الإغاثة الأوروبيين والكينيين. ورأيت عائلات أعيد تشكيلها، وإقامة تحالفات جديدة، بل إنني رأيت القائد سّر يتكلّم بحماسة مع مجموعة من الصبية الذين يكبرونني ببضع سنين. وكنت أحرص على الابتعاد عنه وعن أيّ ضابط أو مسؤول آخر في جيش التحرير، لأنني كنت أعرف نواياهم. وعندما كنت أمشي حول حدود المخيم في الأسابيع القليلة الأولى، علمت أنّ أتشور أتشور قد تمكّن من الوصول بعدي، وكان معه ثلاثة من الصبية الأحد عشر.

عندما رأيت موسى، لم يكن لقاؤنا حماسياً. ففي وقت مبكر من صباح أحد الأيام في الشهور الأولى من قدومنا إلى كاكوما، صادفت مجموعة من الشبان النائمين، يتقاسمون كلهم بطانية واحدة طويلة، أقدامهم ورؤوسهم مكشوفة،

فرأيته. موسى. كان يحاول مع صبي آخر في عمرنا أن يطبخ عصيدة في مقلاة على نار في علبة صغيرة. فرآني كما رأيته.

- موسى! صحتُ.

- شه! هسس، وهرع إليّ.

أبعدني عن رفيقه وتمشّينا حول أطراف المخيّم.

- لا تنادني باسم موسى هنا، قال. فشأن الكثير من الصبية في المخيّم، غيّر اسمه، كي لا يتعرّف عليه واحد من قادة جيش التحرير الذين ربما يبحثون عنه.

كان قد أصبح صبياً مختلفاً الآن عن آخر مرة رأيته فيها. فقد ازداد طوله بضع بوصات، وأصبحت بنيته تشبه بنية ثور، وبدا جبينه أكثر صرامة وحدّة - جبهة رجل. أما في الأمور الأساسية الأخرى، بابتسامته الملتوية العريضة وعينيه الباسمتين البراقتين، كان موسى لا يزال كما هو إلى حدّ كبير. وأراد أن يحكي لي على الفور عن الفترة التي أمضاها كجندي، وحكى لي ذلك بنفس الحماسة التي قد تتملك شخصاً وهو يصف فتاة جذّابة.

- لا، لا، لم أكن مقاتلاً. فأنا لم أقاتل. تدرّبت فقط، قال، مجيباً على سؤالي الأول. فشعرت بارتياح كبير.

- لكن التدريب، يا أتشاك، كان مختلفاً تمام الاختلاف عن الحياة هنا، عن بينيدو. كان قاسياً جداً. فهنا كنت تقلق حول الطعام والحشرات والريح، أما هناك فقد كانوا يحاولون قتلي! أنا واثق من أنهم كانوا يحاولون أن يقتلوني. كانوا يقتلون صبية هناك.

- هل كانوا يطلقون عليهم النار؟

- لا، لا. لا أظن ذلك.

- ليس كما حدث في بينيدو، السجناء؟

- لا، ليس هكذا. لا رصاصات، فقط كانوا يوصلونهم إلى حتفهم. عدد كبير من الصبية. كانوا يضربونهم، يلقون بهم على الأرض، يطاردونهم ويعيدونهم إلى السماء.

تجاوزنا خيمة صغيرة كان في داخلها مصور أبيض البشرة يلتقط صوراً لأمّ سودانية تحمل طفلها الضامر.

- هل أطلقت النار ببندقية؟ سألت.

- نعم. كان ذلك يوماً رائعاً. هل أطلقت النار ببندقية؟ قلت له لا.

- كان يوماً جيداً عندما أعطونا بنادق، كلاشينكوف. لقد انتظرنا كثيراً، وأخيراً طلبوا منّا أن نصيب أهدافاً. أوه يا رجل، الأسلحة تؤلم! فهي تعود إليك بقوة وأنت ترمي على الأهداف! إنهم يسمون ذلك الارتداد. كتفي يؤلمني حتى الآن، يا أتشاك.

- أيّ كتف؟

أشار إلى كتفه اليمنى، لكزته عليها.

- لا، لا تفعل ذلك!

- لكزته عليها مرة أخرى. كان من الصعب أن يقاوم ذلك.

- لا! قال، وهاجمني.

تصارعنا لبضع دقائق، ثم، لأننا تعبنا ولم نكن نأكل جيداً، أدركنا أنه لم تعد لدينا طاقة كافية لنتصارع. فقد كنّا جائعين أكثر مما كنّا في بينيدو. فقد كنّا نأكل وجبة طعام واحدة في اليوم، وواحدة في الليل، أما في ما تبقى من اليوم، فكنّا نحاول أن نحافظ على طاقتنا. لم أكن أعرف لماذا كانت الأمم المتحدة تجد أن إطعام اللاجئين في بينيدو أسهل من إطعامهم في كاكوما. نهضنا واقفين وتابعنا سيرنا، تجاوزنا مجموعة الملاجئ التي تقيم فيها عائلات ضباط جيش التحرير الشعبي.

- أعطوا كلّ واحد منّا خمس طلقات وثبتونا عندما بدأنا نرمي على الأهداف. انبطحنا على بطوننا كي نظل ثابتين. كان ذلك مؤلماً جداً لكني كنت سعيداً وأنا أرى الطلقات تنطلق من بندقيتي. لم أصب أيّ هدف. لا أعرف إلى أين ذهبت طلقاتي. لم أرها ثانية قط. ذهبت إلى السماء أو إلى شيء ما.

قلت له إن التدريب يبدو جيداً.

- لا، لا، يا أتشاك. لم يكن جيداً. لم يقل أحد إنه كان جيداً. وكانوا يختارونني ليعاقبونني من بين الجميع. كانوا يظنون أنني ارتكبت خطأً ما يا أتشاك. في أحد الأيام تأخرت عن موعد الاستعراض وقالوا إنني فتى مثير للمشاكل. لقد اختلط عليهم الأمر بفتى آخر يدعى موسى، كما تبين لي لاحقاً. لكنّهم ظنّوا أنّني فتى سيء فكانوا يعاقبونني. وضعوني في حظيرة كالتي يضعون فيها الأبقار. بقيت فيها يومين. لم أستطع أن أجلس. كنت أقف فيها طوال الوقت حتى يغالبني النعاس، وكانوا يتركونني أنام من الفجر حتى بزوغ الشمس، ربما لمدة ساعتين فقط. كان ذلك أسوأ مما لقيته في بيت العربي. فعندما كنت مع العربي كان من السهل عليّ أن أكرهه وأكره عائلته وأولاده. أما هنا فكان الأمر محيراً. لقد جئت إلى بونغا لأتدرّب وأحارب لكنّهم كانوا يحاربونني. كانوا يحاولون أن يقتلوني، أقسم لك بذلك يا أتشاك. كانوا يقولون إنّه تدريب، وإنّهم بذلك يصنعون منّا رجالاً، لكّني كنت واثقاً من أنّهم كانوا يريدون قتلي. هل أحسست قط بأن أحداً يريد أن يقتلك، أنت بالتحديد؟

فكّرت في هذا السؤال وأدركت أنّني لا أعرف تماماً.

- كنّا نركض طوال اليوم، يا أتشاك. نصعد التلال ثم نهبط جرياً. وبينما كنا نجري، كان المدربون يضربوننا، يصرخون فينا. لكن الصبية لم يكونوا أقوياء بما يكفي. لم يكن المدربون أولئك أذكياء. كانت لديهم أساليبهم في التدريب وكانوا يطبقونها علينا لكنّهم نسوا أنّ هؤلاء الصبية مرضى وضعفاء وليسوا إلاّ جلداً على عظم. هل يمكنك أن تصعد التلال ركضاً وأنت تُضرب يا أتشاك؟

- لا.

- لذلك كان الصبية يتساقطون. كان الصبية يسقطون وتُكسر عظامهم. شاهدت صبياً يسقط. كنّا نجري أسفل التلّ وبدأ أحد المدربين يصيح به، كان اسمه دانيال. كان بحجمي، لكنه أنحف. عندما رأيته عرفت أنّه يجب ألاّ يكون في بونغا. كان واحداً من أصغر الصبية وكان بطيئاً جداً! كان يركض أبطأ منك عندما تمشي. كانت رؤيته تثير الضحك، لكن هذه هي الحقيقة، كانت الطريقة التي يركض فيها غبية. كان ذلك يثير غضب المدربين. لم يكونوا يريدونه في المعسكر، كما لم يكونوا يريدونني في المعسكر. لذلك كانوا يصرخون في وجه دانيال ويطلقون عليه خراء. كان هذا هو اسمه في بونغا: خراء.

ضحكنا كلانا. لم نتمالك أنفسنا. لم نكن نعرف أحداً يدعى خراء.

- كنّا دائما نجري صعوداً وهبوطاً من ذلك التلّ، وفي إحدى المرات عندما كنّا نفعل ذلك، كان الظلام قد خيّم تقريباً. فقد غربت الشمس ولم نعد نرى جيداً. كان هناك مدرّب يدعى الرفيق فرانسيز الذي كان قاسياً مع الجميع، لكنّي لم أكن قد رأيته يتعامل مع دانيال قبل الآن. أمّا في تلك الليلة فلم يكن يفارق دانيال. كان يركض بجانبه، يركض خلفه وأمامه، ينفخ في صافرته دائماً. كان لدى الرفيق فرانسيز صافرة ولم يكن يتوقف عن النفخ فيها في وجه دانيال.

- ودانيال؟ ماذا فعل؟

- كان حزيناً جداً. لم يغضب. أظن أنه ربّما تظاهر بأنه أطرش. فلم يكن يبدو أنه يسمع شيئاً. كان يركض فقط. ثمّ ركله الرفيق فرانسيز.

- ركله؟

- كانت التلةّ شديدة الانحدار يا أتشاك. فعندما ركله كان كما لو أنه طار. طار مسافة عشرين قدماً، كما أظن، وبما أنه كان يركض فقد كانت قوة الدفع قوية. عندما بدأ يطير يا أتشاك - آسف، أقصد يا فالانتينو - عندما كان في الهواء شعرت بمغص في معدتي. أحسست بأنني أصبت بمرض شديد. فقد سقط كلّ شيء إلى ركبتي. كنت أعرف أن هذا شيئاً سيئاً، بأن دانيال كان يطير أسفل التلّة المليئة بالصخور. كان الصوت مثل تقصفّ غصين. استلقى هناك. استلقى هناك كما لو أنه مات إلى الأبد.

- هل مات؟

- مات في ذلك المكان. رأيت الأضلاع. لم أعرف أن ذلك يمكن أن يحدث. هل تعرف أن أضلاعك قد تخرج من جلدك؟

- لا.

- خرجت ثلاثة أضلاع من جلده، يا أتشاك. مشيت نحوه بعد حدوث ذلك مباشرة. لم يفعل المدرّب شيئاً. ظنّ أن الصبي سينهض، فظلّ ينفخ في صافرته لكنّي سمعت الصوت فتوجهت إلى دانيال ورأيت عينيه مفتوحتين، كأنهما تنظران إليّ. كانتا عينين ميتتين. أنت تعرف كيف تبدوان. أعرف أنّك تعرف.

- نعم.

- ثم رأيت الأضلاع. كانت مثل عظام على حيوان. عندما تذبح حيواناً تستطيع أن ترى العظام، إنها بيضاء محاطة بالدم، صحيح؟

- نعم.

- كانت مثلها. كانت الأضلاع حادّة جداً أيضاً. كانت قد كُسرت فخرجت العظام من جلده حادّة جداً، مثل سكاكين مقوسة. وقفت بجانبه فراح المدرّب يصرخ بي. التفتُ ورأيتُ مدرّبين آخرين يقفان هناك. أظن أنهما كانا يعرفان أن خطأً ما قد حدث. ضربوني حتى أخذت أجري أسفل التلّ ورأيتهم يحيطون بدانيال. بعد ثلاثة أيام أخبرونا بأنّ دانيال مات من الحمى الصفراء، لكننا كنّا نعرف جميعاً أنهم يكذبون. عند ذلك بدأ الصبية يهروبون. وكان ذلك عندما غادرت.

مشيت أنا وموسى حول المخيّم، ثم عدنا إلى المكان الذي توجد فيه النار ورفيقه والعصيدة.

- سأراك يا أتشاك، أليس كذلك؟

قلت له طبعاً سأراه. لكنّ لم ير أحدنا الآخر كثيراً. أمضينا بضعة أسابيع ونحن نتجوّل معاً في المخيّم، نتحدّث عن الأشياء التي رأيناها وفعلناها، لكن بعد أن حكى لي قصّته، لم يعد موسى يبدي اهتماماً بالتحدّث عن الماضي. فقد رأى وجودنا في كينيا فرصة عظيمة، وكان يبدو أنه يفكّر دائماً بأمور يمكنه أن يستغلها. فأصبح تاجر سلع في الأيام الأولى تلك، يبيع أدوات مطلية بالفضة وأكواب وأزرار وخيوط، قابتدأ ببضعة شلنات وضاعف قيمتها ثلاث مرات في يوم واحد. كان يتحرّك أسرع مني، وظل يفعل ذلك. وفي أحد الأيام، بعد لقائنا بفترة ليست طويلة، قال موسى إن لديه خبر جديد. فقد قال إنه يوجد عنده عمّ كان قد غادر السودان منذ زمن ويعيش في القاهرة، وعرف أن موسى يعيش في كاكوما فبدأ يرتب له للذهاب إلى مدرسة خاصة في نيروبي. لم يكن وحيداً في ذلك. فقد كان بضع عشرات من الصبية يُرسلون كلّ سنة إلى مدارس داخلية في كينيا، وحصل بعضهم على منح دراسية، بعد أن عرفوا أن لهم أقارب ميسوري الحال، أو عرف هؤلاء الأقارب أماكن وجودهم.

- آسف، قال موسى.

- لا بأس، قلت. - اكتب لي رسالة.

لم يكتب لي موسى رسالة قط، لأن الصبية لا يكتبون رسائل إلى صبية آخرين، لكنّه غادر ذات يوم، قبل افتتاح مدرسة اللاجئين في المخيّم بفترة قصيرة، ولم أسمع منه طوال عشر سنوات تقريباً، حتى وجدنا أنّنا نعيش في أمريكا الشمالية - أنا في أتلانتا وكان يدرس في جامعة كولومبيا البريطانية. وبدأ يتصل بي مرّة كلّ بضعة أسابيع، أو أتصل به أنا. كان صوته يبعث فيّ السكينة والإلهام باستمرار. لم يُهزم، وكان قد ذهب إلى المدرسة في نيروبي وكندا وكان يتطلع دائما إلى الأمام بشجاعة، على الرغم من الوسم رقم ٨ وراء أذنه. لا شيء يمكن أن يهزم موسى.

كانت ماريا تعيش مع أبوين بالتبنّي، رجل وزوجته من قريتها في ذلك الجزء من كاكوما الذي كانت تقيم فيه الأسر التي لم يلحق ببيوتها ضرر تقريباً. وعاشت ماريا مع ثلاث شابّات أخريات ورجل عجوز - جدّ إحدى النساء - حتى مات الرجل فتزوجت النساء أو عدن إلى السودان، وتركن ماريا متاحة لأي شخص يمكن أن يضمها إليه. وفي أحد الأيام أمضيت الصباح وأنا أبحث عنها، حتى رأيت أخيراً هيئتها في إحدى زوايا كاكوما، تعلّق ملابس رجل على حبل غسيل.

- ماريا!

التفتت وابتسمت.

- أيها النَؤُوم! بحثت عنك طوال الأسبوع الماضي في المدرسة.

كانت تدعوني النَؤُوم ولم أكن أعبأ بذلك. كانت لديّ عدة أسماء في كاكوما، وكان هذا الاسم أكثرها شاعرية. كنت أسمح لماريا أن تطلق عليّ أيّ اسم تريد، لأنها أنقذتني من الموت على الطريق في تلك الليلة.

- في أي صفّ أنت هذه السنة؟ سألتها.

- الصفّ الخامس، قالت.

- أوه! الصفّ الخامس! انحنيت أمامها. - فتاة مميّزة جداً!

- هذا ما يقولونه.

ضحكنا كلانا. لم أدرك أنها فتاة مميّزة في دراستها. كانت أصغر مني سناً، وها هي في الصف الخامس للتو! لا بد أنها كانت أصغر التلاميذ في الصفّ. - هل

هذه ثيابك؟

أشرت إلى بنطلون وصل إلى الأرض. فلا بد أن طول صاحبه لا يقل عن ستّة أقدام ونصف.

- أبي هنا. كان رجل الدراجات في بلدتي.

- كان يصلح الدراجات؟

- يصلحها، يبيعها. يقول إنّه كان قريباً من أبي. لا أتذكّره. الآن أعيش معهما. إنه يدعوني ابنته.

عندي عمل كثير، قالت ماريا. عمل أكثر مما فعلته أنت أو سمعت عنه. فقد كانت الأعمال التي تقوم بها في البيت والمدرسة بعد الغروب منهكة ولم يكن بمقدورها أن تتكلّم. وكان الرجل الذي تبنّاها ينتظر أن ينضم إليه ابنان آخران إلى المخيّم، لذلك كانت ماريا تعرف بأن عملها سيتضاعف عندما يصلان ثلاث مرات عما هو الآن. كانت قد انتهت من تعليق الملابس ونظرت في عينيَّ.

- ما رأيك في هذا المكان، يا أتشاك؟

كانت لديها طريقة خاصة عندما تنظر إليّ تختلف كثيراً عن نظرة معظم الفتيات السودانيات اللاتي لا تلتقي غالباً عيناك بأعينهن مباشرة، ولا يتكلّمن بهذه الصراحة.

- كاكوما؟ قلت.

- نعم، كاكوما. لا يوجد شيء هنا سوانا. ألا ترى أن هذا غريباً؟ لا يوجد إلاّ ناس وغبار؟ فقد قطعنا للتو كلّ الأشجار والأعشاب لبناء بيوتنا والحصول على الحطب. والآن ماذا؟

- ماذا تقصدين؟

- نبقى هنا فقط؟ هل سنبقى هنا دائماً حتى نموت؟ حتى تلك اللحظة، لم أكن قد فكّرت بالموت في كاكوما.

- نبقى حتى تنتهي الحرب، ثمّ نعود إلى بيوتنا، قلت. كانت هذه اللازمة المتفائلة التي كان يرددها غوب تشول، وأظن أنني كنت مقتنعاً بها. ضحكت ماريا بصوت عالٍ عندما قلت ذلك.

- أنت لست جاداً فيما تقول، أيها النَؤوم؟

- ماريا!

كان صوت امرأة آت من الملجأ.

- يا بنت، تعالي إلى هنا!

لوت ماريا وجهها وتنهّدت.

- سأبحث عنك في المدرسة عندما نبدأ. أراك لاحقاً، أيها النَؤُوم.

كان غوب تشول معلّماً يعمل مع جيش التحرير الشعبي بصورة غير رسمية، وكان رجلاً ذا رؤية ويخطط بدقة. وكنّا قد بنينا معاً ملجأنا الذي يُعتبر أحد أفضل البيوت في حيّنا. وبعد أن زودتنا الأمم المتحدة بصحائف بلاستيكية وأعمدة، أقمنا ملجأً يكسو سقفه سعف النخيل الذي يبقيه بارداً خلال النهار ودافئاً في الليل. وكانت الجدران من الطين، وسريرانا من قماش السيزال. لكنّ الجو كان شديد الحرارة في كاكوما في معظم الليالي، فكنا ننام خارج الملجأ. كنّا ننام تحت السماء المفتوحة، وكنت أتأمل في المكان تحت ضوء القمر أو مصباح الكيروسين الذي كنّا نتقاسمه.

مثل السّيد كونديت، كان غوب تشول يصرّ على أن أدرس باستمرار، حرصاً على مستقبل السودان. وكان يتصوّر أيضاً أنه عندما تنتهي الحرب، وبعد أن يحصل جنوب السودان على الاستقلال، سنكون، نحن الذين تعلّمنا في بينيدو وكاكوما، وبالاستفادة من الخبرة ومن المواد التي يقدمها لنا المجتمع الدولي، جاهزين لقيادة سودان جديد.

لكنّنا لم نكن نرى هذا المستقبل، لأننا لم نكن نرى في كاكوما سوى التراب والغبار. وكانت فرشنا مليئة بالغبار، وكان الغبار يغزو كتبنا وطعامنا. فقد كان تناول لقمة واحدة من الطعام من دون أن تطحن رملاً بين أسنانك شيئاً لم يُسمع عنه. وكانت جميع الأقلام التي كنّا نستعيرها أو تُعطى إلينا لا تعمل دائماً لأن الغبار يسدّ فتحة القلم، فكنا نضطر للكتابة بأقلام الرصاص التي كانت نادرة هي أيضاً.

كان يصيبني اسوداد في عيني عدة مرات في اليوم. فعندما كنت أنهض بسرعة كانت زوايا رؤيتي تعتم وأستيقظ وأنا على الأرض، دائماً، بغرابة، غير مصاب بجروح. إنه الدخول في مرحلة الظلام، كما كان أتشور يقول.

كان آتشور آتشور يعرف التعابير السائدة لدى الصبية في المخيّم أكثر مني، لأنه كان لا يزال يعيش بين القاصرين غير المصحوبين. وكان يشارك ستّة صبية آخرين وثلاثة رجال، كلّهم كانوا جنوداً سابقين في جيش التحرير في ملجأ واحد. وكانت اليد اليمنى لأحد هؤلاء الرجال الذي لا يزيد عمره على عشرين سنة، مبتورة، وكنّا نطلق عليه اسم «أصابع».

لم تكن تتوفر كميات كافية من الطعام، ولم يكن يُسمح للسودانيين، وهم أناس زراعيون، بتربية مواش في المخيّم، ولم يكن التوركانا يسمحون للسودانيين بإبقاء أيّ منها خارج المخيّم. وفي داخل كاكوما، لم يكن هناك مكان لزراعة أي محصول، والتربة غير صالحة لزراعة أي شيء تقريباً. وكان من الممكن زراعة بعض أنواع الخضراوات بالقرب من صنابير الماء، لكن هذه الحدائق التافهة لم تكن تلبّي احتياجات أربعين ألف لاجئ، يعاني الكثير منهم من فقر الدم.

وكان يتغيب عن المدرسة كلّ يوم عدد من التلاميذ لإصابتهم بالأمراض. فقد كانت عظام الصبية الذين هم في عمري تقريباً تحاول أن تنمو، لكن لم تكن توجد مواد مغذّية كافية في طعامنا، فكان يتفشى الإسهال، والزحار، والتيفوئيد. وفي بداية الحياة المدرسية، عندما كان أي تلميذ يمرض، كانت تُبلّغ المدرسة كلّها، وكان يطلب من التلاميذ أن يصلّوا من أجل شفاء ذلك الفتى. وعندما كان ذلك الفتى يعود إلى المدرسة، كان التلاميذ الآخرون يصفقون له، مع أن بعض الصبية كانوا يشعرون أنه من الأفضل الابتعاد عن التلاميذ الذين كانوا مريضين. أما عندما لا يتماثل التلميذ إلى الشفاء، فكان أساتذتنا يجمعوننا قبل أن تبدأ الدروس، ويقولون لنا إنه يوجد خبر سيئ وهو أن ذاك التلميذ قد مات، فكان بعض التلاميذ يبكون، وبعضهم الآخر لا يبكون. وفي أحيان كثيرة، لم أكن متأكّداً إن كنت أعرف الصبي، فكنت أنتظر حتى يتوقف الصبية الذين يبكون عن بكائهم. ثمّ يستمرّ الدرس. أما نحن الذين لم نكن نعرف الصبي فكنا نخفي شعورنا بالرضا بأنّ الموت يعني أن المدرسة ستُغلق مبكراً في ذلك اليوم. فإذ كانت وفاة تلميذ تعني منحنا عطلة لمدة نصف يوم، أو يوم، تستطيع أن نذهب خلاله إلى البيت لننام، وكان ذلك يعني أنّنا نستطيع أن نرتاح ونصبح في حال أفضل حتى نتمكّن من مقاومة المرض، نحن أنفسنا.

لكن بعد فترة من الزمن، بدأت أعداد الصبية الذين يموتون تزداد، ولم يعد هناك متسع للحزن على كلّ واحد منهم، فكان الصبية الذين يعرفون الصبي الميت يحزنون وحدهم، أما الصبية الأصحاء فيتمنّون ألاّ يمرضوا، وتستمرّ الدروس، ولم تعد هناك عطل لنصف يوم أو يوم.

كان ذلك يجعل الدراسة صعبة، وتحقيق إنجاز دراسي شبه مستحيل. وبهذا الشعور بالإحباط، كان الكثير من الصبية ينقطعون عن الدراسة. فمن بين ثمانية وستّين صبياً في مدرستي المتوسطة، انتقل إلى المدرسة الثانوية ثمانية وثلاثون صبياً فقط. وعلى الرغم من ذلك، فقد كان الوضع أكثر أماناً من السودان، ولم يكن أمامنا خيار آخر. فقد كنت جائعاً، لكنّي كنت أشكر ربي في كلّ يوم لأنّني أشعر بأنني أصبحت حرّاً من تهديد تجنيدي في جيش التحرير. أما هنا في المخيّم، فالضرب بالعصا أقل، والأعمال الانتقامية أقل، ويوجد قدر أقل من الحياة العسكرية الصارمة، ولم نعد، لفترة من الوقت، بذوراً، لم نعد الجيش الأحمر. بل عدنا ببساطة إلى كوننا صبية، وأصبحنا نلعب بعد فترة بكرة السلة.

اكتشفتُ كرة السلة في كاكوما، وبسرعة بدأت أعتقد بأنّني أجيد اللعب بها، وأنني أصبحت مثل مانوتي بول، وأنهم سيأخذونني إلى الولايات المتحدة لأصبح لاعباً محترفاً. ومع أن كرة السلة لم تكن شعبية مثل كرة القدم في المخيّم، فقد جذبت مئات الصبية، الطوال القامة، السريعين، الصبية الذين يحققون نقاطاً أكثر مما يحققونها في مباريات كرة القدم. وكان الأوغنديون يجيدون اللعب بكرة السلة - كانوا يتقنون قواعد اللعبة - وكان الصوماليون سريعين، لكنّ السودانيين هم الذين هيمنوا على اللعبة، لأن سيقاننا وأذرعنا الطويلة كانت تتفوق على الآخرين. وعندما كانت تقام مباراة، ويلعب السودانيون ضدّ أي فريق آخر، كنّا نفوز دائماً، مهما كانت الضربات الخارجية جيدة، ومهما كانت سرعة اللاعبين، ومهما بلغ عدد مشجعي الفريق المنافس. وكان ذلك يمنحنا فخراً عظيماً لنعتبر أنفسنا، كما كنا ذات يوم، ملوك أفريقيا، المونيجانغ، شعب الله المختار.

قبل وصول أسرة غوب تشول بعدة أيام، بدأ يضع سيناريوهات بعدم تمكن زوجته وبناته من الوصول إلى كاكوما. وكان يقول إن قطاع الطرق قد يقتلوهن على الطريق. وكنت أقول له إن ذلك أمراً غير محتمل، لأنّهن سيأتين مع أشخاص كثيرين آخرين، وأنهن سيكنّ في مأمن، بل حتى يمكن أن يأتين بسيارة. فيقتنع غوب تشول لمدة ساعة تقريباً، ثم يعود إلى هوسه، يفكّ سريره ثم يجمعه، ويعود يهبط إلى هاوية الشكّ. «ماذا لو أنّ بناتي لم يعرفنني؟» كان يسأل ستّ مرات في اليوم. لم أكن أجيبه على هذا السؤال، لأنّني لم أعد أنا نفسي أتذكّر هيئة والديّ. والأسوأ من ذلك، أن بنات غوب تشول كنّ أصغر مني، أصغر مني بكثير مما كنت عندما تركت البيت. فقد كانت أعمار بناته الثلاث تقل عن خمس سنوات، وقد مضى على ذلك الآن ثماني سنوات، فلن يعرفن غوب تشول عندما يرينه.

- طبعاً سيعرفنك، قلت له. - فكلّ البنات يعرفن والدهن.

- أنت محقّ. أنت محقّ، يا أتشاك. شكراً لك. إني أفكّر كثيراً.

في كلّ يوم، كان غوب تشول ينتظر أن يسمع أخباراً عن القادمين إلى كاكوما. وكنّا نسمع بين الحين والآخر شيئاً عن حركة اللاجئين، ونتوقّع وصولهم، ونستعدّ لذلك. لكن حتى بعد مضي ثلاث سنوات، كان كلّ أسبوع يجلب معه حوالي ألف لاجئ جديد، وظل المخيم ينمو وامتد إلى الخارج لعدة أميال، وأصبحت أشعر كما لو أنني أمشي في درب جديد في صباح كلّ يوم. وكبرت كاكوما وأصبحت تحيط بكاكوما الأولى، ثم الثانية، ثم الثالثة، ثم الرابعة. فقد أصبحت مدينة للاجئين وأصبحت لها ضواحيها الخاصة بها.

لكن معظم القادمين كانوا يأتون من أقاليم السودان، لاسيما من القرى الأكثر قرباً من كينيا. وكانت أعداد قليلة تأتي من قرى قريبة من مايال باي، وكان معظم الذين كنت أسألهم عن أهلي يقولون إنهم لم يسمعوا شيئاً عن قريتي، أما الذين يعرفون شيئاً عن منطقة شمال بحر الغزال، فكانوا يجزمون بأنها أزيلت من على سطح الأرض.

- هل أنت من شمال بحر الغزال؟ سألني أحد الرجال. - لقد ماتوا كلّهم هناك.

رجل آخر، مسّن، ساقه اليمنى مبتورة، كان أكثر تحديداً.

- أصبحت منطقة شمال بحر الغزال الآن مسكناً للمرحلّين. لقد استولوا عليها. أصبحت أراضي مراعيهم. لم يعد هناك شيء يمكن العودة إليه.

وفي أحد الأيام، وردت أخبار عن منطقتي من صبي لا أعرفه جيداً. فقد كنت واقفاً عند حنفية الماء قبل بدء الدروس عندما جرى نحوي الصبي الذي يدعى سانتينو، وقال لي إنه يوجد رجل في مستشفى لوبيدنغ من مايال باي. وقال إن صبياً آخر كان في المستشفى لأنه كان مصاباً بالملاريا كان يتحدّث مع الرجل الذي ذكر اسم قريتي، وقال إن ذلك الرجل يتذكّرني، أتشاك دنغ. فكان عليّ أن أجد وسيلة للذهاب إلى مستشفى لوبيدنغ بسرعة، وقلت لنفسي إن هذه أول مرة منذ سنوات كثيرة يأتي فيها شخص من مايال باي إلى كاكوما.

لكني تذكرت دانيال دوت، وهو صبي آخر أعرفه كان ينتظر أخباراً عن أسرته، فعرف أنّهم ماتوا جميعاً. ولشهور بعد ذلك، كان دانيال يردد إنّه كان يتمنّى ألاّ يعرف ذلك، لأنّ من الأسهل على المرء أن يمضي حياته في الشكّ والأمل على

أن يعرف أنّ جميع أهله قد ماتوا. إن معرفة أن جميع أفراد أسرتك قد ماتوا يجعلك تتخيل كيف ماتوا، وربما كيف عانوا قبل أن يموتوا، وكيف يمكن أن تكون جثامينهم قد انتهكت بعد الموت. فلم أذهب إلى المستشفى لرؤية ذلك الرجل من مايال باي. وعندما سمعت بعد أسبوع أنه ذهب، لم أحزن لأنني لم أره.

أُعلن عن إجراء إحصاء عندما كان غوب تشول ينتظر قدوم زوجته وبناته، فعكّر طمأنينته وراحة باله. فبغية أن يقدموا لنا الخدمات والغذاء، أرادت مفوضية شؤون اللاجئين وفرق تقديم المعونات العديدة الأخرى في كاكوما معرفة عدد اللاجئين القاطنين في المخيّم بدقة. فأعلنوا في عام ١٩٩٤، بأنّهم سيحصوننا، وقالوا إن ذلك سيستغرق بضعة أيام. كنت واثقاً من أن المنظمين كانوا يرون الأمر بسيطاً جداً وضرورياً، أما الوجهاء السودانيون في المخيّم، فلم يروا الأمر كذلك.

- ماذا يخطّطون في رأيك؟ تساءل غوب تشول بصوت مسموع.

لم أعرف ما الذي يقصده بذلك، لكني سرعان ما فهمت ما الذي كان يشغل باله هو ومعظم المسنين السودانيين. فقد تذكّر بعض الكبار المتعلّمين عهد الاستعمار، عندما كان يتعين على الأفريقيين أن يضعوا شارات تعريف حول رقابهم.

- هل يمكن أن يكون هذا الإحصاء ذريعة لاستعمار جديد؟ تساءل غوب تشول. - قد يكون ذلك. لا بل إنه أمر محتمل جداً!

لم أقل شيئاً.

في الوقت نفسه، كانت هناك أسباب عملية، أقل رمزية، لمعارضة إحصاء القاطنين في المخيّم، بما فيها الحقيقة بأنّ عدداً من الوجهاء السودانيين تصوّروا أن ذلك سيؤدي إلى تخفيض حصصنا من الطعام لا إلى زيادتها. فإذا اكتشفوا أنه توجد أعداد أقل مما كانوا يفترضون في المخيّم، فإن التبرّعات الغذائية التي تقدمها دول العالم ستنخفض. وانتشر الخوف بين الصغار والكبار في كاكوما لأنهم ظنوا أن الإحصاء ما هو إلا وسيلة من وسائل الأمم المتحدة لقتلنا جميعاً. ولم تتفاقم هذه المخاوف إلاّ بعد أن أقيمت حواجز حول المخيّم.

فقد بدأ العاملون في الأمم المتحدة يقيمون حواجز، طولها ستّة أقدام ومصفوفة في شكل ممرات لكي نسير في صفّ أحادي عندما يحصون عددنا،

وبهذه الطريقة فإنهم سيحصوننا مرة واحدة فقط. وحتى السودانيين الأصغر سناً الذين لم يقلقوا في البداية، فقد بدأ يتملكهم قلق شديد عندما بدأت تقام تلك الحواجز. كان مشهداً قبيحاً، تلك المتاهة من الحواجز، البرتقالية الباهتة اللون. وسرعان ما وصل الشك إلى نفوس المتعلّمين بيننا وقالوا إن هذه الخطة تهدف إلى القضاء على الدينكا. كان معظم السودانيين في عمري قد سمعوا بقصة المحرقة، واقتنعوا بأنّ هذه الخطة تشبه الخطة التي استخدمت للقضاء على اليهود في ألمانيا وبولندا. كنت مرتاباً من هذا الذعر المتزايد، لكن غوب تشول كان مؤمناً به. وكرجل عقلاني مثله، فقد كانت لديه ذاكرة طويلة للظلم الذي لحق بشعب السودان.

- ما هو الشيء الغير محتمل، يا ولد؟ سألني. - انظر أين نحن؟ قل لي ما هو الشيء غير المحتمل في هذا الزمن في أفريقيا!

لكنّ لم يكن عندي سبب لأشكّ بالأمم المتحدة. فقد كانوا يوفرون لنا الطعام في كاكوما منذ سنوات عديدة. ومع أنه لم تكن تتوفر كميات كافية من الطعام، فقد كانوا يزوّدون الجميع به، فمن الغباء التفكير بأنّهم سيقتلوننا بعد كلّ هذا الوقت.

- نعم، قال بعد تفكّير - لكن انظر، ربما نفد الطعام الآن. لم يعد يوجد طعام، ولم يعد هناك مال، وقد دفعت الخرطوم مبالغ للأمم المتّحدة حتى تقتلنا. وبهذا تحقق الأمم المتحدة هدفين: فهم يوفرون الطعام، وقد حصلوا على مبالغ ليتخلّصوا منّا.

- لكن كيف سينفذون ذلك؟

- هذا الأمر في غاية السهولة يا أتشاك. فهم يقولون إنّنا أصبنا بمرض لا يصاب به إلاّ الدينكا. فهناك أمراض تصيب شعباً بعينه، وهذا ما سيحدث لنا. إذ سيقولون إن الطاعون تفشى في صفوف الدينكا السودانيين وماتوا كلهم. بهذه الطريقة سيبرّرون إبادتنا.

- هذا مستحيل، قلت.

- مستحيل؟ سأل. وهل رواندا مستحيلة؟

كنت لا أزال أرى إنه لا يمكن الوثوق بنظرية غوب تشول، لكنني كنت أعرف أيضاً أنّني يجب ألاّ أنسى أن هناك الكثيرين الذين سيكونون سعداء لو مات شعب الدينكا عن بكرة أبيهم. ولبضعة أيام، لم أحسم أمري في مسألة عدّ

الرؤوس. وفي هذه الأثناء، بدأ شعور الناس يتوّحد بعدم مشاركتنا، خاصة عندما تبين أنّ أصابع جميع الذي خضعوا للإحصاء قد غُمست بالحبر.

- لماذا الحبر؟ سأل غوب تشول. لا أعرف.

- إنّ الحبر إجراء مضمون للتأكيد على أنه ستتم إبادة السودانيين.

لم أقل شيئاً، ثم واصل كلامه. فمن المؤكد أنه إذا لم تقتلنا الأمم المتحدة نحن الدينكا عندما كنا نسير في أرتال، قال منظّراً، فإنهم سيقتلوننا بهذا الحبر الذي غمسنا به أصابعنا. فكيف يمكن إزالة الحبر؟ إنه يتسرب إلى داخل أجسادنا عندما نأكل.

- هذا يشبه كثيراً ما فعلوه لليهود، قال غوب. فقد كان الناس يتحدّثون كثيراً عن اليهود في تلك الأيام، وكان ذلك غريباً، لأنه منذ فترة قصيرة، كان معظم الصبية الذين أعرفهم يظنون أن اليهود جنس منقرض. وقبل أن نعرف شيئاً عن المحرقة في المدرسة، كانوا قد علّمونا في الكنيسة بأن اليهود ساعدوا في قتل المسيح، ولم تذكر لنا تلك التعاليم أن اليهود شعب لا يزال يسكن الأرض. فكنّا نظن أنهم مخلوقات أسطورية لا توجد إلاّ في قصص التوراة.

قبل ليلة من إجراء الإحصاء، حُطِّمت سلسلة الحواجز كلها، بطول ميل تقريباً. لم يعلن أحد عن مسؤوليته عن ذلك، لكن الكثيرين كانوا راضين بصمت.

في النهاية، بعد اجتماعات كثيرة مع القيادة الكينية في المخيّم، اقتنع الوجهاء السودانيون بأن الإحصاء شرعي وأنه ضروري لتقديم خدمات أفضل للاجئين. فأعيد إقامة الحواجز، وأجري الإحصاء بعد بضعة أسابيع. لكن بطريقة ما، كان الذين يبدون مخاوفهم من الإحصاء محقين، فلم يسفر عنه شيء جيد. فبعد الإحصاء، انخفضت كميات الطعام، وتدنت الخدمات، بل حتى غادرت عدة برامج معونة صغيرة المخيّم. وعندما انتهى الإحصاء، انخفض عدد سكان كاكوما ثمانية ألف شخص في يوم واحد.

كيف أخطأت مفوضية شؤون اللاجئين تقدير أعدادنا قبل الإحصاء؟ الجواب على ذلك يسمى «إعادة التدوير» التي كانت شائعة في كاكوما. وهي عملية محبذة في معظم مخيّمات اللاجئين، ويعرف جميع اللاجئين في أي مكان في العالم هذا المفهوم، حتى لو كان له اسم مختلف. ويتمثّل جوهر فكرة إعادة التدوير في أن أي شخص يستطيع أن يغادر المخيّم ثم يعود إليه كشخص آخر، فيحتفظ ببطاقة الإعاشة الأولى، ويحصل على بطاقة إعاشة

أخرى عندما يعود باسم جديد. وهذا يعني أنه يصبح باستطاعة ذلك الشخص أن يأكل ضعف كمية ما كان يتناوله، إلاّ إذا أراد أن يبيع بطاقة الإعاشة الإضافية، فيصبح بإمكانه أن يشتري أو يحصل على أي شيء آخر لا تقدّمه الأمم المتحدة - سكّر، لحوم، خضراوات. وكانت التجارة الناجمة عن قسائم بطاقة الإعاشة الإضافية توفّر قاعدة واسعة من الاقتصاد الثانوي في كاكوما، وحالت دون إصابة آلاف اللاجئين بفقر الدم وبالأمراض المرتبطة به. وأدرك المسؤولون في كاكوما بأنّهم كانوا يوفرون الطعام لثمانية ألف شخص أكثر مما يوجد في الواقع. ولم يشعر أحد بالذنب لهذا الخداع العددي الصغير.

إن اقتصاد بطاقة الإعاشة جعل التجارة ممكنة في المخيّم، وسرعان ما أدت قدرة بعض المجموعات على التلاعب والازدهار داخل النظام إلى تشكل نوع من الهرمية الاجتماعية في كاكوما. احتل السودانيون أعلى درجات السلّم فيها كمجموعة لأن أعدادنا المطلقة تهيمن على المخيّم. أما من الناحية الفردية، فكان الأثيوبيون يأتون في أعلى سلم الطبقة الاجتماعية - بضعة آلاف شخص من تلك الطبقة المتوسطة الذين اضطروا إلى مغادرة بلدهم بعد استلام مينغيستو الحكم. وكانوا يعيشون في كاكوما الأولى، وكانوا يديرون مجموعة جيدة من الأعمال التجارية الناجحة، وكان الصوماليون والإريتيريون ينافسوهم في التجارة الذين وجدوا وسيلة للتعايش مع الإثيوبيين، مع أن مواطنيهم كانوا على خلاف مع بعضهم البعض في بلدهم. وفي غضون ذلك، كان يسود توتّر بين الصوماليين والبانتو، وهم جماعة كانت تعاني منذ زمن بعيد، جاءت من مخيم كيني آخر يدعى داداب. وكان البانتو قد أصبحوا عبيداً لأول مرة في موزامبيق في القرن التاسع عشر وهاجروا إلى الصومال، حيث عانوا من الاضطهاد على مدى مئتي سنة. فلم يكن يُسمح لهم بامتلاك أراض، ولم يُمنحوا فرصة للتمثيل السياسي على أي صعيد. وعندما اندلعت الحرب الأهلية في الصومال في تسعينيات القرن العشرين ازدادت حالتهم سوءاً، فهوجمت مزارعهم وبيوتهم، وقُتل رجالهم، واغتُصبت نسائهم. وكان يوجد حوالي سبعة عشر ألف من البانتو في كاكوما، وحتى في كاكوما، لم يكونوا آمنين باستمرار، لأن أعدادهم كانت تثير حفيظة الكثير من السودانيين الذين كانوا يعتبرون أن المخيّم لهم وحدهم.

ويأتي بعد طبقة التجار قادة جيش التحرير الشعبي، ثم الأوغنديون - حوالي أربعمائة أوغندي، يرتبط معظمهم بجوزيف كوني، قائد «جيش الرب للمقاومة»، وهي جماعة متمردة ليست على وفاق مع حركة المقاومة الوطنية الحاكمة. ولا يستطيع الأوغنديون العودة إلى بلدهم، لأن معظمهم معروفون في بلدهم، وكان ثمن رؤوسهم غالياً. وكان يتناثر حول المخيّم كونغوليون

وبورنديون وأريتيريون، وبضع مئات من الروانديين الذين يشك الكثيرون في مشاركتهم في عمليات الإبادة الجماعية، ولم يكن مرحباً بهم في وطنهم.

وفي مكان قريب من القاع، يأتي القاصرون غير المصحوبين، أطفال السودان الضائعين. فلم نكن نملك نقوداً، ولم تكن عندنا أسر، وكانت لدينا إمكانيات قليلة تجعلنا نحقق أياً من ذلك، ويمكن الارتقاء درجة أعلى إذا وجد أحدنا أسرة يعيش معها. فقد منحني العيش مع غوب تشول مكانة وبضعة امتيازات، لكنّي كنت أعرف أنّه عندما تصل عائلة غوب تشول، فسيكون من الصعب توزيع حصص الإعاشة علينا، والمواد العديدة ضرورية - خاصة مع وجود عدة فتيات صغيرات في البيت - وهذا يعني أن الحاجة تدعو إلى إيجاد دخل أكبر في بيتنا، وأن بطاقة إعاشة إضافية ستكون البداية لتدفق الثروة.

- يجب على أحدنا أن يعيد تدوير نفسه عندما تصل الفتيات إلى هنا، قال غوب تشول ذات يوم.

كنت أعرف أن هذا صحيح، فقد كنت أحصل على حصتي الغذائية كلّ أسبوع، لكن عندما تصل زوجته وبناته، فإن غوب سيصبح مؤهلاً للحصول على مخصصات أسرة. إلا أن مخصصات أسرة مؤلفة من خمسة أشخاص لن تكون كافية، وكنا نعرف أن أفضل وقت لإعادة التدوير هو بعد انتهاء الإحصاء مباشرة، عندما سيجرون تدقيقاً إضافياً على كمية الطعام التي سيقدمونها لنا.

- سأذهب، قلت، وكنت متأكداً من ذلك.

سأذهب بعد أن تصل زوجته وبناته، قلت له، فتظاهر غوب بأنه فوجئ، لكنّي كنت أعرف أنّه كان يتوقّع ذلك منّي. فالشباب في كاكوما يقومون بإعادة التدوير دائماً، وكنت أريد أن أثبت جدارتي أمام الأسرة، وأكسب احترامها بعد وصول زوجته وبناته.

في الأسابيع التالية، أمضيت أنا وأتشور أتشور عدة ليال ننام خارج الملجأ، نؤدي واجبنا المدرسي تحت ضوء القمر الأزرق الباهت، نخطّط لرحلة إعادة التدوير التي سأقوم بها.

- ستحتاج إلى بنطلون آخر، قال أتشور أتشور.

لم أكن أعرف لماذا أحتاج إلى بنطلون آخر، لكن أتشور شرح لي سبب ذلك: سأحتاج إلى بنطلون لأنني سأحصل مقابله على عنزة.

- بنطال واحد يكفي، قال. سألت أتشور أتشور لماذا أحتاج إلى عنزة.

- يجب أن تحصل على عنزة لتحصل على الشلنات. رجوته أن يبدأ من البداية.

قال إني أحتاج إلى بنطلون لأنني عندما أغادر كاكوما، فإني سأذهب إلى ناروس في السودان، ولن يجدوا في السودان هذا النوع من البناطيل الجديدة المصنوعة في الصين المتوفرة في بلدة كاكوما. فإذا أخذت بنطالاً كهذا إلى ناروس، عندها يمكنني أن أقايض به بعنزة. كما أنني أحتاج إلى عنزة لأنني إذا تمكنت من إحضار عنزة جيدة إلى كاكوما التي يندر فيها وجود الماعز، فإني سأتمكن من بيع العنزة بألفي شلن أو أكثر.

- وقد تستطيع أيضاً أن تكسب نقوداً إضافية خاصة أنك تجازف بحياتك هناك.

كانت تلك أول مرة أسمع فيها أن الرحلة خطيرة، لأنني كنت أعرف أنه في الماضي إذا غادر أحدهم كاكوما وذهب إلى لوكيتشوجيو ثم إلى لوكيتشوجيو، فقد يعترضه قطاع طرق التوركانا والتابوسا، وفي أحسن الأحوال، فإنهم سيسرقون كلّ ما يوجد لديك، وفي أسوأ الأحوال، فإنهم سيسرقون كلّ ما يوجد لديك ثم يقتلونك. كان يخيّل إليّ أنّ هذه الأخطار كانت شيئاً من الماضي، لكن يبدو أن الأمر لم يكن كذلك. وعلى الرغم من ذلك، فقد واصلنا وضع الخطة، وانضم إلينا غوب في وضعها.

- ينبغي أن تجلب أكثر من بنطال واحد! قال غوب ذات مرة على العشاء. كان أتشور أتشور يأكل معنا، وغالباً ما كان يأكل معنا لأن غوب يجيد الطبخ أما أتشور أتشور فلم يكن يعرف طبخ شيء.

- بضائع أكثر، عنزات أكثر! قال غوب.

- ومن الأفضل أن تفعل ذلك بما أنك تخاطر بحياتك، وكلّ ذلك.

منذ ذلك الحين، بدأت الخطة تتوسّع: فقد تعين عليّ أن أحضر معي قميصين وبنطالاً وبطانية، كلّها جديدة أو تبدو جديدة، وبكلّ ذلك، سيكون بوسعي مقايضة ثلاث عنزات على الأقل، ستجلب مبلغ ستّة آلاف شلن في بلدة

كاكوما، وهو مبلغ سيوفر لأسرة غوب الضروريات، بل حتى الرفاهيات كالسكّر والزبدة، لعدّة شهور. إن هذه النقود بالإضافة إلى بطاقة الإعاشة الإضافية، ستجعلني أبدو بطلاً في عيون الأسرة، وكنت أحلم بأن أتمكن من إثارة إعجاب الفتيات اللاتي سيصبحن أخواتي، وسيقدّرنني وسيدعونني عمّهن.

- يمكنك أن تقيم متجرك الخاص بك، قال أتشور أتشور ذات ليلة.

هذا صحيح. فقد أحببت الفكرة على الفور، وأصبحت أيضاً جزءاً من الخطة الأكبر. فطالما أردت أن أبدأ محلاً صغيراً لبيع الملابس، أو كافتيريا، خارج ملجئي، أبيع فيها أطعمة، وأقلاماً وأقلام رصاص وصابوناً ونعالاً وسمكاً مجفّفاً، وأي نوع من أنواع الصودا التي يمكنني أن أحصل عليها. وبما أن الذين يعرفونني يثقون بي، فإني واثق من أنني إذا بعت بضائعي بسعر معقول فإن عملي سيسير بشكل جيّد، وعندما يصبح عندي رأسمال جيد، فلن يعود تزويد المحل بالبضائع مشكلة، لأني أتذكّر الدروس التي تعلمتها من محل أبي في مايال باي، وأعرف أنّ إقامة علاقات جيدة مع الزبائن من الأمور الجوهرية.

- لكنّك ستحتاج إلى أكثر من القميصين والبنطال، قال أتشور أتشور. - ستحتاج إلى بنطالين وثلاثة قمصان وبطانيتين على الأقل، من الصوف.

ثم أصبحت الخطة حقيقة أخيراً. فقد قررت أن أغادر عندما تصبح الطرق آمنة. وأعطاني ابن عم غوب حقيبة ظهر، حقيبة متينة مصنوعة من الفينيل فيها سحّابات وجيوب عديدة. وضعت فيها البنطالين والقمصان الثلاثة، وبطانية الصوف، وكيساً من البندق والمكسرات وزبدة الفستق من أجل الرحلة. وقررت أن أغادر في وقت مبكر من الصباح، وأتسلل من كاكوما الرابعة، ثم أمشي مسافة ميل تقريباً حتى أصل إلى الطريق الرئيسي المفضي إلى لوكي الذي سأسير فيه، وأتحاشى الشرطة الكينية، وحراس المخيم، والسيارات العابرة.

- لكنّك لا تستطيع أن تغادر أثناء النهار! تنهّد غوب عندما سمع هذا الجزء من الخطة.

- غادر في الليل، أيها الأحمق.

عدّلنا الخطة ثانية. ففي الليل لن يراني أحد. وكانت الطريقة الرسمية لمغادرة كاكوما هي بواسطة وثيقة سفر لاجئ مصدّقة. أما أنا فلا يوجد لديّ عمل

قانوني يسمح لي بالمغادرة، وحتى لو كان لديّ عمل، فإن التقدّم بطلب للحصول على هذه الوثيقة قد يستغرق شهوراً. ولو كانت عندي صلات مع مفوضية شؤون اللاجئين لكان من الممكن أن أسرّع في هذا الطلب، لكنّ لم أكن أعرف أحداً لكي يجازف من أجلي.

بقي لديّ علاج واحد، وهو الأسرع والأكثر تداولاً، وهو رشوة الحرّاس الكينيين على الطريق. فلم يكن مخيّم كاكوما مسيجاً ولم تكن له بوابات، فكان بإمكان اللاجئين الخروج من المخيّم إذا أرادوا، لكن بعد مسافة قصيرة، ستوقفهم الشرطة الكينية على الطريق الرئيسي، أو في المحطات، وعلى المسافر أن يبرز وثيقة سفر اللاجئ. وإذا لم يكن المسافر يحمل وثيقة رسمية، فعليه أن يقدّم حافزاً ملائماً للضابط حتى يغض الطرف عنه. لهذا السبب، كان يُنصح بالسفر ليلاً، لسبب بسيط هو أن أقل ضبّاط الشرطة استقامة هم الذين يُكلّفون بالدوريات الليلية.

وهكذا أصبحتُ أخيراً مستعدّاً للذهاب. لكن كان علينا أولاً أن ننتظر أسرة غوب، لنتأكد من أنه لا تزال هناك ثلاث بنات وزوجة. ومع أنهن أرسلن رسالة قبل عدة أشهر بأنهن سيصلن معاً، فإنه لا يوجد ضمان لوصولهن في السودان. لم نتحدث أنا وغوب في هذا الأمر، لكنّنا كنّا نعرف ذلك. فقد يحدث أيّ شيء في أثناء رحلة طويلة كهذه.

في النهاية وصلن بالسلامة. لكنهن ظهرن فجأة. ففي صباح أحد الأيام، كنت أنا وغوب في طريقنا إلى صنبور الماء لنملأ كمية إضافية من الماء لعدة أيام. وعندما اقتربنا من الصنبور، لاحت لنا من بعيد شاحنة صغيرة تابعة للصليب الأحمر تشقّ طريقها عبر الغبار. وقفنا، ونحن نعرف أن رؤية شاحنة في الجزء الذي نعيش فيه من المخيّم شيء غير معتاد، وتساءلنا في الوقت نفسه، هل يمكن؟ فقد كان غوب قد سمع منذ أسبوع بأنّ أسرته قد تصل في وقت قريب، لكن لم تكن لديه أخبار مؤكدة. رحنا نراقب الشاحنة الصغيرة التي بدأت تسير ببطء عندما اقتربت من ملجئنا، وعندما أصبحت أمامه توقّفت، فأخذ غوب يهرول. فركضت وراءه. لم يكن غوب سريعاً فاجتزته. وعندما أصبحنا على مرمى البصر من الشاحنة، بدأ غوب يصرخ. كان يبدو مثل شخص مجنون.

- أها! أها! أنتن هنا! أنتن هنا!

لم يسمعننا. فقد كنّا على مسافة مئة ياردة تقريباً.

خرجت من الشاحنة الصغيرة فتاة صغيرة جداً، هزيلة، ترتدي ثوباً أبيض، أولاً، ثم تلتها فتاتان أخريان، كلّ منهما أطول من الأخرى، لكن كان عمرهما أقل من ثلاثة عشرة، ترتديان أيضاً ثوباً أبيض. وقفن، ورحن يحدّقن في نور الشمس، يمسّدن أثوابهن فوق سيقانهن. ثم تبعتهن امرأة جميلة في ثوب أخضر، خضار أوراق نبات الفيل المبللة بالمطر. وقفت، ووضعت يدها فوق عينيها تقيهما من الشمس، ثم راحت تتطلع حولها في أرجاء كاكوما.

- أنتن هنا! أنتن هنا!

صاح غوب لكنه لم يكن قريباً بما يكفي حتى يسمعنه. راح يجري ملوحاً بذراعيه بقوة. وسرعان ما اقترب من المرأة في الثوب الأخضر حتى تراه، لكن فقط كهيئة غير واضحة في الغبار. سبقته واستطعت أن أرى أفراد أسرته بوضوح.

- مرحباً! صاح.

أدارت رأسها نحوه وألقت عليه تلك النظرة المستهجنة التي ينظر بها المرء إلى السكارى والمجانين الهائجين. ساعدهم السائق في إنزال بضع حقائب من مؤخرة الشاحنة، ووضعها على الأرض أمام البيت.

- هذا أنا! هذا أنا! كان غوب يصيح، وكان من الواضح أنّ جريه نحوهن لم يجعل البنات وأمّهن يشعرن بالارتياح.

كان غوب على مسافة تزيد على مئة ياردة عندما بدا أنه غيّر رأيه. فراح يسير ببطء، ثم توقّف، ثم خرج عن الطريق. تبعته بينما راح يترنح في المتاهة الفوضوية بين البيوت القريبة. ابتعدنا الآن عن رؤية الطريق وعن أسرة غوب. ثم قفز فوق أسيجة البيوت المجاورة المنخفضة، وتحت حبال الغسيل وحول الدجاجات الحزينة التي يربيها جيراننا، حتى وصل إلى باب البيت الخلفي. فدخل إلى البيت بسرعة وتبعته. سمعت أحداً عند الباب الأمامي، وخمّنت أنه سائق سيارة الصليب الأحمر الذي راح يقرع الباب بقوة.

كان غوب في غرفة نومه.

- لا تفتح الباب! قال متوسلاً. دعني أغيّر ثيابي. انتظرت بجانب الباب.

- لا أريدهن أن يعرفن أنني الرجل الذي كان يصرخ عند الطريق.

بدأت أحمّن أشياء كثيرة. انتظرت بجانب الباب حتى أنهى غوب حمّامه. ثم ظهر بعد دقيقة نظيفاً يرتدي أجمل قميص أبيض عنده وبنطال الخاكي النظيف.

- أنا جاهز، نعم؟

أومأت، وفتحت الباب. تقدم غوب، ذراعاه مفتوحتان على وسعيهما.

- زوجتي! بناتي!

وحمل الفتيات، الواحدة تلو الأخرى، بدءاً بأكبرهن وانتهاء بأصغرهن وأكثرهن رهافة، فتاة ضئيلة الجسم أبقاها على ذراعه معظم النهار، بينما أخذن يفرغن حقائبهن ويتناولن الطعام الذي أحضرنه معهن من السودان، وأريت النساء البيت الذي بنيناه لهن.

- كان هناك رجل مجنون يجري أسفل الطريق، قالت زوجته أخيراً، بينما راحت ترتّب الشراشف فوق أسرّة الفتيات. هل سمعته؟

تنهّد غوب. - يوجد هنا أناس من جميع الأنواع، يا عزيزتي.

تقرّبت من زوجة غوب، أيين، وبناتهما، آبوك، وأدينغ، وأوت. وغيّرت إعادة ترتيب البيت حياتي وكان ذلك لمصلحة الجميع. وبما أن غوب وزوجته بحاجة إلى غرفة نوم خاصة بهما الآن، فقد بنينا غرفة أخرى، وانتقلت الفتيات إلى الغرفة التي كنا نستخدمها أنا وهو. ولم يرض غوب وزوجته أن أنام في نفس الغرفة مع الفتيات، فبنينا غرفة نوم منفصلة لي، وأثناء بنائها، خطرت لي فكرة: فليس من المعتاد أن يكون لصبي في عمري غرفة خاصة به، وكنا نعرف، أنا وغوب، عدداً من الصبية الذين سيكونون سعداء للانتقال والعيش معنا ومساعدتنا في جلب مزيد من الدخل والطعام، فدعونا أتشور أتشور وثلاثة صبية آخرين، كلهم من تلاميذ غوب، وبنيت غرفتي لتتسع خمسة صبية. وعندما انتهينا، ازداد عدد أفراد الأسرة من شخصين إلى عشرة أشخاص في أسبوع واحد.

أصبح لدينا الآن أربعة ملاجئ، يتصل أحدها بالآخر، ومطبخاً وغرفة مشتركة في الوسط يتسع لعائلة كبيرة فيها عدة صبية. ولم تكن هناك إمكانية لإثارة مسألة إن كنّا سننجم، نحن الصبية، بعضنا بعضاً، لأنه لم يكن أمامنا خيار آخر سوى أن نصبح آلة مثالية، نتحرك كلّنا بانسجام، وبسلام، وبدون تذمر أو شكوى.

في كلّ يوم، كنا نستيقظ نحن الصبية الثمانية عند الساعة السادسة ونذهب معاً إلى حنفية الماء لنملأ صفائح الماء لنسحّم بها. فقد كان تدفق الماء من الحنفية يبدأ عند الساعة السادسة؛ وكان على جميع المقيمين في الجزء الذي نقيم فيه في المخيّم، حوالي عشرين ألف شخص، أن يأتوا في ذلك الوقت لملء الماء من أجل الغسيل، أما الماء المخصص من للطهي والتنظيف فكان يُجلب لاحقاً. ويكون صفّ المنتظرين عند الحنفية طويلاً باستمرار حتى أقامت الأمم المتّحدة، بعد سنوات، حنفيات أخرى. لكن في ذلك الوقت، كان يصطف عادة أكثر من مئة شخص لملء الماء. وفي البيت، كنّا نستحم كلّنا ونرتدي ثيابنا للذهاب إلى المدرسة. وفي تلك السنوات، لم يكن تناول طعام الفطور في كاكوما معروفاً - فلم يكن يتوفر طعام كاف لتناول وجبة الإفطار حتى عام ١٩٩٨ - فإذا كنا نتناول أيّ شيء قبل أن نغادر البيت، فكان عبارة عن كوب من الماء أو الشاي؛ فقد كان هناك ما يكفي لوجبة طعام واحدة في اليوم، وكان ذلك يأتي عند العشاء، معاً، بعد انتهاء المدرسة والعمل.

كنّا نداوم كلنا في نفس المدرسة التي تبعد مسافة قصيرة سيراً على الأقدام والتي لا يزيد عدد الأطفال المسجلين فيها على ألف تلميذ. فنقف أولاً في اجتماع وتتلى علينا خلاله بعض الإعلانات والتعليمات ويقدمون لنا نصيحة اليوم. وفي معظم الأحيان كانت النصيحة تتعلق بالنظافة والتغذية، وهو موضوع غريب لأننا كنّا جميعاً نعاني من سوء التغذية. وفي الغالب، كان موضوع الاجتماع الصباحي يدور حول ارتكاب مخالفات والعقوبة عليها. فإذا أساء أيّ تلميذ التصرف، فإن العقوبة ستكون ضربة سريعة بالخيزرانة، أو توبيخاً شفوياً أمام جميع التلاميذ. ثمّ تُقام صلاة، أو تُرتل ترتيلة، لأن جميع التلاميذ في المدرسة مسيحيون، على الأقل بحسب علمنا. وإذا كان هناك تلاميذ مسلمون، فإنهم لا يفصحون عن ذلك ولا يحتجّون على تلقي الدروس التي تُسمى «دروس تعاليم الديانة المسيحية».

كان يوجد في صفي ثمانية وستّون تلميذاً، وكنّا نجلس في غرفة صفّ واحدة طوال اليوم، فوق التراب، بينما يأتي معلمونا، والاختصاصيون باللغة الإنكليزية، والسواحلية الكونغوية، والرياضيات، والعلوم المنزلية، والجغرافيا، والزراعة، والفنون والحرف والموسيقى ويخرجون. كنت أجد متعة كبيرة في المدرسة وكان أساتذتي يحبونني، لكن عدداً من أصدقائي لم يعودوا يحضرون الدروس. فلم يصبروا، وذهبوا ليعملوا في الأسواق لكسب النقود. وكانوا يقايضون بحصص إعاشتهم مقابل ثياب يبيعونها في المخيّم ويربحون بعض النقود. وبطبيعة الحال، استمر بعض الصبية في مغادرة كاكوما للالتحاق بجيش التحرير الشعبي، وكنا نسمع بعد فترة قصيرة عمن قُتل، ومن أُحرق، ومن فُصلت أطرافه بقنبلة يدوية.

وفي الأيام التي يوزّع فيها الطعام، كنّا نُرسل نحن الصبية إلى مجمع الأمم المتحدة، حيث نصطف في رتل. وكان موظفو الأمم المتحدة أو عمّال اتحاد الكنائس اللوثرية يغرفون الطعام من الشاحنات، يدقّقون أولاً في بطاقات الهوية ثم في بطاقات الإعاشة لكلّ شخص. وفي طريق العودة، نحمل أكياس الحبوب أو الذرة البيضاء مسافة ميل إلى البيت، إمّا على رؤوسنا أو على أكتافنا، وكنا نستريح بين الحين والآخر. وكنّا نتذمر كلنا أثناء الحصول على حصص الإعاشة، لأنه عندما لا يحضر أحدهم عملية التوزيع، إذا نام حتى وقت متأخر أو لم يصل في الموعد المحدد ويصطف مع الآخرين، وهذا نادراً ما يحدث، فلن يحصل على حصته وستتأثر الأسرة كلها من ذلك. لذلك كنا نطالب بوضع خطط احتياطية، للتأكد من أن جميع العائلات تحصل على الطعام. لقد حان الوقت لرحلتي.

جهزّت حقيبة ظهري وحذاء جيداً و -

- هل لديك قبعة؟ سألتني أوت، ابنة غوب.

- ولماذا أحتاج إلى قبعة؟

- ماذا لو كان هناك أحد في لوكي يعرفك عندما تعود؟

كانت أوت فتاة ذكية. فوضعت في حقيبتي قبعة هيوستن أستروز التي كان أتشور أتشور قد فاز بها في إحدى المسابقات، وأصبحت أخيراً مستعداً للانطلاق. كان ذلك في منتصف الليل عندما ودّعتني الأسرة. وقد بدا لي أن غوب لم يكن يخشى على حياتي، ولم يكترث كثيراً لوداعي. وأوصلني أتشور أتشور إلى الحدود الفاصلة بين كاكوما والمنطقة التي خلفها، وعندما استدرت لأغادر، أمسك بذراعي وتمنّى لي رحلة موفقة.

- هل أخذت بطاقة الإعاشة؟ سألني.

بالفعل كنت قد أخذت معي بطاقة الإعاشة، وهو خطأ جسيم. فإذا سرقها التوركانا، أو استجوبتني الشرطة الكينية، أو طلب مني المسؤولون في لوكي أن أفرغ جيوبي، فإنهم سيأخذون بطاقة الإعاشة الأصلية، وسيذهب الهدف من الرحلة كلها سدى. فأعطيتها لأتشور أتشور، وربت أحدنا على ظهر الآخر كما يفعل الرجال، وغبت في ظلام الليل، لا أحمل أي وثيقة تشير إلى هويتي. لقد أصبحت شخصاً جديداً، أصبحت لا أحد.

قيل لي إنني إذا صادفت رجال شرطة كينيين على الطريق، فإنهم سيطلبون أن أدفع لهم رشوة وسيتركونني أمضي في سبيلي. وهذا ما حدث بالفعل: فبعد بضعة أميال من كاكوما، حدث ذلك ثلاث مرات. فقد اشتريت كلّ مجموعة من الحرّاس بخمسين شلناً، وكانوا في غاية التهذيب، كما لو كنت أشتري فاكهة من عند بقال على الرصيف.

مشيت في الليل، وأنا أشعر بالسعادة، أفكّر برحلتي التي كنت واثقاً من أنني سأحقق فيها نجاحاً، ومهما كان من أمر فإني سأعود إلى كاكوما وفي جعبتي ستّة آلاف شلن وبطاقة حصص إعاشة أخرى، بعد ثلاثة أيام.

وصلتُ إلى لوكي في ساعات الصباح الأولى. كانت الطرق الترابية مقفرة. ثم لجأت إلى مجمّع ترعاه منظمة «أنقذوا الأطفال»، وهي منظمة غير حكومية نعرفها جيداً: فهي تزوّد الجائعين في جنوب السودان بالطعام منذ سنوات. وكانت لوكي إحدى المناطق التي تقدّم فيها هذه المنظمة مساعداتها، والتي لا تزيد في معظم الحالات على أكواخ صغيرة أو بيوت مصنوعة من الطين محاطة بأسيجة خشبية أو بوابات من الفولاذ المتموّج. وكانت منظمة أنقذوا الأطفال تعمل في ذلك الوقت ولا تزال تعمل حتى اليوم، مع السودانيين، والعاملون فيها مستعدون دائماً لمساعدة جميع الذين يأتون إلى كاكوما أو يغادرون إلى السودان.

عندما استيقظت رأيت أولاً قدمي رجل يقف فوقي، يكلّم رجلاً آخر في الجانب الآخر من السياج. كاد الرجل أن يدوس فوقي، علمت أن اسمه توماس. كان يكبرني قليلاً، كان جندياً في جيش التحرير، لكنه ترك الجيش عندما حدث الانشقاق بين غارانغ وماشار. عندما أنهى حديثه مع الرجل على الطرف الآخر من السياج، وجّه انتباهه إليّ.

- ما هو وضعك إذن؟ سألني.

حكيت له عن خطتي باختصار.

- كم معك من نقود؟

قلت له إنه لم يبق معي سوى خمسين شلناً.

- إذن كيف تنوي الحصول على أوراقك من الحركة الشعبية لتحرير السودان؟

لم أكن أعرف أن هذه الأوراق تكلّف مالاً. فقد كنت أعرف أنني إذا دخلت المناطق التي يسيطر عليها جيش التحرير، فإني أحتاج إلى بطاقة هوية صادرة عن جيش التحرير الشعبي السوداني/ الحركة الشعبية لتحرير السودان، لكنّي ظننت أنهم يقدمونها مجاناً. وقيل لي إن جيش التحرير الشعبي السوداني/الحركة الشعبية لتحرير السودان، سيضع أيّ اسم أريده على الوثيقة، وكنت قد قررت أن أعطيهم اسماً يشير إلى أنني من المنطقة، وبهذه الطريقة سأكون قادراً على الإجابة على أيّ سؤال عن العشائر التي تعيش في الشطر الذي أنتمي إليه في السودان. وبالوثيقة الجديدة، يمكنني أن أعود إلى لوكي، أبيع العنزات، وفي مكتب الهجرة في لوكي، سأعطيهم الوثائق وأدّعي بأنني معرّض للخطر إذا عدت إلى السودان، عندها سيعاملونني كلاجئ، وباسمي الجديد سيمسح لي بالدخول إلى كاكوما.

- لم يبق معك نقود، ههه؟ قال توماس. - لقد غادرت ليلة البارحة فقط! ابتسم لي توماس ابتسامة فضولية، وأمال رأسه.

- تخطيط سيء، يا أتشاك. هل اخترت اسماً جديداً؟ لا شكّ أنك ستكون سعيداً لتتخلّص من اسم أتشاك.

قلت له إن اسمي الجديد هو فالانتينو دنغ.

- ليس سيئاً. أعجبني هذا، فالانتينو. لا يوجد كثير من الأشخاص يحملون اسم فالانتينو في المنطقة. لن يبدو اسماً مريباً. اسمع، هذه خمسون شلناً. يمكنك أن ترجعها لي عندما أراك في المرة القادمة. أنا هنا في معظم الأحيان؛ أقوم ببعض الأعمال هنا وهناك. خذ الخمسين شلناً، أضفها إلى شلناتك، فيصبح لديك مائة. قد يكون ذلك مبلغاً كافياً إذا رأفت الحركة بحالتك. أرني وجهاً مثيراً للشفقة، يا فالانتينو دنغ.

وجهت فمي إلى الأسفل وزممته، ودمعّت عيني.

- واو، هذا ليس سيئاً يا فالانتينو. رائع. هل عندك وسيلة توصلك؟

- لا.

- يا إلهي. لم أصادف مسافراً غير مستعد مثلك. إذا أريتني كيف تبدو مثيراً للشفقة مرة أخرى، فإني سأخبرك من أين يمكنك أن تركب للذهاب إلى ناروس.

فعلت ذلك مرة أخرى.

- إنها حقاً نظرة مثيرة للشفقة، يا بني. أهنّئك. حسناً. هناك شاحنة قادمة من السودان الآن. إنها على الطريق وأحد السائقين هو صديق لي، ابن عم زوجتي. ستعود إلى السودان بعد بضع دقائق. أأنت مستعدّ؟

- نعم، قلت.

- جيد، قال. لقد جاءت.

وبالفعل توقفت شاحنة في تلك اللحظة، شاحنة عادية مسطحة، من ذلك النوع الذي كنت معتاداً على رؤيتها مليئة بالمسافرين. بدا لي أن إيجاد رحلة مباشرة بهذه السرعة هو حلم. فلم يمض على استيقاظي أكثر من خمس دقائق. ارتجت الشاحنة حتى توقّفت أمام منظمة أنقذوا الأطفال. كلّم توماس السائق لبضع دقائق ثم أشار إليّ. هدر المحرّك ومضغت العجلات الحصى.

- اذهب، أيها الأحمق! اذهب! صاح بي توماس.

جمعت حقيبتي وجريت خلف الشاحنة وقفزت إلى المصدّ الخلفي. استدرت لألوّح لتوماس، لكنّه كان قد اختفى، فقد أنهى عمله معي. ألقيت بحقيبتي إلى داخل الشاحنة وتسلقت الباب الخلفي. داست قدمي الأولى فوق شيء طري.

- أنا آسف! قلت لاهثاً.

عندها رأيت أنّني دست فوق شخص. كان سطح الشاحنة ممتلئاً بالناس، خمس عشرة شخصاً أو أكثر. لكنّ لونهم كان رمادياً، أبيض، يكسوهم الدم. إنهم أموات. لقد دست فوق صدر رجل لم يبد أي احتجاج. قفزت من فوق صدره ووقعت قدمي فوق يد امرأة لم تبد أي اعتراض أيضاً. وقفت على قدم واحدة، وحامت قدمي الأخرى فوق أحشاء مكشوفة لصبي يكبرني بقليل.

- انتبه، يا ولد! لا يزال عدد قليل منّا أحياء.

استدرت لأرى رجلاً، رجلاً مسناً، منكفئاً وملتوياً مثل جذر، بالقرب من مؤخرة الشاحنة. - أنا آسف، قلت.

رجّت الشاحنة فارتطم رأس الرجل العجوز بالفتحة الخلفية. تنهد.

كنّا نتحرّك، وبسرعة ازدادت سرعة الشاحنة. أمسكتُ بجانب الشاحنة بقوة وحاولتُ ألاّ أنظر إلى ما تحمله. نظرت في السماء لكن الرائحة غمرتني بعد ذلك. كدت أختنق.

- ستعتاد عليها، قال الرجل. إنها رائحة البشر.

حاولت أن أحرّك قدمي لكني وجدت أنها التصقت بشيء. كانت أرضية الشاحنة مغطاة بالدم. أردت أن أقفز لكن الشاحنة كانت تسير بسرعة كبيرة. نظرت إلى الأمام - أردت أن ألفت انتباه السائق. ظهر رأس من الجانب الآخر في مقصورة الشاحنة. مدّ رجل سعيد رأسه ورفع نفسه حتى أصبح يجلس على حافة النافذة، ونظر إلى الوراء نحوي. كان يبدو أنه جندي من جيش التحرير الشعبي، لكن كان من الصعب تأكيد ذلك.

- كيف حالك في المؤخرة هناك، أيها الجيش الأحمر؟

- أريد أن أنزل من هنا، تلعثمت. ضحك المتمرد المحتمل.

- سأعود مشياً. أرجوك. أرجوك، يا عمّ. ضحك حتى فاضت عيناه بالدموع.

- أوه الجيش الأحمر. أنت لا تحتمل. ثمّ عاد إلى داخل المقصورة.

بعد لحظة، انعطفت الشاحنة بقوة، ففقدت موطئ قدمي، وللحظة، وجدت ركبتي فوق فخذ مكسورة لجندي ميت عيناه المفتوحتان تحدّقان في الشمس. عندما نهضت، نظرت إلى محتويات سطح الشاحنة. كانت الجثث مصفوفة كأن أحداً ألقى بها. لم يكن ثمة شيء يربطها ببعضها.

- إنه أمر مثير للشفقة، قال الرجل العجوز. - كان الكثيرون منّا أحياء عندما غادرنا السودان. كنتُ أُبعد عنّا العقبان. لقد قفز كلب إلى الشاحنة البارحة. كان جائعاً.

قفزت الشاحنة مرة أخرى فانزلقت قدمي فوق شيء لزج.

- الكلاب الآن، أصبحت تحبّ أكل البشر. إنها تتجه مباشرة إلى الوجه. هل عرفت ذلك؟ من حسن الحظ أن أحد الرجال في المقصورة سمع الكلب. أوقفوا الشاحنة وأطلقوا عليه النار. الآن، لم يبق أحد إلاّ نحن الأربعة، قال.

كان هناك أربعة رجال في الشاحنة لا يزالون أحياء، مع أنه كان من الصعب تبيّنهم، ولم أكن متيقناً من أن الرجل العجوز صادق في قوله. نظرت إلى صبي بجانبه. في البداية، بدا لي أنّ ذراعي هذا الرجل كانتا مخفيتين، أما الآن فقد أصبح الأمر واضحاً، لأنني استطعت أن أرى عظام كتفيه البيضاء، ورأيت أنّه بدون ذراعين.

انعطفت الشاحنة بعنف مرة أخرى. حطّت قدمي اليمنى على ذراع صبي مراهق، يلبس بدلة عسكرية مموهة زرقاء وقبعة ذات حواف عريضة مرنة.

- أظن أنه لا يزال حيّاً، قال الرجل العجوز.

- مع أنّه لم يتكلّم اليوم.

رفعت نفسي مرة أخرى وسمعت ضحكة شديدة من مقصورة الشاحنة. فقد كان السائق ينعطف بالشاحنة عمداً، في كلّ مرة. ظهر رأس الرجل المبتهج مرة أخرى من النافذة.

- السائق متأسف جداً، أيها الجيش الأحمر، قال. - كانت هناك سحلية على الطريق وكان يخشى أن يقتل أحد مخلوقات الله.

- أرجوك يا عمّ، قلت. - لا أريد أن أكون هنا. أريد أن أنزل. لو أبطأت الشاحنة قليلاً فقط، فإني سأقفز منها. لست بحاجة إلى أن تتوقّف.

- لا تقلق، أيها الجيش الأحمر، قال الشخص الذي قد يكون من المتمردين. وأصبح وجهه ونبرته جدّيتين فجأة، بل حتى حنونتين. -علينا أن نوصل الجرحى إلى مستشفى لوبيدنغ، ثم ندفن الجثامين فوق التلّ، وستصبح الشاحنة فارغة طوال الطريق إلى السودان. إلى أين تريد أن تذهب.

صعدت الشاحنة فوق مطب فارتطم رأس الرجل بأعلى إطار النافذة. فعاد بسرعة إلى داخل المقصورة، وراح يصرخ في السائق. للحظة، سارت الشاحنة ببطء، وظننت أن الفرصة قد جاءتني.

- واصل الرحلة، يا فتى.

كان الرجل العجوز.

- وإلاّ فكيف ستصل إلى السودان؟ قال.

ثمّ نظر إليّ، كما لو أنه ينظر إليّ لأول مرة.

- لماذا ستعود، على أي حال، يا فتى؟

لم أفكّر بأن أقول الحقيقة للرجل، بأنّني أحاول إعادة التدوير لأحصل على بطاقة إعاشة أخرى. سيبدو الأمر مضحكاً بالنسبة إلى رجل يكافح حتى يعيش. فلدى شعب جنوب السودان مشاكلهم، وبالمقارنة فإن الآليات المتاحة في كاكوما، حيث يحصل الجميع على الطعام ويعيشون في أمان، ليست جديرة بالذكر.

- لأبحث عن أسرتي، قلت.

- لقد ماتوا، قال. ماتت السودان. لن نعيش هناك أبداً بعد الآن. هذا هو بيتك الآن. كينيا. كن سعيداً بها. هذا هو وطنك وسيظل دائماً وطنك.

انبعثت تنهيدة من تحت قدمي. انقلب الفتى المراهق، ووضع يديه تحت أذنه كما لو كان نائماً في البيت بارتياح على وسادة من الريش. نظرت إليه إلى الأسفل، وعزمت على أن أركّز عليه، لأنه كان يبدو في أقصى حالات السلام. قيّمته عيناي بسرعة - لم أستطع التحكم بهما، ولعنتهما على سرعتهما وفضولهما - وأدركت أنّ ساق الفتى اليسرى مبتورة. كانت الآن قرمة مغطّاة بضماد مأخوذ من قماش خيش مشمّع وأربطة مطاطية مربوطة بخصره.

استغرقت الرحلة، كما عرفت الآن، أقل من ساعة، لكن يستحيل أن أعرف كم بدا أنها استغرقت في ذلك اليوم. ومع أنني غطّيت فمي فقد ظللت أتقيأ: وسرت في جسدي قشعريرة، وشعرت بخدر في رقبتي. واعتراني شعور بأن هذه الشاحنة تمثّل أعظم أعمال الشيطان الظاهرة، وأنها تمثّل، في جميع الأحوال، أعماله على وجه الأرض. كنت أعرف أنّني موضع اختبار، وظللت في الشاحنة حتى أبطأت أخيراً عندما وصلت إلى مدخل مستشفى لوبيدنغ.

من دون تردد قفزت من جانب الشاحنة وهبطت على الأرض. كنت أنوي أن أجري وأسبق الشاحنة وأجد ملاذاً آمناً في العيادة. عندما هبطت على التراب القاسي، احتجت إلى لحظة كي أعود إلى العالم، لكي أعرف أنني لم أكن ميتاً، وأنه لم يُلق بي في جهنم. نهضت واقفاً وأحسست بأن ساقيَّ وذراعيَّ لا تزال تعمل فرحت أركض.

- انتظر، أيها الجيش الأحمر! إلى أين أنت ذاهب؟

جريت مبتعداً عن الشاحنة التي كانت تجتاز ببطء سلسلة من الحفر. رحت أجري حتى تجاوزت الشاحنة بسهولة، وتوجهت إلى مبنى عند نهاية المجمع.

كان مستشفى لوبيدنغ عبارة عن سلسلة من الخيم وبضع مبانٍ مشيدة من الآجر الأبيض، ذات أسقف زرقاء سماوية، وحولها أشجار الأكاسيا، وصُفّت كراس بلاستيكية خارجها لانتظار المرضى. جريت إلى وراء المبنى وكدت أصطدم برجل له ذراع اصطناعية.

- انتبه يا فتى!

كان الرجل كينياً، متوسط العمر. كلّمني بلغة السواحلية كنغوية.

كانت حوله مقومات الأقدام والسيقان والأذرع والوجوه الجديدة.

- هيه، أيها الجيش الأحمر! تعال الآن. كان ذاك الجندي في الشاحنة.

- خذ هذا. ارتده.

أعطاني الكيني قناعاً، أحمر، صغيراً جداً عليّ. دفنت وجهي فيه. كان بإمكاني أن أرى عبر فتحات العينين وربطه الكيني.

- شكراً، قلت.

كان رجلاً دائم الابتسام، له فك ثقيل وكتفين مائلتين بشدة.

- لا حاجة لذلك، قال. - هل لا يزالون يبحثون عنك؟

تطلعت حولي. كان الرجلان من الشاحنة يسيران نحو المبنى. دخلا للحظة ثم عادا إلى الشاحنة يحملان نقّالة من الخيش. أنزلا الرجل العجوز أولاً، وجلباه إلى الداخل. ثم عادا إلى الشاحنة وأخذا الفتى المراهق المبتور الساق الذي استلقى على النقّالة كما كان مستلقياً في الشاحنة، في راحة شديدة. كان هذان هما المسافران الوحيدان اللذان أُنزلا في لوبيدنغ. أما الباقي فكانوا أمواتاً أو سيموتون قريباً. ألقى الرجلان النقّالة خلف الشاحنة وصعد السائق إلى مقعده في الشاحنة. أما الرجل الآخر، الذي ربّما كان من المتمردين، والذي عنّفني، فقد وقف وإحدى يديه على مقبض الباب.

- أيها الجيش الأحمر! حان الوقت للذهاب! يمكنك أن تركب في المقصورة الآن! صاح.

لم أكن متأكداً الآن. فإذا لم أذهب معهما فقد لا تتاح لي فرصة أخرى. خرجت من المبنى. راح الرجل الذي ربما كان من المتمردين ينظر إليّ مباشرة. أسقط يده من مقبض باب الشاحنة، وأمال رأسه. كان يحدّق بي، لكن لم يبد أي حركة، وكذلك أنا. شعرت بالأمان وراء القناع. كنت أعرف أنّه لن يعرفني. استدار عنّي وراح يصرخ في الأشجار، يبحث عن الفتى الذي كان في الشاحنة.

- أنا آسف، يا فتى! صاح الرجل. - أعدك بأنّنا سنأخذك إلى السودان. آمناً سالماً. فرصة أخيرة.

خطوت إلى الأمام، نحو الشاحنة. أمسك الكيني بذراعي.

- لا تذهب. سيحصلون على ثمن من أجلك. سيكون جيش التحرير سعيداً بالحصول على مجنّد جديد. سيتقاضى هذا الرجلان ثمناً جيداً لقاء تسليمك لهم.

كان قراراً مستحيلاً.

- سأعيدك إلى السودان إذا كنت تريد أن تذهب إلى هناك، قال الكيني.

- لا أعرف كيف، لكنّي سأفعل ذلك. فقط لا أريدك أن تُقتل هناك. فأنت نحيل جداً ولا يمكنك أن تشارك في معركة. إنك تعرف ما الذي يفعلونه، صحيح؟ يدرّبونك لمدة أسبوعين ثم يرسلونك إلى الجبهة. أرجوك. انتظر هنا لحظة حتى يغادرا.

كانت لديّ رغبة جامحة في أن أنضمّ إلى الرجلين في الشاحنة، فقد أردت أن أصدّق وعدهما لي بأن أجلس معهما في المقصورة، وتوصيلي بأمان إلى خارج الحدود. وبالرغم من ذلك، فقد وجدت نفسي أثق بالرجل الكيني الذي لم أكن أعرفه أكثر من بني جلدتي. كان يحدث ذلك أحياناً وكان ذلك لغزاً دائماً.

كنت لا أزال واقفاً على مرمى بصر الرجل من الشاحنة، ومرة أخرى ثبّت عينيه عليّ. كان وضع القناع أمراً مسراً، كي لا أكون مرئياً!

- الفرصة الأخيرة، أيها الجيش الأحمر! قال يخاطب الصبي الذي يظن أنه يبحث عنه.

غطى الرجل عينيه من الشمس، لا يزال يحاول أن يفهم لماذا كان يبدو هذا الفتى ذو القناع مألوفاً جداً. ومع ذلك ظللت واقفاً بجرأة، حتى عاد أخيراً إلى الشاحنة، صعد إليها، وغادر بسرعة. رحت أنا والكيني نراقب الشاحنة وهي تختفي وراء الغبار البرتقالي.

لم أشأ أن أزيل الوجه الجديد. كنت أعرف أنّ الكيني لن يعطيه لي، وتساءلت بسرعة إن كان بإمكاني أن أهرب به في تلك اللحظة. لعل القناع سيجعل ذلك ممكناً - أن أجري عائداً إلى كاكوما أو إلى السودان - دون أن يعرفني أحد. وجدت متعة بفكرة أن أقدّم هذا الوجه الجديد إلى العالم كله، وجه جديد، بدون علامات، عيوب، وجه لا يحكي أي حكايات.

- إنه لا يلائمك، يا فتى، قال الكيني. كانت يده على كتفي، وكانت قبضته قوية فعرفت أن الهروب من ضرب المستحيل.

نزعت القناع وأعطيته للكيني.

- إلى أين سيأخذون الجثث؟ سألته.

- من المفترض أن يعيدوها إلى السودان، لكنهم لن يفعلوا ذلك. إذ سيلقون بها في الجدول وسيأخذون مسافرين يدفعون لهم أجراً إلى السودان.

- هل سيدفنون الجثث في الجدول؟

- لن يدفنوها. هل سيكون هناك فرق؟ فإذا دفنوها فإن الديدان والخنافس ستأكلها، وإذا لم يدفنوها، فإن الكلاب والضباع ستلتهمها.

كان اسم الرجل أبراهام. كان طبيباً من نوع ما، يصنع أعضاء اصطناعية. كان محله وراء المستشفى، تحت شجرة تتثاءب. وعد بأنّ يقدم لي طعام الغداء إذا انتظرت ساعة. كنت سعيداً لكي أنتظره. لم أكن أعرف ما الذي يتناوله الأطباء على الغداء لكنّي تخيّلت أنّه سيكون شيئاً رائعاً.

- ماذا تصنع الآن؟ سألته.

كان يصمّم شيئاً أشبه بذراع أو ساق.

- أين تعيش؟ سألني.

- كاكوما، القسم الأول.

- هل سمعت انفجاراً الأسبوع الماضي؟

أومأت. كان سريعاً، خاطفاً، مثل صوت لغم.

- جندي، من جيش التحرير، شاب صغير جداً، كان يزور عائلته في المخيّم. كان ذلك في كاكوما، القسم الثاني. أحضر معه إلى البيت هدايا تذكارية ليريها لأشقائه. كانت إحدى تلك الهدايا قنبلة يدوية، وها أنذا أصنع ذراعاً جديداً لشقيق الجندي الصغير. إنه في التاسعة. كم عمرك؟

لم أكن أعرف. خمنّت أنّني في الثالثة عشرة.

- أفعل ذلك منذ سنة ١٩٨٧. كنت هنا عندما فتحوا مستشفى لوبيدنغ. كان آنذاك يضم خمسين سريراً، خيمة واحدة كبيرة. ظنّوا أنّها ستكون مؤقتة. الآن يوجد أربعمائة سرير ويضيفون المزيد من الأسرة كلّ أسبوع.

قطع أبراهام قطعة البلاستيك عندما بردت.

- لمن هذه؟ سألته، والتقطت القناع الذي كنت قد وضعته.

- احترق وجه صبي بالكامل. يوجد الكثير من ذلك. الأطفال يريدون أن ينظروا إلى القنابل. السنة الماضية ألقي بصبي في النار.

رفع الشيء الذي صنعه إلى الضوء. كانت ذراعاً، ذراعاً صغيرة، لشخص أصغر منيّ. أخذ يديرها ويديرها، وبدا على وجهه أنه كان راضياً.

- هل تحبّ الدجاج يا فتى؟ حان وقت الغداء.

أخذني أبراهام إلى بوفيه المستشفى. صفّ طويل من الأطعمة في الباحة. اصطفّ عشرون طبيباً وممرضة يرتدون صدرياتهم الزرقاء والبيضاء. كانوا باقة مختلطة: كينيون، بيض، هنود، ممرضة تبدو عربية ذات بشرة فاتحة. ساعدني أبراهام في ملء صحني بالدجاج والرزّ والخسّ.

اجلس هنا، يا بني، قال، وأومأ برأسه إلى مقعد صغير تحت شجرة. - لا تريد أن تجلس مع الأطباء. لأنهم سيسألونك أسئلة، ولا تعرف أبداً إلى شيء قد يقود ذلك. لا أعرف ما هي مشكلتك.

راح يراقبني وأنا ألتهم دجاجتي والرزّ. لم أكن قد تناولت لحماً منذ شهور. قضم فخذ دجاجة وحدّق بى.

- ما هي ورطتك؟

- لست في ورطة، قلت.

- كيف خرجت من كاكوما؟

تردّدت.

- قل لي. فأنا رجل يصنع أذرع. أنا لست ضابط هجرة.

حكيت له عن تسللي من المخيّم ورشوتي لضبّاط الشرطة.

- من المدهش كيف لا يزال الأمر سهلاً، صحيح؟ أنا أحبّ بلدي، لكن الرشوة هي جزء من الحياة مثل الهواء أو التراب. العيش في كينيا ليس سيئاً جداً، أليس كذلك؟ عندما تكبر قليلاً، أنا متأكّد من أنك ستجد وسيلة للخروج من المخيم، وتذهب إلى نيروبي حيث يمكنك أن تجد عملاً، أنا واثق من ذلك، بل حتى تستطيع أن تذهب إلى المدرسة. يبدو أنك ذكي، ويوجد آلاف السودانيين في المدينة. أين هما والداك؟

قلت له لا أعرف. كنت دائخاً من طعم الدجاجة.

- أنا على يقين من أنهما بخير، قال وهو يتفحص دجاجته ليختار مكان قضمته التالية. بفمه المليء، أومأ. - أنا واثق من أنهما لا يزالان على قيد الحياة. هل رأيتهما وهما يُقتلان؟

- لا.

- حسناً إذاً، يوجد أمل. لعلهما يظنان أنّك مت أيضاً، وهنا أنت في كينيا، تأكل الدجاج وتشرب الصودا.

صدّقت كلمات أبراهام، لأنه شخص متعلّم وكيني وربما لديه القدرة على الحصول على معلومات لا تتوفر لدينا داخل المخيّم. بدا أن انفصال الحياة في داخل كاكوما عن باقي العالم منيع جداً. فقد رأينا والتقينا بأناس من جميع أنحاء العالم، لكن لم يكن لدينا عملياً أمل بزيارة أيّ مكان آخر، بما في ذلك كينيا ما وراء لوكي. لذلك اعتبرت كلمات أبراهام بأنّها كلمات نبي.

أنهينا طعام غدائنا الذي كان لذيذاً والذي كانت كميته كثيرة عليّ، لأن معدتي لم تكن معتادة على تناول هذه الكمية الكبيرة من الطعام في جلسة واحدة.

- كيف ستعود إلى كاكوما؟ سأل أبراهام.

قلت له إني لا أزال أنوي أن أحاول الذهاب إلى ناروس.

- ليس الآن يا بني. لقد رأيت بما يكفي في رحلتك هذه.

كان محقّاً، بالطبع. فلم تتبق لديّ إرادة. كنت محطماً الآن، وتحطمت الخطة وكان كلّ ما عليّ أن أفعله الآن هو أن أعود إلى كاكوما، دون أن أكسب أو أخسر شيئاً. شكرت أبراهام ووعد أحدنا الآخر بأن نلتقي ثانية، ووضعني في سيارة إسعاف ذاهبة إلى لوكي، حيث انتظرت أيّ شاحنة متجهة إلى كاكوما لا يسألني سائقها أسئلة. لم أرَ أي دليل على وجود توماس، ولم أجازف في الدخول إلى مجمّع منظمة «أنقذوا الأطفال». تمشّيت جيئة وذهابا على طريق لوكي الترابي، آملاً بأن تتاح لي فرصة ما قبل أن يحلّ المساء عندما أصبح هدفاً للتوركانا.

- أيها الصبي.

التفت. كان رجلاً، أنفه مكسور ومنتفخ. كان يبدو أنه من التوركانا لكن قد يكون أي شيء آخر - كيني، سوداني، أوغندي. كلّمني بالعربية.

- ما اسمك؟

قلت له فالانتينو.

- ماذا لديك هناك؟

- كان مهتمّاً جداً بمحتويات حقيبتي. جعلته يلقي نظرة سريعة إلى داخلها.

- آه نعم! قال، وابتسم فجأة، ابتسامته واسعة مثل أرجوحة. قال إنه سمع عن شاب سوداني ذكي جداً معه ثياب جاء من بلدة كاكوما. حتى إنه يبدو رجلاً فاتناً، فأخبرته عن الرحلة، وعن الشاحنة، وعن الجثث، وعن أبراهام، وعن الخطة التي لم تكتمل.

- حسناً، قد لا تكون خسارة كاملة، قال.

- كم تطلب ثمناً لها كلها، البنطال والقمصان والبطانية؟

اقترح عدة أسعار حتى اتفقنا على سبعمائة شلن. لم يكن ذلك ما كنت أرجوه، لكنّه كان أكثر بكثير مما كنت سأحصل عليه في كاكوما، وضعف ما دفعته ثمناً لهذه الملابس.

- أنت تاجر جيد، قال الرجل. - أيها الداهية.

لم أكن أعتبر نفسي تاجراً جيداً حتى تلك اللحظة، لكن من المؤكد أن تعليق هذا الرجل كان يبدو صحيحاً. فقط ضاعفت نقودي.

- سبعمائة شلن إذاً! قال. - عليّ أن أدفعها، لم يعد لي خيار آخر. فلم أر بنطالاً كهذا هنا في لوكي. سأجلب لك النقود الليلة.

- الليلة؟

نعم، عليّ أن أنتظر هنا حتى تأتي زوجتي. إنها في المستشفى أيضاً. إنهم يفحصونها لأنها مصابة بحمى. إنها مع طفلنا الرضيع الذي نخشى أن يصاب بنوع خطير من السعال. لكنّهم قالوا إنّها ستعود بعد بضع ساعات ثم نعود إلى كاكوما. هل ستكون هنا حوالي الساعة الثامنة؟

بدأ الرجل يأخذ الحقيبة من يدي ووجدت نفسي أقول نعم، طبعاً، سأكون موجوداً في الساعة الثامنة. كان ثمة شيء يجعلني أثق به، أو ربما لأنني كنت متعباً جداً فلم أحكّم عقلي. في جميع الأحوال، تمنّيت الخير للرجل، وتمنيت الشفاء لزوجة الرجل ولطفلهما، ودوام الصحة لهم الثلاثة. وابتعد الرجل وهو يحمل ملابسي.

- ألا تريد أن تعرف أين أقيم؟ سألته عندما اختفى في الضوء القرمزي لأحد الدكاكين.

عاد الرجل ولم يبد أنه منزعج على الإطلاق.

- ظننت أنّني سأسأل عن فالانتينو المشهور!

أعطيته عنواني ثم خرجت إلى الطريق المؤدي إلى كاكوما. وبعد أن مشيت لفترة قصيرة، أدركت أنّني خُدعت، وأنه لن يأتي أبداً إلى كاكوما. فقد أعطيت ملابسي إلى شخص غريب وأرسلت إلى الريح السلعة الوحيدة التي كانت لديّ. عدت إلى كاكوما سيراً على الأقدام، أراقب الشاحنات وهي تمر. لم أطلب توصيلة ولم تكن لديّ نقود أدفعها كرشوة. كنت أتحرّك في الظلال

فقط، لأنني كنت أعرف أنه لو قبض عليّ فإنني سأضيع، وسأفقد كلّ امتيازاتي كلاجئ. كنت أقفز من أجمة إلى أجمة، ومن خندق إلى خندق، وأزحف وأخمش الأرض وأتنفّس بصوت عالٍ جداً، كما كنت أتنفس عندما بدأت أجري من بيتي. كان انبعاث كلّ زفير أشبه بشجرة تسقط، وقد جنّ جنوني من الضجيج الذي كنت أحدثه، لكنّي أستحق كل ذلك. لم أكن أستحق شيئاً أفضل. أردت أن أكون وحدي مع غبائي الذي لعنته بثلاث لغات وبكلّ غضبي.

passion

(٢٣)

كان الحلم يراودني مرة كلّ شهر، بانتظام مخيف. كان يأتيني عادة بعد ظهر يوم الأحد عندما كانت تتاح لي فرصة أن آخذ قيلولة. فقد كنت مشغولاً طوال الأسبوع في العمل والذهاب إلى المدرسة، أما يوم الأحد فلم تكن عندي أي مسؤوليات، لذلك كنت أقرأ وأتجول في أنحاء المخيّم، وفي وقت متأخر من بعد الظهر، كنت أستلقي، واضعاً رأسي في ظلّ بيتي، ساقاي عاريتان تحت الشمس، وأغطّ في النوم.

لكن حلم النهر كان يؤرقني. فعندما كنت أحلم به، كنت أستيقظ مضطرباً.

في الحلم أرى نفسي عدة أشخاص بالطريقة التي يمكن أن يكون المرء فيها في الحلم عدة أشخاص في وقت واحد. فقد كنت أنا نفسي، وكنت معلّمي، السيد كونديت، وكنت أنا دوت. كنت أعرف هذا في الحلم كما يعرف المرء دائماً من هو في حلم ومن ليس في حلم. كنت توليفة من هذين الرجلين وكنت طافياً في نهر. كان جزءاً من النهر يمر من بلدتي، مايال باي، وعلى الجانب الآخر يمرّ نهر جيلو، وكان معي في النهر عشرات الصبية. كانوا صبية صغار أعرفهم. كان بعضهم أولئك الصبية الذين كنت أشرف عليهم في كاكوما، وبعضهم ولد في المخيّم، وكان هناك صبية لم يغادروا فترة الصبا بعد: وليام كي، دنغ، الصبية الذين استردهم الله في أثناء سيرنا. كنّا كلّنا في النهر، وكنت أحاول أن أعلّم طلابي في النهر. وكان جميع التلاميذ، حوالي ثلاثين صبياً، يخوضون في ماء النهر، وكنت أخوض في ماء النهر أنا أيضاً، أعلّم الصبية الذين يطوفون في النهر دروساً حول الأفعال بالإنكليزية بأعلى صوتي. كانت المياه هائجة، وأحبطتُ لصعوبة تعليم هؤلاء الصبية في ظروف كهذه. أما الصبية، فكانوا يبذلون قصارى جهدهم للتركيز على الدروس وفي الوقت نفسه الخوض في الماء وكانوا يبذلون كل ما بوسعهم لتفادي الموجات التي تعكّر صفو النهر بين الحين والآخر. وبين فترة وأخرى، كان الصبية يختفون وراء موجة ثم يعودون ويظهرون عندما تنحسر تلك الموجة. وطوال الوقت، كنت أعرف أن الماء بارد. كان بارداً بشكل مدهش، مثل الماء الذي قدّمه لي الرجل في الصحراء المسيجة بالأسلاك الشائكة.

أطوف عالياً فوق موجة ماء باردة، عندها أستطيع، لبضع لحظات، رؤية رؤوس جميع تلامذتي وهم يبذلون كلّ ما بوسعهم حتى يروني ويسمعوني، لكني أنزل بعدها إلى وادي الموجة، ولا أرى أمامي إلاّ جداراً من الماء بلون القهوة. ودائماً في هذه اللحظة في الحلم، عندما تغدو الموجات جدراناً، أعود وأصبح أنا نفسي مرة أخرى، ومن هنا فصاعداً، تجري أحداث الحلم في معظمها تحت المياه التي لونها بلون القهوة. فأجد نفسي في قعر النهر، بين نباتات اللوامس الخضراء تحت الماء، وكانت هناك جثث كثيرة في قاع النهر. فالصبية الذين كانوا يحاولون أن يستمعوا إلّي يقبعون في قاع النهر الآن، وكان عليّ أن أعيدهم إلى السطح مرة أخرى. كنت أعرف جيداً أن هذه المهمة تقع على عاتقي وقد أديتها بكفاءة كبيرة. وعندما كنت أجد صبياً تحت الماء، ليس ميتاً، وإنما يجلس في قاع النهر، أضع يديَّ تحت ذراعيه وأدفعه إلى الأعلى. كان عملاً في غاية البساطة.

وعندما أرى أحد الصبية، كنت أضع نفسي تحته، وأضع يديَّ تحت ذراعيه، ثم أرفعه إلى الأعلى. كنت أفعل ذلك وأنا أعلم أنني عندما أفعل ذلك، فإن الصبي يعود سالماً، وأنه عندما يصل إلى السطح، فإنه سيعيش ويتنفّس الهواء في الأعلى مرة أخرى. وبينما كنت أفعل ذلك، كان جزء منّي يشعر بالقلق بأنّني سأتعب. كنت أرفع الصبية إلى سطح الماء ثم أعود إلى قعر النهر مرات ومرات، وكنت أبقى تحت الماء لمدة طويلة - لا بد أنني كنت سأتعب من القيام بذلك وأفقد بعض الصبية، لكن ذلك لم يحدث. ففي الحلم لم أتعب قط، ولم أكن بحاجة إلى أن أتنفّس، وإنما كنت أتحرّك تحت الماء، أنتقل من صبي إلى آخر، أرفعهم إلى الهواء وإلى النور.

- أتشاك، كانوا يهمسون لي، وأدفعهم إلى السطح.

- فالانتينو، كانوا يهمسون، وأدفعهم إلى الأعلى.

- دومينيك! كانوا يهمسون، وأدفعهم إلى الأعلى والأعلى.

* * *

أصبحت في الثامنة عشرة من عمري. كان قد مضى عليّ في كاكوما ستّ سنوات. كنت لا أزال أعيش مع غوب تشول وأسرته، وخلال تلك الفترة، كنت أحلم بهذا الحلم، ربما مائة مرة، وكانت رسالته واضحة لي: فقد كنت مسؤولاً

عن الصفّ التالي من الصبية. كنّا جميعاً نخوض في ماء النهر معاً، وكان المطلوب مني أن أعلّم الآخرين. فأصبحت معلّماً في مخيّم كاكوما، وأصبحتُ دومينيك كذلك.

فقد حلّ اسم دومينيك محل اسم فالانتينو، على الأقل في عقول الكثيرين، ومع أنني لم أكن أفضّل هذا الاسم، فقد التصق بي بقوة. كان ارتباطي بالآنسة غلاديس، معلّمتي التي تعتبر بجميع المعايير أكثر النساء جاذبية في كاكوما، هو الذي جلب لي اسم دومينيك، فلم أتأفف أو أتذمر من ذلك. كانت الآنسة غلاديس معلمة المسرح ثم معلمة التاريخ، امرأة شابّة تتمتع بوهج وبهاء استثنائيين. كانت الآنسة غلاديس هي التي عرفتّني على تابيثا، وهي التي جلبتني إلى أضواء نيروبي وإلى إمكانية الهرب من رياح كاكوما وجفافها. وعندما أمسكت بيد الآنسة غلاديس عندما كنت أنصت إلى ما تقوله ديبورا أغوك، القابلة الجوّالة التي كانت تعرف ماذا حلّ بعائلتي وبقريتي. كانت تلك فترة حافلة بالأحداث بالنسبة لي وللكثير من الشباب في كاكوما، على الرغم من أن ما تبقى من الدينكا سيتعرضون في تلك السنة في جنوب السودان، إلى مجاعة شنيعة، خلقها اللّه وساعدته الخرطوم في ذلك.

فقد جلبت ظاهرة النينيو سنتين من الجفاف، وكان الجنوب في أمسّ الحاجة إلى المساعدة. وواجه مئات آلاف السكان في منطقة بحر الغزال مجاعة، واستغل البشير هذه الفرصة لحظر جميع الرحلات فوق جنوب السودان. فانقطعت المنطقة عملياً عن جميع أعمال الإغاثة، وعندما وصلت المعونات، كان أول من اعترض سبيلها جيش التحرير الشعبي السوداني والزعماء المحليّين الذين لم يقوموا بتوزيعها بشكل عادل. كلّ ذلك جعل العيش في كاكوما فرصة جذّابة، فاكتظ المخيّم بالناس. وعندما يهرب أحد من الفوضى التي عمّت جنوب السودان، يصبح جزءاً من كاكوما بشكل رسمي، ويحق له الحصول على خدماتها وحمايتها، ولا يعود أمامه شيء سوى تمضية الوقت. وبالإضافة إلى المدرسة، فهذا يعني النوادي، والعروض المسرحية، وبرامج التوعية بمرض الإيدز، ومسرح العرائس، بل وحتى أصدقاء القلم من اليابان.

أبدى اليابانيون اهتماماً كبيراً بكاكوما على مختلف الصعد، وقد بدأ ذلك بمشروع أصدقاء القلم. وكانت الرسائل التي يرسلها تلاميذ المدارس اليابانيين تُكتب بالإنكليزية، وكان من الصعب معرفة إنكليزية من هي الأسوأ. وكان كم المعلومات التي تُرسل من كينيا إلى طوكيو وكيوتو موضع جدل، لكنّها كانت في غاية الأهمية بالنسبة لي وللمشاركين الآخرين المائة. وبعد سنة على تبادل الرسائل، وصل الفتيان والفتيات اليابانيات الذين كانوا يكتبون لنا إلى كاكوما ذات يوم، يرمشون بعيونهم في الغبار ويضعون أيديهم

فوق عيونهم لوقايتها من وهج أشعة الشمس، وبقوا ثلاثة أيام وزاروا الصفوف في مدرستنا، وشاهدوا رقصات تقليدية من مختلف المناطق السودانية والصومالية في المخيّم، ولم أكن متأكداً إلى أي حدّ سيصبح المخيّم أكثر غرابة، فقد كنت قد رأيت الألمان والكنديين، وهم أناس شديدي البياض مثل بياض الشمع. لكن اليابانيين ظلوا يأتون، وظلوا يعطون، مركزين جلّ اهتمامهم على الشباب في المخيّم الذين كانوا يشكلون بالطبع حوالي ٦٠ في المائة من القاطنين في كاكوما. فقد بنى اليابانيون مستشفى كاكوما الذي أصبح بإمكانه أن يعالج الحالات التي لم تكن تستطيع الانتظار للذهاب إلى لوبيدنغ. وبنوا المكتبة المحلية في كاكوما وتبرّعوا بآلاف كرات السلة وكرات القدم والطائرة، وثياب رياضة لكي يلعب هؤلاء الشبان هذه الألعاب بقدر من الكرامة والمهارة.

وكان الإتحاد اللوثري العالمي المسؤول الرئيسي عن المشاريع الثقافية العديدة، وشارك مدربو الإتحاد المدربين الكينيين والسودانيين. انضممت إلى نادي الخطابة والنقاش في الإتحاد أولاً، بهدف تحسين لغتي الإنكليزية، ثم انضممت إلى برنامج الشباب والثقافة الذي أدى إلى إيجاد وظيفة لي، وفي عام ١٩٩٧، أصبحت رئيس فريق الشباب في كاكوما. كان ذلك عملاً لقاء أجر، وهو شيء لم يحصل عليه إلاّ قلة قليلة من أصدقائي، أو أحداً من الأطفال في عائلتي في كاكوما. وكان الشخص يُعتبر شاباً عندما يتراوح عمره بين السابعة والرابعة والعشرين، ويوجد في القسم الذي أعيش فيه في المخيّم ستّة آلاف شاب. وأصبحت مسؤول الاتصال بين مفوضية شؤون اللاجئين وهؤلاء الشبان، وأحب أتشور أتشور هذا العمل أكثر من الأعمال التي قمت بها منذ سنوات، خاصة عندما عملت في دفن الأموات.

- سأكون هنا إذا احتجتَ إلى أي نصيحة، قال.

كان أتشور أتشور قد بدأ يضع نظارات، وأصبح يبدو شخصاً جدّياً أكثر من ذي قبل بكثير. وأصبح يبدو أن كلّ شيء يخرج من فمه يحمل ثقل تأمل عميق وذكاء شديد.

- سأفعل، قلت.

وبما أنني أصبحت المسؤول والمنسّق الرئيسي لنشاطات الشباب في الحيّ الأول في كاكوما، أصبحت على اتصال مباشر مع الآنسة غلاديس التي سرعان ما سيتعرّف عليها جميع الصبية في كاكوما ويفكّرون بها كثيراً في الليل.

أصبحت المدرب في النادي المسرحي. وفي اليوم الأول حضر الاجتماع اثنا عشر عضواً من أعضاء الفريق، عشرة فتيان وفتاتين، وقمت بإدارة هذا الاجتماع. وكان الإتحاد قد أبلغنا بأنّ المشرف على الفريق سيحضر اجتماعنا الثاني، وبما أنني كنت المدير المؤقت فقد قررت أن أقنع ماريا لحضور الاجتماع. فذهبت إليها بعد ظهر أحد الأيام بعد انتهاء المدرسة، قبل يومين من موعد الاجتماع الأول. كانت تعلّق ثياباً على حبل الغسيل وراء بيت الأسرة التي تبنّتها. - قالت مرحباً أيها النؤوم. لم تُخف مزاجها المعكر. لم تكن تفعل ذلك قط. فعندما تكون متعكرة المزاج يتهدل كتفاها، ويتجهم وجهها بصورة تكاد تكون مضحكة. فلم تذهب إلى المدرسة منذ أسابيع، لأن الرجل الذي يعاملها كأنه والدها قال إنه يصعب عليها أن تذهب إلى المدرسة وتساعد في أعمال البيت في نفس الوقت. وكانت زوجته حاملاً، فأصرّ على أنّ تكون ماريا موجودة في البيت طوال الوقت في حال احتاجت زوجته إلى أيّ مساعدة، وقال بما أن الجنين لا يزال ينمو في رحم زوجته، فإنها ستكون بحاجة أكبر إلى مساعدة في الأسابيع والشهور القادمة. وقال إنه يعتبر المدرسة ترفاً بالنسبة لفتاة يتيمة مثلها.

لم تكن لديّ أو لدى ماريا آمال بأن تصبح عضواً في فريق المسرح لمدة طويلة، لكنّي أقنعتها بأن تحضر أول اجتماع لنا. وصلنا معاً، ووصل الأعضاء الآخرون، وقرأنا بصوت مرتفع المشاهد الأولى من مسرحيّة كتبتها الآنسة غلاديس التي ستقوم ماريا بأداء دور البطولة فيها: امرأة يضربها زوجها، وقد أحبت هذا الدور على الفور. كنت أعرف أن ماريا تمتلك روحاً جريئة، لأنها أنقذت حياتي في تلك الليلة التي امتلأت سماؤها بالنجوم، لكنّي لم أكن أتوقّع أنّها تتمتع بروح ممثّلة.

حضرت ماريا الاجتماع الثاني، لكنّي لا أذكر جيداً ما الذي فعلته وما الذي قالته، لأن ذلك كان قبل وصول الآنسة غلاديس بفترة قصيرة. وعندما جاءت الآنسة غلاديس، تخليّت عن جميع مهامي ولزمت الصمت.

كانت الآنسة غلاديس شابة كينية، ذات عنق طويل، تفضّل ارتداء تنانير طويلة تلامس الأرض وتصدر حفيفاً مبهجاً عندما تمشي. وقالت إنها لا تمتلك خبرة مسرحيّة واسعة، لكن بالرغم من ذلك، كان أداؤها مميزاً، امرأة تعرف قوّة كلّ كلمة تنطقها وكلّ حركة تقوم بها.

كانت بارعة جداً في الكتابة، كما علمنا، لأنها درست في جامعة إيست أنجليا في إنكلترا لمدة سنتين، حيث صقلت لغتها الإنكليزية التي كانت قد تعلّمتها في أفضل مدارس نيروبي الخاصّة.

- ما هذه اللهجة؟ سألنا بعضنا بعد الاجتماع.

- يبدو أنها على درجة عالية من الثقافة.

- ستصبح زوجتي ذات يوم، قال كلّ واحد منّا.

لم نستطع أن نفهم لماذا امرأة موقرة ونظيفة مثل لآنسة غلاديس - فلم تكن تتعرّق! - تمضي وقتها مع لاجئين مثلنا، لا بل أنّها كانت تستمتّع بصحبتنا، وكان يبدو الأمر ذلك فعلاً، وكانت كثيرة التفكير والتأمّل. وكانت تبتسم للصبية في الفريق بطريقة لا يمكن اعتبارها إلاّ نوعاً من المغازلة، وكان من الواضح أنّها تقدّر الانتباه الذي كنّا نوليه لها. أما الفتيات، فقد بذلن ما بوسعهن يحببنها، على الرغم من كلّ شيء.

كان النادي بإدارتها يهدف إلى كتابة وتمثيل مسرحيّات بفصل واحد تبرز المشاكل السائدة في كاكوما، وتقدّم حلولاً بدون حذلقة أو تعقيد. فإذا ظهر سوء تفاهم، مثلاً، حول مخاطر الإصابة بمرض الإيدز، فلم يكن بالإمكان طباعة منشورات وتوزيعها أو إذاعة ذلك في التلفزيون. لذلك، كان علينا أن ننقل هذه الرسائل من خلال تمثيل هذه القضايا، وكنا نأمل أنّ تكون هذه الرسائل مسلّية ومفيدة ومثقفة، وتنتقل من شخص إلى آخر، من فم إلى أذن.

لكن الآنسة غلاديس لم تكن تميّز أحداً من الصبية عن الآخر. فمن بين الصبية العشرة، كان يوجد صبي اسمه دومينيك دوت ماثيانغ، وكان أكثر صبي يتمتع بروح مرحة في كاكوما كلها، وأكثر الصبية السودانيين إضحاكاً، على الأقل، لأنني لم أعرف مدى روح الدعابة لدى الأوغنديين. وفي الاجتماع الأول بإدارة الآنسة غلاديس، أحبّت دومينيك دوت ماثيانغ وأصبحت تضحك على كلّ نكتة يقولها.

- ما هو اسمك مرة أخرى؟ سألته.

- دومينيك، قال.

- دومينيك! إني أحبّ هذا الاسم!

فخُتم مصير الصبية العشرة في فرقتنا المسرحية بهذا الاسم، لأنها لم تكن تتذكّر أسماء الصبية الآخرين. وقالت إنّ ذاكرتها لا تسعفها في تذكّر الأسماء، وكان يبدو ذلك صحيحاً. فقلما كانت تنادي الفتيات بأسمائهن، وبدا أن الاسم الوحيد الذي تستطيع أن تتذكره بسهولة هو اسم دومينيك. وهكذا أصبحنا

كلّنا دومينيك. في البداية، كان ذلك خطأ. وفي أحد الأيام، نادتني أنا أيضاً، وهي شاردة الذهن، دومينيك.

- أنا آسفة، قالت. - لدى كلاكما أسماء إيطالية، صحيح؟

- نعم، قلت. - اسمي فالانتينو.

اعتذرت، لكنها نادتني دومينيك مرة أخرى في اليوم التالي. فلم أعبأ بذلك. لم أعبأ على الإطلاق. ووافقت معها بأنّ اسمينا متشابهان كثيراً. وكنت غالباً ما أتفق على كلّ ما تقوله، مع أنني لم أكن أستمع دائماً إلى الكلمات التي تخرج من فمها الجميل. وهكذا أصبحت تناديني دومينيك، وأصبحت تنادي الصبية الآخرين جميعاً باسم دومينيك، ولم نعد نطلب منها أن تنادينا بأسمائنا. فأخذت تنادينا كلّنا دومينيك، ولم نعبأ بذلك، كما أنها لم تكن بحاجة لتعرف أسماءنا كثيراً، لأننا لم نكن نرفع عيوننا عنها، فكان كلّ ما عليها أن تفعله هو أن توجّه عينيها اللتين تحرسهما رموش طويلة ومقوسة على نحو رائع، إلى الصبي الذي تريد أن تكلّمه.

وكنّا نتحدّث عنها كلما سنحت لنا الفرصة، وكنّا نعقد لقاءات خاصّة في بيت دومينيك الحقيقي، دومينيك دوت ماثيانغ، ونناقش صفاتها وشمائلها.

- أسنانها ليست حقيقية، قال أحد الصبية.

- نعم. سمعت أنها وضعتها في إنكلترا.

- في إنكلترا؟ أنت مجنون. فالناس لا يفعلون ذلك في إنكلترا.

- لكنّ لا يمكن أن تكون حقيقية. انظروا إلى أسناننا ثم إلى أسنانها.

كان عنوان مسرحيّتنا الأولى «زواج بالإكراه»، تهدف إلى إبراز هذه المشكلة وتقديم بدائل لأسلوب الزواج التقليدي في السودان. ومثّلتُ دور رجل مسّن لا يوافق على إجبار الفتيات على الزواج من دون حبّ. وعارض في موقفي في المسرحيّة رجال مسنون آخرون يرون أن الطريقة الحالية في الزواج هي المثلى. وفي النهاية انتصرت الأغلبية، وتركت الفتاة في المسرحيّة، وتركنا الأمر لجمهورنا الشباب ليقرروا بأنفسهم أن الاحتفاظ بهذه العادات لم يعد مقبولاً.

مثّلنا المسرحيّة الأولى هذه عشرات المرات في كاكوما. وبما أنها كانت تثير الضحك أحياناً، وخاصة لأن الآنسة غلاديس كانت تظهر في المسرحية - في دور شقيقة العروس - فقد أحبّها الجميع وهذا ما شجعنا على الاستمرار. فكتبنا ومثّلنا مسرحيات تدور مواضيعها عن الإيدز وسبل الوقاية منه. وكتبنا مسرحيّة عن التحكم بالغضب وحلّ النزاعات. وتناولت إحدى المسرحيّات مسألة الطوائف والتمييز الاجتماعي في المخيّم، وتناولت مسرحية أخرى تأثيرات الحرب على الأطفال، وعرضنا مسرحية ذات فصل واحد عن المساواة بين الجنسين - وضرورة أن يُعامل الفتيان والفتيات في السودان، كما يُعامل أقرانهم في كينيا، على قدم المساواة - ولدهشتنا المتواصلة، كنا نجد ترحيباً وتقديراً لهذه المسرحيّات، ولم نواجه معارضة كبيرة، على الأقل علناً، على الرسالة التي كنا ننقلها.

لكن بعض المتقدمين في السن لم يوافقوا على عدم احترامنا للعادات القديمة، وكان الرجل الذي تعيش ماريا في كنفه أحد الأشخاص الذين لم يؤيدوا الجهود التي نقوم بها. ففي أحد الأيام، لم تأت ماريا إلى التدريب بعد المدرسة، وعندما غابت لمدة ثلاثة أيام متتالية، ذهبت في المساء لزيارتها. كانت تجلس بالقرب من موقد النار خارج البيت تعدّ عصيدة.

- ليس الآن! قالت هامسة، وهرعت إلى الداخل.

انتظرت بضع دقائق، ثم غادرت. ولم أرها إلاّ بعد عدة أيام، بجانب مضخة الماء.

- إنه لا يسمح لي، قالت.

فقد استشاط أبوها بالتبنّي غضباً لأن ماريا تخرج من البيت بعد الظهر، ولأن النساء يطبخن عادة في ذلك الوقت وجبات الطعام، ويجلبن الماء من أجل تلك الليلة وصباح اليوم التالي. وقال إنه لا يُفترض أن تخرج النساء من بيوتهن بعد حلول الظلام. لذلك، كانت الساعات التي تفصل بين المدرسة والغروب شديدة الأهمية لكي تقوم ماريا بواجباتها.

- يمكنني أن أكلّمه، اقترحت عليها.

كنت قد تحدّثت إلى أسر أخرى منذ أن أصبحت مسؤولاً عن فريق الشباب. فما إن تظهر فجوة في التفاهم بين الأجيال، حتى كان يُطلب مني أن أتوسّط في حلّ المشكلة. «الفتى الذي تظل يداه نظيفتين يأكل مع الرجال الأكبر منه سناً»، علّمني غوب. وكان هذا الدرس يوجه سلوكي ويرشدني كلّ يوم.

وعندما مُنعت فتاة أخرى من حضور اجتماعاتنا، وهي ممثّلة نحيلة تدعى أديي، تدخّلتُ. فقد قالت لوالديها إنني أريد أن أكلّمهما، وعندما وافقا على اللقاء بي، جئت في مساء اليوم التالي أحمل لهما هدية من دفاتر وأقلام، وجلست معهما لفترة من الوقت. وقلت لهما إن أديي عضو أساسي في فرقتنا، وأنّها تؤدي عملاً في غاية الأهمية لشباب المخيّم. وبما أنني أعرف أن والديها، مثل والداي ماريا، يعتمدان على مهرها عندما تصبح عروساً، فقد تناولت الموضوع من زاوية مصلحتهما الجشعة. فقلت لأبيها إنّ أديي ستكون جذابة أكثر للزوج الذي سيتقدم إليها بعد أن تكتسب تلك المهارات كممثلة، وأنّ ظهورها المتزايد أمام الآخرين سيجلب لها سوقاً يتنافس عليها الشبان عندما تصبح مهيأة للزواج. فنجحت خطتي أكثر مما كنت أتوقّع بكثير، فلم يسمح أبوها لأديي أن تحضر كلّ التدريبات فحسب، وإنما أصبح يرافقها أحياناً أيضاً، وأصبح يصرّ على أن تؤدي أدواراً بارزة وأن تنال تدريباً خاصاً من الآنسة غلاديس. وبما أنني نجحت في ذلك، خيّل إليّ أنني سأنجح أيضاً مع الرجل الذي يزعم أن ماريا ابنته، لكنّ محاولتي باءت بالفشل.

- لا، لا. إنس الأمر. فهو ليس من ذلك النوع من الرجال، قالت.

لا شيء يجدي مع هذا الرجل، قالت. ولم تكن تنوي أن تتحداه، لأنها تعرف أنه سيضربها. وقالت إن عدم قدرتها على المشاركة في الفرقة هو آخر همّها. وكان ذلك دليلاً على انفتاحها وثقتها بي لأنّها أخبرتني، في ذلك اليوم عندما كنا واقفين عند مضخة الماء، قبل ثلاثة أيام فقط من أن يأتيها أول طمث لها. وبما أنني مدرب شاب، فقد كان يتاح لي معرفة قدر من المعلومات المتعلقة بالصحة والنظافة الشخصية، فكنت أعرف ماذا يعني ذلك من الناحية الجسدية بالنسبة لماريا. والأهم من ذلك، فقد كنت أعرف أنّ ذلك يعني في المجتمع السوداني بأنها أصبحت تعتبر امرأة الآن. فما إن يأتي الفتيات السودانيات الحيض لأول مرة، حتى يصبحن مهيئات للزواج، وغالباً ما يُطلبن للزواج بعد ذلك ببضعة أيام.

- هل يعرف أحد؟ سألتها.

- شش! همست. - ليس بعد.

- هل أنت متأكّدة؟ كيف لم تعرف أمّك؟

- إنها لا تعرف أيها النؤوم. إنها تسألني عنها لكنّها لا تعرف. فأنا صغيرة جداً حتى تأتيني في جميع الأحوال. إنها لم تأت لأي فتاة أخرى أعرفها. الآن اسكت. ما كان عليّ أن أقول لك. إنس إنني قلت لك شيئاً.

وغادرت.

في ذلك اليوم، أصرّت ماريا على ألاّ أخبر أحداً عن حالتها، ولم تقرّر بعد كيف ستخفي إفرازاتها عن عيون الأسرة التي تتبناها، لكنّها كانت عازمة على القيام بذلك طالما كان ذلك ممكناً. لم يكن ذلك أمراً غير مسبوق في كاكوما، لكنّه لم يكن شائعاً. فمعظم الفتيات، حتى لو كنّ يزمعن رفض فرصة زواج مرتّب، فإنهن لا يخفين أنوثتهن. وإنما تقبل أكثرهن بها، ويحتفلن بعضهن بقدومها. وهناك قبائل في جنوب السودان تحتفل بحدوث أول طمث للفتاة ويقيمون حفلاً يحضره جميع أفراد العائلة ويأتي الخاطبون من قرى قريبة وبعيدة. ويكون ذلك بمثابة حدث هام لتنبيه العزاب في المنطقة بأن هناك فتاة أصبحت امرأة. وبالنسبة لبعض الرجال، فإن اختيار عروسهم في تلك اللحظة يعتبر شيئاً مثالياً لأنه يعني نقاء مؤكّداً.

وإذا كان عليّ أن أخمّن عمر ماريا في ذلك الوقت، فلا بد أنها كانت في الرابعة عشرة. لكن العمر ليس هو المهم في السودان، وإنما شكل جسد المرأة ومدى نضجها. وحتى أنا الذي كنت أعرف ماريا منذ أن كانت فتاة غضة، فقد كنت ألاحظ علامات الأنوثة فيها. وفي حياة أخرى، حياة لا تعيش فيها تحت رعاية رجل غاضب يتوقّع أن يستثمرها ويحصل على مبلغ كبير كمهر لزواجها، فربما سعيت لمغازلتها. فلم يحدث بيني وبين فتاة تفاهم كما حدث بيني وبينها، ولم أشعر مع أي فتاة أخرى بمثل هذا الامتداد الروحي. لكن القاصرين غير المصحوبين مثلي لا يُعتبرون أنداداً ناجحين لشابّات مثل ماريا. فلم نفعل شيئاً سوى أننا عقّدنا خطط الأسرة التي تتبناها، فإذا كان هناك شابّ مثلي يحوم حول فتاة مثل ماريا، فلا بد أن تبرز أسئلة تتعلق بعذريتها. فأشخاص مثلي ومثل ماريا لا يمكن أن يكونوا إلاّ أصدقاء، وحتى ذلك، أصدقاء يلتقون عرضاً وبالسرّ.

كان جنود وقادة جيش التحرير الشعبي من بين أكثر الأشخاص انشغالاً في التسوّق في كاكوما بحثاً عن عروس شابة مرغوبة. كانوا يجوبون المخيّم، ليتأكدوا من الشائعات التي تدور في المخيّم ويبحثون عن أي فتاة يمكنهم إضافتها إلى عائلاتهم. وجاء المتمردون أيضاً إلى كاكوما وزاروا مخيّمات أخرى في البلدان المحيطة بالسودان، بحثاً عن مجنّدين جدد. فقد كان آلاف الجنود المحتملين يعيشون بسلام في مخيّمنا، وقد أثارت هذه الحقيقة الذعر لدى المتمردين، وكان جميع الشبان من عمري يفركون أيديهم خوفاً وقلقاً.

وبدأ عدد من الصبية في فرقة المسرح يتحدّثون بجدية عن إمكانية الالتحاق بجيش التحرير، ورأى عدد منهم أن وجودهم في كاكوما غير مجد.

كان ذلك يحدث بين الحين والآخر، خاصة عندما يحقق المتمردون انتصارات كبيرة أو عندما تُلحق بهم خسائر كبيرة. وكان الصبية الذين يداومون في المدرسة أو الذين يتسكعون في المخيّم يتناقشون، بدرجات متفاوتة من الحدّة، موضوع التطوع، إمّا لتعزيز جهود جيش المتمردين المهلهلة، وإما يكونوا هناك عندما تشارف المعارك على نهايتها.

كما لو أنهم كانوا يعرفون تماماً ماذا يدور في عقول الرجال في عمري، وصلت كتيبة من الجنود والقادة إلى كاكوما ذات يوم، للبحث عن شباب يمكن أن يجندوهم للقتال في الحرب. من الناحية الرسمية، لم يكن هناك وجود لجيش التحرير الشعبي في المخيّم، لكن قادة سابقين وحاليين أصبحوا ينتقلون إليه بلا رقيب. كانوا يأتون بأعداد كبيرة من الشاحنات تكفي لنقل مئات الشباب، إذا تمكنوا من إقناعهم بمغادرة المخيّم والعودة إلى جنوب السودان للمشاركة في القتال.

وفي إحدى الليالي، دُعينا إلى اجتماع عند الساعة العاشرة في مبنى مشيّد من الطين والفولاذ المتموّج. جلس خمسة ضبّاط من جيش التحرير إلى طاولة وجلس أمامهم مئتا شابّ طُلب منهم، أو أُرغموا على حضور هذا الاجتماع. وكانت سمعة جيش التحرير سيئة للغاية لدى عدد كبير من الشباب، وكان الكثيرون يرتابون من وجودهم. وأحسّ البعض بالخيانة لأنه على الرغم من أن جيش التحرير كان يجنّد بكثافة في منطقة شمال بحر الغزال، فإنه لم يتمكن من حماية سكان المنطقة من أي هجوم، ورفض آخرون استخدامهم كجنود أطفال، بينما انتاب آخرون استياء شديداً لأن الحرب طالت كثيراً ولم يحقق جيش التحريرأي انتصار على حكومة السودان.
وهكذا جئت أنا وأتشور أتشور وجميع الشبان الذين نعرفهم لحضور الاجتماع في تلك الليلة، بدافع الفضول للاستماع إلى ما سيقولونه، والحجة التي قد يستخدمونها لإقناعنا بأن نحمل السلاح ونتخلّى عن الأمان النسبي الذي ننعم به في المخيّم. كانت الغرفة محتشدة بالشباب. جلس أتشور أتشور في المقدمة، أما أنا فلم أجد مقعداً، ووقفت بجانب النافذة. وبما أن الغرفة كانت ممتلئة في تلك الليلة، فقد ظل عدد كبير من الشبان واقفين حتى أبعد مسافة ممكنة. ومنذ عدة سنوات، كان جيش التحرير ينفذّ حكم الإعدام بالذين يهربون من الخدمة في عين المكان، ولا بد أن عدداً من الهاربين من الخدمة كانوا موجودين في كاكوما.

دخل القائد المسؤول في تلك الليلة، وهو رجل مربوع القامة، متغطرس، يُدعى سانتو أيانغ، وجلس إلى الطاولة الخشبية الزرقاء أمامنا، وتناول هذه النقطة بالذات أولاً.

- إذا كان يوجد بينكم هنا صبية هربوا من الجيش، فلا تقلقوا، قال. - فقد تغيّرت القوانين المتعلقة بالهروب من الخدمة الآن. سيُرحب بعودتكم إلى الجيش من دون عقوبة. أرجو أن تخبروا أصدقاءكم بذلك.

بعث كلامه هذا دندنة موافقة في صفوف الحاضرين.

- إنه جيش التحرير الشعبي السوداني الجديد، جيش موّحد، قال القائد سانتو.

- وإننا ننتصر. تعرفون إننا نحقق انتصارات. فقد انتصرنا في يامبيو، وكايا، ونيمول، ورومبيك. وأصبحنا نسيطر الآن على معظم المناطق المهمة في جنوب السودان، وما علينا إلاّ أن ننهي عملنا. عليكم أن تختاروا، يا فتيان... حسناً، لن تعودوا فتياناً بعد الآن. فقد أضحى الكثير منكم في عداد الرجال، وأصبحتم أقوياء ومتعلمين. والآن يجب أن تختاروا. كم شاب منكم يريد أن يبقى في كاكوما طوال حياته؟

لم يرفع أحد منّا يده.

- هكذا إذن. كيف تظنون أنكم ستغادرون هذا المكان؟ لم ينبس أحد بكلمة.

- أظن أنكم تتوقّعون أن تعودوا إلى بيوتكم عندما ننتصر في الحرب. لكن كيف يمكن الانتصار في هذه الحرب؟ من سينتصر فيها؟ من سيخوض هذه الحرب؟ أسألكم. أنتم هنا في كاكوما، يُقدّم لكم الطعام، وتشترون أحذية غالية الثمن...

هنا أشار إلى صبي واقف على كرسي عند الزاوية. كان ينتعل حذاء رياضياً جديداً، من الجلد الصناعي، نظيفاً جداً، أبيض مثل عظمة.

- وأنتم تنتظرون هنا، في أمان وسلام، حتى ننهي عملنا. ثمّ ستعودون وتستفيدون من التضحيات التي نقدمها. وأفهم من صمتكم أنّ هذه هي خطتكم بالفعل. إنها خطة ماكرة، أعترف بذلك، لكن هل تظنون أنّنا جيش من الأرانب والنساء؟ نخوض هذه الحرب، أسألكم! الرجال يقاتلون في هذه الحرب، ولا أكترث إن كانوا يطلقون عليكم اسم «أطفال السودان الضائعين» هنا في هذا المخيّم. إنكم رجال وواجبكم أن تحاربوا. وإذا لم تحاربوا، فإننا سنخسر هذه الحرب، سنخسر جنوب السودان، وستربّون أولادكم في كاكوما، وسيربّون أطفالهم هنا.

قفز شابّ يدعى مايوين فاير واقفاً.

- أنا سأذهب!

ابتسم القائد. - هل أنت مستعدّ؟

- أنا مستعدّ، صاح مايوين فاير. فضحكنا جميعاً.

- سكوت! صاح القائد نابحاً. هدأت الغرفة، لأن القائد أمر بذلك، ولأننا أدركنا أن مايوين فاير جدّي في ما قاله. - على الأقل يوجد رجل بين جميع هؤلاء الصبية، تابع سانتو كلامه. - أنا سعيد جداً. سنغادر بعد ثلاثة أيام. ستأتي شاحنات وتقف خارج البوابة الغربية ليلة يوم الخميس. سنراك هناك. أحضر ملابسك وأغراضك الأخرى.

لم يعرف المجنّد الجديد، في حماسته، ماذا يفعل في تلك اللحظة، فخرج من المبنى. كان ذلك تصرفاً أخرق، خاصة أن الغرفة كانت مزدحمة جداً واستغرق بضع دقائق وهو يخطو فوقنا جميعاً حتى وصل إلى الباب. ثمّ، أدرك أنّه قد يضيّع على نفسه معلومات هامة في الاجتماع، فعاد وراح يراقب من إحدى النوافذ.

- والآن، قال القائد سانتو. - لدينا ضيف خاصّ هذه الليلة.

تقدّم الآن رجل كان يجلس وراء القائد، بيده خيزرانة معقوفة. كان مسنّاً جدّاً متين البنية، أشيب الشعر، لا أسنان في فمه، وله فكّ ضعيف وعينان صغيرتان جداً. كان يرتدي سترة بدلة سوداء وبنطال بيجاما أزرق باهتاً، وعلى رأسه المجعّد الصغير قبعة مموهة. صافحه القائد سانتو وقدّمه لنا.

- هذا الرجل أمامكم، هو زعيم من النوبة، سيطلعكم على الأساليب الحقيرة التي يتبعها البشير وجيشه. ربما استطاع أن يقنع ما تبقى منكم كي تحذو حذو الشابّ الشجاع الذي تطوّع الآن. كان كوكو كوري كوكو رجلاً قوياً ومحترماً. لكنّه ارتكب خطأ: فقد سمح لنفسه أن يثق بحكومة الخرطوم. وهو هنا ليخبرنا بنتائج تلك الثقة.

- شكراً لك، أيها القائد سانتو.

- حدّثهم عن الخيانة التي تعرضت لها.

- بعد إذنك، أيها القائد، سأفعل ذلك.

- حدّثهم عن المكر وأعمال القتل التي شهدتها.

فتح الزعيم فمه ليتكلم لكن لم تتح له الفرصة.

ليس بعد.

- عندما تكون جاهزاً، أرجو أن تخبرنا. خذ وقتك، أضاف سانتو.

أخيراً انتظر الزعيم، يداه على عكازه، عيناه مغمضتان. عندما أحسّ بأن القائد سانتو لن يقاطعه، فتح عينيه وبدأ يقول.

- يا أولاد، كنت زعيم قرية تدعى جبل أوتورو. كما تعرفون، فقد كنّا في النوبة ضحايا هجمات متكرّرة على يد قوات الحكومة والمرحلّين. وقد فقدت ابني في إحدى تلك الهجمات، الذي أُحرق في بيتنا عندما كنت مسافراً إلى قرية أخرى للتوسّط في أحد النزاعات. وكما تعرفون، فقد أُرسل آلاف النوبيين إلى «قرى السلام»، معسكرات الاعتقال التي سمعتم عنها.

في هذه اللحظة رأيت أتشور أتشور الذي كان جالساً بالقرب من المقدمة. أصبحت مراقبة وجهه أهم بكثير من سماع الكلمات المنبعثة من فم كوكو كوري كوكو. فمنذ الكلمات الأولى التي نطقها الرجل، رأيت أتشور أتشور سابحاً في عالم آخر.

- بهذه الطريقة، تستطيع الحكومة أن تراقبنا، وتكفل بأنّنا لن نتمكن من محاربتها. وقد جذبت هذه المعسكرات الكثير من النوبيين الذين لا يريدون أن يكونوا جزءاً من هذا النزاع. فيبقون هناك تحت مراقبة الجنود، ولا يُطعمون جيداً. وفي قرى السلام تلك، اختُطفت النساء واغتصبن مرات عديدة. وقالت الحكومة إنه إذا لم يأت النوبيون من تلقاء أنفسهم ليعيشوا في قرى السلام، فإنهم يقفون إلى جانب جيش التحرير الشعبي، ويصبحون بذلك أعداء. ومثلكم، فقد عانى أهل النوبة لفترة من الزمن، ونريد أن نجد وسيلة لوضع حد لذلك.

امتدّ لسان أتشور أتشور من بين شفتيه، كما لو كان يتذوق طعم الهواء للمنعطف الذي ستأتي به القصّة.

- كنّا سعيدين، ثمّ، طلبت الحكومة عقد اجتماع. قيل إن البشير نفسه هو الذي طلب أن يجتمع مع جميع زعماء النوبة شخصياً. ويجب أن أعترف بأنّ هذا أثّر في كبريائنا. فنحن فخورون بأنفسنا. وقد دعتنا الخرطوم إلى اجتماع وذهبنا إليه بمحض إرادتنا، كالحمقى. لقد وثقنا، وما كان ينبغي لنا أن نثق. هل سنتعلّم درساً من هذه الحرب، من تاريخ هذا البلد؟ لقد وثقنا! لقد وثق أجدادنا، وأجدادهم وثقوا، وانظروا إلى أين أدى بنا كلّ ذلك.

بدأ صوت الزعيم يرتفع، وعندما ارتفع، تصدّع وتردّد. لقد تذكّرت قصّة الزعماء الذين وافقوا على أن يربطوا جنوب السودان بشماله، ويعرف الكثيرون بأنه خطأ سنندم عليه.

- نعم، كنّا فخورين وهكذا ذهبنا. وصلنا نحن الثماني والستّون زعيماً نوبياً إلى الاجتماع في اليوم المحدد. وأمضى بعض الزعماء عدة أيام حتى وصلوا إلى مكان الاجتماع، ذهب بعضهم سيراً على الأقدام. وعندما وصلنا، أدركنا أنّنا لم نُدع لنلتقي مع ممثلين من الخرطوم. كانت خدعة. فقد حشرونا، نحن زعماء عشرات القرى، في شاحنات وأخذونا إلى سجن جديد، كان مستشفى في الماضي. فقد كنت قد زرت ذلك المستشفى عندما كنت شاباً. احتجزونا في غرفتين صغيرتين لمدة يومين، وقدّموا لنا القليل من الطعام أو الماء. وطلبنا منهم أن يطلقوا سراحنا. ظننا أنّ هذا قد يكون تصرفاً أقدمت عليه مجموعة مارقة من الجنود الحكوميين، وظننا أن الحكومة التي نظّمت هذا الاجتماع ستغضب عندما تسمع بهذا التصرف الأرعن وستتدخّل بسرعة لإنقاذنا، لكن لم يكن جميع الزعماء متفائلين بذلك.

تطلّعت حولي، وبدا لي من وجوه الصبية في الغرفة أنهم يعرفون مصير الزعماء المتجمّعين. كانوا مستعدّين للقتال على الفور. في تلك اللحظة تجّهم وجه أتشور أتشور بشكل فظيع.

حاولنا أن نستجدي الحرّاس، وأوضحنا لهم إنّنا زعماء عشائر ولم نرتكب أي جريمة. أنتم أعداء الحكومة، وهذه الجريمة تكفي، قال لنا أحد الحراس إنه يعرف من نحن وأنّ مستقبلنا في خطر. لكنّنا ظننا أن أسوأ شيء سيفعلونه لنا هو أن يحتجزوننا في نوع من معسكر سلام مخصص لزعماء العشائر - قد يكون أشد قسوة، ربما ليعزلونا فقط عن باقي أبناء عشائرنا. توقّعنا أن نُحجز هناك لسنوات، ربما حتى نهاية الحرب. لكن كانت للحكومة خطط أخرى. ففي الساعات الأولى، من تلك الليلة، أيقظونا وأخرجونا من سجن المستشفى إلى عتمة الليل. وضعونا في شاحنات نقل عسكرية، وعندما جلسنا في مؤخرة هذه الشاحنات، تملكنا الخوف أخيراً. فربطوا أيدينا وراء ظهورنا، وأحسسنا

أننا أصبحنا عاجزين عن القيام بعمل أي شيء. في الشاحنة، حاول أحدنا أن يساعد الآخر في فك قيودنا. لكن الشاحنة كانت تسير في طريق جبلي وعر وكان الليل حالك الظلمة. لم نكن نرى شيئاً في الشاحنة، وكنا نرتمي فوق أحدنا الآخر في الطرق المتعرجة والمعبدة بشكل سيء. وكان الكثير من زعماء العشائر هؤلاء عجائز أيضاً، يجب أن تتذكّروا، ولم تكن أجسامهم قوية جداً. هكذا أصبحنا: زعماء قبائل النوبة، ولم تكن لدى أحدنا وسيلة لمساعدة الآخر. كان الأمر مذلاً.

كان أتشور أتشور يهزّ رأسه ببطء، والدموع تترقرق في عينيه.

- بعد فترة قليلة توقّفت الشاحنات. أنزلوهم! صاح ضابط الجنود. نزلنا من الشاحنة، الواحد بعد الآخر، وسرعان ما نفد صبر الجنود. فألقوا زعماء العشائر المتبقين من الشاحنات وسقط أحد هؤلاء الزعماء، وهو رجل طاعن في السن، بقوة على الطريق، لأن يديه كانتا مقيدتين. وقفنا جميعاً على الطريق وطلبوا منا أن نسير. كان القمر نصف بدر ويلمع في السماء. رأينا وجوه الجنود، وكان بين الجنود رجل من الدينكا. أتذكر أنني نظرت إليه طويلاً، محاولاً أن أعرف ما الذي حدث له. خيّل إليّ أنّه أصبح مسلماً، واقتنع بأننا أعداء بلده ودينه. وخيّل إليّ أنّني رأيته يشيح بنظره بعيداً. خيّل إليّ أنه ربما كان يشعر بالخجل. لكن ربما كنت أتخيّل كلّ ذلك. كنت أريد أن يشعر بالخجل لكنه ربما كان مضطراً لأن يؤدي المهمّة الموكلة إليه، مثل الجنود الآخرين.

كان أتشور أتشور صورة عن غضب مكبوت.

- أخذونا إلى حافة على الجبل، وجعلونا نقف في صفّ. كان هناك عشرون جندياً يحملون بنادق آلية. حاول أحدنا أن يجري أسفل الجبل. فأطلقوا عليه النار على الفور وأردوه قتيلاً. في تلك اللحظة فتح الجنود نيران بنادقهم. أطلقوا النار على كلّ واحد منّا، في مؤخرة رأسه، عندما كانوا يستطيعون عمل ذلك. حاول عدد من الرجال المقاومة بأقدامهم فأطلقوا عليهم النار في صدورهم ووجوههم وفي أي أماكن أخرى. كان ذلك أسوأ شيء رأيته في حياتي، أن أرى هؤلاء الرجال يكافحون للحفاظ على حياتهم يركلون ويقفزون وأيديهم مقيّدة. ليست هذه طريقة يموت بها المرء. كانت فوضى فظيعة.

- هل استغرق ذلك وقتاً، أقصد تنفيذ الإعدام؟ سأله القائد.

- لا، لا. كان ذلك سريعاً جداً. انتهى كل شيء في بضع دقائق.

- لكنّهم لم يطلقوا عليك النار. أليس كذلك؟

نخر الزعيم. - طبعاً أطلقوا عليّ النار! أطلقوا عليّ النار مع الآخرين جميعاً! فقد كنت زعيم بلدة وكان عليّ أن أموت! أطلقوا عليّ النار في مؤخرة رأسي، نعم، لكن الرصاصة مرّت وخرجت من فكّي.

لم يصدّق بعض الصبية المتجمهرين في الغرفة ما سمعوه، ولاحظ الرجل ذلك.

- إنكم لا تصدقونني؟ انظروا إلى هذا.

وكشف عن ندبة متعرجة في زاوية فكّه.

- من هنا خرجت الرصاصة. وها هي الرصاصة.

وأخرج من جيبه شيئاً مستديراً وصدئاً، لا يبدو أنه شيء يمكن أن يخترق جمجمة رجل.

- لم أشعر بالألم. ظننت أنني متّ، أحسست بقليل من الألم. استلقيت على الأرض، ورحت أتساءل حول غرابة ما أراه. فقد كنت ميتاً، لكنّي لا أزال أستطيع أن أرى. كنت أرى جسد رجل آخر، زعيماً آخر، وكان باستطاعتي أن أسمع صوت أحذية الجنود. كان بإمكاني أن أسمع صوت محرك الشاحنة ينطلق مرة أخرى. ورحت أتساءل طوال الوقت لماذا أسمع كلّ ذلك، فلم أكن أتوقّع أن أرى وأسمع بعد الموت.

- قلت في نفسي إنني ربما لم أمت بعد. بأنّني لا أزال أحتضر. فاستلقيت هناك، غير قادر على أن أتحرّك، أنتظر أن أموت. فكّرت بعائلتي، بأهل قريتي. فهنا يستلقي زعيمهم بين سبعة وستين زعيماً آخر، جميعهم أموات. جميع الأغبياء الواثقين. فكّرت بعار كلّ ذلك، كلّ هؤلاء الزعماء يلفظون أنفاسهم الأخيرة في مكان واحد، يُقتلون على يد جنود الجيش الشباب الذين لا يعرفون شيئاً عن الحياة. لعنت حماقتنا. كنّا شديدي الثقة وحمقى، كما كان أسلافنا قبل خمسين سنة. ستكون هذه نهايتنا، قلت في نفسي. فإذا كان قتل جميع هؤلاء الزعماء بهذه السهولة، فلا بد أن يصبح قتل أطفالنا مهمّة سهلة للغاية.

- لم أدرك إلاّ في وقت متأخر بأنّني كنت لا أزال على قيد الحياة. فقد ظهر الضوء في الصباح وأنا لا أزال أرى وأفكّر، وهذا ما جعلني أعتقد بأنّني قد

أكون لا أزال حيّاً. حاولت أن أحرّك ذراعي. ولدهشتي، تحركتا. وخطر لي أنه قد تكون هناك مجموعة جديدة من الجنود ستأتي قريباً وتدفننا لإخفاء دليل المذبحة، فنهضت ومشيت بعيداً. عدت ببساطة إلى قريتي. استغرق ذلك ثلاثة أيام ورأيت عدداً قليلاً من الناس على طول الطريق. وعندما وصلت إلى أول قرية في طريقي، التقيت بنائب الزعيم فحيّاني بحماسة كبيرة، وأراد أن يعرف كيف سار الاجتماع. فقلت له إنّه لم يسر على ما يرام.

- فقدّم لي هو وأهله الرعاية اللازمة ثم أخذني إلى عيادة قريبة، فخاطوا الجرح في وجهي. وبعد أسبوع عدت برفقة النائب إلى قريتي حيث سمعوا بما جرى. لن أكون في مأمن في القرية، فظللت مختبئاً حتى تمكّنت من الهرب بعد أسبوع. وفي النهاية التقيت بأشخاص آخرين متجهين إلى كاكوما. وقرّرت أنه سيكون المكان الآمن الوحيد لي.

- يا أولاد، لا يمكننا أن نكون بلداً واحداً مع الشمال، مع الخرطوم. لا يمكننا أن نثق بهم أبداً. وإلى أن يقام جنوب منفصل، سودان جديد، فلن نعيش في سلام. لا يمكننا أن ننسى ذلك أبداً. بالنسبة لهم فنحن مجرد عبيد، وحتى لو لم نكن نعمل في بيوتهم وفي مزارعهم، فإنهم سينظرون إلينا دائماً بأننا شعب أدنى مرتبة منهم. فكّروا في الأمر: كل ما يسعون إليه في النهاية هو أن يجعلوا البلد كله دولة إسلامية. إنهم يخطّطون لتحويلنا كلّنا إلى الإسلام. إنهم يفعلون ذلك شيئاً فشيئاً. فثلاثة أرباع هذا البلد مسلم الآن. لم يتبق لهم الكثير. لذلك تذكّروا: إما أن ننال الاستقلال، وإلا لن يكون لنا وجود كشعب. إنهم سيضمّون كل ما يمكنهم ضمّه، وسيقتلون الباقي. لا يمكن أن نكون معهم، ولا نستطيع أن نثق بهم. لن يحدث ذلك ثانية. أتعدوني بذلك؟

هززنا رؤوسنا.

- الآن حاربوا هذه الوحوش! قال هادراً. - أتوسل إليكم.

تعهّد اثنا عشر صبياً آخر بالانضمام إلى جيش التحرير في تلك الليلة. وغادر عشرة منهم مع الجيش يوم الخميس، مع أربع عشرة صبياً آخر لم يحضروا الاجتماع - كان معظمهم أبناء وإخوة وأبناء عم وأبناء إخوة أو أخوات قادة جيش التحرير. لا يمكنني أن أقول إنّني فكرت جدياً بالانضمام إلى جيش التحرير آنذاك، لأنني كنت منهمكاً في مشاريعي في فريق المسرح ومع الآنسة غلاديس. أما أتشور أتشور فقد أمضى يومين يعاني من حالة اضطراب، وكان يأتي إليّ في كلّ ليلة لأساعده في تفكيره.

-أتظِن أنّنى يجِب أن أذهب. أليس كذلك؟ سألنى.

- لا أعرف. لا أعرف إن كان ذلك سيحدث أي فرق، قلت.

- إنك لا تظن أنه يمكن الانتصار في هذه الحرب.

- لا أعرف. لقد مضى عليها سنوات كثيرة. لا أعرف إن كان أحداً يعرف هل سنكسب الحرب. كيف يمكننا أن نعرف؟

- إذا نلنا الاستقلال.

- أتظن حقاً أن ذلك ممكن؟

جلسنا بهذه الفكرة للحظة.

- أظن أنّني يجب أن أذهب، قال. - أنا الذي يجب أن يخوض هذه الحرب لأنني من أويل. فإذا لم أعد وأحارب، فمن الذي سيفعل ذلك؟

- لن يضعوك في أويل.

- إذن سأحصل على بندقية وأعود إلى أويل.

- لن يكون هناك أحد في أويل. لن يكون قد بقي فيها أحد.

- قال القائد سانتو إن جيش التحرير الشعبي أصبح مختلفاً الآن.

- ربّما. ربّما لا. لكن انظر إلى نفسك. فأنت لم تحارب في حياتك، وأصبحت تضع نظارات الآن، فكيف ستطلق النار لو انكسرت نظارتك؟

لم يخطر ببالي حقاً أن هذه المناقشة ستثمر، لكنّها نجحت بالفعل. نجحت على الفور، وكانت تلك نهاية فكرة أتشور أتشور بالالتحاق بجيش المتمردين. كنت متأكّداً من أنه كان يبحث عن ذريعة مناسبة كي لا ينضمّ إلى المتمردين، عن شيء يمكن أن يقوله إذا سُئل. ولم يتكلّم بعد ذلك قط عن تجربته في جيش التحرير الشعبي.

لا أريد أن أكون فظاً لكن يجب أن أقول إنه لم يكن قد مضى وقت طويل على بلوغنا سن البلوغ، وكان لا يزال بعض الصبية الأصغر سناً في الصفّ يمرّون في خضم مرحلة تغيير هورموني ووعي أعمق بالجنس الآخر. وما فعلته الآنسة غلاديس هو أنها أعملت فينا دماراً نحن الشباب الصغار في الوقت الذي كانت تعتمل في نفوسنا اضطرابات فيزيزلوجية قوية. فقد

ظهرت أول شعرات لي مؤخراً في أجمات صغيرة، بعضها تحت سروالي الداخلي، وأخرى تحت إبطي. كنت قد تأخرت عن عدة صبية آخرين، لكنّ نمونا كلّنا كان بطيئاً، بسبب، كما قالوا لنا، الصدمة التي تعرّضنا لها وحالة سوء التغذية المستمرة التي كنّا نمرّ بها. لكن في تلك المرحلة الحرجة من نمونا، كان للآنسة غلاديس تأثير قوي جداً على حياتنا. وبحيويتها الجنسية الصريحة والواثقة، كانت تشعل دائماً كلّ شيء قابل للاشتعال في داخلنا. فقد كان يكفي أن نراها مرّتين في الأسبوع مع فريق المسرح، لكنّها عندما دخلت إلى صفّ دروس التاريخ، تقلت الأمور إلى منحى آخر.

- آه، دومينيك! تسرّني رؤيتك! قالت.

كان ذلك في الفصل الدراسي بعد أن بدأت العمل مع فرقة مسرحية ناباتا. لم يخبرنا أحد بأنهم سيحضرون لنا معلّمة تاريخ جديدة. مع أن معلمنا السابق، وهو رجل كيني يدعى جورج، كان معلماً قديراً.

- هل ستدرّسين هذا الصفّ؟ قلت.

- يبدو أنك غير سعيد برؤيتي، قالت بعبوس مسرحي.

لم أعرف ماذا أقول. كان من الممكن أن أتحمّل وجودها في ناباتا، لأنني كنت أستطيع أن أضبط أعصابي وأخفي ضعفي تحت ستار التمثيل أما معها كمعلّمة مادة التاريخ، فقد عرفت على الفور بأنّني لن أكون قادراً على التركيز، وأن درجاتي ستتدنى كثيراً. وما ضاعف كلّ المشاكل المتأصّلة المنبعثة من وجودها تجعيدة جديدة أضيفت إلى شخصيتها. فثمة شيء يتعلق بالتاريخ أظهر العامل المثير فيها، وقد حطّم ذلك معظم الصبية الثمانية والخمسين الذين كانوا يجلسون على الأرض تحتها.

لم تكن تتحدّث عن الجنس صراحة، لكن يبدو أنها وجدت طريقة، في أثناء دروسها، لتُدرج العادات الجنسية في أي شيء تناقشه، حتى لو كان خارج سياق الدرس.

- كان جنكيزخان ديكتاتوراً شديد القسوة، قد تبدأ درسها. - كان قاسياً على أعدائه لكنّه كان يحبّ النساء كثيراً. يقال إنه كان يمتلك شهوة عظيمة. وتقول الشائعات بأنّه حبّل أكثر من مئتي امرأة ببذرته، وغالباً ما كان يزور ثلاث نساء أو أكثر في الليلة الواحدة. وكان يُعرف عنه أيضاً بأنه يأخذ بعض الأدوات إلى السرير مع...

في اليوم الأول، أغمي على أحد الصبية. فلم نكن مهيئين تماماً لسماع أي حديث يوحي بالشهوة الجنسية، وبأي حديث ينبعث من فم الإلهة التي تدعى غلاديس. لماذا كانت تفعل بنا ذلك؟ فقد استحوذت علينا جميعاً، نحن الثماني والخمسين صبياً، وسيطرت علينا تماماً وفي بعض الأحيان بلا شفقة. وواصلت حديثها عن العادات الجنسية لجنكيزخان وعن أسرته طوال الدرس وتركتنا منهكين، مشتتين. كان لوجوهنا المشوّشة والمشتهية تأثّير عليها، وكان ذلك التأثير يحفزّها أكثر، إلى حدّ أنها بدأت تُدخل بعض الحقائق الجنسية أو تعليقات جانبية في جميع دروس اليوم، وكنا نتشوق إلى سماع ذلك، وكنا نرتدي ثياباً ملائمة. ثم أحضر الصبي الذي أغمي عليه قطع أوراق صغيرة يدّسها في أذنيه عندما تبدأ تستفيض في الشرح، لأنه كان متأكداً من أن والديه اللذين يعيشان في المخيّم سيعرفان ما الذي يجري له إذا عاد إلى البيت وفي رأسه ها النوع من المعلومات.

ومن بين الفتيات القليلات اللاتي كنّ في الصفّ، ساد شعور واسع بالانزعاج من ألاعيب الآنسة غلاديس وهوس الصبية بها. لكن كانت هناك فتاة، أصغر سناً من بقية الفتيات، كان يبدو أنها تستمع بدروس الآنسة غلاديس، وكانت تضحك على نكاتها حتّى عندما لم نكن نعرف أنها نكات. وكانت هذه الفتاة هي تابيثا دواني أكير. فلم أرها منذ الفصل الدراسي في الصيف، عندما كنّا نحضر دروس الاقتصاد المنزلي معاً، لكنني كنت سعيداً جداً لأنني رأيتها ثانية، ولأنني رأيت أنها هي الفتاة الوحيدة التي تضحك عندما تلقي الآنسة غلاديس نكتة عن عيدي أمين في حمام البخار التي قوبلت بصمت الجميع سوى قهقهة عالية انبعثت من الصفّ الجانبي. غطّت تابيثا فمها بيدها وتبادلت نظرة إعجاب متبادلة طويلة مع الآنسة غلاديس، ومنذ ذلك اليوم، بدأتُ أبدي اهتماماً بها، وحاولت أن أراها خارج الصفّ، في أي فرصة تسنح لي. وفي عدّة نواحي، فقد ذكّرتني بماريا - بذكائها، وسرعة بديهيتها ، ووجهها الذي في شكل قلب - لكنها كانت أكثر أنوثة من ماريا. فقد كانت تتمتع بأنوثة طاغية، لكنها كانت تجيد تروّيضها والتحكم بها، كما أظن، وكانت تدرس كلّ حركة وإيماءة تصدر عن الآنسة غلاديس.

في غضون ذلك، أصبح بقيّة الصبية، الذين تعرّفوا للتو على معلّمة التاريخ الجديدة، يمضون قدراً كبيراً من الوقت وحدهم ومعاً وهم يفكّرون بمعلّمتنا الجديدة، بدروسها المختلفة. وأصبحت الآنسة غلاديس أشهر معلّمة وأكثرهن طلباً في كاكوما، ومعها نما سوء سمعتنا، نحن الصبية الذين نحمل اسم دومينيك. فقد كان هناك أربعة صبية لهم اسم دومينيك في صفّ دروس التاريخ، وبما أنها كانت تتصرف معنا بألفة شديدة، فقد كان باقي الصبية ينظرون إلينا بعين الحسد، لأنه كان من الواضح أن لدينا ممر داخلي إلى

قلبها. فكلما ذَكرت الآنسة غلاديس، ذَكر الصبية المفضّلين لديها أيضاً، الدومينيك الأربعة في فريقها المسرحي. فقد حلّ اسم دومينيك محل أسمائنا الحقيقية كلنّا، وربطنا معاً بسوء سمعتنا. وعندما كنّا نلعب كرة السلة معاً، كان فريقنا يدعى فريق الدومينيك. وعندما كنّا نسير، كان الناس يقولون، «ها هم الدومينيك». وازداد عدد الصبية الذين أصبحوا يرغبون فجأة في دراسة التمثيل والتاريخ، في صفنّا، مهما كان مكان إقامتهم في المخيّم زيادة كبيرة. لكن الآنسة غلاديس لم تسمح لأحد منهم بالانضمام إلى الفريق، لأننا لم نكن بحاجة إلى مزيد من الصبية.

فقد كان في الفرقة عدد كاف من الصبية، وبدأت تظهر مشكلة بسبب وجود فتاتين فقط، وكانت معظم أدوار النساء في مسرحيّاتنا يؤديها فتيان. وكان يؤدي دور النساء أحد الصبية الدومينيك، واسمه الحقيقي أنتوني تشيت غووت. كان فتى جريئاً لا يتورع عن ارتداء ثوب أو أيّ لباس أنثوي آخر، ولم يكن يخشى أن يمشي ويتكلّم مثل امرأة. ولشجاعته هذه أطلقنا عليه اسم «مدام زيرو»، تيمناً باسم بطل قصة بالرسوم يحبّ ارتداء ثياب نسائية. لم يكن يبالي بهذا الاسم، على الأقل في البداية، لكن عندما بدأ هذا الاسم يتجاوز الدومينيك الأربعة، بدأ يشعر بعد الارتياح من هذا الاسم، فأصرّ هو والآنسة غلاديس على أن نجد فتاة أخرى تشارك في الفرقة.

وهكذا، وفي بعد ظهر يوم مجيد، انضمت تابيثا إلى فرقة مسرح ناباتا.

كانت تابيثا إحدى صديقات آبوك، أكبر بنات غوب سناً، وبما أنها لم تكن تحضر دروس الاقتصاد المنزلي والتاريخ، فقد كان باستطاعتي أن أراقبها، وأعرف بعض الأشياء عنها. فقبل كلّ شيء عرفت أنه سُمح لها بالانضمام إلى الفرقة لأن أمّها كانت ممثّلة، وهي امرأة مستنيرة تريد أن تستغلّ تابيثا كلّ الفرص المتاحة في المخيّم، وعرفت أيضاً أنّ لها وجهاً شديد الجمال. وعندما تعرفت على ماريا في البداية، مالت إليها مشاعري، لكن النظر إليها، والتكلّم معها، لم يكن تحدياً بالنسبة لي. فقد كانت تبدو لي مثل أي شقيق، وكان ينتابني شعور عندما أقف أمامها بأنّها شاب مثلي، وأنّنا كلانا لاجئين، وأنه لا يوجد فيها شيء يثير خوفي.

أما تابيثا فلم تكن كذلك. ولم أكن الوحيد الذي يعرف أنه لا يوجد مثيل لوجه تابيثا من حيث تناظره وتناسقه. فكانت بشرتها صافية شديدة النقاء، وكان طول رموش عينيها يتحدّى طول أيّ رموش أخرى. لقد عرفت كلّ ذلك من بعيد، لكني بعد أن رأيتها عن قرب عرفت أنها عندما تمشي، فهي تمشي بخطوات وئيدة، لا تبذل أي جهد في تحريك أي جزء من جسدها. وإذا رأيتها

من بعيد، فإنه يخيّل إليك بأنّها تعوم، ولم يكن رأسها يهتز أبداً، ولا تكاد تبين حركة ساقيها تحت تنورتها. لقد عرفت كل ذلك، وعرفت أنّها كانت تلمس ذراع أصدقائها عندما تكلّم أحدهم. كانت تفعل ذلك كثيراً، وعندما تضحك كانت تمسك بذراع الشخص الآخر الذي يكلّمها وتربت عليها مرّتين.

كنت أعرف كلّ ذلك، وكنت أعرف أنّني كنت لفترة من الزمن فظاً وغبياً عندما أكون في وجودها. كانت تصغرني ببضع سنين، على الأقل، وكنت أطول قامة منها بكثير، لكن على الرغم من ذلك، فقد كنت أشعر عندما أكون قريباً منها بأنني طفل، طفل ينبغي أن يلعب بالدمى في ظلّ تنورتها. وكنت أريد أن أكون قريباً منها، أن تكون دائماً في مجال بصري، وبعد لحظة، أن أكون موجوداً في عالم لا تكون موجودة فيه. كان يبدو لي ذلك أنها الطريقة الوحيدة التي تمكنني من التركيز مرة أخرى.

في المرات القليلة الأولى التي حضرت فيها اجتماعات الفرقة المسرحية، لم تلفت انتباهها وتأسرها، مثل الآخرين، سوى ألاعيب دومينيك المرح. فقد كانت تضحك على كلّ شيء يقوله، ولا تني تضع يدها فوق ذراعه، بل حتى أنها ضغطت عليها مرّة أو مرّتين. كنت أعرف أنّ مشاعر دومينيك الودية كانت في مكان آخر، لكن رؤية ذلك كانت لا تزال شديدة الصعوبة بالنسبة لي، لأنها عندما تلمس يد فتى آخر، كنت أشعر بأنني لن أشفى أبداً، وكان عزائي الوحيد هو أنني أعرف بأنني سأراها كلّ أسبوع، في مكان مغلق، عندما نؤلّف مسرحيّاتنا - وهل نظرت إليّ مباشرة، أم كلّمتني. لا، فهي لم تفعل ذلك لي قط.

بدأ عدد أعضاء فريق المسرح يزداد بفضل جهود تابيثا والصبية الدومينيك الأربعة ومعلّمتنا الشبقة، لكن أيضاً بفضل التمويل السخي الذي بدأنا نحصل عليه. فقد بدأ برنامج الشباب والثقافة الذي أقمناه يتلقى معونة مباشرة من منظمة تُدعى مشروع واكاتشياي، وهي منظمة لا تبغي الربح يقع مقرها في طوكيو. وكانت تهدف إلى توجيه الشباب في كاكوما وتعليمهم الرياضة، والمسرح، والإسعافات الأولية، وإدارة الكوارث، لكنّهم وجدوا أيضاً وسيلة لتجهيز فرقة استعراضات كاملة من اللاجئين بالملابس والأدوات وتقديم مدرب غير متفرغ متخصّص في آلات النفخ. وعندما بدأ المشروع، أرسلوا ممثلاً لهم إلى كاكوما، شابّ في الرابعة والعشرين من عمره، يدعى نورياكي تاكامرا، الذي سرعان ما أصبح واحداً من أهم الرجال الذين عرفتهم في حياتي، وتعلّمت منه أن أحاول أن أحبّ أحداً هشّاً وفي مكان بعيد جداً.

بعد انطلاق المشروع مباشرة، تم اختياري لأكون اليد اليمنى لنورياكي. كنت قد عملت في السنتين الماضيتين في مشروع الشباب والثقافة فأصبحت معروفاً في أوساط الشباب السودانيين والعاملين في المنظمة غير الحكومية. ولم يبد أن منحي هذه الوظيفة سيثير جدلاً، لكن تبين أن ذلك لم يرق للكينيين الذين كانوا يريدون الاستئثار بجميع الوظائف، لا آنذاك ولا لاحقاً. لكني لم أكترث بذلك. وبسعادة كبيرة قبلت الوظيفة التي جلبت لي راتباً أعلى، بل أصبح عندي مكتب أيضاً. سوداني يعمل في مكتب! فقد مُنحنا مكتباً صغيراً في مجمّع الأمم المتّحدة، فيه هاتف متصل بالساتلايت وجهازا كمبيوتر، واحد أحضره معه نورياكي، وطلب لي الآخر. وقد طلبه في أول يوم بدأنا فيه العمل معاً.

- ها نحن هنا يا دومينيك، قال.

كما قلت، فقد هيمن الاسم دومينيك علينا جميعاً.

- نعم يا سيدي، قلت.

- أنا لست سيدك، أنا نورياكي.

- نعم. أنا آسف.

- إذن هل أنت متحمس؟

- نعم، يا سيدي.

- نورياكي.

- نعم. أعرف هذا.

- إذاً فإننا نحتاج إلى جهاز كمبيوتر لك. هل سبق أن استخدمت جهاز كمبيوتر؟

- لا. رأيت أشخاصاً يعملون عليه.

- هل تعرف الطباعة؟

- نعم، كذبت. لا أعرف لماذا اخترت أن أكذب.

- أين تعلّمت الطباعة؟ على آلة كاتبة؟

- لا، أنا آسف. لم أفهم جيداً. لا أستطيع أن أطبع.

- لا تستطيع أن تطبع؟

- لا يا سيدي.

أطلق نورياكي زفرة تكفي لثلاث رئات.

- لا، لكنّي سأحاول.

- يجب أن نجلب لك جهاز كمبيوتر.

بدأ نورياكي يجري اتصالات هاتفية، وبعد ساعة وصل إلى مكتب مشروعه في نيروبي وطلب لي جهاز كمبيوتر محمول. لم أكن أصدّق بأنّ الجهاز سيصل إلى كاكوما أو إليّ لكنّي قدّرت عالياً بادرة نورياكي.

- شكراً، قلت له.

- طبعاً، قال.

وفي ذلك اليوم عملنا قليلاً خارج المكتب وحدّثني عن صديقته في اليابان التي كان يضع صورتها على طاولة مكتبه. وكشف نورياكي عن الصورة التي ترتدي فيها قميصاً أبيض وبنطالاً أبيض وتمسك بيدها مضرب تنس. كانت ابتسامتها صغيرة وشجاعة، كما لو أنها كانت تحبس دموعاً مسحتها للتو من على وجهها.

- اسمها واكانا، قال.

- يبدو أنها فتاة لطيفة جداً، قلت.

- إننا مخطوبان.

- جيد، قلت. كنت قد قرأت مؤخراً، في أحد نصوص اللغة الإنكليزية التي أدرسها، ليس من اللائق أن أقول كلمة «مبروك» في حالة كهذه.

- ليست خطوبة رسمية بعد، قال.

- هل ستهربان؟

- لا، سنتزوّج في حفل زفاف رسمي. لكن يجب أن أتقدّم لطلب يدها شخصياً.

لم أكن أعرف كيف يتم الزواج في اليابان، وكانت لديّ معلومات غامضة عن عادات الزواج في العالم الغربي.

- متى ستفعل ذلك؟ سألته.

لم أكن متأكّداً كم سؤالاً كان يسمح لي أن أسأل في هذه الأمور، لكن لم يكن يبدو أن هناك شيئاً يجعل نورياكي يشعر بالإساءة.

- عندما أعود إلى البلد، كما أظن. لا أستطيع أن أطلب منها أن تأتي لزيارتي هنا.

جلسنا معاً للحظة، نحدّق في الصورة، في ابتسامة الشابّة الحزينة.

لقد اشتقت كثيراً لنورياكي، في اليوم الأول ذاك. فلم تخطر ببالي فكرة أنه سيغادر كاكوما ذات يوم، مع أنني كنت أعرف تماماً أن أحداً لا يبقى في كاكوما غير الكينيين، بل حتى أنهم لا يمكثون فيها أكثر من بضع سنوات. وأصبح نورياكي صديقي منذ اليوم الأول ذاك، لكنّه لم يكن صديقي أنا فقط، لأن الجميع كانوا يحبون نورياكي. كان أقصر بكثير من أن أيّ رجل سوداني أعرفه، لكنّه كان رياضياً، سريعاً جداً، ويجيد أي رياضة كان يلعبها في كاكوما. وكان يشارك في ألعاب كرة القدم، وكرة الطائرة، وكرة السلة. وكان يبدّل شبكة كرة السلة مرة كلّ أسبوع، وكان يحتفظ بشبكات نايلون بيضاء جديدة على الدوام. وبما أنه كان يبدّل تلك الشبكات، فقد أصبحت الشبكات تُسرق لتباع في بلدة كاكوما، لأنهم يعرفون أن الرجل الياباني المربوع القامة الذي يعرفه الجميع، أو سيحاولون ذلك على الأقل، سيبدّل الشبكة بعد وقت قصير.

- نوياكي!

- نوكي!

منذ البداية، كان نورياكي دائما مع السودانيين، في المخيّم، عندما يسير في الدروب والطرق، يسأل عمّا نحتاج إليه. وكان يأكل مع اللاجئين، ويتحرّك بينهم. وعندما كان يقود سيارته، كان يتوقّف مع أي شخص يطلب منه أن يتصور معه. وكان ينقل معه أيّ شخص ذاهب إلى المجمّع، حتى تمتلئ

شاحنته بالركاب المبتسمين الذين كانوا جميعاً يحبون نورياكي، أو بأي شكل يمكن للمرء أن يترجم اسمه.

- ناكاياكي!

- نوراكاكا!

لم يكن ذلك يهمّ نورياكي الذي يمشي في كاكوما وعلى وجهه ابتسامة عريضة خجولة، سعيداً لأنه يقوم بعمل رئيسي ولأنه، كما أتصوّر، يعرف أنه توجد في كيوتو شابّة جميلة جداً تنتظره.

بعد أسبوع من وصول نورياكي وطلبه جهاز الكمبيوتر لي، حدث شيء مثير للاهتمام: فقد وصل جهاز الكمبيوتر. ففي ذلك اليوم كانت هناك شحنة جوية قادمة من نيروبي، معظمها إمدادات طبية للطوارئ، لكن كان في الطائرة أيضاً صندوق، زواياه مربّعة تماماً، ويوجد في ذلك الصندوق، الكمبيوتر المحمول الذي طلبه لي. فقد كان من النادر أن تجد في كاكوما صندوقاً بهذا الشكل المتقن، له زوايا هشّة جداً، لكن ها هو يجثم فوق أرضية المكتب، وابتسم لي نورياكي ابتسامة عريضة فبادلته الابتسامة. كنت أبتسم دائماً عندما أنظر إلى نورياكي. كان من الصعب عليّ ألاّ أفعل ذلك.

وصل الصندوق عندما كنّا كلانا في المكتب، نتناول طعام غدائنا، وعندما فتحه نورياكي لي - لم أثق بنفسي بأنني لن أتلفه - أردت أن أعانق نورياكي أو على الأقل أصافحه، وهذا ما فعلته بحماسة شديدة.

فتح نورياكي علبتيْ فانتا برتقال، وشربنا نخب وصول الكمبيوتر. وأصبح تبادل الأنخاب بعلب الفانتا تقليداً بيننا، وفي ذلك اليوم، شربنا الفانتا ببطء، ونحن ننظر إلى الصندوق ومحتوياته الاستثنائية، الملفوفة بالبلاستيك وعليها حبيبات رغوة سوداء. ربما كانت قيمة الكمبيوتر المحمول تساوي عشر أضعاف قيمة جميع ما أملكه أنا وأشقائي في كاكوما مجتمعة. إن ثقته بي وائتمانه لي على شيء كهذا منحني شعوراً بجدارتي لم أعرفها منذ أن كنت ربما في السادسة من عمري، عندما سُمح لي بأن أمسك بندقية أبي الصينية الصنع. كررت شكري لنورياكي، ثم تظاهرت بأنني أعرف كيف أشغّل الكمبيوتر.

- خذه معك إلى البيت وتدرب عليه، قال نورياكي أخيراً.

- آخذه إلى أين؟

- خذه إلى البيت وتدرب عليه.

منذ وصول جهاز الكمبيوتر المحمول لاحظ نورياكي أنّني لا أعرف ماذا أفعل. ففي أحد الأيام أمضيت ساعة وأنا أحاول تشغيل الجهاز. وعندما شغلّته، استغرقت الطباعة مني وقتاً طويلاً، وازداد عملي صعوبة لأن العرق العصبي الذي كان يتفصد من جبيني وذراعيَّ وأصابعي بلل لوحة المفاتيح. وقد جعل ذلك أيّ نوع من التدريب، أي عمل أقل بكثير، أمراً مستحيلاً.

- سنرسلك لتتدرّب، قال. - يمكنك أن تأخذ دروساً في الكمبيوتر.

- أين؟

- في نيروبي. سنسجل ذلك في الميزانية.

كان نورياكي ساحراً. نيروبي! يسجلها في الميزانية! لم أفهم لماذا أتى نورياكي إلى كاكوما، ولماذا مكث في كاكوما، خاصة أنه توجد عنده أسرة وسيدة صديقة في اليابان. ولمدة طويلة جداً، حاولت أن أفهم ما هي مشكلته، وما سبب عدم حصوله على وظيفة حقيقية في اليابان، وما الذي جعله يسافر إلى مكان بعيد ليعمل في ظروف صعبة وبدون مرتب جيد كما هو الحال هنا، معنا؟ لكنّي عرفت أنّ نورياكي يقوم بعمله بإتقان، فلم أقتنع بأنّه كان مرغماً على العمل في مخيّم للاجئين. فقد كان ماهراً في الكمبيوتر، وكان وسيماً، ويحبّه الكينيون، والأوربيون، والبريطانيون والأمريكان، وخاصة السودانيون الذين كان يبدو أنهم جميعاً يعشقونه، وبحسب علمي، لم تكن توجد فيه أي عاهة طبيعية. وناقشت موضوع نورياكي ذات ليلة مع أسرة غوب على العشاء، عندما أحضرت جهاز الكمبيوتر إلى البيت، وأصرّ غوب على أن أضعه في مكان ظاهر للعيان ونحن نتناول العشاء. كانت يبدو شيئاً غريباً جداً في هذا المكان الذي نعيش فيه. فقد كان أشبه بسبيكة ذهب فوق جبل من الروث.

- قد يكون قد ارتكب جريمة ما في اليابان، قالت أيين.

- توجد منافسة قوية في اليابان، قال غوب. - ربما ملّ من الحياة هناك.

لكنّهم لم يريدوا إفساده ولم أرد إفساده. كان شيء غريباً: كانت هناك وظائف قليلة للسودانيين البالغين في مفوضية شؤون اللاجئين وفي المنظمات غير الحكومية، لكنّهم كانوا يحتاجون إلى شخص شاب يفهم احتياجات الشباب، وهكذا فقد كنت أحصل على أفضل راتب يمكن أن يحصل عليه لاجئ في

منظمة غير حكومية في كاكوما. وقيل إن مدة تمويل المشروع محدودة، لكن نورياكي كان يتحدّث عن تمديده إلى فترة طويلة.

- لدى الحكومة اليابانية أموال كثيرة، قال.

قال إنه يجب أن نحرص، أنا وهو، على استخدام التمويل الحالي بشكل جيد، حتى نشرك اللاجئين في التخطيط ونوسع استخدام كلّ دولار.

سألته لماذا جاء إلى كينيا في الأساس. لماذا السودانيين؟

- عندما كنت في المدرسة، طلب منا أستاذنا أن نعدّ تقريراً عن بلد في أفريقيا. كان مهتمّاً كثيراً بالقارة، وكان يمضي وقتاً طويلاً في دراستها. ويجب أن أقول إنني لم أكن الطالب المفضّل لهذا الأستاذ، وبعد أن دار على الطلاب وسأل كلّ واحد منهم أي بلد اختار، سألني أخيراً، ولم يبق حينها إلاّ السودان.

كانت لديّ شكوك كثيرة، لكن هذا الواقع جعل قلبي يتألم. فكّرت كثيراً في السنوات التي تلت ذلك عن السبب الذي جعل جميع الطلاب لا يرغبون في دراسة السودان.

- لم تكن تتوفر معلومات كثيرة عن بلدك، يجب أن أقول. لذلك كان تقريراً قصيراً جداً، قال.

ضحك، وجاريته في الضحك. بدا لي أن ذلك كان أحد أهدافه. كان يأتي إلى المكتب كلّ يوم، أنا واثق، لأنه كان عازماً على إضحاكي، مهما كان موضوع البحث. كان يتحدّث عن أسرته وعن صديقته - خطيبته. كان اشتياقه لوالكانا بألم ملموساً. وفي أيام كثيرة كنت أصل إلى العمل لأجده جالساً تحت طاولة مكتبه، على الهاتف. لا أعرف لماذا كان يفضّل أن يكلمها وهو جالس تحت طاولة مكتبه، لكنه كان يفعل ذلك عادة. وبعد أن ينتهي، كنت أجد غالباً ملاحظات على أرضية المكتب، كما لو كان يستشير قوائم أشياء يريد أن يقولها لها. عندما كان يشتاق إليها، كنت أستمع إليه حتى لا أعود أستطيع الاستماع إليه أكثر.

- صديقتك؟ كنت أقول. - هل تشتكي لأنك مشتاق إلى صديقتك؟ فأنا لا توجد عندي عائلة!

فكان يضحك ويقول، - نعم، لكنّك اعتدت على ذلك.

كنا نجد ذلك أمراً مضحكاً، وأصبح لازمة بيننا:

- نعم، لكنّك معتاد على ذلك. ومع أنني كنت أضحك من قوله ذلك، فقد جعلني أتساءل أيضاً هل هذا حقيقي. فقد كان يبدو أن ذلك صحيحاً، وهو أنّه يشتاق إلى خطيبته أكثر مما أشتاق إلى عائلتي، لأنه كان متيقناً من أنها على قيد الحياة، أما مشاعري تجاه عائلتي فكانت بعيدة وغامضة أكثر، لأنني لم أكن أستطيع أن أتصوّرهم، ولا أعرف إن كانوا أحياء أم أمواتاً، وهل هم في السودان أم في مكان آخر. أما نورياكي، فلديه والداه وشقيقتان، ويعرف أين هم كلّ يوم.

- عائلتي هي عائلتك الآن، قال لي ذات يوم.

قال إنهم يعرفون كلّ شيء عني، وأنهم يرغبون كثيراً في أن يلتقوا بي. ووضع صورة والديه وأخته الصغيرة على طاولة المكتب، وأصرّ على أن أعتبرهما والداي. من الغريب أن خطته نجحت، وبدأت أفكّر بأن أفراد أسرته يراقبونني، ويتوقّعون منّي أشياء جيدة. حدّقت في صورة والديه - أمه وأبوه متشحان بالأسود، أيديهما متشابكة أمامهما، يقفان أمام تمثال جندي عملاق - وأعتقد أنني سألتقي بهما ذات يوم في بيتهم، ربما، قبل أن يتزوج نورياكي واكانا، عندما أزور اليابان كرجل ناجح غني. لم أكن واثقاً من أن ذلك اليوم سيأتي، لكن التفكير فيه كان يدخل سعادة كبيرة إلى نفسي.

في أحد الأيام جاء رجل يريد أن يرى نورياكي. كان رجلاً سودانياً مسناً، رجلاً متعلّماً، محترماً بين الدينكا. كان قد أكمل ثلاث سنوات في جامعة الخرطوم، وكانوا يستشيرونه في أمور عديدة، خاصة في المسائل السياسية. أما اليوم فكان يستشيط غضباً، وطلب أن يكلّم نورياكي مباشرة، فدعاه إلى مكتبه وقدّم له كرسياً ليجلس عليه.

- أريد أن أقف، قال.

- حسناً، قال نورياكي.

- أريد أن أظل واقفاً لأن ما سأقوله مهم ومزعج جداً.

- حسناً. إني أستمع.

- يجب أن تكلّم شعبك، حكومتك، يا سيد نورياكي. إن الصينيين والماليزيين هم الذين يزيدون هذه الحرب اشتعالاً. فلدى هذان البلدان وحدهما ٦٠ في

المائة من المصالح النفطية في السودان. هل تعرف كميات البترول التي يأخذانها؟ ملايين البراميل في السنة، وهي في ازدياد! إن الصين تخطّط للحصول على نصف كمية بترولها من السودان بحلول عام ٢٠١٠!

- لكن يا سيد...

- وكلّنا نعرف بأنّ البترول هو الدافع الرئيسي للحرب. فالبشير يريد أن يبقي الجنوب في حالة فوضى ويبعد جيش التحرير الشعبي عن حقول البترول. إنه يفعل ذلك بأسلحة من أين جاءت؟ جاءت من الصين، يا سّيد نورياكي. فالصين لا تريد أن يعيش الجنوب في أمان، لأن ذلك يبعد البلدان الأخرى التي لا تريد أن توسّخ أيديها بانتهاكات حقوق الإنسان لاستخراج البترول! إن حكومتك تزوّد أسلحة تُستخدم ضدّ المدنيين، وهي تشتري البترول أيضاً الذي يتم الحصول عليه بطريقة لا أخلاقية والذي يقتل بسببه مئات الآلاف. لقد جئت إلى هنا لأناشدك، بصفتك ممثلاً لحكومتك، أن تتكلم بصوت عال ضدّ هذا الظلم!

عندما أتيحت لنورياكي أخيراً فرصة ليتكلّم، قال للرجل بأنه ليس صينياً، فاستغرق الرجل خمس دقائق حتى يستوعب ما قاله له.

- لا أقصد أن أكون فظاً، لكنّك تشبه الصينيين.

- لا يا سيدي. أنا ياباني. ونحن لسنا أصدقاء مع الصينيين أيضاً.

فغادر الرجل، مشوّشاً، خائباً.

كان هناك لوم في كل مكان على ما يحدث للسودانيين. وكلما فهمنا صلتنا بالعديد من مشاكل العالم أكثر، ازداد فهمنا لشبكة المال والقوّة والبترول التي تزيد من معاناتنا، وتؤكد أنه يجب عمل شيء لإنقاذ جنوب السودان. وخُيِّل إلينا أن سلسلة من التفجيرات ستجلبنا إلى مقدمة اهتمام العالم.

كنت أحكّم في مباراة بكرة قدم للشباب عندما سمعت الخبر من صبيين كانا يمران بجانبي على دراجة. - لقد فجّروا نيروبي! ودار السلام!

لقد فُجّرت سفارة الولايات المتحدة في كينيا وتانزانيا. فتوقفت جميع النشاطات في المخيّم. وتوقّف الكينيون عن العمل. وكنت تراهم متجمعين في كل مكان تتواجد فيه أجهزة تلفزيون أو مذياع، مع أنه لم تكن أجهزة تلفزيون عديدة. وذكرت التقارير أن المئات قُتلوا، وأصيب خمسة آلاف

بجروح. وشاهدنا على الشاشات لعدة أيام عمال الإنقاذ وهم يسحبون الأجساد من تحت الأنقاض. كان الكينيون في كاكوما في حالة غضب شديد ليعرفوا الأجوبة. وعندما عرفوا أن الأصوليين الإسلاميين هم الذين فعلوا ذلك، بدأت المشاكل في كاكوما. فلم يكن ذلك وقتاً جيداً لأن يكون المرء صومالياً أو أثيوبياً.

وتوارى المسلمون الذين ينتمون إلى أيّ دولة عن الأنظار في تلك الأيام، وحرصوا على إبداء معارضتهم لهذا العمل الإرهابي الذي نفذّه أسامة بن لادن. كانت تلك أول مرة أسمع فيها ها الاسم، لكن لن تمضي فترة طويلة حتى سيعرف الجميع عنه، فقد عرفنا أنّه يعيش في السودان. ولم يفارق غوب المذياع، وكان يخبرني بكل ما يسمعه على العشاء.

- هذا عمل نفذّه بن لادن. وستدفع السودان ثمن هذه الجريمة. لقد ساعدوه، وسيدفعون الثمن. لقد حان الوقت ليفعلوا ذلك.

كان غوب سعيداً بما حدث. كان واثقاً بأن تفجيرات بن لادن ستحوّل انتباه العالم إلى السودان، وأنّ ذلك قد يكون أمراً جيداً بالنسبة لنا.

- أخيراً سيأتون برأس هذا الرجل! إنه في كل مكان. إنه في مركز الثورة الإسلامية، يا أتشاك! لقد قدّم مبالغ كبيرة للسودان! لقد موّل هذا الرجل كلّ شيء - الآلات، الطائرات، الطرق. كان يعمل في الزراعة، في التجارة، في الأعمال المصرفية، في كلّ شيء. وجلب آلافاً من القاعدة إلى السودان، ليدرّبوا ويخططوا. وتستخدم الشركات التي أنشأها في السودان لتمويل جميع الخلايا الإرهابية الأخرى في جميع أنحاء العالم. وكلّ هذا نتيجة تعاون الخرطوم معه! فلو لا دعم الحكومة له لما تمكن أحد مثل بن لادن من تفجير مكاتب سفر. وبما أنه يمتلك شركة بناء في السودان، فبإمكانه أن يشتري متفجرات من أي مكان، بالكميات التي يريدها. يبدو الأمر شرعياً، أليس كذلك؟ ثم بمساعدة الخرطوم، يستطيع أن يشحن هذه المتفجرات إلى اليمن أو إلى الأردن أو إلى أي مكان آخر.

- لكنّه ليس الإرهابي الوحيد في السودان، أليس كذلك؟ سألته.

- لا، توجد جماعات أخرى من كل مكان. فلدى حزب الله عناصر هناك، والجهاد الإسلامي، وجماعات عديدة أخرى، لكن أسامة أسوأها. فقد ادّعى بأنه هو الذي درّب الرجال في الصومال الذين قتلوا الجنود الأمريكيين. فقد أصدر فتوى لقتل أيّ أمريكي في الصومال، ثم موّل تفجير مركز التجارة العالمي في نيويورك. هل تعرف ذلك المبنى؟

هززت رأسي.

- إنه مبنى ضخم، يصل ارتفاعه إلى الغيوم. لقد دفع بن لادن مالاً إلى رجل لكي يقود شاحنة إلى قبو المبنى لتفجيره. ثمّ حاول اغتيال مبارك في مصر. وكان جميع المتورطين في تلك المؤامرة من السودان، وقد دفع بن لادن ثمن كلّ شيء. إن هذا الرجل مشكلة حقيقية. فلم يكن باستطاعة الإرهابيين أن يفعلوا أشياء كثيرة قبله. لكنّ بما أنه يملك أموالاً طائلة فقد أصبح ذلك ممكناً. إنه يجلب المزيد من الإرهابيين إلى العالم، لأنه يستطيع أن يدفع لهم، يعطيهم حياة جيدة حتى يقتلوا أنفسهم، هكذا هو الأمر.

بعد بضعة أيام، تحقّقت توقّعات غوب، أو هكذا بدا لي. ومرة أخرى، كنت أحكّم في مباراة بكرة قدم عندما مرت بقربي شاحنة تابعة للأمم المتّحدة وعلى ظهرها عاملا إغاثة كينيان، جلبا أخباراً جيدة.

- قصف كلينتون الخرطوم! صاحا. - الخرطوم تتعرض للهجوم!

توقّفت المباراة في وسط هرج ومرج. وفي ذلك اليوم، وفي تلك الليلة، عمّت بهجة عارمة المناطق التي يقطنها السودانيون في مخيّم كاكوما. وتساءل الجميع ماذا يمكن أن يعني ذلك، وساد إجماع بأن ذلك يعني أن الولايات المتحدة أصبحت غاضبة من السودان، وأنها تلقي اللوم في التفجيرات التي وقعت في كينيا وتانزانيا على حكومة السودان. وظن الجميع بأن هذا دليل، من دون أدنى شكّ، على أن أمريكا تؤيد جيش التحرير الشعبي السوداني، وأنّها لا توافق على ما تفعله حكومة الخرطوم. بالطبع، كان بعض اللاجئين المثقّفين أكثر طموحاً في تفكيرهم، مثل غوب الذي ظنّ أنّ استقلال جنوب السودان أصبح وشيكاً.

- هذه هي، يا أتشاك! قال. إنها بداية النهاية! فعندما تقرّر الولايات المتّحدة أن تقصف أحداً، فهذه هي النهاية. انظر إلى ما حدث للعراق عندما غزا الكويت. عندما تريد الولايات المتّحدة أن تعاقبك، فهذا يعني أن هناك مشكلة. يا إلهي، هذه هي. ستطيح الولايات المتّحدة الآن بحكومة الخرطوم خلال فترة قصيرة، وبعدها سنعود إلى بيوتنا، وسنحصل على أموال من البترول، وستُرسم حدود بين الشمال والجنوب، وسينشأ سودان جديد. أظن أن كل ذلك سيحدث خلال الثمانية عشر شهراً القادمة. فقط انتظر.

كنت أحبّ غوب تشول وأحترمه، أما في المسائل السياسية - حول جميع القضايا المتعلقة بمستقبل السودان - فقد كان مخطئاً باستمرار.

أما في المجالات الأقل أهمية، فقد بدأت تطرأ تغييرات كثيرة على شعب جنوب السودان وحدثت تطوّرات يمكن اعتبار أنها تدعو إلى التفاؤل. فقد بدأت العادات السودانية تتكسر في كاكوما أكثر بكثير مما لو لم تكن هناك حرب، ولو لم يكن هناك ثمانون ألف شخص في مخيّم للاجئين تديره مجموعة دولية تتمتع بأفق وتفكير تقدمّيين. فلولا ذلك، لما أصبحت مواقفي ليبرالية تحرّرية، لكن بما أنني كنت مدرباً للشباب، فقد أصبحت على دراية جيدة باللغة الصحية وبجسد الإنسان، والأمراض الجنسية التي تنتقل بالعدوى وسبل الوقاية منها. وفي أحيان كثيرة كنت أتحدّث أيضاً بدون تكلف مع الفتيات الشابّات، وكنت أخلط بين اللغة الصحية في الصفّ مع لغة الحبّ. وفي إحدى المرات، أضعتُ فرصتي مع فتاة تدعى فرانسيس عندما سألتها إن كانت تنمو بشكل يتناسب مع عمرها. وكانت كلماتي بالتحديد هي:

- مرحباً يا فرانسيس، لقد حضرتِ الآن درس الصحة، وإني أسألك كيف تنمو أعضاؤك الأنثوية وتتطوّر.

كان ذلك أحد الأشياء التي يمكن أن يقولها أحدهم عندما يكون صغيراً في السن، لكنها بدأت تنظر إليّ هي وصديقاتها نظرة دونية، ولم تفارقني تلك الكلمات لسنوات عديدة بعد ذلك.

وتعلّمت دروساً هامة، أولها أنّ إبداء ملاحظات صريحة باللغة الإنكليزية أكثر قبولاً من الإفصاح عنها بلغة الدينكا. لأن فهمنا للغة الإنكليزية ضعيف، ولأن النبرة ودقة المعنى في تلك اللغة ليس منتظماً وغير ثابت. فلا يمكنني أن أقول أبداً «أحبّك» لفتاة جديدة بلغة الدينكا، لأنها ستعرف معناها تماماً، أما باللغة الإنكليزية، فإن وقع الكلمات نفسها يُعتبر ساحراً على الأذن، فكنت أستخدم اللغة الإنكليزية كثيراً، لأبدو دائماً فاتناً في نظرهن. لكني لم أكن أنجح في ذلك دائماً.

لكنّي أمضيت قدراً كبيراً من وقتي وأنا أدرس بدقة كيف يمكنني أن أتقرّب من الفتيات، وعندما أكون مستعدّاً للاستفسار عن اهتمام تابيثا بي، كنت أفقد جرأتي. فقد كنت أعرف آنذاك أنّ تابيثا من الفتيات القليلات جداً التي لا يزال يُسمح لها بالذهاب إلى المدرسة، وأن أمّها تعيش في كاكوما، وأنها امرأة مستنيرة تريد أن توّفر لابنتها كلّ الفرص الدراسية المتاحة، بل وحتى تلك المتعلّقة بصداقات مع صبية مثلي.

في كلّ سنة، كان المخيّم يحتفل يوم محدد يطلق عليه اسم «يوم اللاجئ»، وهو اليوم الذي تبدأ فيه نصف العلاقات بين الشبان في كاكوما أو تنتهي.

ففي هذا اليوم، ٢٠ حزيران (يونيه) من كلّ سنة، يحتفل جميع اللاجئين في كاكوما من الصباح حتى المساء، وينخفض إشراف الكبار علينا، ويزداد الاختلاط بين الجنسيات والطوائف والطبقات أكثر من أي وقت آخر في السنة. وهم لا يحتفلون بأنّهم لاجئون أو أنهم يعيشون في شمال غرب كينيا، وإنما يحتفلون لأن ثقافتهم البسيطة لا تزال قائمة على الرغم من هشاشتها. وكانت تقام معارض فنّية، وعروض رقصات إثنية، ويُقدّم الطعام وتُعزف الموسيقى، ويلقي بعض السودانيين كلمات في هذه المناسبة.

كانت تلك فرصتي لكي أكلّم تابيثا التي ظللت ألاحقها طوال اليوم. فعندما كانت تقف لتشاهد رقصة تقليدية بورندية، كنت أوقف من بعيد وأراقبها، وعندما كانت تتذوق بعض أنواع الطعام من الكونغو، كنت أراقبها من وراء عرض الفنون والحرف الصومالية. وبينما كان اليوم على وشك أن ينتهي، وقبل دقائق فقط من توقّع عودتها وعودة الفتيات الأخريات إلى بيوتهن، خطوت نحوها بثقة فوجئت بها أنا نفسي. كنت أكبرها بأربع سنوات، قلت في نفسي، ويجب ألا تشعر هذه الفتاة أنك تتصرف معها مثل طفل. فسرت نحوها وقد ارتسمت على وجهي قسمات جادّة، وعندما وقفت وراءها - كانت تولي ظهرها لي عندما دنوت منها، مما سهّل الأمر عليّ كثيراً - ربتُّ على كتفها. التفتت إليّ، متفاجئة، نظرت إلى يميني ويساري، وفوجئت لأنها وجدتني وحدي.

- تابيثا، منذ فترة طويلة، قلت، - أحاول أن أتحدّث إليك عن شيء، لكن لم تتح لي الفرصة. لم أكن متأكّداً كيف يمكنك أن تستجيبي لما أريد أن أقترحه.

حدّقت بي. لم تكن طويلة جداً في ذلك الوقت. كان رأسها يكاد يصل إلى ذقني.

- عن أي شيء تتحدّث؟ قالت.

لا يوجد شعور أسوأ من ذلك الشعور عندما يُرفض اقتراح كنتُ قد تدرّبتُ عليه كثيراً. لكن بواسطة الأدرينالين والعناد الذي تملكني، تابعت كلامي.

- أنا معجب بك وأريد أن أضرب معك موعداً.

بهذه الطريقة كنّا نقول الأشياء آنذاك، لكنّ ذلك لم يكن يعني بأنّ موعداً حقيقياً يمكن أن يحدث. فلم يكن مقبولاً أن يخرج فتى وفتاة وحدهما، سواء إلى مطعم أو حتى يتمشّيا معاً. موعد، ثمّ، قد يعني لقاء في الكنيسة، أو في مكان عام آخر، حيث تعرف تابيثا وأنا فقط بأن موعداً بيننا قد يحدث.

نظرت إليّ تابيثا وابتسمت كما لو أنها تريد أن تجعلني أتألم. كانت تفعل ذلك كثيراً، في تلك الأيام وفي المستقبل - طوال السنوات التي عرفتها فيها.

- سأبلغك فيما بعد، قالت.

لم أُفاجأ. فليس من المعتاد أن تردّ الفتاة على الفور. فقد جرت العادة، أن يتم ترتيب موعد بعد بضعة أيام، ثم يُعطى الجواب إمّا شخصياً وإما من خلال وسيط. وإذا لم يحدّد موعد، فإن ذلك يعني أن الجواب لا.

في هذه الحالة، في اليوم التالي، عرفت من آبوك بأنّ الجواب سيأتي في الكنيسة يوم الأحد، عند المدخل الجنوبي، بعد صلاة القداس. كانت تلك الأيام الفاصلة مؤلمة جداً لكنها محتملة، وعندما حان الوقت، كان كما توقعت تماماً.

- كيف كان الواجب المنزلي الذي أديته؟ كانت هذه طريقتي في محاولة جذب انتباههن.

- ماذا تقصد؟

ما قصدته هو أنها ربما كانت تُعتبر مزحة، بأنها بدلاً من أن تجيب على سؤالي الأول، حول موعد محتمل، عندما طلبته منها، ذهبت إلى البيت لتفكّر في الأمر طوال الأيام الخمسة. لكن لم يكن ذلك مضحكاً جداً، على الأقل ليس بالطريقة التي قلتها فيها.

- لا شيء. آسف. إنس الأمر، قلت.

وافقت على أن تنساه. وقد نسيت أشياء كثيرة قلتها لها. كانت رحيمة بتلك الطريقة. - كنت أفكّر بسؤالك يا أتشاك، وقد توصلت إلى قرار. كانت دائماً درامية بشكل مدهش.

- لقد سألت عنك... ولم أسمع أيّ شيء سيء عنك. يبدو أنها لم تسأل فرانسيس.

- إذن قبلت الموعد، قالت.

- أوه، الحمد لله! قلت، وقد استخدمت اسم الله عبثاً لأول مرة في حياتي، ولكنها ليست المرة الأخيرة.

لا أعرف بدقة ما هو الشيء الذي يمكن أن نعتبره أول موعد لنا. فبعد ذلك اليوم في الكنيسة، أصبحنا نرى بعضنا في أحيان كثيرة، لكننا لم نلتق قط وحدنا. فقد كنّا نتكلّم في الكنيسة وفي المدرسة، وكنت أرسل لها رسائل عن طريق أختي غير الشقيقة، آبوك، أعبّر لها بالتفصيل عن مدى إعجابي بها، وكم أفكّر بها. وكانت تفعل الشيء نفسه، فجعل حجم الرسائل المتبادلة بيننا آبوك مشغولة دائماً. وعندما تكون الرسائل عاجلة، كانت آبوك تجري عبر المخيّم وتأتي إليّ، ذراعاها تتأرجحان وهي تلهث، ثم تتمالك نفسها أخيراً، وتنقل لي الخبر التالي:

- تابيثا تبتسم لك اليوم.

قد يكون هناك قدر من التواصل على انفراد بين شبان مثلنا، حتى لو كانوا عاشقين إلى حد الجنون، مثلي ومثل تابيثا. ومثل معظم المغازلات، فإن أيّ تواصل كان يتم على مرأى البصر، كي لا يجذب أي عيون متسائلة أو همهمات تذمّر بين الكبار. لكن حتى على مرأى الجميع، وفي وضح النهار وعلى الملأ، كان باستطاعتنا أن نفعل ما يكفي لإرضاء رغباتنا المتواضعة. فقد كان الذين يعرفونني في بينيدو، ويشكّون حول ما جرى في غرفة نوم الفتيات الملكيات، يفاجؤون بهذا الغزل العفيف الذي يدور بيني وبين تابيثا. لكن ما جرى في بينيدو أصبح يبدو الآن، خارج الزمن. كان تصرفاً صبيانياً يقوم به طفلان لم يفهما بعد معنى مثل هذه الاستكشافات.

كانت المرة الأولى التي استطعت أن أعانق فيها تابيثا في صباح أحد أيام السبت، وسط عشرات الناس، أثناء مباراة في كرة الطائرة. فقد كنت ألعب في فريق مع الصبية الدومينيك، وكنّا نلعب ضدّ فريق من الصوماليين الشديدي الثقة بأنفسهم، وكانت تشجعنا بضع فتيات من الدينكا في عمرنا تقريباً أو أصغر منّا. لم تكن هناك فرق تشجيع رسمية في كاكوما، ومع ذلك كانت فتيات كثيرات يشاركن في التشجيع في المباريات، وه هي تابيثا قد جاءت اليوم لتشجعني وتضمنّي إليها. ففي أيّ ثقافة، يمكن إيجاد ثغرات يمكن أن يستغلها المراهقون الذين تجعلهم هورموناتهم في حالة فوران. وفي كاكوما، أدركنا أن العناق من أجل التهنئة بعد إحراز كلّ نقطة أصبح مقبولاً بعض الشيء مع الفتيات اللاتي جئن ليشجعننا.

كان خمسة من صبية الدومينيك يلعبون الكرة الطائرة في ذلك اليوم، وكان قد أخبر أربعة صديقاتنا بأنهن إذا أتين ليشجعننا، فسيكون بإمكاننا أن نعانق بعضنا بين الأشواط أو بعد إحراز نقاط ناجحة. وبهذه الطريقة تمكنا من ضم تابيثا ومعانقتها لأول مرة. وكانت هذه أول مرة تأتي فيها تابيثا لتشجيعنا

وأعانقها، فأحبّت ذلك على الفور. فعندما مررت الكرة من جانب وجه لاعب صومالي شديد الثقة بنفسه، هتفت تابيثا كما لو كانت ستنفجر، وجرت نحوي، وقفزت وضمتني إليها بلهفة شديدة. لم يلاحظ أحد ذلك، مع أن تابيثا وأنا استمتعنا كثيراً بلحظات القفز والعناق تلك كأنها كانت ساعات شهر عسل مقدّسة.

عندما انتشر الخبر بأن العناق أصبح متاحاً للاعبين، غيّر الصبية الأقل نجاحاً عاطفياً أولوياتهم. فبدأوا يقولون: «يجب أن نتعلّم بعض الألعاب الرياضية». وازدادت نسبة التسجيل في الألعاب الرياضية في المخيّم لفترة. لكن بالطبع، سرعان ما توقف التشجيع والعناق عندما اقتربت النسبة بين المباريات والعناق من ١:١. لكنّه كان شيئاً رائعاً، عندما استمر.

- أخبرني!

كانت شهية نورياكي لمعرفة التفاصيل شديدة.

- أخبرني، أخبرني، أخبرني!

كان الأمر محيّراً، لأنني لم أسأله من قبل قط عن الجوانب الجسدية لعلاقته مع واكانا - التي خطبها مؤخراً - لكنّه لم يشعر بأي خجل عندما طلب مني أن أروي له كلّ لقاء لي مع تابيثا. فأذعنت إلى حد ما. وبعد عدّة أسابيع بدأت أشعر بالقلق على الشباب في كاكوما، لأن الموظفين اللذين يعملان في مشروع واكاتشياي لا يفعلان شيئاً سوى التحدّث عن لقاءاتي مع تابيثا. ولحسن الحظ، فإنّه لم يطلب مني أن أحدّثه عن الروائح والأحاسيس الأخرى التي كانت تنتابني.

لكنّ ما حدث بعد ذلك كان شيئاً استثنائياً. فبعد حوالي ثلاثة أشهر، استجمعتُ أنا وتابيثا الشجاعة لأن يزور أحدنا الآخر في بيت كلّ واحد منّا في مناسبات نادرة. فقد كانت تلك الفرص نادرة جداً، لأنّه يوجد في بيتها ستّة أشخاص ويوجد في بيتي أحد عشر شخصاً. ومع ذلك كنّا نجد أنفسنا في غرفة وحدنا مرة في الأسبوع، فيشبك أحدنا يد الآخر، أو نجلس على السرير معاً، فخذانا تتلامسان، ولم يكن يحدث شيء أكثر من ذلك.

- لكن كلّ ذلك سيتغيّر عندما تذهبان لعرض المسرحية، أليس كذلك؟ حثّني نورياكي.

- آمل ذلك، قلت.

هل كنت حقاً أتمنى ذلك؟ لم أكن متأكداً. هل كنت أريد أن أمضي كلّ ذلك الوقت مع تابيثا وحدها؟ جعلتني الفكرة أشعر بالغثيان. فقد بدأت أتساءل هل سيكون لدينا وقت طويل نمضيه معاً وحدنا، حتى في الأماكن العامة. كانت لمستها أقوى بكثير مما كانت تعرف، أو ربما كانت تعرف ذلك جيداً، لكنها تتجاهل أن لمساتها ترسل كلّ بقعة فيّ إلى لجة الاضطراب، ولعلها كانت تجد في ذلك متعة كبيرة.

لكنّنا سنذهب إلى نيروبي، ولن أضيّع فرصة كهذه. ولم أستطع أن أوفق بين دروسي في تعلّم استخدام الكمبيوتر التي اقترحها نورياكي وبين أعمال المخيّم وإصدار التصاريح اللازمة. فلم كن قد رأيت مدينة في حياتي، ولم أغادر كاكوما منذ خمس سنوات، ولم أشأ أن أكون جزءاً من كينيا. فقد كانت كاكوما، بشكل ما، بلداً بحد ذاتها، أو نوعاً من فراغ خُلق في غياب وجود أيّ بلد. فبالنسبة للكثيرين نحن الذين نعيش في كاكوما، فقد حلّت خطة عملية أكثر محل رغبتنا في أن نعود إلى السودان: وهي الذهاب إلى نيروبي والعيش فيها، والعمل فيها، وتأسيس حياة جديدة، وأن نصبح مواطنين كينيين. لا أستطيع أن أقول إنّني كنت قريباً من تحقيق ذلك، لكن أتيحت لي فرص أكبر مما أتيحت لمعظم الآخرين.

أعددنا مسرحيّة بعنوان «أصوات» عرضناها في كاكوما لعدة أسابيع. وصادف أن شاهدها كاتب مسرحي جاء من نيروبي لزيارة ابن عم له يعمل في المخيّم، فدعانا فوراً لعرضها في العاصمة نيروبي كجزء من مسابقة تضم أفضل فرق الهواة في ذلك البلد. لذلك تقرر أن نسافر إلى نيروبي لنمثّل اللاجئين في كاكوما. كانت تلك أول مرة في تاريخ المسابقات - تاريخ طويل ومليء، كما قالوا لنا - أن يشارك لاجئون في تلك المسابقة. وهكذا، تقرر أن نذهب كلنا، وستكون تابيثا معنا، وسترافقنا مشرفة واحدة فقط، هي الآنسة غلاديس.

قلما تحدّثنا، أنا وتابيثا، عن الرحلة في الأسابيع التي سبقت سفرنا. فقد كان مجرد التفكير في هذا الأمر أكثر مما كنا نحتمل، بأنه سيتاح لنا وقت نمضيه معاً، وإمكانية أن نجد مكاناً لقبلتنا الأولى. أظن أن هذه الاحتمالات هيمنت على تفكيرنا، فلم أعد أنام جيداً، ورحت أجوب أطراف المخيّم وأنا أترنح وأبتسم رغماً عني، وكانت معدتي تقرقر طوال الوقت بصوت عال.

- القبلة الأولى! بدأ نورياكي يطلق عليّ. كنت آتي إلى العمل كلّ يوم وكانت كلماته الأولى لي هي: مرحباً، أيها القبلة الأولى! وكان يجيب على كلّ شيء أسأله إياه، نعم أيها القبلة الأولى. لا، أيها القبلة الأولى.

كان عليّ أن أتوسل إليه، بجدية لأن يتوقف عن قول ذلك.

في أحد الأيام، جاءت آبوك تحمل رسالة من آغوب تشول إلى مكتبنا وقالت إنني يجب أن آتي إلى العشاء بعد العمل مباشرة. قلت لها سأفعل، لكن بشرط أن تقول لي ما هي المناسبة.

- لا أستطيع أن أخبرك، قالت.

- إذاً لا أستطيع أن آتي، قلت.

- أرجوك يا فالانتينو! ناحت. - لقد أقسمت بن لا أخبر أحداً. أرجوك لا تورطني في مشكلة! فهم سيعرفون إذا قلت لك!

كانت آبوك تمرّ بفترة عصبية في حياتها.

تركتها تذهب دون أن تخبرني، وعدت إلى البيت في ذلك المساء، وحاولت ألاّ أفكّر بما ينتظرني هناك. كنت متأكداً من أن غوب سيلقي عليّ محاضرة لأن أكون حذراً من تابيثا لأننا قد نمضي معاً فترة دون أن يشرف علينا أحد، لأنه لم يحدّثني بذلك بعد.

عندما وصلت إلى البيت، كان غوب وأيين هناك، بالإضافة إلى جميع أفراد عائلتي في كاكوما، وحفنة من الجيران، بدءاً من أصغر الأطفال حتى أكبر شخص. وكان بين الحاضرين شخصان ليسا من ملجئنا: أولهما، الآنسة غلاديس التي صُدمت لرؤيتها وهي تقف في الغرفة التي نتناول فيها وجبات طعامنا، مع أن جمالها لا بد أن يعاني كثيراً بسبب وجودها في أماكن كهذه، وكانت تشعّ منها ابتسامة أقوى من أي وقت مضى. وكانت تتكلّم مع امرأة لا أعرفها، امرأة أنيقة من الدينكا تحمل فتاة صغيرة بين ذراعيها. قالت لي أيين إنها السيدة ديبورا أغوك.

وقالت لي أدنغ إنها امرأة هامة، تحمل أخباراً قد تغيّر حياتنا، وأصرّت أدنغ بأنّ هذه هي الكلمات التي قالها لها أبوها، لكن بما أن غوب لم يكن غريباً على هذا النوع من المبالغات، قلم أمض وقتاً طويلاً في التفكير بماذا يمكن أن تكون تلك الأخبار. ففي إحدى المرات، جمعنا غوب كلّنا حول أمر في غاية الأهمية، لكنه قال أخيراً إنه حصل على شراشف جديدة لسريره.

في جميع الأحوال، كانت رؤية كلّ هؤلاء الأشخاص في مكان واحد أمراً مثيراً للاهتمام. وأصبح التحرّك في الغرفة أيضاً صعباً لأن ملاجئنا لم تُشيّد

لتتسع مثل هذا العدد من الأشخاص. كنت لا أزال لا أعرف ما هي المناسبة التي جلبت كلّ هؤلاء إلى بيتنا، لكن ما لفت انتباهي على الفور هو رائحة مألوفة. إنها رائحة طعام نسيت اسمه منذ فترة طويلة.

- كون دوينغ! قالت أيين.- ألا تتذكّر؟

تذكّرت. إنه طبق لم أتذوقه أو أسمع عنه منذ سنوات عدة. إنه طبق تشتهر به منطقتي يدعى كون دوينغ، وهو ليس طبقاً يؤكل يومياً. وهو عبارة عن عصيدة متجمدة يُصنع من طحين الذرة البيضاء، والجبن، واللبن الرائب الخالي الدسم، ولا يمكن الحصول على هذه المواد هنا بسهولة، وهو طبق مفضّل لدى العائلات الميسورة، ولا يُحضَّر إلاّ في الفصل الماطر، عندما تنتج الأبقار الحليب بوفرة.

- ماذا يجري هنا؟ سألت أخيراً. كانت أخواتي في كاكوما ينظرن إليّ بطريقة غريبة، وبدا لي أن الجميع يتحلّقون حولي. لم أكن متأكّداً من أنني أحببت ما الذي يجري من حولي.

- ستعرف بعد قليل، قال غوب. - هيا لنأكل أولًا.

لم أكن قد تكلّمت حتى الآن مع الآنسة غلاديس التي كانت النساء المسنّات في البيت يدللنها كثيراً. ولم تنظر ديبورا أجوك، ضيفتنا، نحوي، بل أمضت كلّ الوقت وهي تتحدّث مع أخواتي، وتعتني بالفتاة الجالسة في حضنها، والتي عرفت أنها ابنتها، نيادي. كانت فتاة هشة العظام ترتدي ثوباً ورديا شاحباً، وعيناها تبدوان أكبر من وجهها.

تناولنا طعام العشاء ببطء شديد، وعلمت أنّ الهدف من هذا العشاء ومن زيارة ديبورا أجوك، لن يُكشف عنه إلاّ بعد انتهاء العشاء، بل حتى بعد أن يشرب الكبار مشروب العرقي، النبيذ المصنوع من التمر. لم يكن ذلك أمراً غير معتاد بين الدينكا، هذا الطقس المسرحي، لكني أحسست في تلك الليلة بأنّ هذا الطقس المسرحي قد يكون مبالغاً فيه.

عندما انتهينا من تناول الطعام أخيراً، واحتسى الكبار النبيذ، نهض غوب واقفاً. نظر إلى ديبورا أجوك الجالسة على الأرض معنا، وأصرّ على يُقدَّم لها الكرسي السليم الوحيد الموجود في البيت. رفضت السيدة أجوك، لكنّ غوب أصرّ. فنهضت جارة مسنّة من على الكرسي وجلست في المكان الذي كانت السيدة أجوك تجلس فيه، وقدّمت لها الكرسي. وهنا واصل غوب كلامه.

- لا يعرف معظمكم ديبورا أجوك، لكنّها أصبحت صديقة لعائلتنا. إنها قابلة محترمة، وهي تجيد أساليب التوليد السودانية التقليدية والطرائق الحديثة، وهي تعمل في مستشفى كاكوما حيث التقت بالآنسة المقدّرة غلاديس التي سمعنا عنها من أتشاك الذي يكنّ لها تقديراً كبيراً لأنها تعلّمه.

ضحك الجميع، واحترق وجهي خجلاً. توهّجت الآنسة غلاديس أكثر من ذي قبل، وتبين لي، أكثر من أي وقت مضى، بأنها تحبّ هذا النوع من الإطراء وتوجيه الانتباه إليها.

- في الآونة الأخيرة، أرسلت لجنة الإنقاذ الدولية الآنسة أجوك إلى جنوب السودان لتدرّب القابلات في القرى على أساليب التوليد الحديثة، وتصادف أن إحدى القرى التي زارتها تدعى مايال بي.

انصبّت جميع العيون عليّ. لم أعرف كيف أتصرف إزاء ذلك. فتقلصّت حنجرتي، ولم أعد أستطيع أن أتنفّس. إذن هذا هو سبب كلّ هذا اللغز، الطبق الذي تشتهر بي منطقتي. لكني لم أحبّ أن أسمع أيّ خبر يتعلق بقريتي بهذه الطريقة. فلم أكن أريد أن أعرف شيئاً عن عائلتي في وسط هذا الجمع من الناس. وستكون ديبورا أول شخص تجلب لي معلومات دقيقة وحديثة عن مايال باي بعد كلّ هذه السنوات التي أمضيتها في كاكوما، فتشوش عقلي وبدأت أتصوّر جميع الاحتمالات. هل لا يزال النهر يتدفق كما كان عندما كنت في القرية؟ هل أزال العرب مراعيها الغنية وأشجارها؟ هل تعرف شيئاً عن عائلتي؟ لكن هذا الجزء من مسرحية المساء ليس مقبولاً.

بحثت عن مكان يمكنني أن أخرج منه. كان هناك اثنا عشر جسداً يجب أن أخطو فوقها حتى أصل إلى الباب. إن مغادرة الغرفة يحتاج إلى جهد كبير، كما أن ذلك سيكون محرجاً لي وللعائلة التي تبنتني. رحت أحدّق في غوب، راجياً أن أنقل استيائي لهذا الكمين الذي نصبوه لي. ومع أن الجوّ كان يطفح بالمرح، فقد بدا لي أن السيدة أجوك ربما تحمل لي أخباراً مأساوية عن عائلتي الأصلية، وأن غوب جمع كلّ من أعرفه ليشدوا من أزري بعد أن يلقي بي الخبر على الأرض.

كانت امرأة طويلة القامة وتكسوها عضلات، ولم يكن وجهها يوحي بحقيقة عمرها، فقد تكون امرأة شابّة أو جدّة، وكان جلدها المشدود، وعيناها البراقتين المحاطتين بتجاعيد خفيفة تعطي هذه الإشارات. جلست في كرسيها، يداها في حضنها، وشكرت غوب وأبيين على كرمهما وصداقتهما.

وعندما تكلّمت، كان صوتها أجشاً ومنخفضاً. ومن صوتها يستطيع المرء أن يخمّن بأنّها عاشت ثلاثة أعمار لم تر فيها الراحة.

- أصدقائي، لقد جبت أرجاء منطقة بحر الغزال، وزرت نيامليل، ومالوال وكون، ومايال باي، والقرى المحيطة بها. وأود أن أنقل لكم تحية صادقة من أهالي مايال باي، بمن فيهم القائد بول مالونغ أوان، الضابط ذو الرتبة العالية في جيش التحرير الشعبي فيها. وجّه جميع الحاضرين على العشاء نظراتهم نحوي، كما لو أن إرسال القائد بول مالون أوان تحياته شرف عظيم لي بشكل خاص.

- نعم، تابعت، - كنتُ في قريتك، ورأيتُ ماذا حلّ بها. بالطبع كانت هناك الهجمات التي شنّها المرحلّون والجيش الحكومي التي انتشر بسببها سوء التغذية وكثرت الوفيّات من الأمراض التي كان من الممكن معالجتها. وكما تعرفون، فإن الجوع يتصدر كلّ ذلك. فقد مات مئات الآلاف جوعاً في منطقة بحر الغزال هذه السنة.

كانت طريقة السودانيين في الحديث في أبهى صورها - اللف والدوران حول أي فكرة. كيف يمكنها أن تفعل بي ذلك؟ كلّ ما كنت أريد أن أسمعه هو عن عائلتي. هذه وحشيّة، مهما كانت نواياها حسنة.

شاعرة بقلقي، ظهرت في تلك اللحظة هيئة أمامي، ثم ملأت الفضاء بجانبي. كانت تلك الآنسة غلاديس، برائحة الفاكهة والزهور وعرق امرأة التي تفوح منها، وقبل أن أتمكن من تبيّن هذه الحالة الجديدة - كانت قد أصبحت قريبة جداً مني - أمسكت بيدي. لم تنظر إليّ، وإنما كانت تنظر إلى ديبورا أجوك فقط، لكنّها كانت معي. ستكون معي مهما كانت الأخبار التي سأسمعها، ولا يمكن أن يكون لتوقيت هذا التواصل الأكثر حميمية علاقة بموضوع أحلام يقظتي التي لم يكن لها حدود.

- وبما أنني قابلة، واصلت ديبورا كلامها، التي حاولت جاهداً أن أنصت إليها، - تعرّفت على قابلة في مايال باي، امرأة قوية جداً كانت ترتدي في معظم الأيام ثوباً أصفر باهتاً، صفار صفرة شمس متعبة.

انصبت كلّ العيون عليّ مرة أخرى، وبذلت كل ما بوسعي كي لا تدمع عيناي. لقد سحبتني هذه القوة في اتجاهين. كانت يدي مبللة بالعرق مشبوكة بأصابع المرأة الملائكية الجالسة إلى جانبي، وسمعت في الوقت نفسه أنّ أمّي لا تزال حيّة ترزق، وأن ديبورا التقت بامرأة ترتدي ثوباً أصفر. اغرورقت

الدموع في عيني قبل أن أتمكن من حبسها. وبيدي الطليقة، سحبت الجلد تحت عيني لأعيد الماء إلى جسدي.

- أمضيت وقتاً طويلاً مع هذه القابلة نحكي قصص جلب الأطفال إلى العالم. فقد ساعدت في توليد أكثر من مئة طفل، ونجحت بشكل كبير في تفادي وفيّات هؤلاء الأطفال قبل الأوان. وحدثتها عن السبل الجديدة في علوم وتقنيات التوليد، وكانت سريعة التعلم وشديدة الرغبة في تعلم تلك الأساليب. وسرعان ما أصبحنا صديقتين، ودعتني إلى بيتها. وعندما ذهبت إلى بيتها، طهت لي الطعام الذي تناولناه الآن في كاكوما، وحكت لي عن الحياة في مايال باي، وعن تأثير المجاعة على سكان القرية، وعن آخر الهجمات التي شنّها المرحلّون. وحدّثتها عن العالم في كاكوما، وعندما كنت أحدّثها عن حياتي هنا، ذكرت لها أصدقائي الطيبين غوب وأيين، وعن الصبية الذين تبنوهم. وعندما ذكرت اسم أتشاك أمام هذه المرأة، فوجئت. وسألتني عن أوصاف هذا الصبي. وما هو حجمه؟. وقالت لي إنها تعرف صبياً بهذا الاسم، منذ سنوات عديدة، وطلبت مني أن أنتظر لحظة، وعندما وافقت، نهضت وغادرت البيت بسرعة.

شدّت الآنسة غلاديس الآن على يدي بقوة.

- ثم عادت يرافقها رجل قالت إنه زوجها، وقال إنّها زوجته الأولى. وطلبت منّي أن أعيد على أسماعه ما قلته لها بأنّني أعرف عائلة في كاكوما تبنّت صبياً يدعى أتشاك. ما اسم هذا الرجل في المخيّم؟ سألني الزوج. فقلت له إن اسمه غوب تشول كولونغ. فأبدى الرجل اهتماماً كبيراً بما قلته، وأصرّ على أنّ هذا الرجل هو من مايال باي أيضاً. لكن لم تكن لديهما وسيلة للتأكيد على أن أتشاك الذي أعرفه في كاكوما هو أتشاك ابنهما نفسه. وعندما عدت إلى كينيا وحكيت لغوب هذه القصّة أصبح كلّ شيء واضحاً. لذلك سأسألك الآن بضع أسئلة لأتأكد من الأجوبة. ما هو اسم والد أتشاك؟ سألت، موجّهة سؤالها إلى غوب.

لا أعرف لماذا فعلت ذلك. لم تلتق عيناها بعينيّ بعد.

- دنغ نيبيك آرو، قال غوب.

- وأمّه؟ سألته.

- أمير جيل نيانغ، أجبتُ.

- هل كان والد آتشاك تاجراً في مايال باي؟ سألت.

- نعم! ردّ جميع من في الغرفة تقريباً. كانت تمثيليتها لا تطاق.

- أخبرينا! أين هما والدا أتشاك؟ سأل غوب أخيراً. صمتت، منزعجة لأن مفعول سحرها قد بطُل.

- إنهما بذاتهما. إن والدا أتشاك أحياء.

في الأيام القليلة التالية، قبل رحلتي المزمعة إلى نيروبي، بذل غوب وأيين وتورياكي وآخرون جهداً كبيراً لكي لا أغادر كاكوما. فبعد أن عرفت أن والديَّ لا يزالان على قيد الحياة، أصبح البقاء بعيداً عنهما أمراً مستحيلاً. فلمَ لا أعود إلى مايال باي وأساعد أبي في عمله؟ فقد كان هدف جميع تنقلاتي أن أبقى في مكان آمن وأتعلّم، أما الآن، فأنا أعيش في مكان آمن وتعلّمت، وأنمو وأكبر وأتمتع بالصحة، فلماذا لا أعود إليهما؟ ومضت أشهر عديدة على آخر إغارة شُنَّت على مايال، لكن هذا لم يعد يهمني على الإطلاق.

بدأت أمضي ساعاتي في تخيّل أنني ذاهب إلى البيت، أعبر النهر، وأبعد الأعشاب عن طريقي، وأخرج من الغابة وإلى القرية، وأتجّه إلى مجمّع والداي فيخرجان لاستقبالي. لا يعرفانني على الفور، لكنهما يقتربان مني أكثر ويتأكدان من أنني ابنهما لأنني أصبحت ضعف الحجم الذي كنت عليه عندما هربت من مايال باي، لكنّهما عرفا من أنا. لم أستطع أن أتخيّلهما، أمّي أو أبي، وكان أشقائي بلا وجوه بالنسبة لي أيضاً. تخيّلت هيئات تقريبية لكلّ واحد من أفراد عائلتي، استمدتها من أشخاص أعرفهم في كاكوما. فقد تخيّلت وجه أمّي مثل وجه الآنسة غلاديس، لكنها أكبر منها سنّاً بكثير، وتخيّلت أن وجه أبي يشبه وجه غوب مضافاً إليه سنوات الحرمان والحزن الكثيرة.

وبعد أن يعانق أحدنا الآخر وتبكي أمّي، نجلس معاً طوال النهار وطوال الليل، نتحدّث حتى أعرف كل ما جرى لهما في كلّ يوم، وفي كلّ أسبوع منذ أن غادرت. هل كنتما تظنان أنني متّ؟ أسألهما. لا، لا، يقولان، كنّا نعرف دائماً أنّك ستجد وسيلة لتظل حيّاً. وأسألهما هل كنتما تظنان أنني سأعود؟ فيقولان: كنّا نعرف بأنّك ستعود. ومن الجيد أنك عدت.

- هل نسيت أن البلد غارقة في مجاعة؟

سألني غوب.

كان غوب يعرف ماذا يدور في خلدي، وهدّد بأن يقيّدني في سريري، وأن يقطع قدمي ليمنعني من الخروج من كاكوما.

- هل نسيت أن عليك أن تعبر أرضاً تستولي عليها قوات ريك ماتشار من النوير، الذي لا يحبّ أن يرى صبياً من الدينكا في سن العسكرية؟ إنك تتخلّى عن الراحة والتعليم ووظيفة هنا لتعود إلى ماذا؟

لا أذكر أنني رأيت غوب غاضباً هكذا. وأصبح يتبعني طوال الساعات النهار. وحشد حلفاء له - معلمون آخرون ووجهاء في المخيّم - لمنعي من أن أغادر. أصبحتُ مُراقباً طوال الوقت، وكان الأصدقاء والغرباء يهنّئونني على الأخبار التي وصلتني من البيت، ويحثّونني في الوقت نفسه على أن أتحلّى بالصبر، وأن أتصرف بعقلانية، وأن أنتظر حتى يحين الوقت المناسب للعودة.

- على أقل تقدير، امنحها وقتاً، قالت أيين ذات ليلة على العشاء.

- فكّر في الأمر. اذهب إلى نيروبي وفكّر في هذا الأمر. تذكّر أنك في رحلتك إلى نيروبي ستكون مع تابيثا والآنسة غلاديس.

عندما قالت ذلك، ولم أجبها على الفور، رأيتها تتبادل نظرة سريعة مع غوب. عرفا أنّهما استحوذا على اهتمامي.

- لماذا لا تذهب إلى نيروبي، ثم تقرّر؟ أضافت أيين. - وعندما تعود إلى قريتك وبيتك يمكنك أن تحكي لوالديك كلّ شيء عن رحلتك إلى المدينة.

كانت أيين امرأة مقنعة جداً.

عندما جاء يوم الرحلة أخيراً، كانت رؤية تابيثا في حافلة الأمم المتّحدة شيئاً مدمّراً. دنوت من الحافلة عندما أبطأت سرعتها ورأيت وجه تابيثا المتناسق الذي في شكل قلب، بجانب النافذة، لكنها تجاهلتني. كانت تجلس مع فتاة سودانية أخرى، ثم نظرت إليّ أخيراً، ولم تبد أي إشارة بأنها تعرفني، ثم عادت إلى حديثها مع الفتاة. كنا قد اتفقنا على ذلك مسبقاً، يجب أن أقول. فقد قرّرنا ألاّ نظهر أي إشارة تدّل على مشاعرنا تجاه أحدنا الآخر، مع أن عدداً قليلاً من الذين كانوا في الحافلة يعرفون شيئاً عن نوايانا. أدّيت دوري، فصعدت إلى الحافلة وجلست مع دومينيك الخفيف الظلّ، وأنا أعرف أنه سيساعدني في تمضية وقت الرحلة التي قالوا إنها طويلة ومتعبة جداً.

- هيه، مدام زيرو، هل ستتسوّقين ثياباً جديدة في نيروبي؟ سأل. فضحك الجميع، وابتسم أنتوني ابتسامة تكاد تكون متسامحة.

يصعب التعبير عن عظمة أن نكون، بعد قضاء سبع سنوات في ذلك المخيّم، ذاهبين إلى نيروبي. من المستحيل شرح ذلك.

كانت أحوال معظم الذين كانوا في المجموعة أسوأ من حالتي بكثير. فأنا أعيش مع غوب تشول، وعندي وظيفة أتقاضى منها مرتباً في منظمة غير حكومية، أما معظم أعضاء الفرقة المسرحية الآخرين - واحد وعشرون، كلنا من السودانيين والصوماليين، تتراوح أعمارنا بين الثانية عشرة والثامنة عشرة - فلم يكن لديهم شيء. وبالإضافة إلى تابيثا، كانت هناك ثماني فتيات، معظمهن سودانيات، ما جعل الرحلة ممتعة جداً وغير شاقة لبقيّة الدومينيك الآخرين. ركبنا في حافلة موظّفي الأمم المتّحدة الزرقاء، نوافذها مفتوحة، وجعلت الريح الباردة والأغاني المتواصلة الرحلة التي استمرت يومين ممتعة.

كان المشهد الطبيعي رائعاً، قمم جبال ووديان، سحب وشمس. مررنا من منطقة كابينجوريا في كينيا، الجبلية والباردة والماطرة في معظمها. ورأينا طيوراً يكسوها ريش له ألوان براقة، ورأينا ضباعاً وغزلاناً وفيلة وحميراً وحشية. وذرة صفراء! محاصيل كثيرة. كلّ شيء. لقد جعلتنا رؤية هذا الجزء من كينيا نشعر بالحزن لأنهم وضعوا مخيّم اللاجئين الذي نقيم فيه في ذلك المكان. وكنا نلصق وجوهنا على زجاج النوافذ ونتساءل، لماذا لم يضعوا كاكوما هناك؟ أو هناك، أو هناك؟ وتساءلنا لماذا يضعنا الكينيون وجميع الهيئات الدولية المعنية بالمشردين واللاجئين عادة في أسوأ المناطق على وجه الأرض. لأننا نصبح فيها تابعين تماماً -غير قادرين على زراعة طعامنا، وتربية مواش خاصة بنا، لنعيش بطريقة نستطيع أن نعيل فيها أنفسنا. أنا لا أحكم على مفوضية شؤون اللاجئين أو على أيّ دولة تستقبل المشردين الذين لم يعد لهم وطن، لكنّي أتساءل فقط.

بعد أن مرّت بنا الأرض، رأيت والديَّ عن قرب فوق كلّ تلّة وحول كلّ انعطافة. وبدا لي أنه من المنطقي، مثل أي شيء آخر، أنّ يكونا هناك، على الطريق أمامنا. لماذا لا يمكن أن يكونا هنا، لماذا لا نلتقي معاً مرة أخرى؟ لا بد أن أبي يستطيع أن يجد طريقة للعيش في كينيا ويحقق فيها نجاحاً. إن التفكير بأن أمّي تعيش هنا، تمشي معي فوق هذه الدروب الخضراء، على طول ذلك النهر، بالقرب من تلك الزرافات - جعلني أشعر بأنه أمر ممكن بعد بضع ساعات من الرحلة.

مكثنا في كيتال، في فندق فيه أسرّة وشراشف وكهرباء ومياه جارية. ومع أن هذه البلدة ليست بحجم نيروبي، فقد أثارت دهشتنا. فلم نعتد على رؤية أضواء تتخلل السماء السوداء. كان بعض الصوماليين قد رأوا ذلك من قبل، أما نحن الذي أتينا من جنوب السودان فلم نر شيئاً كهذا. حتى في بيوتنا، في قرانا قبل الحرب، لم تكن هناك تمديدات صحية، وكانت أيّ من وسائل الراحة هذه، والشراشف والمناشف نادرة ومشتهاة. وفي ذلك الفندق في كيتال، تناولنا الطعام في مطعم الفندق، وشربنا مشروبات باردة من الثلاجة، وكنا نحرّك مكعّبات الثلج - التي لم يلمسها من قبل قط، على الأقل، بعض منا - حول أفواهنا. كانت الرحلة في تلك الليلة في كيتال من أكثر الرحلات دهشة ومتعة. وخلال إقامتنا في كيتال، لم نكلّم أنا وتابيثا بعضنا تقريباً، وأجلّنا أيّ تواصل ممكن بيننا إلى وقت لاحق. فقد كنا نعرف أن الفرصة ستأتي، وما علينا إلا أن ننتظر.

انطلقت الرحلة ثانية في وقت مبكر من الصباح، واستمرت حتى بعد الظهر وحتى الليل، وفي صباح اليوم التالي، وصلنا إلى نيروبي. يجب أن أحاول أن أنقل إليكم مشاعر الرهبة التي غمرت مجموعة من الشباب مثلنا، بعد أن أمضينا سنوات عديدة في مخيّم يقع على حافة العالم، عندما رأينا شيئاً مثل نيروبي، إحدى أكبر المدن في أفريقيا. لم يكن لدينا شيء يمكننا أن نقارنها به. فقد خيّم صمت مطبق في الحافلة. يمكنك أن تتخيّل حافلة مليئة بالمراهقين يشيرون بصوت عالٍ إلى البنايات، وإلى السيارات والجسور والحدائق. لكن هذه الحافلة كانت صامتة تماماً. وكانت وجوهنا ملتصقة بالنوافذ لكن أحداً لم ينبس بكلمة لأن بعض ما رأيناه كان عصياً على فهمنا. بيوت فوق بيوت، نوافذ فوق نوافذ. فقد كانت أعلى بناية رأيتها قبل ذلك اليوم مؤلفة من طابقين. ثم عرفنا أنّ هذه البنايات ليست معرضة لأي تهديد، وأنّها ستظل هكذا دون أن تتأثر بشيء- إن الإحساس بالديمومة شيء لم أعرفه منذ سنوات طويلة.

عندما وصلنا إلى نيروبي في صباح ذلك اليوم، تزلنا أمام كنيسة حيث التقينا بالأشخاص الذي سيستضيفوننا. فقد خُصّص لكلّ واحد منّا عائلة مضيفة، وكان معظم تلك العائلات على صلة بشكل ما مع المسرح الوطني. وكان الشخص الذي قرر أن يستضيفني يُدعى مايك موانيكي، رجل وسيم على درجة عالية من الثقافة، قلت لنفسي. ربما كان في الثلاثين من العمر، وهو أحد مؤسسي فرقة مافانو المسرحية التي يقع مقرّها في المدينة. كانوا يؤدّون مسرحيّات أصلية يكتبها كتّاب مسرحيات كينيين شباب.

- هذا هو الرجل، إيه؟ قال لي. - أنت هو رجلنا!

صافحني بمودة وصفعني على ظهري وأعطاني قطعة من الكيك. لم أكن قد تناولت كيك من قبل قط، وعندما أتذكر ما حدث في الماضي فلم يكن أنه يستقبلني عند الساعة التاسعة والنصف صباحاً بقطعة كيك، لكنّه فعل ذلك، وكانت لذيذة الطعم. قطعة كيك عليها قشدة وقطع من البرتقال.

ذهب أعضاء الفريق الآخرون مع مستضيفيهم، وذهبت تابيثا مع الأسرة التي استضافتها، رجل وامرأة مسنّان يرتديان ثياباً في غاية الأناقة، ويقودان سيارة لاند روفر. وسرعان ما اختفت الآنسة غلاديس مع رجل كيني وسيم يبدو غنياً جداً - لم نرها مرة أخرى إلاّ عند عرض المسرحية بعد يومين - وذهبت أنا مع مايك الذي كان يقيم في شقّة مع صديقته، امرأة ضئيلة الجسم ومتألقة تدعى غرايس، وكانا يعيشان معاً في شطر من المدينة يدعى بوروبورو المرحلة ٣. كان حيّاً مجنوناً، مزدحماً أكثر من أي مكان آخر عرفته في حياتي. كانت كاكوما تضم ثمانين ألف شخص، لكن حركة المرور فيها كانت قليلة جداً، بضع سيارات، لا أبواق، والكهرباء فيها شحيحة، والحركة ضعيفة جداً. أما في نيروبي، وفي بوروبورو المرحلة ٣ بالذات، فلم يكن ثمة مهرب من صخب الشوارع. الدراجات النارية، السيارات والباصات تسير في كلّ ساعة، وتعبق رائحة الديزل الحلوة السامّة في كل مكان. حتى في شقّتهما حيث الأرضيات والزجاج شديدة النظافة، كان الشارع هناك، رائحة الطرقات وأصوات الناس الذين يمرّون تحت نوافذ شقتهما. وكانت السيارات ذات ألوان كثيرة ومتعددة، ألوان لم أكن أعرف أنها موجودة. أما في كاكوما فقد كانت جميع المركبات بيضاء، متشابهة، عليها كلّها شعار الأمم المتّحدة.

قدّما لي غرفة النوم التي ينام فيها مايك وغرايس. كانت المرتبة ضخمة وصلبة، وفي تلك اللحظة الأولى في تلك الغرفة، كانت الشراشف ناصعة البياض فكان عليّ أن ألتفت إلى الجانب الآخر. وضعت حقيبتي وجلست على كرسي صغير هزاز من الخيزران في الزاوية. ألمّ بي صداع شديد. ظننت أنّني وحدي في الغرفة فوضعت رأسي بين يدي وحاولت أن أفرك جمجمتي ليهدأ قليلاً، لكن رأسي كان يغلبني في معظم الأحيان، وكانت تصحب معظم أفضل أوقات حياتي يرافقها صداع نصفي لا يمكن تفسير أصله.

- هل استقرّت أمورك؟ سألني مايك.

رفعت رأسي. كان يقف عند المدخل.

- أنا على ما يرام، قلت. - أنا في حالة جيدة جداً. أنا في غاية السعادة. وأرغمت نفسي على أن أبتسم ابتسامة تقنعه.

- سنرى فيلماً الليلة، قال. هل ستأتي معنا؟

أجبت نعم. كان عليه أن يذهب هو وغرايس إلى العمل. كانا يعملان في وكالة لبيع السيارات أسفل الشارع، لكنّهما سيعودان عند الساعة السادسة ويأخذانني. أراني مايك التلفزيون والحمّام وأعطاني مفتاح باب الشقة وباب العمارة، وأسرع هو وغرايس يهبطان الدرج وذهبا.

أن أكون وحدي في ذلك المكان! لقد أعطياني المفتاح وجلست لفترة من الوقت، أراقب الناس وهم يتحرّكون تحت النافذة. هذه هي أول مرة أكون فيها في الطابق الثاني في بناية. كان ذلك شيئاً مشوشاً، مع أنه لم يكن يختلف كثيراً عن الجلوس فوق شجرة عند بيت أماث مع موسى ووليام كي، نحاول أن ننصت إلى الأحاديث التي تدور بينها وبين أخواتها.

بعد ساعة من مراقبة الشارع، الدرب تحت النافذة، جرّبت التلفزيون. كنت قد رأيت برامج متفرّقة على التلفزيون في حضورهما، أما الآن فقد أصبحت وحدي وأصبح عليّ أن أتدّبر أمري مع اثنتي عشرة قناة. كانت هذه مشكلة. لم أتحرّك طوال ثلاث ساعات، وأشعر بالخجل لأن أعترف بذلك. لكن الأشياء التي رأيتها! شاهدتُ أفلاماً، نشرات أخبار، مباريات كرة قدم، برامج طبخ، أفلام وثائقية عن الطبيعة، فيلم توجد في سمائه شمسان، وفيلم وثائقي عن الأيام الأخيرة لحياة أدولف هتلر. ووجدت قناة تعلّيمية، موجّهة إلى طلاب في عمري، يدرّس فيها الأساتذة دروساً من نفس الكتاب الذي أدرسه في كاكوما. ملأني ذلك بشيء من الفخر، وعرفت أن ما ينفع اللاجئين ينفع الكينيين في نيروبي.

بعد الظهر، بعد أن شاهدت أكثر مما ينبغي في التلفزيون، سمعت الطلاب يعودون من المدرسة. قفلت الباب بالمفتاح، وخرجت لأرى جميع الفتية والفتيات في أزيائهم الرسمية الذين راحوا ينظرون إليّ ويتهامسون.

- توركانا!

- السودان!

- لاجئ!

كانوا يشيرون إليّ ويضحكون لكنّهم لم يكونوا غير مهذبين، وقد أحببتهم لأنهم لم يكونوا قظين. هنا يتمشى الطلاب بحرية ويرتدون قمصاناً بيضاء نظيفة وتنورات منقوشة وأوشحة تجاريها. كان ذلك شيئاً كثيراً جداً بالنسبة

لي. أردت أن أرتدي زيّاً رسمياً أيضاً. أردت أن أكون واحداً منهم، أن أعرف ماذا يجب أن ألبس في كلّ يوم، وأن أكون كينياً، وأن أذهب إلى المدرسة فوق طرق معبّدة وأضحك على لا شيء، وأشترى حلوى وأنا عائد إلى البيت وأتناولها وأضحك! هذا ما كنت أريده. أن يكون عندي جدران عندما أنام، وأن أستطيع أن أدير حنفية فيخرج منها الماء وأغسل يدي، بالكمية التي أريدها، باردة مثل عظمة.

كان عنوان الفيلم الذي شاهدته أنا ومايك وغرايس، في تلك الليلة، أتذكّره بوضوح، «الرجال المتشحون بالسواد». ومع أنني كنت أعرف بأنه يُعرض في السينما، إلا أنني لم أكن متأكّداً ما هو الحقيقي وما هو غير الحقيقي فيه. كانت تلك أول مرّة أذهب فيها إلى دار سينما. كان الفيلم مشوّشاً لكنّي بذلت كلّ ما بوسعي لأتتبع ردود أفعال المشاهدين. فعندما كانوا يضحكون كنت أضحك، وعندما يبدو أنهم خائفون، كنت أخاف أنا أيضاً. لكن طول الوقت كان التمييز بين ما هو حقيقي وبين ما هو غير حقيقي شيئاً في غاية الصعوبة بالنسبة لي. بعد الفيلم، اصطحبني مايك وغرايس لتناول بوظة، وسألاني عن رأيي بالفيلم. لم تكن هناك إمكانية بأن أقرّ بأنني لم أكن أعرف حقيقة ما كان يجري معظم الوقت، فأغدقت بالمديح على الفيلم ووافقت على جميع تقييماتهم. وقالا إنهما من مشجعي تومي لي جونز، وأنهما شاهدا فيلم «الهارب» أربع مرات.

تمشّينا في شوارع نيروبي في تلك الليلة في طريق عودتنا إلى شقّتهما، وفكّرت بهذه الحياة. فإذا أردنا أن نتناول بوظة، كان علينا أن نختار بين بائعي البوظة. أتذكّر أنني كنت أدرك أن تلك الليلة ستكون عابرة، وأنني سأعود بعد خمسة أيام إلى كاكوما. ومع أنني حاولت أن أخفي ذلك، رحت أمشي بخطى بطيئة. فقد كنت أريد أن أفعل كل ما بوسعي لأطيل ذلك المساء. كانت ليلة جميلة، الهواء دافئ، والريح لطيفة.

عندما عدنا إلى الشقّة، قال لي مايك وغرايس طابت ليلتك وشجّعاني على أن آخذ ما أريده من الثلاجة، وأن أشاهد التلفزيون إذا أحببت. قد يكون ذلك خطأ مني. فلم أتناول أيّ طعام في بيتهما، لأنني كنت متخماً في جميع الأحوال، لكنّي استغللت الجزء الثاني من عرضهما. لست متأكّداً متى غططت في النوم. فقد أخذت أدير القنوات حتى آلمني رسغي. عرفت أنه الضوء بدأ يجعل السماء بيضاء عندما غفوت أخيراً، وشعرت بدوار في معظم اليوم التالي.

في الصباح، وجدت غرايس جالسة على الأريكة وهي تبكي. مشيت على أطراف أصابعي إلى غرفة الجلوس. كانت تمسك صحيفة في يدها.

- لا! لا، لا، قالت غرايس. - لا! لا أستطيع أن أصدّق ذلك!

جاء مايك ليرى ماذا تقرأ غرايس. وقفت، خجلاً، خشية أن يكون قد حدث شيء مثل تفجير السفارة مرة أخرى. عندما اقتربت من الصحيفة، رأيت صورة امرأة بيضاء في سيارة. كانت جميلة جداً، لها شعر بني رملي. وكان هناك صور لنفس المرأة وهي تقدم أزهاراً لطفل أفريقي، وهي تخرج من طائرة، أو تجلس في مقعد خلفي في سيارة ذات غطاء قابل للطي. خمنت أنّ هذه المرأة، مهما كانت، ماتت.

هذا فظيع، مايك قال، وجلس مع غرايس، لاصقاً كتفه بكتفها. لم أقل شيئاً. كنت لا أزال لا أعرف ما الذي حدث.

التفتت غرايس إليّ. كانت عيناها مبلّلتين، متورمتين.

- ألا تعرفها؟ سألتني.

هززت رأسي.

- إنها الأميرة دايانا. من إنكلترا؟

أوضحت لي غرايس بأنّ هذه المرأة قدّمت أموالاً ومساعدات كثيرة إلى كينيا، وأنّها كانت تعمل على حظر استخدام الألغام الأرضية. وقالت إنها امرأة جميلة.

- حادث تحطّم سيارة. في باريس، قال مايك الذي أصبح الآن وراء غرايس، يحيطها بذراعيه. كانا أكثر زوجين يحبان بعضهما رأيتهما في حياتي. كنت أعرف أن أبي كان يحبّ أمّي، لكن إظهار الحبّ أمام آخرين لم يكن جزءاً من الحياة في قريتي.

طوال اليوم، كان الناس يبكون. رحنا نحن العشرة، تابيثا والصوماليون ومعظم الدومينيك، نتمشى في المدينة، وحيثما ذهبنا، كنا نجد أشخاصاً يبكون - في الأسواق، خارج الكنائس، على الأرصفة. كان يبدو أن العالم كله يعرف هذه المرأة التي تدعى دايانا، وإذا كان العالم يعرفها، فإن التواصل بين شعوب الأرض أقوى مما كنت أتخيّل. تساءلت هل سيحزن الشعب الإنكليزي

إذا مات مايك وغرايس. في ذلك الوقت، مشوشاً كما كنت، تخيّلت أنّه سيحزن.

حرماني من النوم بلّد أحاسيسي، وربما كان ذلك مفيداً. فبعد الغداء ذهبنا إلى المسرح للتدرب على عرض الليلة القادمة، ولو لم أكن أكثر يقظة لربّما غبت عن الوعي. كان المسرح ضخماً، مزداناً ومزخرفاً بشكل رائع. في آخر مرة عرضنا المسرحيّة، كان ذلك على الأرض المتربة في كاكوما، وكان الجمهور يجلسون أمامنا على الأرض. فلم تكن توجد في مخيّمنا خشبة مسرح حقيقية، أما الآن فها نحن نقف فوق ألواح حقيقية من خشب الكرز، نطلّ من الأعلى على المقاعد الفاخرة، مائة واثنا عشر مقعداً. تدرّبنا في ذلك اليوم، مع أن المزاج كان معكّراً، لأن جميع أعضاء فرقتنا عرفوا بموت دايانا، وعرفوا من هي، وأبدوا كلهم حزناً حقيقياً أم أنهم تظاهروا بذلك، لا أعرف.

في ذلك اليوم، عندما كنّا نصبح وحدنا، كلّنا أو عدد منّا، كنّا نتحدّث عن البقاء هنا. فقد أردنا جميعاً أن نبقى في نيروبي، أن نعيش فيها باستمرار. فلم يشأ أحد أن يعود إلى كاكوما، حتى الذين توجد لديهم عائلات هناك، ورحنا نبحث كيف يمكننا أن نفعل ذلك. وضعنا خططاً للهروب، والاختباء في المدينة، الاختباء حتى يكّفون عن البحث عنّا. لكنّنا كنا نعرف أنهم سيعثرون على بعضنا على الأقل وسيعاقبونهم بشدّة. وعرفنا أنه إذا هرب أحدنا، فهذا يعني أن أي شخص آخر في كاكوما سيُمنع من السفر إلى نيروبي. وفي النهاية، توصلنا إلى أن الحلّ الوحيد هو التبني. فإذا وافق مواطن كيني على تبنّي أحدنا، أو أيّ لاجئ في كاكوما، عندها يستطيع أن يعيش مع أسرة المتبنّي، ويذهب إلى مدرسة كينية حقيقية، ويعيش كما يعيش الكينيون.

- يجب أن تطلب من مايك أن يتبنّاك، قال لي أحد الصبية الدومينيك - أراهن بأنه سيوافق.

- لا أستطيع أن أطلب منه ذلك.

- إنه شاب. ويستطيع أن يفعل ذلك.

لم تكن الفكرة جيدة، ولم أفكّر بها. كان من عادة الكثيرين ممن أعرفهم، في كاكوما أو في ما بعد، أن يستغلوا كرم الشخص الذي يساعدهم إلى أبعد الحدود.

وفي اللحظات التي كنت أشعر فيها بالضعف، كنت أتساءل ألا أستطيع أن أسأله؟ يمكنني أن أسأله ذلك قبل مغادرتنا بليلة. وما الضرر في ذلك. فإذا قال

لا، فلن يتغير شيء.

وهكذا خططت. إذ سأظل حتى آخر يوم شهماً وسعيداً، وأظهر لهما كم أنا شاب طيب، وفي الليلة الأخيرة، سأقول لمايك إن بقاء شاب مثلي في نيروبي سيكون مفيداً، لأنه يستطيع أن يفعل أي شيء يطلبه منه مايك وغرايس، ويمكنه أن يكون مفيداً لفرقة مافانو المسرحية.

بعد انتهاء التدريب، اقترح مايك وغرايس أن يأخذاني مع صديق آخر يمكنني أن أختاره لتناول العشاء في مطعم صيني، فاخترت تابيثا. كنت أتوقع أن يرفضا اختياري لأنه غير مناسب. لكن بما أن تواعد شخصين مثلي ومثل تابيثا في كينيا لم يكن شيئاً غير معتاد، فقد قبل مايك وغرايس ورحّبا بها. وأثار اختياري فضولهما، كما أظن، فسألاني عدة أسئلة ونحن في طريقنا لنأخذها. أي واحدة منهن؟ هل رأيناها البارحة؟ هل كانت ترتدي ثوباً ورديا؟

تناولنا الطعام في مطعم له أرضية خزفية نظيفة، وعُلِّقت على أجد جدارنه صور شخصيات مهمة سابقة في كينيا. تناولنا أنا وتابيثا لحم حمل وخضراوات وشربنا صودا. في تلك الأيام القليلة، ازداد وزني، وازداد وزن جميع أعضاء الفرقة، بسرعة كبيرة، فلم يسبق لأحد منا أن أكل طعاماً جيّداً هكذا. وطوال العشاء، ظل مايك وغرايس يراقبانا ونحن نأكل، يبتسمان بحزن، وعندما شبعنا وأصبح بإمكاننا أن نتحدث دون أن يلهينا الطعام، لاحظ مايك وغرايس، أنا متأكد من ذلك، بأنّنا كنّا عاشقين، فكانا ينقلان نظراتهما من تابيثا إليّ ومني إلى تابيثا وعلى وجهيهما ابتسامة عريضة تشي بأنهما يعرفان.

تمشينا من المطعم إلى مركز التسوّق ذي الأربع طوابق المليء بالمحلات والذي يعجّ بالناس. وكان فيه زجاج كثير، ودار سينما. وتظاهرت تابيثا بأننا نعرف أماكن كهذه، وحاولنا ألاّ نظهر بمظهر المندهشين.

- يا إلهي، لقد تعبنا، قالت غرايس، وأرغمت نفسها على أن تتثاءب بشكل مفتعل. فضحك مايك وضغط على يدها. توقّف خارج محل لتظهير الصور الفوتوغرافية. خرج رجل له كرش ورحبّ بمايك وغرايس بحرارة.

- حسناً، قال مايك لي ولتابيثا. - أظن أنكما ترغبان في أن تمضيا وقتاً وحدكما، وسنتيح لكما هذه الفرصة. لكن علينا أن نتفق أولاً. هذا صديقي تشارلز.

أومأ الرجل ذو الكرش نحونا.

- إنه سيظل هنا حتى الساعة العاشرة. سنسمح لكما أن تتجولا في مركز التسوّق معاً، بدون مرافق، ثم تعودان إلى محل تشارلز في الساعة العاشرة. عندها سيغلق محله وسيرافقكما إلى البيت.

اتفاق رائع، قلنا لأنفسنا، وقبلنا على الفور. أعطاني مايك حفنة من الشلنات وغمزني بطريقة تآمرية. عندما أمسكت النقود في يد وتابيثا في اليد الأخرى، أيقنت أنني كنت أعيش أفضل لحظات حياتي.

أمضيت أنا وتابيثا قرابة ساعتين وحدنا، ولم يكن من المهم أن نبقى داخل مركز التسوّق.

- عودا إلى هنا في الساعة العاشرة، قال تشارلز، وهو ينظر إلى تابيثا.

- هل ستكونان بخير؟ سألني مايك.

- نعم يا سيدي، قلت. يمكنك أن تثق بنا.

- إننا نثق بكما، قال، ثم غمزني.

- اذهبا الآن، أنتما طليقان! قالت غرايس، ولوّحت لنا بظاهر يدها الصغيرة.

غادر مايك وغرايس مركز التسوّق وعاد تشارلز إلى عمله في تظهير الأفلام. وأصبحت أنا وتابيثا وحدنا وكانت الاختيارات أمامنا كثيرة، فبدأت أفكّر على الفور أين يمكنني أن أجد بقعة ملائمة لأضمها إليّ، وأمسك وجهها بيدي. كان غوب قد علّمني أن ألمس وجه المرأة بيدي عندما أقبّلها، وقد عزمت على أن أفعل ذلك.

لم أكن أعرف شيئاً عن مركز التسوّق، لكن كان لديّ الحضور العقلي لأعرف أنه في حالة كهذه، يجب على الرجل أن يبدو حاسماً، فصعدنا أنا وتابيثا الدرج إلى أكبر مخازن مركز التسوّق وأكثرها بريقاً. لم أكن أعرف ماذا يوجد في داخلها. وعندما أدركت أخيراً أنه مخزن بقالة كبير، كان الوقت قد تأخر كثيراً لأغيّر رأيي. وكان عليّ أن أتظاهر بفخر عظيم بأنني تعمدت اختيار هذا المكان.

عندما أتذكّر ذلك، أعرف أنه لم يكن شيئاً رومانسياً، لكنّنا أمضينا معظم الساعتين في مخزن البقالة ذاك. كان ضخماً، متلألئاً أكثر من ضوء النهار، ومليئاً بالأطعمة التي يمكن أن يتناولها القاطنون في مخيّم كاكوما كلّهم في

أسبوع واحد، وكان ممتلئاً أيضاً بأنواع كثيرة ومتعددة من البضائع وفيه صيدلية أيضاً - سلع ومواد كثيرة جداً موجودة في مكان واحد. وكان فيه اثنا عشر ممراً، توجد في بعضها مجمّدات مليئة بأنواع البيتزا والبوظة، وممرات أخرى تتكدس فيها الأدوات المنزلية ومستحضرات التجميل. وراحت تابيثا تتفحص أقلام أحمر الشفاه والمنتجات المخصصة للشعر، والرموش الاصطناعية، والمجلات النسائية. حتى في ذلك الوقت، كانت فتاة تبدي اهتماماً كبيراً بمستحضرات التجميل. أما في بلدة كاكوما، فكانت المخازن أكواخ خشبية تتكدس فيها سلع تبدو قديمة، لا يوجد فيها شيء معبء بطريقة براقة، لا شيء فيها نظيف وجذاب كالسلع التي يمتلئ بها مخزن البقالة ذاك في نيروبي. ورحنا نجوب كلّ ممر على حدة، نُري بعضنا أعجوبة تلو الأعجوبة: حائط مليء بأنواع العصير والصودا، ورفّ مليء بأصناف الحلوى والألعاب، وآخر مليء بالمراوح ومكيفات الهواء. وفي الخلف، كانت هناك دراجات هوائية كثيرة ذات ألوان براقة ولامعة.

أطلقت تابيثا صيحة خفيفة وركضت إلى أصغر تلك الدراجات.

جلست على درّاجة صغيرة ذات ثلاث عجلات مخصصة لطفلة صغيرة وضغطت على الزمور.

- فال، أريد أن أسألك شيئاً مهماً، قالت، عيناها تلمعان.

نعم؟ قلت. شعرت بالقلق بأنها تريد أن تطلب منّي شيئاً لست متهيئاً لأقدّمه لها. كنت أخشى منذ زمن بأن تابيثا تعرف أساليب الحبّ، وأننا ما إن نصبح وحدنا، حتى تتحرّك بسرعة. ومن الواضح أنني لم أكن أمتلك أي تجربة في هذا المجال. مجرد رؤيتها جالسة على تلك الدرّاجة ذات الثلاث عجلات حركّت فيّ مشاعر قوية لا يمكن تفسيرها.

- هيا بنا نركض، قالت.

لم يكن هذا ما توقّعته.

- ماذا؟ نركض إلى أين؟ قلت.

- نهرب. نبقى هنا. نغادر كاكوما. دعنا لا نعود.

قلت لتابيثا لا بد أنها فقدت صوابها. صمتت لوهلة. خيّل إليّ أنّها استعادت صوابها. لكنّها لم تنته بعد.

- فال، ألا ترى؟ مايك وغرايس يتوقّعان أن نغادر الليلة، معاً. لذلك تركانا وشأننا.

- مايك وغرايس لا يتوقّعان أن نغادر.

- لقد سمعت غرايس! قالت اذهبا! يمكننا أن نذهب ونصبح مثلهما. ألا تحبّ أن نعيش مثلهما؟ يمكننا ذلك يا فال، أنا وأنت.

قلت لتابيثا إنني لا أستطيع أن أفعل ذلك، وأنني لا أوافق على أنّ مايك وغرايس يتوقّعان أن نهرب في تلك الليلة. وقلت لها إنني أعتقد بأنّهما سينزعجان كثيراً إذا توارينا عن الأنظار، لأنّ ذلك سيجلب لهما مشاكل كثيرة من مسؤولي الهجرة والشرطة، كما أن هروبنا سيضع حداً، ذكّرت تابيثا، لجميع رحلات اللاجئين من كاكوما، وأن رحلتنا إلى نيروبي هذه ستكون آخر رحلة يمكن أن يقوم بها أيّ شاب من كاكوما.

- هيا يا فال! لا يمكننا أن نفكّر بذلك، قالت. - يجب أن نفكّر بما يمكننا أن نفعله أنا وأنت. علينا أن نعيش، أليس كذلك؟ ما هو الحقّ الذي يملكونه ليقولوا لنا أين يجب أن نعيش؟ أنت تعرف أن هذه ليست حياة، الحياة التي نعيشها في كاكوما. إننا لسنا بشر هناك وأنت تعرف ذلك. إننا حيوانات، إنّهم يضعوننا في حظائر كالأبقار. ألا تظن أننا نستحق حياة أفضل من هذه؟ أليس كذلك؟ أنت من تطيع؟ قواعد الكينيين الذين لا يعرفون شيئاً عنا؟ سيتفهم الجميع يا فال. سيهللون لنا في كاكوما لأننا فعلنا ذلك، وأنت تعرف ذلك. إنهم لا يتوقّعون منا أن نعود.

- لا نستطيع أن نفعل ذلك يا تابيثا. ليست هذه الطريقة السليمة.

- لقد جئت إلى هذه الأرض مرة واحدة فقط وستعيش كما يريد هؤلاء الناس أن تعيش؟ بالنسبة لهم أنت لست شخصاً! أنت حشرة! خذ بزمام أمورك.

وداست بقدمها على قدمي.

- من أنت، يا فالانتينو؟ من أين أنت؟

- أنا من السودان.

- حقاً؟ كيف؟ ماذا تتذكّر عن ذلك المكان؟

- سأعود، قلت. - سأكون سودانياً دائماً.

- لكنّك شخص أولاً، يا فال. إنك روح. هل تعرف ما هي الروح؟

يمكنها أن تكون حقاً غاضبة، ساخطة.

- إنك روح صادف أنها اتخذت شكلها الإنساني، شكل صبي من السودان. لكنّك لست مقيداً بذلك يا فال. أنت لست مجرد فتى سوداني. يجب ألاّ تقبل هذه القيود. ليس عليك أن تطيع القوانين التي تقرر إلى أي مكان يجب أن ينتمي شخص مثلك، ولأن لديك بشرة سودانية وقسمات سودانية يجب أن تكون مجرد منتج الحرب، وأنّك جزء من كلّ هذا الخراء. إنهم يطلبون منك أن تغادر بيتك وبلدتك وتسير إلى إثيوبيا وتفعل ذلك. يطلبون منك أن تغادر إثيوبيا، ثم تغادر غولكور، وأنت تفعل ذلك طائعاً. يسيرون إلى كاكوما فتسير معهم. إنك تتبع في كلّ مرّة. ويطلبون منك الآن أن عليك أن تبقى في المخيّم حتى يسمحوا لك هم بأن تغادره. ألا ترى؟ أيّ حقّ يمتلكه كلّ هؤلاء الناس حتى يرسموا حدوداً حول الحياة التي تستطيع أن تعيشها؟ من يعطيهم هذا الحقّ؟ لأنه صادف أنهم ولدوا كينيين وأنت ولدت سودانياً؟

- لا يزال أبي وأمي على قيد الحياة يا تابيثا!

- أعرف ذلك! ألا تظن أنك تستطيع أن تذهب إليهما من نيروبي أكثر؟ يمكنك أن تعمل وتكسب نقوداً لتذهب إلى مايال باي بسهولة أكثر بكثير من هنا. فكّر في الأمر.

يمكنني أن أنظر إلى الوراء وأرى الحكمة في ما قالته في تلك الليلة، لكن تابيثا أحبطتني كثيراً آنذاك، فلم أحترم آراءها ولم أعد أحترمها هي. وقلت لها إنّ كلامها هذا لا يقنعني ويجعلني أخرق القوانين أو أقلل من نوعية الحياة التي يعيشها آلاف الشبان في كاكوما.

- لا يحقّ لي أن أجعل الحياة أقسى لأي شخص آخر، قلت.

وكانت تلك نهاية حديثنا. وتجولنا في المخزن لفترة من الوقت، ولم أعد متأكّداً من أنني أريد أن أكون مع تابيثا حينذاك أو بعد ذلك، فقد تبين لي أنها شخص مختلف عن الشخص الذي كنت أظنّه. فبدت لي أنانية، لا تتحمل مسؤولية، وقصيرة النظر وغير ناضجة. وقرّرت أن أعود إلى محل تشارلز في الساعة العاشرة، وكنت آمل أن تكون تابيثا هناك في الموعد المحدد. لكنّي لم أشأ أن أكون الشخص الذي يمنعها من الهرب إذا أرادت ذلك. وتمنّيت ألاّ تهرب

لكنني لم أشأ أن أمنعها من ذلك، لأنه لا يحق لي ذلك. كنت متيقناً بأن هذه الليلة ستكون نهاية علاقتنا الرومانسية، فهي تراني شخصاً خجولاً ومطيعاً جداً. منذ البداية كنت أخشى أن تكون تابيثا تفضّل الرجال أكثر حزماً وجرأة منيّ. فقد كنت في ذلك الوقت، كما كنت في أيام كثيرة، في صراع مع شخصيتي المذعنة للقانون. وطوال تلك السنوات، لم تجلب لي رغبتي في إرضاء الذين هم في السلطة إلاّ الكثير من المشاكل.

في جميع الأحوال، كان من المبكّر جداً أن أعترف بذلك لنفسي أو لتابيثا، فبقيت بين الدراجات، وتذكّرت الرجل الذي رأيته في الصحراء والذي كان يحتفظ بطعام طازج في حفرة في الأرض. تذكّرت ذلك الرجل ووجدت نفسي ألمس لا شعورياً عظمة ساقي عندما كان السلك الشائك هو السبب في أن أتناول وجبة طعام. عندها رأيت تابيثا تعود. كانت تسير بسرعة نحوي في الممر، بجانب المراوح الكهربائية وآلات صنع القهوة والمناشف، ووقفت أمامي على مسافة بضع بوصات.

- أيها الفتى الغبي! صرخت.

لم يكن عندي جواب على هذا الاتهام لأنه لم يكن صحيحاً.

- قبّلني الآن، طلبت مني.

كانت غاضبة كما لم أرها من قبل، كان جبينها يستخدم عضلات لم أكن أعرف أنها موجودة في الوجه. وبشفتيها المزمومتين، وعينيها المغمضتين، مالت برأسها فوق رأسي، وتلاشت على الفور كلّ الآراء التي كنت قد كوّنتها عنها. وانحنيت نحو تابيثا وقبّلتها. قبّلتها وقبّلتني حتى طلب منّا عامل في مخزن البقالة أن نغادر. قال إنهم سيغلقون المخزن وأشار إلى ساعته. كانت الساعة العاشرة. كنّا نقبّل بعضنا منذ أربعين دقيقة بين تلك الدراجات، يداها على مقود الدراجة ويداي على يديها.

لا أتذكّر شيئاً من اليوم التالي. فقد اضطرت تابيثا أن تمضي ذلك اليوم مع الأسرة التي استضافتها، وبما أن مايك وغرايس كانا في عملهما، فقد أمضيت جلّ اليوم في شقّتهما. وبين الحين والآخر، كنت أتجوّل حول الحيّ، أحاول أن أفكّر، حتى للحظة أو لحظتين، بأيّ شيء يتجاوز القبلة التي تبادلناها. لكنّ من دون جدوى. لقد عشت تلك القبلة ألف مرة في ذلك اليوم. وفي الشقّة قبّلت الثلاجة، وقبّلت كلّ الأبواب والوسادات ومساند الأريكة، كي أستعيد ذلك الإحساس من جديد.

كان من المفترض أن أقلق على تابيثا، وكنت أتساءل هل ستأتي للتدريب في ذلك اليوم ، لكنّي لم أفكّر بذلك كثيراً في الليلة الماضية. وعندما وصلت تابيثا بعد ظهر ذلك اليوم إلى المسرح. كانت تتملكني نشوة ذكريات الليلة الماضية، فلم أكد ألاحظ وجود تابيثا الحقيقية التي كانت تتعمد تجاهلي. وكانت تقرر أحياناً، في الليل، بأن تغضب مني، وتظل غاضبة لأسابيع عديدة.

في ليلة العرض تلك، كان المسرح ممتلئاً حتى آخره. كانت هناك ثمان عشرة فرقة مختلفة ستقدّم عروضها جاءت من جميع أنحاء كينيا، وكانت فرقتنا هي الفرقة الوحيدة التي أعضاؤها من اللاجئين. وأشكر الله أننا قدمنا عرضاً جيداً في تلك الليلة، فتذكّرنا كلنا أدوارنا تحت تلك الأضواء، وبوجود كلّ هذا الجمهور. كان أداؤنا رائعاً، وعرفنا أنّ عرضنا كان جيّداً. وعندما انتهينا، هلل الحاضرون لنا ووقف بعضهم وهم يصفّقون. وجاءت فرقتنا في المرتبة الثالثة في ترتيب جميع الفرق. لم نكن نريد أكثر من ذلك.

ثم أقيم حفل عشاء. ثم عدنا جميعاً إلى بيوت مستضيفينا. كان الصراع بادياً على وجهي ونحن في طريق عودتنا إلى البيت.

- ما المشكلة؟ سألتني غرايس. - تبدو كأنك تناولت شيئاً حامضاً.

قلت لها لا يوجد شيء، لكنّي كنت محطماً. كنت أعرف أنه لا توجد لديّ إلاّ هذه الليلة لأتكلّم مع مايك وغرايس حول إمكانية أن يتبنّياني.

لكنّي لم أقل شيئاً لغرايس، ولم أقل شيئاً لأيّ منهما عندما ذهبا إلى الحمام قبل أن يأويا إلى السرير. ذهبت غرايس لتنام وكذلك مايك، لكنه عاد إلى غرفة الجلوس وقال: لم أستطع أن أنام.

جلسنا على الأريكة في تلك الليلة وشاهدنا التلفزيون لساعات أكثر، وعندما سألته أسئلة عمّا رأيناه - من هم الرجال الذين يعتمرون قبعات مقوّسة؟ - من هنّ النساء اللاتي يلبسن ريشاً؟ وكان كلّ ما بإمكاني أن أفكّر به هو هل أستطيع؟ هل أستطيع حقاً أن أسأله عن أشياء كهذه؟ لا أستطيع أن أسأل شيئاً كهذا لمايك. كان ذلك كثيراً جداً، كنت أعرف. فمايك مشغول جداً ويجب ألا يتحمل عبء لاجئ. ومن الناحية الأخرى، قلت في نفسي، يمكنني أن أساعد، فهناك عدة أشياء يمكنني أن أفعلها أكسب من خلالها رزقي. إذ يمكنني أن أطبخ وأنظّف وبالتأكيد يمكنني أن أساعد في أي طريقة قد يحتاج فيها المسرح إليّ. فأنا شخص منظّم، وقد أثبت ذلك، وأنا شخص محبوب، وأستطيع أن أنظّف المسرح بعد أن يُغلق، أو أنظّفه قبل أن يفتح أبوابه. يمكنني أن أفعل أحد هذين الأمرين أو كليهما، وبعد أن أعود إلى

البيت، يمكنني أن أرتب سرير مايك وغرايس. لا بد أن مايك يعرف كلّ هذه الأشياء التي أريد أن أفعلها. ولا بد أنه يعرف إنّني مستعد لأن أعمل لقاء إقامتي وطعامي، وهكذا فإن وجودي لم يكون عالة عليهما.

لعنتُ غبائي. فلم يكن مايك يحتاج أو يريد أحداً يساعده في كلّ ذلك. إنه يريد أن يكون شاباً غير مثقل بمحنة مراهق سوداني. يكفيني تصرفه الطيب بأنه استضافني هذا الأسبوع. ولو عرفت أمّي بأنّني فكّرت بأن أفرض نفسي على أحد هكذا، لانتابها الخجل.

- حسناً، هذه هي نهاية الليلة بالنسبة لي، قال ونهض واقفاً.

- حسناً، قلت.

- هل ستسهر مرة أخرى؟ سألني. -لا أعرف متى تنام. ابتسمتُ وفتحتُ فمي. مجموعة من الكلمات، كلمات متزلّفة وضرورية، كانت على وشك أن تترك فمي. لكنّي لم أقل شيئاً.

- تصبح على خير، قلت. ضيافتك وكرمك تعني لي كلّ شيء.

ابتسم وأوى إلى السرير، لينضم إلى غرايس.

في صباح اليوم التالي عدنا، نحن اللاجئين جميعاً إلى كاكوما. كنّا متعبين، ولم أكن الوحيد الذي أصبح يحبّ أن يشاهد التلفزيون. لم أجلس بجانب تابيثا في الحافلة، ولم أكلّمها طوال الطريق. كان ذلك شيئاً جيّداً. فقد كنت مستغرقاً في أفكار كثيرة، وكنت أحتاج إلى أن أرتاح منها، ومن أيّ شيء يذكّرني بالاختيارات التي لم أتخذها. أسندتُ رأسي إلى زجاج النافذة، محاولاً أن أنام لأبعدها عن تفكيري. لم نتوقّف في كيتال في طريق العودة، بل اتجهنا مباشرة إلى كاكوما. كنت أنسلّ وأخرج من الوعي، أراقب المناطق الوارفة في كينيا وهي تمرّ بجانبي، تلالها الخضراء العظيمة والأمطار الغزيرة التي تملأ المزارع بعيدة. طرنا من أمام كلّ ذلك وعدنا إلى فوضى كاكوما.

(٢٤)

الآن أنا في باحة وقوف السيارات في نادي القرن، ولا تزال هناك عشرون دقيقة حتى تفتح أبوابه. لم يكن عندي وقت كاف لأنام قليلاً. فتحت المذياع على محطة «هيئة الإذاعة البريطانية العالمية (البي بي سي)». كان موعد نشرة الأخبار. لقد شكّل هذا البرنامج الإخباري جزءاً هاماً في حياتي منذ زمن بعيد، منذ أن كنت في بينيدو، عندما كان قادة جيش التحرير الشعبي السوداني ينقلون تقاريرهم من أفريقيا إلى المخيّم. وفي السنوات القليلة الماضية، أصبح يبدو أن نشرة الأخبار لا تكتمل إذا لم يرد فيها خبر عن السودان. وفي هذا الصباح كان الخبر الأول المتوقّع عن دارفور. فقد أفاد خبير الشؤون الأفريقية في الإذاعة أن السبعة آلاف جندي الذين أرسلهم الاتحاد الأفريقي والذين يقومون بأعمال الدورية في منطقة تعادل مساحتها مساحة فرنسا لا يستطيعون إيقاف أعمال الرعب التي يبثها الجنجويد. وقال إن تمويل هذه القوّات سينفد قريباً، ويبدو أن أحداً، بمن فيهم الولايات المتّحدة، مستعد لتقديم مزيد من الأموال أو إيجاد أفكار جديدة لوقف أعمال القتل والتشريد. لم يكن ذلك شيئاً مفاجئاً بالنسبة لنا نحن الذين عشنا عشرين سنة من الظلم والقهر على يد المليشيات التي ترسلها الخرطوم.

أما الخبر الثاني عن السودان فكان مثيراً للاهتمام، ويدور حول يخت. فقد كان من المقرر أن يجتمع قادة الإتحاد الأفريقي في الخرطوم، وأراد البشير، رئيس السودان، أن يثير إعجاب رؤساء الدول بمركب فاخر كان من المفترض أن يرسي في نهر النيل، ويأخذ كبار المسؤولين في رحلة في النهر خلال إقامتهم. وكان اليخت قد طُلب من سلوفينيا، ودفع البشير ٤.٥ ملايين دولار ثمناً له. ومن نافلة القول إن مبلغ ٤.٥ ملايين دولار كان يكفي لإطعام الفقراء في السودان.

نُقل اليخت من سلوفينيا إلى البحر الأحمر ومنه إلى بور سودان. ومن بور سودان، كان يتعين نقله براً إلى الخرطوم في الوقت المحدد لانعقاد المؤتمر. لكن تبين أن نقل اليخت إلى العاصمة أصعب بكثير مما كان متوقّعاً. فقد كان على المركب الذي يزن ١٧٢ طناً أن يمر من تحت جسور عدة، وكانت الأسلاك الكهربائية الفوقية تشكّل صعوبة كبيرة. لذلك كان يجب قطع ١٣٢ سلك منها وإعادة وصلها بعد مرور اليخت. وعندما وصل اليخت أخيراً إلى النيل، كان الزعماء الأفارقة قد غادروا، ولم يشاهدوا اليخت المزود بجهاز تلفزيون متصل بالأقمار الاصطناعية، وزخرفاته الجميلة، وقاعاته الفاخرة.

وأصبح عدم وصول اليخت إلى الخرطوم في الوقت المحدد رمزاً لفساد البشير. فقد كان لدى الرجل أعداء من كلّ جانب - لم يكن السودانيون الجنوبيون فقط هم الذين يكنون له مشاعر العداء، وإنما أيضاً المسلمون المعتدلون الذين شكّلوا عدة أحزاب سياسية وائتلافات لمعارضته. أما الذين ثاروا ضد حكومته في دارفور فهم جماعة مسلمة غير عربية تطالب بإجراء تحسينات في المنطقة. فإذا لم تحرّض الإبادة الجماعية شعب السودان على استبدال هذا المجنون والجبهة الإسلامية الوطنية التي تسيطر على الخرطوم، فقد يفعل اليخت ذلك.

بينما كنت أستمع إلى هذا التقرير، لمحت في الجانب الآخر من باحة وقوف السيارات هاتفاً عمومياً كأنه يدعوني. فقرّرت أن أتّصل برقم هاتفي وأسمع رنة هاتفي المسروق. لا يوجد لديّ شيء أخسره إذا فعلت ذلك.

استخدمت إحدى بطاقات الهاتف التي كنت قد اشتريتها من ابن عم أتشور أتشور في ناشفيل الذي يبيع بطاقات هاتف بمبلغ ٥ دولارات لتعطيك اتصالات بما قيمته ١٠٠ دولار للاتصالات الدولية. لا أعرف كيف كان يفعل ذلك، لكن جميع اللاجئين الذين أعرفهم كانوا يشترون هذه البطاقات. والبطاقة التي اشتريتها منه تبدو غريبة جداً، وقد يكون الأفريقيون هم الذين صنعوها لأن عليها صورة مركبّة غير عادية: رجل من قبيلة ماوري في ملابسه الفخمة، يحمل بيد رمحاً، وتوجد جاموسة أمريكية في خلفية الصورة، وكتب على الصورة عبارة أفريقيا كاليفورنيا.

استغرقت لحظة لأتذكّر رقم هاتفي، لأنني لم أكن أتصل به كثيراً. عندما تذكّرته، ضغطت على الأرقام الستّة الأولى بسرعة، ثم توقّفت لحظة طويلة قبل أن أنهي الدورة. في أحيان كثيرة لا أستطيع أن أصدّق الأشياء التي أفعلها.

رنّ الهاتف. جفّت حنجرتي. رنتان، ثلاث رنّات. نقرة. «ألو؟» صوت صبي. مايكل. صبي التلفزيون.

«مايكل. أنا الرجل الذي سرقت منه الليلة البارحة». شهقة صغيرة سريعة، ثمّ صمت.

«مايكل، دعني أكلمك. أريدك فقط أن ترى أن ...»

سقط الهاتف، ثم سمعت صوت مايكل يتكلّم في غرفة ينبعث منها صدى. ثم سمعت أصواتاً مكتومة «أعطني إياه». ضُغط على الزرّ وانتهت المكالمة.

كنت قد أعطيت الشرطية هذا الرقم، وأعرف الآن أنّهم لم يحاولوا الاتصال به ولا حتى مرة واحدة. والهاتف ولا يزال مع السارقين، الذين سرقوني وضربوني، ولا يزال هذا الهاتف يعمل. ولم تبد الشرطة أي اهتمام بالتحقيق في الجريمة، والمجرمون يعرفون أن الشرطة لن تفعل شيئاً. هذه هي اللحظة، فوق أيّ لحظة أخرى، عندما أتساءل إن كنت موجوداً حقاً. لو كان أحد الطرفين المعنيين، الشرطة أو المجرمين، يعتقد بأن لديّ أي قيمة أو صوت، لكنت قد استعدت هاتفي المسروق. لكنّ يبدو من الواضح أن لا أحد من طرفيْ هذه الجريمة يعترف بوجودي.

بعد خمس دقائق، بعد أن عدتُ إلى سيارتي لألتقط أنفاسي، عدت إلى الهاتف العمومي في محاولة أخرى. لم أُفاجأ عندما سمعت على الفور تسجيل البريد الصوتي. في العادة، أُدخل رمزاً كي أستمع إلى رسائلي الخاصة.

كانت هناك ثلاث رسائل. الرسالة الأولى من مادلينا، مسؤولة قسم القبول في جامعة يسوعية صغيرة كنت قد زرتها منذ عدة أشهر ووعدتني بكل شيء إلاّ بقبولي آنذاك. ومنذ ذلك الحين، يبدو أنهم توصلوا إلى عشرة أسباب أو أكثر تثبت أن استمارتي غير مكتملة. ففي البداية قالوا إن كشف علاماتي غير رسمي، فأرسلت لهم نسخة أصلية مصدقة. وقالوا إنني لم أُجرِ اختباراً معيناً كانوا قد قالوا لي إنه غير ضروري. وكلما حاولت الاتصال بمادلينا، كانوا يقولون لي إنها غير موجودة في المكتب.

لكنها كانت تتّصل بي بين الحين والآخر، وكانت تتصل دائماً في ساعة تعرف أنّني لن أتمكن من الردّ على الهاتف. لا أعرف كيف كانت تفعل ذلك. لا بد أنها خبيرة في هذه الأمور. أما هذه الرسالة، فكانت تحتوي على معلومات مفيدة أكثر من أيّ رسالة أخرى أرسلتها لي:

«فالانتينو، لقد تحدّثت مع زملائي في الجامعة هنا ونرى أنك يجب أن تحصل على مزيد من العلامات من المعهد المحلي» - وهنا تعبث بصفحاتها، تبحث عن الاسم «جورجيا بيريميتر كولدج». الشيء الأخير الذي يريد أحد أن يحدث هو أن تتجشم عناء الطريق لتأتي إلى هنا ولا يثمر مجيئك عن أي نتيجة. اتصل بي بعد عدة فصول دراسية، عندها سنرى أين أصبحت...» واستمرّ ذلك لفترة من الوقت، وعندما أغلقت الهاتف خيّل إليّ أنني سمعت تنهيدة ارتياح في صوتها. إنها تقترح ألاّ أتصل بها لسنة أخرى.

وكما كان يحدث في كاكوما، فقد كان الناس يُدهشون من الصعوبات التي تعترضني عندما أريد أن أحقق بعض الأهداف التي يتخيّلون أنها سهلة المنال

بالنسبة لي. فقد مضى عليّ الآن خمس سنوات في أمريكا، ولم أتمكن من التسجيل في أي معهد أو جامعة كما كنت أنوي عندما وصلت. وبسبب المساعدة التي قدّمها لي فيل مايس و»مؤسسة أطفال السودان الضائعين»، تركت عملي في تعبئة عيّنات القماش، وتفرغت للدراسة في معهد جورجيا بيريميتر كولدج، ودرست المواضيع التي قالوا لي أنني بحاجة إليها لكي تؤهلني للتقدّم إلى الجامعة لأربع سنوات. لكنّ الأمور لم تسر وفق الخطّة. فقد كانت الدرجات التي أحصل عليها متقلبة، ولم أكن ألقى دائماً تشجيعاً من أساتذتي. هل الجامعة مناسبة لي حقاً؟ كانوا يسألونني. لم أكن أجيب على هذا السؤال. ثم نفدت نقودي الأساسية واضطررت لقبول هذا العمل، في النادي الصحي، لكني ما زلت مصمّماً على دخول الجامعة. جامعة محترمة أصبح فيها طالباً رسمياً، ولن يهدأ لي بال حتى أفعل ذلك.

يبدو أنني وصلت أخيراً في هذا الخريف إلى مكان معقول، ولا تزال أمامي أربعة فصول دراسية صعبة في المعهد المحلي، وقد نلت درجات جيدة بصورة عامة. فقد انخفضت درجاتي بعد وفاة بوبي نيومير، لكنّي لم أكن أظن أن هذه العثرات القليلة ستعيق طلبات تقدمي إلى الجامعة. لكنها أعاقتها. فتقدّمت إلى المعاهد اليسوعية في أنحاء البلد وكانت الردود التي وصلتني منها مشوّشة ومتضاربة.

في البداية، قمت بجولة زرت فيها سبع معاهد، وكنت أحرص على تسجيل كل ملاحظة يقولونها لأتأكد من أنني أعرف ماذا يريدون تماماً من الطالب المتوقّع. وطلب مني جيرالد نيوتن أن أسألهم بصراحة، «ماذا عليّ أن أفعل لكي أصبح طالباً هنا في فصل الخريف؟» وكنت أردد هذه العبارة بالذات في كلّ معهد وجامعة أزورها. وكان ذلك مشجّعاً للغاية. كانوا ودّيين معي، وكان يبدو لي أنهم يريدونني. لكن جميع طلباتي رُفضت في هذه المعاهد والجامعات، وفي بعض الأحيان، لم يكن موظفو القبول يردّون عليّ على الإطلاق.

عندما تكلّمت أخيراً مع أحد موظفي القبول في إحدى الكليات، وهو رجل وافق على أن يكون صريحاً معي، قال لي بعض الأمور الهامة.

« قد تكون كبيراً في السنّ قليلاً».

طلبت منه توضيحاً. كان يمثّل كليّة أخرى للعلوم الإنسانية عدد طلابها قليل جداً. كنت قد زرت تلك الكلية، ذات الأشجار المشذّبة، ومبانيها التي تشبه

كثيراً المباني المصورة في الكتيب الذي وزعوه علينا عندما كنا ننتظر الطائرة التي ستنقلنا من كاكوما.

«انظر إلى الأمر بهذه الطريقة»، قال. - «فهنا توجد مساكن للطلاب، وفيها فتيات شابات، لا يتجاوز عمر بعضهن السابعة عشرة. أظن أنك تعرف ماذا أقصد؟»

لا، لم أعرف ماذا كان يقصد.

«تقول في طلبك إن عمرك سبع وعشرون سنة»، قال.

«نعم؟»

«حسناً، تخيّل أسرة بيضاء من الضواحي. تنفق أربعين ألف دولاراً لترسل ابنتها الشقراء الشابة إلى الجامعة، وهي لم تسافر قط بعيداً عن بيتها، وفي أول يوم لها في الحرم الجامعي ترى رجلاً مثلك يتجوّل بين مساكن الطلبة؟»

في رأيه، شرح لي كلّ شيء يحتاج إلى شرحه. كان يحاول إعطائي نصيحة صريحة ونهائية. تخيّل أنّني سأتخلّى عن كل شيء. لكني رفضت أن أصدّق أنّ هذه هي نهاية رغبتي في الحصول على شهادة جامعية، مع أنه أصبح يبدو لي الآن أنّني يجب أن أكون مبتكراً. ففي كاكوما كان بإمكاننا أن نخترع اسماً جديداً لأنفسنا، قصّة جديدة لأي غرض كان، عندما تستدعي الضغوط والالتزامات ذلك. - عليك أن تبتكر، قال غوب في مرات كثيرة، وهو يعني أن هناك قواعد وأنظمة يستحيل ليّها في كاكوما، خاصة عندما يكون البديل هو الحرمان.

توجد رسالة أخرى مسجلة في هاتفي من دانيال بول الذي أعرفه منذ كاكوما. كان في فرقة ناباتا المسرحية، ومع أنه لم يقل ذلك بصراحة، فقد كنت أعرف أنّه بحاجة إلى نقود مرة أخرى. «أنت تعرف لماذا أتصل بك»، قال وزفر بطريقة مسرحية.

عادة لا أفكّر بالاتصال به مرة أخرى، لكن شيئاً خطر ببالي، طريقة قد أحلّ بها مشكلتي مع دانيال بشكل نهائي. فاتصلت به.

«ألو؟» إنه هو. إنه مستيقظ. الساعة ٣:١٣ صباحاً. أين هو. دردشنا لبضع دقائق حول أشياء عامة، حول زواجه الجديد وطفلته الجديدة التي ولدت منذ ثلاثة أشهر. واسمها هيلاري.

دانيال ليس رجلاً لبقاً جداً، ويحاول أن يصل إلى الغرض من اتصاله بطريقة فجة.

«إذن...» قال. ثمّ صمت. يفترض أن أفهم من ذلك بأنّه بحاجة إلى مساعدتي، ويتوقع أن أسأله الآن ما هو أقرب فرع لويسترن يونيون إلى بيته. قرّرت أن أجعله يوضح لي حالته بوضوح أكثر.

«ما هي المشكلة؟» سألته.

«أوه أتشاك، كما تعرف، عندي طفلة جديدة في البيت».

ذكّرته بأنّنا كنّا نتكلّم عنها منذ لحظات. «نعم، وكانت مريضة الأسبوع الماضي، ثم قمت بعمل أحمق، أخجل كثيراً من نفسي، لكنّه تمّ. لذلك...»

ومرة أخرى كان من المفترض أن أستنتج بقية القصة ثم أرسل له النقود. لكنّي لن أسهّل عليه الأمر، فقررت أن أمثّل عليه قليلاً.

«ما الذي جرى؟ ماذا حدث؟ هل طفلتك لا تزال مريضة؟»

أعرف أنّ طفلته ليست مريضة، لكني فوجئت بأنه أهمل هذا الجزء من مناورته.

«لا، الأمر لا يتعلق بابنتي. إنها على ما يرام الآن، وإنما له علاقة بشيء غبي قمت به في عطلة نهاية الأسبوع. كان ذلك منذ أسبوعين. إنك تعرف عن أي شيء أتحدّث».

كان من الغريب دائما كيف أنه يفضّل ألاّ يلفظ كلمة قمار، كما لو أنه لا يريد أن يلوّث حديثنا بهذه الكلمة. لكنّي أدفعه خطوة إلى الأمام فيشرح لي أخيراً الحالة التي أعرفها منذ أن سمعت صوته لأول مرة على جهاز تسجيل مكالماتي. إذ يترك دانيال زوجته وطفلته أياماً طويلة ويقطع مسافة خمسة وأربعين دقيقة إلى المنتجع الهندي حيث يوجد الكازينو الذي يفضّله، والذي خسر فيه ١١٤٠٠دولار في الشهور الستّة الماضية. لقد حاولنا، جميع من نعرفه، اتباع أساليب مختلفة لمساعدته، لكنه لم يفعل شيئاً. ولفترة من الزمن، ارتكب عدد منّا نفس الخطأ وأعطيناه نقوداً. فقد أعطيته ٢٠٠ دولار، كلّ ما استطعت أن أجمعه، فقط لأنه قال لي إنه لا توجد لديه تغطية تأمين من أجل طفلته فاضطر إلى تسديد نفقات عملية الولادة من جيبه، فأرسل له آنذاك الأمريكيون في كنيسته، والسودانيون من أنحاء البلد نقوداً، ولم نعرف

إلاّ مؤخراً بأن كلّ سنت أعطيناه له من المبلغ ٥٣٠٠ دولار، أو قرابة ذلك، الذي أرسلناه له نحن الثمانية والعشرون شخصاً، قد خسرها كلها في الكازينو. ومنذ ذلك الحين، ظل يختبر بحذر من يستطيع منّا أن يعطيه نقوداً. لكن أسلوبه في هذا الصباح اتخذ منحى جديداً.

«هذه آخر مرة أفعل ذلك يا دومينيك. لقد تحررت أخيراً من هذه العادة». لكنه لم يذكر كلمة قمار أو بلاك جاك. استمعت إليه لمدة عشر دقائق ورفض خلالها أن ينطق هذه الكلمة.

«إذا لم أستطع أن أسدد هذا المبلغ»، قال، ثمّ ابتعد عن الموضوع للحظة، «ربما يتعين عليّ أن... لكي أنهيه. إنهِ الأمر. اللعنة. كلّ شيء».

للحظة لم أفهم ماذا يقول. ينهي القمار؟ لكني فهمت لاحقاً. لكنّي أعرف أن هذا التهديد فارغ. قد يكون دانيال الشخص الأخير الذي أعرفه والذي يمكن أن ينهي حياته. فهو شخص متغطرس جداً وصغير جداً. بقينا مع تهديده لبضع لحظات، ثم قرّرت أن الوقت حان لألعب الورقة التي بيدي.

«دانيال، كنت أتمنّى أن أستطيع أن أساعدك في أوقاتك العصيبة، لكنني تعرضت لهجوم ليلة البارحة».

وهكذا حكيت له القصة بأكملها، المحنة منذ بدايتها. ومع أنني أعرف بأنه رجل أناني، فقد فوجئت بأنه أبدى قليلاً من الاهتمام. وأبدى أصواتاً مقتضبة للدلالة على أنه يسمع ما أقوله، لكنّه لم يسأل عن أحوالي، أو أين أنا الآن، ولماذا أنا مستيقظ في الساعة ٥:٢٦ صباحاً. لكن كان من الواضح أنه يعرف أنّه لا يستطيع أن يستمر في طلب نقود مني. كان يريد فقط أن ينهي المكالمة، لأنه تبين له أنه يضيّع وقته معي، وعليه أن يفكّر بالشخص الذي سيتصل به بعدي.

لقد ألغانا الكثيرون لأنهم اعتبروا أننا تجربة فاشلة. فقد كنّا الأفريقيين النموذجيين، وقد ظل هذا الوصف يلازمنا لفترة طويلة. وقد أثنوا على اجتهادنا وحسن سلوكنا، والأكثر من كلّ ذلك، على تمسكنا بإيماننا. فقد أحبتنا الكنائس، وأحبّنا الأشخاص الذين يموّلونها، لكن ذلك الحب وتلك الحماسة فترت الآن. لقد استنزفنا الكثير من الذين استضافونا وأكرموا وفادتنا. فنحن شباب، والشباب عرضة لأن يخطئوا. فمن بين الأربعة آلاف شاب هناك من راود المومسات، وهناك من أضاع أسابيع وشهوراً في تعاطي المخدّرات، وهناك الكثيرون الذين أضاعوا أنفسهم في شرب الخمرة، وهناك العشرات الذين أصبحوا مقامرين من دون أن تكون لديهم أدنى خبرة.

لكن القصّة التي كسرت ظهر الجميع والتي ذاع صيتها على نطاق واسع، وللأسف فهي قصّة صحيحة: فمنذ فترة قصيرة، خرج ثلاثة رجال سودانيين في أتلانتا، أعرفهم كلّهم هنا وفي كاكوما، ذات ليلة ليشربوا الخمرة، وأمضوا ساعات في حانات لا اسم لها. وعندما خرجوا إلى الشارع، كانوا مستيقظين وسكرانين بينما كانت المدينة تغطّ في النوم. وبدأ شابان منهم يتجادلان حول مبلغ ١٠دولارات كان أحدهما قد أعارها للآخر الذي لم يسددها له. وسرعان ما نشب شجار بين الاثنين، شجار أخرق وكان يبدو أنه غير مؤذ. وحاول الشاب الثالث أن يتدخل لمصالحتهما، لكن الشبان الثلاثة كانوا سكارى، وحاول أحدهم أن يركل الشاب الذي أعاره النقود على صدره، ففقد توازنه وسقط على رأسه، الأمر وهكذا انتهى ذلك الشجار في تلك الليلة. وساعد الشاب الثالث في مرافقة الشاب الذي ركل وسقط على الأرض والذي تورم رأسه إلى بيته. وفي منتصف اليوم التالي، طلب الصديق سيارة إسعاف، لكن كان الوقت قد تأخر آنذاك. فقد دخل الشاب الذي ركل ووقع في غيبوبة، ومات بعد يومين.

هل تحدث أشياء كهذه للأمريكيين؟ رجل يحاول أن يركل رجلاً آخر ثم يموت؟ هل هناك شيء أكثر تفاهة من هذا؟ هل يجب أن يكون المبلغ أكثر من ١٠ دولارات؟ وجدت نفسي ألعن الشاب الثالث، الصديق، لأنه لم يأخذ صديقه إلى المستشفى في الحال، ولأنه قال للجميع بأنّ الخلاف بينهما قد انتهى. وأصبح أي شخص يقول الآن إن السودانيين أناس يمكن أن يقتل أحدهم الآخر من أجل ١٠ دولارات.

أُرسلُ نقوداً إلى الكثير من الأشخاص، لأن جميع من في كاكوما يعرفون أنه يوجد عندي عمل هنا، ويظنون أنني أصبحت شخصاً ناجحاً في أمريكا. لذلك، فإني أتلقّى مكالمات من بعض الأصدقاء في المخيّم، وفي نيروبي، والقاهرة، والخرطوم، وكامبالا. أرسل ما يمكنني أن أوفرّه، مع أن معظم نقودي تذهب إلى إخوتي الأصغر وإخوتي غير الأشقاء، ثلاثة منهم في المدرسة في نيروبي. كانوا صغاراً جداً عندما غادرت مايال باي لا أستطيع أن أتذكّر أشياء كثيرة عنهم منذ ذلك الحين. أما الآن فقد كبروا وأصبحت لديهم خطط للمستقبل. فقد تخرّج صموئيل، الأكبر سناً، والأقصر قامة، من المدرسة الثانوية، وتقدم الآن بطلبات ليدرس الأعمال التجارية في إحدى جامعات كينيا. أما بيتر فإنه سيتخرّج من مدرسة إعدادية تحت إدارة بريطانية في نيروبي، وساعد فيل في تسديد رسوم دراسته. ويبدو أن بيتر هو الأكثر شبهاً لي. فهو مجدّ في دراسته، وهو شاب مثالي، ويلعب كرة السلة ويحمل الحزام الأسود في الكاراتيه. وهو هادئ ويحترمه جميع أقرانه وأساتذته. وبما أنه أكثر أخ أثق به من بين إخوتي، فإني أرسل له النقود فيعطيها لصموئيل

وفيليب الذي يبلغ السادسة عشرة من العمر، ويريد أن يصبح طبيباً. وأنا سعيد وفخور لأنني أرسل لهم نقوداً، أحياناً ٣٠٠ دولار في الشهر، لكني أعرف أن هذا المبلغ لا يكفي. وهناك آخرون كثيرون لا أستطيع أن أساعدهم كما كنت أرغب. إذ تعيش أخت أبي في الخرطوم مع ثلاثة أطفال، ولا توجد لديها سبل كثيرة تمكّنها من الاعتناء بنفسها وبأولادها. فقد قُتل زوجها في الحرب، ومات إخوته أيضاً. وأرسل لها مبلغ ٥٠ دولاراً في الشهر، مع أنني كنت أتمنّى أن يكون بإمكاني أن أرسل لها مبلغاً أكبر.

أما الرسالة الأخيرة فهي من موسى. موسى من مايال باي، موسى الذي أُخذ إلى الشمال كعبد، موسى الذي وسم خلف أذنه ثم هرب وتدرّب لاحقاً ليصبح جندياً في جيش المتمردين. موسى الذي التحق بمدرسة خاصّة في كينيا وبمعهد في كولومبيا البريطانية ويعيش حالياً في سياتل. لم أره منذ كاكوما وأشعر بالامتنان عندما أسمع صوته. له صوت حازم ، ذكي دائماً، يمضي قدماً مفعماً بالأمل. «ذهب رجلي بعيداً!» يقولها بالإنكليزية. كان يحبّ دائماً اسم التحبب هذا لي. ثم يتحوّل إلى لغة الدينكا. «اتصل لينو وأخبرني بما حدث. قبل كل شيء، لا تغضب من لينو. قال إنّني الشخص الوحيد الذي يتصل به، ولن أخبر أحداً آخر. أعدك. وقال أيضاً إنّك على ما يرام، وأنّ إصاباتك ليست سيئة. لذلك أرسل لك أطيب تمنياتي بالشفاء العاجل».

أتساءل كلّ مرّة إلى أين نحن ذاهبون ومن نحن. وعندما أتحدّث مع موسى يغمرني شعور بالطمأنينة. كم أتمنى أن تكون الآن معي يا موسى! فأنت قوي بما يكفي لتنقلنا من هذا الصباح المروّع.

«الآن، أعرف أن هذا يبدو وقتاً سيئاً لإثارة هذا الموضوع...» قال، فحبست أنفاسي،»لكني أنظّم مسيرة...» زفرت. يقول إنّه ينظّم مسيرة لتوجيه الانتباه إلى محنة... الدارفوريين. إنه يزمع أن يسافر من بيته في سياتل إلى توسون، بأريزونا، مشياً على الأقدام.

«أتشاك، أريد أن أفعل ذلك، وأعرف أنّه سيكون لها تأثير هام. فكّر بالأمر! ماذا لو سرنا كلنّا مرة أخرى؟ ماذا لو اجتمعنا كلّنا معاً وسرنا ثانية، هذه المرة على طرق معبدة وأمام أنظار العالم كله؟ ألن يلاحظ الناس؟ سيكون بمقدورنا حقاً أن نجعل الناس يفكّرون بدارفور، وماذا يعني أن تكون مشرداً، مطارداً، وأن تمشي نحو مستقبل مجهول، صحيح؟ اتّصل بي مرة أخرى عندما تستطيع. أريدك أن تشارك في هذه المسيرة».

ثم سادت فترة صمت، بدا لي أن موسى وضع الهاتف، ثمّ التقطه ثانية بارتباك سريع.

«وأنا آسف كثيراً بشأن تابيثا. أتشاك أنا آسف جداً جداً. أعرف أنك ستجد فتاة أخرى. أنت رجل مرغوب فيه جداً». ثم توقّف ليصحح نفسه، «أعني بالنسبة للنساء، ليس لي. فأنا لا أجدك شخصاً مشتهى بهذه الطريقة، لقد انقضى ذلك الزمن منذ أمد بعيد».

ضحك بصوت خافت وأغلق الهاتف.

(٢٥)

«ها هو!»

دفعتُ باب «نادي القرن» ورأيت أمامي بن، مهندس الصيانة في النادي. كان رجلاً نحيفاً، له يدان صغيرتان وعينان كبيرتان متعاطفتان، وقبة جبين واسعة.

«مرحباً، بن»، قلت.

«يا إلهي، إنك تبدو في حالة سيئة، يا بني». وضع الأوراق على المنضدة وجاء إليّ، ووضع يديه على وجهي. «أين كنت؟ يبدو أنك لم تنم منذ أسابيع. وهذا!» ولمس الجرح في جبيني، «وشفتك!»

أمسك وجهي بيديه وراح يفحص كلّ مسام فيه. «هل تشاجرت مع أحد؟»

تنهّدت، وافترض أن هذه تعني نعم. أنزل يديه من وجهي وظهرت على وجهه قسمات تشي بالاستياء.

«لماذا أنتم السودانيون تتشاجرون دائماً؟»

لمست كتفه ومشيت. لم أشعر بالرغبة في توضيح كلّ ما حدث. كنت بحاجة لأن أغتسل.

«كلّمني بعد أن تستحم، أوكي؟» سمعته يصيح.

في غرفة تغيير الملابس أصبحت وحدي. تناولت منشفة بيضاء نظيفة من فوق كومة المناشف بجانب الباب وفتحت الخزانة المخصصة لي. كان خلع حذائي أشبه بمعجزة. قدماي تتنفّسان، أنا أتنفّس. أحسست في الحال بأنني أصبحت أحسن حالاً. وضعت حذائي في الخزانة وخلعت ثيابي ببطء. أحسست بألم في كلّ جسدي. يبدو أن جسدي قد شاخ عقوداً بين ليلة وضحاها.

كان الماء صدمة على جسدي مهما كانت درجة حرارته. فعندما يصبح الماء أكثر دفئاً، تزداد أطرافي وعظامي رخاوة. وضعت رأسي تحت الرذاذ ورحت

أراقب الدم يسيل فوق جسمي إلى البلاط. لم يكن كثيراً، مجرد خيط وردي رقيق يندفع نحو البالوعة ثم يغيب فيها.

في المرآة لم أبدو أنني مختلف كثيراً. شفتي السفلى مجروحة، وثمة كشط في شكل منجل يمتد من خدي إلى صدغي. بقعة حمراء صغيرة تحتلّ زاوية عيني اليسرى، نقطة صغيرة واحدة في وسط البياض.

ارتديت قميصاً قطنياً لم يكن نظيفاً تماماً، وبنطلون رياضة وحذاء رياضياً أحتفظ بها في النادي. ما إن يفتح مخزن النادي، سأشتري قميص تنس آخر وألبسه اليوم. وبما أنني لم أنم، فقد شكّل تغيير ثيابي نقطة فاصلة بين ذلك اليوم، تلك الأحداث، وبين هذا اليوم. أخذت نفساً عميقاً من الغرفة، وشعرت بالإرهاق. تهاويت على الكرسي ذي الوسائد الموضوع في الزاوية. ارتخت رقبتي، وارتطمت ذقني بصدري. للحظة، أحسست بأنني مهزوم. أغمضت عيني ولم أعد أرى شيئاً - لا ألوان، لا شيء. لا أستطيع أن أنهض ثانية. يبدو أن عمودي الفقري قد تخلّى عني. أصبحت من اللا فقريات، وثمة راحة في ذلك. جلست وأنا أمضغ هذه الفكرة، أتبع درباً يتيح لي إمكانية أن أظل مسترخياً فوق هذا الكرسي دائماً. يبدو جذّاباً للحظة، ثم يبدو أهون من الذهاب إلى العمل.

أغلقت خزانتي وتمالكت نفسي بسرعة. عليّ أن أكون في مكتب الاستقبال بعد دقيقة، لأن ورديتي تبدأ في الساعة الخامسة والنصف.

عندما وصلت إلى مكتب الاستقبال، اعتراني شعور بالراحة لأنني لم أر بن الذي يظن أنه يستطيع أن يساعدني بنصائحه وآرائه أكثر مما يجري في الواقع. فلو عرف ما حدث لي البارحة، فإنه سيمضي ساعات في تقديم اقتراحات حول ما الذي يجب أن أفعله، وبمن أتصل، وأين أقدّم شكاوى، وكيف أرفع دعوى قضائية. جلست في المكتب وحدي وفتحت جهاز الكمبيوتر. تكمن وظيفتي الرئيسية في تسجيل أسماء الأعضاء الذين يصلون إلى النادي وتوزيع كتيبات عن النادي على الأعضاء الذين يحتمل أن يصبحوا أعضاء في النادي. وأنا أداوم أربع ساعات أيام الإثنين، ولا يكون النادي مزدحماً عادة في هذه الساعة التي يأتي خلالها أعضاء نظاميون أعرف وجوههم إن لم يكن أسماؤهم دائماً.

أولاً، مات دونيلي، الذي يأتي غالباً في الوقت الذي أصل فيه. وهو يتدرب على جهاز المشي من الساعة الخامسة والنصف حتى السادسة وخمس دقائق، ثم يمارس مئتي مرة تمرين البطن، ثم يأخذ دوشاً ويغادر. ها هو يأتي

الآن، متأخراً بضع دقائق، له بنية متينة، وفم رقيق أرجواني. عندما بدأت العمل في النادي، في صباح أحد الأيام كلمني لفترة قصيرة، وسألني عن تاريخ «أطفال السودان الضائعين» وعن حياتي في أتلانتا. إنه رجل مثقف، واسع الاطلاع، وأبدى اهتماماً صادقاً بالسودان، ويعرف أسماء البشير، والترابي، وغارانغ. وقال إنه محام، وطلب مني أن أتصل به إذا احتجت إلى أيّ مساعدة أو مشورة قانونية. لكنّي لم أجد سبباً يجعلني أتصل به، ومنذ ذلك الحين لم نعد نتبادل إلاّ تحيات عادية.

«فالانتينو»، كان يقول، «ما هي الكلمة الجيدة؟ «

في المرات القليلة الأولى التي قال ذلك، ظننت أنّه يبحث فعلاً عن كلمة معينة، كلمة تلائم ذلك اليوم بالتحديد. «مبارك، «قلت عندما سأل أول مرة. ثم شرح لي هذا التعبير، لكنّي ظللت لا أعرف كيف أجيب.

اليوم، قلت له مرحباً، وأعطاني بطاقة عضويته. مررّتها على الجهاز فظهرت صورته على شاشة الكمبيوتر أمامي بطول اثنتي عشرة بوصة، وذات لون مبهرج.

«يجب أن تأخذ لي صورة جديدة»، قال، «يبدو أنهم أخذوا لي صورة سيئة، أليس كذلك؟»

ابتسمتُ ثم ذهب إلى غرفة تغيير الملابس. لكن صورته ظلت على الشاشة. من مزايا نظام الكمبيوتر هذا هو أن صورة العضو تظل على الشاشة إلى أن يصل العضو التالي. قد تكون هناك طريقة لإزالتها من الشاشة لكنّي لا أعرفها.

نظرت إلى مات دونيلي للحظة.

مات دونيلي، في البداية كانت إشاعة. ففي رياح كاكوما بدأ الناس يتحدّثون عن أمريكا. ففي صباح أحد الأيام من شهر نيسان (أبريل) ١٩٩٩، كان الناس يتحدّثون عن أشياء عديدة مختلفة - عن كرة القدم، الجنس، عامل إغاثة معين طُرد لأنه لمس صبياً صومالياً - وعند الغروب لم يعد أحد يتكلّم عن شيء سوى عن أمريكا. من سيذهب؟ كيف يقرّرون ذلك؟ كم عدد الذين سيذهبون؟

بدأ أحد الصبية من الذين يُطلق عليهم اسم دومينيك الحديث عن ذلك. فقد كان موجوداً في مكتب مفوضية شؤون اللاجئين عندما سمع أحد الموظفين يتحدّث على الهاتف. قال الشخص شيئاً بما معناه «هذا خبر رائع. إننا سعداء

جداً، وسيكون الصبية في غاية السعادة، أنا واثق من ذلك. صحيح، الأطفال الضائعون. عندما تعرف كم عدد الأطفال الذين ستأخذهم، أرجو أن تعلمني».

مع مرور الأيام، تكرّرت تلك الكلمات مئات المرات، ربما آلاف المرات، بين القاصرين غير المصحوبين في كاكوما. فلم يعد أحد يستطيع أن يركّز على أيّ شيء، ولم يعد أحد يستطيع أن يلعب كرة السلة، وأصبحت المدرسة كارثة. وفي كل مكان، كنت ترى مجموعات من الصبية، عشرين أو خمسين صبياً يتحلقون حول أي شخص لديه معلومات جديدة. وفي أحد الأيام، انتشر خبر بأنهم سيأخذون جميع الأطفال الضائعين إلى أمريكا. وفي اليوم التالي، أصبحت أمريكا وكندا هما اللتان ستأخذنا، ثم ذُكرت أستراليا. لم يكن أحد يعرف الكثير عن أستراليا، لكنّنا تخيّلنا أنّ هذه البلدان الثلاثة متلاصقة معاً، أو ربما كانت ثلاثة أقاليم في نفس البلد.

في البداية، قال أتشور أتشور إنه يعرف في المسائل المتعلقة بإعادة التوطين، لكنه لم يكن يعرف.

- لن يأخذوا إلاّ المتفوقين من كلّ صفّ في المدرسة، قال أتشور أتشور. - أظن أنّني سأذهب، لكن معظمكم سيبقى هنا.

لكن معظم الصبية عارضوا هذا الرأي، وسرعان ما ناقضته الوقائع أيضاً. فقد قررت الولايات المتحدة أن تعيد توطين مئات، بل ربما آلاف الشباب من كاكوما. وأصبح ذلك شغلنا الشاغل. فقد كنا نعرف إنه تجري إعادة توطين اللاجئين من بعض المخيّمات مثل مخيّمنا، لكن الشروط صارمة ومحددة بأشخاص معينين كالمنشقّين السياسيين المعروفين، وضحايا الاغتصاب، وأشخاص تتعرض سلامتهم للخطر. لكن فكرة تغيير ذلك، ووضع خطة جديدة قد تجعل معظمنا أو كلّنا، نحن القاصرين غير المصحوبين، نعبر المحيط إلى أمريكا، كانت أغرب فكرة سمعتها في حياتي.

استمرت المناقشات أياماً لمعرفة السبب الذي يجعل الولايات المتّحدة ترغب في أن تأخذنا إليها، مع أن هذا البلد ليس ملتزماً بتوطين أربعة آلاف شابّ يعيشون في أحد المخيّمات في كينيا. وسيكون كرماً منهم لأنهم لن يحصلوا لقاء ذلك على أي منفعة مادية، فنحن لسنا علماء أو مهندسين، ولا توجد لدينا خبرة أو درجة تعليمية ذات قيمة. ولم نكن من بلد، مثل كوبا أو حتى الصين، ستُحرج من انشقاقنا، وإنما نحن لسنا إلا شباناً مفلسين نبذل كل ما بوسعنا لندرس في أي معهد لنصبح رجالاً أفضل. لا أكثر من ذلك. وقد فاقمت هذه الاعتبارات من غرابة الموضوع كلّه.

لم نكن نعرف أشياء كثيرة عن أمريكا، لكنّنا كنّا نعرف أنها بلد يسوده السلام وأننا سنعيش فيه بأمان. وسيصبح لكلّ واحد منّا بيت وهاتف، وسيصبح بإمكاننا أن نكمل تعليمنا دون أن نقلق على الطعام أو نخشى من أيّ تهديد آخر. وكانت الصورة التي تكوّنت لدينا عن أمريكا أخذناها من الأفلام التي شاهدناها: بنايات عالية، ألوان براقة، الكثير من الزجاج، حوادث تحطم سيارات، وأسلحة لا يستخدمها إلاّ المجرمون ورجال الشرطة، وشواطئ، ومحيطات، وقوارب.

عندما أصبحت هذه الاحتمالية حقيقية في عقولنا، توقعت أن يأخذوني في أي وقت. فلم يُقدم لنا أحد أي برنامج، فأصبح من المحتمل أن أكون في صباح أي يوم جالساً في المدرسة، وفي اللحظة التالية أصبح جالساً في طائرة. وتحدّثنا أنا وأتشور أتشور عن ضرورة أن نكون مستعدين في أيّ لحظة، لأنه قد تأتي حافلة في أي يوم وتقلّنا مباشرة إلى المطار، ثم إلى أمريكا. واتفقنا على أنّ أحدنا لن ينسى الآخر.

- إذا كنت في المدرسة عندما تأتي الحافلة، فإني سأجري إليك لأخبرك، قلت له.

- وأنت ستفعل نفس الشيء لي؟ قال أتشور أتشور.

- طبعاً. وإذا كنت في العمل، فهل ستبحث عني؟

- سأفعل، سأفعل. لن أغادر من دونك.

- جيد. جيد. وأنا لن أغادر من دونك أيضاً، قلت له.

في الصفّ، حاولت أن أركّز على دروسي لكني وجدت ذلك مستحيلاً. فلم أتوقف عن مراقبة الطريق، بانتظار قدوم الحافلة. كنت أثق بأتشور أتشور لكني كنت أخشى أن تفوتنا الرحلة. فقد خطر ببالنا كلانا أنه قد تكون هناك حافلة واحدة فقط، ومن سيتمكن من الصعود إليها أولاً سيذهب إلى أمريكا - لا أحد آخر. وهذا ما عكّر صفو حياتنا اليومية وجعلها صعبة، فلم نتوقف عن المراقبة كلّ ساعة وكلّ يوم. ولعدة أسابيع، لم نكن نرتاح إلاّ في الليل، عندما نكون متأكّدين من أن الحافلة لا يمكنها أن تأتي أو أنها لن تأتي. فقد كنّا نظن أن الطائرات لا تستطيع أن تطير في الليل، ولهذا السبب فإن الحافلة لن تأتي في الليل. وتوصلنا إلى نتيجة أيضاً بأن الحافلة لا تأتي في عطلة نهاية أسبوع، فاسترحنا في تلك الأيام أيضاً. كان كلّ ذلك غريباً جداً، طبعاً، لأن أحداً لم يخبرنا شيئاً عن حافلة، أو موعد وصولها. فوضعنا نظرياتنا وخططنا

التي لم تكن تستند إلى أي حقائق. لكن في تلك الأيام، كان لكلّ واحد منّا نظرياته الخاصة به، وكانت كلّها منطقية كالأخرى، لأنه لم يعد أي شيء يبدو مستحيلاً.

* * *

كان الأمر مفاجئاً جداً بالنسبة لي ولأتشور أتشور ولنا جميعاً، عندما لم تأت الحافلة بعد أسبوعين. تساءلنا إن كانت هناك عقبات، وإذا كانت هناك عقبات فما هي. ومن بين العوامل المجهولة، علمنا أن الوجهاء السودانيين في كاكوما، أو بعضهم، كانوا يمانعون من ذهاب الصبية إلى الولايات المتّحدة.

- ستنسون ثقافتكم، قالوا.

- ستصابون بأمراض، ستصابون بالإيدز، حذّرونا.

- من سيقود السودان عندما تنتهي هذه الحرب؟ تساءلوا.

وعندما تأكد للصبية القاصرين غير المصحوبين أن الوجهاء في المخيّم هم الذين يعيقون عملية إعادة التوطين، فقد دعوا إلى عقد اجتماع مشترك بين قيادتنا وقيادتهم، حضره المئات في الكنيسة التي عقد فيها الاجتماع والتي لم تكن تتسع إلاّ لعدد قليل من الأشخاص. وأحاط حشد بعمق اثني عشر شاباً مبنى الكنيسة الصغير المشيّد من الفولاذ المتموّج. وعندما وصلنا أنا وأتشور أتشور -كنّا من بين الممثلين الشباب - لم نجد مكاناً في الداخل. فرحنا نستمع إلى ما كان يدور في الداخل من الأحاديث التي كان ينقلها لها الأشخاص الجالسين في الخارج. وكان يتناهى إلينا من داخل الكنيسة أصوات صراخ وجدال، وأعرب الوجهاء عن المخاوف المعروفة: بأننا سننسى عاداتنا وتاريخنا، والشكوك التي تكتنف مثل هذه الهجرات، وماذا تعني خسارة أربعة آلاف شابّ.

- كيف يمكن أن يتعافى بلدنا عندما نفقد الشباب؟ قالوا.

- أنتم أمل البلد، أيها الفتيان. ماذا سيحصل لبلدنا عندما يحلّ السلام؟ لقد جازفنا بحياتنا حتى تتعلّموا في إثيوبيا، لقد أحضرناكم إلى كاكوما. أصبحتم الآن تتكلمون عدة لغات، وأصبح بإمكانكم أن تقرأوا وتكتبوا، وتعلمتم مهناً

أخرى أيضاً. أنتم من بين أفضل المتعلّمين في شعبنا. كيف يمكنكم أن تغادروا وقد اقتربنا كثيراً من تحقيق النصر والسلام؟

- لكن لا يوجد سلام ولن يكون هناك سلام! قال أحد الشبان.

- لا يحقّ لكم أن تمنعونا من السفر، قال آخر.

وما إلى ذلك. واستمر الاجتماع حتى وقت متأخر من الليل، وغادرنا بعد أن وقفنا طوال ثماني ساعات، نستمع إلى الكلمات والخطابات التي كانت تدور وتلف في شتى الاتجاهات. ولم يُحلّ أي شيء في تلك الليلة، لكنّ اتضح للوجهاء في المخيّم بأنّهم لا يستطيعون أن يسيطروا على الأربعة آلاف شاب. فقد كان عددنا كبيراً وكنّا جائعين جداً. وقد أصبحنا الآن جيشاً صغيراً، فأصبحنا طوال القامة ننعم بالصحة، وكنّا مصمّمين على مغادرة المخيّم سواء بمباركتهم أم بدونها.

كانت الخطوة الأولى لمغادرة كاكوما تكمن في كتابة سيرتنا الذاتية. فقد أرادت مفوضية شؤون اللاجئين والولايات المتّحدة معرفة من أين جئنا، وإلى أي مدى عانينا. وكان علينا أن نكتب كل ذلك باللغة الإنكليزية، أو إذا لم يكن بوسعنا أن نكتبها بشكل جيد بالإنكليزية، فبإمكاننا أن نطلب من شخص آخر أن يكتبها لنا. وطُلب منا أن نكتب عن الحرب الأهلية، وعن فقداننا لأسرنا، وعن حياتنا في المخيّمات. لماذا تريد أن تغادر كاكوما؟ سألونا. هل تخشى أن تعود إلى السودان حتى لو عمّ السلام؟ كنا نعرف أنّ الذين يشعرون بأنهم مضطهدون في كاكوما أو في السودان سيُمنحون اعتباراً خاصاً. ربّما تكون عائلتك في السودان قد فعلت شيئاً لعائلة أخرى وتخشى أن تنتقم منك؟ وربما هربت من جيش التحرير الشعبي السوداني وتخشى العقاب منه؟ قد تكون أشياء عديدة أخرى. وكنا نعرف أننا إذا طبقنا أيّ استراتيجية من هذه، فإننا يجب أن نحكي قصصنا جيداً، وأن نتذكّر كلّ ما رأيناه وفعلناه، وأن أي حرمان تعرضنا له يجب ذكره وعدم إغفاله.

كتبتُ قصّتي في دفتر صغير، صفحاته الصغيرة مسطّرة بخطوط زرقاء. كانت تلك أول مرة أحكي فيها قصّتي، وكان يصعب عليّ أن أعرف ما هي الأشياء الهامة وما هي الأشياء غير الهامة. كانت مسوّدتي الأولى عبارة عن صفحة واحدة فقط، وعندما أريتها إلى أتشور أتشور، ضحك بصوت عال. فقد كتب خمس صفحات ولم يكن قد وصل إلى إثيوبيا بعد. وماذا عن جيلو؟ سألني. وماذا عن غولكور؟ وماذا عن ذلك الوقت عندما ركضنا إلى الطائرات،

ظنّاً منا أنها ستلقي طعاماً، فأسقطت فوقنا قنابل عوضاً عن ذلك وقتلت ثمانية صبية؟ ماذا عن كلّ ذلك؟

لقد نسيت ذلك، وأشياء كثيرة أخرى. كيف يمكنني أن أدوّن كلّ شيء على الورق؟ كان يبدو ذلك أمراً مستحيلاً. مهما كان الأمر، فإن معظم الحياة ستُحذف من هذه القصّة، هذا الجزء من نسخة الحياة الذي كنت أعرفه. لكنّي حاولت في جميع الأحوال. مزّقت نسختي الأولى وبدأت نسخة ثانية. عملت عليها عدة أسابيع أخرى، أفكّر بكلّ شيء رأيته، كلّ درب وشجرة وعينين مصفّرتين، كلّ شخص دفنته.

عندما انتهيت، كان طول ما كتبته تسع صفحات. عندما سلّمتها، أخذت الأمم المتحدة لي صورة جواز سفر لربطها بملفي. كانت تلك أول صورة لي أراها في حياتي. كنت قد تصورت في صور جماعية من قبل، رأسي غير واضح بين حشد من الصبية، أما هذه الصورة الجديدة، فكانت لي فقط، أحدّق فيها إلى الأمام مباشرة، كانت إلهاماً حقيقياً. حدّقت في هذه الصورة لساعات وحملت الملف لأيام، وأنا أتساءل هل حقاً هذه الصورة، هذه الكلمات، هي لي أم لا.

أرى الآن أن ذلك كان خطأً، لكني أحضرت الصورة إلى ماريا في أحد الأيام. فقد أرادت أن تراها. أردت الجميع أن يروها. أردت أن أتحدّث وأتحدّث من أصبحت الآن، الشابّ الذي التُقطت صورته سيسافر إلى الولايات المتحدة. وجدتها خارج بيتها تعلّق الغسيل.

- لم أرك تبتسم هكذا قط، قالت. أمسكت الصورة لفترة طويلة، فقد كانت هذه الصور نادرة في تلك الأيام. - هل يمكنني أن أحتفظ بها؟ سألتني.

قلت لها لا، لأنّها ضرورية للملف، وأساسية بالنسبة لطلبي. فأعادتها لي.

- هل تظن أنهم سيأخذوننا أيضاً؟ نحن الفتيات؟

لم أكن مستعداً لهذا السؤال. فلم أسمع أحداً يقول إنهم سيأخذون فتيات في هذه الجولة من إعادة التوطين. لم يبد لي أنه توجد إمكانية في ذلك.

- لا أعرف، قلت. ابتسمت ماريا ابتسامتها القاسية.

- لكني متأكّد من أن ذلك أمر ممكن، قلت، أكاد أصدّق كلماتي.

- كنت أمزح، قالت. - فأنا لا أريد أن أذهب في جميع الأحوال.

كانت كذابة سيئة، شفّافة دائماً.

صممت أن أعرف هل ينطبق السفر على الفتيات أيضاً، ثم عرفت أن ذلك ممكن، وأن عدداً من الفتيات، العشرات قد بدأن بتقديم طلباتهن. فركضت لأخبر ماريا، لكنّها لم تكن في البيت. قال جيرانها إنّها عند حنفية الماء. عندما وجدتها هناك، أخبرتها بما عرفته: بأنه يسمح للفتيات بأن يقدمن طلباتهن أيضاً، وأنّ عليهن إثبات أنه لا توجد لديهن عائلة وأنهن غير متزوجات. عندما أخبرتها بذلك، ظهر بريق في عينيها، للحظة، لكنه سرعان ما خبا.

- ربّما سأرى ماذا يمكنني أن أفعل، قالت.

- يمكنني أن آخذك إلى هناك غداً، قلت. - سنحصل على استمارة.

وافقت على أن تقابلني عند مجمّع الأمم المتّحدة في الصباح. لكني عندما وصلت في اليوم التالي لم تكن هناك.

- إنها عند حنفية الماء، قالت أختها.

وجدتها تصطف في الرتل مرة أخرى، جالسة ومعها صفيحتان.

- سأرى ما سيحدث معكم كلّكم أولاً، قالت. - سأذهب في المرة القادمة.

- أظن أنّك يجب أن تقدمي طلبك الآن. قد يستغرق ذلك فترة من الوقت.

- ربّما في الأسبوع القادم إذن.

بدا لي أنها لم تكن متحمسة لتبدأ العملية. ربما كان ذلك بسبب طبيعة اليوم الذي كان شديدة الحرارة وعاصفاً، فلم يغادر الكثيرون بيوتهم. لم تنظر ماريا إليّ في ذلك اليوم، ولم تفكّر بالهرب. لم أحترم موقفها في ذلك اليوم، فتركتها هناك، جالسة في وسط الغبار. وعندما تحرّك الرتل، التقطت ماريا صفيحتي الماء الفارغتين ودفعتهما بضعة أقدام إلى الأمام، وعادت وجلست.

- ماذا جرى لطلبك؟ سألني نورياكي.

- هل توجد أخبار؟

مرّت عدة شهور منذ موجة الحماسة الأولى للسفر. كنّا قد قدّمنا جميعاً قصصنا، ومنذ ذلك الحين، طُلب من عدد من الشبان الذهاب إلى مجمّع الأمم المتحدة لإجراء مقابلات، لكن لم يستدعني أحد. قلت لنورياكي لا توجد أخبار، وأنّني لم أسمع شيئاً منذ أن قدّمت أوراقي. فأومأ وابتسم.

- جيد، جيد، قال. - هذا جيد. هذا يعني أن الأمور تأخذ مسارها الصحيح.

كان نورياكي ساحراً في إقناعي بأكثر الأمور التي يستحيل تصديقها، ففي ذلك اليوم أقنعني بأنه على الرغم من أنني لم أسمع شيئاً من الأمم المتحدة، فإنهم سيضعون اسمي في جدول أول مجموعة ستُنقل إلى أمريكا. ويجب أن أبدأ بالتخطيط وفقاً لذلك، قال - وأنّني يجب أن أبدأ باختيار فريق كرة السلة الذي سأشجعه هناك، لأنه لن يكون هناك شكّ بأنهم سيطلبونني لألعب كلاعب محترف. ضحكت، لكني تساءلت هل حقاً يمكنني أن أكسب رزقي من اللعب بكرة السلة. فقد أستطيع أن ألعب في فريق الجامعة التي سألتحق بها؟ وكان جميع اللاعبين الجيدين في كاكوما يتصورون أنه سيتم اكتشافهم ويصبحون مشهورين ذات يوم مثل مانوت بول. في ذلك اليوم، سمحت لنفسي، أنا أيضاً، بلحظة من خداع الذات.

- يجب أن أخبرك الآن، قال نورياكي في ذلك اليوم، - سأغادر كاكوما أيضاً. بعد شهرين. أردت أن تعرف قبل الجميع.

قال لقد مرّ وقت طويل. يجب أن يعود إلى خطيبته. وقال بعد أن أذهب سيكون من المناسب تسليم مشروع واكاتشياي إلى الفريق القادم. بدا أن هذا هو الشيء الذي يجب عمله، قلت في نفسي. كان أحدنا سعيداً بالآخر، بأنّنا سننهي هذه المرحلة من حياتنا ونمضي معاً، ولو كان ذلك في جانب آخر من الأرض. تكلّمنا طوال ذلك اليوم حول كيف يمكننا أن نظل على تواصل، وكم ستكون أساليب حياتنا الجديدة الأكثر غنى سهلة. وقلنا إننا نستطيع أن نتحدّث بالهاتف أو نتبادل الإيميلات كلّ يوم، ونتبادل النكات والذكريات والصور. فتحنا علبتي عصير فانتا، وقرعناهما معاً، وشربناهما.

- ستحضر حفل زفافي! قال فجأة، كما لو أنّ إمكانية الفكرة قد خطرت له فجأة.

- نعم! قلت. ثمّ سألته، - كيف؟

- تمهل. ستحصل على صفة المهاجر الرسمية. سيكون بإمكانك أن تسافر حيثما تريد. بعد سنة من الآن، يا فالانتينو. حدّدنا موعداً. ستأتي إلى اليابان

وستكون هناك عندما آتزوّج واكانا.

- سأفعل! قلت، مصدقاً كل شيء. - سآتي بالتأكيد.

بعد أن شربنا عصير الفانتا، ناقشنا الفكرة حتى بعد الظهر، رفاهية وجودة كلّ شيء: الطائرات، المدن، السيارات، بدلات التوكسيدو، الكيك، الماس، الشمبانيا. وبدا أننا سنكون في اليوم الذي سنلتقي رجلين ناجحين، مرتاحين نملك كلّ شيء.

في تلك الأيام، عمّت المخيّم البهجة لعدة أسباب، منها إعلان الفاتيكان أول تطويب في التاريخ لشهيدة سودانية. جوزفين باخيتا، التي حبست نفسها، وماتت كأخت كانوسية في إيطاليا في أواخر أربعينات القرن العشرين، وأصبحت الآن قدّيسة. كان ذلك مصدر بهجة وفخر لنا جميعاً، لأنه لم يكن يخطر للكثيرين منّا أنه كان من الممكن تطويب قديسة سودانية، وأصبح اسمها يتردد في الكنيسة كلّ يوم، وأصبحت على لسان كلّ مسيحي كاثوليكي فخور من الدينكا في كاكوما. كانت فترة غير عادية بالنسبة لنا جميعاً، فترة أحسّ خلالها الدينكا للمرة الأولى منذ سنوات عديدة بأنهم أقوياء، وأحسّوا أن الله يريدهم والشعوب البعيدة. امرأة من جنوب السودان يمكن أن تكون قدّيسة، وأطفال السودان الضائعين يمكن أن يسافروا بالطائرة عبر المحيط ليمثّلوا السودان في أمريكا. إذا كان حدث واحد محتملاً، فلم لا الآخر. لم يكن هناك أي شيء مستبعد.

عندما غادرت أولى رحلات إعادة الاستيطان، عمّت الاحتفالات جميع أنحاء كاكوما، وذهبت مع أتشور أتشور إلى المطار لنشاهد الطائرات وهي تختفي في السماء. غمرتني البهجة لهؤلاء الشباب، معتقداً تماماً بأنّني سأنضم إليهم قريباً في أمريكا. ومع استمرار الرحلات، وأنا أسمع أخباراً مستمرة عن حسن حظ هذا الصبي أو ذاك، لم أعد أفرح لسعادتهم، وبدأت أتساءل عن النقاط التي جعلتني غير مؤهل للسفر. ربما غادر خمسمائة شابّ، ومع مرور الشهور عندما لم أتلق أي كلمة من الأمم المتحدة، لم أعد أشعر بالسعادة لأولئك الذين تم اختيارهم. وكانت تقام حفلات عندما يتلقى أحدهم رسالة قبول. وعندما تظهر أسماؤهم كانت العائلات تقيم الحفلات، ويعقد الشباب حلقات الرقص. وفي كلّ أسبوع كانت تعمّ بهجة غير محسوبة بالنسبة لهم ودمار بالنسبة لنا نحن الذين بقينا.

لن أغادر قريباً، حتى أنهم لم يطلبوا مني أن أجري مقابلة. لأن المقابلة هي الخطوة الأولى قبل أن يُعلن اسم أحد بفترة طويلة. كان يبدو أن هناك خطأ.

- أنا آسف جداً، قال آتشور آتشور ذات يوم.

كنت قد سمعت للتو أن اسم أتشور أتشور قد أُعلن في ذلك الصباح.

- متى ستغادر؟ سألته.

- بعد أسبوع.

كانت الأخبار سريعة هكذا دائماً. فما أن يُعلن عن اسم شخص، حتى يسافر ذلك الشخص، كما يبدو، في غضون أيام. كان علينا كلنا أن نكون مستعدّين.

هنأته، لكن فرحتي تجاهه اختلطت بالحيرة التي اعترتني. لقد فعلت كل شيء بطريقة صحيحة، قلت لنفسي. ومن خلال عملي، كنت أعرف بعض موظفي الأمم المتّحدة الذين يساعدون في عمليات إعادة الاستيطان.

بدا أن لا شيء يمكن أن يمنحني ميّزة عن الآخرين. فلم أكن جندياً، ولديّ سجلّ نموذجي في كاكوما، ولم أكن الشخص الوحيد الذي انتابته الحيرة بأن عدداً كبيراً من الصبية قد أُرسلوا قبلي إلى أمريكا. لم يفهم أحد ذلك، وكثرت النظريات. واعتقد معظمهم بأنه يوجد جندي معروف في جيش المتمردين يُدعى أتشاك دنغ وأن هناك خلط بين اسمينا. لم يتم التأكيد على هذا الأمر، لكن كانت لأتشور أتشور نظريته الخاصة.

- لعلهم لا يريدون أن يخسروك هنا.

هذا لم يسعدني.

- إنك شخص مهم في المخيّم، قال مازحاً.

لم أرد أن أكون شخصاً مهماً في المخيّم. وتساءلت هل يجب أن أقلل من مسؤولياتي لفترة من الوقت. هل يمكنني أن أتخلّى عن واجباتي، أن أبدو أقل كفاءة؟

- سأقول شيئاً لموظفي الأمم المتحدة عندما أراهم، قال.

كان جميع الصبية الذين يعيشون في بيت غوب قد سافروا إلى ديترويت، وسان دياغو، وكنساس سيتي. وبعد فترة قليلة، أصبحت من بين الشبان القلائل الذين هم في عمري ولم يغادروا المخيّم. أما الآخرون الذي تم تجاهل طلباتهم أو رُفضت يُعرفون بأنهم كانوا جنوداً أو قادة في جيش المتمردين أو

كانوا مجرمين. وكنت الوحيد الذي يُعرف بأن لديّ خلفية نقية والذي لم يجروا معي حتى مجرد مقابلة. وكان قد تحدد موعد لإجراء مقابلة معي، نعم، لكن كلّما اقترب ذلك الموعد، كان ثمة شيء يحدث، فيؤجل الموعد أو يُلغى. ففي أحد الأيام وقع شجار في المخيّم بين السودانيين والتوركانا، وقُتل شخص من كلّ جانب، فأُغلقت كاكوما في وجه الزوّار. ومرة أخرى عاد المحامي الأمريكي الذي كان يحضر جميع المقابلات إلى نيويورك في الدقيقة الأخيرة. وقالوا لنا إنه سيعود بعد ثلاثة أشهر.

لا يوجد ثمة شعور كالشعور بالرفض المقترن بالإهمال. كنت قد قرأت عن «الجذل»، الذي يقول إن أربع وستين آلاف روحاً ستُرفع إلى السماء قبل نهاية الزمان، عندما ستبتلع النيران الأرض. وخلال الشهور الستّة التي تلي عام ٢٠٠٠، شعرت بأنني سأُترك في كاكوما بينما رحل كلّ الذين أعرفهم من مطهرنا ورفعوا إلى مملكة الله. فقد فحصتني السلطات ورأت أنني أستحق نار جهنم الأبديّة.

* * *

غادر أتشور أتشور صباح أحد الأيام، ولم نحوّل وداعنا إلى قصة درامية. كان يرتدي معطفاً شتوياً لأن أحداً قال له إن أتلانتا باردة جداً. تصافحنا وربتُّ على كتفه المنتفخ، وتظاهرنا بأننا سنرى بعضنا قريباً. وغادر مع أحد الصبية الأحد عشرة، أكوك أنيي، وبينما كنت أراقبهما يتجهان نحو مهبط الطائرات، التفت أتشور أتشور إلى الخلف ونظر إليّ بعينين تشيان بالحزن. فقد خطر له بأنّني لن أغادر المخيّم أبداً.

بعد أتشور أتشور، غادر مئات آخرون. عشرات الطائرات أقلعت إلى السماء، مليئة بأطفال السودان الضائعين مثلي، لا أعرف أسماء الكثير منهم.

ووجد الجميع أن استمرار بقائي في كاكوما موضع تنّدر.

- سيؤجلون ذهابك حتى تصبح آخر شاب! قال دومينيك الخفيف الظل الذي كان آخر شخص من بين الصبية الدومينيك الذي بقي معي، لكنّهم أجروا معه مقابلة للتو، لذلك كان واثقاً.

- ذَهَبَ بعيداً، لن تذهب إلى أيّ مكان! قال ضاحكاً. لم يكن ينوي أن يكون قاسياً معي، لكنّه فقد القدرة على إضحاكي.

حاول نورياكي أن يبقى إيجابياً معي.

- لن يؤجلوا موعد ذهابك إذا لم يرغبوا أن تذهب.

كان قد مدّد إقامته في كاكوما، مستفيداً من التفاصيل والتوجيهات التنظيمية المختلفة التي أصدرها رؤساؤه في اليابان. لكنّ شعوراً فظيعاً كان يعتريني بأنّه كان ينتظر أن أغادر قبل أن يغادر هو. وعلمت لاحقاً أن هذه هي خطته فعلاً.

-لعلهم ينتظرون أن تغادر أنت أولاً، قلت له. كنت أريد أن يعود بسرعة إلى خطيبته التي انتظرته طويلاً.

- أظن أن هذا الأمر ليس بيدي، قال، بابتسامة عريضة. - إني انتظر التعليمات.

أخيراً، يا له من يوم إعصاري. طالما صلّيت من أجل هذا اليوم، ثم جاء. ففي صباح أحد الأيام تلقيت خبراً بأنهم سيجرون مقابلة معي، وأنهم قبلوا تابيثا وإخوتها للسفر. كان يوماً رائعاً بدأ بوصول تابيثا إلى باب بيتي بعد الفجر مباشرة.

- نحن ذاهبون! قالت.

لم أكن قد فتحت الباب بعد. فلم يكن من المعتاد أن تظهر عند باب بيتي وحدها قبل طلوع الشمس. قلت لها ذلك همساً بسرعة، لأننا نجازف بأن ينظر إلينا سكان المخيّم باستهجان. كنت واثقاً من ذلك.

- لا يهمّني! قالت، الآن بصوت أعلى. - لا يهمّني، لا يهمّني! وراحت ترقص وتصرخ وتقفز.

عندما وقفت وصحوت بما يكفي لأسمع ما تقول، ثم لأستوعب الخبر، كانت قد ذهبت لتوقظ كلّ من كانت تريد أن تزّف له الخبر. لم أفاجأ عندما نقلت لي هذا الخبر بهذه الطريقة المختالة. فلم يكن هناك حبّ في كاكوما يمكن أن ينافس فرصة مغادرة هذا المكان. ثم عرفت أنه تم تحديد موعد سفرها بعد أسبوعين من ذلك اليوم، وعرفت عندئذ إنني لن أراها ثانية في المخيم. ومن رؤية المئات الذين غادروا كنت أعرف بأنّ الأيام الفاصلة بين وصول الإشعار

بالمغادرة ويوم المغادرة نفسه، لا تكفي للقيام بأيّ شيء، ناهيك عن العلاقات الرومانسية. كنت أراها مع آخرين، تسير بسرعة ذهاباً وإياباً مع أخواتها أو صديقاتها، تعتني بتفاصيل عديدة. أظن أنّنا وجدنا بضع لحظات معاً وحدنا، لكنّها لم تعد معي. فقد انتهت كلّ الرومانسيات في تلك الأيام، عندما بدأ الكثيرون مغادرة كينيا. حتى عندما كنّا نجلس معاً في بيتها أو في بيتي عندما نكون وحدنا، لم تعد تابيثا تتحدّث إلاّ عن أمريكا، وعن سياتل، وعن الأشياء التي ستجدها هناك - أضعاف ما تجده في نيروبي بكثير! أوه، كانت تضحك، أشياء متنوعة كثيرة!

في صباح اليوم الذي نقلت لي خبر سفرها، تلقيتُ أخباراً عني. كانت رائحة تابيثا لا تزال في الهواء عندما تناهى إليّ صوت آخر من الجانب الآخر من الملجأ الذي أقيم فيه.

- أتشاك!

كان لا يزال هناك بضعة أشخاص ينادونني أتشاك.

- من؟

كان كورنيليوس، جار لي، صبي في الثامنة من العمر، ولد في يوم ماطر في كاكوما، كان يبدو دائماً أنه يعرف كلّ شيء قبل أيّ أحد آخر. فمنذ عدة أشهر، كان يعرف من هو اللاجئ الذي حبّل فتاة من التوركانا، وجاء اليوم ليقول لي إنه سمع بأن المنظمة الدولية للهجرة قد حددت موعداً لإجراء مقابلة معي. وكان من المعروف أن معلومات كورنيليوس صحيحة دائماً.

وهكذا كان. كان ذلك في تموز (يوليه) ٢٠٠١، بعد أن بدأت عمليات إعادة التوطين بثمانية عشر شهراً، جلست أخيراً في غرفة من الآجر الصخري الأبيض، أمام شخصين: شخص أمريكي أبيض ومترجم سوداني. قدّم الأمريكي ذو الوجه المستدير والعينين الزرقاوين الباردتين، نفسه بأنه محام، ثم اعتذر.

- نحن آسفون جداً يا دومينيك. نعرف بأنّك مشوش بسبب التأخير الذي حصل في طلبك. ربما كنت تتساءل ماذا يجري بحق السماء.

لم أعارضه. كدت أنسى أنّني كنت قد وضعت اسم دومينيك على استمارتي.

تراوحت أسئلتهما من أسئلة بسيطة جداً حول اسمي ومسقط رأسي إلى تحقيقات أكثر تعقيداً عن الأخطار التي واجهتها. كان عدد من الصبية الآخرين قد أطلعوني على الأسئلة المتوقّعة، لكن الأسئلة التي سألوني إياها اختلفت قليلاً. فقد أصرّ معظم السودانيين على القول بأنّه إذا وجدت شائبة واحدة محتملة في تاريخ الشخص، فإن ذلك يعني موت جميع أقارب الشخص ومعارفه. لكني قرّرت ألاّ أعمل بنصيحة الكثيرين، فأجبت على جميع الأسئلة بصدق بقدر ما أستطيع.

- هل والداك على قيد الحياة؟ سألني المحامي.

- نعم، قلت.

ابتسم. بدا له نوعاً جديداً من الإجابة.

- إخوتك وأخواتك؟

- لا أعرف، قلت.

من هناك، بدأت الأسئلة تلج في أعماق تجاربي كلاجئ: من هي الجماعات التي أرادت أن تقتلك وما الذي جعلها تريد أن تقتلك؟ ما نوع الأسلحة التي كانوا يحملونها أو استخدموها؟ قبل أن تغادر قريتك، هل رأيت أناساً قُتلوا على يد هؤلاء المهاجمين؟ ما الذي يدفعك إلى مغادرة السودان؟ في أيّ سنة غادرت السودان؟ متى وصلت إلى إثيوبيا وكيف وصلت؟ هل شاركت قط في حروب السودان؟ هل تعرف أحداً من جيش التحرير الشعبي السوداني؟ هل جُنّدت قط في جيش المتمردين؟ ما هي المشاكل الأمنية التي تواجهها في كاكوما؟ وأخيراً: هل سمعت قط عن بلد يُدعى الولايات المتحدة الأمريكية؟ هل تعرف أحداً هناك؟ هل تفضّل أن تقيم ثانية في بلد غير الولايات المتّحدة؟

أجبته عن كلّ الأسئلة بدون تحريف، وانتهت المقابلة بعد عشرين دقيقة. صافحتهما وغادرت الغرفة، محتاراً ومكتئباً. من المؤكد أن هذه المقابلة ليست من النوع الذي يقرّر إن كان الشخص قد سافر إلى كافة أنحاء العالم وأصبح مواطناً في بلدان مختلفة. عندما وقفت، مذهولاً، فتح لي المترجم الباب وأمسك بذراعي.

- كان أداؤك ممتازاً، يا دومينيك. لا تقلق. يبدو أنك قلق. أنا واثق من أن هذا سيُحلّ الآن. ابتسم، يا صديقي. وتعوّد على فكرة مغادرة هذا المكان.

لم أعرف ما الذي سأصدّقه. فقد أخّر كلّ شيء لفترة طويلة حتى أصبحت أشعر بعدم الارتياح لتوقّع أيّ شيء. كنت أعرف أنه لا يوجد شيء حقيقي حتى يُعلّق اسم الشخص على اللوحة، ويجب عليّ في الوقت نفسه أن أواصل العمل والذهاب إلى المدرسة.

لكن نورياكي كان متأكداً أكثر.

- أوه، ستذهب.

- حقا؟ قلت.

- نعم، بعد أسابيع من الآن. أيام. لا وقت.

شكرته على تشجيعه، لكنّي لم أضع أي خطة. أما هو، فقد فعل. وأخيرا اتخذ ترتيبات لمغادرة المخيّم. كان قد تأخر سنة تقريباً، لكنه سيعود الآن إلى بلده. كان الشعور بالراحة الذي تملكني هائلاً. فقد مضى على بقائه في كاكوما فترة طويلة بسببي، وكانت كلّ لحظة يبقى فيها في المخيم هي بسببي. كنت أريد أن يعود ليعيش حياته الطبيعية، كنت أريد أن يجعل خطيبته الصبورة امرأة سعيدة. شربنا نخب مغادرته الوشيكة بعصير فانتا البرتقال، ووضعت إشارة على الأشياء الهامة المتبقية في تقويمنا. بقيت هناك أشياء صغيرة كان علينا أن ننفذها - الألعاب والصفوف الاعتيادية وتسليم الأجهزة، ورحلة واحدة إلى وسط كينيا مع فريق كرة السلة للشباب، لأننا سنكون مشرفين ومدربين، فقرّرنا أن تكون هذه الرحلة آخر شيء ممتع نفعله في مشروع واكاتشياي، على الأقل تحت إدارتنا.

* * *

كان ذلك في أواخر تموز (يوليه) وكان النهار صافياً. جلسنا أنا ونورياكي في المقعد الأمامي في الشاحنة الصغيرة، وكان يجلس في الخلف أعضاء فريق كرة السلة، اثنا عشر فتى سودانياً وأوغندياً، وكان علينا أن نسافر لمدة أربع ساعات إلى لودوار لنلعب مع فريق يمثّل إحدى المدارس الثانوية في كينيا.

كان اليوم مشمساً وبراقاً. أتذكّر أنني شعرت بوجود الله بوضوح شديد في صباح ذلك اليوم. كان يوماً تدعوه نساء عديدات، اللاتي استيقظن وبدأن

عملهن المنزلي، يوماً مجيداً، صباح نقدم له الشكر.

غادرنا المخيّم في وقت مبكر جداً من الصباح، في حوالي الساعة الخامسة صباحاً. كان جميع الفتيان وأنا ونورياكي مبتهجين على الطريق لأن اللاجئين في كاكوما كانت تغمرهم السعادة دائماً عندما يغادرون المخيّم ولو لفترات قصيرة جداً، ومهما كان السبب. كنا قد تأخرنا في مغادرة المخيّم في ذلك اليوم، بسبب، كالمعتاد، التوسلات الكثيرة من العديد من الأشخاص في كاكوما للانضمام إلى فريق كرة السلة. وبعد أن ابتعدنا حوالي ساعة عن كاكوما، نحن الأربعة عشرة، بدأت الشمس تبزغ. كنت جالساً في مقصورة الشاحنة مع نورياكي، وكان جميع اللاعبين الاثني عشرة الذين كانوا كلّهم دون السادسة عشرة من العمر، يجلسون على مقاعد في مؤخرة الشاحنة، يعلون ويهبطون كلما مررنا فوق المطبات على الطريق المليء بالحفر. وكانت لودوار التي سنذهب إليها تبعد حوالي ١٩٠ كيلومتراً، وكانت الرحلة ستستغرق أكثر من أربع ساعات بسبب وعورة الطريق ونقاط التفتيش العديدة. ومع ذلك، كانت معنويات الجميع عالية، وكانوا يغنون أغان تقليدية ويرتجلون أغان أخرى.

دخل ثاني عضو نظامي في وقت مبكر من صباح ذلك اليوم. «فالانتينو، mon amour! كيف حالك؟»

إنها نانسي سترازيري، امرأة أنيقة في منتصف الخمسينات من عمرها ذات شعر أبيض قصير وترتدي بدلة رياضة حمراء قانية من المخمل. كانت قد أحضرت لي كيك بالقهوة صنعتها بنفسها.

«أنا على ما يرام، شكراً لك» قلت.

«هل حطمت أيّ قلب مؤخراً؟» سألتني وهي تعطيني بطاقتها.

«لا أظن ذلك»، قلت.

مرّرت بطاقتها في شقّ قراءة البطاقات، وحلّت صورة وجهها محل صورة مات دونيلي.

«سأراك بعد ساعة، mon frère» قالت وذهبت. ظل وجهها، الوجه المتعب بتلك العينين اللتين تتحدثان عن الألم في الماضي.

نانسي، كان الطريق المؤدي إلى لودوار مليئاً بالحفر، وكانت تتخلله شقوق تحولت إلى وديان متعرّجة صغيرة. بذل نورياكي كل ما بوسعه في قيادة الشاحنة التي لم يقدها إلاّ مرة واحدة فقط من قبل، لكن ليس كل هذه المسافة. كانت السيارة تعمل بناقل حركة يدوي، بينما كانت المركبات التي كان يقودها في كاكوما ذات ناقل حركة آلي. لم أركب في المقعد الأمامي في أيّ عربة في حياتي، وحاولت أن أبقى هادئاً، مع أن سيطرة نورياكي على الشاحنة بدت ضعيفة.

مرّ الوقت ببطء شديد عندما انعطفنا عند زاوية ورأينا العقبة. كانت هناك تلّة ترابية كبيرة على الجانب الأيسر من الطريق. لم يكن ينبغي أن تكون هناك. فلا يوجد سبب يدعو إلى أن يكون التراب هناك.

صاح نورياكي باليابانية، وحاد إلى اليمين لتفاديها.

مالت الشاحنة بقوة، وطارت أجساد أمام نافذتي. فقد ألقي باللاعبين الجالسين في مؤخرة الشاحنة على جانبي الطريق. وانعطف نورياكي مرة أخرى، الآن إلى اليسار، لكنّه فقد السيطرة. ومالت الشاحنة على عجلتين.

صرخ نورياكي كلمة أخرى لا أعرفها. علت الصيحات من مؤخرة الشاحنة. ألقي بثلاثة لاعبين. أنّت الشاحنة وانزلقت ببطء وحادت عن الطريق، واصطدمت بالساتر الترابي، وانقلبت على سقفها. تكسّر الزجاج، ضجيج الماكينة. لم يكن هبوطنا سريعاً، لكن لم تكن هناك رجعة، وعندما أصبح من الواضح أن الشاحنة ستتحطّم، ألقى نورياكي بذراعيه على صدري. لكنه كان قد ذهب.

توقّفت الشاحنة على جانبها. كنت لا أزال في داخلها، ومن خلال الزجاج الأمامي المكسور رأيت صبيين اثنين ملقيين على التراب. نظرت حولي أبحث عن نورياكي. لقد سقط خارج الشاحنة، وعندما تدحرجت الشاحنة، حطّت فوق صدره. كان الدم ينزف من رأسه كالماء. كانت هناك شظايا من الزجاج في خدّه وجبهته، شظايا الزجاج في كلّ مكان من حوله، وردية اللون من دمه.

- أوه! قال، ثم أغمض عينيه.

- نورياكي! قلت. كان صوتي أضعف بكثير مما كنت أتمنّى. مددت يدي عبر النافذة ولمست وجهه. لم يستجب.

الآن كان هناك شخص على جانب الشاحنة، يزحف نحوي. عندها تذكّرت بقيّة العالم. بأنّني لا أزال على قيد الحياة.

ساعدني في الخروج من الشاحنة، ونهضت واقفاً للحظة. رأيت الآن أشخاصاً على الطريق، أشخاصاً لا أعرفهم. كينيون نزلوا من شاحنة أخرى، شاحنة محملة بالطعام. رأوا الحادث. كان لاعبو كرة السلة متناثرين في كل مكان، فوق الطريق والحاجز الترابي. كم صبياً مات؟ من ظل حيّاً؟ كان الجميع ينزفون.

- دومينيك! قال صوت صبي. - ما الذي حدث؟

كان هذا الصبي يبدو في حالة جيدة. من هو؟ كنت أشعر بأطرافي مرخية، مفصولة عني. كانت رقبتي تؤلمني، وبد أن رأسي قد فُصل عن جسدي. وقفت تحت الشمس، عيناي يلسعهما العرق، كلّ شيء ثقيل جداً، ورحت أنظر.

واحد، اثنان، ثلاثة! كان الكينيون يُبعدون الشاحنة من فوق نورياكي. هزّوا الشاحنة في اتجاه ثم في الاتجاه الآخر، وعندما أُزيحت الشاحنة عن نورياكي، انسلّ أحد الرجال من تحتها وسحب نورياكي إلى الخارج. ثم أُسقطت الشاحنة في المكان الذي كان يستلقي فيه نورياكي. حمل الرجال نورياكي إلى الطريق، كان جسده مرخياً، ولم يتوقف الدم عن النزيف من رأسه.

كان ذلك كلّ ما رأيته قبل أن أغيب عن الوعي.

وضعوني في شاحنة الطعام وأخذوني إلى كاكوما. صحوت في الطريق.

- إنه حيّ!

- أترى هذا، يا سايمون؟

- آه، جيد! جيد! لم نكن متأكّدين أنك حيّ أيها السوداني.

- كنتَ ستموت لو لم نمرّ من هناك.

- ابق مستيقظا، يا ولد. أمامنا ساعة.

- صلّى، يا سوداني. إننا نصلّى من أجلك.

- ليسَ بحاجة إلىّ أن يصلّي. فقد أنقذه اللّه اليوم.

- أظن أنّه يجب أن يصلّي. يجب أن يشكر اللّه وأن لا يتوقف عن الصلاة.

- حسناً، يا سوداني، صلّي. صلّي، صلّي، صلّي.

دخل شخصان آخران، رجل وامرأة، إلى النادي. لا أتذكّر اسميهما. ابتسما لي ولم يقولا شيئاً، كانت يده على ظهرها. كانا يرتديان ثياب العمل، وأعطياني بطاقاتي عضويتهما. جيسيكا لافورت. مالكولم لافورت.

نظرتُ إلى وجه مالكولم لافورت، متمنّياً أن أكون قد مررّت بطاقتيهما بطريقة عكسية. كانت زوجته ذات عينين سوداوين وشعر أسود ووجهها ناعم ومتسامح، أما هو فكان يبدو رجلاً قاسياً. رجلاً نافذ الصبر. لقد جعل الرجال غير الصبورين حياتي أصعب بكثير مما كان يجب أن تكون. ابتسم لي ابتسامة مقتضبة يظن أنها ودية، ودخل إلى النادي.

مالكولم لافورت، في المخيّم، كنتُ ميتاً. ولأيام عديدة اعتبرني مئات الأشخاص بأنني ميّت. وكانت الأخبار عن عدد الإصابات التي ترد من حادث الشاحنة تتغيّر بين ساعة وأخرى، ومن يوم لآخر. في البداية، اعتُبر جميع من كان في الشاحنة في عداد الأموات. ثمّ بدأ لاعبو كرة السلة أنفسهم يصلون إلى كاكوما، واتضّح بأنه لم يمت أحد من هؤلاء الصبية، واتفق الجميع على أن هذه معجزة. أما أنا فقد كنت ميتاً، وكان الكثيرون متيقنين من ذلك. لقد مات فالانتينو أتشاك دنغ.

سمع غوب وأفراد عائلته ذلك وراحوا يبكون ويولولون. ولعن كلّ من يعرفني نورياكي، ولعنوا كاكوما وكرة السلة والطرق الكينية الوعرة المليئة بالحفر. وشعر زملائي في العمل في مفوضية شؤون اللاجئين باليأس والقنوط. وأقامت فرقة ناباتا المسرحية حفلاً تأبينياً قادته الآنسة غلاديس، ألقى فيه دومينيك والسّيدة زيرو وجميع الأعضاء كلمات، وناحت تابيثا ولم تغادر سريرها طوال ثلاثة أيام، ولم تغادره إلا بعد أن سمعت أنني لم أمت.

أفقتُ في مستشفى لوبيدنج. كانت هناك ممرضة تضع يدها على جبيني. قالت لي شيئاً وهي تنظر إلى ساعتها.

- هل تعرف ما الذي حدث؟ سألتني.

- نعم، قلت، مع أنني لم أكن متيقناً.

- لم يمت أحد من أصدقائك، قالت.

هنا أحسست بالراحة. تذكرت نورياكي الذي كان يبدو شاحباً يغطيه الزجاج، وبدا لي أن هذه المرأة قالت إنه لا يزال حياً.

- أما السائق الياباني فقد مات، قالت، ونهضت واقفة. غادرت الغرفة وبقيت وحدي.

أسرة نورياكي! قلت في نفسي. يا إلهي. هذا كثير جداً. لقد رأيت الكثير من حالات الموت التي لا معنى لها، لكني لم أر شيئاً كهذا منذ زمن بعيد.

أنا المسؤول عن موت نورياكي. فنحن الصبية الذين كنا السبب في إقامة كاكوما. ولو لم تكن كاكوما، لما جاء نورياكي إلى كينيا، وكان قد بقي في بلده مع أسرته وخطيبته، يعيش حياة طبيعية. فاليابان بلد مسالم، ويجب ألاّ يتورط الأشخاص الذين يعيشون في بلدان مسالمة في حروب البلدان المتحاربة. فمن العبث والخطأ أن يقطع هذا الرجل كلّ هذه المسافة ليأتي إلى هنا ويموت. يموت لأنه كان ينقل بعض اللاجئين ليلعبوا كرة السلة؟ يموت لأنه كان يريد أن يراني أغادر المخيّم؟ إن ما فعله إلهي هذه المرة شيء فظيع وبائس. لم أعد أنظر باحترام إلى إلهي وإلى شعبي. فالسودانيون عبء على الأرض.

بعد أن رأيت الحزن الذي ساد العالم بعد موت دايانا، توقعت أن موت نورياكي سيثير تعاطفاً وإحساساً باليأس في المخيّم، وفي أنحاء كينيا، وفي أرجاء العالم. لكنّي لم أسمع شيئاً من هذا. سألت الممرضة إن كانت قد وردت تقارير عن الحادث في التلفزيون، فقالت إنّها لم تر شيئاً من هذا القبيل. كان عمال الإغاثة في كاكوما حزينين، لكن لم يحدث تدفق عالمي في نشرات الأخبار، ولم يذكر أي خبر عنه في الصفحات الأولى. وبعد يومين من وفاته، نُقل جثمان نورياكي إلى نيروبي حيث أُحرق. لا أعرف لماذا.

- ماذا تفعل هنا؟

كان رجل يقف فوقي، تغطي وجهه الشمس المتسللة من النافذة المنخفضة. دنا مني. إنه أبراهام، صانع السيقان والأذرعة الاصطناعية. سالت الدموع على وجهي في الحال. كنت قد مكثت في المستشفى بضعة أيام، أنام وأفيق.

- لا تقلق، قال. أطرافك سليمة. أنا هنا كصديق فقط.

حاولت أن أتكلّم لكن حنجرتي كانت جافّة جداً.

- لا تتكلّم، قال. - أعرف ما حدث لرأسك، عن الأدوية التي حقنوك بها. سأجلس معك هنا قليلاً.

وجلس. بدأ يغني، بصوت خفيض، الأغنية التي كان يدندنها في ذلك اليوم، منذ زمن. غططت في النوم ولم أره مرة أخرى.

مكثت في المستشفى تسعة أيام. فحصوا رأسي، فحصوا قدرتي على السمع وعلى الرؤية وفحصوا عظامي. وضعوا قطباً في رأسي وضمّدوا أطرافي. كنت أنام معظم أوقات اليوم، وغادرت تابيثا بينما كنت أتعثّر من خلال ضباب حبوب مسكّنات الألم التي أعطوها لي.

في خلفية تفكيري أظن أنني كنت أعرف أن اليوم كان يمرّ بسرعة، لكنّي لم أكن متأكّداً من ذلك حتى وصلت إليّ رسالة في أحد الأيام بعد الفطور. لا أعرف كيف استطاعت تابيثا أن تعثر على مغلف وردي اللون في ذلك المخيّم، لكنها وجدته بطريقة ما. حتى أنه كان يحمل رائحتها. وقد كتبت الرسالة بالإنكليزية. كان قد ساعدها في كتابتها أستاذ كيني حتى تكون الرسالة جيدة بقدر الإمكان.

عزيزي فالانتينو،

تملكّني قلق شديد عندما سمعت عن الحادث. وعندما اعتقدت بأنّك متّ على قارعة الطريق، دُمّرت. تخيّل بهجتي عندما عرفت إن ذلك لم يكن صحيحاً، عندما عرفت أنّك نجوت وستكون بخير. حاولت أن أزورك، لكنّهم لم يسمحوا بدخول أشخاص غير الذين يقدمون لك الرعاية. لذلك رحت أنتظر حتى أسمع أخباراً عن صحتك، وهذا ما شجّعني عندما عرفت أنّك تتماثل إلى الشفاء التام. إني في غاية الأسف لأن نوزياكي قد توفّى. كان محبوباً جداً ومن المؤكد أنه سيذهب إلى الجنّة.

كما تعرف، فإن سفري لا يمكن أن ينتظر. إني أكتب هذه الرسالة قبل ساعات فقط من مغادرة طائرتي إلى نيروبي. قلبي مثقل، لكنّنا نعرف أنّني يجب أن أغادر. فلم يعد بإمكاننا أن نعيش في هذا المخيّم، لا يمكنني أن أضيّع الفرصة بألاّ أسافر. أعرف أنّك تفهمني في هذا الأمر.

سأراك ثانية، يا فالنتينو العزيز. لا أعرف كيف ستكون حياتنا في أمريكا لكنّي أعرف أنّنا سننجح كلانا. عندما أراك في المرة القادمة سنقود كلانا سيارات

وسنلتقي في مطعم نظيف وغالي.

صديقتك المحبّة،

تابيثا

بدأ عدد كبير من الأشخاص الجدّد يتدفقون إلى النادي في الساعة السادسة إلاّ عشر دقائق. في البداية، امرأتان في السبعينات من عمرهما، ترتديان كلاهما قبعات بيسبول. ووصلت امرأة ضخمة ذات شعر لولبي ينتشر في كلّ اتجاه، تلاها امرأتان أصغر سناً، أختان، لائقتان تماماً، تعقصان شعرهما في شكل ذنب حصان. عندما توقف هذا التدفق، رحت أنظر إلى باحة وقوف السيارات، حيث رأيت الشمس الذهبية تنعكس على السيارات. دخل رجل أبيض الشعر إلى النادي، ومشى بجسده المائل إلى الأمام. إنه آخر الباقة: ستيوارت غوودال، ذو العينين الصغيرتين والابتسامة الماكرة.

ستيوارت غوودال، هل يمكنك أن تتخيّل رسالة كهذه؟ فقد غادر جميع من أعرفهم إلى مكان يُتوقع أن يكون جنة، وبقيت وحدي، والآن حتى تابيثا ذهبت، انسلّت وأنا نائم.

بعد أن شفيت بأسبوع، عدت إلى مشروع واكاتشياي. وبما أن موظّفين اثنين كانا يعملان فيه، فإذا لم أعد بسرعة، فقد يُلغى المشروع. كانت معظم متعلقات نورياكي لا تزال موجودة في المكتب - رسائله، بدلة الرياضة، كمبيوتره، صورة واكانا وهي ترتدي بدلة التنس البيضاء. لم أكن مستعدّاً لأن أكون في المكتب بدونه. وضعت كلّ أغراضه في صندوق لكن الغرفة كانت لا تزال تردد صدى اسمه طوال اليوم. كنت أعرف إنني يجب أن أغادر قريباً جداً.

طُلب مني أن أجد بديلاً لنورياكي. فقد أراد اليابانيون مواصلة تمويل المشروع، وأن يظل قيد العمل. كان عليّ أن أختار موظفاً جديداً. أجريت مقابلات مع عدة مرشّحين، معظمهم كينيين. كانت تلك المرّة الأولى التي يقوم فيها لاجئ سوداني بإجراء مقابلة مع كينيين للعمل في كاكوما.

اخترتُ شاباً كينياً يدعى جورج أصبح مساعداً لي. واصلنا تخطيط النشاطات من أجل الشباب في كاكوما، وبعد عودتي مباشرة إلى العمل، استلمنا شحنة كبيرة من كرات القدم وبدلات رياضية لكرة الطائرة، وأحذية جري من طوكيو. كان نورياكي يبحث عن تمويل لهذه الشحنة منذ شهور، وها أنا الآن أراها كلها تملأ المكتب، أشياء جديدة كثيرة - كان الأمر صعباً للغاية.

كان الطبيب يفحص التقدّم الذي أحرزه مرة في الأسبوع. كنت أشعر بألم في عظامي ومفاصلي، لكن الأعراض التي كانت تثير قلق الطبيب - دوخة، غباش في الرؤية، غثيان - لم تحصل. كان مجرد صداع، تتفاوت حدّته خلال اليوم، وقد أثّر ذلك عليّ كثيراً، وكان الألم يزداد سوءاً في الليل. فما إن كنت أضع رأسي على وسادتي حتى يزداد الألم. كان أصدقائي وأفراد عائلتي يزورنني ويراقبونني بحذر. خسرت وزني عشر باوندات في لوبيدنغ، فقدموا لي حصصاً إضافية وأيّ شيء يمكن أن يصرف انتباهي - مجموعة شطرنج يدوية الصنع، كتاب فيه رسوم. وعندما كنت أغطّ في النوم، كنت أغطّ في النوم، وكان يصعب على أحد أن يعرف أنني أتنفس. وفي أكثر من مرة، كان غوب ينكزني في كتفي ويوقظني ليتأكّد من أنّني لا أزال حيّاً.

بعد شهر، تعافيت جسدياً، أما من الناحية العقلية، فقد وصلت إلى مرحلة خدر يصعب عليّ أن أعرفها أو يكتشفها الآخرون. ظاهرياً، كنت أقوم بواجباتي في العمل وفي البيت، شهيتي إلى طبيعتها. ثم قرّرت أن أحدث تغييراً كبيراً في حياتي. فقد قرّرت حازماً قبل بضعة أيام، مخالفاً نصائح الجميع، أن أعود إلى السودان لأنضم إلى أسرتي. فلم يعد هناك سبب يجعلني أبقى في كاكوما، لأن البقاء فيها كان أشبه بعقاب يومي. كان الله والقوى الدنيوية يقولون إن هذا هو أفضل ما كنت أستحقه، وأنّ هذه الحياة جيدة بما يكفي للحشرة المعروفة بفالانتينو أتشاك دنغ، لكن رسالة تابيثا أحدثت في داخلي شرخاً كبيراً، فلم أعد أعير أدنى اهتمام لكاكوما، ولواجباتي، ولكلّ ما يُتوقّع منّي. فقرّرت أن أذهب أولاً إلى لوكي، ثمّ أسافر إلى مايال باي. كنت أملك ما يكفي من النقود، خيّل إليّ، لأدفع رشوة لأسافر بطائرة معونات، لأنني سمعت أن ذلك حدث من قبل، وبمبلغ أقل من المبلغ الذي وفرته.

عزّز غوب طريقة تفكيري بدون قصد حول مغادرة المخيّم. فقد كان يتكلم آنذاك عن أن السلام أصبح وشيكاً في جنوب السودان، وأشار إلى عدة تطوّرات إيجابية، منها المبادرة المصرية الليبية المشتركة بشأن السودان في عام ٢٠٠٠. وعلى الرغم من أنها ألغيت لاحقاً، فقد نصّت على إقامة حكومة مؤقتة، وتقاسم السلطة، وإجراء إصلاحات دستورية، وإجراء انتخابات جديدة. وقبل بضعة أيام فقط، عيّن الرئيس بوش جون دانفورث، العضو السابق في مجلس الشيوخ، مبعوثاً رئاسياً للسلام في السودان. ولا بد أنه يرى، كما كانوا يقولون، بأنّ السلام ضروري، وأن بإمكان أمريكا أن تحقق ذلك، وأنه يجب عليها أن تفعل ذلك.

- إنك تبدو في حال أفضل اليوم، قال جورج، مساعدي الجديد، في أحد الأيام. كنا ذاهبين لنبدّل الشبكات في ملاعب كرة السلة، وكان جورج يضع

صافرة يربطها بخيط حول رقبته. كان يحبّ أن يعلّق صافرته حول رقبته.

عندما أخبرت جورج بخطتي في المغادرة، كاد يلكمني. رفع يده نحوي ثم توقّف، صافرته في فمه.

- هل جننت؟ قال.

- يجب أن أذهب.

فنفخ الصافرة في وجهي.

- لا تزال السودان منطقة حرب، يا رجل! أنت نفسك قلت إنّ المرحلّين لا يزالون يعيثون فساداً في منطقتك. كيف ستحاربهم؟ هل ستقرأ لهم؟ ستكتب لهم مسرحيّة؟ لا أحد في العالم، لا أحد في جنوب السودان، يمكن أن يغادر هذا المكان ليذهب إلى هناك. وسأعمل أنا شخصياً على ألاّ تفعل ذلك. سأقيّدك بهذه الشبكات. سأقطع إحدى قدميك.

ابتسمتُ، لكن جورج لم يغيّر رأيي. كان الناس لا يزالون يعودون إلى السودان. الشباب الأقوياء مثلي يمكنهم أن يفعلوا ذلك، وقد أصبحت الآن أكبر سنّاً وأكثر ذكاء مما كنت عندما حاولت إعادة التدوير. كانت فكرة البقاء في كاكوما فكرة واهية. فكلّ شخص سيعتبرني مرفوضاً - فقد أخذ أربعة آلاف صبي إلى أمريكا واعتُبرت لستُ جديراً بالذهاب إليها. سيصعب عليّ كثيراً أن أعيش بوصمة العار هذه.

نفخ جورج صافرته مرة أخرى، هذه المرة ليوجه انتباهي.

- اسمع. أراهن أن واكاتشياي سيوظفونك بصورة دائمة لو أردت. وستحصل على عشرة آلاف شلن في الشهر، وستكون قادراً على أن تأكل في مطاعم الأمم المتّحدة، وتقود إحدى سياراتهم اللاند روفر. اختر عروساً جميلة وعش هنا حياة جيدة.

- صحيح، قلت، وابتسمت.

- لا تكن مجنوناً.

- حسناً، قلت.

- لا تكن غبياً.

- لن أكون غبياً، قلت.

- هذا بيتك، قال.

- جيد.

- اقبله وازدهر هنا.

أومأت وركّبنا الشبكات الجديدة.

في الساعة السادسة والنصف، يبدأ الازدحام الحقيقي في نادي القرن الرياضي. فتزدحم الغرف، وتُشغَّل جميع آلات التمرين، ويصبح الأعضاء متوترين، لأنهم يخططون للقيام بالتمارين لكنهم يحُبطون عندما لا يستطيعون تنفيذ ذلك وفق الجدول الذي وضعوه لأنفسهم. أستقبل اثني عشر شخصاً خلال خمس دقائق. يبدو أنهم كلهم أصحاب مهن هامة. يبتسمون لي ويتبادل بعضهم بضع كلمات معي. يسألني رجل متوسط العمر، قال إنه يدرّس التاريخ في المدرسة الثانوية، كيف تسير دراستي. كذبت وقلت له إن كل شيء على ما يرام.

«ستذهب إلى الجامعة؟» سألني.

«نعم يا سيدي»، قلت.

كانت دورسيتا لويس آخر امرأة تصل في هذا التدفق المتسارع، إحدى النساء الأمريكيات الزنجيات القليلات اللاتي يتدربن في هذا النادي. في الأربعين من عمرها تقريباً، جذابة جداً، واثقة لكن بطريقة خجولة من طريقة حمل رأسها الذي يميل إلى اليمين دائماً.

«مرحباً، فالانتينو»، قالت وأعطتني بطاقتها.

«مرحبا، دورسيتا»، رددت عليها ومررت البطاقة في شق الجهاز الإلكتروني. في صورتها تبدو أنها في وسط ضحكة من القلب. فمها فاغر، جميع أسنانها باديّة. لم أسمعها قط تضحك وخطر لي في إحدى المرات أن أحكي لها نكتة.

«ألا زلت هنا؟» سألتني.

«نعم، شكراً»، قلت.

«حسناً إذن»، قالت، «هذا ما أوّد أن أسمعه»، وغابت في غرفة تغيير الملابس.

في الحقيقة لا أحبّ أن أبقى هنا. فأنا أعتقد بأنني ولدت لأقوم بعمل أهم من هذا العمل. أو لعلي نجوت من الموت لأعمل شيئاً أهم من ذلك. دورسيتا امرأة متزوّجة، أمّ لثلاثة أطفال، وهي تدير مطعماً.

يخيم هدوء مرة أخرى على النادي لفترة، وغريزياً، وجدت نفسي أبحث في بريدي الإلكتروني. هناك رسالة من أخي صموئيل.

«هل ستخابرها؟» يسألني. «ها هي صورتها».

كان صموئيل قد سافر مؤخراً من نيروبي إلى الخرطوم، وانضم إلى أبي هناك. كانا قد خطّطا للسفر إلى الخرطوم ليشتري أبي بضائع حتى يعيد تأسيس عمله التجاري في مايال باي. فقد كان فيل مايس قد أرسل لأبي ٥٠٠٠ دولار، وأراد أن يشتري بهذا المبلغ بضائع تكفي ليفتح دكانه من جديد. وخلال وجوده في الخرطوم، سمع صموئيل عن صبيّة عازبة - من عائلة غنية وتدرس حالياً اللغة الإنكليزية والأعمال التجارية في الخرطوم. وكان صموئيل قد ذهب لرؤيتها ورأى أنها تناسبني. لا يوجد عندي شكّ بأنه كان يريدها لنفسه في البداية، لكن على الرغم من ذلك، بدأ يلحّ عليّ بأن أتصل بها، لندرك، أنا وهي، بأنّ أحدنا يرغب في الزواج من الآخر. أنظر إلى الصورة التي أرفقها. من المؤكد أنها فتاة جذّابة، لها شعر طويل جداً، ووجه بيضوي، وابتسامة في شكل V، وأسنان رائعة. وأكد لي صموئيل أن هذه المرأة سترحّب بفرصة السفر إلى الولايات المتحدة لتتزوجني.

بما أنني فتحت الإنترنت الآن، فقد قرّرت أن أرسل إيمليات للأشخاص الذين لا أزال أتذكّر عناوينهم الإلكترونية. سأتصل بالهاتف، لكن يوجد في هاتفي المسروق كلّ أرقام هواتف الأصدقاء التي لم أحفظ إلاّ عدداً قليلاً منها. أحاول أن أتذكّر عناوين إيميلات جيرالد وآن، وماري وليامز وفيل، وديب نيومير، وأتشور أتشور الذين سيرسلون الرسائل إلى الآخرين. في هذه اللحظة، لا أبالي بمن يعرف.

مرحباً أيها الأصدقاء،

أكتب هذه الرسالة لأعلمكم بأنّني تعرضتُ مؤخراً إلى هجوم بواسطة شخصين خطرين في شقّتي. فقد طلب مني المهاجمان أن أدعهما يستعملان هاتفي، وعندما فتحت الباب، هدداني بمسدس، وركلاني على خدّي وجبيني وظهري حتى غبت عن الوعي. ثم أخذوا هاتفي الخلوي والكاميرا الرقمية،

ودفاتر الشيكات، وأكثر من خمسمائة دولار نقداً. أحمد اللّه أنهم لم يطلقوا عليّ النار. ولفترة من الوقت، كان يحرسني صبي أعتقد أنه ابنهما، مايكل.

وأنا أكتب إليكم، لا يوجد عندي هاتف خلوي ولا توجد لديّ معلومات الاتصال بكم. أرجو أن ترسلوا لي أرقام هواتفكم وسأتصل بكم غداً. أريد أن أستعيد كلّ معلوماتي.

ليكن يومكم مباركاً.

المخلص،

فالانتينو أتشاك

ملاحظة: أرجو أن تذكّروني بأيام عيد ميلادكم.

دورسيتا، إنني أدّعي بأنّني أعرف من أنا الآن لكنّي بكل بساطة لا أعرف. فأنا لست أمريكياً ويبدو أنه من الصعب أن أقول الآن بأنني سوداني. فلم أمض في السودان سوى ستّ أو سبع سنوات، وكنت صغيراً جداً عندما غادرته. وبالرغم من ذلك، فإني أستطيع أن أعود إلى السودان. ربما ينبغي لي أن أعود. فقد أعلن البلد بأن أطفال السودان الضائعين يجب أن يعودوا إلى جنوب السودان. فهم يسألون «من سيعيد بناء هذا البلد إذا لم يكن أنتم؟ إنه لمنعطف غريب في مجرى الأحداث حقاً أن يكون الصبية الذين انتقلوا من مخيّم إلى آخر والذين فقدنا نصف مجموعاتنا على الطريق، أصبحنا نُعتبر الآن أمل الأمة. ومع أننا نعمل في وظائف كهذه، تقارب ثماني دولارات ونصف الدولار في الساعة، فإننا نعتبر أغنى بكثير من معظم سكّان بلدنا. فنحن نعيش في شقق وبيوت يسكنها عادة قادة المتمردين وعائلاتهم فقط في السودان. وعلى الرغم من المخاطر التي تعرضنا لها في أثناء رحلاتنا، فقد أصبحنا في نهاية الأمر، المجموعة الأفضل تعليماً في جنوب السودان برمته في التاريخ.

ينظر أصدقائي الذين عادوا إلى السودان لزيارة عائلاتهم أو للبحث عن زوجة، بأفواه فاغرة إلى طبيعة الحياة البدائية التي لا تزال سائدة هناك. حياة لا توجد فيها سيارات، أو طرق، ولا يوجد فيها تلفزيون أو أجهزة تكييف، أو مخازن بقالة. ففي قريتي توجد كهرباء قليلة، ومعظم الكهرباء المتوفرة فيها تأتي من مولّدات أو من أجهزة الطاقة الشمسية. أما بعض وسائل الراحة كالهواتف بالأقمار الاصطناعية فقد بدأت تصبح شائعة أكثر في البلدات الأكبر، لكن بصورة عامة، لا يزال البلد متخلفاً بمئات السنين عن

مستوى المعيشة التي تعوّدنا عليها الآن. وقد سمعت أن رجلاً أعرفه كان قد شرب ماء من النهر، كما يفعل جميع الناس، فمرض أسبوعاً كاملاً، وتقيّأ ما يعادل سنة من وجبات الطعام. ربما أضعفنا الزمن في أمريكا.

دورسيتا، ما الذي أفعله في سيارة أخرى، أتوجّه ثانية إلى كيتال، بعد الحادث الذي تعرضت له مباشرة؟ لا تزال عظامي تؤلمني في كلّ جسدي ولم تعد لديّ رغبة في السير في ذلك الطريق ثانية، لكن هناك رحلة كنت قد خطّطت لها منذ شهور عدة، ولا يمكنني أن أخيّب أمل الصبية. ثلاثون صبياً، فريقان لا تزيد أعمار اللاعبين فيهما على التاسعة، سيذهبون إلى كيتال ليلعبوا أمام فرق الصبية المحليّين. عادة ما تكون هذه المباريات للاستعراض فقط. وكان أطفالنا يُهزمون دائماً أمام الفرق الكينية. لكن النتيجة لم تكن مهمة، وإنما المهم هو أن يغادروا المخيّم، وهكذا كنت معهم، بعد عدة أسابيع من وقوع الحادث. وفي ٥ أيلول (سبتمبر) ركبت الحافلة مرة أخرى. وقفت بجانب الحافلة، هذه المرة حافلة تابعة للأمم المتّحدة مغلقة من الأعلى، مع جورج. وقفنا نراقب الصبية يجرون من جميع اتجاهات المخيّم. كانوا صبية طيبين، صبية مبتسمين - ثلثهم تقريباً ولدو هنا، في هذا المخيّم. أن يولدوا هنا! لم يخطر ببالي قط أن يكون ذلك ممكناً، وجاء آخرون من عدة أقاليم في السودان، أحضر العديد منهم عندما كانوا أطفالاً صغاراً، يتضورون جوعاً ولم يكونوا أحياء تقريباً. كنت أتساءل أحياناً هل الطفل الهادئ واحد منهم، وقد كبر الآن. ربما كان الطفل الهادئ صبياً. هذا ممكن، طبعاً. في جميع الأحوال، كنت أحبّ الصبية جميعاً بالتساوي.

عندما صعدوا إلى الحافلة، كانوا كلهم دائخين ويلمسون كلّ بقعة في الحافلة. دقّقت أسماءهم إزاء قائمة أسماء الفريق.

كان اثنان غائبين.

- لوك بول دوت؟ ناديت.

ضحك الصبية. في يوم كهذا، كان يضحكون على أيّ شيء.

- لوك بول دوت؟

نظرت من النافذة. كان اليوم مشمساً، خفيفاً مثل بطانة. كان صبيّان يركضان باتجاه الحافلة. كان لوك وغويال أدوك، الولد الغائب الآخر. كانا في ثيابهما الرياضية وكانا يجريان نحونا كما لو كان الوصول إلى الحافلة سينقذهما من موت محقق.

- دومينيك!

كان لوك. قفز إلى الحافلة بشكل يكاد يكون هستيرياً. لم يستطع أن يقول كلماته التالية.

- دومينيك! كرر.

بعد خمس عشرة ثانية استعاد أنفاسه.

- ماذا في الأمر، يا لوك؟

- اسمك على اللوحة!

ضحكت وهززت رأسي. لم يكن ذلك ممكناً.

- نعم، إنه موجود! وليس على اللوحة فقط! اسمك موجود في قائمة التوجيه الثقافي. فهمت! ستذهب!

كان التوجيه الثقافي الخطوة الأخيرة. لكن قبل تلك الخطوة، توجد خطوات عديدة أخرى: أولاً رسالة، ثمّ مقابلة أخرى، ثمّ الاسم على اللوحة. ثمّ إشعار آخر من أجل التوجيه الثقافي. كلّ هذا يستغرق عادة شهوراً. لكن هذا الصبي الطائش يقول لي إنّ اللوحة تقول لي كلّ هذا معاً.

- لا، قلت.

- نعم! نعم! صاح غويال. كان يحاول أن يربت على ظهري.

- انتظر، همست.

طلبت من سائق الحافلة أن ينتظر، وطلبت من الصبية أن يظلوا في الحافلة. استدرت إلى جورج. تلعثمت للحظة، وطلبت منه أن ينتظر لحظة بينما...

صفر صافرته. - اذهب!

جريت نحو اللوحة. هل يمكن أن يكون هذا صحيحاً؟ كان نورياكي محقّاً! إنهم يريدونني حقاً! طبعاً يريدونني! لمَ لا يريدونني؟ ما كانوا قد انتظروا طويلاً لو لم يكونوا يريدونني.

رحت أجري.

في منتصف الطريق إلى هناك، أمسكت نفسي. ماذا أفعل؟ توقّفت. إني أبدو كالأحمق وأنا أجري نحو اللوحة لأن صبياً في التاسعة من العمر قال لي إن اسمي مدرج في القائمة. لقد أصبح الإبلاغ نكتة، وكان ذلك يحدث دائماً، ولم يكن شيئاً مضحكاً أبداً. أبطأت خطواتي وفكّرت بأن أعود.

في اللحظة التي أبطأت فيها سرعتي، تناهى إليّ صوت صراخ. نظرت إلى أعلى فرأيت لوك وغويال، يجري وراءه عدد من الصبية، يركضون باتجاهي.

- اذهب! صرخوا. - اذهب إلى اللوحة!

كان يبدو أنهم سيوقعونني أرضاً لو اقتربوا مني أكثر. التفت ثانية ورحت أجري، كان الصبية في إثري. ركضنا جميعاً، الصبية يقفزون ويضحكون بجانبي. رأنا غوب تشول الذي كان عائداً من الحنفية، نجري على الطريق.

- إلى أين أنتم ذاهبون؟ صرخ.

أعادني وجهه إلى صوابي. هل عليّ أن أخبره بمَ قاله لي الصبية، وأقول له إلى أين أجري؟

ابتسمت وواصلت الجري. رحت أجري بحيوية لم أعرفها منذ أن كنت صغيراً جداً.

- إنه في اللوحة! صاح غويال له. - اسم دومينيك في اللوحة!

- لا! قال غوب فاغراً فمه. - لا!

ألقى بصفيحة الماء وراح يجري معنا. أصبحنا الآن خمس عشرة نركض.

- هل تظن حقاً أنّه في اللوحة؟ قال لاهثاً بجانبي.

- إنه موجود، إنه موجود! صاح لوك. - فأنا أعرف القراءة!

أخذنا نركض، الدموع تسيل على وجوهنا لأننا كنّا نضحك وربما كنّا نبكي، ولعلنا كنّا نهذي. ثم وصلنا أخيراً إلى اللوحة، كشك المعلومات التابع للإتحاد اللوثري العالمي، حيث يعرضون الأعمال الفنية والحرفية للاجئين.

مسحت بعيني الأسماء بسرعة. كان غوب محنياً، يضع يده على خاصرته. كانت هناك أسماء عديدة، وكان الضوء يلمع، والحبر باهت جداً.

- ها هو! صاح غوبال. كانت إصبعه ملتصقة على اللوحة فلم أستطع أن أرى. أزحت خنصره جانباً وقرأت اسمي.

دومينيك آرو. ٩ أيلول (سبتمبر). أتلانتا.

كان غوب يقرأ معي الآن.

- ٩ أيلول (سبتمبر)؟ قال. هذا يوم الأحد. بعد أربعة أيام.

- يا إلهي، قلت.

- أربعة أيام! قال.

جعل الصبية أغنية منها. - أربعة أيام! أربعة أيام! دومينيك ذاهب بعد أربعة أيام!

عانقت غوب وقال إنه سيخبر أفراد العائلة. أخذ يجري، ورحت أجري عائداً إلى الحافلة. - سأذهب! قلت لجورج.

- لا! قال. أخبرتُ الصبية.

- إلى أين؟ معنا؟

- لا، لا. إلى أمريكا. اسمي في اللوحة!

- لا! صاحوا جميعاً. - لا، أبداً!

- هل ستغادر حقاً؟ سألني جورج.

- أظن أنني سأغادر، قلت، غير مصدق تماماً.

- لا! ستبقى هنا مدى الحياة! قال الصبية مازحين.

لكني استوعبت الخبر أخيراً. لن أرافقهم في رحلتهم في ذلك اليوم، وربما لن أراهم مرة أخرى. بدا أن بعض الصبية قد تألموا، لكنّهم وجدوا طريقة

ليظهروا لي أنهم سعداء من أجلي. صافحني جورج وقفز الصبية من فوق المقاعد وتحلّقوا حولي وربتوا على ظهري وعلى رأسي وضموا خصري وساقي بأذرعهم الصغيرة وبأيديهم النحيفة الصغيرة. لم أكن متيقناً إن كنت سأراهم مرة أخرى قبل أن أسافر. عانقت جميع الصبية الذين تمكنت من الوصول إليهم وبكينا وضحكنا معاً على جنون كلّ ذلك.

كانت ليلة الأربعاء وكنت سأغادر يوم الأحد. أمامي مئات الأشياء التي يجب أن أفعلها قبل أن أسافر بالطائرة إلى نيروبي. فكّرت بسرعة في جميع المهام الضرورية. لم يكن هناك وقت. كنت أعرف كلّ ما يجب أن أفعله، بعد أن رأيت جميع أصدقائي يغادرون قبلي. يجب أن أحضر جلسة التوجيه الثقافي لمدة يومين من بين الأيام الثلاثة القادمة، فلم يعد هناك وقت لأيّ شيء. ودّعت أفراد العائلة وأصدقائي في كاكوما يوم السبت، لكن قبل ذلك الوقت، سيكون الأمر جنوناً.

في تلك الليلة عدت إلى اللوحة، لأرى اسمي مرة أخرى. كان اسمي فعلاً. لا يمكن أن يكون هناك خطأ الآن. لا يمكنهم إزالة اسمي من تلك القائمة. في الحقيقة، كنت أعرف أنّهم يستطيعون - يستطيعون أن يفعلوا أيّ شيء، وفي أحيان كثيرة، فعلوا ذلك -لكنّي شعرت بأنه توجد لديّ على الأقل أرضية صلبة لأحارب إذا حاولوا النكوث بوعدهم. وبينما كنت أنظر إلى اللوحة في تلك الليلة، رأيت اسمي أيضاً على قائمة الرسائل إلى دائرة الهجرة والتجنس. فهم لم يرسلوا الرسالة. عليّ أن آخذها، وكان ذلك الجزء الأخير من إطلاق سراحي. كان كلّ ذلك يحدث في وقت واحد. لم أعرف كيف أفهم منطق الأمم المتّحدة، لكن ذلك لم يكن مهماً. سأغادر بعد ثلاثة أيام وسرعان ما أصبح الجميع يعرفون.

رحت أخبر كلّ من أراه في طريقي، ونقل كلّ واحد منهم الخبر إلى عشرة أشخاص أو عشرين شخصاً آخر. عمّت البهجة في أنحاء المخيّم، لكن كان ثمة قلق أيضاً. فعلى الرغم من أن أفراد عائلة غوب، والعديد من أصدقائي، كانوا يظهرون الفرحة في وجهي، فقد كانوا قلقين عليّ: ماذا يعني ذلك، يعني أنّني يجب أن أسافر بهذه السرعة بعد الحادث؟ قد لا يكون ذلك أمراً جيداً، كانوا يقولون لأنفسهم. يبدو أنه قدر جذاب ليسافر بهذه السرعة بعد أن تعرض لحادث كاد أن يودي بحياته. لم يقل أحد شيئاً. كنت في غاية السعادة ولم أشعر بالقلق ولم يرغبوا في أن يثبطوا من همتي، وإنما راحوا يصلّون من أجلي. وصلّيت. كان الجميع يصلّون من أجلي. وفي وسط كلّ ذلك، قلت لنفسي، إن هذا ليس منطقي. فقد اكتشفت الآن أن عائلتي بخير. كيف يمكنني أن أسافر إلى جزء آخر من العالم؟ كيف لا يمكنني أن أنتظر، على

الأقل، في كاكوما حتى يستتب السلام في السودان ثانية؟ فقد انتظرت خمس عشرة سنة لأرى عائلتي، وها أنا الآن أبتعد عنهم بمحض إرادتي. لكن هذه مشيئة اللّه. لا يمكنني أن أومن بغير ذلك. فقد وضع اللّه هذه الفرصة أمامي، كنت واثقاً من ذلك، وأصبحت مقتنعاً بوجوده في سلسلة حياتي عندما عرفت الإمكانيات التي قدمها السّيد سي بي.

في ذلك الوقت حدث تطور جديد في كاكوما: فمن خلال إبداع رجل أعمال صومالي، أصبح بإمكان الذين تتوفر لديهم إمكانيات التواصل، أو محاولة التواصل، مع أقرباء لهم في المناطق التي مزّقتها الحرب في شرق أفريقيا. فقد عرف الصومالي الذي أصبح يُعرف بين اللاجئين الناطقين بالإنكليزية باسم السّيد سي بي، كيف يتّصل بالمنظمات غير الحكومية التي تعمل في المنطقة، وكان يجلب بين الحين والآخر الأشخاص الذين يعيشون في أماكن قريبة إلى الإذاعة ليتكلموا مع أفراد عائلتهم في كاكوما. وبغية الوصول إلى أحد في جنوب السودان، كان بإمكاننا أن نزور السيد سي بي، ولقاء أربع دقائق، ندفع له ٢٥٠ شلناً وهو مبلغ كبير بالنسبة لمعظم سكّان المخيّم. وكان يحاول بعدئذ أن يبحث عن أفضل وسيلة للوصول إلى الشخص القريب المعني. وإذا كانت هناك وصلة لا سلكي تابعة لجيش التحرير الشعبي السوداني في المنطقة، فكان باستطاعته أن يتصل من هناك. وإذا كانت توجد منظمة غير حكومية في المنطقة، فكان يذهب ويتفاوض معها، وكان هذا أكثر صعوبة، لأنه توجد لدى المنظمات غير الحكومية قيود على الاستخدام الشخصي لأجهزة اتصالاتهم اللاسلكية. وفي جميع الأحوال، إذا تمكن من إزالة جميع العوائق، فقد كان السّيد سي بي أو أحد معاونيه - لأن لديه موظفين يمثّلون جميع شعوب كاكوما - يقول، إننا نبحث عن فلان وفلان، هل بإمكانكم إحضارهم إلى مكان جهاز اللاسلكي؟ وعلى الطرف الآخر من الخطّ، يُرسل أحد إلى أي قرية أو مخيّم أو منطقة للبحث عن هذا الشخص. في بعض الأحيان، يكون ذلك الشخص بعيداً على مسافة مائة ياردة، وأحياناً على مسافة مئة ميل.

كنت أملك نقوداً كافية لتسديد ثمن الاتصال مع مايال باي، حيث علمت أنه يوجد هناك عامل في منظمة غير حكومية يعمل لدى لجنة الإنقاذ الدولية. وعرفت أن من الضروري، الآن أكثر من أي وقت مضى، أن أتصل بأبي، لأخبره عن التطوّرات التي جرت في حياتي، وعن اختياري للسفر إلى الولايات المتحدة والإقامة فيها. وبعد أن فتح السيد سي بي عملياته بفترة قصيرة، جئت وفي يدي ٢٥٠ شلناً.

كان المكان الذي يعمل فيه السيد سي بي عبارة عن غرفة مستطيلة جدرانها من الطين وسقفها من القش، مكتظة دائماً. فقد كانت الزوجات يحاولن الاتصال بأزواجهن، وأطفال يبحثون عن آباءهم. وكان معظم زبائن هذا الصومالي من الدينكا. لكني عندما وصلت في ذلك اليوم، كانت هناك فتاة مراهقة رواندية تبحث عن عمّتها، قريبتها الوحيدة المتبقية على قيد الحياة، وامرأة من البانتو تبحث عن زوجها وأطفالها. جلست بين صبيين آخرين من الأطفال المفقودين، أصغر مني سناً ليشاهدا كيف تسير العملية، واختبار مدى الوثوق بها قبل أن يجمعا نقوداً لإجراء مكالمة.

جلسنا كلّنا على مقاعد خشبية على جانبي الغرفة الطويلة، وفي المقدمة، جلس السيد سي بي على كرسي، وجهاز اللاسلكي فوق طاولة غير مصقولة أمامه، ومساعدان على جانبيه، واحد من الدينكا، وآخر إثيوبي، جاهز للترجمة عند الحاجة.

بعد ساعتين من الاستماع إلى الخشخشة والإحباط، جاء دوري، وفي هذا وقت، كانت آمالي واقعية. وبينما رحت أنتظر، لم يتصل أحد في ذلك اليوم، لذلك لم تكن توقّعاتي عالية. جلست أمام الطاولة ورحت أستمع بينما كان السّيد سي بي ومساعدوه يتصلون بعامل المحادثة عبر الإنترنت في مايال باي. ولدهشة الجميع، تم الاتصال خلال دقائق. وفغر الصبيان فاههما خلفي عندما سمعا صوت دينكا على الطرف الآخر. لكنّ ذلك حدث بسرعة كبيرة. فلم أكن جاهزاً.

أوضح السيد سي بي الذي يستخدم لغة عربية فصحى بأنّه يبحث عن أبي، دنغ نيبيك آرو. ترجم المساعد الدينكا، وسمعت عامل المنظمة غير الحكومية يقول بأنّه رأى أبي في ذلك اليوم، عند مهبط الطائرات. فقد كانت هناك طائرة معونة تابعة لعملية شريان الحياة في ذلك صباح، وخرجت القرية كلها لرؤية ماذا تحوي تلك الشحنة. وطلب السّيد سي بي أن يدعى أبي، دنغ نيبيك آرو، إلى جهاز اللاسلكي، وأنّه سيتصل بعد ساعة. فوافق الرجل في مايال باي. عدت وجلست على المقعد الخشبي، وهنأني الصبيّان بحماسة كبيرة. كنت أشعر بخدر شديد. كنت متأكّداً من أنني فقدت القدرة على الكلام. بدا أنه من المستحيل أن أتمكن من التكلّم مع أبي بعد ساعة. حتى أنني لم أفكّر بما سأقوله. هل سيتذكّرني؟ وقد عرفت أنه لم يعد عنده أولاد كثيرون الآن، وأنه تقدم في العمر كثيراً. كانت ساعة فظيعة، ساعة الانتظار في تلك الغرفة الضيّقة وذلك الصومال ينبح في جهاز اللاسلكي.

سبقني رجل وامرأة من بورندي، يحاولان الاتصال بعمّ لهما يظنان أنه قد يرسل لهما نقوداً، لكنّ لم يسعفهما الحظّ. وبعد قليل جاء دوري ثانية. أخذ مني السيد سي بي الذي كان واثقاً من أن نجاح هذا الاتصال، فاتصل بالعامل في مايامي باي ثانية.

- مرحباً؟ قال. هل هو هناك؟ أوكي.

أعطاني الميكروفون. حدّقت فيه. كنت ميتاً مثل حجرة.

- تكلّم يا ولد! حثّني المساعد الدينكا. قرّبت الميكروفون من فمي.

- أبي؟

- أتشاك! قال صوت. لم أستطع تمييز الصوت على الإطلاق.

- أبي؟

- أتشاك! أين أنت على هذه الأرض؟

انفجر الصوت في ضحكة مجلجلة. إنه أبي. أن أسمع أبي ينطق اسمي! كان عليّ أن أصدّق بأنه هو. كنت أعرف أنه هو. وعندما أصبحت متأكّداً، انقطع الاتصال. أحس الصومالي بأن كبرياءه أصبح على المحك، اتصل ثانية. وبعد بضع دقائق، انطلق صوت أبي مرة أخرى من خلال الصندوق.

- أتشاك! صاح. تكلّم إذا كنت تستطيع! كن سريعاً مثل أرنب!

- يريدون أني يرسلوني إلى أمريكا.

- نعم، قال. - سمعت أنهم يرسلون صبية إلى هناك. كيف هي؟

وانقطع الاتصال. عندما وجد السّيد سي بي مايامي باي ثانية، واصلت من حيث انقطع الحديث.

- أنا لست في أمريكا. أنا في كاكوما. أريد أن أسألك ماذا يجب أن أفعل. أريد أن أراك. لست متأكّداً إن كنت أريد أن أسافر بعيداً جداً عنك، الآن بعد أن عرفت أنك وأمّي أحياء. أريد أن أعود إلى البيت.

انقطع الاتصال مرة أخرى. هذه المرة استغرق الصومالي عشرين دقيقة لاستعادة الاتصال الذي أصبح الآن أضعف بكثير.

عندما استطعت أنا وأبي أن يسمع أحدنا الآخر ثانية، كان لا يزال يتكلّم، كما لو أنّ الاتصال لم ينقطع. هو كان يلقي عليّ محاضرة الآن، جاداً، صوته مرتفع.

- يجب أن تذهب، يا ولد. هل جننت؟ لا تزال هذه البلدة مليئة بالرماد من الهجوم الأخير. لا تأتي إلى هنا. إني أمنعك من ذلك. اذهب إلى أميركا. اذهب إليها غداً.

- لكن ماذا لو أنني لم أتمكن من رؤيتك مرة أخرى؟ قلت.

- ماذا؟ سترانا. الطريقة الوحيدة التي سترانا فيها هي إذا ذهبت إلى أميركا. عد رجلاً ناجحاً.

- لكن يا أبي، ماذا....

- نعم، الـ «ماذا». صحيح. احصل عليه. إنه هو. اذهب. أنا أبوك وأمنعك أن تأتي إلى هذا المكان...

انقطع الاتصال بالكامل. لم يستطع الصومالي أن يستعيده.

وهذا ما كان.

* * *

في تلك الأيام القليلة الماضية قبل أن أغادر، رحت أجري في كل مكان. فيوم غد سيكون أول يوم لبدء دورة التوجيه، وآخر يوم لي للعمل في مشروع واكاتشياي. جريت إلى الصفّ وجلست مع خمسين صبياً آخر، معظمهم أصغر مني سناً لا أعرفهم، لأن جميع من هم في عمري ذهبوا. كانت هناك معلّمتان، أمريكية وإثيوبية. وكانت الأمريكية تذوي من شدة الحرارة. وكانت قاعة الدروس هذه الموجودة في مبنى المركز الدولي للهجرة أفضل قاعة في كاكوما، لأنه يوجد فيها سقف وأرضية حقيقيتين، وكنا نجلس على كراس.

كنا نستمع، لكننا كنا في غاية الحماسة إلى حد أننا لم نكن نستطيع أن نركز جيداً، لنفهم المعلومات بطريقة مفيدة.

تحدّثت المعلمتان عن الحياة في أمريكا: عن سبل الحصول على عمل، وسبل توفير النقود، وعن ضرورة الوصول إلى العمل في الوقت المحدد. وتحدّثا عن الشقق، وعن شراء الطعام وتسديد الإيجار. وساعدونا في الرياضيات - وقالوا إن معظمنا، سيتقاضى ٥ دولارات أو ٦ دولارات في الساعة. بدا لنا ذلك مبلغاً كبيراً. ثمّ حدّثتانا عن شراء الطعام وتسديد إيجار الشقّة. وعلمتانا كيف نحسب ذلك، عندها أدركنا أنه لا يمكننا أن نعيش على أجر ٥ أو ٦ دولارات في الساعة، لكنهما لم تقدّما لنا حلّاً محدداً، لا أظن ذلك، لكنّ حماسة شديدة كانت تتملكنا فلم نبد أي اهتمام للتفاصيل. وحاولنا أن نستمع إلى كلّ كلمة كانتا تقولانها، لكنّنا كنّا في غاية الإثارة. حاولنا أن نتعلّم الأرقام والحقائق في اليوم الأول ذاك مثل خفافيش تغادر مكانا مجوفاً. واستطاعت المعلمتان أن تجذبا انتباهنا عندما أحضرت المعلمة الأمريكية ثلاجة صغيرة ومرّرت علينا مكعّباً كبيراً من الثلج. كنتُ قد رأيت مكعّب ثلج من قبل، لكنه كان أصغر حجماً، أما الصبية الآخرون، فلم يروا في حياتهم مكعّب ثلج، فراحوا يضحكون، ويصيحون، ويمررون المكعّب من يد إلى يد، كما لو أنه سيغيّرهم إلى الأبد إذا وضعوه في يدهم لفترة طويلة. وفي المكتب في ذلك اليوم، حاولت أن أنقل كلّ ما أعرفه لجورج الذي سيستلم المشروع بأكمله. كان يبدي اهتماماً كبيراً، لكننا كنا نعرف أنّه ستنشأ هناك مشاكل بسبب مغادرتي بهذه السرعة. لأن المشروع خسر الموظفين الأساسيين فيه خلال شهر.

- قد يرسلون شخصاً يابانياً آخر، قال جورج.

- لا أتمنّى ذلك، قلت.

فلم أرغب أن يأتي أشخاص آخرون إلى كاكوما إلاّ إذا كانوا مضطرين، وإنما أردت أن نعتني بأنفسنا، وأن نحلّ كلّ مشاكلنا وحدنا، وألاّ نجلب أبرياء إلى الحفرة التي حفرناها بأيدينا. بدت خطة معقولة، في ذلك اليوم على الأقل، وبعد أن أغلقنا المكتب بعد ظهر ذلك اليوم، شعرت بالرضى بعد أن سوّيت إحدى أموري الأخرى في المخيّم.

في طريقي إلى البيت، كانت أشعة الشمس القاسية لا تزال تغمر فترة بعد الظهر، رأيت أختي غير الشقيقة أدنغ تسير بسرعة نحوي. ذراعاها مشبوكتان حول صدرها، وقسمات غريبة ترتسم على وجهها.

- تعال بسرعة، قالت.

أخذت يدي في يدها. لم تكن قد أمسكت يدي من قبل قط.

- لماذا؟ ماذا في الأمر؟ سألتها.

- توجد سيارة، قالت. - خارج بيتنا. يسألون عنك.

كانت قد توقفت سيارة مرة واحدة فقط أمام ملجئنا، عندما وصلت آبوك.

رحنا نغذّ الخطى نحو البيت.

- انظر؟ قالت.

عندما وصلنا، رأيت أربع سيارات، سيارات تابعة للأمم المتّحدة، سوداء ونظيفة، والغبار يحيطها من كل مكان. وقفت مع أدنغ. فُتحت أبواب السيارة وخرج منها على الفور اثنا عشر شخصاً. هناك شخصان أبيضان، وكينيان، والآخرون يابانيون، وكانوا جميعاً يرتدون بدلات رسمية - سترات وربطات عنق، وقمصان بيضاء نظيفة. تقدّم رجل ياباني شاب، طويل القامة يرتدي بدلة بنيّة فاتحة اللون، وعرّف على نفسه بأنه المترجم.

- هذان هما والدا نورياكي تاكامرا، قال الرجل، موجهاً ذراعه نحو رجل وامرأة متوسطي العمر. - وهذه أخت نورياكي. جاؤوا من اليابان لرؤيتك.

كادت ساقاي تنحلان. يا له من عالم قاس.

حيّاني والداه، ووضعا يدي بين أيديهم. كانا يشبهان نورياكي كثيراً. أمسكت أخته يدي. كانت كأنها توأم نورياكي.

- يقولون إنهم آسفون، قال المترجم، - لكن واكانا، خطيبة نورياكي، ليست على ما يرام. كانت تريد أن تأتي وتقابلك، لكنّها وجدت صعوبة كبيرة في كلّ ذلك. إنها في السرير، في مجمّع الأمم المتّحدة. ترسل لك تمنياتها الطيبة.

وجّه والد نورياكي كلامه لي وترجم الرجل في البدلة البنيّة الفاتحة.

- يقولان إنّهما متأسفان كثيراً لما عانيته من ألم في حياتك. لقد سمعا عنك كثيراً ويعرفان أنّك عانيت كثيراً.

- أرجو أن تقول لهما إن ذلك ليس خطأهما، قلت.

نقل المترجم ذلك إلى اليابانية. ثم قال لي مرة أخرى.

- يقولان إنهما آسفان لأنهما أضافا إلى مأساة حياتك. بدأت أمّ نورياكي تبكي الآن، وبعد قليل بدأت أبكي أنا أيضاً.

- إني آسف جداً لأنكما فقدتما نورياكي، قلت. - كان صديقي الطيب. كان الجميع يحبّونه في هذا المخيّم. أرجوكما لا تبكيا من أجلي.

بدأ الآن الجميع يبكون. جلس والد نورياكي على الأرض، واضعاً رأسه بين يديه. توقّف الرجل في البدلة البنيّة الفاتحة عن الترجمة. وبدأ والدا نورياكي يبكيان ورحت أبكي أمام ملجئي، في الحرارة وتحت ضوء مخيّم كاكوما.

أمضيت يومين آخرين قبل أن أسافر إلى نيروبي، ثم إلىّ أمستردام، ثمّ إلى أتلانتا. لم أنم هانئ البال في تلك الليلة واستيقظت في وقت مبكر، قبل ساعات من بدء دورة التوجيه في اليوم الثاني. وفي الضوء الأزرق الذي يشبه لون الحبر قبل الفجر، تجوّلت في أرجاء المخيّم وتأكّدت بأنني لن أرى شيئاً منه ثانية. فأنا لم أر السودان مرة أخرى، ولم أر إثيوبيا بعد أن هربنا منها. حتى تلك اللحظة في حياتي ، كان كلّ شيء يتحرّك باتجاه واحد. كنت أهرب دائماً.

كان عليّ أن أقوم بأشياء كثيرة في الساعات الثماني والأربعين الأخيرة تلك. كنت أعرف أنّني سأنفذّ بعضها بشكل جيد. انتهت دورة التوجيه في الساعة الثانية وفي الفترة التي يظل فيها ضوء الشمس، عليّ أن ألغي بطاقة حصة الإعاشة، وأحزم أمتعتي ثم أودع مئات الأشخاص الذين لن أراهم ثانية.

كنت أعرف أنه يجب أن أوزع معظم أغراضي. فقد جرت العادة بأن يترك الشخص الذي سيغادر المخيّم كلّ مقتنياته للذين سيبقون في المخيّم. فيطلب الأشخاص المقربين من الشخص المغادر الحصول على كلّ ما يرغبون في الحصول عليه.

ففي اليوم الذي عُرف فيه بأنني سأغادر، تم حجز كلّ ما أملكه. فقد حجز دنغ لوول فراشي. وحجز مابيور آبوك سريري، وحجز كورنيليوس، الصبي الذي يقيم في الحيّ المجاور، درّاجتي؛ وحجز أتشيك نغيث ساعتي، وهو صديق قديم كان قد أبدى إعجابه بها كثيراً. واشتريت ببعض النقود التي وفرتها ملابس جديدة، وبعض البناطيل ذات الجيوب الجانبية، الخفيفة الوزن والأنيقة.

رحت أجري من مكان إلى مكان على دراجتي، في تلك الليلة وفي صباح اليوم التالي، ولم يكن الناس الذين يرونني، يصدّقون بأنني سأغادر.

- هل ستغادر حقاً؟ كانوا يسألونني.

- آمل ذلك! كنت أردّ. ولم أكن متيقناً إن كان هذا حقيقي أم لا.

كان يوم السبت وكان عليّ أن أغادر بعد ظهر يوم غد. كنت لا أزال غير متيقن من أنني سأغادر، لأن البدايات الفاشلة كانت كثيرة وجميعها قاسية. ثم أمضيت وقتاً وأنا أفكّر في أنه لا يوجد شيء يمكنني أن أفعله إذا ذهبت إلى الولايات المتحدة، وأن كلّ ذلك يبدو غير منطقي، بل الشيء المنطقي هو أن ألغي المسألة برمتها. وبينما كنت أجري في أرجاء المخيّم، أصافح الأشخاص الذين أعرفهم، بدأت تبدو لي احتمالية المغادرة أقوى. فقد بدأت أصدّق بأنني سأغادر عندما بدأ كل من يعرف بأنني سأغادر يتمنّى لي التوفيق في رحلتي، فلا يمكن أن يكون جميع هؤلاء الأشخاص متوهمين.

عندما وصلت إلى البيت لأنام آخر ليلة في كاكوما، تناولت عشاء حزيناً وبهيجاً جداً مع غوب والعائلة التي تبنّتني. وبكت أيين وبناتها لأنني سأغادر، وبكت تلك الأخوات بحرقة مع أن كلّ واحدة منهن تستأهل مثلي أن تغادر هذا المخيّم، لكن لن تتاح لهن الفرصة لمغادرته، إلاّ إذا تزوّجن رجالاً ناجحين في السودان. فلم تكن الأمم المتحدة تعتبرهن مؤهلات لإعادة الاستيطان لأنهن يعشن في كنف عائلة، ولهذا السبب فإنهن لسن معرّضات لأي خطر. ولم يكن أي بلد يريد أن يستقبل عائلات، لذلك، لا يزال غوب وزوجته وبناته يعيشون في كاكوما حتى اليوم.

بعد العشاء، حزمت الأغراض القليلة التي سآخذها: البنطلون الجديد الذي اشتريته، والوثائق العديدة التي أحتفظ بها - تقارير الدرجات الدراسية، وإثبات إكمال دروة تدريبية في تحكيم الكرة، وشهادة تدريب على التنفس الصناعي، وبطاقة عضوية لفرقتي المسرحية - اثنتا عشرة وثيقة. ووجدت قطعتين مناسبتين من الورق المقوّى، ووضعت الأوراق فيهما كي تظل سليمة أثناء الرحلة. ثمّ حدث الشيء الأكثر غرابة: فقد جاءت ماريا إلى غرفتي. مع أنني كنت سأودعها يوم غد، لكنّها جاءت لتراني الآن.

لا أعرف كيف تمكّنت من مغادرة بيتها في المساء. لا أعرف ماذا قالت لغوب وزوجته حتى سمحا لها بأن تدخل إلى غرفتي. لكن ها هي الآن تقف عند المدخل، ذراعاها مشبوكتان فوق صدرها.

- لا أظن أنّك يجب أن تذهب.

قلت لها إنني آسف لأنني سأتركها، وأنني سأشتاق إليها أيضاً.

- ليست المسألة أنّني سأشتاق إليك. أقصد أنني سأشتاق إليك أيها النؤوم. لكني أظن أن اللّه يرسم لك شيئاً. فقد أخذ نوزياكي، وأظن أن لديه خطة لك. عندي هاجس.

أمسكت بيدها وشكرتها على قلقها عليّ.

- أعرف أنني أبدو مجنونة، قالت. ثم هزّت رأسها، كما لو أنها تلقي بهواجسها جانباً، بالطريقة التي ترفض فيها أيّ آمال وأفكار من بنات أفكارها. لكن وجهها تشنج مرة أخرى ونظرت في عينّي بشراسة غر مألوفة.

- لا تذهب غداً، قالت.

- سأراكِ في الصباح، قلت. - سآتي لزيارتك وإذا كنت تظنين أنني يجب ألاّ أغادر، عندها سندرس خطة جديدة.

وافقت، مع أنها لم تصدّقني تماماً. انسلّت من غرفتي في تلك الليلة ولم أرها مرة أخرى. لم أقل لها إنني أشاطرها نفس الهواجس، وأنّ مخاوفي كانت فورية وواضحة أكثر بكثير من مخاوفها. لم أخبر أحداً بذلك، لكنّي كنت شبه متأكّد من أن ثمة شيئاً غير محمود سيحصل لي في هذه الرحلة. لكنّي لم أعد أستطيع أن أعيش في هذا المخيّم. فقد مضى عليّ في كاكوما عشر سنوات تقريباً ولن أمضي كلّ حياتي فيها. فأحسست بأنني سأقبل أيّ خطر يصيبني.

صمت مطبق يخيّم على بهو نادي القرن بعد الثامنة صباحاً. الأعضاء يتمرنون وراء الحاجز الزجاجي، يخطون ويجرون ويرفعون. أراقبهم وأفكّر بالتغييرات التي يمكنني أن أجريها على نظامي الغذائي. فمنذ شهرين بدأت أتمرّن أحياناً خارج أوقات عملي. فقد قالت لي مديرة النادي، وهي امرأة صغيرة الحجم تكسوها عضلات، اسمها ترايسي، بأنّني أستطيع أن أحصل على حسم ٥٠ في المائة إذا سُجلت في النادي بعضوية غير كاملة، وقد اغتنمت هذه الفرصة. فقد زاد وزني أربعة باوندات خلال هذين الشهرين، وأظن أن حجم صدري ازداد وكبرت عضلتا ذراعي. فلم أكن أريد أن أنظر في المرآة وأرى الحشرة التي كنتها ذات يوم.

دخلت امرأة جديدة إلى النادي، امرأة لم أرها من قبل. بيضاء، ضخمة الجسم، لطيفة جداً. يبدو أنها أجفلت عندما رأتني.

«مرحبا»، قالت، «لم أرك من قبل. ما أروع ابتسامتك».

حاولت أن أعبس قليلاً لأظهر لها أنني قاسي القلب.

«أنا سيدرا»، قالت، ومدّت يدها. «أنا جديدة. جئت إلى هنا مرّتين فقط. أنا، كما تعرف، أجري بعض التغييرات». ونظرت إلى خصرها باستحياء، وشعرت على الفور بأنّني يجب أن أقول شيئاً. أردت أن أجعلها تشعر بأنها في حال أفضل، أن تشعر بأنها امرأة مباركة. أردت أن تعرف بأنّها مباركة. لأنها موجودة هنا الآن، لأنها لا تزال على قيد الحياة، لأنها تعيش دائماً في هذا البلد. سيدرا، أنت امرأة مباركة.

أعطتني بطاقتها ومررتها في شق الآلة الإلكترونية. ظهرت صورتها، ابتسامتها حزينة، ودخلت إلى الصالة.

سيدرا، في صباح آخر يوم ذاك، استيقظتُ في الساعة الرابعة صباحاً لأتفادى أيّ ازدحام على حنفية الماء. لكني عندما وصلت، لم يكن هناك أحد، فاعتبرت ذلك فألاً حسناً. فجلبت الماء إلى البيت واستحممت. وعندما خرجت من مقصورة الحمّام، رأيت دنغ لوول الذي حجز فراشي واقفاً عند المدخل.

- لم يطلع الفجر بعد، قلت له.

- لم تكن عندي فرشة في حياتي، قال. - عندي زوجة، وهي ستقدّر ذلك كثيراً. وبذلك سأكون بطلها.

تمنّى لي رحلة آمنة ووضع الفرشة على رأسه وغادر.

ارتديت ثيابي الجديدة المتجعدة وحزمت أغراضي في كيس بلاستيكي. لم يكن لديّ سوى أدوات الحلاقة، وغيار واحد وأوراقي الثبوتية. لم يكن معي شيء آخر.

بدأ جميع من في بيتي يستيقظون، وبدأ الجميع يبكون.

- ارفع رأس السودانيين، قال غوب.

- سأفعل، قلت. في تلك اللحظة، كان يتملكني اعتقاد بأنّني أستطيع ذلك.

ودّعت أخواتي فتى كاكوما كلّهن، وودّعت أبيتن التي كانت أمّي لسنوات عديدة في المخيّم. كان فراقاً سريعاً. كان البقاء أطول من ذلك مربكاً. غادرت بسرعة إلى حدّ أنني نسيت أحد قمصاني الجديدة، وتركت حذائي الجديد. أدركت ذلك لاحقاً، لكنني لم أشأ أن أعود.

عندما خرجت من البيت، وجدت كورنيليوس، الصبي الجار الذي حجز درّاجتي. كانت درّاجة جيدة، درّاجة صينية الصنع ذات عشر سرعات، وكان كورنيليوس جالساً للتو على مقعدها النظيف المصنوع من الفينيل، وقد رفع مسندها، وكان يتدرب على قيادتها، يدفع الدواسات إلى الأمام وإلى الوراء.

- جاهز؟ قال كورنيليوس.

- حسناً، لنذهب.

ستكون هناك سماء زرقاء صافية طوال النهار. كنت مستعدّاً للذهاب إلى المجمّع سيراً على الأقدام، ومن هناك أستقلّ الحافلة إلى مهبط الطائرات - لكن كورنيليوس، بدراجته الجديدة، أصرّ على أن يوصلني، فجلست وراءه على المقعد الصغير، وحقيبتي في حضني.

أخذ بعض الوقت حتى يقود الدرّاجة بشكل جيد وأنا جالس وراءه.

- حرّك الدواسة، يا ولد، حرّك الدواسة! قلت.

بعد قليل أصبح متوازناً وسرعان ما خرجنا إلى الطريق الرئيسي المؤدي إلى مهبط الطائرات. عندما أصبحنا على الطريق، رأينا أناساً آخرين. مئات. آلاف. كان يبدو أن نصف كاكوما تمشي في ذلك الطريق، لتوديع الستّ وأربعين صبياً الذين سيغادرون المخيّم في ذلك اليوم. فمع كلّ شخص مغادر، كان يرافقه مئات الأصدقاء. فلم تعد تستطيع أن تعرف من هو المسافر الحقيقي ومن هم الأصدقاء. كان موكباً ضخماً، مليئاً بالنساء الحزينات، ألوان أثوابهن تلمع في الطريق البرتقالي المليء بالشقوق المفضي إلى مهبط الطائرات.

بدأ كورنيليوس يقود الدراجة بسرعة كبيرة عبر جموع الناس.

كان يرنّ الجرس على المقود، يبعد الحشود من أمامنا.

- انتبه! كان يصرخ. - ابتعد جانباً، ابتعد جانباً!

كان المغادرون يشعرون بالأسف للذين بقوا، والذين بقوا يشعرون بالأسف لأنهم باقون. لكنّي لم أستطع أن أتوقّف عن الابتسام. تلاشى صداعي مؤقتاً خلال جولة الدرّاجة تلك، وعندما مررنا عبر المخيّم، وأنا جالس على درّاجتي من الخلف، كان الناس يفسحون الطريق للدرّاجة ويصرخون.

- من هو المغادر؟ كانوا يسألون.

- أنا، قلت. فالانتينو! أنا!

أخذ كورنيليوس يزيد سرعته أكثر وأكثر. وأصبح الآلاف الذين أعرفهم في كاكوما الآن غبشاً ملونين بجميع الألوان. خرجوا من بيوتهم وراحوا يركضون خلفي، يتمنّون لي الخير في كلّ أسمائي.

- من هو المسافر؟ لا يمكن! قالوا. هل هو أنت؟ هل هو أتشاك؟

- نعم! كنت أصيح، ضاحكاً. سأسافر! أتشاك سيغادر! فيلوّحون ويضحكون.

- حظّاً سعيداً لك! سنشتاق إليك يا أتشاك!

- مع السلامة يا دومينيك!

- لا تعد إلى هذا المكان الوسخ، يا فالانتينو!

وكنت أنظر في وجوههم وأنا أمرّ من جانبهم، جالساً فوق العجلة الخلفية لدراجتي ذات العشر سرعات التي كانت تتقافز، وكنت أتمنّى أنّ يغادر هؤلاء الناس المخيّم، مع أنني كنت أعرف أنّ حفنة منهم فقط سيغادرون. كانت الشمس حادة عندما وصلنا إلى المجمّع. أبطأ كورنيليوس وقفزت منها. كان قد أدار الدرّاجة وعاد إلى البيت عندما تذكّر أن يودعني. صافحني وانطلق عائداً. فتى صغير بدرّاجة كتلك؟ كان ذلك شيئاً لم يسبق له مثيل في ذلك المخيّم.

خرجتُ من البوابة. داخل المجمّع، تجمّع الصبية الآخرون الذين سيغادرون، وكانوا جالسين في ظلّ أكبر شجرة في كاكوما. كانت الرحلة ستغادر عند الساعة الثانية بعد الظهر، أما نحن الذين كنّا سنغادر على متن تلك الطائرة فقد أتينا في وقت مبكر، ورحنا نفكّر بأننا غادرنا كاكوما، غادرنا كينيا، غادرنا أفريقيا. كنّا نفكّر بنوع العمل الذي سنقوم به في الولايات المتّحدة. رحنا نفكّر بالمدارس هناك، فقد كان الكثيرون منّا يتخيّلون بأنّنا، خلال بضعة أسابيع،

سنكون طلاباً في الجامعات الأمريكية. وكان لدى أحد الصبية كتيباً مصوراً عن إحدى الجامعات، وقد مررناه على أحدنا الآخر، نبدي إعجابنا بالحرم الجامعي الجميل، والطلاب من ذوي الانتماءات العرقية المختلفة وهم يمشون تحت ظلال الأشجار، أمام مباني الجامعة الحجرية.

- ظننت أن أرميا دوت سيأتي، قال أحد الصبية.

- لم يوافقوا عليه. اكتشفوا أنه كان جندياً.

تحدّث الصبية عن ذلك لفترة من الوقت، بهدوء، ورحنا نقارن الأكاذيب التي كنا قد قلناها. فقد قال عدد من الصبية إن آباءهم ماتوا، بينما لم يكن بعض الصبية متأكدين من ذلك. وبعد ساعة من الجلوس في الظلّ، حلّقت طائرة فوق التلال، تبدو صغيرة جداً وهشّة جدا.

- أهذه هي الطائرة؟ سأل أحدهم.

- لا، قلت.

في تلك اللحظة، دارت فوقنا وعندما هبطت أخيراً تأكدت من أن هذه الطائرة هي التي ستوصلني إلى حتفي.

صعدنا إلى الطائرة التي يقودها قبطان فرنسي لا يزيد حجمه على حجم فتاة مراهقة. كان في الرحلة ستّة وأربعون صبياً، مشينا كلّنا في نفس الطريق تقريباً. لم أكن أعرف أحداً منهم جيداً، لأن أصدقائي ذهبوا منذ مدة طويلة. وما إن انطلقت محرّكات الطائرة، حتى تقيّأ أحد الصبية فوق حذائي، وتقيأ الصبي الجالس أمامي بعد أن شمّ رائحة قيء الصبي الآخر، فوق طعام فطوره. وعندما حلّقت الطائرة، تقيأ ثلاثة صبية آخرون من دوار الجو، وجد اثنان منهم أكياس التقيؤ في الوقت المناسب. ثم لم يصدر أحد صوتاً. وأصيب الذين كان بإمكانهم أن ينظروا من النوافذ بالذهول.

- انظر إلى تلك البناية! جسر؟

- لا، ذاك بيت!

وفي داخل الطائرة كان الضوء براقاً جداً فاضطررنا إلى تخفيض الأغطية لنريح عيوننا.

هبطت الطائرة في وقت متأخّر من يوم الأحد. لم يكن أحد منّا قد جاء إلى مطار كينياتا الدولي قبل الآن، فأصبنا جميعاً بالذهول والدهشة من حجمه. فقد كان أضخم بكثير من مهبط الطائرات في كاكوما، أضخم من أيّ مستوطنة شاهدناها في حياتنا. كان يبدو لا نهاية له.

مع حلول مساء، انتظرنا في المطار حتى تأتي حافلة لتقلنا إلى نيروبي، إلى غول، مركز تجهيز أوراق اللاجئين تديره المنظمة الدولية للهجرة. كان علينا أن ننتظر هناك حتى اليوم التالي، من أجل رحلتنا إلى أمستردام وما بعدها.

في الظلام الذي يحيط بالمطار كان من المستحيل على شبان مثلنا أن نعرف ما الذي كنّا نراه. ما هذه الأضواء؟ هل هي أضواء موصولة بهياكل أم منفصلة؟ ففي الليل، يغلف الظلام معظم كاكوما لأنه لا توجد كهرباء كافية، أما هنا في كينياتا فإن الجميع يظلون مستيقظين. لا أحد ينام هنا أبداً.

- والسيارات!

في كاكوما كلها كانت تمر بضع سيارات بين حين وآخر.

- يا رجل، هذا كبير! قال أحد الرجال.

ضحك الجميع لأننا كنّا كلّنا نفكّر بذلك. وبينما كنّا متجهين من المطار إلى نيروبي، بدأت الرهبة تزداد. لم ير أحد مدينة من قبل إلاّ أنا.

- هذه البنايات! قال أحد الصبية. - لا أريد أن أمشي تحتها.

لم يكن أحد من الصبية الآخرين قد رأى بنايات يزيد ارتفاعها على ثلاثة طوابق، وكانوا يعتقدون بأنّ الظلال على الطرق ستظل هناك. وعندما وصلنا إلى مركز غول أعطونا برامج السفر وقدموا لنا عشاء من الفاصولياء، والذرة الصفراء، وماراغ وهو مزيج من الذرة الصفراء والفاصولياء والملفوف. ثم أخذونا إلى غرفنا، ستّة صبية في كلّ غرفة، ننام في ثلاث مجموعات من الأسرّة.

- أوه، انظروا إلى هذه!

معظم الصبية الذين كانوا معي لم يناموا على شراشف بيضاء نظيفة قط. وألقى فتى يدعى تشارلز بنفسه على السرير، وتظاهر بأنه يسبح، ثمّ شاركه

آخرون، وفعلت أنا ذلك أيضاً. فرحنا نسبح كلّنا على الشراشف البيضاء وضحكنا كثيراً.

نمتُ نوماً متقطّعاً في تلك الليلة، أنصت إلى زملائي في الغرفة الذين لم يتوقفوا عن الكلام.

- إلى أين ستذهب بعد ذلك؟

- شيكاغو.

- أوه نعم، شيكاغو. الثيران! ثم نضحك كلنا ثانية.

- هل الجو بارد في سان خوزيه؟

- لا، لا. أظن أنه دافئ.

- شيكاغو سيئة لك كثيراً! وضحكنا مرة أخرى.

في صباح يوم الإثنين الصافي والرطب، كان هناك فطور ولم يكن عندنا شيء نفعله بعد ذلك. ولم يُسمح لأحد منا أن يغادر الفندق. فقد كان مسيّجاً ويحرسه جنود من الجيش الكيني. لم نعرف سبب ذلك.

مرة أخرى في تلك الليلة، لم يغمض لأحد جفن. كانت الغرفة معتمة لكن النكات كانت تُلقى، وكانت نفس الأسئلة تُسأل.

- من الذي سيذهب إلى شيكاغو مرة أخرى؟

- أنا. أنا الثور.

يصعب تفسير لماذا كان ذلك مضحكاً جداً، لكنّه كان مضحكاً في ذلك الوقت.

كانت النكتة المفضّلة الأخرى في الليل حول سان خوزيه. فقد كان ثلاثة من الصبية في الغرفة سيذهبون إليها، لكن لم يكن أحد يستطيع أن يلفظ اسم ذلك المكان.

- سنذهب إلى سانت جو! قالوا.

- نعم، سان جو هي المكان الجيد.

في اليوم التالي، كنّا سنذهب أخيراً إلى المطار لنستقل الطائرة الحقيقية، الطائرة التي ستتوجه إلى أمستردام ثم إلى نيويورك. ومن نيويورك سنُوزع على اثنتي عشرة مدينة مختلفة: سياتل، أتلانتا، أوماها، فارغو، جاكسونفيل، وأماكن عديدة أخرى.

عندما صعدنا إلى الحافلة، بدأ الإعياء يسيطر علينا أخيراً. كان يوم الثلاثاء، كان قد مضى على وجودنا في غول ستّاً وثلاثين ساعة، ولم ينم أحد منا أكثر من بضع دقائق. وها نحن أخيراً نشق طريقنا إلى المطار، نرتدي جميعاً قمصاناً قطنية موحدة رُسم عليها شعار المنظمة الدولية للهجرة، وحملت كلّ نافذة من نوافذ الحافلة ثقل رأس أحد الصبية الذين أسندوا رؤوسهم إليها. لكن حفرة أمام المدخل إلى كينياتا أيقظت الجميع فعاد المرح من جديد. حاولت أن أبقى هادئاً لأنني شعرت بثقل في رأسي، وكان الألم مبرحاً إلى درجة أنني رحت أتساءل إن كان ثمة شيء قد أصابني. فكّرت لبعض الوقت بأن أقول شيئاً بسرعة للشخص الكيني الذي يقودنا إلى الحافلة، وأسأله إن كان هناك دواء ما، لكني أحجمت. فمن غير العقلاني الآن أن يوجّه أحد منّا الأنظار إليه ونحن في هذه الحالة. فإذا أحدثت ضجّة فقد يسلبون الفرصة منك، وإذا اعترضت على أيّ شيء فقد لا تحصل على شيء.

كان هناك آلاف الناس في المطار اليوم، مزيج محيّر من الكينيين والسود من ذوي البشرة الأخفّ، وحوالي مئة شخص أبيض، لوحتّ معظمهم الشمس وأصبحت لون بشرتهم وردية. ورأينا مجموعة من البيض - ربما خمسون -بشرتهم أكثر بياضاً مما كنّا رأيناه في مكان واحد طوال حياتنا - متجمعين معاً حول حقائبهم الكثيرة، يبحثون كلّهم عن جوازات سفرهم. أردت أن أكلّمهم، أن أمارس لغتي الإنكليزية، وأقول لهم بأنني سأصبح قريباً جزءاً من عالمهم. لم أعرف من أي بلد هم، لكنّي كنت مستغرقاً في التفكير بأنني أغادر الآن عالماً وأدخل عالماً آخر، وأن العالم الأمريكي هو عالم أبيض وأن جميع البيض، حتى هؤلاء الأشخاص في نيروبي، هم جزء منه.

انتظرنا قرب البوابة، محاولين ألاّ نلفت الانتباه. كان يعتري كلّ واحد منّا القلق بأنه إذا رأتنا الشرطة أو سلطات المطار، فقد يعيدوننا إلى المخيّم على الفور. فلم يبتعد أحد منّا عن مقعده. وحتى لم نذهب إلى الحمّام. انتظرنا ساعة، واضعين أيدينا في حضننا، حتى حان الوقت. فصعدنا إلى طائرة يزيد حجمها خمسة أضعاف حجم الطائرة التي نقلتنا إلى نيروبي، وأكثر فخامة بكثير بجميع المعايير. ربطنا أحزمة مقاعدنا. انتظرنا. كان الألم في رأسي يزداد في كلّ دقيقة.

جلسنا حتى صعد جميع الركاب إلى الطائرة، ثم جلسنا لمدة ثلاثين دقيقة أخرى. أجلسونا كلنّا في المقاعد في منتصف الطائرة، وظللنا صامتين. مرّت ساعة. لم نقل شيئاً، لأنّنا لم نكن نعرف كم تستغرق الطائرات لتتوجّه إلى أمستردام ثم إلى نيويورك. أما الأشخاص الآخرون على متن الطائرة، بيض وكينيون، بدأوا يطرحون أسئلة، وجاءت سلسلة من التطمينات بواسطة جهاز الاتصال الداخلي. - ننتظر تصريحاً من البرج. - إننا مستعدّون للإقلاع ونحن بانتظار الأوامر. - نرجو أن تتحملونا. نشكركم على تجملكم بالصبر. نرجو أن تظلوا جالسين في مقاعدكم وأن تربطوا أحزمة مقاعدكم.

مرّت ثلاثون دقيقة أخرى. ثم عاد الصوت على جهاز الاتصال الداخلي مرة أخرى.

- وقع حادث في نيويورك. ولا تستطيع هذه الطائرة التوجّه إلى تلك المدينة.

خيّم صمت لبضع دقائق أخرى.

- نرجو مغادرة الطائرة بانتظام. لن تغادر أي طائرة نيروبي في هذا الوقت. عودوا إلى صالة الانتظار المخصصة لكم وانتظروا تعليمات أخرى.

كانت حافلتنا ثاني حافلة تصل إلى الفندق الذي كان يتجمّع في بهوه حوالي مئة شخص، من العاملين في الفندق السودانيين والكينيين، وحتى عمّال الصيانة والطهاة، حول جهاز التلفزيون، يشاهدون الأبراج وهي تحترق مثل مداخن ثم تتهاوى. ثمّ صور لوزارة الدفاع الأمريكية. لم ير أحد منّا نحن السودانيين المباني التي تعرضت للهجوم، لكنّنا فهمنا بأنّ الولايات المتّحدة في حالة حرب وأنّنا لن نذهب إليها.

- من هو العدو؟ سألت حمالاً كينياً. هزّ كتفيه. لم يعرف أحد من فعل ذلك.

أكلنا ونمنا بأفضل ما يمكننا. فقد كنّا محاصرين في غول ريثما يقرر العالم ماذا يجب أن نفعل. كما حدستُ، وكما حدست ماريا، فقد أرسل اللّه لي رسالة. فلن أصعد إلى هذه الطائرة أو إلى أيّ طائرة أخرى.

توقعّنا أن يعيدوننا إلى كاكوما على الفور، لكنهم لم يرسلوننا إلى كاكوما في اليوم الأول ذاك. وفي اليوم التالي، لم يعيدوننا إلى كاكوما. لم نكن نعرف شيئاً عن وضعنا، ما هي الخطط التي يخبئوها لنا، لكن مع مرور الأيام، تشجعنا أكثر حول مصيرنا. ربما سنقيم في نيروبي. وخطرت لأحد الصبية

فكرة بأننا قد نعمل في الفندق في غول، أو على الأقل أولئك الذين لديهم مهارات في هذا المجال. وادّعى بأنه طاه ماهر.

لم يرغب بعضنا في الذهاب إلى أمريكا الآن. فقد بدت السودان بالنسبة لهم أكثر أماناً من نيويورك. وظنّوا أن الأمور ستزداد سوءاً، عندما تبدأ عمليات الانتقام التي يفترض أن تؤدي إلى نزاع أكبر. واتفق الجميع على أنّ أيّ حرب ستخوضها الولايات المتّحدة ستكون أكبر حرب عرفها العالم. تذكرت كل ما رأيت من انفجارات في الأفلام وبدأت أتخيّل. الحرب القادمة ستبدو هكذا، نار تملأ السماء، تغطّي العالم. أو ربما ستسقط البنايات، جميع البنايات في أمريكا، فوق بعضها كما حدث في نيويورك. احتراق، ثمّ انهيار.

لم نسمع أي خبر من المنظمة الدولية للهجرة أو من أي شخص يوم الأربعاء، أو يوم الخميس، أو يوم الجمعة. وفي يوم السبت حدث شيء غير جيد: فقد وصل عدد آخر من اللاجئين من كاكوما. فقد طارت طائرة أخرى من المخيّم إلى نيروبي، ووصل إلى الفندق ستة وأربعون صبيّاً سودانياً آخر، تبعتهم مجموعة أخرى في ذلك المساء. وفي يوم الأحد، جلبت طائرتان مائة مسافر آخر. كانت تلك رحلات منتظمة، كالرحلة التي أحضرتنا، ولم تُعدَّل مواعيدها. وسرعان ما أصبح هناك ثلاثمائة لاجئ في غول، وهو مرفق مخصص لثلث هذا العدد، فأصبح صبيّان ينامان في كلّ سرير. وأُحضرت فرش إلى الفندق من مخازن ومستشفيات لديها فائض، وسرعان ما أصبحت الممرات ضيّقة ولم يعد الناس يستطيعون السير فيها بسهولة. وفُرشت بقيّة الطوابق بالبطانيات والشراشف ونمنا عليها لساعات طويلة، عندما كنا نستطيع ذلك.

سمعت من أحد القادمين الجدّد عن ماريا. فبعد فترة قصيرة من زيارتها لي في تلك الليلة، عندما حثّتني على ألاّ أغادر، حاولت أن تنتحر. فابتلعت مزيجاً من سائل تنظيف وحبات أسبيرين، وكانت ستموت لولا أن وجدها الشخص الذي يتبناها في سريرها، وشريط سائل أبيض يسيل من فمها. فنقلوها إلى مستشفى لوبيدنغ بسرعة، وأصبحت حالتها مستقرة الآن. لقد دمرني هذا الخبر اليوم، لكن يا سيدرا، الحمد لله، انتهت قصّتها نهاية جيدة. ففي المستشفى التقت بطبيبة أوغندية، استمعت إلى قصّتها وكفلت ألاّ تعود ماريا إلى الرجل الذي يريد أن يكسب من تزويجها أكبر مبلغ ممكن. واعتنت هذه الطبيبة بها، وسجلتها في مدرسة في كامبالا، مدرسة فيها أقلام وأقلام رصاص وألبسة رسمية وجدران. وتدرس ماريا حالياً في الجامعة في لندن، ونتواصل معاً بالإيميل وبالرسائل النصّية وأصبح بإمكاني أن أطلق عليها الآن اسم النؤومة أيضاً لأنها حاولت أن تنام إلى الأبد لكن يبدو الآن أنها سعيدة لأنها لا تزال مستيقظة.

في اليوم الثاني من مكوثنا في غول، غمرت نيروبي أمطار حارة، وسرعان ما أصبحت تفوح في الفندق رائحة كريهة. فلم تكن الحمّامات نظيفة. ولم تكن هناك كميات كافية من الطعام. أردنا أن ننفق النقود التي كانت لدينا - فقد أحضر عدد منّا مدّخراتهم لشراء الطعام في نيروبي، لكن الأمن أصبح الآن أشدّ من ذي قبل. فلم يعد أحد يستطيع أن يأتي أو يذهب. وأدت المنافسة على الطعام في غول إلى ظهور سلوك سيئ من قبل البعض، لأن اللحم لم يعد يتوفر إلاّ نادراً، وكان ذلك يثير الخلافات والمشاعر بالمرارة، ولم يذق اللحم إلاّ عدد قليل جداً منّا.

لم يكن هناك شيء يمكننا أن نفعله. كنّا نصلّي في الصباح وفي الليل، لكنّي كنت عاجزاً ومشوشاً. شعرت بالعجز معظم حياتي، لكن لم يكن هناك شيء كهذا. ولام بعض الصبية سائق حافلتنا وقالوا له إنه يقود ببطء شديد - وقالوا لو أنه كان أسرع لوصلنا إلى الطائرة في وقت أبكر، ولغادرنا المطار قبل أن تتوقف الرحلات عن الطيران. كان هذا تفكير العقول اليائسة. لكن كان بعضنا يرى أننا ربما سنذهب إلى الولايات المتّحدة. أو إلى أستراليا أو ربما إلى كندا - لكن ليس إلى هذا البلد الذي تعرض لهجوم. لم نكن متأكدين من أنهم سيأخذوننا إلى أمريكا، وكنّا ندرك بأنهم قد يغيّروا رأيهم بسرعة وعلى نحو مبرر. فلماذا يرغب بلد يتعرّض إلى هجوم إلى أناس مثلنا؟ فنحن مشكلة مضافة لبلد يتعرض إلى مشاكل.

توقف المطر بعد ظهر اليوم الثامن وأصبحت نيروبي حارة تحت سماء صافية. جلست على السرير الذي أتقاسمه مع شاب آخر يدعى دانيال ورحت أحدّق في الجدران والسقف.

- أتمنّى لو أنّني لم أكن أعرف شيئاً عن أمريكا، قال الصبي في السرير تحتي.

تساءلت إن كانت هذه هي أفكاري أيضاً. لا أذكر أنني فعلت شيئاً في ذلك اليوم. لا أظن أنني تحرّكت من مكاني.

انتظرنا نحن الثلاثمائة صبي. وعلمنا أنّ الرحلات التي كانت تقلّ «أطفال السودان الضائعين» التي سافرت قبلنا قد حُوّلت إلى كندا وإلى النرويج. تقطّعت بالمسافرين السبل في جميع أنحاء الأرض. توقّف العالم، قال أحد الكينيين. هزّ الجميع رؤوسهم.

وبعد فترة قصيرة توقّفت الرحلات القادمة من كاكوما، لكن اللاجئين استمروا في التدفق إلى غول. فقد جاءت الآن مجموعة مؤلفة من سبعين صومالياً من المعسكر الكيني الآخر، داداب، فاضطر المسؤولون عن المركز

للسماح للجميع بإمضاء فترة أطول في الخارج. وبدأنا نتناوب على تنفّس الهواء في الباحة.

بدأت أشاهد الأخبار مع جميع الشبان الآخرين في غول، راجياً أن أسمع الرئيس الأمريكي وهو يقول شيئاً عن الحرب، من هو العدو. ومع مرور الأيام، بدأ يتملكنا شعور بأنه لن تُشَنّ هجمات أخرى، وبدا لنا أن من المستحيل أن يحدث هجوم في يوم واحد ثم يتوقف، فليست هذه هي الحرب التي اعتدنا عليها. وبقينا قريبين من جهاز التلفزيون، لا نتوقّع إلاّ سماع أخبار سيئة.

- أنتم السودانيون تريدون أن تذهبوا إلى أمريكا!

كان رجلاً صومالياً، مسنّاً مثل أيّ صومالي رأيته حتى ذلك الحين، يكلّمنا من الغرفة المقابلة. كان واقفاً، ينظر إلينا ونحن نشاهد الأخبار. لم يكن أحد منّا يعرف عنه شيئاً، لكن أحداً قال إنه رآه في كاكوما.

- إلى أين ستذهبون؟ إنهم في حالة حرب! قال الصومالي.

كنت قد سمعت عن هذا الرجل. كان الآخرون في غول يطلقون عليه اسم «الرجل الضائع». لقد أثار الرجل الضائع حنقي بسرعة كبيرة.

- أتظنون أن الأوضاع أفضل هناك؟ صاح، بينما كان التلفزيون يعرض زاوية جديدة من الطائرات وهي تخترق زجاج المبنيين الأسود.

لم يجبه أحد.

- لن تكون الأوضاع أفضل! - واصل قائلاً. - أتظنون أنكم لن تواجهوا مشاكل هناك؟ ستواجهون مشاكل مختلفة، أيها الصبية الأغبياء!

لم أستمع إلى هذا الرجل. عرفت أنّه رجل محطم، مخطئ. كنت أعرف أننا سنعيش في الولايات المتّحدة، على الرغم من تلك الهجمات، حياة سهلة مليئة بالفرص. لم يكن عندي شكّ في ذلك. كنا مستعدين للتغلب على جميع العقبات التي ستظهر أمامنا. كنّا مستعدّين. كنتُ مستعداً. فقد نجحت في كاكوما وسأجد طريقي للنجاح في أمريكا، سواء أكان ذلك البلد في حالة حرب أم في حالة سلم. فما إن أصل إليها سألتحق فوراً بالجامعة، وسأعمل في الليل وأدرس في النهار. ولن يغمض لي جفن حتى أدخل الجامعة وأدرس أربع سنوات، وأنا واثق من أنني سأحصل على شهادتي في وقت قصير، ثمّ أنتقل للدراسة العليا في مجال الدراسات الدولية، وأحصل على عمل في

واشنطن، وألتقي بفتاة سودانية ستصبح طالبة في أمريكا أيضاً، وسيتودد أحدنا إلى الآخر ثم نتزوّج ونشكّل أسرة، أسرة بسيطة مؤلفة من ثلاثة أطفال يغمرها حبّ لا حدود له. وستوّفر لنا أمريكا، بطريقتها، بيتاً فيه زجاج وشلالات وصحون مليئة بالبرتقال البراق توضع على طاولات نظيفة.

كان الرجل الضائع لا يزال يتكلم، لكن أحد الشبان الذي كان معي في الطائرة من كاكوما لم يعد يحتمل كلام الرجل العجوز.

- لكنّك ذاهب إلى هناك أنت أيضاً أيها الأحمق! صرخ.

كان هذا هو الشيء الغريب في هذا الرجل الضائع: فقد كان ذاهباً إلى أمريكا أيضاً.

كنا قد سمعنا عن الهجمات على السفارات في تانزانيا ونيروبي، ومع مرور الأيام، أصبح العالم متيقناً أكثر بأن نفس الرجل هو الذي نفذّ هذه العمليات. فعندما لم تُشَن هجمات أخرى في الأيام التالية، أدركنا أنّ أمريكا ليست في حالة حرب، وأنّها آمنة نسبياً وأننا نستطيع أن نذهب إليها. فقرّرنا أنّنا نريد أن نذهب إليها أكثر من أي وقت مضى.

بعد تسعة أيام، نظّمتُ فريقاً من أربعة شبان، سودانيين وصوماليين، للمطالبة بإنقاذنا. فطلبت اجتماعاً مع ممثل المنظمة الدولية للهجرة كنت قد رأيته يدخل ويخرج من غول كلّ بضعة أيّام. وبشكل لا يصدق، وافق على أن يلتقي بنا.

كان رجلاً من جنوب أفريقيا من جنس مختلط. عندما وصل، قبل أن يفتح فمه ويقول شيئاً، بدأت أتكلم. سنحارب! قلت. سنفعل كلّ ما يُطلب منّا لو أرسلتمونا إلى أمريكا. لقد انتظرنا طويلاً! انتظرنا عشرين سنة لنعرف فقط أن شيئاً جيداً سيحدث! هل يمكنك أن تتخيّل ذلك؟ لا تحرمنا من هذا. يجب ألاّ تحرمنا من هذه الفرصة. سنفعل أيّ شيء، كلّ شيء، قلت. نظر إليّ رفاقي بحذر، وساورني الشكّ في أن كلامي كان مسيئاً أكثر مما كان مفيداً. كنت متعباً جداً وربما بدا أنني يائس من صوتي.

خرج الرجل من الغرفة، ولم يقل شيئاً. ترك قطعة من الورق عليها شعار المنظمة الدولية للهجرة كتبَ عليها: ستستمر الرحلات الجوية عندما يعاد فتح المطارات في الولايات المتّحدة. وفي أساطير غول، أصبحت الكلمة التي قلتها هي العامل الحاسم في استئناف الرحلات. واحتفلوا بي لأيام عدة، مهما أنكرت مسؤوليتي عن ذلك.

بدأت الأسماء تَعلَق في ١٩ أيلول (سبتمبر). ففي كلّ يوم، بدأت تَعلَق قائمة بأسماء عشرين لاجئاً على النافذة بجانب جهاز التلفزيون، وكانوا يُنقلون بعد ظهر اليوم نفسه إلى المطار. في اليوم الأول، حزم الرجال الذين وردت أسماؤهم في القائمة، أغراضهم غير مصدّقين واستقلّوا الحافلة عند الساعة الثانية والنصف. وغادرت الحافلة، وهكذا كان. وأصبحنا نعرف، نحن الذين بقينا، أن العملية أصبحت بسيطة وسريعة. وعندما لم ترجع المجموعات الأولى الثلاث، أصبحنا شبه متأكّدين بأننا ما إن نصعد إلى الحافلة بعد ظهر أحد الأيام حتى سنغادر غول إلى الأبد.

لم أشعر بهذا القدر من السعادة عندما بدأت أرى السودانيين وهم يذهبون ولا يعودون. وبدأ العدد يقلّ كلّ يوم - في البداية ٣٠٠، ثمّ ٢٦٠، ثمّ ٢٢٠. وفي اليوم الرابع، وضعوني في غرفة جديدة، غرفة صغيرة فيها نافذة واحدة عالية عليها قضبان حديدية. وأصبح لديّ سرير خاص بي لكن كان يشاركني في الغرفة أربعة عشر شاباً آخر. وفي كلّ ليلة كنت أعرف أنّني لن أغادر في اليوم التالي، فكنت أنام جيداً، أسمع صوت الطائرات وهي تغادر نيروبي.

في اليوم الخامس ظهر اسمي على الصفحة الملصقة على النافذة. سأستقلّ الحافلة بعد ظهر يوم غد. في تلك الليلة استلقيت في السرير ورحت أحدّق في الشباب الآخرين الموجودين في الغرفة، كلّهم ظلال، عدد قليل منهم فقط كان نائماً. كان نصفهم سيغادر معي يوم غد، أما الذين سيبقون فلن يغمض لهم جفن. فقد تغيّر المزاج كثيراً عما كان عليه قبل ثمانية أيام. فقد أصبح السودانيون الآن، بحسب معرفتنا، منتشرين في جميع أنحاء العالم، وقد تقطّعت بهم السبل؛ ونُقل بعض الذين كانوا سيُنقلون إلى بلد معين إلى بلد آخر وأقاموا فيه، إلى أجل غير مسمى. لكنّنا سنسافر إلى كلّ ذلك يوم غد. لم يكن أحد منّا متيقناً من أننا سنرى الأرض مرة أخرى. فماذا يعني أن تسافر من أفريقيا، وتعبر المحيط في طائرة متّجهة إلى المدينة التي اخترقت فيها الطائرات المباني؟ لم يكن الأمر يتعلق فقط ببلد في حالة حرب. فقد كان علينا أن نترك كلّ شيء نعرفه، أو كنّا نظن أنّنا نعرفه؛ وكان كلّ واحد منّا يحمل حقيبة صغيرة واحدة فيها كلّ مقتنياته، ولا توجد معنا نقود على الإطلاق، ولا توجد لدينا أسرة في المكان الذي سنذهب إليه. كانت هذه الرحلة أشبه بعمل طائش.

كان الظلام يخيّم على غرفتنا الصغيرة، المروحة في السقف لا تعمل. استدار أصغرنا سناً، شابّ يدعى بنجامين، إلى الحائط، مستيقظاً وهو يرتجف.

- لا تخف، قلت له.

بما أنني أكبر الصبية في المجموعة سنّاً، فقد أحسست بأن من واجبي أن أهدئ من روعه.

- هل هذا فالانتينو؟ قال.

- نعم. لا تخف يا بنجامين. الليلة أو غداً.

دمدم الرجال في الغرفة معبرين عن موافقتهم. نزلت من سريري إلى سرير بنجامين. الآن بعد أن رأيته عن قرب شديد، لم يكن يتجاوز الثانية عشرة من عمره.

- لقد رأينا للتو أكثر من معظم أسلافنا. وحتى لو اختفينا في أثناء رحلتنا بالجو إلى المدينة التي سنذهب إليها، يا بنجامين، فيجب أن نكون شاكرين. هل تتذكّر الرحلة بالطائرة إلى نيروبي؟ كان علينا أن نغلق جميع النوافذ لأن النور كان ساطعاً. لقد رأينا الأرض من السماء، رأينا أضواء نيروبي وجميع شعوب العالم يتمشّون في شوارعها. إن هذا الشيء هو أكثر ما يمكن لأسلافنا أن يحلموا به.

تباطأ تنفّس بنجامين، ووافق الرجال في الغرفة على أنّ هذا صحيحاً. تشجّعت وواصلت توجيه كلامي إلى بنجامين وإلى ظلال هؤلاء الشبان. قلت إن الأخطاء التي ارتكبوها الدينكا قبلنا كانت أخطاء ناجمة عن الخجل، لأنهم اختاروا ما كان متاحاً أمامهم وفضلّوه على ما يمكن أن يكون. وقلت له إنه تمت معاقبة شعبنا طوال قرون بسبب الأخطاء التي ارتكبناها، لكننا مُنحنا الآن فرصة لتصحيح كلّ ذلك. لقد اختُبرنا كما لم نُختبر من قبل. فقد أُرسلنا إلى المجهول ذات يوم، ثم مرات ومرات. لقد ألقي بنا بهذه الطريقة أو تلك، مثل حبات المطر في وسط ريح عاصفة مجنونة.

- لكنّنا لم نعد مطراً، قلت له، - لم نعد بذوراً. إننا رجال. الآن نستطيع أن نقف ونقرّر. هذه أول فرصة لنا لاختيار المجهول. إني فخور جداً بكلّ شيء فعلناه، يا إخوتي، وإذا كنا محظوظين بما يكفي لنطير ونهبط ثانية في مكان جديد، يجب أن نستمرّ. ومهما بدا الأمر مستحيلاً فيجب أن نواصل السير. ونعم، كانت هناك معاناة، أما الآن فإننا سنعيش في نعمة. كانت هناك معاناة، أما الآن فسيكون هناك صفاء. لم يُختبر أحد كما اختُبرنا، والآن هذه هي جائزتنا، سواء أكانت السماء أو شيئاً أقل من ذلك.

عندما أنهيت كلامي، بدا بنجامين مسروراً، وانبعثت كلمات تعبر عن الموافقة على ما قلته في العتمة من جميع الشباب في الغرفة. عدت وصعدت إلى

سريري لكني شعرت كما لو كنت أطوف فوقه. أحسست بأن تياراً كهربائياً يسري في جسدي . كان صدري يؤلمني ورأسي يخفق بالإمكانيات العظيمة اللا محدودة التي سيأتي بها الصباح، وعندما جاء، كانت السماء قد غُسلت وأصبحت بيضاء، وأصبح كلّ شيء جديداً، ولم يغمض لي جفن على الإطلاق.

(٢٦)

عندما تنتهي فترة عملي الصباحية في نادي القرن، سأغادر، وأنا أعرف أنني سأغادر هذا العمل وسأغادر أتلانتا بلا رجعة. أخرج من النادي. كان يوماً عادياً. أعرف أنّني لن أشتاق إلى السماء التي تحرس هذه المدينة. كانت السماوات هنا مثل مطرقة بالنسبة لي، وسأنتقل، حالما أستطيع، إلى مكان أكثر هدوءاً. مكان أستطيع أن أمضي فيه وقتاً للتفكير. يجب أن أضع خططاً جديدة دون أن تكون عيون هذه الغيوم مسلطة عليّ.

لم تعد خططي الآن واضحة، لكنّي لا أعرف أموراً محددة يجب أن أفعلها أو لا أفعلها. فلن أعود إلى تصنيف عينات الأقمشة. ولن أسحب أجهزة تلفزيون أو أكنس الأشرطة الملونة من فوق الأرضية في محل مخصص لبيع هدايا عيد الميلاد. ولن أذبح حيوانات في نبراسكا أو في كانساس. أنا لست ضدّ هذه الأعمال لأنني زاولت معظمها. لكنني لن أعود إلى هذا النوع من العمل. سأظل أصعد. سأحاول أن أفعل بشكل أفضل. لن أكون عبئاً على الذين ساعدوني حتى الآن. سأكون ممتناً دائماً للمتع التي تمتّعت بها، والمباهج التي سأنالها. سأستغلّ الفرص عندما تأتي، لكني في الوقت نفسه، لن أثق بالآخرين بهذه السهولة. سأتأكد من الشخص الذي يطرق باب بيتي قبل أن أفتحه. سأحاول أن أكون عنيفاً. سأتشاجر عند الضرورة. سأكون مستعداً للقتال. لن أبتسم تلقائياً لكلّ شخص أراه. سأعيش حياة طفل الرب الطيب، وسأغفر له كلّما أودى بحياة شخص آخر أحبّه. سأغفر له وسأحاول أن أفهم الخطط التي يرسمها لي، لن أرأف بنفسي.

في بداية هذا اليوم العادي، سأقود سيارتي إلى البيت أولاً. وسنغطّي أنا وأتشور أتشور الأرضية التي فيها بقعة دمي بوضع طاولة فوقها نضع عليها نبتة أو مصباحاً، وسنستبدل الأشياء التي سُرقت. سأخبر أتشور أتشور بأنني سأترك الشقّة، وسيتفهم موقفي. لن يأخذ وقتاً طويلاً حتى يجد شريكاً آخر في الغرفة. فهناك الكثير من إخوتي في أتلانتا الذين سيقدّرون تلك الشقّة، ولن يكترث الشخص الذي سيحلّ محلي بما حدث في البيت.

اليوم لديّ خيارات. فهناك صديق لي أنجب طفلاً جديداً. إنه واحد من الدومينيك، في الواقع، ويعيش مع زوجته في ماكون. قد أذهب إلى هناك، وأقدّم له التحيات وهدية. يمكنني أن أذهب إلى ماكون، وأحمل المولود الجديد قليلاً، وإذا تملكتني القوة، يمكنني أن أذهب بسيارتي لزيارة فيل وستايسي والتوأم في فلوريدا. سيكون المحيط بارداً في هذا الوقت من

السنة لكنّي سأحاول أن أسبح، أو يمكنني أن أذهب في الاتجاه الآخر؟ يمكنني أن أقود السيارة طوال النهار والليل لألتقي بموسى في سياتل، أقيم معه ثم نتمشى معاً في النهاية. لديّ رغبة شديدة في أن أمشي مع موسى مرة أخرى، وسأفعل ذلك، أعده بأنّني سأفعل ذلك، إلاّ إذا كان يريد أن يمشي حافياً. هل يمكن أن يفعل شيئاً كهذا، يمشي حافياً حتى أريزونا لتوجيه الانتباه؟ في هذه الحالة، لن أشارك موسى، لأن هذا سيكون ضرباً من الجنون.

أنظر عبر سقوف السيارات وإلى الحقل الممتد أمامي. أغمض عيني في مواجهة السماء البيضاء وأرى صفرة شمس ساقطة. أستطيع أن أراها الآن بوضوح، تتحرّك بسرعة شديدة إلى الأسفل نحوي، تمشي مشيتها الطويلة الأنيقة. ينبغي أن أكون في البيت الآن. يبدو من الخطأ أنني لست في البيت معها. يمكنني أن أترك هذا الصراع ورائي هنا وأكون معها، ومع أبي وفي مهد العائلة الواسعة التي لديّ في مايال باي. قد لا يكون البقاء هنا، والضغط الذي يحدثه الألم في رأسي، قدري. منذ سنوات أقسمت بأن أعود إلى بلدتي، لكن ليس قبل أن أنهي الدراسة في الجامعة. رأيت نفسي أخطو خارج طائرة، أرتدي بدلة، أحمل حقيبة، شهادتي مدفونة في داخلها، وإلى عناق بلدتي وعائلتي. أخبرت أبي بهذه الخطة أيضاً، وأحبّها كثيراً، مع أنه أصرّ على أن أنتظر حتى يستعيد هو أيضاً الأرض من تحته. فلم يشأ أن أراه ثانية حتى يعيد بناء تجارته، وليس قبل أن يعيد بناء مجمّعنا كما كان عندما جئت إلى هذا العالم.

أعتقد أن هذا اليوم سيأتي. مع أنه استغرق وقتاً أطول مما كان متوقّعاً.

لكن مهما فعلت، فإني سأجد طريقة للعيش، وسأحكي قصصي هذه. حكيت لكلّ من صادفته عن هذه الأيام الصعبة الأخيرة، وكلّ من دخل إلى هذا النادي في ساعات الصباح الفظيعة تلك، لأن أي شيء آخر سيكون أقل من إنساني. أحكي لهؤلاء الناس، وأحكي لكم لأنني لا أستطيع أن لا أفعل ذلك، لأنه يمنحني قوّة، قوّة لا تكاد تصدّق، لتعرفوا أنّكم هناك. إني أبتغي عيونكم، آذانكم، الفضاء القابل للانهيار بيننا. كم نحن مباركون لأننا معاً؟ فأنا حيّ وأنتم أحياء، لذلك علينا أن نملأ الهواء بكلماتنا. سأملأه اليوم، وغداً، وفي كلّ يوم حتى أعود إلى الله. سأحكي قصصاً للأشخاص الذين سيصغون وللذين لا يريدون أن يستمعوا، للأشخاص الذين يسعون إليّ والذين يهربون مني. وطوال الوقت سأعرف بأنني موجود هناك. كيف يمكنني أن أدّعي بأنّكم غير موجودين؟ سيكون ذلك مستحيلاً كما لو أنكم تدّعون بأنني غير موجود.

كلمة ختامية بقلم نيكولاس د. كريستوف

إن الحكاية التي قرأتها للتو ما هي إلاّ شهادة على الشجاعة الإنسانية، والمرونة، والرؤية، لكن بعد أن تنتهي من قراءة الكتاب، تزداد القصّة إلهاماً. فقد قرّر دايف إيقرز وفالانتينو دنغ تخصيص ريع حقوق المؤلف من هذا الكتاب لإنشاء أول مدرسة ثانوية في مايال باي، مسقط رأس فالانتينو. وكان بناء مدرسة كهذه عملية تكاد تكون مستحيلة، لكن كما رأيتم، فقد أنجز فالانتينو المستحيل بسهولة.

أنا صحفي كنت قد التقيت بفالانتينو قبيل صدور هذا الكتاب، عندما عقد حلقة نقاش أعلن فيها أن إيرادات هذا الكتاب ستُخصص لبناء المدرسة. لقد أثار حلمه هذا شجوني، لأنه اكتسب الحقّ في أن يقيم في الولايات المتّحدة للسنوات الستّمائة القادمة، ومع ذلك فقد أصرّ على أن يبني مدرسة ثانوية في مكان ناء - خلال حرب أهلية طاحنة في السودان أودت بحياة مليونيْ شخص، أي أكثر من جميع الأميركيين الذي قتلوا في كلّ الحروب في التاريخ الأمريكي كله.

وفي عام ٢٠٠٩ ذهبت إلى مايال باي عندما افتتح فالانتينو مدرسته. كان ذلك حقاً إنجاز عظيم، لأنه كان يتعين نقل التجهيزات والمعدات في طرق ودروب غير معبّدة تذوب وتختفي كلما هطلت أمطار. وصُنع الطوب الذي بنيت به المدرسة في القرية نفسها، أما الأجهزة فقد جاءت من أوغندا، عبر غابة يستولي عليها جوزيف كوني قائد جماعة جيش الرب للمقاومة الإجرامي. ولم تكن تتوفر في مايال باي كهرباء أو مياه جارية، فتعين تشغيل أجهزة الكمبيوتر بالطاقة الشمسية بواسطة ألواح شمسية. وقد التقيت بأستاذ العلوم في المدرسة الذي كان في غاية السعادة عندما فتح أحد الصناديق ووجد فيه مجهراً، لأنه لم ير أو يلمس مجهراً في حياته.

وبما أنها كانت أفضل مدرسة على مسافة آلاف الأميال المربّعة، فقد كان الطلاب يقصدونها ويسافرون عدّة أيام ليتقدموا بطلباتهم للتسجيل فيها. وكان فالانتينو يصرّ على أنّ يكون نصف طلاب المدرسة من الفتيات لأنه يرى أنّ تعليم الفتيات هو العامل الرئيسي الذي يغيّر المجتمع، إلا أنه اتضح أن هذا أمراً مستحيلاً، لأن احتمالية أن تلتحق فتاة في جنوب السودان بالمدرسة الثانوية يقلل من تعرّضها للاغتصاب أو للوفاة في أثناء الولادة، وفي ذلك الحين، كان خمسمائة فتاة فقط في جنوب السودان يكملن المرحلة الابتدائية في كلّ عام. «حتى الآن، تسجّلت أربع عشرة فتاة»، قال لي فالانتينو في

زيارتي الأولى تلك، «لكنهن سرعان ما يعدن إلى بيوتهن لأنه يتعين عليهن رعاية أشقائهن، وجمع الحطب، وجلب الماء. لذلك فأنا قلق لأنهن لا يتعلّمن أشياء كثيرة». وبغية التغلب على هذه المشكلة، فقد أقام فالانتينو مسكناً خاصاً للفتيات، فبدأ عددهن يزداد شيئاً فشيئاً. وأصبح عدد الفتيات المقيمات في المدرسة حالياً أكثر من عددهن في أيّ مدرسة في البلد برمته.

ولفترة من الزمن، سارت الأمور بيسر وسهولة. وعندما عمّ السلام جنوب السودان، أصبح أحدث بلد في العالم في ٢٠١١، وفي زيارتي الثانية، كانت المدرسة تعمل بكامل طاقتها، وأصبح للمدرسة العديد من المنافسين (بعضهم أشخاص بالغون لم ينقطعوا عن الدراسة) يتنافسون على ١٥٠ مقعداً للتسجيل كطلبة جدد في الصف التاسع. وتمثّل تحدي فالانتينو في التهرب من كبار المسؤولين الحكوميين الذين كانوا يلحّون على تسجيل أبنائهم (وأوضح فالانتينو بأن القبول في المدرسة يعتمد كليّاً على درجات الاختبار، باستثناء اعتبار خاصّ يمُنح للأيتام، ولم يكن كبار المسؤولين مستعدين لأن يموتوا ليسجلوا أطفالهم في المدرسة). وجاء معلمون متطوعون من جميع أنحاء العالم على حسابهم الخاص، وذُهلوا من حماسة الطلاب وإقبالهم على التعلّم. وعندما كان هؤلاء المعلمون يعودون إلى بلدانهم، كان الطلاب يشكرونهم بتقدير كبير ويجهشون في البكاء أحياناً لأنهم سيغادرونهم.

ولم يكن العاملون الآخرون في المدرسة أشخاصاً عاديين أيضاً. فقد كانت طاهية المدرسة، أتشول مايول غواتش، قد اختُطفت على يد تجّار الرقيق في سنة ١٩٨٦، عندما لم تكن تتجاوز السابعة من العمر، وعاشت في شمال السودان قرابة عقدين من الزمن قبل أن تتمكن من الهرب. وبذل فالانتينو كل ما بوسعه ليجعل المدرسة متعددة الإثنيات، لتضم أيضاً الجماعات العرقية المنافسة، بل حتى الطلاب العرب المسلمين المرتبطين بالقبائل في الشمال التي شارك بعضها في شن هجمات على الجنوب أثناء الحرب الأهلية.
ويشارك بعض الطلبة في مدرسته في مشاريع خدمات عامة، من قبيل بناء أكواخ للنازحين، أو تعليم الأطفال الصغار، وهو يركّز على إعداد قادة يكونون قادرين على بناء بلد مسالم ومزدهر في المستقبل.

قد يكون من السخافة أن يقوم صحفي يقوم بتغطّية العالم برحلات متكررة إلى مدرسة واحدة كهذه المدرسة، لكنّي ما زلت أعود لزيارتها، لأن معظم المواضيع التي غطّيتها في السودان وفي جنوب السودان تثير الكآبة: إبادة جماعية في دارفور، وتفجيرات عشوائية في جبال النوبة، ومجاعات، وجرائم ضدّ الإنسانية في مستنقعات جنوب السودان، واستشراء الفساد في كل مكان. وبخلاف كلّ ذلك، هناك فالانتينو الذي يكافح من أجل بناء بلده لا

من أجل نهبها. وأصبحت المدرسة الثانوية المجّانية الأولى في جنوب السودان التي تضم ثمانية عشر مبنى وبرنامجاً تعليمياً مهنياً شاملاً لكفالة أن يجد الطلاب وظائف بعد تخرجهم. وعندما أزور مدرسة فالانتينو، يغمرني دائماً شعور أفضل تجاه الإنسانية.

وعلى الرغم من ذلك فإن هذه المدرسة ليست جزيرة، فقد تأثّرت باتجاهات مؤسفة كبيرة في جنوب السودان، شملت تجدد أعمال القتال، وارتكاب المجازر، وانتشار المجاعات على نحو متزايد (أعلنت الأمم المتّحدة عن حدوث مجاعة في البلد في عام ٢٠١٧، وهي أول مجاعة تحدث في العالم منذ خمس سنوات). وارتفعت تكاليف الغذاء كثيراً، وتفاقمت المنافسات العرقية، وحذّرت الأمم المتّحدة من إمكانية أن ينزلق البلد إلى هاوية الإبادة الجماعية. وفي زيارة إلى مايال باي وإلى بلدة قريبة منها في عام ٢٠١٥، رأيت أناساً يتساقطون من شدة الجوع وقرويون يموتون جوعاً. وغادر المعلّمون المتطوّعون الأجانب بسبب المخاوف الأمنية المتزايدة، وانخفض الدخل من ريع حقوق هذا الكتاب. وعلى الرغم من ذلك، فقد واصل فالانتينو عمله، حتى بعد أن تعرّض شخصياً لهجوم جسدي من قبل عصابة كان قد أهانها بطريقة ما.

إن ثلث عدد الطلبة في مدرسته الآن هم من الإناث، لأن فالانتينو يقبل كل فتاة تتقدم للدراسة في المدرسة، على الرغم من أن الفتيات يتعرضن لمشاكل كثيرة. فقد تعين طرد أحد المعلّمين لأنه حاول التحرش بإحداهن. وقالت لي إحدى الطالبات في الصف العاشر، اسمها سوزانا، إن أحد الخاطبين قدّم لوالديها خمساً وعشرين بقرة كمهر، وهي تخشى أن تعود إلى البيت ويزوجّها والداها قسراً. وقالت إنها عازمة على إنهاء تعليمها وتريد أن تصبح طبيبة، وترى أنها إذا ظلت في المدرسة خلال فترات العطل، فإن عائلتها لن تتمكن من إخراجها من المدرسة وإرغامها على الزواج. وفي غضون ذلك، ومع ارتفاع أسعار المواد الغذائية، يساهم الطلاب في زراعة طعامهم في حديقة تبلغ مساحتها فدانين ونصف الفدان - وهم يحذرون من ثعبان الكوبرا ناشر البصاق.

إني معجب أيما إعجاب بهذا المشروع. ولا يعتبر دايف إيقرز تبرّعه بحقوقه بريع الكتاب مسألة هامة من أجل بناء هذه المدرسة، لكنّه في حقيقة الأمر تبرّع مثير للإعجاب والدهشة: فالمؤلفون الآخرون يتبرّعون عادة بكتاب أو بكتابين، بينما تبرّع دايف بمدرسة. ويبدو أن فالانتينو ألقى بنفسه أحياناً في تضحية عبثية وخطيرة بالذات (فهو لا يحبّ أن يتحدّث عمّا يفتقده في أمريكا، لكنّه اعترف لي أخيراً بأنّه يحلم بطبق دجاج تشيميشانغ). وهناك

جميع القرّاء الذين، عند شراء كلّ نسخة من «ما هو الـ ماذا» فهم يساعدون في بناء المدرسة. فتبرّع كثيرون آخرون أيضاً لدعم المدرسة على الموقع www.vadfoundation.org. وفي هذا الزمن، بدأ العديد من الأمريكيين والأوربيين ينظرون إلى الداخل، وأصبحوا يتعلقون بالقومية أكثر، وأصبح ارتيابهم باللاجئين أو القول إننا قبل أن نفكّر بالبلدان الأخرى، يجب أن نحلّ أولاً المشاكل المنتشرة في فناء بيتنا. وفي مدرسة فالانتينو، أرى الترياق لهذا الرأي: التذكير بأن ما يهم أكثر ليس لون بشرتنا، أو لون جواز سفرنا، وإنما إنسانيتنا المشتركة.

لعلي يجب أن أعترف بذلك، لكن كانت تساورني أحياناً بعض الشكوك حول هذا المشروع. هل ستبقى المدرسة إذا انهار جنوب السودان، وأصبح دولة فاشلة وانتشرت أعمال الإبادة الجماعية؟ مع أن الكثير من الرجال الذين نهبوا البلد هم من فئة المتعلمين، لذلك يبدو أن التعليم ليس هو الضمان للمدنية أو ممارسة الحكمة. لقد أثرت هذه الأسئلة مع فالانتينو في زيارتي الأخيرة. كان الوقت مساء، وكانت بنات آوى تعوي وتنبح في الغابة، والبعوض الذي يسبب الملاريا ينقضّ علينا، وكان فالانتينو يدرك كلّ هذه الأخطار - لكنه على الرغم من ذلك، فإنه يشعر بالاطمئنان والتفاؤل.

فقد قال لي إنه عندما كان في مخيّم اللاجئين يتقدّم بطلب للسفر إلى أمريكا، عقد حلفاً مع الله: إذا تركتني أذهب إلى أمريكا، فإني سأستخدم الصلات التي سأقيمها لمساعدة بلدي. وعندما سافر إلى الولايات المتّحدة، بدأ يبحث عن أنجع السبل لمساعدة بلده، وقال: «كنت أبحث عن حلّ، وأظن أن الحلّ يكمن في التعليم».

وأضاف، «إن التعليم ليس مثالياً، لكنه أفضل أداة يمكن أن نحدث تغييراً من خلالها. إنها أفضل قوة لمواجهة السلاح. وبما أنه لم تتوفر للجميع هذه الامتيازات التي أمتلكها، فإني أشعر بأنني يجب ألاّ أخيب أحداً. لا توجد طريقة أفضل من المشاركة في النعم الأمريكية».

قبل أن أُنهي زيارتي الأخيرة، زرت بعض الطلاب وتبادلنا بعض الأحاديث. فقالت لي الفتاة المسؤولة، فيكتوريا كواتش، بأنها تطمح لأن تصبح عضواً في البرلمان. ويطمح دنيس توليابا الذي نزحت عائلته في الحرب، لأن يصبح محامياً. وتأمل ماري كووم التي قُتل أبوها في الحرب والتي رفضت أربعة عروض للزواج بأن تصبح طبيبة. «إن الفتيان والفتيات متساوون»، قالت لي ماري بحزم - ثم عدّلت ذلك لتوضح بأن الفتيات أكثر مساواة بقليل، وقالت: «أستطيع أن أقوم بأشياء أفضل من أيّ صبي». إني أرى في هؤلاء الشباب

الطموحين، انعكاساً لتأثير فالانتينو على أن التعليم هو أفضل سلاح لدحر الفقر، والقبليّة، وسلاح الكلاشينكوف. فقد تمكن فالانتينو في هذه المدرسة من إعداد المزيد من فالينتينو، وعلى الرغم من جميع العقبات، فإني أنحو إلى الإيمان به وبمدرسته، وبقوّة الأمل. كانت رحلته الطويلة للهرب «كأحد الأطفال السودانيين الضائعين» استثنائية، لكنّه يقوم حالياً برحلة بناء وتقديم -بمساعدة القرّاء - التي يمكن أن تقدم نظرة أفضل على القدرة الإنسانية للشجاعة والتحمل والرؤية.

كانون الثاني (يناير) ٢٠١٨

الشكر

يودّ المؤلف وفالانتينو أتشاك دنغ أن يتقدما بالشكر إلى الأشخاص والمنظمات التالية لدعمهم وتحليلهم وتشجيعهم، والنصوص التالية للإلهام والتوجيه: بول دنغ بول؛ دنغ نيبيك آرو، أمير جيل نيانغ، آدوت كوول، آكل لياي، فاتوما عثمان، أتاك مايول، أدنغ غارانغ نجونغ، آماث دوت، أغويل آباث، أمين دنغ وأين ر. لونيو؛ وكلّ من آروس، أديمس، غورتانغس، أتشاكس، دنغ س، بيولس، أغوودس، أكلس، أدوتس، جورس، نيغورس، نيبيكس، أهوكس، وماينس؛ ماري وليامز؛ جون بريندرجاستم من مجموعة الأزمة الدولية؛ سايمون كووت؛ مالوال جينغ؛ إسحاق مابيور؛ تيتو أتشاك؛ أكون آرياث؛ كويك مزي؛ وليام كوول باك؛ دنغ كور؛ ليك أكوت؛ مانوت كون؛ تونغ أتشويل؛ مابيور مالك؛ فرانسيس بيول بول؛ مونينهيال دوت؛ أيين ولوال دنغ؛ لوال دو ماراتش؛ بول دنغ ؛ لينو ديادي؛ لواتش لواتش؛ جيمس أليك غارانغ؛ وليام كولونغ بيوث؛ دنغ كولومبوس؛ يي مالك؛ غارانغ كينيانغ؛ دنغ متوتو؛ نهيال مايكر؛ مابوتش جيل؛ جيمس دوت أكوت؛ كينيانغ دووك؛ جوزيف دنغ أكون؛ كاثرين كوي؛ مايكر ذيونغ مال؛ أتشيك نغيث؛ مونيبور ماييك؛ مادور ماجوك؛ مدام زيرو؛ غاتكير ماشار؛ سام روت؛ أكوول نيول؛ أجوك جينغ؛ ماتر ماشار؛ أنجوك أجوث أتيم؛ أتشول دنغ؛ آن إيتو؛ لوال ثوك؛ دومينيك دوت ماثيانغ؛ إسحاق تشول أتشويل؛ أنجيلو أغواك آرو؛ أواك كوندوك؛ أواك رينغ؛ ديفيد نيول؛ وليام ماتشوك؛ سيسيمايو فاكي هنري؛ أنجيلو أوكونغو؛ أنتوني أوبور؛ فريو ديميليش؛ فايث أوينو؛ جورج تشيمكان؛ هانينغتون نياموري؛ ثوتبانغ؛ ماتشين لوول؛ أبراهام تيلار؛ مانغور أندرو؛ كومتشينغ؛ كون أليز؛ غارانغ ديل؛ غارانغ كووت؛ ألويل أكوك؛ يار ماكوي؛ أدنغ مالوك؛ جميع الرفاق من جيش التحرير الشعبي السوداني؛ جايسون ماتيس في نيروبي؛ بيتر موزينسكي في نوبا؛ الرؤساء ريني ريني وبيتر دوت أديم في مايال باي؛ دانيال غارانغ دنغ أتوتديت؛ ديردر أوتول وجوزيف كالالو من CONCERN؛ العمّ جون دوت بيول؛ أوينغ اليو وجيسما همّاد؛ جيفري بيتون؛ وليام أني مايب؛ سايمون وول ماوين؛ مالونغ أوان؛ أكاران ناباكيرا، فيرونيكا مبوغوا، جورج أوماندي، موريس أونيانغو، أوغستس أومالا، جاكسون كاروغو، جيليان كيبلاغات، توماس أغوو كور، خاموس فيليب بولينو، كوسماس شاندا (مفوضية شؤون اللاجئين التابعة للأمم المتحدة) في كاكوما؛ جيني، روبرت وويزلي وآن وويز فرنش؛ هاربر، كولتون، ستايسي وقيل مايس؛ بيلي، جيمس، تيدي، سوفيا، ديبورا والمرحوم روبرت نيومير؛ طلاب والهيئة التدريسية في معهد أليغيني؛ بارب بيرش، إلي هورويز، جوردان باس، أندرو ليلند، هيدي ميريديث، أنجيلا

بيتريلا؛ ماك بارنيت، جيم فينغال، وجيس بنجامين؛ أيليت والدمان؛ ساره فويل؛ براين مكجين؛ مارتي أشر، جينيفر جاكسون، سلون كروزلي، وجميع من في فينتيج؛ سايمون بروسير، جون ماكينسون، جوليت ميتشيل، فرانسيسكا ماين، كريس ينغ، ريبيكا كوليدج، غريج لارسون، ميشيل كوينت، آدم كريفمان، أوبليو جينكنز، مايبيل ويلسون، إليزابيث كيريس، وجميع من في دار بينكوين؛ أميليا فيرني، أوسكار فان جيلدرين وجميع من في مؤسسة روتشيلد وباخ؛ جويسسيبي سترازيري وجميع من في مونادوري؛ أندرو وايلي؛ سالي ويلكوكس؛ ديبي كلين؛ ديفوراه لوتر؛ إيفاني توماس؛ بيتر فيري؛ كريستوفر أورام؛ إريكا لوبيز؛ بيتر أورنير؛ لالا، سوفيا، ستيفن وسوزان وفريد سابسويز؛ جين فوندا؛ دان موس؛ جين بيلثووس؛ راندي جريزل؛ غاري مان؛ الأميرة ساندرا سوان؛ بيغ جيمس؛ سوزان بلاك؛ بيجي قلاناغان؛ جيري، برادفورد، وجيسيكا موريس؛ جون خوزيه؛ نويل وداريس مكولوغ؛ جيرمان إينوك؛ كيلي مكغواير؛ دو كالدروود؛ أندرو كولينس؛ جوستن وليندساي سبرينغير؛ لوك ساندلر؛ روبرت لاير؛ أبرامام آرفوليتش؛ تيفاني ديبارتولو وسكوت شوماكير؛ جيمس ج. كيميل؛ رونالد بلاك؛ جيمس غليك وسينثيا كروزسين؛ «حرب الرؤى» لفرانسيس دنغ؛ «الحرب والعبودية في السودان» لجوك مادوت جوك؛ غايل سميث وجميع من في «المركز من أجل التقدّم الأمريكي»؛ و»حرب إيما» لديبورا سكروجينز؛ و «أفعال الإيمان» لفيليب كابوتو؛ ولجنة الإنقاذ الدولية؛ ومنظمة أنقذوا الأطفال؛ ومجموعة الأزمة الدولية؛ والصليب الأحمر؛ و «مشكلة من الجحيم» لسامانثا باور؛ منظمة العفو الدولية؛ وهيومن رايتس ووتش؛ مانوتي بول؛ آن ويت؛ أندرو أوهاغان؛ كيفين فيني؛ نيكولاس كريستوف؛ «لقد صبّوا النار علينا من السماء» لبنسن دنغ، أليفونشن دنغ، بنجامين أجاك وجودي بيرنشتاين؛ ذييب أنغوي؛ «الدراسات العربية الفصلية»؛ مارثا سافيدرا، جامعة كاليفورنيا، بيركيلي، قسم الدراسات الأفريقية؛ «مرآة السودان»؛ SPLM Today.com;؛ السودان الشهرية؛ آخر الأنباء عن السودان؛ الأهرام الأسبوعي؛ اللاجئون الدوليون؛ السودان: الهويّات الوطنية المتصارعة بقلم آن موزيلي ليش؛ AllAfrica.com؛ صنع السلام وتنشئة الحياة بقلم جوليا أكير دواني؛ الأساس الجذري لحروب السودان الأهلية بقلم دوغلاس ه. جونسن؛ سياسات التحرير في جنوب السودان: وجهة نظر مطلّع بقلم بيتر أدوك نيابا. وإلى فيندیلا وتوف وبيل.

عن فالانتينو أتشاك دنغ

في عام ٢٠٠٦، غادر فالانتينو أتشاك دنغ أتلانتا ليبدأ تعليمه الجامعي، ليحصل على شهادة في الدراسات والدبلوماسية الدولية. وهو مؤسس مؤسسة فالانتينو أتشاك دنغ، التي توجه إليها الإيرادات الناجمة عن كتاب ما هو الـ «ماذا. ويتمثل هدف المؤسسة في زيادة الوصول إلى فرص التعليم للمتضرّرين من النزاعات في السودان. وفي أوائل ٢٠٠٨، عاد فالانتينو إلى مايال باي وأقام مركزاً تعليمياً يتكون من مدرسة ثانوية مؤلفة من إثني عشر صفاً، ومعهداً لتدريب المعلّمين، ومركزاً للموارد التعليمية والمهنية للنساء ومكتبة عامة. وبعد أن يتخرّج من الجامعة، يخطّط دينغ لمتابعة في أعمال المؤسسة بإنشاء مراكز مشابهة في أرجاء جنوب السودان ومساعدة الطلاب السودانيين في مساعيهم التعليمية في كافة أنحاء العالم.

www.valentinoachakdeng.org

عن دايف إيقرز

نشأ دايف إيقرز في ضواحي شيكاغو ودرس في جامعة إلينوي في أوربانا - شامبين. وهو محرّر McSweeney، وهي دار نشر مستقلة يقع مقرها في سان فرانسيسكو، تصدر كتباً، ومجلّة أدبية فصلية، والمجلة الشهرية «المؤمن»، وولفين (فيلم قصير على قرص مدمج كلّ ثلاثة أشهر)، وموقع يومي ساخر على الإنترنت. وفي عام ٢٠٠٢، افتتح إيقرز فالينسا ٨٢٦، وهو مختبر للكتابة والتعليم للشباب ويقع في حي ميشن في سان فرانسيس. ومنذ ذلك الحين افتتحت فروع لـ ٨٢٦ في بروكلين، وآن آربور، ولوس أنجلوس، وسياتل وشيكاغو وبوسطن. وفي كلّ سنة، يقوم إيقرز، بمساعدة طلابه في الثانوية، بتحرير «أفضل قراءات غير مقررة في المناهج الأمريكية»، وهي مجموعة من القصص والمقالات والمقالات الساخرة والصحافة. وفي عام ٢٠٠٤ ، شارك في تأسيس «صوت الشاهد»، وهي سلسلة من الكتب تستخدم التاريخ الشفهي للتنوير بأزمات حقوق الإنسان حول العالم. ويعيش مع عائلته في شمالي كاليفورنيا.

أعمال دايف إيقرز

الأعمال الروائية

Heroes of the Frontier

Your Fathers, Where Are They? And the Prophets, Do They Live Forever? The Circle

A Hologram for the King How We Are Hungry

!You Shall Know Our Velocity

nonfiction The Monk of Mokha Understanding the Sky Zeitoun

for young readers

The Wild Things

مذكرات

A Heartbreaking Work of Staggering Genius

كمحرر

Surviving Justice: America’s Wrongfully Convicted and Exonerated The Voice of Witness Reader: Ten Years of Amplifying Unheard Voices

Teachers Have It Easy: The Big Sacrifices and Small Salaries of America’s Teachers

The Better of McSweeney’s

كتب مرفقة بصور

This Bridge Will Not Be Gray